دراسة وثائقية للتاريخ الإسلامي ومصادره

من عهد بني أمية حتى الفتح العثماني لسورية ومصر

٤٠ - ٩٢٢هـ = ٦٦١ - ١٥١٦م

تأليف
محمد ماهر حمادة
دكتوراه في علم المكتبات
[illegible]
الرياض

مؤسسة الرسالة

دراسة وثقية
للتاريخ الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

دراسة وثقية للتاريخ الإسلامي

ومصادره

من عهد بني أمية حتى الفتح العثماني لسورية ومصر

٤٠ - ٩٢٢هـ = ٦٦١ - ١٥١٦م

تأليف

محمد ماهر حمادة

دكتور في علم المكتبات

أستاذ في جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية

الرياض

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي الأمين الذي بعثه الله رحمة للعالمين وبعد .

يسر المؤلف أن يقدم إلى المهتمين بالتاريخ الإسلامي بعامة، والمهتمين بالوثائق الإسلامية ودراستها بخاصة، هذا الكتاب الذي هو ثمرة اشتغال المؤلف بجمع مادة الوثائق الإسلامية من عهد بني أمية حتى الفتح العثماني لسورية ومصر، وقد تمكنـا بحمد الله وقوته وفضله، أن نصدر هذه الوثائق في سبعة أجزاء هي عبارة عن سلسلة تغطي جميع عهود التاريخ الإسلامي من عهد بني أمية حتى أوائل القرن العاشر هجري، وأسميناها سلسلة وثائق الإسلام. ولقد دأب المؤلف على أن يمهد للوثائق في كل جزء من الأجزاء السبعة بفصل تمهيدي هو تمهيد لازم للموضوع ودراسة للعهد كما يتراءى من خلال الوثائق المعروضة. كما وإن المؤلف درس دراسة اقتصادية وتقويمية مصادر الوثائق الإسلامية التي هي مصادر التاريخ الإسلامي. ولقد رأينا من المناسب ومن الأفضل أن نجمع هذه الفصول التمهيدية في كتاب مستقل بحيث تمكن الدارس والمثقف والمهتم بالموضوع أن يطلع على هذه الدراسات وهي في كتاب مستقل، فذلك أيسر وأفضل من الرجوع إلى الأجزاء السبعة التي تضم هذه الدراسات التمهيدية والوثائق نفسها .

ولقد شرح المؤلف خطته في كتبه سالفة الذكر، وهي خطة طويلة ولا حاجة لإعادة عرضها هنا، فمن أحب الاطلاع عليها فليرجع إلى الكتب السابقة.

ونحن لا ندعي الكمال أو استيفاء الموضوع حقه، فموضوع التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية أعظم وأضخم وأهم من أن يشملها كتاب واحد مهما ضخم أو جل. كذلك عرضنا هنا التاريخ الإسلامي من وجهة نظر وثقية لا تاريخية. وكلنا أمل وثقة في الله عز وجل أن ينفع بهذا الكتاب وأن ييسره للباحثين والدارسين وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم والله من وراء القصد.

المؤلف

محمد ماهر حمادة

دمشق في ١٣ شوال ١٤٠٣ هـ

٣ آب ١٩٨٣ م

العصر الأموي

٤٠ - ١٣٢ هـ

٦٦١ - ٧٥٠ م

أهمية الوثائق:

تعتبر الوثائق ودراستها ومحتوياتها ونقدها العمود الفقري للتاريخ ودراسته دراسة علمية موضوعية بحيث يعتبر القول القائل أن: لا تاريخ بدون وثائق قولاً صحيحاً إلى حد بعيد. والوثيقة، لغة: هي الشيء الموثق الذي يمكن الركون إليه والاعتماد على ما يحويه من معلومات؛ وهي مشتقة من مصدر الثقة والوثوق، وكلها كلمات توحي بالصدق والاعتماد على الشيء الموصوف به. والوثيقة، فنياً، صك يحوي معلومات تصدرها هيئة رسمية معترف بها ومعترف لها بالحق بإصدار مثل هذه الأشياء، وتحمل من السمات العائدة إلى تلك الهيئة ما يمكن الاطمئنان إلى صحة صدورها عن تلك الهيئة ويقطع دابر التزوير

هذا وقد درجت الدول والهيئات الرسمية الدولية، وحتى المحلية منها، في العصور الحديثة على الأقل، على الاحتفاظ بوثائقها في سجلات رسمية تحفظ في أماكن رسمية أنشئت لهذه الغاية هي دور الوثائق والمحفوظات. ولكنها في كثير من الأحيان تصدر نسخاً عن الوثائق الأصلية يمكن اعتبارها صحيحة وصورة طبق الأصل، وهذه النسخ التي تنشرها تلك الهيئات هي ما يتداوله الناس ويتدارسه الدارسون.

أنواع الوثائق وطرق نقدها :

والوثائق، من وجهة نظر تاريخية، قد تكون أشياء مصنوعة كالأواني الفخارية والأحجار المصنوعة والأسلحة... وقد تكون مواد مكتوبة أو مصورة كالنقوش الجدارية والصور واللوحات الجدارية وأوراق البردى المخطوطة والمخطوطات المعروفة والمواد المطبوعة.

وحتى يتأكد المؤرخ من أنه لم يخدع بالوثائق ومحتوياتها يجب عليه اخضاع الوثائق ومحتوياتها إلى النقد التاريخي الذي يستطيع أن يتأكد بواسطته من صلابة الأرض التي يبني عليها استنتاجاته. وهناك نوعان من النقد: النقد الخارجي: للوثيقة، والنقد الداخلي لها، أي نقد المادة ونقد المحتوى. أما النقد الخارجي فيتناول بالدراسة المواد التي سجلت عليها الوثيقة: نوع الورق، تاريخه، نوع الحبر، نوع القلم الذي كتب به الخط، نوع الخط والأخطاء التي ارتكبت أثناء الكتابة، العهد الذي يعود إليه الخط والورق والحبر... ويستطيع المؤلف والمؤرخ عن طريق الموازنة والمقايسة والتحليل الكيماوي أن يتأكد من صحة هذه الأشياء أو زيفها.

والشيء نفسه ينطبق على المواد المصنوعة كالأسلحة والأواني الفخارية والنقوش الجدارية واللوحات والصور والفسيفساء والأحجار...

والفرق بين دراسة المواد ودراسة المخطوطات أن دراسة الأخيرة لا تعني إلا بالتأكد من صحة المواد المكتوبة عليها الوثائق وانتمائها إلى العصر الذي صدرت عنه أو تزييفها وعدم صحتها.

وأما النقد الداخلي: فيتناول دراسة محتويات الوثيقة، وهل ما تنطق به الوثيقة ينطبق على الحقيقة أم لا؟ ذلك أن كثيراً من الحكومات، من أجل أسباب واعتبارات كثيرة منها القومي ومنها ما يتعلق بالأمن... تصدر بيانات كثيرة رسمية تخالف الحقيقة وتتجاوزها. وكثيراً ما حولت بلاغات الدول ووثائقها

الانهزامات إلى انتصارات والخسائر إلى أرباح عظيمة. وهذا الشيء أبرز ما يكون في العلاقات الدبلوماسية والسياسية بين الدول بحيث يجب على المؤرخ والدارس أن يستعمل أقصى درجات الحيطة والحذر في تناول محتويات تلك الوثائق ودراستها والحكم لها أو عليها، وبالتالي استخلاص الحقائق الموضوعية منها. وسبيله إلى ذلك الدراسة ـ الموازنة لوثائق الدول المعنية ذات العلاقة، والرجوع إلى المصادر التاريخية الأخرى والاستقصاء والبحث مما يجعله أكثر اطمئنانا إلى أحكامه وسلامتها من الناحية الموضوعية العلمية.

دور الوثائق ودور المحفوظات وأهميتها:

هذا وقد درجت الدول المتقدمة على وضع وثائقها تحت تصرف الباحثين ووضعها في أماكن رسمية معينة هي دور الوثائق والمحفوظات القومية. وقد صنفت هذه الوثائق ورتبت وجعل لها فهارس متعددة مما يسهل الرجوع إلى الوثيقة المطلوبة بالسرعة الممكنة. كما وقد اتبعت طرق علمية للحفاظ على تلك الوثائق من عوادي الزمن كالرطوبة والعفونة والحرارة والحريق والحشرات والعث وغيرها، وأصبحت مواضيع حفظ الوثائق ودراستها والعناية بها وتصنيفها وفهرستها من المواضيع الهامة جداً في جامعات الغرب وتدرس في تلك الجامعات ويعطى فيها أعلى الدرجات العلمية كما تفعل جامعة كلفلند في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تمنح درجة دكتوراه في علم الوثائق أو ما يسمى Documentation.

أما الوضع عندنا فيختلف كل الاختلاف عما هو عليه في بلاد الغرب، فلا تزال العناية بالوثائق عندنا ضعيفة وقاصرة وتحتاج إلى بذل جهود جبارة لصيانة هذا الجانب الهام جداً من جوانب تراثنا التاريخي، ذلك أن أغلب وثائقنا التاريخية القديمة مفقودة أو بحكم المفقودة، ودور الوثائق عندنا قليلة العدد ضعيفة الكفاية، مشتتة الدور، وذلك على الرغم من العدد الهائل من الوثائق التي يحفل بها العالم العربي.

فقدان الوثائق العائدة للعصور الإسلامية الأولى:

هذا وإن الدارس للتاريخ الإسلامي بشكل خاص يستشعر حاجته الملحة إلى الوثائق التي تبحث أحداث ذلك العصر والتي تعطي صورة أقرب إلى الصحة من المعلومات التي تستقى عادة من المصادر المعروفة؛ ولكن الأسف يغمرنا عندما نذكر أنه لا يوجد في العالم الإسلامي عدد كبير من الوثائق الأصلية العائدة للعصور الأموية والعباسية باستثناء أوراق البردى العربية التي اكتشفت في مصر والعائدة للعصر الأموي وأوائل العصر العباسي إذ يمكن اعتبارها وثائق أصلية.

ذلك أن العرب، كما هو معلوم، كان لهم دواوين رسمية تحفظ سجلاتها كديوان الخراج وديوان الرسائل وغيرهما من الدواوين، وقد كانت تحفظ فيها الوثائق الرسمية. وقد أكد ذلك المؤرخون، والأخبار التي وصلتنا عن تلك العهود. يذكر الجاحظ في كتابه الحيوان: ذكر الهيثم بن عدي عن أبي يعقوب الثقفي عن عبد الملك بن عمير قال: رأيت في ديوان معاوية بعد موته كتاباً من ملك الصين فيه[1] ... ولكن ذلك التراث كله فقد في المصائب والكوارث التي مرت على العالم الإسلامي زمن الحروب الصليبية وغزوات المغول وتدمير الحضارة الإسلامية على أيدي أولئك الغزاة. ولقد حفظ قسم من الوثائق العائدة للعصر المملوكي في مصر وسورية، ولكن الإهمال والجهل وعدم المبالاة وعدم فهم القوم لأهميتها أدى إلى تلف القسم الأكبر منها ولم يبق منها إلا حثالة نرجو أن يتداركها الحفظ والصيانة والتنظيم قبل أن تلحق بما سبقها.

إزاء هذا الوضع، لم يبق أمام الباحث في تاريخ الإسلام، ولا سيما القرون الأولى منه، إلا الاعتماد على نصوص الوثائق الواردة في المصادر المختلفة، وذلك بجانب الوثائق المادية كالزجاج والفخار والأبنية... ونصوص الوثائق الواردة في المصادر تعتبر إلى حد ما وثائق وذلك لفقدان الأصل وعدم وجود بديل عنها.

(١) الجاحظ، أبو عثمان بن عمرو. كتاب الحيوان. تحقيق عبد السلام أحمد هارون. القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٤٣ م الجزء ٧، ص ١١٣.

وهي مشتتة كل التشتت في بطون المصادر المختلفة، والرجوع إليها يتطلب من الباحث الرجوع إلى عدد كبير من المصادر للاطلاع عليها والاستفادة منها. لذلك رأينا من الواجب، ومن المفيد أيضاً أن نساهم، قدر طاقتنا، في سد هذه الثلمة وتدارك هذا النقص وذلك عن طريق جمع هذه الوثائق المتوفرة في المصادر المتنوعة والعائدة للعصر الأموي علنا نساعد الباحثين في تقديم المواد اللازمة لدراسة هـذا العهد، ونخدم البحث العلمي التاريخي ونحافظ على جزء يسير من التراث العربي ـ الإسلامي.

جهود الباحثين السابقين في جمع الوثائق الإسلامية:

هذا ولا بد من التنوية إلى أنه سبقنا في هذا المضمار باحثون أفاضل ساهموا في حفظ وجمع ونشر قسم من الوثائق الإسلامية. فهناك المستشرق جروهمان الذي نشر في جزأين، الوثائق المحفوظة في دار الكتب المصرية في القاهرة، وهي وثائق مأخوذة من أوراق البردى العربية التي اكتشفت في مصر وحفظت في دار الكتب وكلها وثائق اقتصادية وعقود مالية ومعاملات بين أشخاص مختلفين تعود لأوائل عهد الإسلام وتمتد حتى بُعَيْد زمن سقوط الدولة الأموية. وهناك العالم الهندي الدكتور محمد حميد الله الذي نشر في كتاب الوثائق السياسية العائدة للعصر النبوي والخلافة الراشدة. وهناك الباحث المصري الدكتور جمال الدين الشيال الذي جمع ونشر عدداً من الوثائق العائـدة للعصر الفاطمي، ولا بد أن هناك آخرين ساهموا في هذا المضمار ممن لم تصل أسماؤهم لأسماعنا. وقد ساهم جميع هؤلاء في نشر وجمع وحفظ وإحياء جانب مهم جداً من جوانب تراثنا التاريخي، ونأمل أن يكون عملنا هذا مساهمة متواضعة في هذا السبيل، ونأمل أن يتاح لنا، في المستقبل، أن نستمر في خدمة هذا التراث العظيم وأن نساعد على حفظه ودرسه ونشر وثائقه.

أنواع الوثائق المحفوظة:

ومن المفيد أن نذكر أن أغلب الوثائق التي ننشرها هنا في هذا الكتاب وثائق سياسية وإدارية. وهذا شيء طبيعي ومتوقع لأن اهتمام مؤرخينا الأوائل كان اهتماماً سياسياً بالدرجة الأولى فحفظوا لنا أحداث الملوك والخلفاء ووقائعهم وحروبهم وأعمالهم بتفصيل، على حين اغفلوا النواحي الاخرى للحياة العربية مما يعطي انطباعاً سيئاً عن تلك الحضارة وعن التاريخ الإسلامي كله ومما يوحي وكأن التاريخ الإسلامي كله مجموع وقائع وحروب ولا شيء أكثر. وعلى الرغم من أن الحقيقة تخالف ذلك كل المخالفة، إذ أن العرب المسلمين بنوا حضارة عظيمة لعبت دوراً ممتازاً في تاريخ الحضارة العالمية وكانت الأسس الذي استندت إليه النهضة الأوروبية في العصور الحديثة، إلا أن المصادر المتوفرة بين أيدينا لا تعطي إلا الوثائق ذات الطابع الحربي والسياسي والإداري وتهمل وتغفل إغفالاً شبه تام الوثائق الأخرى. لذلك كانت النواحي السياسية والإدارية هي حقل نشاطنا. وهذا لا يعني ـ طبعاً ـ اننا لا نهتم ولا نقيم وزناً للنواحي الحضارية الأخرى كالأدب والاقتصاد والثقافة والتربية... على العكس تماماً اننا نعتقد أن النواحي الحضارية تلك هي المعبّر الحقيقي عن روح الشعب ومكانته في التاريخ لا السياسة ولا الحروب، ولكن ليس بالامكان أبدع مما كان.

وهناك أنواع كثيرة من الوثائق التي جمعناها: فمنها الخطب ومنها الرسائل ومنها العهود ومنها أخيراً الحوار والمناظرات والوصايا. ولقد تركز اهتمامنا على الخطب والرسائل والعهود والمواثيق لأنها، بطبيعتها، أقرب إلى المفهوم العلمي للوثائق من الحوار والمناظرات. ذلك أن الخطاب أو الرسالة أو العهد شيء محدد يقوم به شخص واحد معروف أو هيئة محددة، على حين أن الحوار يكون بين شخصين على الأقل، قد يشترك به عدد كبير من الأشخاص. ولذلك جمعنا بين دفتي كتابنا هذا ما استطعنا جمعه من خطب ورسائل وعهود متعلقة بالعصر

الأموي، سواء أكان مصدرها الخليفة أو الوالي أو الأمير أو الثائر المعارض للحكم... ولكنا أهملنا من الخطب والرسائل تلك التي ليس لها صبغة سياسية أو إدارية، أو التي قيلت وتقال في العيدين والجمع والتعازي والتهاني والنكاح... ولكنا لم نشأ أن نحرم القارىء من الحوار والمناظرات والوصايا، ولا سيما السياسي منها لأهميتها البالغة، ولذلك أدرجنا في كتابنا هذا منتقيات نعتقد إنها جيدة ومهمة وتمثل هذا النوع من الأدب خير تمثيل، واكتفينا بها عن إيراد كثير منها. هذا مع العلم أن كتب الأدب والتاريخ طافحة بأمثلة عظيمة منها. كذلك أهملنا الشعر السياسي ـ على أهميته ـ وذلك لأن الشعر السياسي موضوع قائم بذاته ويحتاج إلى حيز كبير جداً، وكذلك لانتفاء الصفة الوثقية عنه من جهة أخرى.

ومن الملاحظ أن المصادر تختلف في إيراد نصوص الوثائق بعضها عن بعض بحيث يستحيل إثبات النصوص المختلفة للوثيقة الواحدة، ولذلك لجأنا إلى انتقاء نص نعتقد أنه الأكمل والأفضل، وأشرنا في أسفل الصفحة إلى الأماكن والمصادر الأخرى التي ذكرت النص المذكور أعلاه. ونعتقد أننا بهذه الطريقة حافظنا على الطريقة العلمية، وأحلنا القارىء الذي يريد الدراسة والتوسع في البحث إلى المكان التي يستطيع الرجوع إليها والتوسع بشأنها.

ونحن لا ندعي أننا استوفينا الموضوع دراسة ونقداً وجمعاً وأننا جمعنا جميع أو القسم الأغلب من الوثائق العائدة للعصر الأموي؛ فذلك مطلب صعب المنال ويحتاج إلى بحث طويل ورجوع إلى المخطوطات والكتب النادرة التي ليست في متناول اليد، وهذا شيء ينقصنا ولم نستطع تداركه، ولكنا نستطيع أن نؤكد أننا جمعنا هنا قدراً وافراً، ولعله القسم الأكبر، من الوثائق العائدة للعصر الأموي. ويسر المؤلف كل السرور إذا أرشده أي من البحاثة أو المؤرخين إلى نصوص وثائق لم تصل إلى علمه وسيكون له من الشاكرين.

وقد راعينا في ترتيب المواد أن يكون ترتيباً حسب الخلفاء، وقد افتتحنا الكتاب بالحسن بن علي وختمناه بمروان الجعدي. وعلى الرغم من أن الحسن بن

علي ليس معتبراً من الخلفاء الأمويين، إلا أنه صلة الوصل بين الخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين، وعلاقته بمعاوية أكبر وأغزر من علاقته بأبيه أو الخلفاء الراشدين، ولا بد من ذكره وذكر عهده ووثائقه لفهم العهد الذي يليه. وكذلك أفردنا باباً خاصاً لكل من عبدالله بن الزبير والحجاج أولاً لأهميتها التاريخية والوثقية، وثانياً لغزارة المواد المدرجة تحت اسميهما. فقد ظل عبدالله بن الزبير خليفة معترفاً به في قسم كبير من الأمبراطورية الإسلامية مدى تسعة أعوام أو أكثر، وقد كان قاب قوسين أو أدنى من أن يصبح الخليفة الأوحد الشرعي للبلاد الإسلامية وسيطر على قسم كبير من هذه البلاد؛ لذلك أفردنا له باباً قائماً بنفسه. أما الحجاج فقد عاصر خليفتين عبدالله والوليد وكان الحاكم الحقيقي والفعلي لشرقي الأمبراطورية وله أهمية بالغة في التاريخ الإسلامي، ويوجد مواد كثيرة ومهمة ومتنوعة تحت اسمه ولذلك أوجدنا له باباً مستقلاً.

ومما تجدر ملاحظته أننا، وقد عرضنا هنا مجموعة الوثائق الأموية، لا ندعي أنها وثائق أصلية ورد ذكرها في بعض المصادر، فلا ندري مدى صحتها وانطباقها على الواقع. كذلك لا نستطيع القطع بصحة مضمونها إذ أن ذلك يستدعي تطبيق قواعد النقد التاريخي على كل وثيقة من الوثائق، وهذا شيء خارج عن نطاق كتابنا هذا، وإنما هي مهمة الباحث والمؤرخ أن يفعل ذلك. هذا مع العلم أننا سنتناول بالدراسة عدداً من الوثائق ننقدها ونحلل محتوياتها كأمثلة يمكن احتذاؤها وتطبيقها على الوثائق الأخرى

أنواع وأقسام مصادر الوثائق السياسية والإدارية:

يمكننا تقسيم مصادرنا التي استقينا منها وثائقنا إلى ثلاث مجموعات: تضم المجموعة الأولى: المصادر التاريخية الباحثة في التاريخ الإسلامي كالطبري والبلاذري وأبي حنيفة الدينوري وابن قتيبة والمسعودي...، وأما المصادر الأدبية: كالعقد الفريد لابن عبد ربه والبيان والتبيين والأغاني وعيون الأخبار وغيرها فهي المجموعة الثانية التي استقينا وثائقنا منها. وهناك مجموعة ثالثة لا بد من

ذكرها والتنوية بها وهي كتب التراجم والسير كطبقات ابن سعد ووفيات الأعيان ومقاتل الطالبيين وأنساب الأشراف... وسنورد فيما يلي وصفاً موجزاً واستعراضاً سريعاً لأهم هذه المصادر وما هي مزاياها وما هي نواقصها.

المصادر التاريخية:

١ ـ يعتبر تاريخ الطبري: المسمى تاريخ الأمم والملوك، ويسمى أيضاً تاريخ الرسل والملوك أهم المصادر التاريخية وأغزرها مادة. رتب الطبري مواد كتابه، ابتداءً من الهجرة النبوية حسب طريقة الحوليات، وهو يلجأ في سرد حوادثه إلى طريقة الاسناد وطريقة المحدثين، ويأتي، في بعض الأحيان، للحادثة الواحدة بروايتين مختلفتين أو أكثر. وينتهي كتابه عند حوادث سنة ٣٠٢ هـ وهو غزير المادة يدخل في التفاصيل ويحاول إعطاء انطباع دقيق ومفصل للقارىء عن الحادث أو الشيء الذي يرويه، وهو لا يأخذ شيئاً على عاتقه ولا يبدي رأيه وإنما يذكر تلك الحادثة بأسنادها وكأنه يقول: أنا لست مسؤولا إذا كان هناك زيادة أو نقصان وإنما أنا مجرد راوٍ للأخبار فقط. والطبري عراقي الهوى والدار والاهتمامات يغرق القارىء بتفاصيل مدهشة عن حوادث وقعت في شرقي الأمبراطورية حتى لتخال أنه يتتبع الحوادث تتبعاً يبعث على الإعجاب، على حين أنه يغفل أحداثاً هامة وقعت في القسم الغربي من البلاد الإسلامية كمصر وشمالي أفريقية والأندلس ولا يأتي إلا على ذكر الخطوط العامة العريضة لحوادثها. ونلمح في تاريخه تأثره بأسلوب المحدثين وطريقتهم في رواية الأحداث. وقد انعكس ذلك على الوثائق التي نجدها في تاريخه، إذ أن أغلب وثائقه يدور حول القسم الشرقي للامبراطورية، مع سورية والحجاز، على حين أننا قلما نعثر على وثائق تهتم بشؤون شمالي أفريقية والأندلس. وعلى الرغم من أن الطبري عالم واسع العلم والاطلاع ومؤرخ منصف جليل إلا أن كتابه يعكس روح العصر الذي ألف فيه، ولذلك نجده، بشكل لا شعوري، يأخذ جانب العباسيين لا الأمويين. كذلك نجد الناحية السياسية طاغية طغياناً هائلاً على النواحي الحضارية الأخرى بحيث يخرج

القارىء من مطالعة كتاب الطبري بانطباع سيء عن التاريخ الإسلامي إذ كله حوادث حروب وفتن، ونصيب الإدارة والعمران والاقتصاد والعلوم... من هذه الأخبار نصيب ضئيل كل الضآلة. ومع ذلك، وعلى الرغم من كل ما ذكر وما يمكن أن يؤخذ على الطبري فإنه لا زال وسيبقى عمدة الباحثين في التاريخ الإسلامي في عصوره الأولى وهو لم يمنح هذه الثقة وهذا الاهتمام عبثاً وبشكل اعتباطي.

٢ ـ وهناك فتوح البلدان للبلاذري: الذي توفي قبل الطبري بنحو من ثلاثين سنة. يظهر من عنوان الكتاب أن المؤلف اهتم بأخبار افتتاح أقاليم البلاد الإسلامية منذ عهد صاحب الرسالة حتى عهده هو، مع لمحات حضارية وملاحظات انتقادية قيمة. ولكن الشيء الذي يؤسف له حقاً هو فقر الكتاب بالوثائق العائدة للعصر الأموي، على الرغم من أن هذا العهد كان من أنشط وأزهر عصور التاريخ الإسلامي في الفتوح، إن لم يكن أنشطها طراً. فعلى حين يورد نصوصاً كثيرة لعهود ومواثيق عقدها سكان البلاد المفتوحة مع الفاتحين زمن أبي بكر وعمر وعثمان، نجده يغفل هذه الناحية إغفالاً شبه تام أثناء حديثه عن الفتوحات في العصر الأموي، ولذلك لا نعثر فيه إلا على بعض النصوص ذات القيمة التاريخية العالمية.

٣ ـ أما الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري: فيمثل مرحلة هامة من مراحل التأليف في التاريخ الإسلامي هي مرحلة الانتقال من الخبر إلى مجموعة من الأخبار الطوال، ولذلك كانت طبيعة الكتاب إنتقائية، وهو، على العموم، كتاب موجز في التاريخ الإسلامي حتى أوائل الدولة العباسية وبالتالي وثائقه قليلة ولكنها موثوقة، ويعتبر الكتاب من أقدم مصادرنا عن التاريخ الإسلامي في عهوده الأولى، إن لم يكن أقدمها إطلاقاً.

٤ ـ وهناك مؤلفان علميان مفيدان في هذا المضمار لا بد من ذكرهما على الرغم من أن المؤلفين ليسا من أهل السنّة: ولكن ذلك لم يمنعهما من أن يكونا منصفين

للامويين إلى حد بعيد، وهما كتاب اليعقوبي المسمى تاريخ اليعقوبي وكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي. واليعقوبي أقدم المؤلفين وأكثرهما دقة تاريخية وأكثرهما حياداً، ومعلوماته عن العصر الأموي جيدة واضحة ولكنها مختصرة وتمتاز بالترتيب والنظام؛ والمواد مرتبة حسب الملوك. ويفعل الشيء نفسه المسعودي، ولكن كتب المسعودي أغزر علماً بما لا يقاس من اليعقوبي، ولا سيما فيما يتعلق بالعصور السابقة للإسلام وبالجغرافية والإسرائيليات وأخبار الأمم السالفة... ولكن يظل اليعقوبي أدق ملاحظة وأكثر تمحيصاً من المسعودي الذي يبدو لنا أنه يورد كثيراً من المعلومات دون تمحيص. وأما فيما يتعلق بحقل الوثائق فيزودنا المسعودي بوثائق جيدة عن العصر الأموي وهو بهذا يكمل كتب اليعقوبي والطبري.

٥ ـ وهناك الكتب التاريخية الأخرى ككتب ابن الأثير وابن كثير وابن خلدون وابن الطقطقي والمقريزي...، وكلها جيدة، ولكنها لا تفيدنا كبير فائدة عن العصر الأموي، إذ أن أغلبها، إن لم يكن كلها، يلخص الكتب السابقة وخاصة الطبري. على أنه لا بد من ذكر كتاب له أهمية فائقة بالنسبة لنا وهو كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة المتوفى في أواخر القرن الثالث الهجري إذ يورد نصوص وثائق غاية في الأهمية أغفلها الطبري وأقرانه، وهو يهتم كل الاهتمام بقضية ولاية يزيد للعهد ويورد جميع الأحاديث والخطب والرسائل التي تبودلت بهذا الشأن، وهي ذات أهمية قصوى لنا. كذلك يهتم بإيراد أخبار ونصوص جيدة عن شمالي افريقية والأندلس ويهتم بإيراد بعض النصوص التي ورد ذكرها في مصادر أخرى بشكل موجز، ولكنه يوردها بشكل موسع كما فعل في عهد سليمان بن عبد العزيز بالخلافة ومن بعده ليزيد بن عبد الملك. ولكن يبدو لنا أن الاعتماد عليه كمصدر موثوق به من طراز الطبري غير وارد وإنما يمكن الاعتماد عليه وتصنيفه على أنه مصدر جيد يكمل المصادر الأخرى ولا يناقضها، وذلك بسبب من تسرعه برواية أحداث ليس لها أساس تاريخي أو اعتماده على أخبار

كاذبة منحولة وروايته لها على أنها حقائق كما فعل لما روى خطبة الحجاج عندما ورد الكوفة أول مرة والظروف التي لابستهـــا ورافقتها [1].

المصادر الأدبية

وأما المصدر الثاني من مصادر الوثائق فهو الكتب الأدبية ولعل أهمها العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي الذي ارتحل إلى المشرق في القرن الرابع الهجري ثم ألف هذا الكتاب بعد عودته إلى الأندلس. وهو يحوي أخبار المشارقة وآدابهم ونظمهم وكل ما يتعلق بهم، ويغفل إغفالاً تاماً أمر بلاده الأندلس، حتى أن الصاحب بن عباد قال لما اطلع على كتابه هذا: هذه بضاعتنا ردت إلينا. وقد أورد ابن عبد ربه نصوصاً كثيرة من الوثائق كالرسائل والخطب، ولكنه لم يوردها على أنها خطب أو رسائل ذات قيمة تاريخية وإنما أوردها على إنها نماذج أدبية تذكر لبلاغتها وفصاحتها وإعجازها وحسنها ودلالتها والعمل للنسج على منوالها وقد ذكرها بشكل مشتت في طول الكتاب وعرضه.

والشيء نفسه يقال عن بقية كتب الأدب كالأغاني لأبي الفرج الأصفهاني والبيان والتبيين للجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة، ولكن يجب ذكر كتاب حوى كثيراً من نصوص الوثائق العائدة للعهد الأموي ألا وهو كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد الذي توفي سنة سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ؛ إذ أن ابن أبي الحديد ألف كتابه هذا كشرح لنهج البلاغة الذي جمعه الإمام الرضي على أنه أقوال ومأثورات الإمام علي. ولكن ابن أبي الحديد في شرحه تجاوز مهمة الشارح وأورد معلومات كثيرة تاريخية عن أشخاص وأحداث ورد ذكرهم في نصوص نهج البلاغة كمعاوية ويزيد وزياد... وهو يقتبس بحرية من المصادر المتقدمة، ووجهة نظره وجهة نظر متعصبة كل التعصب ضد الأمويين مع العلويين خاصة والعباسيين.

---

(١) ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم. الإمامة والسياسة. تحقيق محمد محمود الرافعي. القاهرة، مطبعة النيل، ١٩٠٤م، ٢ جـ في مجلـد، ٢ جـ - ٥٠.

وبشكل عام فإن المصادر الأدبية مفيدة شريطة أن لا يغرب عن البال إنها كتب أدب أولاً وآخراً وان اتجاهها الأدبي يجعلها مصدراً تاريخياً ولكن بحذر وانتقاء شديدين.

كتب التراجم العامة

والمصدر الثالث من مصادر الوثائق عن العصر الأموي هو كتب التراجم العامة التي تحوي في ثناياها وتضاعيفها وثائق سياسية ذات قيمة، وأهم هذه المصادر كتاب أنساب الأشراف للبلاذري إذ أن سمعة المؤلف الجيدة وحياده ودقته وشمول نظرته وسعة اطلاعه جعلت منه مصدراً أساسياً، ذلك أنه يضمن تراجم شخصياته عدداً كبيراً من الوثائق المهمة، ولكن الأمر المؤسف في الموضوع أن هذا الكتاب الهام لا زال قسم كبير منه غير مطبوع ولم يصل ليد المؤلف إلا الجزء الخامس وقسم من الجزء الرابع. كذلك لا بد من ذكر كتاب مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني وهو يترجم لآل أبي طالب الذي لقوا مصارعهم منذ أقدم العصور حتى قريب من عهد المؤلف. وقد استفدنا منه بعض الفائدة ولا سيما فيما يتعلق بمصرع الحسين. وهناك مصدر يجب ذكره وذلك لغزارة المادة الموجودة فيه عن عمر بن عبد العزيز خاصة وأعني به طبقات ابن سعد الكبرى. أما معلوماته بالنسبة للآخرين فمعدومة وأما كتب التراجم العامة كمعجم الأدباء لياقوت الحموي ووفيات الأعيان لابن خلكان فليس لها كبير فائدة.

وبشكل عام فإن معلوماتنا عن العصر الأموي قليلة وذكره في المصادر لا يوازن، من قريب أو بعيد، بالعصر العباسي. والمصادر جميعها تقريباً متعصبة ضده، وكلها تمجد الدولة المباركة [الدولة العباسية] التي أزالت دولة الظلم وأحلت محلها دولة العدل والإنصاف. ويجب أن لا يأخذنا العجب لهذه الحال، ويزول عجبنا إذا تذكرنا أن التاريخ الإسلامي لم يبدأ تدوينه إلا في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي، وأن مصادرنا كلها مصادر عباسية عن العصر الأموي، وإن مؤلفيها كتبوها وهم متأثرون، بشكل أو آخر، بنفوذ

العباسيين ودعايتهم وأفكارهم، كما وان الآثار الأموية والوثائق الأموية طمست وشوهت، وحاول العباسيون القضاء على معالم حضارتهم وتشويه ذكرهم لدى العامة والخاصة. فهذا أبو الفرج الأصفهاني سليل الأمويين وسليل مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين يقرن اسم يزيد بن معاوية بلفظ لعنه الله أو لعنة الله عليه، ويقرن اسم الحسين بن علي بلفظ رحمه الله أو رضي الله عنه أو ـ بالأعم الأغلب ـ بلفظ عليه السلام.

تعصب المصادر ضد العصر الأموي

والحق ـ إن العصر الأموي عصر مظلوم ـ على أهميته ـ تحامل عليه المؤرخون القدامى، ولما يدرسه المؤرخون المحدثون دراسة موضوعية تبرز أهميته في الحضارة الإسلامية. فتعصب العباسيين ضدهم ومحاولتهم طمس معالم هذا العصر الزاهر والفرس والموالي وتساوق المؤرخين معهم وكره العلويين لهم، كل ذلك عوامل جعلت الأوائل يغفلون دراسة هذا العهد والإخبار عنه إلا من زاوية معينة. كذلك ارتكب الأمويون، ولا سيما المتأخرين منهم أخطاء شنيعة أدت، لا إلى ذهاب دولتهم فحسب، بل أدت إلى تشويه سمعتهم وتصويرهم بغير صورتهم الحقيقية.

لا انقطاع بين العصر الأموي والعصر العباسي

هذا وان عدداً من الباحثين، قديماً وحديثاً، حاولوا تصوير العصر الأموي على أنه عهد السيادة العربية وأن الدولة العباسية تختلف اختلافاً بيناً في كل شيء عن الدولة الأموية. فهذا الجاحظ الكاتب والمؤلف الموسوعي يذكر ان دولة بني مروان عربية أعرابية وان دولة بني عباس أعجمية فارسية. كذلك أبدى المؤرخ فان فلوتن نفس الرأي عندما أسمى كتابه الذي بحث به التاريخ الإسلامي في العصر الأموي: السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات. وينطبق الشيء نفسه على ولهاوزن مؤلف كتاب الدولة العربية وسقوطها. إذ اعتبر العهد الأموي عهداً عربياً واعتبر سقوط الدولة الأموية سقوطاً لسلطان العرب وحلول سلطان آخر

محله. ويصور هؤلاء المؤرخون سقوط الدولة الأموية على أنه تاريخ فاصل في تاريخ البلاد الإسلامية انتقلت فيه البلاد من عهد إلى آخر هو عكسه تماماً.

إن تصوير الأمر على هذا الشكل لا يخلو من مبالغة كبرى لا يستطع المؤرخ أن يقبلها الآن. ذلك أنه ليس في التاريخ تواريخ فاصلة محددة كما كان متبعاً متعارفاً عليه. فالعصور الوسطى، بروحها ومفهومها الحضاري لم تبدأ حتماً في سنة ٤٧٦ م. وكذلك عصر النهضة الأوربية لم يبدأ سنة ١٤٥٣ أو سنة ١٤٩٢، وإنما الأمر أعمق من ذلك بكثير وأشمل بكثير. والشيء نفسه ينطبق على الدولة الأموية والدولة العباسية إذ ليس هناك انقطاع في التاريخ الإسلامي. والعصر العباسي امتداد واسع للعصر الأموي، على الرغم من الانحرافات التي حصلت به. وسقوط الدولة الأموية ونهوض العباسيين للحكم لا يعدو كونه انقلاباً نقل الحكم من سلالة إلى سلالة معارضة والعاصمة من إقليم إلى إقليم. وقد أثر هذا طبعاً في سير الحضارة الإسلامية فجعل مركز الثقل الحضاري ينتقل، إلى فترة، إلى الشرق، وجعل التأثيرات الفارسية والإيرانية تبرز في الحضارة الإسلامية بشكل أوضح. ولكن هذا لا يعني أن هذه التأثيرات قد خلقها الانقلاب العباسي وأنها لم تكن موجودة من قبل في العصر الأموي. كل ما يقال في الأمر إن الانقلاب العباسي عجل بهذه التأثيرات وبلورها ونشطها. فالفرس كان لهم دورهم في الحضارة الإسلامية والسياسة الإسلامية منذ عهد عمر بن الخطاب. وعلى الرغم من إقصاء الأمويين لهم واضطهادهم إياهم فإن ذلك لم يكن يعني القضاء على نفوذهم وتأثيرهم. فلقد ظل النظام المالي الذي كان سائداً في الإمبراطورية الساسانية سائداً في القسم الشرقي من الإمبراطورية الإسلامية، مع تعديله تعديلاً تحتاجه الحياة الجديدة ومتطلبات الدولة الجديدة. أضف إلى ذلك أن الدهاقين ظل لهم نفوذهم الهام في العصر الأموي كما كان الحال في العصر الساساني، وظلت الدواوين فارسية حتى عربها الحجاج. ولو كان انتقال العاصمة من دمشق إلى بغداد حداً فاصلاً في تارخ الحضارة الإسلامية وأدى إلى استبدال

نفوذ بنفوذ، فقد كان الواجب أن تزول أو تضعف أو تضمحل التأثيرات اليونانية ـ الرومانية في الحضارة الإسلامية بدرجة كبيرة جداً. ولكن الذي حدث هو العكس تماماً إذ نشطت في العصر العباسي حركة التبادل الثقافي وخاصة بين المسلمين وبين التراثين الهيليني ـ الروماني والفارسي. قد يكون الانقلاب العباسي هاماً من الناحية السياسية ـ وهو فعلاً هام جداً من هذه الناحية ـ إذ أنه أنهى الاحتكار العربي للسلطة وسوى بينهم وبين الموالي والفرس خاصة، مما مهد لتقلص سلطة العرب في المستقبل، كذلك أعطى الفرس بعضاً من حقوقهم التي كانوا يطالبون بها. ولكنه، من جهة أخرى، أضعف العرب، وقد ثبت أنهم كانوا العمود الفقري للدولة الأموية وسياستها الرامية إلى حفظ حدود دار الإسلام وتوسعة هذه الحدود باستمرار. ويكفي العصر الأموي فخراً أنه العصر الوحيد في تاريخنا ـ بالإضافة إلى عصر الخلفاء الراشدين ـ الذي كانت فيه حدود الدولة هي نفسها حدود دار الإسلام. فقد افتتح العباسيون حكمهم بذهاب الأندلس عنهم ثم تلتها أقاليم أخرى حتى أدى الأمر إلى تمزق الإمبراطورية وزوال سلطان الخليفة الزمني وتسلط الأعاجم على البلاد. ولكن لم يكن للانقلاب العباسي ذلك التأثير في النواحي الحضارية، إذ يعتبر العصر العباسي امتداداً للعصر الأموي من هذه النواحي؛ فالعصر الأموي عصر احتضان وبذر، على حين أن العصر العباسي عصر ازدهار وتفتح البراعم والبذور التي استنبتت وغرست في العصر الأموي. فحركة النقل والتأليف التي ازدهرت زمن الرشيد والمأمون لم تكن إلا امتداداً للحركة التي بدأها في العصر الأموي خالد بن يزيد بن معاوية. كذلك استمر النظام الإداري والمالي الذي كان سائداً زمن بني أمية في العصر العباسي، مع تعديله بما تقتضيه الحياة الجديدة وسنة التطور. وعلوم اللغة العربية والتاريخ والدين الإسلامي والفقه والحديث الشريف... كلها تجد أصولها في العصر الأموي واستكملت مقومات نموها في العصر العباسي. والمكتبات التي زخرت بها المكتبات الإسلامية في العصر العباسي،

التي تعتبر بحق مقياس تقدم الأمم وتطورها نجد أصولها في العصر الأموي.

سقوط الأمويين وأسبابه

والواقع اننا نجد عوامل سقوط الأمويين كامنة في نظام الدولة نفسه ومنذ اللحظات الأولى. ذلك أن معاوية بن أبي سفيان مؤسس الأسرة الحاكمة في سورية عمل دائباً، منذ كان والياً على سورية زمن عمر بن الخطاب وعثمان - على إيجاد جيش مخلص له شخصياً يستطيع الاعتماد عليه، وقد استثمر أفضل استثمار ضعف عثمان ثم بقتله للحصول على الخلافة، ولكن حصوله على الخلافة هذا أوجد له ولأسرته من بعده أعداءً أقوياء كل القوة ظلوا يسعون دائبين حتى تمكنوا أخيراً من تقويض البيت المالك. فالانقلاب العباسي لم يكن بالحقيقة إلا الضربة المباشرة التي أسقطت عرشاً ظلت عوامل الهدم تعمل فيه مدى ثمانين سنة أو أكثر.

والمأخذ الدائم الذي أخذ على الأمويين وأثار ضدهم أعنف حملات الكراهية هو أنهم، أصولاً وفروعاً، كانوا أخطر أعداء الإسلام وأعداء الرسول وأنهم هم الذين تزعموا حركة مقاومة الدين الجديد بزعامة عميدهم أبي سفيان، وأن معاوية اعتنق الإسلام متأخراً ولا يوازن بكثير أو قليل بأحد السابقين الأولين إلى الإسلام كأبي بكر أو عمر - بله علي بن أبي طالب -. ولقد كان ذلك شوكة في حلوقهم حاولوا بمختلف الوسائل إزالتها، ولكنهم عجزوا عن ذلك وكل ذلك جعلهم يفقدون الزعامة الحقيقية لأمة محمد فاضطرهم ذلك إلى الاعتماد على جيشهم المستعد لتنفيذ طلباتهم وإخضاع الثائرين.

الأحزاب في العصر الأموي

وطبعاً لم يكن من السهل على المهاجرين والأنصار وأبنائهم من بعدهم أن يقبلوا هذا الوضع بسهولة، ولا سيما وأنه قد رافق هذا الوضع نقل العاصمة من المدينة إلى الكوفة أولاً زمن علي ثم إلى دمشق نهائياً زمن الأمويين. وكذلك لم يثق الأمويون بالمهاجرين والأنصار وبادلوهم حذراً بحذر، وكانوا يستشعرون

المرارة التي حلت بهم نتيجة إقصائهم عن الحكم فحاولوا إرضاءهم لإبعادهم إياهم عن الحكم فأغرقوهم بالمال فتفشى الترف في الحجاز ونشأ به جيل من الشعراء الغزليين والمغنين والمخنثين كان لهم دورهم في الحياة الاجتماعية في الحجاز وتملأ أخبارهم صفحات كثيرة جداً من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني.

ولقد انفجر حقد المدينة ـ الممثل القوي لحزب المهاجرين والأنصار ضد الحكم الأموي زمن يزيد بن معاوية، ذلك أن معاوية كان له من الدهاء والسمعة والحنكة والتجربة ما مكنه من منع الانفجار، ولكن الوضع اختلف زمن يزيد ابنه فانفجرت في زمنه ـ لسوء حظه وحظ الإسلام ـ الأهواء المكبوتة والعواطف المكتومة وثارت المدينة ضده ثورة كلفتها الكثير. وقد أخضعت المدينة وقضي على نفوذ حزب المهاجرين والأنصار ليظهر رأسه من جديد ـ ربما للمرة الأخيرة ـ في ادعاء ابن الزبير الخلافة وحروبه ضد الأمويين. وعلى الرغم من أن حركة ابن الزبير لم تكن سوى مزيج عجيب من الطموح الشخصي والصراع القبلي التقتا في نفس ابن الزبير وشخصيته، إلاّ أنه استغل كثيراً من العناصر المساعدة مما جعله يقف على رجليه في وجه الأمويين مدى أربعة عشر عاماً. ذلك أن ابن الزبير الماكر الأريب استغل سخط الحجاز بعامة ومكة والمدينة بخاصة على سياسة الأمويين التي تمثلت في معركة الحرة، وأحسن الاستفادة من شعور التقات وشعور المرارة لدى قريش وأبناء الأنصار لتولي الطلقاء وأبنائهم الخلافة، واستفاد من اضطراب الوضع والضعف الذي طرأ على الدولة الأموية أواخر حكم يزيد وابنه معاوية وعهد مروان في الحكم فأعلن حركته وجيش الجيوش وكان قاب قوسين أو أدنى من النجاح في توحيد البلاد الإسلامية تحت ظل خلافته لولا إنكسار أتباعه في سورية وانهزامهم أمام الأمويين في معركة مرج راهط، ولولا تولي مروان بن الحكم ومن بعده ابنه عبد الملك الخلافة اللذين سارا بالحرب ضده حتى نهايتها المحتومة. ولا ننسى أن القيسيين انضموا إلى ابن الزبير نكاية بالكلبيين الذين انضموا إلى الأمويين. ويمثل مصرع ابن الزبير نهاية النفوذ

السياسي والطموح الشخصي لسكان الحجاز ولحزب المهاجرين والأنصار ـ باستثناء آل هاشم.

على أن حزب المهاجرين والأنصار لم يكن أقوى حزب ولا أخطره على الحكم الأموي، إذ وجدت أحزاب أقوى منه لعبت أدواراً مهمة جداً في العصر الأموي وكانت من أقوى العوامل في سقوطه.

يعتبر الخوارج من أقوى الأحزاب التي ناهضت الحكم الأموي وحاربته وقارعته بالسيف طوال فترة الحكم الأموي. والخوارج، كحزب، لم يتكونوا إلا في زمن علي بن أبي طالب بعد التحكيم وبعد أن رفض على نفسه التحكيم؛ ولكنهم وجدوا كفريق ناقم منذ عهد عثمان واشتركوا في الثورة ضده وكان لهم نصيب في قتله والقضاء عليه. ولكن فكرة الخوارج تبلورت زمن علي لما حدث أمر التحكيم إذ رفض فريق كبير من جيشه فكرة التحكيم ونادوا بشعارهم: أتحكمون الرجال في كتاب الله؟ لا حكم إلا لله. وقد سرت هذه الصيحة كالبرق وسط جيش علي وانحاز عنه قسم كبير من جيشه بدأوا يحاربونه وما زالوا به حتى اغتالوه.

ثم تابعوا حروبهم ضد الأمويين وتابع الأمويون محاولة إخضاعهم والقضاء على ثورتهم طوال عهدهم، وعلى الرغم من أن شوكتهم خضدت زمن حروب المهلب والحجاج ضد شبيب وغيره، إلاَّ أن ذلك ولا شك أضعف الدولة وخرب البلاد وكان من الأسباب المؤدية إلى الإطاحة بحكم الأمويين، ولا سيما إذا تذكرنا أن مروان الجعدي آخر خلفائهم إنما تباطأ عن إنجاد نصر بن سيار في خراسان بسبب انصرافه لمحاربة الخوارج في الجزيرة السورية وفي جزيرة العرب.

ولقد تبلورت عقيدة الخوارج السياسية والدينية في العصر الأموي وانقسموا هم أنفسهم إلى فرق: فمنهم العقدة أو المتساهلون، ومنهم الغلاة والمتشددون، ومنهم بين بين. ولعل خطبة عبدالله بن يحي الخارجي لما غلب على اليمن في

أواخر الدولة الأموية يمثل رأي المتشددين خير تمثيل:

من زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شرب الخمر فهو كافر، ومن شك أنه كافر فهو كافر (١).

هذا ويمتاز الخوارج بالتمسك التام بأهداف مبادئهم وكانت عقائدهم شيئاً يعيش الإنسان من أجل تحقيقها أو يموت بسرور من أجلها وهم مخلصون لها حتى الموت. ولم يكن هناك فرق كبير بين عقيدتهم الدينية وعقيدتهم السياسية، ولكن تمسكهم الحرفي بها ومحاولة تطبيقها بحذافيرها كان وبالاً عليهم إذ جعل جميع الأحزاب تتفق ضدهم ففلّ حدهم في العصر الأموي، ولم يعودوا خطراً يهدد الدولة في العصر العباسي. ومع ذلك فالخوارج يمثلون المبدأ الثوري الديمقراطي في الإسلام ويثيرون الإعجاب في كل زمان ومكان بإخلاصهم لمبادئهم وتقاهم. فالحق الإلهي عندهم يصبح مبدأ ثورياً تاماً وهم يتباهون بأول عمل ثوري قاموا به ألا وهو قتل عثمان (٢).

ويختلف الشيعة في أهدافهم اختلافاً تاماً عن الخوارج، وإن كانوا نشأوا معهم في الثورة على عثمان. فهم يكرهون الأمويين كرهاً لعله أعنف من كره الخوارج لهم، ولكن مبدأ الكره هنا يختلف اختلافاً كلياً عن مبدئه عند الخوارج. فلم يعارض الشيعة الأمويين في الحكم لأنهم مستبدون ظالمون جائرون لا يحكمون بما أنزل الله. فهذه أشياء تأتي بالدرجة الثانية عند الشيعة، ولكنهم يعارضونهم لأنهم سلبوا الحق أهله. فأحق الناس بالحكم بعد الرسول هو آل البيت وخاصة علي بن أبي طالب وسلالته من فاطمة. وهذا حق لا جدال فيه بالنسبة للشيعة. وقد كان

---

(١) ابن أبي الحديد. شرح نهج البلاغة تحقيق حسن تميم. بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٤ م. ٥ جـ. ٢ جـ ١٦٢.

(٢) ولها وزن، يوليوس. الدولة العربية وسقوطها، تعريب يوسف العش. دمشق، مطبعة الجامعة السورية، ١٩٥٦ م، ص: ٥٤.

الوضع السياسي والعقدي بالنسبة للشيعة مائعاً طوال عهد معاوية، ولكن الحادثة التي بلورت أفكار الشيعة وفصلتهم بشكل نهائي عن الأمويين وميزتهم عن أهل السنّة هي حادثة مصرع الحسين بن علي بذلك الشكل العنيف أدى مصرع الحسين ودخول الأفكار الفارسية إلى التشيع واعتناق الفرس لمبدأ التشيع إلى تمركز العقيدة الشيعية حول الحسين وسلالته دون الحسن وذريته إلى اعتناق مبدأ حقّ آل علي والحسين الإلّهي بالخلافة وإلى أن الإمامة بالنص لا بالاختيار. وقد كان العراق مركز الشيعة وكانت جماهير الشيعة تجد في التشيع رمزاً لسلطانها الضائع وتعبيراً عن ألمها وغضبها لاغتصاب الأمويين الحكم ونقل العاصمة من العراق إلى الشام وجعل العراق تابعاً بعد أن كان متبوعاً.

ولقد أدى مصرع الحسين بهذا الشكل القاسي المفجع، مع عوامل أخرى كثيرة، إلى ظهور المختار بالكوفة في غمرة الفوضى التي أعقبت وفاة يزيد بن معاوية وإلى رفعه علم الشيعة ومحاولته الانتقام من قتلة الحسين وتتبعهم. ولكنه أستند في حركته هذه إلى الموالي وحاول إدخالهم في المجتمع العربي. غير أن ذلك أغضب الأرستقراطية العربية المتمثلة في زعماء القبائل العربية فقاوموا المختار وانضموا إلى صفوف جيش مصعب الذي قدم لمحاربة المختار وإعادة الوضع إلى ما كان عليه.

وحركة المختار مثال جيد على استخدام أنبل المقاصد والمبادىء من قبل أشخاص مغامرين يهمهم تحقيق الربح والمكسب والطموح الشخصي في غمرات الفوضى. كان المختار زبيرياً، ثم أصبح شيعياً، ثم حاول أن يرجع إلى أحضان ابن الزبير. وأخيراً قتله ابن الزبير وقد كان من الممكن لحركة المختار أن تستمر وتنجح لو أنه تمكن من كسب ابن الزبير إلى طرفه ولو أنه لم يثر عداء الأرستقراطية العربية بأعماله الانتقامية من جهة، وبإعطائه الموالي حق المساواة مع العرب من جهة أخرى. وهذه الناحية بالذات كان أكثر ما نقمته الأرستقراطية العربية على المختار وأشد ما أخذته عليه وعلى حركته، وطالما كانوا يقولون

للمختار: عمدت إلى موالينا وهم فيء أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعها فأعتقنا رقابهم بأمل الأجر في ذلك والثواب والشكر فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا [1].

وبمصرع الحسين وإخماد حركة المختار تهدأ حدة الحركة الشيعية الحربية حتى عهد هشام عندما ثار زيد بن علي ومن بعده ابنه يحي، ولم تكونا بالثورتين العنيفتين وإنما أمكن القضاء عليهما دون كبير عناء. ولكن المهم في الأمر هو المجرى السري الذي اتبعته الحركة العلوية الشيعية في العصر الأموي وخاصة بزعامة ابن سبأ. وابن سبأ يهودي من اليمن ومن قبيلة قليلة العدد في الكوفة، ولكنه نشر دعوته في الكوفة بين الموالي خاصة فاعتنقها الفرس بأعداد غفيرة لمشابهتها - في كثير من نواحيها - لعقائدهم القديمة الموروثة. وقد تمكنت تلك الحركة أن تضم إلى جانبها المختار الثقفي الذي نجح أن يضم تحت لوائه حتى أفراد الشيعة القدماء والذي جعل حرسه الخاص من الموالي وحاول إزالة الفرق بين الموالي الفرس وبين العرب، وعلى الرغم من أن حكمه كان قصير الأمد إلا أنه عبَّد الطريق أمام العباسيين لتنفيذ هذا المشروع فيما بعد.

وقد غيرت السبئية شكل الإسلام تغييراً تاماً، فهي قد وضعت شخص الرسول خارجاً عن القانون، الشخصي في القرآن والسنة وفوقه، ذلك القانون الذي كان يعتبره الآخرون بعد وفاة الرسول كافياً؛ وهو عند الخوارج خاصة، المصدر الوحيد الذي يجبُّ كل تدخل بشري وكل تمجيد إنساني. أما في رأي السبئية فشخص الرسول لم يمت في محمد صلوات الله عليه، بل استمر حياً يتعاقب في ذريته وأخذوا بمبدأ التناسخ وأدخلوا فيه فكرة خاصة تقول إن روح الله التي تبعث الحياة في الرسل تنقل بعد وفاة أحدهم إلى الآخر، وأن روح نبوة محمد بصفة خاصة انتقلت إلى علي واستمرت في أسرته. وهكذا فإن علياً في نظرهم

(١) فان فلوتن، ج. السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية. تعريب حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم. القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٣٤ م ص ٤٠ - ٤١.

ليس مجرد خلف شرعي للخلفاء الذين سبقوه. إنه ليس في مستوى واحد مع أبي بكر وعمر، واللذين اندسا مغتصبين حقه بعد وفاة الرسول مباشرة وإنما هو الروح القدسية تجسدت فيه وهو وريث الرسالة، ومن ثم، فهو بعد وفاة الرسول الحاكم الوحيد الممكن للأمة، تلك الأمة التي يجب أن يكون على إمامتها ممثل حيّ لله. وأما أبو بكر وعمر، فهما مغتصبان اغتصبا صاحب الحق حقه. وقد انتقلت هذه الروح من علي إلى ابنه الحسن من بعده ومن بعده إلى الحسين واستمرت في الأئمة من نسله.

ولقد شكلت الأرستقراطية العربية في العراق خاصة حزباً ظل يعارض الحكم الأموي فترة من الزمن وذلك بسبب من تحول مركز السلطة من إقليمهم إلى دمشق، ولقد قام مجموع العرب في العراق بثورات متتابعة ضد الحكم الأموي وكان وضعهم يقتضي أن يردهم دوماً ولاة أشداء يحفظون الأمن في ذلك القطر المتعب ويلزمون أهله الطاعة. وهكذا آل الأمر بالعراق أن يساس بالقضاء على الروح العسكرية وأن يقام فيه حكومة حربية حقيقية مركز قيادتها في مدينة محصنة بنيت من جديد لا في العاصمة القديمة للقطر.

ولكن زعماء هذه الأرستقراطية العربية جنحوا إلى الاعتصام بالصبر والحكمة والحيطة، من أجل الحفاظ على مصالحهم، وأصبحوا، مع الزمن، يساندون الحاكم في ضبط الشعب ومنع الشغب وعدم القيام بثورة لا هدف لها. وأدى بهم الأمر إلى أن أخذوا جانب الدولة في مواجهة مطالب الشعب الأخرى وتحركاته.

وقد شكل الفقهاء والقراء حزباً قوياً في الكوفة بخاصة، ضم بين صفوفه التقات وجماعة المؤمنين وعارضوا الأمويين وكانوا أعداءهم. وقد عارضوا السلطة الحاكمة بقانون وضعي مطلق منقول شامل وكانوا يجدونه في القرآن الكريم والسنة ويفسرون القرآن بالسنة. وهؤلاء عبروا عن وجودهم بانضمامهم إلى حركة ابن الأشعث وثورته التي هدفت للإطاحة بالحجاج ومن ورائه عبد الملك والحكم الأموي مرة واحدة.

ولم تكن جبهة العرب واحدة متماسكة في وجه التحديات التي تواجهها باعتبارها طبقة حاكمة. ذلك أن الصراع القبلي انفجر كأشد ما يكون زمن الأمويين، وقد غذى الأمويون أنفسهم هذه الخلافات اتباعاً لمبدأ فرق تسد. ولكن ذلك أثبت أنه أخطر سلاح وأمضى معول استعمل في القضاء على الحكم الأموي. ولقد تمكن معاوية أن يقيم توازناً بين القيسيين واليمنيين، ولكن لم يكن خلفاؤه بمثل مقدرته ودهائه وحنكته، ولذلك اضطرب الوضع. وأول مثل عنيف عن الصراع القبلي هو معركة مرج راهط التي دارت بين الأمويين ومن والاهم من اليمنيين وبين الحزب الزبيري ومن والاه من القيسيين بزعامة الضحاك بن قيس الفهري. ثم تتابعت المعارك بين الطرفين بشكل عنيف جداً وقاسٍ وضارٍ كل الضراوة في الجزيرة السورية العراقية بين ربيعة وتغلب وأخصامهم. ولقد كان الصراع القبلي على أشده في خراسان بين تميم وقيس وبين الأزد وربيعة ومضر ونشبت ثورات قبلية ومعارك طاحنة بين الطرفين وانضم بعض زعمائهم إلى الأعداء، كما انضم قسم آخر إلى الحركة العباسية وأبي مسلم الخراساني لا لشيء إلا لأن ذلك يوهن قوة القبيلة المعادية. ولقد ضرب الولاة العرب أمثلة قبيحة جداً على هذه السياسة القبلية وعلى هذه العصبية القبلية كقتيبة بن مسلم الباهلي وخالد بن عبدالله القسري ونصر بن سيام والكرماني... وأما الموالي فهؤلاء هم سواد الشعب وهم دافعو الضرائب الحقيقيون. وكان إسلام جماهيرهم سطحياً، ولذلك استغلت الأحـزاب المتنـافـرة وضعهـم المعـاشي والمالي السيء فحاولوا اجتذابهم إليهم. ذلك أن الموالي، وهم سكان البلاد المفتوحة الذين أسلموا، كانوا يعتبرون مواطنين من الدرجة الثانية وكان كثير منهم يدفع الجزية على الرغم من إسلامه، وطبعاً هذا شيء مخالف لتعاليم الإسلام وروحه وشريعته السمحاء وكانوا يتحملون القسم الأكبر من العبء المالي للدولة. ولذلك حاولوا تحسين وضعهم، ولقد انتعش أملهم لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة وأمر بوضع الجزية عمن أسلم وبالعدل والإحسان إليهم وإصلاح طريقة جمع العشر

والخراج وغير ذلك من الإصلاحات التي لو تمت واستمرت لغيرت حتى بنية المجتمع الإسلامي الأموي؛ وبالتالي غيرت وجه التاريخ الإسلامي كله. ولكن إصلاحات عمر ماتت بموته وعاد خليفته إلى النظام المتبع في الجباية قبل تولي عمر الخلافة. ولقد حاول الموالي تغيير وضعهم وتحسينه ذلك أولاً بانضوائهم تحت لواء المختار، ثم باعتناقهم مذهب الشيعة السبئية وأخيراً بظهور زعماء ثاروا ضد الدولة وطالبوا بتحسين أوضاع الموالي في خراسان بخاصة كثورة الحارث بن سريج وغيره في خراسان.

ولقد عانى الموالي الأمرين من سياسة الولاة التعسفية ولا سيما الحجاج الذي فرض الجزية على من أسلم ومنعهم من مغادرة قراهم ونقش أسماء قراهم على أيديهم...

ولقد أدى اضطهاد الموالي المستمر وخذلان حركاتهم المستمرة إلى أن أيدوا الدعوة العباسية وضغطوا بذلك على جبهة العرب المتصدعة إلى صدعين كبيرين - بسبب عداء العباسيين للأمويين وبسبب الخلاف القبلي وانقسام العرب إلى قيس ويمن - وتمكنوا بذلك من القضاء على الأمويين ورفع العباسيين إلى سدة الحكم؛ وبدأت بحكم العباسيين، بالنسبة للفرس فقط، صفحة جديدة في تاريخ علاقاتهم بالعرب.

ولعل أجمل تعبير عن وضع العالم الإسلامي ووضع فرقه وإتجاهاته وميوله وأدقه نجده في وصية محمد بن علي بن عبدالله بن عباس لأتباعه ودعاته عندما أرسلهم لبث الدعوة العباسية:

أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة علي بن أبي طالب، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف وتقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل. وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون في أخلاق النصارى. وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان عدواة لنا راسخة وجهلاً

متراكماً. وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وصدوراً سليمة وقلوباً فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ولم تشغلها ديانة ولم يتقدم بها فساد، وليست لهم اليوم همم العرب ولا فيهم كتحازب الأتباع بالسادات وكتحالف القبائل وعصبية العشائر، ولم يزالوا يذلون ويمتهنون ويظلمون ويكظمون ويتمنون الفرج ويوملون الدول. وهم جند لهم أجسام وأبدان ومناكب وكواهل وهامات ولحىً وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أفواه منكرة. وبعد فكأني أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق [1].

الخطابة في العصر الأموي:

وإذا انتقلنا، بعد هذا العرض التاريخي، إلى دراسة الوثائق في العهد الأموي وتطور تكونها ونشوئها وجدنا نوعين رئيسيين من الوثائق هما الخطب والرسائل، وذلك إلى جانب وجود أنواع أخرى أقل شأناً.

أما الخطابة فقد ازدهرت ازدهاراً هائلاً في هذا العهد ونبغ فيها خطباء أفذاذ لا تزال خطبهم تدرس على اعتبار أنها نماذج أدبية. وكلنا يعرف زياداً والحجاج. ولكن العصر ازدهى بعدد كبير من الخطباء كمعاوية وزياد وعبد الملك والحجاج وعتبة بن أبي سفيان وعمرو بن سعيد الأشدق وخالد بن عبدالله القسري وأبي حمزة الخارجي وغيرهم كثير. فلقد كان القوم عرباً يعشقون الكلمة ويطربون للبلاغة والفصاحة ويتأثرون بالمواقف الخطابية البليغة الرائعة، ويعترفون بذلك حتى لو صدر ذلك عن الخصم، ولا أدل على ذلك من قول عبدالله بن الأهتم لزياد بن أبيه لما فرغ من إلقاء خطبته البتراء: أشهد أيها الأمير

---

(١) ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم. عيون الأخبار. نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب. القاهرة، وزارة الثقافة، ١٩٦٣ م، ٤ جـ، ١ جـ ٢٠٤ - ٢٠٥.

لقد أُوتيت الحكمة وفصل الخطاب[1]. وعلى الرغم من أن زياداً رد عليه مكذباً إن ذلك هو نبي الله داود الذي أوتي الحكمة وفصل الخطاب، إلا أن ذلك لا يمنع من الاعتراف بأن الأمر كما وصفه ابن الأهتم وحسه وشعر به. وكانت مواضيع الخطب تدور حول الحياة العامة السياسية كالأمن والحرب والتجنيد والأحزاب والعقائد والشؤون الإدارية المحلية وغير ذلك من شؤون الحياة العامة. وكانت تلقى في المساجد لأن المسجد كان في الإسلام مركز الحياة العامة وإليه يدعو الخلفاء والحكام الناس لإبلاغهم وتحذيرهم وإخبارهم واستشارتهم...

وإذا درسنا الخطابة في العصر الأموي نجد جملها، في الأعم الأغلب، قصيرة قوية تقفز فقراتها قفزاً تحوي قدراً كبيراً من الوعد والوعيد وتعتمد على الإثارة والتخويف والاستشهاد بآيات من القرآن الكريم وضرب الأمثال حتى يستلين الخصم. ولعل أبرز مثل على هذا النوع من الخطب هو خطب الحجاج فكلها أمثلة صارخة على ذلك، ووجد إلى جانب ذلك نوع من الخطب اللين السهل الذي يقوم على الإقناع كبعض خطب معاوية وعمر بن عبد العزيز. أما خطب العلويين فتقوم على محاولة الإقناع بحق آل البيت في الخلافة وتصوير بشاعة الجريمة التي ارتكبت بحق الحسين خاصة وأفراد الأسرة الهاشمية عامة وأنهم مظلومون مقهورون وأنهم بحاجة إلى من ينصرهم، فهي والحالة هذه الوجه العكسي للصورة الفائتة. أما الخوارج فخطبهم قوية عنيفة تهاجم الجميع ولا تداهن ولا ترى بدأً من حرب الظالمين وتستعرض صفحات التاريخ الإسلامي لتصل إلى إثبات حق الخوارج في الثورة والقتل والتدمير، ولعل أشهر مثل على ذلك خطب أبي حمزة في أهل المدينة المنورة، ويمكن القول أن عتبة وزياداً والحجاج وخالداً القسري هم تلاميذ علي بن أبي طالب في الخطابة، فهو أول من خاطب أهل العراق

---

(١) ابن عبد ربه، عمر بن محمد. العقد الفريد. تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الابياري. الطبعة الثالثة. القاهرة. لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٥ م ٧ جـ ٤ جـ ١١٢ - ١١٣.

بالعنف والصرامة واستعمل البلاغة والفصاحة فى سبيل الإقناع والدفاع عن الحق. ولقد سار على منواله خطباء العصر الأموي بدءاً بزياد وعتبة وانتهاءً بخالد القسري وغيره من الخطباء، وكلهم اتبعوا أسلوبه في الخطابة، وإن يكن أربوا إرباءً هائلاً عليه في القسوة والترهيب والتهديد والوعيد.

الرسائل في العصر الأموي:

وأما المكاتبات والرسائل فقد اتبعت الطريقة التي كانت مستعملة زمن الخلافة الراشدة، فأسلوبها بسيط سهل لا تكلف فيه يطرق المرسل الغرض من رسالته طرقاً مباشراً دون واسطة أو تمهيد؛ يفتتح رسالته باسم الله الرحمن الرحيم، ثم يتبعها من فلان إلى فلان سواء أكان المرسَلُ إليه خليفة أو أميراً أو شخصاً عادياً، ثم ينتقل إلى: أحمد الله إليك أو ما شابه، وبعد ذلك ينتقل إلى ذكر الغرض من الرسالة، ويختمها بحمد الله تعالى. ولكن حدث تطوران هامان زمن معاوية، ففي عهده بدأ الولاة والناس يفتتحون رسائلهم إلى الخليفة وإلى من هو أعلى منهم بإسمه ثم يتبعونه بإسم المرسِل: إلى عبدالله معاوية أمير المؤمنين من فلان بن فلان. ويقال إن أول من استن ذلك عبدالله بن عمر الذي عرضت له حاجة إلى معاوية فأرسل إليه يقول: إلى عبدالله معاوية أمير المؤمنين من عبدالله ابن عمر.

كذلك نجد في مراسلات الحكام والولاة دعاء للخليفة لم يكن موجوداً من قبل، هو استعمالهم جملة: أصلحه الله وأكرمه الله. فقد استعمل هذان التعبيران ـ أكرمه الله وأصلحه الله ـ من قبل الضحاك بن قيس الفهري لما خطب بين يدي معاوية مؤيداً ترشيح يزيد لولاية العهد بعد معاوية، بل مطالباً بذلك، وكذلك استعمله بقية الخطباء من بعده واستمر ذلك شائعاً ومستعملاً طوال العهد الأموي في الخطب والرسائل.

قال الضحاك في مفتتح خطبته: أصلح الله أمير المؤمنين وأمتع به... وقال في

مقطعٌ آخر من خطبته: فليوله أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ عهده [١].

وقد ظل الأمر على هذا المنوال حتى أتى الوليد بن عبد الملك فجدد القراطيس وجلل الخطوط وفخم المكاتبات، وتبعه في ذلك من أتى من بعده من الخلفاء الأمويين وزادوا فيه حتى أصبحت الكتابة الديوانية فناً قائماً بذاته تستعمل فيه الجمل الطويلة والمترادفات والتحميدات، والتمجيد، والتضخيم، وتعظيم الحاكم، ولكن عمر بن عبد العزيز شذ عن هذه القاعدة وحاول الرجوع إلى الطريقة القديمة، ورسائله تدل على صحة ذلك. كذلك حاول ذلك ـ دون كبير نجاح ـ يزيد بن الوليد بن عبد الملك. أما من عداهما فقد ساروا على سنة الوليد ابن عبد الملك إلى أن صار الأمر إلى مروان بن محمد آخر خلفائهم وكتب له عبد الحميد الكاتب بن يحيى وكان من اللسن والبلاغة على ما اشتهر أمره، فأطال الكتب وأطنب فيها حيث اقتضى الحال تطويلها والإطناب فيها حتى يقال إنه كتب كتاباً عن الخليفة جاء وقر جمل واستمر ذلك فيما بعده [٢].

الحسن بن علي:

والآن نورد فيما يلي بعض الملاحظات الانتقادية حول المواضيع المدرجة تحت أسماء الخلفاء بدءاً من الحسن وانتهاء بمروان الجعدي. ولقد أدرجنا الحسن بين الخلفاء الأمويين لأن صلته بهم كانت وثقى ولا يمكن فهمه وفهمهم إلا إذا وضعناه بالإطار العام لهذه الدراسة.

كان الحسن شاعراً بتفوقه المعنوي على الآخرين وكان يلح على إظهار ذلك في خطبه ورسائله. فمن ذلك قوله في خطبته لما قتل والده: أيها الناس، من

(١) ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم. الإمامة والسياسة. محمد محمود الرافعي. القاهرة، مطبعة النيل، ١٩٠٤ م ٢ ج في مجلد ١ حـ ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٢) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي. صبح الأعشى في صناعة الانشا. القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩١٤ ـ ١٩١٩ م. ١٤ جـ ٦ جـ ـ ٣٩١.

عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد ﷺ. أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله عز وجل بإذنه[١]... وكان يعتقد بحقه في الخلافة بعد أبيه وأنه أحق الناس بهذا الأمر؛ من ذلك رسالته إلى معاوية يقول له فيها: فإنك تعلم أني أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل أواب حفيظ ومن له قلب منيب[٢]. كذلك كان الحسن يعلم بغض أهل العراق للحرب ويتوقع خذلانهم إياه، ولذلك نجده في خطبه كلها تظهر فيه هذه الروح. من ذلك خطبته في الناس يندبهم لحرب معاوية بعد فشل المفاوضات بين الطرفين ورد عدي بن حاتم عليه وكلامه أمام الناس[٣]. وكذلك خطبته لما بلغه تسلل كثير من أشراف الناس إلى معسكر معاوية[٤]. ولعله ألقاها لما بلغه تسلل عبيد الله بن عباس من معسكره إلى معسكر معاوية. كذلك هناك شك في خطبة له ألقاها أمام معاوية ويطلب منه وذلك بعد تنازله له عن الخلافة، إذ أنها هجوم عنيف صريح قاسٍ على معاوية واتهام له ولأهله وآل أمية بالطغيان، وتعيير لهم بالكفر وكيف أن علياً حاربهم في بدر وأخواتها، ويبدو الخطاب فيها وكأنه موجه إلى معاوية بالذات: طالما قلبتم له [لعلي] الأمور حتى أعلاه الله عليكم، وهو صاحبكم وعدوكم في بدر وأخواتها، جرعكم رنقاً وسقاكم علقاً وأذل رقابكم وأشرقكم بريقكم فلستم بملومين على بغضه، وأيم الله لا ترى أمة محمد خفضاً ما كانت سادتهم وقادتهم في بني أمية[٥].

وأسباب الشك كثيرة: فأولاً ليس من المعقول أن يتفوه الحسن بهذا الكلام

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين. مقاتل الطالبيين. تحقيق السيد أحمد صقر القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٩ م. ص ٥١ - ٥٢.

(٢) نفس المصدر ص ٥٦.

(٣) نفس المصدر ص ٦٠ - ٦١.

(٤) ابن أبي الحديد. المصدر المذكور آنفاً ٤ جـ ٦٩١.

(٥) نفس المصدر جـ ٤ - ٦٩٥.

أمام الناس بعد أن تنازل هو نفسه عن الخلافة وسعى في جمع الشمل وإصلاح ذات البين، وكذلك لا يمكن لمعاوية أن يسمح بحال من الأحوال بإثارة هذه المواضيع التي فيها إضعاف لسلطانه وملكه أن تقال أمامه وأمام أتباعه من أهل الشام علناً؛ ويزداد شكنا إذا علمنا أن اتجاه ابن أبي الحديد علوي وأن الخطبة ـ بنصها هذا ـ لم ترد إلا في ابن أبي الحديد وحده، على حين يورد المسعودي نصاً آخر مختلفاً [1] يطلب من الحضور في آخرها السماع والطاعة لمعاوية، وكذلك يفعل أبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبيين [2].

وكذلك من المشكوك كثيراً أن يذكر معاوية علياً فيحسن الثناء عليه، وهو الذي أمر بلعنه على المنابر وحرص على ذلك حرصاً شديداً، كما ورد في رسالة ذكر صاحب مقاتل الطالبيين أن معاوية أرسلها إلى الحسن جواباً على رسالة سابقة كان الحسن أرسلها إلى معاوية، والرسالة تحوي شعراً استشهد به معاوية وكله مدح بعلي ولعلي بشكل غير مباشر [3]. ومن أغرب الأشياء التي يوردها كل من أبي الفرج في مقاتل الطالبيين وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ذكر معاوية آل الرسول وخصهم بالصلاة والسلام بعد الرسول: أما بعد: فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت به رسول الله ﷺ من الفضل [4]. فهل بلغت الفضلة بمعاوية، وهو الداهية الأريب الذي حارب آل رسول الله ونافسهم على الفوز بالخلافة أن يصلي عليهم ويمتدحهم في رسائله وخطبه؟! إنا نعتقد أن ذلك إضافة من المؤلف أو الناسخ الذي عتاد أن يضع مثل هذه العبارات بعد ورود اسم الرسول الكريم سواء كانت موجودة في الأصل أم لا.

(١) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين. مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. الطبعة الثالثة. القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٨ م ٤ جـ في مجلدين. ٣ ـ ٨

(٢) أبو الفرج الأصفهاني. المصدر المذكور آنفاً. ص ٧٢ ـ ٧٣.

(٣) نفس المصدر ص ٥٣.

(٤) نفس المصدر ص ٥٧.

معاوية بن أبي سفيان:

وأما شخصية معاوية بن أبي سفيان فشخصية حليمة سياسية تصطنع الأناة والحلم وتبرر الوسائل في سبيل الغايات؛ لم يتشبث بتحرج علي وسرعة غضبه. اعتمد على قوة عقله أكثر من قلبه تلمسه حريراً ولكنك تلبس شوكاً وقتاداً، هذه هي الشخصية السياسية المرنة التي غلبت شخصية علي المتحرجة فكانت النتيجة انتصار البراعة الأموية على الشجاعة الهاشمية[١]. من ذلك خطبته في المدينة بعد عام الجماعة، فهو لم يرد جواباً لأهل المدينة الذين هنؤوه بظفره على أعدائه حتى صعد المنبر، وقد كلمهم كلام الواثق من نفسه العارف ببواطن الأمور الذي لا تؤثر فيه مجاملة، الواقعي الذي لا تجعله العواطف ينصرف عن هدفه أو ينحرف عن خط سيره. وإنما أخبرهم منذ البداية أنه يعلم انهم لا يسرون بولايته وإنه أخذها غصباً عنهم وهو يرميهم بعدم الكفاية ويخبرهم أن نفوسهم قد فسدت وان الزمان قد تغير وانه لا بد من سياسة جديدة لمواجهة الظروف الجديدة التي تقوم على ابعادهم عن السياسة ورضاهم بالواقع والحلم على سفه الكلام واعتداده بالسلوك العملي[٢] وتتبع خطبته لما خلص له الأمر وتنازل له الحسن عن الخلافة من نفس المنبع وخاطب أهل الكوفة بنفس الروح التي خاطب بها أهل المدينة[٣].

وقد اتبع معاوية نفس الأسلوب في علاقته بالشيعة والحسن والحسين خاصة، فقد كانت علاقته تقوم على الرضا بالأمر الواقع وعدم السعي لتغييره، لأن

---

(١) الشايب، احمد. الأسلوب. الطبعة الخامسة مزيدة منقحة. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية. ص ١٧٨.

(٢) ابن كثير - عماد الدين أبو الفداء إسماعيل. البداية والنهاية. القاهرة، مطبعة السعاد، ١٣٥١ هـ. ٨ جـ - ١٣٢.

(٣) ابن أبي الحديد. المصدر المذكور آنفاً.

التغيير ليس من الضروري أن يكون نحو الأفضل، وإنما قد يكون نحو الأسوأ. ولعل هذا السلوك هو الذي دفعه لقتل حجر بن عدي وأصحابه لما اتهمهم زياد انهم يدبرون الفتنة وأنهم خلعوا الطاعة، وذلك على الرغم من علمه بمبالغة زياد وعلى الرغم من شهادة شريح بن هانىء بحق حجر وأنه ممن يقيم الصلاة (١)... وأن المرء ليعجب من حلم معاوية على الحسين بخاصة واحتماله له لما وثب على عير كانت مرسلة من اليمن إلى معاوية فصادرها وقسمها بينه وبين أهله ومواليه وصحبه وأرسل يخبر معاوية بما حدث. فماذا كان موقف معاوية؟ إنه ارسل رسالة إلى الحسين يسامحه بما فعل ويقول له فيها: ولكنني قد ظننت - يا ابن أخي - أن في رأسك نزوة، وبودي أن يكون ذلك في زماني فأعرف لك قدرك وأتجاوز على ذلك، ولكني والله أتخوف أن تبتلى بمن لا ينظرك فواق ناقة (٢).

ولقد حاول الشيعة، زمن معاوية، أن يحملوا الحسين على الثورة ضد معاوية وذلك لما مات الحسن أخوه فأرسلوا إليه يقولون: أما بعد: فإن من قبلنا من شيعتك متطلعة أنفسهم إليك لا يعدلون بك أحداً... وعرفوك باللين لأوليائك والغلظة على أعدائك والشدة في أمر الله، فإن كنت تحب أن تطلب هذا الأمر فاقدم علينا فقد وطنا أنفسنا على الموت معك.

ولكن الحسين رحمه الله لم يرض بذلك وطلب منهم اللصوق بالأرض والكمون في البيوت ما دام معاوية حياً، فإن يحدث الله به حدثاً وأنا حي كتبت إليكم برأيي (٣).

كذلك يساورنا الشك حول نص بعض الرسائل التي تبودلت بين معاوية

---

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك. القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٩ م. ٤ جـ ٢٠٣.

(٢) ابن أبي الحديد. المصدر المذكور آنفاً. ٥ جـ ٣٧١ - ٣٧٢.

(٣) أبو حنيفة الدينوري. الأخبار الطوال، بغداد، المكتبة العربية. ص ٢٠٣.

والحسين لما أراد معاوية أن يأخذ البيعة لابنه يزيد . ذلك أن معاوية بذل جهده وجند طاقاته في سبيل هذه القضية وقام الخطباء يخطبون وبايع الناس إلا نفراً من قريش على رأسهم الحسين بن علي وعبدالله بن عباس وعبدالله بن الزبير وعبدالله ابن عمر . وقد أرسل معاوية إلى الحسين رسالة من أجل هذا الغرض ورد الحسين عليها . ولكن الرسالة وجوابها لا تحويان شيئاً له علاقة بقضية ولاية العهد التي هي الأساس في الموضوع ، وإنما هي عتاب من معاوية ورد عنيف من الحسين [١] .

والشيء نفسه يقال عن خطبة معاوية الوداعية التي ألقاها في الناس أثناء مرضه الذي مات فيه . ذلك أن المفروض في مثل هذه الخطبة أن ينعي الرجل نفسه وأن يستغفر الله ربه وأن يطلب من الآخرين الدعاء له... ولكن نص الخطبة يختلف كل الاختلاف عن هذا . فهي تصنيف للناس وحديث عما هم فيه من القهر والإذلال ومن التقية والخوف؛ وقد شك في صحة نسبتها إليه راويها الجاحظ وقال إن هذا المذهب في الخطابة وتصنيف الناس مذهب علي لا مذهب معاوية وان المناسبة تتطلب خطبة غير هذه الخطبة [٢] .

ومن الرسائل التي توضع موضع التساؤل هي رسالة ملك الروم إلى معاوية وجوابها . فالقصة كلها يقصد بها تمجيد العباسيين وذلك بتمجيد جدهم عبدالله ابن عباس الذي عرف وحده جواب الأسئلة الموجهة من قيصر إلى معاوية والتي عجز عنها الجميع فأرسلها معاوية إلى ابن عباس الذي عرف أجوبتها وأرسلها إلى معاوية الذي أرسلها بدوره الى ملك الروم ، فلما وصلت الأجوبة إلى ملك الروم عرف أن ذلك ليس من عند معاوية وإنما : ما خرج هذا إلا من أهل بيت النبوة [٣] . والقصة كلها تحمل طابعاً إسلامياً وقد وضعت في العصر العباسي

---

(١) ابن قتيبة ، عبدالله بن مسلم . المصدر المذكور آنفاً . ١ جـ ٢٨٤ - ٢٨٦ .

(٢) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر . البيان والتبيين . تحقيق عبد السلام أحمد هارون . الطبعة الثانية . القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٦٠ م . ٤ جـ ٢ جـ ٥٩ - ٦٠ .

(٣) ابن عبد ربه المصدر المذكور آنفاً . ٢ جـ ٢٠١ - ٢٠٢ .

ـ على ما يظن ـ بقصد إضفاء رواء وعظمة وعلم على ابن عباس الحبر العالم العلامة.

وقد برز في عهد معاوية خطيبان عظيمان شهيران وإن كان أحدهما أشهر من الآخر بكثير. الأول زياد الذي استلحقه معاوية بنسبه وجعله أخاه، والثاني أخوه الحقيقي عتبة بن أبي سفيان واليه على مصر.

أما زياد فهو أشهر الاثنين وأذكاهما وأبرزهما، وهو الذي ضبط العراق بيمينه. أتى العراق، والبصرة خاصة، والفسق فيها بين ظاهر، والطريق مخوفة ففرض النظام ورفع في وجة البصريين والعراقيين عموماً سيفاً صارماً ولقيهم بأيد خشنة وأقام عليهم الحجة بما اقترفوا من آثام، ثم رسم الخطة التي سيسير عليها وحاول ترسم خطى عمر بن الخطاب، ولكنه تجاوزه في الشدة إذ أخذ بالشبهة وقتـل على الظنة وفرض النظام فرضاً، فلا مفر من الخضوع إليه، وان تهاون الناس فالسيف أو الباطل يخوضه ليصل إلى الحق. فهو حازم الرأي صارم العزيمة ذكي عملي إذا اقتنع بالرأي فرضه، حاد الذكاء واللسان منظم التفكير حسن التدبير. هو وسط بين عمر بن الخطاب والحجاج في سياسته، مخلص لرعاياه ولمصلحة الدولة والمصلحة العامة فكان زياد أصلح حاكم للعراقيين، وهو في خطبه يعتمد على نوعين من التأثير المعنوي واللفظي. فالكلمات جزلة قوية والسجع والمبالغة وقوة التصوير شائعة في خطبته البتراء: أما بعد: فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغي الموفي بأهله على النار... أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات... لين في غير ضعف وشدة في غير عنف... فإياي ودلج الليل فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه... من غرق قوماً غرقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً [1]. وعبارته على العموم حسنة التقسيم والتوزيع قوية التأثير سريعة الحركة،

(١) الجاحظ. المصدر المذكور آنفاً. ٢ جـ ٦٢ ـ ٦٥.

وهي أوامر صارمة لا بد من تنفيذها.

وأما عتبة: فقد كان والياً على مصر وخطبه كلها تموج بالتهديد والوعيد، وقد استعمل الجمل القوية السريعة التأثير واستعمل التسلسل المنطقي في كلامه وراوح مستمعيه بين اليأس والرجاء وبين العقوبة الرادعة والثواب المجزي: ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جدتم بالمعصية، ولا اوئسكم مراجعة الحسنى ان صرتم إلى التي هي أبر وأتقى [١]. يا حاملي الأم آنف ركبتِ بين عين [٢]. يا أهل مصر: خف على ألسنتكم مدح الحق ولا تفعلونه وذم الباطل وأنتم تأتونه كالحمار يحمل أسفاراً أثقله حملها ولم ينفعه علمها [٣]. وهو في خطبه هذه بالحجاج أشبه به من زياد.

يزيد بن معاوية:

وعهد يزيد عهد قصير، ولكنه مهم كل الأهمية للحوادث التي جرت فيه ولما حدث بعده؛ إذ انه تميز بحادثتين رهيبتين كان لهما أصداء واسعة في التاريخ الإسلامي: ألا وهما وقعة الحرة ومصرع الحسين.

ولقد صورته المصادر المختلفة في صورة قبيحة مشوهة، وأغلبها مجمع على وصفه بأقبح الصفات. فهو سكير وهو سفيه وهو جاهل وهو قاسٍ، ولقد شوهت الدعاية العلوية سمعته وسيرته وطمست محاسنه وأبرزت مساوئه، ولكن يزيد ليس أسوأ ممن أتى بعده من الخلفاء. هذا ولدينا من النصوص ما يمكننا أن نرسم له صورة ليست على الدرجة المعروف من القناعة.

فخطبته لما أصبح خليفة تفصح عن شخص واثق من نفسه عالم إنه ليس بعيٍ

---

(١) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد. الكامل في الأدب. تحقيق إبراهيم الدلجموني. القاهرة، المطبعة الأزهرية، ٣ جـ في مجلد. ٣ جـ - ٣١٢.

(٢) نفس المصدر.

(٣) ابن عبد ربه. المصدر المذكور آنفاً. ٤ جـ ١٤٠ - ١٤١.

ولا عاجز. لما توفي معاوية صعد يزيد المنبر فأقبل الضحاك بن قيس الفهري فجلس إلى جانب المنبر وخاف عليه الحصر فقال له يزيد: يا ضحاك أجئت تعلم بني عبد شمس الكلام[1]؟ كذلك تدل خطبته هذه على تمكن في الكلام وعلى قدرة على استخدام المعاني والألفاظ بشكل طبيعي: إن معاوية كان حبلاً من حبال الله مده الله ما شاء أن يمده ثم قطعه حين شاء أن يقطعه... إن يغفر الله له فهو أهله، وإن يعذبه فبذنبه. وقد وليت الأمر بعده ولست أعتذر من جهل ولا أشتغل بطلب علم فعلى رسلكم فإن الله لو أراد شيئاً كان[2]. كذلك تدل خطبة أخرى له على مطاوعة الألفاظ له وعلى حسن استخدام الجمل والألفاظ والإتيان بالمترادفات وتوليد المعاني وغيرها من صفات الخطيب الجيد [3].

وتدل معالجته لثورة أهل المدينة ورسالته لهم قبل الثورة على حصافة ورغبة في تجنب سفك الدماء، فقد هدد وأوعد وأنذر في رسالته الأولى لأهل المدينة: أما بعد: فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم... إني والله قد لبستكم فأخلقتكم ورفعتكم على رأسي ثم على عيني ثم على فمي ثم على بطني. وأيم الله لو وضعتكم تحت قدمي لأطأتكم وطأة أقل بها عددكم وأترككم بها أحاديث تنسخ منها أخباركم أخبار عاد وثمود[4]. ولكنه خرج عن هذا الأسلوب لما أرسل الجيش إلى المدينة إذ أرسل قائد الجيش مسلم بن عقبة إلى أهل المدينة يبلغهم رسالة من يزيد ويقول: إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول لكم: أنتم الأصل والعشيرة والأهل فاتقوا الله واسمعوا وأطيعوا، فإن لكم عندي في عهد الله وميثاقه عطاءين في كل سنة.. ولكن عندي عهد الله ومثاقه أن أجعل سعر

---

(١) نفس المصدر. ٤ جـ - ٣٧٤..

(٢) المسعودي. المصدر المذكور آنفاً ٣ جـ ٧٥.

(٣) ابن عبد ربه المصدر الذكور آنفاً ٤ جـ ٨٩ - ٩٠.

(٤) القلقشندي المصدر المذكور آنفاً ٦/٣٩٠ - ٣٩١.

الحنطة عندكم كسعر الحنطة عندنا ـ والحنطة يومئذٍ سبع أصع بدرهم ـ وأما العطاء الذي ذهب به عنكم عمرو بن سعيد فعلي أن أخرجه لكم [1].

ولكن ما حيلة يزيد إذا أصر القوم على تحديه وخلعه؟

وأما قضية الحسين واستشهاده فهذه قضية شائكة والآراء فيها مختلفة، ولكن يبدو لنا من النصوص والوثائق التي بين أيدينا أن يزيد لم يكن يريد أن يصل الأمر إلى هذا الحد، ناسياً أن الناس إذا أطلقت من عقالها صعب بل استحال التحكم بها. ولقد بذل المخلصون جهداً كبيراً في سبيل منع الحسين من الخروج واللحاق بأنصاره في الكوفة لعلمهم أن أهل الكوفة غير صادقين في وعدهم وهم الذين خذلوا أباه وأخاه. فأهل الكوفة ـ برسائلهم الكثيرة ـ هم المسؤولون الأولون عن هذه المأساة. كذلك بذل عبدالله بن جعفر ووالي يزيد على مكة عمرو بن سعيد جهوداً أكبر لثنيه عن عزمه وذلك في رسالتيهما اللتين أرسلتا له من قبلها بعد تركه مكة مباشرة، ولكن الحسين رفض ذلك رفضاً قاطعاً وذلك في رسالته التي وجهها إلى عمرو بن سعيد [2].

ولقد حاول يزيد نفسه منع خروج الحسين أو استرداده من الطريق بعد خروجه من مكة وذلك بالرسالة التي أرسلها إلى عبدالله بن عباس. وجوابها يدل على ثقة ابن عباس أن الحسين لن يقطع رحم يزيد أو يفكر بالثورة ضده [3]. ولكن ذلك لم يجد نفعاً ولم يصغ الحسين لأحد وخرج طالباً نوال حقه أو الاستشهاد دونه.

ويبدو الحسين شهماً كل الشهامة قبيل المعركة وأثناءها لما علم بخذلان الناس

---

(١) ابن قتيبة. المصدر المذكور آنفاً؛ ٢ جـ ١٢ ـ ١٣.

(٢) الطبري. المصدر المذكور آنفاً ٤ جـ ٢٩١ ـ ٢٩٢.

(٣) ابن كثير. المصدر المذكور آنفاً ٨٠ جـ ـ ١٦٤.

إياه وإنكار وجوه أهل الكوفة الذين خرجوا في جيش ابن زياد لحربه كشبث بن ربعي وغيره إنهم أرسلوا له رسائل يطلبون منه القدوم إليهم. فهو قد رفض النزول على حكم ابن زياد[1]، وحسناً فعل، وكذلك طلب من عدد من الأعراب انضموا إليه في الطريق أن يتركوه وشأنه لأنه لا يريد لهم القتل الذي ينتظره[2]. وكذلك يدل سلوكه حتى النفس الأخير على شخص مؤمن بالمثل العليا التي ينادي بها، مستعد للتضحية بالنفس في سبيلها، كرامة نفسه عنده مقدمة على أي اعتبار آخر حتى الحياة. وتبدو هنا مسؤولية ابن زياد أضخم وأعظم وأكبر من مسؤولية يزيد في وقوع هذه المأساة.

معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان:

وأما معاوية بن يزيد فيبدو لنا شخصية خيالية رومانتيكية غارقة في أوهام وأحلام لا أساس لها من الواقع، مع عجز عن تصريف الأمور حدا بمروان بن الحكم أن يلقبه أبا ليلى. والعرب تسمي الشخص العاجز أبا ليلى. ولم يطل عهد ملكه إذ أنه ترك الخلافة وخلف البلاد تغرق في فوضى وحروب أهلية استمرت حوالي عشر سنوات ولم ينقذها منها إلا عبد الملك بن مروان بعد جهود جبارة ومعارك طاحنة ودماء كثيرة.

مروان بن الحكم:

وأما مروان بن الحكم فرجل مجرب أصبح أمل الأمويين بعد تنازل معاوية الثاني ووفاته في الاحتفاظ بالحكم نظراً لصغر سن ولدي يزيد، خالد وعبدالله. ولقد حاول عبيدالله بن زياد أن يوجد له مركزاً ممتازاً في غمار هذه الفوضى، ولكن أهل البصرة خذلوه بعد أن بايعوه ومنوه بالوعود. وهو في خطبته أمامهم

(١) الطبري المصدر المذكور سابقاً ج ٤ ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣

(٢) نفس المصدر ج ٤ ص ٣٠٠

يعرض عليهم منجزاته وما حققه لهم من الأمن والدعة والرغد والرخاء [١]. ولكن ذلك لم يجده نفعا واضطر للهرب واللحاق بمروان.

ولقد التف أنصار يزيد بن معاوية حول مروان، وخاصة اليمانية منهم نظراً لمبايعة القيسية لابن الزبير. وقد قبل عرب الاردن، وهم أخوال يزيد بن معاوية بزعامة حسان بن مالك الانضمام لجانب الأمويين وحرب الزبيريين شريطة أن يجنبهم الغلامين خالداً وعبدالله ابني يزيد لأنهم يكرهون أن يأتي الناس بشيخ ويأتوا هم بصبي [٢]. وقد تم الأمر كما رسم وبويع مروان بالخلافة ورُفض ابن الزبير لأنه منافق خلع خليفتين وكذلك رُفض ابن عمر لضعفه [٣].

ولقد لجأ أنصار مروان إلى اتباع أساليب اقناع الجمهور وإيهامه أن الأكثرية معهم وذلك لما خطب ابنه عبد العزيز مؤيداً دعوى والده وترشيحه للخلافة وكان الأنصار محيطين بالمنبر فهتفوا صدقت صدقت [٤]. ولقد برزت حركة التوابين زمن مروان بن الحكم وابنه عبد الملك، وهي حركة مبعثها ندم الشيعة في الكوفة لتخليهم عن الحسين وعدم نصرتهم إياه حتى آل به الأمر إلى القتل. فقرر هؤلاء بزعامة سليمان بن صرد أن يثوروا حتى يقتلوا قتلته أو يموتوا دون ذلك. وقد برز هذا المعنى واضحاً في خطبة سليمان لما فصل باتباعه لمحاربة ابن زياد إذ أنه أخبرهم انه لا مغانم معه لمن خرج يريد ذلك: من كان إنما أخرجته إرادة وجه الله وثواب الآخرة فذلك منا ونحن منه فرحمة الله عليه حياً وميتاً، ومن كان إنما يريد الدنيا وحرثها فوالله ما نأتي فيئاً نتفيؤه ولا غنيمة نغنمها ما خلا رضوان الله رب العالمين... فمن كان غير هذا ينوي فلا يصحبنا [٥]. ولقد

---

(١) نفس المصدر ٤ ـ ٣٨٧ ـ ٣٩٠.

(٢) نفس المصدر. ٤ جـ ـ ٤١٠.

(٣) نفس المصدر. ٤ جـ ـ ٤١٤.

(٤) ابن قتيبة، المصدر المذكور آنفاً. ٢ جـ ـ ٢٣.

(٥) الطبري. المصدر المذكور آنفاً. ٤ جـ ٤٥٣ ـ ٤٥٦.

حاول أمير الكوفة من قبل ابن الزبير عبدالله بن يزيد أن يثني التوابين عن حركتهم هذه لعلمه بعجزهم عن انجاز أي شيء سوى استشهادهم فأرسل إليهم رسالة يحاول بها صرفهم عن عزمهم ولكنهم رفضوا ذلك على لسان سليمان بن صرد [1].

عبدالله بن الزبير:

وأما ابن الزبير فيمثل وجهاً آخر من وجوه الحركة التاريخية. إنه يمثل شخصاً طامحاً للخلافة ولكن لم يكن أهلها وليس عنده استعداد لها. فقد كان بخيلاً كل البخل والعرب لا تدين لبخيل. كان يعطي الناس فيء الله وكأنه يقسم ميراثه من أبيه الزبير، وكان ذلك معروفاً عنه وقد أراد أخوه مصعب أن يداوي هذا الداء وأن يتلافى هذا العيب الخطير في أخيه فكتب إليه: من سألك شيئاً فاكتب إلي به فإن أعطيته كان حمده لك وإن منعته كان ذمه علي. فلم يكتب لأحد إليه إلا أعطاه فأمسك ابن الزبير عن الكتاب لأحد إليه [2]. والقصص التي تروي بخله كثيرة مستفيضة.

كذلك لم يكن داهية ولم يكن ذا نظر في العواقب، ويمثل هذه الناحية أعظم تمثيل حواره مع الحصين بن نمير قائد الجيش الأموي الذي خلف مسلم بن عقبة في قيادة الجيش الذي أخضع المدينة، وكان محاصراً مكة لما ورده نبأ وفاة يزيد واضطراب الأمر من بعده فاعتقد الرجل ان عبدالله أهل للخلافة فأراد الاتفاق معه والسعي معه في الموضوع وعرض عليه فكرته، وكان يكلمه سراً، فما كان من ابن الزبير إلا أن قال رافعاً صوته: ليس دون أن أقتل بكل قتيل من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام. فما كان من الحصين إلا أن أجابه ذلك الجواب

---

(١) نفس المصدر. ٤ جـ ٤٥٨ - ٤٥٩.

(٢) البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر. أنساب الأشراف. القدس، ١٩٣٨، ٥ جـ - ١٩٥.

السديد: كذب من زعم إنك من دهاة العرب، أكلمك سراً وتكلمني جهراً، وأدعوك إلى الخلافة وتدعوني إلى الحرب!

كذلك عجز ابن الزبير عن تآلف الشيعة وابن عباس وابن عمر، وقد أراد أن يظهر بمظهر العدل والنسك والتشبه بعمر بن الخطاب، وهو بنفس الوقت يخزن المال ويخرج ابن عباس إلى الطائف اخراجاً قبيحاً لأنه رفض مبايعته، وقرر إحراق ابن الحنفية واتباعه إذ رفضوا مبايعته، ولقد ظن إنه وجد في شخص المختار بن أبي عبيد حليفاً يمكن الاعتماد عليه، وكذلك تخلى عنه الخوارج الذين ساعدوه أول أمره ضد الأمويين.

والمختار مثل على المغامر الذي يحاول أن يلعب على جميع الحبال ويستغل جميع الظروف والملابسات والعواطف في سبيل السيطرة، فهو قد ادعى أن محمد بن الحنفية قد أرسله للأخذ بثأر الحسين حتى يجعل الشيعة تلتف حوله؛ وغمز من جانب سليمان بن صرد وذكر أنه ليس صاحب الأمر لأنه عاجز وضعيف وأنه هو المختار صاحب الأمر [1].

ولقد شك كثير من الشيعة في حقيقة أمر المختار فأرسلوا وفداً منهم إلى ابن الحنفية يسألونه رأيه في الموضوع، وعلى الرغم من أن جواب ابن الحنفية لم يكن واضحاً كل الوضوح إلا أن الشيعة اعتبروه كافياً لهم ليتعاونوا مع المختار: وما دعاكم المختار إليه فوالله لوددت أن الله انتصر لنا بمن شاء من خلقه [2].

ولقد دعا المختار إليه الموالي وشاركهم في الفيء فانضموا إليه بأعداد كثيرة، ويبدو ذلك واضحاً من خطبة ابن مطيع في أهل الكوفة يحرضهم على حرب المختار، أيها الناس، إن من أعجب العجب عجزكم عن عصبة منكم قليل عددها

---

(١) الطبري. المصدر المذكور آنفاً. ٤ جـ ٤٤٩.

(٢) البلاذري. المصدر المذكور آنفاً. ٥ جـ ٢٢١ - ٢٢٢.

خبيث دينها ضالة مضلة. اخرجوا إليهم فامنعوا منهم حريمكم وقاتلوهم عن مصركم وامنعوا منهم فيأكم، وإلا والله ليشاركنكم في فيئكم من لا حق له فيه، والله لقد بلغني أن فيهم خمسمائة رجل من محرريكم عليهم أمير منهم، وإنما ذهاب عزكم وسلطانكم وتغير دينكم حين يكثرون[١].

ولقد شعر المختار بحرج موقفه فأراد استرضاء ابن الزبير والحفاظ بنفس الوقت بزعامة الشيعة في الكوفة والارتباط بابن الحنفية، ولكن ذلك لم يكن ممكناً بالنسبة لشخص من طراز ابن الزبير، ذلك أن المختار بلغه أن عبد الملك أرسل جيشاً لمحاربة ابن الزبير وأن الجيش عسكر بوادي القرى فأرسل إلى ابن الزبير يخبره بذلك ويقترح عليه أن يرسل من قبله جيشاً يحارب جيش ابن مروان، ولكن ابن الزبير أرسل إليه يقول: فإن كنت على طاعتي فلست أكره أن تبعث الجيش إلى بلادي وتبايع لي الناس قبلك فإذا أتتني بيعتك صدقت مقالتك وكففت جنودي عن بلادك وعجل بتسريح الجيش الذي أنت باعثه ومرهم فليسيروا إلى من بوادي القرى من جند ابن مروان[٢].

ولكن ذلك لم يكن في مكنة المختار ونشب الصراع بينه وبين ابن الزبير انضم فيه رؤساء القبائل وعامة العرب في الكوفة إلى ابن الزبير ضد المختار فانتهى أمره.

ولقد قويت شوكة الخوارج أيما قوة في عهد ابن الزبير وحاربهم المهلب حرباً لا هوادة فيها حتى تمكن من ردهم عن البصرة، وذلك بعد أن كانوا ساعدوا ابن الزبير ثم انفصلوا عنه على أثر المحاورة الشهيرة التي جرت بينه وبينهم[٣].

وهكذا أثبت ابن الزبير ضعفاً سياسياً مزرياً إلى جوانب نواقصه الأخرى.

---

(١) الطبري. المصدر المذكور آنفاً. ٤ جـ ٥٠٤ - ٥٠٥.

(٢) نفس المصدر. ٤ جـ ٥٤١.

(٣) نفس المصدر. ٤ جـ - ٤٣٧ - ٤٣٨.

فلم يتمكن من استغلال المختار ولا استغلال الشيعة ولا الخوارج وتألب الجميع ضده، وإذا أضفنا إلى ذلك قلة أنصاره المحنكين المجربين أدركنا لماذا عجز عن استخلاص الخلافة لنفسه بعد أن كان خطب له بعد وفاة يزيد في أغلب الأمصار حتى في دمشق نفسها.

ومما يجب ذكره قبل ترك ابن الزبير والانتقال إلى عبد الملك بن مروان الرسائل المتبادلة بين أفراد من الخوارج أنفسهم يعرضون فيها مبادئهم، وهي تعطي صورة صادقة كل الصدق عن عقيدة القوم وأفكارهم ومبادئهم. والرسائل بالحقيقة رسالتان أرسل الأولى نجدة الصغرى الذي يرى العقود إلى نافع بن الأزرق زعيم الغلاة من الخوارج الذي يرى قتل الرجال والأطفال والنساء. والمهم في الموضوع هو إدلاء الطرفين بحججهما في الموضوع، وهما مثلان جيدان للأدب العقدي الخارجي[1].

عبد الملك بن مروان:

يعتبر عبد الملك المؤسس الثاني للدولة الأموية. وقد امتاز عبد الملك بحزم وعزم شديدين مكناه من تحقيق هذا الهدف ومن إعادة بناء الدولة الأموية. فهو قد قضى على خصمه الرئيسي ابن الزبير وأصبح الخليفة الوحيد المعترف به في جميع أنحاء العالم الإسلامي. وقد بايعه ابن الحنفية وابن عمر، وهما زعيمان عظيمان من زعماء الإسلام رفضا مبايعة ابن الزبير. كذلك قضى على بقية الحركات الأخرى كحركة التوابين وثورات الخوارج والثورات المحلية. وقد وطد الأمن وشجع الزراعة والتجارة وحارب الأعداء وتوسع في شمالي أفريقية وعرب الدواوين وسك النقود الإسلامية بحيث يمكن القول دون الخوف من الزلل إن عهده هو العهد الذي مهد لعهد الوليد العظيم في جميع النواحي، وهو نفسه قد

---

(١) ابن عبد ربه. المصدر المذكور آنفاً. ٢ جـ ٣٩٦ ـ ٣٩٨.

فوض الحجاج أن يحكم باسمه ونيابة عن القسم الشرقي للإمبراطورية، كما قد فوض أخاه عبد العزيز أن يحكم الجناح الغربي منها، وقد قام الإثنان بمهمتهما خير قيام.

وتمتاز خطبه بعنفها وشدتها والغلظة على أهل الريب والعصيان. وهو منطقي في طلبه من الرعية: أيها الناس: دعوا الأهواء المضلة والآراء المتشتتة ولا تكلفونا أعمال المهاجرين وأنتم لا تعلمون بها[1] كذلك هو صريح مع أهل المدينة يضرب لهم الأمثال ويبين لهم سبب بغضهم له وسبب بغضه لهم ويذكر أنهم لا يخضعون إلا للقوي العنيف كعمر بن الخطاب الذي أطاعوه مع غلظته وتضييقه عليهم ولا يطيعون اللين الرقيق ويثبون به كما فعلوا بعثمان: يا معشر قريش: وليكم عمر بن الخطاب فكان فظاً غليظاً مضيقاً عليكم فسمعتم له وأطعتم، ثم وليكم عثمان فكان سهلاً ليناً كريماً فعدوتم عليه فقتلتموه، وبعثنا عليكم مسلماً يوم الحرة فقتلكم. فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تحبوننا أبداً وأنتم تذكرون يوم الحرة، ونحن لا نحبكم أبداً ونحن نذكر مقتل عثمان[2] وهو لا يداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف، وهو ليس بالخليفة المستضعف ولا المداهن ولا المأفون[3].

وهو يطلب الإنصاف من رعيته التي تطلب منه أن يسير فيها بسيرة أبي بكر وعمر ولم تسر الرعية بهذه السيرة. ما أنصفتمونا معشر زعيتنا: طلبتم منا أن نسير فيكم وفي أنفسنا سيرة أبي بكر وعمر في أنفسهما ورعيتهما ولم تسيروا فينا ولا في أنفسكم سيرة رعية أبي بكر وعمر فيهما وفي أنفسهما ولكل من القسمة نصيب[4].

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين. الأغاني. بيروت، دار الفكر للجميع، ١٩٧٠ م ٢٠
(٢) جـ في ١٠ مجلدات. ١٥ جـ ـ ١٦٦.
(٣) المسعودي. المصدر المذكور آنفاً. ٣ جـ ١٢٨.
(٤) ابن كثير. المصدر المذكور آنفاً. ٩ جـ ٦٣.
(٥) ابن أبي الحديد. المصدر المذكور آنفاً ٤ جـ ٦٥٥.

ونجد هنا أن عبد الملك وأخاه عبد العزيز والي مصر وأفريقية يخاطبها العمال والناس بعبارة.أكرمه الله وأصلحه الله وذلك بعد ذكر الخليفة أو الأمير. فقد وردت الجملتان معاً في خطبة لموسى بن نصير في بلدة ذات الجماجم أثناء حديثه عن عبد العزيز بن مروان [١]. كذلك خاطب خالد القسري والي عبد الملك على البصرة الخليفة وأورد جملة أكرمه الله [٢] عند ذكر اسمه، وأورد جملة أصلحه الله [٣] في مكان آخر.

ولا يسع المرء إلا أن يعجب بالروح الديموقراطية التي تجلت في خطبة موسى ابن نصير لما ولاه عبد العزيز ولاية أفريقية عوضاً عن واليها السابق حسان بن النعمان. فقد قدم موسى إلى بلدة ذات الجماجم وهناك جمع الجند وخطبهم وبين لهم خططه وما يطلبه منهم وقال فيما قال: وإنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة فليحمد الله وليحض على مثلها، ومن رأى مني سيئة فلينكرها فإني أخطى كما تخطئون وأصيب كما تصيبون [٤]. وكذلك تجلت عبقرية موسى بن نصير العسكرية في معالجة الوضع السيء الذي واجهه لما قدم أفريقية والعدو قريب من البلد فقرر أن يبدأ بالعدو وقلاعه قبل محاولة التوسع فيما وراء ذلك [٥].

وتعتبر وصية عبد الملك لأخيه عبد العزيز لما أقره أميراً على مصر قطعة فنية رائعة وخلاصة ممتازة لتجارب عبد الملك في الحكم ودستوراً في معاملة الناس والتعامل معهم: ابسط بشرك وألن كفك وآثر الرفق في الأمور فإنه أبلغ بك وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك فإنه وجهك ولسانك... وإذا انتهى إليك مشكل فاستظهر عليه بالمشاورة فإنها تفتح مغاليق الأمور. وإذا سخطت على

---

(١) ابن قتيبة. المصدر المذكور آنفاً ٢ جـ ٩٨ ـ ٩٩.

(٢) الطبري المصدر المذكور آنفاً ٥ جـ ١٧ ـ ١٨.

(٣) نفس المصدر ٥ جـ ١٩.

(٤) ابن قتيبة. المصدر المذكور آنفاً ٢ جـ٩٨ ـ ٩٩

(٥) نفس المصدر ٢ جـ ٩٩ ـ ١٠٠.

أحد فأخر عقوبته فإنك على العقوبة بعد التوقف عنه أقدر منك على ردها بعد امضائها [1] .

الحجاج بن يوسف:

والحجاج شخصية قوية كان له من التأثير في العصر الأموي ما فاق به أياً من الولاة الآخرين وما فاق به كثيراً من الخلفاء، وإليه الأمويون مدينون في تثبيت دعائم ملكهم في شرقي الأمبراطورية من جهة، وإلى التوسع الهائل الذي تم زمن الوليد والذي أدى إلى اتساع رقعة الإمبراطورية الإسلامية حتى وصلت إلى الهند وإلى حدود الصين من جهة أخرى. ولكن سياسة الحجاج تقوم على العنف المتناهي وعلى استعمال السيف والقسوة في سبيل تطبيق النظام وفرضه أحب الناس أم كرهوا. إنه يعرف مصلحة الدولة وهي مقدمة على مصلحة الفرد ولا يتحرج عن عمل أي شيء في سبيل مصلحة الدولة. وخطبه ورسائله كلها قطع أدبية فنية تصلح للدراسة ونماذج تحتذى، ولا أجد أديباً أو خطيباً ـ باستثناء المتنبي وعلي ابن أبي طالب ـ طبع خطبه بطابع شخصيته كما فعل الحجاج. تقرأ الخطبة، وهي له، ولكن لا تعلم أنها له، ولكنك إن كنت مطلعاً على أسلوبه الخطابي تحكم فوراً أنها له. وهو جاهلي جبار يفترق عن زياد في إفراطه في الطغيان والشدة على الرعية، ولكنه يفوقه حيوية وبلاغة وفصاحة وإخلاصاً للمصلحة المتمثلة في الخليفة وأسرته. وعلى كل حال فإن خطبته التي ألقاها في أهل الكوفة لما ولي العراق تعد معرضاً لصفاته المذكورة، فالألفاظ ضخمة كالصخور والجمل مقتضبة صاخبة، والتصوير يمثل الهلاك والبلاء. والعبارة أقوى من إعلان الحرب وأشد وقعاً من صوت القنابل والمتفجرات، والتأثير يعتمد فوق ذلك على اقتباس الأشعار وآيات الانذار الارهابية.

---

(١) ابن الطقطقي، فخر الدين محمد بن علي بن طباطبا. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية. القاهرة، ١٩٢٣ م. ص ١٠١ ـ ١٠٢.

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

إني والله لأرى أبصاراً طامحة وأعناقاً متطاولة ورؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني أنا صاحبها؛ كأني أنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى... والله لا أقبل لكم عثرة ولا أقبل منكم عذرة... يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق... والله لألحونكم لحو العود ولأعصبنكم عصب السلمة... طالما سعيتم في الضلالة وسلكتم سبيل الغواية وسننتم سنن السوء... يا عبيد العصا وأ لاد الاماء...[1]

وليست بقية خطبه أقل دلالة على شخصيته أو سياسته من هذه الخطبة، فكلها تمور بالتهديد وتموج بالوعيد وأسلوبها لا يختلف عن بعضها: يا بني اللكيعة وعبيد العصا وأولاد الاماء...[2] وهو لا يعرف المجاملة أو التآليف أو حتى الرغبة وتمني الخير للآخرين. إنه يستكثر على أهل العراق التي تأتي بعد انتهاء فترة الغزو ويحسدهم على الفرح الذي يحصل للإنسان عندما يؤوب إلى بلده من سفر شاق خطر: يا أهل العراق: إني لم أجد لكم دواءً أدوى لدائكم من هذه المغازي والبعوث لولا طيب ليلة الإياب وفرحة القفل منها تعقب راحة؛ وإني لا أريد أن أرى الفرح عندكم ولا الراحة لكم، وما أراكم إلا كارهين لمقالتي، وأنا والله لرؤيتكم أكره[3].

والمبدأ الأساسي الذي يصدر عنه الحجاج والذي أخذ نفسه به وأخذ الآخرين به هو مبدأ الطاعة المطلقة لولي الأمر. فالأمر الذي يصدر عن الحاكم يجب تنفيذه باحباره مهما كان تافهاً ومهما واجه المأمور من عقبات في سبيل تنفيذه، وإلا أصبح دمه حلالاً للحاكم: والله لا آمر أحداً يخرج من باب من

(١) المسعودي. المصدر المذكور آنفاً. ٣ جـ ١٣٣ - ١٣٦.

(٢) المبرد. المصدر المذكور آنفاً. ١ جـ ١٨٨.

(٣) ابن عبد ربه. المصدر المذكور آنفاً. ٤ جـ ١١٨ - ١١٩.

أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه[1].

فهو يكره أهل العراق ويشتد عليهم كل الشدة لأنهم أهل شقاق وخلاف على ولاتهم ولا يطيعون الأوامر التي تصدر إليهم ويهربون عند اللقاء، على حين أنه يحب أهل الشام كل الحب ويمدحهم ويحدب عليهم لأنهم أهل طاعة لولاتهم ينفذون أوامرهم ويتحملون المشاق في سبيل تنفيذها دون اعتراض عليها أو مناقشة:... وكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم وقعة أو يحجزكم إسلام أو يردكم إيمان؟! ألستم أصحابي بالأهواز حيث رمتم المكر وسعيتم بالغدر واستجمعتم للكفر وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته! وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لواذاً وتنهزمون سراعاً. ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية! بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم إذ وليتم كالإبل الشوارد... ثم التفت إلى أهل الشام فقال: يا أهل الشام: إنما أنا لكم كالظليم الذاب عن فراخه ينقي عنها المدر ويباعد عنها الحجر ويكنها من المطر ويحميها من الضباب ويحرسها من الذئاب. يا أهل الشام أنتم الجنة والرداء، وأنتم العدة والحذاء[2].

وموقف الحجاج من الموالي لا يختلف، في شدته، عن موقفه من أهل العراق، ولكنه يتميز باحتقار وإصرار على أن يحتفظوا بمواقعهم وعلى أن يكونوا أداة تستثمرها الدولة في سبيل مصالحها: عذيري من هذه الحمراء [يعني الأعاجم] يرمي أحدهم بالحجر إلى السماء ويقول: يكول إلى أن يقع هذا خير. والله لأجعلنهم كامس الدابر[3].

وعلى الرغم من جبروت الحجاج وشراسته وقسوته، إلا أنه كان يسمح

---

(١) ابن أبي الحديد. المصدر المذكور آنفاً. ١ جـ - ٢٢٦.
(٢) ابن عبد ربه. المصدر المذكور آنفاً ٤ جـ ١١٥ - ١١٧.
(٣) نفس المصدر. ٤ جـ ١٨٨ - ١١٩.

بالمناقشة ويتحلى، بما يمكن أن نسميه لمحات من روح ديمقراطية. وذلك إذا وجد الشخص الجريء الشجاع القادر على الوقوف في وجهه، كما حدث بينه وبين جامع المحاربي الذي رد على الحجاج ذات مرة والحجاج يخطب ويشكو سوء طاعة أهل العراق له: أما أنهم لو أحبوك لأطاعوك... فدع ما يباعدهم عنك إلى ما يقربهم إليك والتمس العافية فيمن دونك تعطها ممن فوقك... ولكن الحجاج رد عليه بقوله: والله ما أراني أرد بني اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف فأجابه جامع: أيها الأمير إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار. فقال الحجاج: الخيار يومئذٍ لله. قال: أجل ولكنك لا تدري لمن يجعله. فقال الحجاج: يا هناه إنك من محارب. فقال جامع:

وللحرب سمينا وكنا محاربا إذا ما القنا أمسى من الطعن أحمرا

فغضب الحجاج منه وقال: والله لقد هممت أن أخلع لسانك فأضرب به وجهك. فقال له: يا حجاج: إن صدقناك أغضبناك وإن كذبناك أغضبنا الله فغضب الأمير أهون علينا من غضب الله [١].

كذلك برهن الحجاج على معرفة خارقة بأمور الحرب ونفسية الجنود ولا سيما المنهزمين منهم، فإنه أدرك أهمية النواحي المعنوية، علم أن الجندي المهزوم من وجه العدو والذي مليء منه خوفاً ورعباً لا يفيد من أجل مقارعة نفس العدو وربما كان وبالاً على نفسه وعلى غيره إذ أنه سيكون سبباً في بث الذعر والخوف في نفوس الآخرين. ويبدو ذلك جلياً في خطبة للحجاج يذم أهل العراق لهربهم من حرب الخوارج ويقول: يا أهل الكوفة: فلا أعز الله من أراد بكم العز ولا نصر من أراد بكم النصر؛ اخرجوا عنا لا تشهدوا معنا قتال عدونا... ولا تقاتلوا معنا إلا من كان لنا عاملاً ومن لم يكن شهد قتال عتاب بن ورقاء [٢].

---

(١) ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم. عيون الأخبار: نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، وزارة الثقافة، م ١٩٦٣ م. ٢ جـ - ١١٢.

(٢) الطبري. المصدر المذكور آنفاً ٥ جـ ٩٢.

ولعل أشد ثورة شهدها الحجاج هي ثورة الفقهاء والقراء بقيادة ابن الأشعث، ذلك أن هذه الثورة نجحت في إكتساح القسم الأكبر من شرقي الإمبراطورية الإسلامية واحتلت البصرة وأيدها العراقيون وأذكى أوارها الفقهاء والقراء بما لهم من نفوذ ديني واسع، وظن العراقيون أنه قد آن الأوان لأن يكيلوا للحجاج بالكيل الذي كال لهم بدل الصاع صاعين أو أكثر وكانوا قاب قوسين أو أدنى من تحقيق حلمهم حتى اضطر الحجاج إلى الاستنجاد بعبد الملك: أما بعد، فياغوثاه ثم ياغوثاه[1]. وعلى الرغم من أن عبد الملك لبى الحجاج: أما بعد: فيا لبيك ثم يا لبيك ثم يا لبيك[2]، إلا أن الثورة وروح العداء التي أججتها أخافت عبد الملك حتى أنه عرض على ابن الأشعث أن يعزل الحجاج عن العراق وأن يمنح ابن الأشعث إحدى الولايات مدى الحياة. ولكن ذلك كان في منتهى الصعوبة بالنسبة للحجاج الذي اعتاد أن يكون السيد المطاع في العراق وغيره فأرسل إلى عبد الملك يحذره من نتائج هذه العروض، وقد لجأ الحجاج، في سبيل إقناع عبد الملك بخطل التفاوض مع الثائرين - بله إجابة طلباتهم - إلى وقائع التاريخ الإسلامي القريبة، وخاصة منها ما كان له علاقة وصلة بالأمويين، والله لئن أعطيت أهل العراق نزعى لا يلبثون قليلاً يخالفوك ويسيروا إليك ولا يزيدهم ذلك إلا جراءة عليك. ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفان؟ فلما سألهم ما يريدون؟ قالوا: نزع سعيد بن العاص. فلما نزعه لم تتم لهم السنّة حتى ساروا إليه فقتلوه. إن الحديد بالحديد يفلح[3]...

ولقد قدر الحجاج المواهب وقدر الرجال الذين يستطيعون إثبات ذواتهم والذين كسبوا احترام أنفسهم إذا عارضوه، على حين كان يحتقر الأشخاص

---

(١) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح. تاريخ اليعقوبي. بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٠ م. ص ٢٧٨.

(٢) نفس المصدر.

(٣) الطبري. المصدر المذكور آنفاً جـ ٥ - ١٥٦.

التافهين ويثقل من وطأته عليهم. فهذا هو المهلب رد على الحجاج واستعجاله إياه في حرب الأزارقة وتهديداته له برسالة شفهية وجهها إلى الحجاج وأرسلها مكتوبة إلى عبد الملك يقول: إنما البلاء أن الأمر إلى من يملكه لا إلى من يعرفه، فإن كنت نصبتني لحرب هؤلاء القوم على أن أدبرها كما أرى، فإن أمكنتني الفرصة انتهزتها وإن لم تمكني فأنا أدبر ذلك بما يصلحه، وإن أردت مني أن أعمل برأيك وأنت غائب، فإن كان صواباً فلك وإن كان خطأ فعليَّ فابعث من رأيت مكاني[1]. ولقد احترم الحجاج في المهلب رجولته ورأيه فأرسل إليه يقول: إني قد رددت الرأي فدبر ما ترى واعمل بما تريد[2].

على حين نرى الحجاج نفسه يخاطب القواد الآخرين الذين تولوا حرب الخوارج بعد المهلب بلهجة قاسية ولا يسمح لهم بالمناقشة، وإنما مهمتهم تنفيذ آرائه واوامره فقط مما أدى إلى انهزام جيوش كثيرة كان يقودها قواد ثانويون كما هي الحال في رسائله إلى سورة بن الأبجر والجزل بن سعيد وغيرهما من القواد[3].

وقد ظل الحجاج مرفوع الرأس أمام جميع الحكام والخلفاء ـ باستثناء عبد الملك ـ فهذا سليمان بن عبد الملك استاء من الحجاج لأنه كان يغفل رسائله ولا يجيب عليها، وذلك زمن أخيه الوليد فأرسل إليه رسالة مملوءة بالوعيد والتهديد. فماذا كان جواب الحجاج على هذه الرسالة؟ وهو يعلم أن سليمان ولي العهد وأن الخلافة صائرة إليه لا محالة. كان جوابه قطعة فنية رائعة من النثر المملوء بالعزة والكرامة وإكرام النفس، وهي في الوقت نفسه خالية من التهديد

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني. المصدر المذكور آنفاً ١٣ جـ ـ ٦٠.

(٢) أبو حنيفة الدينوري. المصدر المذكور آنفاً ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٣) الطبري. المصدر المذكور آنفاً ٥ جـ ٦٠ ـ ٦٥.

العنيف المألوف في أقوال الحجاج وكتاباته وإن احتوت على قدر لا بأس به من التقريع لسليمان[1] .

ولكن المأخذ الوحيد الذي يؤخذ على الحجاج هو استخذاؤه امام جبروت عبد الملك وطغيانه. فقد وجه عبد الملك عدداً من الرسائل العنيفة إلى الحجاج بسبب أنس بن مالك الذي أساء الحجاج معاملته وأغلظ له القول فاشتكى أنس إلى عبد الملك فأرسل إلى الحجاج يلومه ويهدده ويوجه له كلمات قاسية؛ وكذلك رسالة عبد الملك إلى الحجاج بعد وقعة دير الجماجم، وهي تفيض بالوعيد والتهديد والويل والثبور. ولكن أجوبة الحجاج لم يكن فيها ذلك الاستخذاء الذليل الذي نجده عند الآخرين وإنما هو خضوع الجندي لقائده الأعلى يملك حق نقض تصرفاته وحق تقريعه على تقصيره، كما نجد في رسائله لعبد الملك مقارعة للحجة بالحجة ودفعاً للتهم الموجهة ضده أو ضد قومه[2]

الوليد بن عبد الملك:

نأتي الآن إلى عصر الزهو في التاريخ الأموي، وربما في التاريخ الإسلامي كله، وذلك طبعاً بفضل جهود عبد الملك الذي خلف لابنه الوليد خلافة مستقرة وبلاداً مزدهرة وجيشاً قوياً وجهازاً إدارياً كفؤاً فاستغل الفرصة الوليد وقام بإصلاحات اجتماعية واقتصادية وعمرانية رائعة في الداخل، وحارب أعداء الإسلام ووسع رقعة الامبراطورية توسيعاً هائلاً وكان الحجاج ساعده الأيمن في هذا المضمار. وقد اشتهر عصره بالقواد العظام الأكفياء والخطباء البلغاء ويأتي على رأس الجميع الحجاج، ثم يليه خالد بن عبدالله القسري والي مكة وعثمان بن حيان والي المدينة، وهما تلميذان من تلاميذ الحجاج في الخطابة وفي أساليبه الإدارية وفي فصاحتها وبلاغتها، وأما القواد فيكفي عصر الوليد فخراً أنه أنتج

(١) ابن عبد ربه. المصدر المذكور آنفاً ٥ جـ ٤١ - ٤٣.

(٢) نفس المصدر ٥ جـ ٢١ - ٢٩.

قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي الذي قاد الجيوش وفتح السند وهو ابن سبع عشرة سنة.

قاد الجيوش لسبع عشرة حجة يا قربه سؤدداً من مولد

ولا ننسَ موسى بن نصير وطارق بن زياد فاتحي الأندلس.

ولقد امتد نفوذ الحجاج في جميع أنحاء الأمبراطورية حتى شمل مكة والمدينة. ذلك أن عدداً من السياسيين العراقيين هربوا من الحجاج ولجأوا إلى المدينة ومكة فلاحقهم الحجاج هناك وطلبهم وأتى بهم إليه. وذلك واضح من خطبة عثمان بن جيان في أهل المدينة (١) وخطبة خالد القسري في أهل مكة (٢).

هذا ويلمس الدارس لخطبة عثمان هذا نفوذ الحجاج السياسي ونفوذه الخطابي والبلاغي عليه. فقد افتتح خطبته بذم أهل المدينة وتقريعهم وتهديدهم على طريقة الحجاج ثم انتقل إلى ذم أهل العراق: وقد ضوى إليكم من يزيدكم خبالاً أهل العراق هم أهل الشقاق والنفاق... وكانوا (أهل العراق) أول الناس فتق هذا الفتق العظيم نقضوا عرى الإسلام عروة عروة وانغلوا البلدان، والله إني لأتقرب إلى الله بكل ما أفعل بهم (٣). ولكن الشيء الجديد الذي يبدو في هذه الخطبة هو إعلانه أمام الملأ انه أرسل الجواسيس تحصي على الناس أقوالهم وتبلغها له. فهذا أول نص رسمي وصل إلى علمنا عن وجود المخابرات ورجال المباحث تتسمع أقوال الناس وتبلغ عنهم الحاكم في العصر الأموي: يا أهل المدينة: والله ما أنتم بأصحاب قتال فكونوا من أحلاس بيوتكم وعضوا على النواجذ فإني قد بعثت في مجالسكم من يسمع فيبلغني عنكم أنكم في فضول كلام... (٤).

---

(١) الطبري. المصدر المذكور آنفاً. ٥ جـ ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٢) نفس المصدر. ٥ جـ ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٣) نفس المصدر ٥ جـ ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٤) نفس المصدر.

ولقد رافق افتتاح الأندلس كلام كثير عن خطبة عصماء قالها طارق بن زياد مولى موسى بن نصير، وهي تعتبر، في نظر الكثيرين، قطعة فنية رائعة تثير الحماس للقتال والأنفة من الهزيمة؛ وأن طارقاً تمكن بواسطة هذه الخطبة من جعل الجيش يتقدم ويقدم حتى تم له النصر على جيش يفوقه عدة وعدداً. لا شك ان حماسة طارق وكفايته وحسن قيادته وإيمان المسلمين وشجاعتهم واستعدادهم للتضحية، كل ذلك عوامل ساعدت في ربح المعركة، إلى جانب العوامل الأخرى التي كانت تضعف الاسبان وتخذلهم. ولكن لا أدري كيف تسنى لطارق - وهو فتى بربري لا يتقن العربية، بل الخطابة بها - أن يأتي بخطبة هي آية من آيات البلاغة والفصاحة مما يعجز عنه العرب الأقحاح الأصلاء؟ لا نعتقد أن ذلك بالإمكان. كما وأن قصة إحراق السفن التي ترافق هذه الخطبة قصة ملفقة لأن السفن ليست ملكاً لطارق أو للدولة الأموية، وإنما هي عارية مستردة أعارهم إياها يوليان حاكم سبتة الاسباني، كما وان احراقها يعتبر - من جهة نظر عسكرية - عملاً غير صائب ويقطع الصلة بينه وبين الجيش الرئيسي جيش موسى بن نصير الذي يذكر المؤرخون انه انتقل إلى الأندلس بجيشه الرئيسي لما وصلته أنباء الفتح. وإن الدارس لأسلوب هذه الخطبة يجده أسلوباً متأخراً عن زمن طارق بن زياد إذ تكثر فيها التشبيهات والسجع والمترادفات وتبدو فيها آثار الصنعة مما يوحي بأسلوب عباسي من القرن الثامن للهجرة: وقد بلغكم ما انشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال غرباناً واختاركم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان...[1].

---

(١) المقري، أحمد بن محمد التلمساني. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب... تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. القاهرة دار الكتاب العربي، ١٩٤٩ - ١ جـ ٢٢٥ - ٢٢٦.

والذي يبدو لنا، أن الخطبة بنصها الأصلي، إن وجدت أصلاً، كانت قصيرة عادية، ولكن الرواة زادوا فيها وغيروا فيها وأعادوا صياغتها حتى أصبحت بشكلها المعروف المألوف لدينا. مع العلم أننا نميل إلى اعتبارها خطبة منحولة لا علاقة لطارق بن زياد بها، وإن كانت تمثل أفضل تمثيل عواطفه وعواطف من معه وأحاسيسهم وأحلامهم ومطامحهم وواقع الحال في الجزيرة.

وقد كثر في عهد الوليد ومن أتى بعده من الخلفاء تبادل الرسائل بين الخلفاء وولاة عهودهم إذا كان ولي العهد أخاً للخليفة وكلها عتاب ودفاع. يبلغ الخليفة أن ولي عهده تمنى موته واستعجل هلاكه فيعتب عليه ويكتب له بذلك فيرد الآخر معتذراً متنصلاً، ولا ندري مبلغ هذه الرسائل من الصحة، ولكنها تمثل عواطف حقيقية كان يشعر بها ولاة العهود تجاه إخوانهم الخلفاء كما هي الحال بين الوليد وأخيه سليمان[1]، وكما حدث فيما بعد بين يزيد بن عبد الملك وأخيه هشام. وكلها رسائل ذات أهمية كبرى إذ تكشف عن طبيعة النفس الإنسانية وعما كان يحاك في الخفاء وعن أساليب العتاب والدفاع وتطورها حتى أصبحت في العصور المتأخرة فناً أدبياً قائماً بذاته.

سليمان بن عبد الملك:

ويمتاز عهد سليمان بأنه العهد الذي بذرت فيه البذور الأولى التي أدت إلى سقوط الدولة الأموية، ذلك أنه شخص خضع لعواطفه وميوله الشخصية ولم يقم وزناً لمصلحة الدولة فانتقم من جميع الولاة الذين رفعوا شأن الدولة وكانوا السبب في عظمة أخيه الوليد. وفي رأينا أن سياسة سليمان هذه هي التي مهدت الطريق أمام العباسيين وأوجدت التربة الصالحة لنمو الدعاية العباسية. ذلك أنه ضرب المثل الأسوأ للآخرين في تغليب العواطف الشخصية والمصالح الشخصية على مصلحة الدولة والأمة. وأكبر مثل على ذلك معاملته السيئة لموسى بن نصير

(١) المسعودى. المصدر المذكور آنفاً ٣ جـ ١٧٣ - ١٧٤.

وتآمره على ولده عبد العزيز خليفته على الأندلس حتى قتله وأحضر رأسه عنده وأراه لوالده الشيخ، الذي مدح ابنه وأسف لمصرعه، وهذا شيء طبيعي بالنسبة لأي أب مهما تكن الظروف والأصول فما كانْ جواب سليمان له إلا أن قال: بل ابنك المارق من الدين والشاق لعصا المسلمين المنابذ لأمير المؤمنين فمهلاً أيها الشيخ الخرف[1]. هذا السلوك الأخرق الأحمق نسف جميع قواعد الإخلاص والولاء والنصيحة والتضحية في سبيل البيت الأموي، وعلام يضحي الإنسان ويتعب نفسه ويتعب الآخرين في سبيل خليفة حقود حسود وأخرق ينكل بالقواد الأكفاء ويضطهدهم ويسيء إليهم؟ ومن الملاحظ أن سليمان لبس من لحظته الأولى مسوح الوعاظ، فخطبته الإفتتاحية لحكمه هي قطعة من الوعظ للآخرين أكثر منها تبيان لسياسته في إدارة أمور الدولة: إن الدنيا دار غرور وباطل وزينة وتقلب بأهلها تضحك باكيها وتبكي ضاحكها ...[2].

والذي يجب ملاحظته والعناية به وصية أبي هاشم لمحمد بن عبدالله بن عباس. فهي وصية عجيبة حقاً وهي تنسب لعلي بن أبي طالب علم الغيب وأن الأمر صائر إلى ولد محمد بن علي: يا ابن عم: أنا ميت وقد صرت إليك، وهذه وصية أبي إليّ وفيها إن الأمر صائر إليك وإلى ولدك، والوقت الذي يكون ذلك والعلامة وما ينبغي لكم العمل به على ما سمع من أبيه علي بن أبي طالب. وقد ذكرت الوصية عبدالله بن الحارثية بأنه الخليفة المنتظر وإن أخاه عبدالله الذي هو أكبر منه سيأتي بعده: واعلم ان صاحب هذا الأمر من ولدك عبدالله ابن الحارثية ثم أخوه عبدالله الذي هو أكبر منه[3].

وطبعاً هذا شيء غير حقيقي ولا يعلم الغيب إلا الله، ولم يدع الإمام علي ولا غيره أنه يعرف الغيب، والذي يبدو لنا أن هذه الوصية ـ أو على الأقل الفقرات

(١) ابن قتيبة. المصدر المذكور آنفاً ٢ جـ ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٢) المسعودي. المصدر المذكور انفاً ٣ جـ ـ ١٨٤.

(٣) اليعقوبي. المصدر المذكور آنفاً ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

التي فيها تنبؤ والفقرات التي تسبغ الشرعية على الدعوة العباسية ـ قد صيغت في العصر العباسي لغايات سياسية تتعلق بالعباسيين وذلك لمواجهة المعارضة العلوية وأحرارها على ان العلويين هم الخلفاء الشرعيون لعلي بن أبي طالب وللرسول وان العباسيين مغتصبون كما كان الأمويون مغتصبين قبلهم.

ولقد أوقع سليمان بعض الولاة بحرج بسبب طلبه منهم ان يلعنوا الحجاج. فهذا خالد القسري عامل مكة مدح الحجاج قبل برهة ثم أتاه أمر سليمان بعد ان أصبح خليفة بذم الحجاج فما كان منه، للتخلص من الموقف الحرج الذي أوقفه إياه سليمان إلا أن شبه الحجاج بإبليس الذي مدحه الله لحسن عبادته فلما عصى ربه لعنه وطرده من رحمته [١].

عمر بن عبد العزيز:

ولقد حاول عمر بن عبد العزيز ـ خلال خلافته القصيرة ـ ان يوقف العوامل التي كانت تنخر دعائم العرش الأموي، وان يطبق روح الإسلام، فألغى الجزية عمن أسلم وأرضى الشيعة وآل هاشم وأجرى الحق مجراه ومنع الصدام بينه وبين الخوارج.

ويبدو عمر بن عبد العزيز رجلاً منطقياً واسع الاطلاع على التاريخ الإسلامي ووقائعه وذلك في حواره مع الخوارج. ولا سيما عندما طلب منه الخوارج ان يتبرأ من أسلافه ويلعنهم ويلعن الظالمين والفاسقين: أرأيتم لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها؟ فإن كانت كذلك فأخبرني أيها المتكلم متى عهدك بلعن فرعون؟ قال ما أذكر متى لعنته. قال: ويحك لم لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق ويسعني، فيما زعمت، لعن أهل بيتي والتبرؤ منهم [٢].

(١) ابن عبد ربه. المصدر المذكور آنفاً ٤ جـ ـ ١٣٥.

(٢) المسعودي. المصدر المذكور آنفاً ٣ جـ ٢٠٠ ـ ٢٠٢.

وقد حاول عمر مساواة الموالي بالعرب وأمر بوضع الجزية عمن أسلم ومنع التعذيب والضرب بالسياط وغيره من الوسائل البربرية في تحصيل الضرائب، كتب أحد عماله إليه يقول: إني قدمت خراسان فوجدت قوماً قد أبطرتهم الفتنة... فأرسل يكفهم إلا السيف أو السوط وكرهت الإقدام على ذلك إلا بإذنك. فارسل إليه عمر يقول: أنت أحرص على الفتنة منهم لا تضربن مؤمناً ولا معاهداً إلا في حق[1]... وكذلك طلب عمر من واليه على خراسان أن يضع الجزية عمن صلى إلى القبلة؛ ولكن ذلك كسر بيوت الأموال وقرر العامل - وهو ابن الجراح - أن يمتحن المهتدين للإسلام بالختان وكتب بذلك إلى عمر فأجابه عمر: إن الله بعث محمداً ﷺ داعياً ولم يبعثه خاتناً[2].

ورسائله كلها لعماله تنبض بهذه الروح وتنبع من نفس المنبع.

ولقد حاول عمر ان ينصف آل هاشم فألغى لعن علي بن أبي طالب وأبدله بالآية الكريمة: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾ كذلك رد فدك إلى ما كانت عليه زمن الرسول وأبي بكر وعمر وعثمان كما يبدو من رسالته إلى عامله على المدينة: إني نظرت في أمر فدك وفحصت عنه فإذا هو لا يصلح له ورأيت أن أردها على ما كانت عليه زمن رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان[3].

ولقد أمر عمر بتوزيع عشرة آلاف دينار بين آل هاشم، وخاصة أولاد علي من فاطمة، وذلك تعويضاً لهم عن حقوقهم السابقة في بيت المال مما استحق عليه شكرهم. وقد أرسلت له فاطمة بنت الحسين رسال فياضة بالعواطف والشكر له على موقفه النبيل هذا... فوصل الله أمير المؤمنين وجزاه من والٍ خير ما جزى

---

(١) الطبري. المصدر المذكور آنفاً ٥ جـ - ٣١٥.

(٢) نفس المصدر. ٥ جـ - ٣١٦.

(٣) ابن سعد، محمد. الطبقات الكبرى. بيروت، دار صادر. ٥ جـ - ٣٨٩.

أحداً من الولاة... فاقسم لك يا أمير المؤمنين لقد اختدم من آل رسول الله ﷺ من كان لا خادم له[1].

ولعل أطرف حادثة هي قصة الرجل الذي أقسم بطلاق زوجته ان علي بن أبي طالب هو خير البشر بعد رسول الله، وقد اعتقد أبوها ان ابنته طلقت من زوجها على حين اعتقد زوجها ان يمينه برت وان المرأة لا زالت زوجته وقد اختلف الزوج والأب حول الموضوع حتى رفع الأمر إلى عمر فحكم عمر ببر يمين الزوجة ورد زوجته له[2]. ونعتقد ان القصة كلها موضوعة الغاية منها تمجيد علي بن أبي طالب على لسان عمر بن عبد العزيز والدعاية للعلويين. والملاحظ في رسالة عمر إلى أسرى المسلمين في القسطنطينية أنه أصر على ان يفادى المماليك والعبيد والموالي كما يفادى الأحرار... وقد بعثت إليكم فلان ابن فلان يفادي صغيركم وكبيركم، ذكركم وأنثاكم، حركم ومملوككم[3].

يزيد بن عبد الملك:

ولكن هذا العهد الزاهر، الذي كان من الممكن أن ينقذ الدولة الأموية من السقوط وأن يغير مجرى التاريخ الإسلامي كله لو قيض له من يشمر فيه وينميه ويطوره، انقضى بوفاة عمر. ذلك ان خليفته يزيد بن عبد الملك أرسل إلى جميع ولاته غداة أصبح خليفة رسالة نسخة واحدة يطلب منهم إهمال تعاليم عمر والعودة بالناس إلى ما كانوا عليه سابقاً: أما بعد: فإن عمر كان مغروراً غررتموه أنتم وأصحابكم وقد رأيت كتبكم إليه في انكسار الخراج والضريبة، فإذا أتاكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى أخصبوا أم أجدبوا، أحبوا أم كرهوا، حيوا أو ماتوا، والسلام[4].

(١) نفس المصدر ٥ جـ - ٣٩٠.
(٢) ابن أبي الحديد. المصدر المذكور آنفاً. ٥ جـ - ٨٨٤ - ٨٨٥.
(٣) أبو الفرج الأصفهاني. المصدر المذكور انفاً. ٨ جـ - ١٥٧.
(٤) ابن عبد ربه. المصدر المذكور انفاً ٤ جـ ٤٤١.

وكذلك تبادل يزيد وأخوه وولي عهده هشام رسائل العتاب والاعتذار كما فعل الوليد وسليمان من قبل[1] . ولكن الحدث الهام الذي لم يمر له مثيل في التاريخ الأموي هو وجود والٍ يمدح أهل العراق ويصفهم بأنهم أهل السبق والسباق، معارضاً وصف الحجاج إياهم بأنهم أهل الشقاق والنفاق. ولكن عجبنا يزول فوراً إذا تذكرنا أن الشخص المادح للعراقيين هو والٍ ثائر ضد يزيد يطلب من العراقيين نصرته ضد الخليفة. ولذلك نجد يزيد بن المهلب يتملق أهل العراق ويمدحهم ويذم أهل الشام ويدعو أهل العراق لانتزاع حقهم من أهل الشام: يا أهل العراق، يا أهل السبق والسباق ومكارم الأخلاق: إن أهل الشام في أفواههم لقمة دسمة زببت لها الأشداق وقاموا لها على ساق وهم غير تاركيها لكم بالمراء والجدال فالبسوا لهم جلد النمور[2] .

وبالجملة فقد كان حكم يزيد حكماً سيئاً في تاريخ الحكم الأموي اشتغل باللهو وغفل عن تصريف شؤون الدولة وعجز عنها واستشرت في عهده العصبية القبلية وخاصة في خراسان.

هشام بن عبد الملك:

ونجد في هشام ملامح حاكم قدير اهتم بمصالح شعبه إلى حد ما واهتم بمصالح الدولة: ولكنه لم يتمكن من إيقاف العوامل التي أدت بالدولة إلى السقوط، بل بالعكس نجد هذه العوامل قد تبلورت وأخذت شكلها النهائي في عهده. وقد حاول هشام أن يتشبه بأبيه عبد الملك في حزمه وعزمه، ولكنه غفل عن أن ظروفه غير ظروف أبيه. وتميز عهده بالصراع بينه وبين ولي عهده الوليد بن يزيد. وتدل الرسائل المتبادلة بين الاثنين عن كره متبادل يحاول الأول إزاحة الوليد عن ولاية العهد لإسنادها إلى أحد أولاده، ويكره الثاني هشاماً لتصرفاته

---

(١) المسعودي. المصدر المذكور آنفاً ٣ جـ - ٢١٣.

(٢) الجاحظ. المصدر المذكور آنفاً ١ جـ - ٤١٠.

هذه ويعتبره مغتصباً أو كافراً للنعمة التي انعمها عليه أبو الوليد بأن قدم هشاماً لولاية العهد على ولده الوليد، وكذلك نجد هشاماً ينعي على الوليد فسقه وفجوره ويرد عليه هذا بأنه، أي الوليد، على دين أبي شاكر (ابن هشام).

يا أيها السائل عن ديننا   نحن على دين أبي شاكر
نشربها صرفاً وممزوجة   بالسخن أحياناً وبالفاتر [1]

ولقد حاول يوسف بن عمر والي هشام على أن يتشبه بقريبه الحجاج في غشمه وظلمه وجبروته؛ وخطبه تدل على روح من هذا الطراز، ولكن هيهات أن يتشبه بالحجاج أو يلحق به؛ فقد تشبه به في قسوته ولكنه لم يلحقه في فاعليته ولا في فصاحته ولا بلاغته ولا حسن تصريفه للأمور ولا في عبقريته الإدارية. ولقد ملأ خطبه بشتم أهل الكوفة وتهديدهم ولا سيما بعد ان قضى على ثورة زيد بن علي: يا أهل المدرة الخبيثة [يقصد الكوفة] إني والله ما تقرن بي الصعبة ولا يقعقع لي بالشنان ولا أخوف بالذئب. هيهات هيهات!! حبيب بالساعد الأشد. ابشروا يا أهل الكوفة بالصغار والهوان [2].

كذلك تميزت علاقته بواليه على الكوفة قبل يوسف بن عمر خالد القسري بجزر ومد وشد وجذب، ولم يكن بالحازم القوي أو الحليم الرشيد في أمره. ولقد حاول في أكثر من مناسبة ان يتشبه بأبيه ولاسيما في تعامله مع الولاة ولكنه لم يبلغ شأو أبيه. فقد أساء خالد القسري واليه على العراق معاملة شيخ من آل أبي العاص اسمه ابن عمرو وأهانه إهانة بالغة وتألم الرجل من ذلك وأرسل يشكو الوالي إلى الخليفة فغضب هشام وأرسل رسالة تبرق وترعد كلها انذار وتحقير لخالد يؤنبه على عمله هذا ويطلب منه ان يعتذر للرجل وان يرضيه وكذلك

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني. المصدر المذكور آنفاً ٦ جـ - ١٠٣.

(٢) الطبري. المصدر المذكور آنفاً. ٥ جـ - ٥٠٧.

أرسل رسالة إلى ابن عمرو هذا يسترضيه. تقرأ الرسالتين في الطبري فتظن انك تقرأ رسائل عبد الملك إلى الحجاج بشأن أنس بن مالك. ويبدو ان خالداً لم يصدع بما أمر به لأننا لم نعثر على جواب منه للخليفة حول الموضوع. وهذا دليل على ضعف سلطة الخليفة على عماله. ولقد تحرى خالد الخليفة مرة ثانية لما ضرب مولاه بالسياط فأرسل إليه هشام رسالة أخرى يؤنبه فيها.

ولقد تحرك الشيعة زمن هشام بزعامة زيد بن علي ولكن أمكن القضاء عليها بسهولة ولا توازن بحركة الحسين بن علي زمن يزيد بن معاوية، هذا وقد تمكن المسلمون في بلاد ما وراء النهر من كسب انتصار عظيم على خاقان الترك وذلك على الرغم من العصبية القبلية القاتلة بين القبائل العربية، وعُدَّ ذلك نصراً عظيماً إذ تمكن المسلمون من اجتياح معسكر خاقان نفسه وان المرء يكاد لا يصدق ما ورد في رسالة الجنيد والي ما وراء النهر إلى هشام يخبره بالأموال والغنائم التي حازها: إني نظرت في ديواني فوجدت ما أفاء الله علي مذ فارقت بلاد السند ستمائة ألف وخمسين ألف رأس من السبي وحملت ثمانين ألف ألف درهم، وفرقت في الجند أمثالها مراراً [١].

وإن الدارس لأسلوب الرسائل زمن هشام يلاحظ تطوراً في استعمال الكلمات والمترادفات وفي حجم الرسائل، فهنا جنوح إلى الإطناب والإطالة وتكرار المعاني واستقصائها والتأثير على القارىء باستعمال العبارات القوية والألفاظ الجزلة المتينة التي توحي بقوة وعظمة مرسل الرسالة مع التشبيهات الجديدة والاقتباس المفيد من القرآن الكريم وغيره من المصادر.

وتدلنا رسائل هشام على اهتمامه حتى بالجزئيات كرسالته إلى ابنه وقد شكا إليه عجز دابته عن حمله، وكرسالته إلى أحد عماله وقد أرسل له سلة دراقن [٢].

---

(١) اليعقوبي. المصدر المذكور آنفاً. ص ٣١٦.

(٢) الطبري. المصدر المذكور آنفاً ٥ جـ ٥١٦.

الوليد بن يزيد بن عبد الملك:

وقد اضطرب وضع الأمويين بعد موت هشام كل الاضطراب ولا نجد بينه وبين آخر خلفائهم مروان بن محمد إلا شخصين تافهين. فالوليد بن يزيد بن عبد الملك يضرب به المثل في الفسق والفجور وأخباره تملأ كتب الأدب وخاصة كتاب الأغاني، ويهمنا من حكمه هنا ان نذكر انه أرسل إلى عماله نسخة موحدة من كتاب أعلن فيه تسمية ولديه الحكم وعثمان وليي عهد من بعده. هذا العهد قطعة أدبية رائعة أصبح نموذجاً يحتذى في صياغة العهود ولا سيما المتعلقة بالخلفاء وأولياء عهودهم. وهو بالحقيقة تأكيد على شرعية الخلافة وأهميتها وسلطتها وان سلطة الخليفة وطاعته مقرونتان بسلطة الله وطاعته، وأثر ذلك في حفظ الأمة الإسلامية والبلاد الإسلامية والثغور والنكاية بالعدو، كما يؤكد العهد على أهمية الألفة والجماعة وبغض الخلاف والفرقة والفتنة، ثم الانتقال إلى مدح الخليفة لأياديه البيضاء على الشعب وخاصة لأنه نظر لأمة محمد فعين لها من ولي واحد للعهد اثنين. وهذا حق من حقوقه، وهو بنفس الوقت واجب الخليفة الصالح تجاه الله والشعب. وقد جعل السلطة له في تقديم أحدهما أو استبدال أحدهما أو تعيين بديل عن أحدهما في حالة الوفاة. والعهد، بعد، يمتاز بسلاسة الأسلوب وطلاوته وتسلسله المنطقي واستعمال التشابيه الرائعة والاقتباس من القرآن الكريم. وكان له تأثير هائل في صياغة العهود اللاحقة (١).

والذي يلفت النظر في رسالة مروان بن محمد ـ والي الجزيرة وأرمينية آنذاك ـ إلى سعيد بن عبد الملك لما بلغه سعي يزيد بن الوليد بن عبد الملك لخلع الوليد وقتله هو اهتمامه الفائق بمنع نشوب الفتنة وكأنه شاعر ان باب الفتنة إذا فتح بين الأمويين لا يغلق إلا بزوالهم أو بحلول كارثة رهيبة تحل بهم: ولو جمعتني وإياهم [أي المتآمرين] لرمت فسادهم... ولخفت الله في ترك ذلك

(١) نفس المصدر ٥ جـ ٥٢٩ ـ ٥٣٣.

لعلمي ما في عواقب الفرقة من فساد الدين والدنيا، وإنه لن ينتقل سلطان قوم قط إلا في تشتيت كلمتهم، وان كلمتهم إذا تشوشت طمع فيهم عدوهم... فإن فيما سعوا تغيير النعم وذهاب الدولة... ولكل أهل بيت مشائيم يغير الله النعمة بهم[1].

يزيد بن الوليد بن عبد الملك:

ولكن ذلك لم يجد شيئاً وثار يزيد بن الوليد ضد الوليد وقتله وأصبح محله خليفة. ولقد حاول يزيد هذا شرح سياسته لما اصبح خليفة في خطبته الافتتاحية وكأنه ظن نفسه عمر بن عبد العزيز أو عبد الملك، وهي خطبة تقوم على الزهد وضرب المثل بالنفس والاستشهاد بموقف أبي بكر: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق... فإن علمتم أحداً ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم فأردتم أن تبايعوه فأنا أول من يبايعه ويدخل في طاعته[2]. ولكنه غفل عن ناحية هامة جداً وهي ان الرعية والشعب والوقت والوضع العام ليست هي كما كانت زمن أبي بكر أو عمر أو عبد الملك، وكانت النتيجة وبالاً على الدولة والبيت المالك والبلاد ومات قبل ان يتمكن من انجاز أي شيء. ولقد حذر واليه على خراسان نصر بن سيار أهل خراسان من الفرقة فقال: فاتقوا الله فوالله لئن اختلف فيكم سيفان ليتمنين الرجل منكم ان يخلع من ماله وولده ولم يكن رآه[3].

وتعتبر رسالة يزيد إلى أهل العراق في تبرير قتل الخليفة وحلوله محله مثلاً إنشائياً رائعاً في البلاغة السفسطائية التي تبرر الشيء وتستطيع تبرير نقيضه بمنطق سليم ودفاع عن النفس معجب.

---

(١) نفس المصدر. ٥ جـ ٥٤٤ ـ ٥٤٥.

(٢) نفس المصدر. ٥ جـ ٥٧٠ ـ ٥٧١.

(٣) نفس المصدر. ٥ جـ ٥٨٤ ـ ٥٨٥.

مروان بن محمد الجعدي:

ولقد دفع ثمن أخطاء آله وأسرته مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، إذ إنه رفض الإعتراف بيزيد وأرسل إلى أخيه الغمر يطلب منه النهوض للمطالبة بدم أخيه الوليد الخليفة المقتول الذي هو دم زكي ويجب ألا يهمل أو يراق ثم زحف هو بنفسه وجيوشه على سورية واستلم الحكم فيها بعد وفاة يزيد وواجه المسؤوليات الجسام التي وجدها أمامه ،ذلك ان عهده تميز بفتن كقطع الليل المظلم: الصراع القبلي بين قيس ويمن وخاصة في خراسان؛ الخوارج في سورية والجزيرة العربية، أطماع البيت المالك الأموي في العرش وثوراتهم ضد مروان، وأخيراً الضربة القاصمة بظهور أبي مسلم الخراساني والحركة العباسية التي نجحت بقتل مروان وإزالة البيت الأموي ونقل الخلافة إلى العباسيين.

وتعتبر خطب أبي حمزة الخارجي في المدينة لما احتلها نموذجاً رائعاً للفصاحة والبلاغة والجرأة والإيمان العميق والتسلسل المنطقي والاستناد إلى الأصول التاريخية في سبيل إثبات ما يريد اثباته؛ وهو يدافع عن أتباعه الذين عيّره أهل المدينة بأنهم شباب فيصفهم وصفاً يجعلهم ابطالاً مقدسين حتى في أعين خصومهم: شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أقدامهم، قد باعوا أنفساً تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً... فكم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها من خشية الله[1]. وهو ثقيل الوطأة على أهل المدينة يؤنبهم لانصرافهم عن سيرة نبيهم وسيرة أبي بكر وعمر ويأخذ عليهم تبلد شعورهم الديني واحساسهم، يا أهل المدينة: ما لي رأيت رسم الدين فيكم باقياً وآثاره دارسة لا تقبلون عظة... قد بليت فيكم جدته وانطمست فيكم سنته ترون معروفه منكراً والمنكر من غيره معروفاً... لبئس الخلق أنتم من قوم مضوا

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني. المصدر المذكور آنفاً ٢٠ جـ ١٠٣ ـ ١٠٥.

قبلكم ما سرتم بسيرتهم ولا حفظتم وصيتهم ولا احتذيتم مثالهم، لو شقت عنهم قبورهم فعرضت عليهم أعمالكم لعجبوا كيف صرف العذاب عنكم [1] وهو يهاجم جميع الحكام باستثناء عمر بن عبد العزيز ولا يمدح إلا أبا بكر وعمر وتظهر في خطبه عقائد الخوارج جلية واضحة.

وأما في مجال الدعوة العباسية فنلاحظ أن أبا مسلم نجح في إيجاد القطيعة النهائية بين مضر واليمن في خراسان مما ساعده على النجاح التام وضرب الطرفين [2]. ولقد انتبه نصر بن سيار لخطر أبي مسلم وحركته وطلب النجدة من الخليفة من أجله مراراً. وحاول لمّ الشمل وارضاء الشق العربي الآخر، ولكن ذلك كان متأخراً جداً ولم يكن الخليفة في وضع يمكنه من إجابة طلبات نصر بن سيار بل أجابه بقوله: ان الشاهد يرى ما لا يراه الغائب فاحسم الثؤلول قبلك [3]. ولقد ساعد العباسيين كل المساعدة حسن بن هبيرة نصر بن سيار وموقفه العدائي منه حتى إنه اعتقل رسل نصر الذين أرسلهم إليه يطلبون منه المدد. وأخيراً تنبه الخليفة، ولكن بعد فوات الوقت، إلى خطر الحركة العباسية على العرش الأموي فطلب من ابن هبيرة واليه على العراق ان يمده بعشرة آلاف جندي قبل ألا يفيده إمداده بمائة ألف: فإن أهل خراسان قد كذبتهم حتى ما رجل يصدق لي قولاً، فامددني بعشرة آلاف قبل أن تمدني بمائة ألف ثم لا تغني شيئاً [4].

ولكن سبق السيف العذل ولم يفعل ابن هبيرة شيئاً فتمكن العباسيون من القضاء على نصر بن سيار ثم الخليفة مروان والبيت الأموي المالك، ثم جاء دور ابن هبيرة نفسه الذي حوصر ثم هزم وأخيراً استسلم للمنصور لقاء الإبقاء على

---

(١) نفس المصدر. ٢٠ جـ ١٠٥ ـ ١٠٨.

(٢) الطبري. المصدر المذكور آنفاً. ٦ جـ ـ ٤٤.

(٣) المسعودي. المصدر المذكور آنفاً. ٣ جـ ـ ٢٥٦.

(٤) الطبري. المصدر المذكور آنفاً. ٦ جـ ـ ٦٣.

حياته ولكن ذلك لم يجده نفعاً إذ ان أبا العباس أصر على أخيه المنصور بضرورة قتله: والله لتقتلنه أو لأرسلن إليه من يخرجه من حجرتك ثم يتولى قتله [١].

ونختم بحثنا هذا بذكر شيء عن خطبة السفاح وخطبة داود بن علي عمه لما أصبح الأول خليفة وانتقل منصب الخلافة من آل أمية إلى آل العباس. الاستشهاد بالقرآن العظيم كثير جداً من أجل تثبيت حق آل البيت الإلهي بمنصب الخلافة وإظهار الأمويين بمظهر المغتصبين الذين كفروا لاغتصابهم الحق من أهله، ثم تملق لأهل الكوفة ولأهل خراسان وامتداح لهم ووعد قاطع بأن الحق سوف يأخذ مجراه ولن يظلم أحد بعد الآن وأن الأمور ستسير حسب ما أمر الله ورسم رسوله. وقد أكد داود بن علي على ان أمور المسلمين هي الدافع الأقوى لهم في الخروج والطلب بحقهم: ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم [٢].

وكذلك تعتبر الخطبتان نموذجين رائعين للبلاغة الساحرة والفصاحة والدفاع عن الحق ومهاجمة الخصم وإظهاره بمظهر المجرم المغتصب، وتصوير الحياة المشرقة والآمال العظيمة التي ستتحقق لهذا الشعب المسكين على أيدي هؤلاء الحكام المنقذين أصحاب الحق الأصلي بالخلافة!!!

---

(١) نفس المصدر. ٦ جـ - ١٠٧.

(٢) نفس المصدر. ٦ جـ ٨٢ - ٨٤.

العصر العباسي الأول

١٣٢ - ٢٤٧ هـ

٧٥٠ - ٨٦١ م

يعتبر العصر العباسي عصر الإبداع في الحضارة الإسلامية. ففيه تم تشكل وتبلور الحضارة الإسلامية بشكلها المعروف ومميزاتها الواضحة، وفيه تم التمازج الحضاري والثقافي في دار الإسلام بين مختلف الأقوام والعروق والأجناس والثقافات، مما أدى، بالتالي، إلى بروز الحضارة الإسلامية ذات الشخصية الواضحة والسمات المميزة التي اشترك في إنتاجها عدد كبير من العروق والأجناس ذوي الحضارات المختلفة والديانات المختلفة. وفيه بلغت هذه الحضارة درجة كمالها وبلوغها الأوج؛ كما شاهدت نهاية هذا العصر بداية الانحطاط والانحدار في هذه الحضارة بالذات. وقد تطورت فيه جميع المعارف الإنسانية وانتشرت في أرجاء العالم الإسلامي من حدود الصين والهند شرقاً إلى الأندلس وحدود فرنسا وإيطاليا وسويسرا غرباً. ثم لم تلبث هذه أن انتقلت إلى أوربا وساهمت،، إلى حد كبير، في إنهاضها وإيقاظها من سباتها، وفي جعلها تأخذ من الحضارة بنصيب موفور.

كما وأن الدين الإسلامي أخذ شكله المعروف به في العالم إذ نمت المذاهب الإسلامية وتعددت كل التعدد وتطورت فيه مذاهب الاعتزال والتصوف وعلم الكلام، وشاهدت نهاية العصر العباسي إقفال باب الاجتهاد في الفقه الإسلامي وغلبة التقليد على الاجتهاد وغلبة الجمود على الإبداع. كما وإن العصر العباسي شاهد في أواخره تقلص وتراجع حدود بلاد الإسلام في عدد من الجهات ـ كما

هو الحال في الأندلس وشمالي سورية. وهذا لا يعني توقف انتشار الإسلام كدين على العكس نشطت الدعاية الدينية بين الأقوام الوثنية في أواسط آسيا وفي الهند وفي أوربا ـ بلاد روسيا وبلاد الخزر ـ وفي غيرها من الأماكن، واعتنق الإسلام أقوام كثيرون بواسطة التبشير الديني والدعوة السلمية إلى الإسلام، وكان من حسن الحظ أن تمكن الإسلام أن يكسب لنصرته أنصاراً متحمسين هم الأتراك بمختلف أجناسهم وأسمائهم كالسلاجقة والعثمانيين الذين لعبوا دوراً مهماً جداً في التاريخ العباسي وما بعده.

كذلك شاهد العصر العباسي سيطرة الروح الدينية على الخلافة العباسية وإلباسها ثوباً دينياً مكنها أن تحافظ على وجودها فترة طويلة من الزمن، على الرغم من أن الخلفاء في عهد المتوكل فما بعد فقدوا تقريباً سلطاتهم الدنيوية. وهذا الرداء الديني الذي لبسته الخلافة العباسية في عصورها الأخيرة هو الذي جعل لها صفة القداسة حتى في نفوس أعدائها، ولم يتجرأ أحد على إلغائها حتى هولاكو سنة ٦٥٦ هـ فقتل آخر الخلفاء العباسيين وألغى الخلافة العباسية في بغداد، بعد كثير من التردد وبعد أن خوف من عاقبة ذلك أشد التخويف. ولنتذكر أن هولاكو لم يكن لديه أي دافع يدفعه لاحترام الخلافة العباسية لأنه وثني، ولذلك فعل فعلته. صحيح أنه قُتِلَ كثير من الخلفاء العباسيين وسمل آخرون وخلع غيرهم وعوملوا معاملة مهينة من قبل بعض الولاة المتنفذين كأمثال القواد الأتراك وغيرهم من آل بويه، ولكن منصب الخلافة نفسه لم يمس ولم يتجرأ أحد منهم على التفكير في إلغائه أو حتى محاولة نقله إلى أسرة أخرى.

وشهدت نهاية هذا العصر حدثين هامين جداً أثرا في مجرى الأحداث في المنطقة كل التأثير، ونعني بذلك هجوم التتر والمغول على العالم الإسلامي من الشرق، وهجوم الصليبيين من الغرب واحتلالهم الساحل الشامي، ولقد أدى هذان الهجومان إلى تدمير قسم كبير من العالم الإسلامي وتدمير حضارته واقتصادياته وجعلاه يفقد قواه الذاتية فترة طويلة من الزمن.

كما وشهد العصر العباسي زوال النفوذ العربي الذي كان للعرب في العصر الأموي باعتبارهم الطبقة الحاكمة، ذلك أن الدعوة العباسية نشأت في بيئة أعجمية واستندت إلى قوم أعاجم مقهورين مظلومين يضطهدهم الأمويون العرب الحاكمون، فأثارت فيهم هذه الدعوة ذكريات الماضي وأثارت فيهم النعرة القومية وحببت إليهم الأخذ بالثأر الذي اقترن مع إعادة الحق المهضوم لآل الرسول.

ذلك أن الدعوة العباسية ولدت ونشأت وترعرعت وانتشرت في خراسان وهي المنطقة الوارثة لأمجاد. الفرس الذين يمجدون ملوكهم وقوميتهم، فربط العباسيون بين هذه النزعة وبين الدعوة لآل الرسول والرضا من آل محمد - وهي دعوة محببة إلى الفرس وأهل خراسان لأنهم بهذه الدعوة وبهذه الطريقة يزيلون الحكم الأموي الكريه الذي يضطهدهم وينتقمون من العرب الذين أذلوهم ويرفعون إلى منصب الخلافة أسرة تعترف بفضلهم في وصولها إلى الحكم، ومبادئها في الحكم والخلافة ونظرتها إليها نظرة ثيوقراطية شبيهة بنظرة الفرس أنفسهم إلى العرش والحاكم. وقد تمكن الدعاة العباسيون أن يزرعوا في قلوب أنصارهم من أهل خراسان الإعتقاد بقوى غيبية للأئمة من آل الرسول كالتنبؤ بالأشياء والأحداث قبل وقوعها وغير ذلك. ويبدو ذلك كله واضحاً من خطبة ألقاها في الجيش العباسي الخراساني قائد هذا الجيش والداعية للإمام قحطبة وذلك قبل إحدى المعارك التي نشبت بين العباسيين والأمويين سنة ١٣٠ هـ. فذكر قحطبة في خطبته أهل خراسان بماضيهم، ثم ذكرهم بظلم الأمويين لهم، ذكر أن الله تعالى سلطهم - أي أهل خراسان - وسخرهم لينتقموا لأنفسهم ولأهل بيت نبيهم:

يا أهل خراسان: هذه البلاد كانت لآبائكم الأولين، وكانوا ينصرون على عدوهم لعدلهم وحسن سيرتهم حتى بدلوا وظلموا، فسخط الله عز وجل عليهم فانتزع سلطانهم وسلط عليهم أذل أمة كانت في الأرض عندهم فغلبوهم على

بلادهم... فكانوا بذلك يحكمون بالعدل... ثم بدلوا وغيروا وجاروا في الحكم وأخافوا أهل البر والتقوى من عترة رسول الله ﷺ فسلطكم عليهم لينتقم منهم بكم ليكونوا أشد عقوبة لأنكم طلبتموهم بالثأر. وقد عهد إلى الإمام أنكم تلقوهم في مثل هذه العدة فينصركم الله عز وجل عليهم فتهزمونهم وتقتلونهم[1].

وهذا لا يعني، ولا يسوغ القول، إن دولة بني عباس أعجمية. ذلك أن العباسيين الأوائل حاولوا التسوية بين العناصر، على الأقل. هذا وإن عصرنا الذي ندرسه هو بالحقيقة عصر صراع مستمر ومرير بين العنصرين العربي والفارسي حول السلطة، وكان يمثل العنصر العربي الخلفاء العباسيون على حين مثل العنصر الفارسي القواد والوزراء الفرس من أمثال أبي مسلم الخراساني والبرامكة والفضل بن سهل. ولقد أدى هذا الصراع وخيبة الفرس فيه إلى ضعف الطرفين وإلى ظهور عنصر ثالث انتزع السلطة منهما، لفترة، وهو العنصر التركي.

ولكن الأمر المهم في الموضوع أن العرب لم يكونوا قادرين على استرداد قواهم، على حين عمل الفرس على الاستقلال فنجحوا وأسسوا دولاً ـ ضمن الامبراطورية العباسية ـ هي دول فارسية إلى حد كبير كالدولة الطاهرية والدولة السامانية وغيرهما.

وعلى الرغم من أن العصر العباسي يعتبر امتداداً للعصر الأموي إلى حدٍ كبير في كثير من النواحي، إلا أن هناك ناحيتين مهمتين خالف فيهما العصر العباسي العصر الأموي. فلأول مرة أصبحت حدود الإسلام غير حدود الخلافة، إذ أن الدولة العباسية لم يدخل في نطاقها الأندلس التي استقلت عن الدولة العباسية منذ

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك. القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٩٣٩ م. جـ ٦ ٥٥ ـ ٥٦.

لحظة تأسيسها، ثم تبعها بعد فترة مناطق كثيرة استقلت عن الدولة العباسية كدولة الأدارسة في المغرب الأقصى ودولة الأغالبة في المغرب الأوسط، وكالدولة الطاهرية في خراسان وغيرها.

كذلك انتقل مركز الخلافة من الشام إلى العراق. وهذا لم يكن مجرد تغيير للعاصمة، وإنما عنى تبدلاً جذرياً في سياسة الدولة وكان له نتائج بعيدة المدى في تشكل الحضارة الإسلامية، ذلك أن نقل العاصمة من دمشق إلى العراق وتأسيس بغداد أدى إلى إضعاف النفوذ العربي وبروز النفوذ الفارسي وعني بالتالي بروز التأثيرات الفارسية ومحاولتها السيطرة على الحياة الإسلامية في كل نواحيها آنذاك.

هذا وإن نقل العاصمة كان شيئاً طبيعياً ومتوقعاً، إذ من المستحيل أن يبقى العباسيون في نفس المكان الذي كان مركز ثقل الأمويين، وكذلك كان من اللازم أن يكونوا قريبين من مكان أنصارهم وهم أهل خراسان.

ولما كان من المستحيل ومن غير المرغوب فيه نقل مركز الخلافة إلى خراسان ـ لبعدها المتناهي عن قلب البلاد الإسلامية ـ ولذلك اختيرت العراق لهذا الغرض.

ونحن لا نعتقد بتقسيم العهود والحضارات والدول إلى أدوار تحددها تواريخ فاصلة، فسقوط الأمويين وحلول العباسيين محلهم لا يعني شيئاً مهماً محدداً من وجهة نظرنا الحضارية التي تعتقد أن الحضارة جدول مستمر متدفق ترفده روافد تختلف باختلاف البيئات والعهود والظروف.

ذلك أن سقوط الأمويين وحلول العباسيين محلهم، كان له نتائج مهمة، ولكن على المدى البعيد وليس على المدى القريب. وهذا السقوط لون الحضارة الإسلامية ولكن لم يغيرها ولم يبدلها تبديلاً جذرياً بحال من الأحوال. ذلك أن بذور الحضارة الإسلامية الأولى كانت قد غرست في العهود السابقة للعهد

العباسي. ولكن هذا التقسيم ـ تقسيم الحضارات والدول ـ إلى عهود ضرورة عملية لتسهيل دارستها وإبراز التيارات المهمة فيها. ولذا وجب الاحتياط والحذر في عملية التقسيم هذه وأن ينبه الدارس إلى أن هذا التقسيم اصطناعي، وقد أوجد فقط لمهمة تسهيل الدراسة.

هذا وقد قسمنا العصر العباسي إلى عصور وعهود، وذلك لطوله من جهة، وبحسب طبيعة السيطرة السياسية والوضع السياسي في العالم الإسلامي من جهة ثانية.

ولقد شاهد العصر العباسي ـ ككل ـ تطورات بالغة الأهمية سياسياً وحضارياً. فقد شاهد تمزق العالم الإسلامي وانتشار الدول المختلفة فيه، كذلك شاهد غارات الصليبيين والمغول.

وشاهد تدهور قوة الإسلام ونمو قوة الروم والافرنج وغارتهم المتكررة على سورية ومصر والأندلس.

وشاهد دخول أعداد غفيرة من الشعوب البدوية القاطنة في أواسط آسيا الوسطى في الدين الإسلامي وتدفقهم إلى قلب بلاد الإسلام ومساهمتهم سياسياً وحضارياً في عالم الإسلام، كالترك والديلم وغيرهم. ولقد شاهد هذا العصر أيضاً بلوغ الحضارة الإسلامية أوج عظمتها ونضج الفكر الإسلامي وانتشار الإسلام في أماكن لم تطأها قدم جندي مسلم واحد، وظهرت فيه بارزة للعيان ردود الفعل الإسلامية ضد الغزوات المتكررة لدار الإسلام. وأخيراً أنهى سقوط بغداد بيد المغول سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وما رافق هذا الغزو من دمار وخراب للقسم الشرقي من الإمبراطورية الإسلامية العصر العباسي.

ولقد أدى سقوط بغداد والخراب المدمر الشامل الذي أحدثه المغول في خراسان وفارس والعراق إلى انتقال مركز الحياة الثقافية والفكرية والسياسية في عالم الإسلام إلى مصر وسورية حيث استقطبتا العلماء لفترة، ثم ظهر بعد ذلك

الدولة العثمانية ونبعت في بلاد الأناضول وهي التي قدر لها أن تبتلع قسماً كبيراً من عالم الإسلام وأن تصبح الدولة الإسلامية الكبرى فترة طويلة من الزمن.

ومن جهة نظرنا نحن، وجهة نظر الوثائق، يعتبر العصر العباسي الأول الذي هو مجال عملنا في هذا الكتاب والذي يبدأ بأبي العباس السفاح وينتهي بالمتوكل على الله - في أوله على الأقل - امتداداً للعصر الأموي وتطوراً له. ذلك أن النماذج التي كانت سائدة في العصر الأموي ظلت هي نفسها سائدة في العصر العباسي. فقد أولى العباسيون الأوائل الخطابة مكاناً مرموقاً في سياستهم العامة، وكذلك كان للرسائل والعهود والمناظرات دور نشط في ذلك العهد. ولكن الصورة تغيرت بعد المنصور، إذ أهمل القوم الخطابة واهتموا بالرسائل والمناشير والبيانات. وحتى أبو جعفر المنصور المعدود من أشهر خطباء العباسيين لا توازن خطبه بخطب الحجاج أو زياد بن أبيه كماً وكيفاً. وعلى الرغم من شهرة أوائل العباسيين بالخطابة كالمنصور وداود بن علي، إلا أنهم يقصرون عن رتبة خطباء العصر الأموي.

أما بعد المنصور، فقد أهملت الخطابة. وإذا وجد خطباء كالمهدي والرشيدوالمأمون، فقد أصبحت خطاباتهم دينية ذات طابع وعظي لا تختلف عن خطب أئمة المساجد التي يعظون الناس بها. وإذا وصلنا إلى عصر المعتصم ومن أتى بعده لا نجد خطيباً واحداً من الخلفاء أو الولاة. وهذا الوضع طبيعي، ذلك أن أغلب أنصار العباسيين كانوا أعاجم لا تهزهم الكلمة الملفوظة ولا تؤثر فيهم الفصاحة والبلاغة. وكان هم العباسيين الأكبر التركيز على الدين باعتبار أنه الدعامة الكبرى لهم ولحقهم في الخلافة، ولذلك إذا وجد خطابة فهي من النوع الديني الذي يرسخ هذه المفاهيم. ولكنهم استعاضوا عن هذا النقص في الخطابة السياسية بالمناشير والبيانات التي كانوا يذيعونها عندما يحدث معهم أمر من الأمور، كالبيان الذي أذاعه المأمون لما قتل علي بن هشام، وكالمنشور الذي أصدره الواثق لما قتل نصر بن شبث الخزاعي.

ولقد كثرت العهود والمواثيق التي كان الخلفاء يصدرونها من أجل تعيين ولاة عهودهم من بعدهم أو التي يمنحها الخليفة لأحد الأفراد الذين شقوا عصا الطاعة. وجميع هذه الوثائق تمتاز بغلبة الناحية الدينية عليها، فهي مليئة بذكر الله تعالى وذكر رسوله وأهمية العهد والوفاء به، وكيف أن الله تعالى وفق أمير المؤمنين لذلك، وهي طافحة بالسور القرآنية التي تدعم هذا الوضع وكلما أوغل القوم في الاستيثاق ومحاولة جعل الأطراف المعنية تتقد بالعهد وتلتزم به سهل على من يريد نقض العهد إيجاد المخرج للتخلص من القيود التي تربطه. ذلك أن أخلاق القوم وسلوكهم الديني كانت تسوغ لهم نقض العهد بمنتهى السهولة. فقد أخذ على المنصور أغلظ المواثيق وأشدها في سبيل تأمين عمه عبدالله بن علي الذي ثار ضده وهزم والتجأ إلى إخوته وسعى له هؤلاء بأخذ الأمان من المنصور. ولكن ذلك لم يمنع المنصور من قتل عبدالله بن علي وقتل ابن المقفع كاتب العهد ومنشئه.

وصدق محمد النفس الزكية عندما هزأ من عرض المنصور عليه في أن يعطيه الأمان فأرسل إليه يقول: أي أمان تعطيني؟ أمان ابن هبيرة أم أمان أبي مسلم أم أمان عمك عبدالله بن علي[1]؟ ونفس الشيء يلاحظ في العهد الذي أخذه الرشيد على ولده الأمين أن يفي بالتزاماته تجاه أخويه وبخاصة تجاه المأمون، فهي من أغلظ العهود والمواثيق، ولكن ذلك لم يمنعه ـ عندما أصبح خليفة ـ من أن يأخذها من الكعبة المشرفة وأن يمزقها وأن يحاول الإخلال بشروطها شرطاً شرطاً.

ولقد استشرى في هذا العصر الجدل الديني النظري ـ بجانب العمل الحربي ـ بين العباسيين وأبناء عمهم العلويين.

---

(١) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد. الكامل.. تحقيق زكي مبارك. القاهرة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٦ م. جـ٣ ص ١٢٧٥.

ذلك أن الحلف العلوي العباسي الذي كان قائماً زمن بني أمية انفرط بمجرد استلام العباسيين الخلافة. فقد أحس العلويون مرارة الخيبة وذاقوا طعم الخذلان، ولذلك لجأوا إلى الثورة والمعارضة. وقد رافق العمل العسكري ودعمه، جدل نظري مهمته أحقية آل علي بالخلافة دون بني العباس. ولقد رد العباسيون التحية بأحسن منها وجادلوا ونافحوا دون حقهم في الخلافة عسكرياً ونظرياً وفي أحقية العباس في الخلافة ووراثة رسول الله دون علي وآل علي. ونرى ذلك واضحاً في مراسلات المنصور ومحمد النفس الزكية وفي أشعار مروان بن أبي حفصة وغيره من شعراء العصر. كذلك برزت الناحية الأدبية البلاغية في البيانات والعهود بروزاً هائلاً طغى على الناحية الإعلامية الإخبارية في تلك البيانات. وإذا حللنا بعض البيانات التي أذيعت آنذاك نجدها قطعة أدبية وفنية وأثر الصنعة الأدبية فيها طاغية كل الطغيان على النواحي الأخرى بحيث يمكن القول أن هذه الناحية بالذات تشكل القسم الأكبر من الوثيقة.

ولسوء الحظ لم نستطع الحصول على وثيقة أصلية واحدة تعود إلى هذا العصر، ذلك أن النكبات التي مرت بالعالم الإسلامي من دمار وخراب وتقتيل، والجهل الذي ران على البشر والعقول خلال حقبة طويلة من الزمن، وطبيعة المادة المسجلة عليها الوثائق تجعل من الصعب جداً، إن لم يكن من المستحيل، وصول الوثائق الأصلية إلينا سليمة، ولذلك استخرجنا وثائقنا من بطون الكتب التاريخية والأدبية، ولحسن الحظ حفظت لنا هذه الكتب قسماً مهماً من هذه الوثائق.

وتشمل الوثائق المواد الملفوظة كالخطابة والحوار والمناظرات وغيرها، والمواد المخطوطة كالرسائل والبيانات والعهود والمعاهدات وغيرها. ونحن لا ندري ما إذا كانت هذه الوثائق صحيحة أم لا، ذلك أن من الضروري تسليط النقد الداخلي عليها لاكتشاف هذه النواحي فيها. وهذه مهمة الدارسين لهذه الوثائق،

وكل ما علينا فعله هو أن نأتي بنص الوثيقة والمصدر الذي استقيت منه وأن نضعها تحت تصرف الباحثين.

ولم نذكر في قسم الوثـائـق الملفـوظـة إلا عـدداً محدوداً جـداً مـن الحوار والمناظرات لأنها كثيرة جداً، ولأن الصفة الوثقية أقل بروزاً فيها من الوثائق المخطوطة كالرسائل والعهود وغيرها، ولذلك أوردنا بعض الأمثلة كنماذج على هذا النوع.

هذا وإن مصادرنا التي استمدينا منها وثائقنا عن العصر العباسي هي - في الأعم الأغلب - نفس المصادر التي استقينا منها وثائقنا عن العصر الأموي. ويأتي كتاب الطبري على رأس القائمة، وهو كتاب جليل وميزته أنه يورد نصوص عدد كبير من الوثائق لا توجد في غيره. وكان المرء يتوقع أن يجد في كتب التاريخ المحلي كتاريخ بغداد للخطيب البغدادي مثلاً ثروة من الوثائق النادرة غير الواردة في غيره، ولكنه لسوء الحظ خيب أملنا في هذه الناحية بشكل مؤلم ولم نحصل منه إلا على شذرات هنا وهناك من رسائل وخطب وتوقيعات.

وهناك كتاب هام هو كتاب بغداد لابن طيفور، ولكن المنشور منه هو الجزء السادس فقط الذي يقص بعض أخبار المأمون. ولقد أثبتت الوثائق الواردة في هذا الجزء الصغير إنها متطابقة مع الوثائق التي يوردها الطبري لنفس الفترة إلى حد كبير، مما يوحي بصدق الاثنين ولا سيا إذا تذكرنا أن ابن طيفور أقدم قليلاً من الطبري، وهو يعتبر أقدم مؤرخ لبغداد من المؤرخين المسلمين.

ويرد ذكر عدد من نصوص الوثائق في كتب الأدب التي نوردها على أنها نماذج أدبية أوردت لقيمتها الأدبية وحدها، ولكن ذلك لا يمنعنا من اقتباسها وإثباتها على أنها وثائق صدرت في عهد معين وعن خليفة أو حاكم بعينه.

وقد لجأنا إلى اتباع التسلسل الزمني للخلفاء إذ وجدناه أسهل من غيره ومعروفاً أكثر من غيره، ثم قسمنا الوثائق إلى ثلاثة أقسام كبرى: الخطب

فالحوار، فالرسائل. ثم صنفنا كل صنف من هذه الأقسام الكبرى حسب الموضوعات - هذا إذا وجدنا ضرورة لذلك، وكانت غزيرة إلى الحد الذي يتطلب التقسيم حسب الموضوعات.

ولانعتقد أننا جمعنا جميع الوثائق العائدة للعصر العباسي الأول، فلا بد وأنه شذت عن المؤلف وثائق لم تصل إلى علمه، أو وردت نصوص وثائق أخرى في كتب لم تكن في متناول يده، ولكننا نعتقد أننا جمعنا هنا قسماً كبيراً من الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول، وكلنا أمل أن نتدارك ما فاتنا في طبعة قادمة إن شاء الله تعالى.

ولقد بدأنا جمعنا للوثائق بفصل تمهيدي عرضنا به وثائق الدعوة العباسية، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى ذكر وثائق كل خليفة من الخلفاء حسب التسلسل الزمني لهم.

كان هذا عرضاً موجزاً مجملاً لمنهج عملنا في حقل الوثائق السياسية والإدارية في العصر العباسي الذي يبدأ بالسفاح وينتهي بالمتوكل، والآن سنحاول إعطاء الملامح العامة لكل عصر من عصور الخلفاء العباسيين كما تبدو من خلال الوثائق الموجودة والعائدة لذلك العصر، وبدأنا عملنا بذكر الملامح العامة للدعوة العباسية كما تظهر خلال الوثائق التي تقص سيرتها.

الدعوة العباسية:

ولدت الدعوة العباسية في بلاد الشام، في الحميمة مركز العباسيين، والذين تسلموا الإرث من أبي هاشم ابن محمد بن الحنفية الذي لم يكن له ولد، ولاحظ سليمان بن عبد الملك طموحه لما أتاه زائراً فدس له السم في الطريق، فلما أحس أجله لجأ إلى الحميمة، وهناك، وقبل أن يقضي نحبه، أوصى بالدعوى لبني العباس ويسمى هذا إرث الكيسانية. ولقد قام محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بدور نشيط في الدعوة السرية للرضا من آل محمد واختار خراسان موطناً لنشر الدعوة، وذلك لبعدها عن مركز الخلافة الأموية وللظلم السائد بين أهلها ولكونهم خلواً

من الإتجاهات السياسية التي كانت تتقسم العالم الإسلامي آنذاك ولقد أحسن العباسيون فعلاً اختيار المكان واختيار الدعاة، وتأتي شخصية أبي مسلم الخراساني على رأس هؤلاء الدعاة. وأبو مسلم شخصية غامضة رغم شهرته وبلائه، فهناك خلاف حول اسمه وحول نسبه وولادته ونشأته، ولم يعرف إلا عندما أسندت إليه قيادة الدعوة العباسية في خراسان. وهو شخصية ذكية داهية أريب ذو أعصاب من فولاذ لا تؤثر فيه الصدمات ولا تهزه الانتصارات يستقبل أسوأ الأنباء وكأنه يستقبل أمراً عادياً، وتصله أنباء الإنتصارات فلا تلمح على شفتيه حتى طيف ابتسامة. كذلك امتاز بقوته المتناهية وشدته المفرطة واتبع اتباعاً حرفياً وصية إبراهيم الإمام له وفتك بأناس كثيرين حتى وصل فتكه إلى زعماء الدعوة العباسية كسليمان بن كثير.

وهناك عوامل ساعدت أبا مسلم في إنجاح الدعوة العباسية في خراسان. فهناك الحرب القبلية التي كانت مستشرية بين مضر وربيعة والتي زرعت الأحقاد بين الطرفين مما سهل مهمة أبي مسلم كل التسهيل.

ولقد حاول نصر بن سيار، الذي أرسل الرسائل العديدة إلى الخليفة يعلمه حقيقة الوضع في خراسان، أن يوحد شقي العرب في خراسان ليقفوا في وجه الخطر الزاحف على الجميع ولكن الوقت كان متأخراً جداً لمثل هذا العمل، وأمكن بسهولة لأبي مسلم أن يدمر مثل هذا الحلف. ذلك أن نصر بن سيار تمكن أن يعقد صلحاً وقبل هدنة بينه وبين زعيم ربيعة علي ابن الكرماني، فأرسل أبو مسلم إلى علي يقول له: أما تأنف من مصالحة نصر بن سيار وقد قتل بالأمس أباك وصلبه! ما كنت أحسبك تجامع نصر بن سيار في مسجد تصليان فيه[1]. وقد كان في هذه الرسالة ما فيه الكفاية لتقويض ذلك الحلف المزلزل، ومن ثم تمكن أبو مسلم من التغلب على الطرفين بسهولة.

---

(١) الطبري. المصدر المذكور آنفاً جـ ٦ ـ ٤٣.

ومما زاد الطين بلة انشغال مروان بن محمد بمشاكل ومشاغل الغرب والمركز مما جعله في وضع لا يستطيع تقديم مساعدة فعالة لنصر على الرغم من شعور نصر التام بخطورة الوضع في خراسان وبخطورته بالنسبة للبيت الأموي ككل، ورسائله إلى الخليفة وإلى العرب المقيمين في خراسان وإلى ابن هبيرة كلها شواهد ناطقة بحدة شعوره بأهمية الحركة العباسية وخطورتها. من ذلك رسالته إلى مروان يطلب منه النجدة ويقول:

يا أيها الملك الواني بنصرته	قد آن للأمر أن يأتيك من كثب
أصبحت خراسان قد باضت صقورتها	وفرخت في نواحيها بلا رهب
فإن يطرن ولم يحتل لهن بها	يلهبن نيران حرب أيما لهب [1]

ولقد زاد الوضع خطورة حسد ابن هبيرة وعصبيته ضد نصر بن سيار، ذلك أن نصراً، لما يئس من الخليفة، أرسل يطلب النجدة من ابن هبيرة الذي كان في وضع يمكنه من نجدته، ولكن ابن هبيرة، عوضاً عن أن يلبي طلب نصر، إذا به يعتقل رسله الذين أرسلهم إليه ليشرح له الوضع عنده، مما اضطر نصراً أن يكتب بذلك إلى الخليفة الذي أرسل إلى ابن هبيرة يطلب منه أن يطلق سراح رسل نصر وأن ينجده ويقول في رسالته: فأمدني بعشرة الآف قبل أن تمدني بمائة ألف ثم لا تغني شيئاً [2]. ولكن ابن هبيرة لم يفعل شيئاً ولم يحرك ساكناً مما سمح لجيوش العباسيين أن تتغلب بسهولة على نصر بن سيار وقواته المحدودة والتقدم نحو الغرب للاصطدام بابن هبيرة نفسه وبالخليفة مروان، ولقد دفع ابن هبيرة نفسه حياته ثمناً لهذا التقاعس فيما بعد.

وإن الشخص المسؤول عن نجاح الدعوة العباسية في مرحلتها العلنية والأخيرة، وإن لم يقيض له أن يشاهد نجاحها، هو إبراهيم الإمام، ويتكشف إبراهيم لنا -

---

(١) نفس المصدر جـ ٦ - ٣٧.

(٢) نفس المصدر.

في ضوء النصوص القليلة التي بين أيدينا عنه، عن شخصية جبارة وصولية لا يهمها شيء في سبيل الوصول إلى الهدف، وتكشف وصيته لأبي مسلم، لما أسلمه قيادة الدعوة العباسية عن شخص سفاك بطاش لا يبالي بالدماء ولا بالحياة الإنسانية في سبيل إنجاح الدعوة: فاقتل من شككت في أمره ومن وقع في نفسك منه تهمة. فقال أبو مسلم: أيها الإمام فإن وقع في أنفسنا من رجل هو على غير ذلك أحبسه حتى تستبينه؟ قال إبراهيم لا السيف السيف... وأيما غلام بلغ خمسة أشبار فاتهمته فاقتله [1].

وهنا ناحية لا بد من ذكرها في هذه الوصية الشهيرة التي كانت الأساس لأعمال أبي مسلم ومن ثم لنجاحه فيما بعد. ذلك أن إبراهيم الإمام يقول لأبي مسلم الخراساني: يا أبا عبد الرحمن، إنك رجل منا أهل البيت فاحفظ وصيتي. انظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، وانظر هذا الحي من ربيعة فإنهم معهم، وانظر هذا الحي من مضر فإنهم العدو القريب الدار، فاقتل من شككت في أمره... ثم قال له: إن استطعت أن لا تدع بخراسان أرضاً فيها عربي فافعل [2].

يظهر في هذه الوصية تناقض غريب بين قوله أولاً انظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم، وبين قوله أخيراً: إن استطعت أن لا تدع بخراسان أرضاً فيها عربي فافعل. فكيف يمكن إكرام اليمنيين والحلول بين أظهرهم، وفي نفس الوقت استئصال العرب، من خراسان، ويشكل اليمنيون نسبة كبرى منهم؟ هذا التناقض لا يمكن تفسيره، هذا مع العلم أن أغلب المصادر الموجودة بين أيدينا تذكر ذلك بصيغة أو بأخرى. نعتقد أن النص محرف أو أضيف إليه وحذف منه. وينفرد صاحب كتاب العيون والحدائق بإيراد نص يمكن قبوله أكثر من النص

---

(١) ابن قتيبة عبدالله بن مسلم. الإمامة والسياسة تحقيق ط محمد الزيني. القاهرة. مؤسسة الحلبي. جـ ٢ - ٢١٨.

(٢) نفس المصدر.

السابق لعدم وجود تناقض فيه. يقول إبراهيم الإمام موصياً أبا مسلم: يا أبا عبد الرحمن، إنك منا أهل البيت احفظ وصيتي وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم فإن الله عزّ وجل لا يتم هذا الأمر إلا بهم، وربيعة فاتهمهم وكذلك مضر فهم العدو القريب الدار، واقتل من شككت في أمره ولا تخالف أمر هذا الشيخ - يعني سليمان بن كثير - وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني [1].

هذا ولا بد من ذكر أن أنصار الإمام أعطوه قوة معرفة الغيب والتنبؤ بالمستقبل والحوادث قبل وقوعها. فقد ذكر قحطبة في خطبته التي خطبها في جنده قبل أن يعبر بهم الفرات أن الإمام أخبره بأنه - أي قحطبة - لن يعبر الفرات، وأن الجيش يعبره، وللتدليل على صحة ذلك ذكرهم بحادثة سابقة أخبرهم هو فيها أن الإمام محمد أعلمه أنه يلقى بنانة بن حنظلة الكلابي وعامر بن ضبارة المري فيهزمهما ويستبيح عسكرهما ويقتل مقاتلتهما، وأنبأهما بذلك قبل كونه، وقد رأوا صدق ما أخبرهم، وأنه لا كذب فيما قال الإمام [2].

نجحت الدعوة العباسية وظهرت الرايات السود في خراسان وطاردت الرايات البيض في كل مكان حتى اصطدمت الرايتان في معركة الزاب فانهزم الأمويون وهرب مروان بن محمد آخر ملوكهم حتى مصر وهناك أدركه العباسيون وقتلوه. لكن الخلافة العباسية كانت قد أعلنت قبل قتل مروان بفترة ليست قصيرة في مدينة الكوفة، وأصبح أبو العباس - أخو إبراهيم الإمام - خليفة المسلمين وأول خليفة من خلفاء بني العباس. وعلى الرغم من أن أبا سلمة الخلال حاول نقل الخلافة عنهم إلى بني علي، إلا أنه لم يتمكن من ذلك وبويع أبو العباس بالخلافة وألقى خطبة العرش وعاونه في إنهائها عمه داود بن علي.

(١) العيون والحدائق في أخبار الحقائق ومعه كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه تحقيق دي غويه. ليدن، بريل، ١٨٧١م. جـ ٣ - ١٨٤.

(٢) اليعقوبي، ابن واضح، تاريخ اليعقوبي. الطبعة الثانية. بيروت، دار صادر، ١٩٦٠ م جـ ٢ - ٢٤٤.

وإن الدارس لخطبة أبي العباس الافتتاحية يلاحظ أنها كلها بمثابة تأكيد ودعم لحق آل البيت المطلق في الخلافة وفي ميراث النبي. وهو في خطبته لم يعرض لذكر عباسيين أو علويين وإنما استعمل تعبير قرابة الرسول وآل البيت ودعم دعواه هذه بالآيات القرآنية العديدة. كذلك هاجم الأمويين الذين أخذوا الحق من أهله وظلموا وبدلوا، ولم يعرض للخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل إلا عرضاً موجزاً ولم يذكرهم إلا بخير. وهو يعد أن يسير على العدل ويقيم الحق بين الرعية. ويتملق أهل الكوفة، إذ أنه يعلم أن هوى أهل الكوفة مع آل علي: يا أهل الكوفة، أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، انتم لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا وآتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا (١).

وتعتبر خطبة داود بن علي تكملة لخطبة أبي العباس التي قطعه عن استكمالها مرضه واشتدت وعكه فأكملها عمه. ذلك أن داود أكد حق آل البيت المطلق في الخلافة وأكد عدم شرعية خلافة الأمويين جملة وتفصيلاً، وتملق أهل خراسان فوصفهم بأنهم شيعة آل البيت الذين أحيا الله بهم حقهم وذكر أهل الكوفة بالأحقاد التي كانت موجودة بينهم وبين أهل الشام وأنه آن أوان الانتقام من أهل الشام، وركز على أن النصر الذي حازوه على الأمويين هو شيء إلهي أراده الله ونصر عباده، وختم خطابه بقوله: إن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم (٢).

حدث كل هذا ومروان الجعدي آخر خلفاء بني أمية حي يرزق يحارب العباسيين في شمالي العراق، ولذلك يمكن القول إن كل ما مضى لا قيمة له. وكان من الممكن أن يصير كل شيء إلى خراب لو لم تصل الرسالة التالية إلى أبي

---

(١) الطبري. المصدر المذكور آنفاً جـ ٨٢ - ٨٤.

(٢) نفس المصدر.

العباس من صالح بن علي، بعد فترة من الوقت، وكان فيها التثبيت النهائي للخلافة العباسية، وبالتالي لخلافة أبي العباس والقضاء النهائق على الخلافة الأموية في المشرق. هذه الرسالة هي التي أعلنت مصرع مروان الجعدي آخر خلفاء بني أمية في بلاد الشام.

إلى أمير المؤمنين أبي العباس: إنا اتبعنا عدو الله الجعدي حتى ألجأناه إلى أرض عدو الله شبيهه فرعون فقتلته بأرضه[1].

أبو العباس:

تبدو لنا شخصية أبي العباس ـ من الوثائق القليلة العائدة إلى عهده شخصية ذات طابع أقرب إلى الأخذ بأسباب السلم منها بأسباب الحرب، وذلك على الرغم من لقبه المعروف به ـ السفاح ـ وهو لقب لا ندري من ألصقه به وكيف أتاه. وهو في خطبه كلها يعود فيؤكد حق آل البيت في الخلافة ويؤكد أن بني أمية مغتصبون لا حق لهم البتة في هذا الأمر. وكذلك يؤكد لأهل الكوفة خاصة سيره على العدل فيهم وأنهم لن يروا منه إلا ما يحبون، ومما يدل على جنوحه إلى السلم وروحه وإدراكه لمتطلبات العهد الجديد الذي افتتح هو أوله خطبته في أهل الشام بعد أن قتل مروان بن محمد، ذلك أنه بعد أن وجه اللوم لهم وحمل على بني أمية أعلن سياسته الجديدة مع أهل الشام، وهي سياسة قائمة على التسامح: أما أمير المؤمنين فقد ائتنف بكم التوبة، واغتفر لكم الزلة وبسط لكم الإقامة وعاد بفضله على نقصكم وبحلمه على جهلكم فليفرخ روعكم ولتطمئن به داركم، وليقطع مصارع أولئكم فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا[2].

كذلك نلاحظ نفس الروح التسامحية لدى أقاربه وولاته. فها هو عمه داود

---

(١) نفس المصدر جـ ٩٦٦.

(٢) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، العقد الفريد تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري الطبعة الثانية. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩ م. ٤ جـ ٩٧.

ابن علي يعلن منح أمان عام لجميع أهل مكة لما قدمها والياً عليها: وأنتم آمنون بأمان الله أحمركم وأسودكم وصغيركم وكبيركم وقد غفرنا التبعات ووهبنا الظلامات [1].

ونجد نفس الروح في خطب بقية أنصاره وأقاربه وولاته. ولكن الشيء الجديد في الموضوع هو بروز شخصية العباس عم الرسول وأهميته في الإسلام ومكانته العظيمة من الرسول عليه السلام. ويرد هذا مع لوم قريش على عدم اختيارها أحد أفراد آل الرسول للخلافة بعد وفاته. وقد ورد ذلك واضحاً كل الوضوح في خطبة سديف بن ميمون بين يدي داود بن علي في مكة المكرمة: أيزعم الضلال... أن غير آل رسول الله أولى بتراثه؟ ولم وبم معاشر الناس؟ ألكم الفضل بالصحابة دون ذوي القرابة، الشركاء في النسب الورثة السلب، في ضربهم في الفيء لجاهلكم وطعامهم في اللأواء جائعكم...؟ لم ير مثل العباس بن عبد المطلب اجتمعت له الأمة بواجب حق الحرمة أبو رسول الله بعد أبيه وجلدة ما بين عينيه يوم خيبر، لا يرد له أمراً ولا يعصي له قسماً. إنكم، والله معاشر قريش، ما اخترتم لأنفسكم من حيث اختار الله لكم طرفة عين قط [2].

ونجد نفس الأفكار - وحتى في بعض الأحايين نفس التعابير والكلمات - لدى أبي مسلم الخراساني في خطابه الذي ألقاه في موسم الحج لما حج ذات مرة زمن أبي العباس، ذلك أنه بعد أن قام بعرض تاريخي للاضطهاد الذي حل بآل الرسول بعد وفاته وكيف أنهم أبعدوا عن حقهم الطبيعي وميراثهم من رسول الله قال: وزعموا أن غير آل محمد أولى بالأمر منهم فلمَ وبمَ أيها الناس؟ ألكم الفضل بالصحابة دون ذوي القرابة الشركاء في النسب والورثة في السلب، مع ضربهم على الدين جاهلكم وإطعامهم في الجدب جائعكم. والله ما اخترتم من حيث اختار

---

(١) اليعقوبي. المصدر المذكور آنفاً ٢ جـ ٣٥١.

(٢) نفس المصدر جـ ٢ - ٣٥٢.

الله لكم ساعة قط، وما زلتم بعد نبيه تختارون تيمياً مرة وعدوياً مـرة وأمـويـاً مرة وأسدياً مرة وسفيانياً مرة ومروانياً مرة؛ حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته يضربكم بسيفه فأعطيتموها عنوة وأنتم صاغرون. إلا أن آل محمد أئمة الهدى ومنار سبيـل التقـى القـادة الذادة بنـو عـم رسـول الله ومنـزل جبريـل بالتنزيل... لم يسمع بمثل العباس. وكيف لا تخضع له الأمم بواجب حق الحرمة؟ أبو رسول الله بعد أبيه وإحدى يديه وجلدة ما بين عينيه وأمينه يوم العقبة وناصره بمكة ورسوله إلى أهلها وحاميه يوم حنين عند ملتقى الفئتين (١).

ولقد كشف أبو العباس عن نواحي الخير والطيب في شخصيته في رسالته التي وجهها إلى قائد جيشه في مصر عامر بن إسماعيل الذي تولى قتل مروان الجعدي. ذلك أن هذا القائد الفظ لم يكتف بقتل مروان وإنما دخل بيته ـ بيت مروان ـ وجلس على مهاده ودعا بعشائه وجعل رأسه في حجر ابنته ثم أقبل يوبخها، مما اضطر ابنة مروان إلى أن تذكره بوجوب الاتعاظ والتنبه وعدم الاغترار بالدهر: إن دهراً أنزل مروان عن فراشه وأقعدك عليه حتى تعشيت عشاءه لقد أبلغ في موعظتك وعمل في إيقاظك وتنبيهك إن عقلت وفكرت (٢). ولقد وصلت هذه القصة مسامع أبي العباس فغضب لسلوك عامر هذا وأرسل إليه يوبخه ويقول: ويلك! أما كان لك في أدب الله عز وجل ما يزجرك عن أن تأكل من طعام مروان وتقعد على مهاده وتتمكن من وساده؟! أما والله لولا أن أمير المؤمنين تأول ما فعلت على غير اعتقاد منك لذلك ولا شهوة لمسك من غضبه وأليم أدبه ما يكون لك زاجراً ولغيرك واعظاً (٣).

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة. الطبعة الثانية. بيروت، دار الفكر جـ ٤ ـ ٣١٥ ـ ٣١٦.

(٢) ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح، شذرات الذهب، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، جـ ١ ـ ١٨٤.

(٣) المسعودي، أبو الحسن، مروج الذهب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٦٤ م ٤ جـ الجزء ٣ ـ ٢٧١.

ومما يدل على نواحي الخير والطيب في نفسية أبي العباس على الرغم من أنه قتل وقتل كثيراً من الأمويين وأشياعهم، هو موافقته على أن يمنح أماناً لأحد أفراد بني أمية الذي هرب من القتل وهو عمرو بن معاوية بن عمرو بن سفيان ابن عتبة بن أبي سفيان. ذلك أن هذا الأمير الأموي ضاقت به الأرض بما رحبت فلجأ إلى سليمان بن علي عم أبي العباس وكشف له عن شخصيته فأمنه وأرسل أبي العباس يعرض عليه وضعه ويطلب منه أن يؤمنه وأن يصدر بذلك كتاباً عاماً إلى البلدان بتأمينهم: ... إنه قد وفد وافد من بني أمية علينا، وإنـا إنما قتلناهم على عقوقهم لا على أرحامهم، فإننا يجمعنا وإياهم عبد مناف، والرحم تبل ولا تقتل وترفع ولا توضع، فإن رأى أمير المؤمنين أن يهبهم لي فليفعل، وإن فعل فليجعل كتاباً عاماً إلى البلدان نشكر الله تعالى على نعمه عندنا وإحسانه إلينا [1]

وقد وافق أبو العباس على ذلك وكان هذا أول أمان لبني أمية.

ولكن أبا العباس لم يغفر، مع ذلك، لأبي سلمة الخلال محاولته نقل الخلافة إلى آل علي. وكان يخاف أن يتفق أبو سلمة مع أبي مسلم عليه وعلى العباسيين، ولكن ذلك لم يحدث. ذلك أن أبا مسلم كان يغار من كل ذي سلطان ويخاف أن يحل محله ولذلك نراه يحرض أبا العباس على الفتك بأبي سلمة: اقتل أبا سلمة فإنه العدو الفاسق الخبيث السريرة [2]. ولكن أبا العباس لم يفارقه خوفه حتى في مثل هذه الحالة وخاف أن تكون هناك مؤامرة بين الاثنين أحد عناصرها هذه الرسالة، ولذلك لم يفعل شيئاً بحق أبي سلمة وإنما اكتفى بأن أرسل إلى أبي مسلم يقول: وجه أنت من يقتله [3]. وقد تم الأمر كما أراد أبو العباس إذ أرسل أبو

---

(١) ابن الأثير، عز الدين، الكامل في التاريخ. تحقيق ثـورنبرغ. ليدن، بريل ١٨٧١ م الجزء ٥ ص ٤٣١ - ٣٤٢.

(٢) اليعقوبي، المصدر المذكور آنفاً جـ ٢ - ٣٥٢.

(٣) نفس المصدر.

مسلم من قبله من قتل أبا سلمة الخلال.

وكذلك كان أبو العباس يخاف من أبي مسلم الخراساني ويتمنى الخلاص منه ولكنه لم يجد القوة الكافية والشجاعة الماضية لإنفاذ ذلك، وذلك على الرغم من تحريض أخيه أبي جعفر المتواصل له في أن يفعل ذلك. وكان أبو العباس يحاول الوضع من نفوذ أبي مسلم كلما أمكنه ذلك، ولكنه لم يتجرأ أن يصل به الأمر إلى حالة التحدي السافر أو العداء الصريح. فقد طلب أبو مسلم من أبي العباس أن يسمح له بتأدية فريضة الحج؛ وهذا يعني، أن أبا مسلم سيكون أميراً على موسم الحج. ولما كان أبو العباس لا يريد هذا السمو لأبي مسلم لأن في ذلك رفعاً ودعماً لمكانته فقد كتب إلى أخيه أبي جعفر يطلب منه أن يستأذنه في الحج في نفس العام، حتى يكون لأبي جعفر التقدم على أبي مسلم: إن أبا مسلم كتب إلي يستأذنني في الحج وقد أذنت له، وهو يريد أن يسألني أن أوليه الموسم فاكتب إلي تستأذنني في الحج فآذن لك، فإنك إن كنت بمكة لم يطمع أن يتقدمك [1].

ولكن الأمر اختلف بالنسبة لابن هبيرة، ذلك أن ابن هبيرة تحصن بواسط بعد القضاء على الأمويين وتولى قيادة الجيش المحاصر له أبو جعفر، وقد تمكن ابن هبيرة أن يقاوم مقاومة عنيدة حتى حصل من المنصور على أمان جيد اعتقد أنه يضمن له حياته وحريته وحياة وحرية أتباعه. والواقع أن الأمان بنصه والضمانات والعهود التي يحويها يعتبر وثيقة هامة في الحفاظ على حرية وحياة وأملاك ابن هبيرة وأتباعه، هذا إذا صلحت نيات القوم... إني أمنتكم بأمان الله الذي لا إله إلا هو... أماناً صادقاً لا يشوبه غش ولا يخالطه باطل على أنفسكم وذراريكم وأموالكم وأعطيت يزيد بن عمر بن هبيرة ومن أمنته في أعلى كتابي هذا بالوفاء بما جعلت لهم من عهد الله وميثاقه... وذمة الله وذمة محمد ومن مضى من خلفائه الصالحين... وذمة روح الله وكلمته عيسى بن مريم...

---

(١) ابن الأثير، المصدر المذكور آنفاً جـ ٥ ـ ٤٦٨.

وأعطيتك ما جعلت لك من هذه العهود والمواثيق ولمن معك من المسلمين وأهل الذمة بعد استئماري فيما جعلت لك منه عبدالله بن محمد أمير المؤمنين أعز الله نصره وأمر بإنفاذه... ولك الله الذي لا إله إلا هو لا ينالك من أمر تكرهه في ساعات من ساعات الليل والنهار، ولا أدخل لك في أماني الذي ذكرت لك غشاً ولا خديعة ولا مكراً... وإن عبدالله بن محمد، إن نقض ما جعل لكم في أمانكم هذا فنكث أو غدر بكم... فلا قبل الله منه صرفاً ولا عدلاً وهو بريء من محمد بن علي، وهو يخلع أمير المؤمنين ويتبرأ من طاعته وعليه ثلاثون حجة يمشيها من موضعه الذي هو به من مدينة واسط إلى بيت الله الحرام الذي بمكة حافياً راجلاً، وكل مملوك يملكه من اليوم، إلى ثلاثين حجة... أحرار لوجه الله، وكل امرأة له طالق ثلاثاً... وهو يكفر بالله وبكتابه المنزل على نبيه [1].

ولكن جميع هذه الضمانات لم يكن لها اعتبار ولا وزن عند القوم، ولم تنفع ابن هبيرة بشيء ولم تحفظ عليه حياته. ذلك أن القوم الذين ثملوا بنشوة الانتصار على الأمويين لم يعودوا يبالون بمثل هذه الأمور، واعتقدوا أن معهم الحق في نقضها وعدم الوفاء بها، مما يدل على تدهور الناحية الأخلاقية عندهم، بل والناحية الدينية إذ في نقض العهد مخالفة لأوامر الله تعالى وتعاليم الإسلام.

هذا ويبدو لنا، أن أبا مسلم الخراساني الغيور على سلطته والذي يرى في كل شخص منافساً ممكناً له، خاف أن يتمكن ابن هبيرة أن يصبح ذا حظوة ونفوذ عند العباسيين، وفي ذلك ما فيه من الخطر على أبي مسلم ونفوذه بزعمه، فقرر التخلص منه فأرسل يحرض الخليفة على قتل ابن هبيرة: إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد، لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة [2].

ويبدو أن هذا التحريض صادف هوى ورغبة في نفس أبي العباس الذي

---

(١) ابن قتيبة، المصدر المذكور آنفاً جـ ٢ ـ ١٢٦ ـ ١٢٩.

(٢) الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام، مكتبة القدس. ٦ جـ. الجزء ٥ ـ ٢٠٧

أرسل إلى أخيه عدة رسائل يطلب منه قتل ابن هبيرة، ولكن أبا جعفر كان من رأيه الوفاء له، حتى عيل صبر أبي العباس فأرسل إلى أخيه يقول: والله لتقتلنه أو لأرسلن إليه من يخرجه من حجرتك ثم يتولى قتله [١].

وقد تم الأمر كما رسم أبو العباس وقتل ابن هبيرة مع عدد من أنصاره، وسجل بنو العباس على أنفسهم أنهم أنكث الحكام بالعهود والمواثيق، وأنها كلها لا قيمة لها ولا تساوي ثمن الورق المكتوبة عليه.

هذا وقد تميزت علاقة أبي العباس بالعلويين بالمجاملة والتأدب ومحاولة الاسترضاء وعدم إيصال الأمور إلى حافة الانفجار، فقد كان عارفاً بخيبة الأمل التي أصابتهم نتيجة لانتقال الخلافة إلى بني العباس، وأراد معالجة الأمور بالحكمة، وإذا صح خبر المؤتمر الهاشمي ـ العلوي العباسي ـ الذي عقد زمن بني أمية وبايع فيه الجميع محمداً النفس الزكية بالخلافة ـ وكان أبو العباس وأخوه أبو جعفر من جملة الحاضرين ـ فيكون قد اجتمع أكثر من سبب لدى أبي العباس لمعالجة الأمور بالحكمة ومحاولة إرضاء العلويين. كذلك لم يلجأ العلويون إلى العنف مع أبي العباس وحاولوا رد التحية بأحسن منها. ذلك أن أبا العباس أحسن إليهم وأغدق عليهم الصلات، ولما تغيب محمد وإبراهيم ابنا عبدالله بن الحسن من وجه أبي العباس وبلغه أنهما يفكران في الثورة ضده لم يفعل أكثر من أن أرسل رسالة عتابية إلى والدهما ختمها ببيت من الشعر ذي معنى:

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

ولقد كان عبدالله لبقاً كل اللباقة مع أبي العباس فأرسل إليه يقول:

وكيف يريد ذاك وأنت منه بمنزلة النياط من الفؤاد [٢]

---

(١) ابن الأثير، المصدر المذكور آنفاً. ٥ جـ ٤١١.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبيين تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٩ م. ص ١٧٦.

ولذلك ظلت العلاقة بين الطرفين زمن السفاح في حدود المجاملات ولم تخرج إلى حد إراقة الدماء إلا زمن أخيه المنصور.

وختم أبو العباس حياته بتوليه العهد لأخيه أبي جعفر، ومن بعد أبي جعفر عيسى بن موسى - إن كان[1].

وبذلك وضع بذور صراع جديد سيدور بين عيسى بن موسى من طرف وبين المنصور والمهدي من بعده من طرف آخر.

المنصور:

شخصية المنصور شخصية تختلف كل الاختلاف عن شخصية أخيه أبي العباس. فهو بحق المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، ويمتاز بالحزم والمركزية والإحساس الكبير بمسؤوليته، ويقدم مصلحة الدوله على أي اعتبار آخر، ولا يسمح للعواطف الشخصية أن تلعب دوراً ذا غناء في تسيير أمور الدولة، وهو مستبد كل الاستبداد ويغار على سلطته ولا يسمح لأحد أن يشاركه شيئاً منها، كما وإنه شخص مثقف ذكي خطيب داهية شجاع واقتصادي - إن صح التعبير - وقد ورث المنصور عن أخيه مشاكل كثيرة كان عليه أن يواجهها، ولقد واجهها وتغلب على كثير منها.

وأهم المشاكل التي واجهت المنصور هي: ثورة عمه عبدالله بن علي، أمر أبي مسلم الخراساني، ثورات العلويين، ومشكلة ولاية العهد. هذا عدا عن عدد كبير من المشاكل الإدارية التي حفل بها عهده الطويل.

ولقد ثار عبدالله بن علي لما بلغه خلافة المنصور لأنه كان يعتقد أنه أولى بالخلافة من المنصور لأنه هو الذي هزم مروان الجعدي في معركة الزاب، وكان

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد. تحقيق محمد سعيد العرفي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤ جـ. ج ١٠ - ٥٣.

بالتالي السبب في زوال ملك بني أمية في المشرق، وتأسيس دولة بني العباس، لا سيما وأنه يدعي أن السفاح وعده بالخلافة من بعده إن هزم مروان بن محمد.

ولقد ثار عبدالله في الجزيرة الفراتية فأرسل المنصور لحربه أبا مسلم الخراساني. ولقد خدع أبو مسلم عبدالله بن علي، ذلك إنه لما اقترب منه أرسل إليه يقول: إني لم أومر بقتالك، ولم أوجه له، ولكن أمير المؤمنين ولاني الشام وإنما أريدها [١]. وقد نجحت هذه الخدعة إذ خاف فريق من أهل الشام الموالين لعبد الله من انتقام أبي مسلم فتركوا عبدالله ورجعوا إلى شامهم مما كان له أثر فعال في هزيمة عبدالله بن علي. ولقد لجأ عبدالله هذا، لما هزم، إلى أخيه في البصرة الذي توسط له عند المنصور من أجل الحصول على أمان. ولقد خاف أهل الشام أن ينتقم منهم المنصور لمساعدتهم عمه ضده فأرسلوا وفداً منهم لالتماس العفو عنهم وقابلوا المنصور وتكلموا أمامه وأعلنوا ندمهم وتوبتهم وطالبوا بالعفو عنهم وحصل بعضهم عليه، فقد قال الحارث بن عبد الرحمن الغفاري أمام المنصور: إنا لسنا وفد مباهاة ولكنا وفد توبة استخفت حليمنا فنحن بما قدمنا معترفون وبما سلف منا معتذرون، فإن تعاقبنا فبما أجرمنا، وإن تعف عنا فطالما أحسنت إلى من أساء [٢].

كذلك قال أحد أعضاء الوفد في نفس المقام... ولأن يثني عليك باتساع الصدر خير من أن توصف بضيقه، على أن إقالتك عثرات عباد الله موجب لإقالة عثرتك من ربهم... [٣].

ولقد حصل عبدالله بن علي على أمان من المنصور كتبه له عبدالله بن المقفع

---

(١) الطبري، المصدر المذكور آنفاً، جـ ٦ - ١٢٥.

(٢) الحصري القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي. زهر الآداب. تحقيق محمد علي البجاوي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٢ م. ٢ جـ الجزء ٢ - ٧٨٣.

(٣) نفس المصدر السابق.

وشدد فيه على المنصور مما أثار حنقه ضد الكاتب.... وإن أنا نلت عبدالله بن علي أو أحداً ممن أقدمه معه... فأنا نفي من محمد بن علي بن عبدالله ومولود لغير رشدة، وقد حل لجميع أمة محمد خلعي وحربي...[1] ولكن ذلك كله لم يكن له أية قيمة في نظر المنصور وفقد عبدالله بن علي حياته في ظروف غامضة كما لقي المصير نفسه عبدالله بن المقفع.

ولقد حشد أبو جعفر كل ما آتاه الله من ذكاء ودهاء ومكر وخديعة في سبيل إزاحة أبي مسلم الخراساني من طريقه.

ويبدو لنا أنا أبا مسلم كان يعرف حقيقة نوايا المنصور نحوه ولذلك كان حذراً كل الحذر، ولكن هذا الحذر لم يمنعه من محاولة التقرب من أبي جعفر لما أصبح هذا خليفة. ذلك أن نبأ وفاة أبي العباس واستخلاف أبي جعفر ورد إلى أبي جعفر وهو في طريق عودته من الحج ومعه أبو مسلم ويبدو أن أبا مسلم استلم النبأ قبل أبي جعفر فأرسل إليه يخبره بما حدث ويهنئه بالخلافة ويقول له: إنه ليس من أهلك أحد أشد تعظيماً لحقك وأصفى نصيحة لك وحرصاً على ما يسرك مني[2].

ولقد تهيب أبو جعفر ـ كما يبدو لنا ـ الصراع ضد أبي مسلم لمعرفته بقوة أبي مسلم وبعواقب الخذلان، إن كان هناك خذلان، لا سيما وأن عمه عيسى بن علي الذي اطلع على أفكاره نصحه بالتريث على الأقل:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا تدبر فإن فساد الرأي أن تتعجلا[3]

---

(١) الجهشياري، أبو عبدالله كتاب الوزراء والكتاب. تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٨ م ص ١٠٤.

(٢) الطبري، المصدر المذكور آنفاً، جـ ٦ ـ ١٢٢.

(٣) قنيتو الأربيلي. خلاصة الذهب المسبوك. تحقيق مكي السيد جاسم، الطبعة الثانية. بغداد، مكتبة المثنى. ص ٦٥.

وأخيراً قرر أبو جعفر السير في المعركة قدماً، فابتدأ معركته بكتاب وجهه إلى أبي مسلم يوليه فيه مصر والشام ويعزله عن خراسان موطن قوته وأنصاره وأخباره:

قد وليتك مصر والشام فهو خير لك من خراسان، فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين، فإن أحب لقاءك أتيته من قريب [١].

ولكن أبا مسلم، الذي كان يعلم أن قوته متمركزة في خراسان، لم يكن مستعداً للخضوع لهذا الأمر، ولذلك رفضه واتجه، بعد حربه مع عم المنصور عبدالله بن علي، صوب خراسان. وهنا غير المنصور طريقته ولجأ إلى استدعاء أبي مسلم إلى حضرته: أريد مناظرتك في أمور لم يحملها الكتاب فخلف عسكرك حيث انتهى إليك كتابي فاقدم عليّ [٢]. ولكن ذلك لم يكن رأي أبي مسلم الذي رفض إطاعة أمر الخليفة بأدب جم وهو يقول... فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعد تقارنها السلامة... فإن أبيت إلا أن تعطي نفسك إرادتها أنقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي [٣].

والذي يبدو لنا أن هذا الجواب فتح الباب للتراسل بين الإثنين وزيادة الهوة بينهما. ولقد حاول المنصور بكل وسيلة أن يجعل أبا مسلم يتخلى عن حذره ويقبل إليه لمقابلته ولكنه عجز عن ذلك. ولقد أخبره المنصور في إحدى رسائله أن لا يغتر بمن معه من شيعة العباسيين في خراسان لأنهم إنما هم شيعة أبي جعفر

(١) الطبري، المصدر المذكور آنفاً جـ ٦ ـ ١٣٠.

(٢) أبو حنيفة الدينوري. الأخبار الطوال. تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد، ١٩٦٠ م ص ٣٧٩.

(٣) الطبري، المصدر المذكور آنفاً. جـ ٦ ـ ١٣٠.

والعباسين وليسوا شيعة أبي مسلم:... ولا تغتر بمن معك من شيعتي وأهل دعوتي فكأنهم قد صالوا عليك بعد أن صالوا معك إن أنت خلعت الطاعة وفارقت الجماعة[1]. كذاك كان رد أبي مسلم عنيفاً على المنصور حيث تناول فيها أسس الدعوة العباسية بالهدم... ولكني يا عبدالله بن محمد [لم يلقبه بأمير المؤمنين!] كنت رجلاً متأولاً فيكم من القرآن آيات أوجبت لكم بها الولاية والطاعة، فائتممت بأخوين لك من قبل ثم بك من بعدهما فكنت لهما شيعة متأولاً أحسبني هادياً مهتدياً وأخطأت في التأويل، وقديماً أخطأ المتأولون... وإن أخاك السفاح ظهر في صورة مهدي وكان ضالاً فأمرني أن أجرد السيف وأقتل بالظنة وأقدم بالشبهة وأرفع الرحمة ولا أقيل العثرة[2].

وقد رد المنصور رداً عنيفاً على أبي مسلم ولقبه بالمجرم العاصي واتهمه بأشياء كثيرة من سفك للدماء وتبذير للأموال، ودافع عن أخيه، وختم رسالته بإخباره أنه قد ولى خراسان موسى بن كعب فليفعل ما يريد[3]. كذلك مهد المنصور لحملته هذه ضد أبي مسلم فأفسد أتباعه، ذلك أنه أرسل إلى نائب أبي مسلم على خراسان يمنحه إياها مدى الحياة، على أن يمنع أبا مسلم من العودة إليها: إن لك إمرة خراسان ما بقيت[4].

ولقد قبل أبو داود نائب أبي مسلم على خراسان هذا العرض وكتب إلى أبي مسلم يقول: إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله... فلا تخالفن إمامك ولا ترجع إلا بإذنه[5].

---

(١) ابن كثير، إسماعيل. البداية والنهاية. القاهرة مطبعة السعادة ١٤ جـ الجزء ١٠ - ٦٨.
(٢) نفس المصدر، ج ١٠ ص ٦٨ - ٦٩.
(٣) نفس المصدر ج ١٠ ص ٦٩.
(٤) الطبري، المصدر المذكور آنفاً ج ٦ - ١٣٣.
(٥) نفس المصدر.

كل هذا الجو ساعد على ضعضعة وإضعاف نفسية أبي مسلم وثقته من نفسه وقواده، وجعلته في وضع ضعيف بالنسبة للمنصور. ولقد أتته الضربة القاصمة من المنصور في صورة رسالة شفوية أرسلها له المنصور مع أحد ثقاته يقول له فيها بعد أن يئس من إقناعه بالحسنى بالقدوم على الخليفة: لست للعباس وأنا بريء من محمد إن مضيت مشاقاً ولم تأتني ان وكلت أمرك إلى أحد سواي، وإن لم آل طلبك وقتالك بنفسي، ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك (١).

وقد أقبل أبو مسلم حتى قابل المنصور مقابلة كان فيها حتفه (٢).

وتعتبر خطبة أبي جعفر التي ألقاها على الناس مبرراً قتل أبي مسلم خير شاهد على سياسته وأفكاره ونظرته إلى الخلافة والسلطة وحقوق الخلفاء تجاه أتباعهم، وهي بمثابة ردع وإنذار للآخرين ألا يحاولوا ما حاول أبو مسلم فيحل به ما حل به... ومن نازعنا هذا القميص أوطأنا أم رأسه حتى يستقيم رجالكم ويرتدع عمالكم. إن هذا الغمر أبا مسلم بايع على أنه من نكث بيعتنا وأظهر غشنا فقد أباحنا دمه، فنكث وغدر وفجر فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا... فحكمنا عليه حكمه على غيره ممن شق العصا ولم يمنعنا الحق له من إمضاء الحق فيه (٣).

كذلك استعمل المنصور دهاءه وذكاءه في القضاء على ثورات العلويين التي حدثت في كل من المدينة المنورة وفي باخمرا من العراق. والواقع أن العلاقة بين العلويين والعباسيين كانت متوترة من زمن أبي العباس، ولكن أبا العباس تمكن أن يحافظ على شعرة معاوية في علاقاته مع العلويين، ولكن المنصور غير أبي

---

(١) نفس المصدر، ج ٦ - ١٣٢.

(٢) طبعاً تم ذلك في المقابلة الثانية لا الأولى.

(٣) ابن كثير، المصدر المذكور آنفاً ج ١٠ - ٧١.

العباس. ويبدو لنا ـ من النصوص القليلة التي بين يدينا ـ ان نظرة زعماء العلويين إلى أبي جعفر تختلف عن نظرتهم إلى أبي العباس، وأنهم غالوا في قيمتهم المعنوية وظنوا ان مركزهم وقرابتهم من الرسول تمنع أبا جعفر من أن يطالهم وأنها تحميانهم منه. كذلك ظنوا ان أغلب الناس سيهبون يداً واحدة للدفاع معهم ضد المنصور. ولكنهم كانوا واهمين كل الوهم. وإذا صحت أنباء المؤتمر الهاشمي الذي عقده زعماء العلويين والعباسيين في أواخر العصر الأموي انضاف عامل جديد إلى عوامل الصراع بين المنصور والعلويين، وكذلك كان من حق العلويين أن يعتقدوا ان أبناء عمهم سلبوهم حقاً كان من اللازم أن يعود لهم. هذا وان حضور زعماء العباسيين كإبراهيم الإمام وأبي العباس والمنصور هذا المؤتمر، ومبايعتهم النفس الزكية يدل ـ إن صح ذلك ـ على مقدار الباطنية والثنائية التي كانت تسود العلاقات بين الطرفين.

فالعباسيون قاموا بدعوتهم منذ حوالي سنة ١٠٠ هـ، والمؤتمر عقد، كما يبدو من نص أبي الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبيين ـ وهو الوحيد الذي روى ذلك ـ في حدود ١٢٨ أو ١٢٩ هـ ولذلك فقد كان زعماء العباسيين على علم تام بدعوتهم وبمقدار نجاحها وتقدمها، ولذلك ليس من المعقول أن يوافقـوا على البيعة لمحمد النفس الزكية، بل وأن يقترح هذه البيعة لمحمد النفس الزكية أبو جعفر المنصور بالذات[1] ولو أن هذا حدث فعلاً لوجدنا أصداء ذلك في خطاب محمد النفس الزكية إلى المنصور لما أعلن الثورة عليه.

ولقد اهتم أبو جعفر كل الاهتمام بأمر العلويين وحاول منعهم من الثورة وان يأخذ بخاصة بيعة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم اللذين تغيبا زمن أبي العباس، ذلك أنه كان على علم بنواياهما فبث حولهما العيون وأزكى الأرصاد، على الرغم

(١) أبو الفرج الأصفهاني، المصدر المذكور آنفاً ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

من اختفائهما إلا أنه تمكن من الاستيلاء على بعض رسائلهما فأرسلها إلى والدهما يخبره بالأمر ويطلب منه ان يظهر ولديه: إني أتيت برسولك والكتب التي معه فرددتها إليك بطوابعها... فلا تدع إلى التقاطع بعد التواصل ولا إلى الفرقة بعد الاجتماع، أظهر لي ابنيك فإنهما سيصيران بحيث تحب من الولاية والقرابة (١) ولقد تكرر سقوط رسائل موجهة من عبدالله إلى ولديه بيد المنصور الذي فتحها واطلع منها على كل شيء فأرسل يخبر عبدالله بذلك ويعده ويمنيه، ولكن هذا لجأ إلى المراوغة وأرسل إلى المنصور يقول:

وكيف أريد ذاك وأنت مني   وزندك حين يقدح من زنادي (٢)

وأخيراً أعلن العلويون الثورة ضد المنصور، ولكنهم اصطدموا بإرادة لا تفل وعزم لا يلين واستعداد ودهاء يفوق ما عندهم جميعاً. وتدل خطب المنصور لما اعتقل أبا محمد النفس الزكية وأقرباءه. ولما ثار هو نفسه على اهتمامه البالغ أن يثبت لأهل خراسان بخاصة سلامة موقف العباسيين من العلويين وكيف ان العلويين حاولوا مدى العصور في عهد علي بن أبي طالب حتى عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك أن يحصلوا على الخلافة فعجزوا على ذلك وقتلوا وشردوا وأهينوا، وأن الله تعالى أخذ بحقهم وأكرمهم على أيدي أبناء عمهم، فعوضاً عن أن يشكروهم على أخذهم بثأرهم وتحقيق ما عجزوا هم عن تحقيقه ثاروا ضد العباسيين وخاصة ضد المنصور الذي دس لهم رجالاً وأموالاً فأخذ منهم بيعة لنفسه استحل دماءهم بنقضها. وهو في خطبه يعرض لأعمال زعماء العلويين بدأً بعلي بن أبي طالب وانتهاء بيحيي بن زيد، بالنقد والتجريح والتهجم ويبرز نواقصهم وسيئاتهم... فقام فيها علي بن أبي طالب فتلطخ وحكم عليه الحكمان فافترقت عنه الأمة... ثم قام من بعده الحسن بن علي فوالله ما كان فيها

---

(١) ابن عبد ربه، المصدر المذكور آنفاً جـ ٥ ـ ٧٦.

(٢) نفس المصدر.

برجل... ثم قام من بعده الحسين بن علي فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة...[1] فإني والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة: بلغني عنهم بعض السقم والتعرم وقد دسست لهم رجالاً فقلت: قم يا فلان، قم يا فلان فخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثالاً يعملون عليه فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسوا إليهم تلك الأموال فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علي[2].

هذا وقد اتهم العلويون أبا جعفر بالطغيان ولقبه محمد النفس الزكية الطاغية وعدو الله واتهمه واتهم العباسيين جميعاً بأنهم قد أحلوا حرام الله وحرموا حلاله: اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرموا حلالك وآمنوا من أخفت وأخافوا من آمنت... وان أحق الناس بالقيام بهذا الأمر أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين[3]. ثم يذكر أنه قد أخذت له البيعة في جميع أرجاء بلاد الإسلام: والله ما جئت هذه وفي الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذ لي فيه بيعة[4].

ولقد سبقت الحرب الفعلية بين الطرفين حرب كلامية بين أبي جعفر ومحمد النفس الزكية حاول كل واحد منهما أن يثبت أنه أحق من الآخر بالخلافة وحاول إثبات حجته ونقض حجة خصمه.

وقد افتتح سلسلة الرسائل بينهما أبو جعفر برسالة وجهها إلى محمد النفس الزكية يعرض عليه الأمان ويعده ويمنيه ويحذره وينذره. ولكن محمد النفس الزكية هذا هزأ بعرض أبي جعفر وأخبره أن الحق حق آل علي وان آل علي أحق

---

(١) الطبري، المصدر المذكور آنفاً جـ ٦ - ٣٣٤.

(٢) نفس المصدر جـ ٦ - ٣٣٥.

(٣) نفس المصدر جـ ٦ - ١٨٩.

(٤) نفس المصدر جـ ٦ - ١٨٩.

وأولى بإرث الرسول من آل العباس، واستعرض التاريخ الإسلامي وعلاقة آل علي وعلي بالرسول وعلاقة العباس وآله بالرسول، وفخر بالنساء ولا سيما ان كثيراً من العلويين هم من سلالة هاشمية من طرف الأم والأب، ثم يصل بعد ذلك إلى إبراز حقه هو في الخلافة وتفوقه على أبي جعفر، ثم يعرض على أبي جعفر الأمان: إلا حداً من حدود الله أو حقاً لمسلم أو معاهد، فقد علمت ما يلزمك في ذلك فأنا أوفى بالعهد منك وأحرى بقبول الأمان. أما أمانك الذي عرضت علي فأي الأمانات هو؟ أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبدالله بن علي أم أمان أبي مسلم؟![1].

ويعتبر جواب أبي المنصور وثيقة ذات أهمية خاصة لأنه فند بها جميع الأسس التي يستند إليها العلويون في ادعائهم الخلافة وأحقيتهم بها. ذكر له ان رسول الله ﷺ هو خير الأولين والآخرين لم يلده هاشم إلا مرة واحدة، وأن البنت لا تحوز الميراث، ثم استعرض التاريخ الإسلامي وموقف المسلمين من العلويين وموقف العلويين من الخلافة وابتدأ بعلي بن أبي طالب فذكر أنه... كان في أصحاب الشورى فكل دفعه عنها وبايع عبد الرحمن عثمان... وحارب أباك طلحة والزبير ودعا سعد إلى بيعته فأغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعده[2] وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فسلمه إلى معاوية بخرق ودراهم وأسلم في يديه شيعته... ثم يذكر له سلسلة المآسي التي واجهها العلويون في ثوراتهم ضد الأمويين وكيف أن الله تعالى انتقم للعلويين بأيدي العباسيين، وأنه كان من واجب العلويين أن يشكروا العباسيين لأنهم أخذوا لهم بالثأر... فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد ان كانوا يلعنون أباك في إدبار الصلاة المكتوبة كما تلعن الكفرة، فعنفناهم وكفرناهم وبينا فضله

---

(١) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد. المصدر المذكور آنفاً جـ ٣ ـ ٢٧٥.

(٢) نفس المصدر جـ ٣ ـ ١٢٧٧.

وأشدنا بذكره. فاتخذت ذلك علينا حجة، وظننت انا لما ذكرنا من فضل علي أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر. كل أولئك مضوا سالمين مسلمين وابتلى أبوك بالدماء [1] ثم ينتقل لذكر مآثر العباس في الجاهلية وأفضاله على أبي طالب وأياديه البيضاء على الرسول وجهوده في نصرته ونصرة الدين... ولقد جاء الإسلام والعباس يمون أبا طالب للأزمة التي أصابتهم، ثم فدى عقيلاً يوم بدر، فقدمناكم في الكفر وفديناكم من الأسر وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وحزنا شرف الآباء وأدركنا من ثأركم ما عجزتم عنه، ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام [2].

ولقد حاول المنصور حصر الحرب بينه وبين محمد النفس الزكية وحرص على أن لا يصل أوارها إلى أهل المدينة المنورة على الرغم من مناوأتها إياه وضلوعهم مع محمد، فأوصى قائد جيشه الذي أرسله إلى المدينة عيسى بن موسى أن يجدد دعوته إلى محمد بالرجوع إلى الطاعة، وإن أبى إلا الحرب فناجزه... فإذا ظفرت به فلا تخيفن أهل المدينة وعمهم بالعفو فإنهم الأصل والعشيرة وذرية المهاجرين والأنصار [3]. ثم يوازن المنصور بين وصيته هذه وبين وصية يزيد بن معاوية للجيش الذي أرسله لحرب المدينة أن يبيحها ثلاثاً، وذلك ليبين فضله وحلمه بالنسبة للأمويين في مناسبة مشابهة [4] ولقد نفذ عيسى هذه التعاليم وحاول تجنب الحرب وأرسل المنادين وعرض الأمان ولكن دون جدوى [5] إذ أصر محمد النفس الزكية على الحرب ونشبت الحرب وكان فيها حتفه. ولقد حاول محمد أن يكف

---

(١) نفس المصدر ح ٣ - ١٢٧٨.
(٢) نفس المصدر حـ ٣ ١٢٧٨ - ١٢٧٩.
(٣) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، المصدر المذكور آنفاً حـ ٥ - ٨٦.
(٤) نفس المصدر حـ ٥ - ٨٦.
(٥) الذهبي، محمد بن أحمد، المصدر المذكور آنفاً حـ ٦ ١٧ - ١٨.

عيسى بن موسى عن حربه وذلك بأن أرسل إليه رسالة يدعوه فيها إلى كتاب الله وسنة نبيه... وأحذرك نقمته وعذابه، وإني والله ما أنا بمنصرف عن هذا الأمر إلى أن ألقى الله عليه، فإياك أن يقتلك من يدعوك إلى الله فتكون شر قتيل أو تقتله فيكون أعظم لـوزرك[1] أما أخو محمد النفس الزكية إبراهيم الذي ثار وخرج في البصرة فكان أسوأ حظاً من أخيه. هذا وإن فقدان التناسق بين الحركتين كان من عوامل ضعفهما والقضاء عليهما، ولقد فت في عضد إبراهيم مقتل أخيه، ولما بلغ الناس نبأ مصرع أخيه وقدوم الجيش العباسي بدأوا ينفضون عنه. ولم يبد إبراهيم مقدرة ولا كفاية في حركته هذه، فقد ضرب عرض الحائط بنصائح من نصحه أن يهاجم المنصور فوراً لأنه أعرى عسكره أو أن يخندق على نفسه، فقد أرسل إليه مسلم بن قتيبة يقول له: إنك قد أصحرت ومثلك أنفس به على الموت فخندق على نفسك، فإن كنت لم تفعل فقد أعرى المنصور عسكره فخف في طائفة حتى تأتيه فتأخذ بقفاه[2]. كذلك لم يسمع نصيحة أبي حنيفة النعمان الذي كان موالياً له بالسر وأرسل إليه يقول: ائتها ـ أي الكوفة ـ سراً فإن من ها هنا من شيعتكم يبيتون أبا جعفر فيقتلونه أو يأخذون برقبته فيأتونك به[3].

ولقد أدى عجزه هذا وتباطؤه إلى إفساح الوقت أمام المنصور ليستدعي الجيش المرسل إلى الحجاز لحرب أخيه وتوجيهه إلى حرب إبراهيم، فاصطدم الجيشان في باخمرا وقتل إبراهيم شر قتلة وكانت باخمرا ثانية كربلاء.

ولقد كانت ولاية العهد من المسائل الشائكة التي عالجها المنصور وحلها لصالحه. ذلك أن ولاية العهد بعد المنصور كانت لعيسى بن موسى وصية من

---

(١) الطبري، المصدر المذكور آنفاً حـ ٦ ـ ٢١٠.

(٢) الذهبي، محمد بن أحمد. المصدر المذكور آنفاً حـ ٦ ـ ٢٥.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني، المصدر المذكور آنفاً ص ٣٦٦.

السفاح، فلما اطمأن الحال بأبي جعفر أراد أن يخلع عيسى من ولاية العهد وأن يقدم ابنه المهدي. وقد استعان المنصور بذكائه ودهائه ونفوذه في سبيل تحقيق ذلك.

ولا تلقي الوثائق كثير ضوء على هذا الموضوع الشائك، وإنما لدينا رسالة من المنصور إلى عيسى بن موسى يطلب منه ـ حرصاً على المصلحة العامة ـ أن يخلع نفسه من ولاية العهد وأن يقدم المهدي... لأن الله قذف في قلوب العامة حبه، فلما رأى أمير المؤمنين ما قذف الله في قلوبهم من مودته وأجرى على ألسنتهم من ذكره... أيقنت نفس أمير المؤمنين أن ذلك أمر تولاه الله وصنعه ولم يكن فيه للعباد أمر ولا قدرة... للذي رأى أمير المؤمنين من اجتماع الكلمة وتتابع العامة... فأحب أمير المؤمنين أن يعلمك الذي اجتمع عليه رأي رعيته وكنت في نفسه بمنزلة ولده يحب من سترك ورشدك... ما يحب لنفسه وولده، ويرى لك إذ أبلغك من حال ابن عمك ما ترى من اجتماع الناس عليه أن يكون ابتداء ذلك من قبلك ليعلم أنصارنا من أهل خراسان وغيرهم إنك أسرع إلى ما أحبوا مما عليه رأيهم في صلاحهم منهم إلى ذلك من أنفسهم[1].

ولكن عيسى لم يقتنع بهذه الحجة وأرسل إلى المنصور يذكره العهود والمواثيق التي أخذت عليهما من أجل الوفاء بالعهود ويحتج بالآيات القرآنية ويذكره بما في الوفاء من خير للعامة والخاصة وبما في الغدر من شر على الجميع. ولكن ذلك لم يقنع المنصور واضطر عيسى أخيراً للرضوخ وتنازل للمهدي وأصبح بعد غد بعد أن كان غداً.

وتعتبر وصية المنصور للمهدي مفتاحاً لشخصيته بعد أن نضج وشعر أنه مقبل على الله. فقد أوصاه، وأبلغ في الوصية بتقوى الله تعالى والعدل بين الرعية

---

(١) الطبري، المصدر المذكور آنفاً حـ ٦ ـ ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

وتقريب أهل الدين ثم عمارة البلاد والجهاد في سبيل الله... وعليك بعمارة البلاد بتخفيف الخراج واستصلح الناس بالسيرة الحسنة والسياسة الجميلة، وليكن أهم أمورك إليك تحفظ أطرافك وسد ثغورك واكماش بعوثك، وارغب إلى الله عز وجل في الجهاد والمحاماة عن دينه وإهلاك عدوه بما يفتح الله على المسلمين ويمكن لهم في الدين. وابذل في ذلك مهجتك ونجدتك ومالك وتفقد جيوشك ليلك ونهارك واصرف مراكز خيلك ومواطن رحلك، وبالله فلتكن همتك وحولك وقوتك...» (١).

المهدي:

شخصية المهدي هي الوجه المقابل والطرف المعاكس لشخصية والده، وهو شخصية محببة. فقد كان والده بخيلاً مقتصداً وكان هو جواداً كريماً أفنى بيوت الأموال وكان أبوه مركزياً كل المركزية ومستبداً كل الاستبداد لا يسمح لأحد أن يباشر أمراً أو يمارس سلطة مع وجوده، على حين أسلس المهدي كثيراً من سلطته ومركزيته. وكان والده لا يصفح عن سيئة ولا يعفو عن هفوة ويراقب الناس وأعمالهم، على حين كان المهدي متسامحاً كريماً يغض عن الكثير ويترك الناس وأعمالهم. والواقع لقد استفاد المهدي من السلم الذي حققه والده في البلاد الإسلامية ذلك أنه استلم بلاداً هادئة فقد قمعت ثورات العلويين وأزيلت مطامع الطامعين والقواد العسكريين، وبيوت الأموال تفيض بالأموال المخزونة من زمن المنصور والحدود مضبوطة والثغور محروسة ولذلك لم تحدث أمور مهمة زمن المهدي، ولعل أبرز الأحداث في زمانه ـ إن سميت أحداثاً ـ هو تنازل عيسى ابن موسى نهائياً عن حقه في ولاية العهد، والرسائل المتبادلة بينه وبين أحد الخوارج.

---

(١) اليعقوبي، المصدر المذكور آنفاً حـ ٢ ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

وإن الدارس لخطب المهدي تظهر له روحه الدينية واضحة تماماً وهي أشبه بخطب أئمة المساجد في أيامنا هذه منها بخطب الخلفاء. ولقد افتتح ملكه بخطبة أعلن فيها نعي والده واستلامه الخلافة وطالب الناس بالطاعة ووعد بالعدل والسلامة... أيها الناس! أسروا مثل ما تعلنون من طاعتنا نهبكم العافية وتحمدوا العاقبة، واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم، وطوى الأسر عنكم وأهال عليكم السلامة من حيث رآه الله مقدماً ذلك. والله لأفنين عمري بين عقوبتكم والإحسان إليكم [1].

أما خطبته الثانية التي يرويها له صاحب العقد الفريد فليس فيها حتى ذكر الطاعة أو السياسة أو وعد أو وعيد، وإنما هي وعظ وتذكير بعقوبة الله لمن خالفه ونعيمه لمن أطاعه، وهي ذم للدنيا وتحريض للابتعاد عنها [2].

كذلك ابتلي عيسى بن موسى بالمهدي الابن كما ابتلي بالمنصور الأب سابقاً، فقد طلب منه التنازل نهائياً عن ولاية العهد وحقه في الخلافة ففعل وسجل على نفسه ذلك بعهد قرىء على الملأ من الناس يعلن فيه تخليه عن كل حق له في ولاية العهد ويبايع المهدي ومن بعده ابنه موسى ويحل المسلمين من بيعته وعهوده وإذا خالف أو غير فكل زوجة له طالق ثلاثاً طلاق الحرج... وكل مملوك عندي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله... وعليَّ من مدينة السلام المشي حافياً إلى بيت الله العتيق بمكة نذراً واجباً ثلاثين سنة لا كفارة لي... [3].

ولكن الموضوع الطريف في أخبار المهدي مراسلاته مع عبد السلام بن هاشم اليشكري الذي خرج في الجزيرة وحكم وهزم جيشاً للخليفة، فأراد الخليفة،

---

(١) السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة المطبعة التجارية الكبرى، ١٩٥٢ م ص ٢٧٢.

(٢) ابن عبد ربه، المصدر المذكور آنفاً حـ ٤ ١٠١ - ١٠٢.

(٣) الطبري. المصدر المذكور آنفاً حـ ٤ - ٣٦٢.

على ما يبدو أن يحل الإشكال ويفرض هيبته بالتراسل، فأرسل إليه رسالة يسأله عن سبب ثورته ويحذره وينذره فأجابه هذا برسالة تمثل رأي الخوارج في العباسيين وفي المهدي بخاصة. والواقع أن العصر العباسي لم يشاهد إلا النذر اليسير جداً من حركات الخوارج إذا قيس بحركاتهم وحروبهم زمن الأمويين ـ كذلك مات إلا الأبد أدب الخوارج ولم يصلنا شيء من أدبهم حتى لأشياء عائدة إليهم سوى هذين النصين لرسالة الخليفة وجواب الخارجي عليها. فقد انحط أدب الخوارج وزال نهائياً في العصر العباسي على الرغم من أننا نسمع بثوراتهم حتى زمن الرشيد والمأمون ومن بعدهما.

مزج المهدي في رسالته التساؤل مع التهديد: ... إني قد عجبت من أحداثك وبغيك حيث أسألك ما نقمت إذ حكمت بكلمة حق تريد بها ما الله مخزيك به... فأقسم لأغزينك أجناداً مطيعة وقواداً منيعة هم الذين يفضون جمعك ويهتكون بناك...

ولكن الأمر الغريب في رسالة المهدي هو دفاعه عن علي بن أبي طالب تجاه الخوارج... وشتمك أبا الحسن علي بن أبي طالب ووقوعك فيه... وقد دعم دفاعه عنه بحديث غدير خم المشهور: من كنت مولاه فعلي مولاه[1]. وأما جواب عبد السلام بن هاشم اليشكري الخارجي للخليفة فهو جواب الخوارج المشهورين بشجاعتهم ورفضهم خلافة من ليس منهم. فقد افتتح رسالته بإنكار خلافة المهدي وبالطريقة العربية التي كانت سائدة في صدر الإسلام: من عبد السلام بن هاشم إلى محمد بن عبدالله: سلام على من اتبع الهدى... ثم يشرح له أسباب ثورته هذه وما أخذه على الخليفة... وقد علمت إني إنما اسفت وحكمت حين تركت الأمة تائهة مائجة لا حدودها أقمت ولا حقوقها أديت واشتغلت بإمائك

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط تحقيق أكرم ضياء العمري، النجف، مطبعة الآداب، ١٩٦٧ م. حـ ٢ - ٤٧٦.

وتنوقت في بنائك، مع أدمـانك الصيد... ثم أنت إذا خطبت كذبت وإذا عاهدت نكثت[1]... وقد زعمت في كتابك إنك ستغزيني أجناداً مطيعة وقواداً منيعة فالله يفض جمعك ويهزم جندك[2]... وقد زادني غيظاً إنك تسميت المهدي وأبعد من سماك[3]... أيها الطاغية! أمن بعد هذا حياة؟![4]...

ولقد حدثت في عهد المهدي مشكلة ذات جذور تاريخية. ذلك أن معاوية ابن أبي سفيان ألحق زياد بن عبيد بنسبه وظل يعرف هو وأولاده وأحفاده من بعده بنسبهم إلى أبي سفيان. فلما أتى المهدي قرر إعادة نسبة آل زياد إلى نسبهم من عبيد وإبطال نسبتهم إلى أبي سفيان وأرسل بذلك كتاباً بشكل منشور موجه إلى عامله على البصرة في أن يفعل ذلك. والكتاب مليء بالتهجم على معاوية وعلى زياد وبالأحاديث الشريفة التي تحرم هذا الإلحاق ويختم منشوره بوجوب إبطال نسبة آل زياد إلى بني أمية وإلحاقهم بعبيد والد زياد الحقيقي.

الهادي:

عهد الهادي قصير كل القصر ولذلك لا يمكن قول شيء ذي غناء عنه من وجهة نظرنا نحن إذ أن الوثائق العائدة إلى عهده قليلة جداً. ولدينا وثيقتان الأولى خطبة الحسين بن الحسن العلوي الذي ثار ضد الهادي وقتل في معركة فخ وهو يخطب في الناس لما أعلن الثورة في مسجد رسول الله في المدينة يطلب من الناس أن يبايعوه على كتاب الله وسنة نبيه[5] والثانية نص البيعة التي بايعه الناس بموجبها وهي لا تخرج في مضمونها عن خطبته حيث بايعه الناس وبايعهم على

---

(١) نفس المصدر حـ ٢ - ٤٧٦.

(٢) نفس المصدر حـ ٢ - ٤٧٧.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

(٥) الطبري، المصدر المذكور آنفاً حـ ٦ - ٤١٨.

العمل بكتاب الله وسنة رسوله والعدل في الرعية... فإن نحن وفينا لكم وفيتم لنا، وإن نحن لم نف لكم فلا بيعة لنا عندكم[1].

الرشيد:

يعتبر عهد الرشيد، مع عهد المأمون، العصر الذهبي في التاريخ العباسي. والواقع اجتمعت في عصر الرشيد أشياء كثيرة جعلت عصره يبدو بهذه الصورة. فقد أثمرت البذور والغراس التي غرسها من أتى قبله وآتت أكلها آنذاك، كما حفل عصره بعدد من الشخصيات اللامعة العظيمة ـ سواء في عالم السياسة أو عالم الأدب ـ وخيم السلم على البلاد ـ باستثناء بعض الحركات البسيطة التي لم تعق التطور العام. وبدت الدولة العباسية أقوى دول الأرض وحاربت الدولة البيزنطية وألزمت امبراطورها أن يدفع الجزية عن نفسه وولده. ولقد كان لشخصية الرشيد وولده المأمون أثر في هذا التطور والازدهار. وتبدو لنا شخصية الرشيد، على بعد الزمن ـ شخصية حساسة تحب بعنف وتكره بعنف، وهو عاطفي النزعة أيضاً. أحب جعفر البرمكي حتى أنه أوجد كساء متسعاً كان يلبسه مع جعفر، وكان لا يصبر عنه ساعة، فلما غضب عليه لم يتردد في قتله واعتقال أفراد أسرته ونكبتهم ومصادرتهم، كذلك كانت عواطفه تهيب به أن يقدم ابنه الأمين على ولده الآخر المأمون، على الرغم من أن المأمون أسن من الأمين وعلى الرغم من معرفته أن العهد للاثنين مضر بالدولة وأنه سيكون سبباً في الحرب بين الأخوين، ولكنه خضع لعواطفه وآثر ابنه الأمين بولاية العهد وجعل الخلافة من بعده للمأمون. ولكن هذا لا يعني أنه ضعيف الشخصية أو متردد، بل العكس هو الصحيح فإنه لما نكب البرامكة وسط يحي البرمكي زبيدة زوجة الرشيد وابنها الأمين لديه للعفو عنه فرفض طلبهما وهما أحب الناس إليه. وكذلك تبدو

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني، المصدر المذكور آنفاً ص ٤٥.

شخصيته القوية العاطفية الحساسة في مواقف كثيرة ولا سيما في علاقاته مع أقربائه الهاشميين ومع البيزنطيين.

وإن الدارس لخطبة الرشيد التي حفظها لنا ابن عبد ربه لا يخرج بشيء منها لأنها كخطب أئمة المساجد كلها وعظ وترغيب وتحذير وترهيب وآيات قرآنية. ولكن هناك في حياة الرشيد ثلاثة احداث تعتبر مفتاحاً لشخصيته وهي قضية ولاية العهد وقضية البرامكة وعلاقته بهم، وعلاقته ببيزنطة.

أما قضية ولاية العهد، فهذه كانت شغل الرشيد ورجال البلاط الشاغل. لم يضطر الرشيد - كما فعل أبوه المهدي وجده المنصور من قبل - إلى الضغط على شريك له في ولاية العهد ليزيحه من أمام أولاده، وإن كان هو نفسه تعرض لمثل هذا الموقف زمن أخيه الهادي، فقد كان الطريق أمامه ممهداً وكانت الدولة أحزاباً ثلاثة: الهاشميين وضلعهم مع الأمين ليصبح الخليفة بعد أبيه، على الرغم من وجود أخيه المأمون الذي هو أسن منه. وهنالك المأمون الذي هو الولد الأكبر للخليفة ويؤيده بعض الوزراء وبعض القواد من الفرس، وهناك القاسم الذي التف حوله بعض رجالات بني هاشم مثل عبد الملك بن صالح الذي حرض الرشيد أن يبايع للقاسم بعد أخويه وكتب إلى الرشيد يقول:

يا أيها الملك الذي	لو كان نجماً كان سعدا
للقاسم اعقد بيعة	واقدح له في الملك زندا
الله فرد واحد	فاجعل ولاة العهد فردا [1]

وقد أراد الرشيد أن يسبغ على عمله - تولية العهد - هذا صبغة دينية مقدسة فحج واصطحب معه أولاده الثلاثة، وهنالك أعلن قراره في قضية ولاية العهد وأن تكون للأمين ومن بعده للمأمون ومن بعده للقاسم وعلق العهود الناصعة على ذلك في بطن الكعبة. ولكنا نعتقد أنه فعل ذلك ليس فقط لاعطائها صبغة دينية

(١) العيون والحدائق. المصدر المذكور آنفاً حـ ٣ - ٣٠٤.

في أعين رعاياه، وإنما أيضاً ليسبغ عليها صفة القداسة لعل إصدارها في مكة وتعليقها في الكعبة المشرفة يكونان عاملين مساعدين على احترامها. ولكن الرشيد ـ واعياً أو غير واعٍ لذلك ـ زرع بذور الحرب الأخوية بين الأمين والمأمون، وذلك عندما قسم البلاد الإسلامية إلى قسمين وجعل المأمون حاكماً مطلق التصرف على خراسان وليس للأمين أي سلطان عليه... وولاه [أي ولى الرشيد المأمون] خراسان وثغورها وكورها وحربها وجندها وخراجها وطرازها وبريدها وبيوت أموالها وصدقاتها وعشورها وجميع أعمالها في حياته وبعده[1]... فإن حدث بأمير المؤمنين حدث الموت وأفضت الخلافة إلى محمد ابن أمير المؤمنين فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هارون الرشيد... ليس لمحمد أن يحول عنه قائداً ولا مفقوداً ولا رجلاً واحداً ممن ضم إليه من أصحابه الذين ضمهم إليه أمير المؤمنين، ولا يحول عبدالله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولاه إياها هارون أمير المؤمنين من ثغور خراسان وأعمالها كلها... ولا يشخصه إليه ولا يفرق أحداً من أصحابه وقواده عنه ولا يولي عليه أحداً ولا يبعث عليه ولا على أحد من عماله... ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتدبيره[2]... فإن أراد محمد ابن أمير المؤمنين خلع عبدالله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده، أو عزل عبدالله ابن أمير المؤمنين عن ولاية خراسان وثغورها وأعمالها... فلعبدالله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين وهو المقدم على محمد ابن أمير المؤمنين... والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون من أهل خراسان وأهل العطاء وجميع المسلمين في جميع الأجناد والأمصار لعبدالله ابن أمير المؤمنين والقيام معه والمجاهدة لمن خالفه... وليس لأحد منهم أن يخالفه ولا يعصيه... ولا يطيع محمد ابن أمير المؤمنين في خلع عبدالله بن هارون أمير

---

(١) الطبري، المصدر المذكور آنفاً جـ ٦ ـ ٤٧٦.

(٢) نفس المصدر جـ ٦ ٤٧٦ ـ ٤٧٧.

المؤمنين وصرف العهد عنه من بعده إلى غيره...[1] أرأيت: لقد وضع الرشيد بيده بذور الحرب بين الأخوين، ذلك إنه ـ عملياً ـ قسم الإمبراطورية إلى قسمين: شرقي وعليه المأمون مستقل كل الاستقلال ليس للأمين أية سلطة عليه سوى الأمس، حتى إنه لا يستطيع تحريك جندي واحد في تلك المنطقة. وإذا تذكرنا أن وراء المأمون أناساً يحرضونه ويستغلون موقفه ويثبتونه في وجه أخيه، وإذا تذكرنا محاولات الفرس المتكررة للوثوب على السلطة في الخلافة العباسية وموقف الخلفاء منهم، من لدن أبي العباس حتى الرشيد، وإذا تذكرنا الفرس الطموحين الملتفين حول المأمون يسيرون أموره، أمكننا أن ندرك أن الحرب الأخوية أصبحت أمراً محتوماً ولا سيما وإن الأمين قد ساعد بغروره ومحاولته خلع أخيه على إذكاء أوارها. وطبعاً لم تكن الحرب بن الأخوين إلا صورة أخيرة من صورالصراع المرير بين العرب والفرس على السلطة في العصر العباسي.

ولقد أخذ الرشيد على جميع الفرقاء من العهود والمواثيق أقساها وأغلظها. ولكن متى كانت العهود والمواثيق محترمة في الدولة العباسية حتى يحترمها الأمين؟ لذلك لم يكد الأمين يصبح خليفة حتى بدأ محاولاته لنقض العهد مما أدى به إلى الإصطدام بأخيه، ومن ثم فقد عرشه وحياته.

كذلك تعتبر قضية البرامكة من القضايا الغامضة والحساسة في التاريخ العباسي ويبدو لنا أن جهود يحي البرمكي في إيصال الرشيد للخلافة جعلت له شيئاً من الدالة عليه. وقد أسند إليه الرشيد إدارة البلاد كلها فأدارها مع أولاده وأقربائه أجمل إدارة وأكفأها. ولكن هذا الوضع خلق له أعداء أقوياء ووقع في أخطاء كثيرة على مدى الزمان مما فتح الباب لأعدائه في النفوذ إلى عقل الرشيد وقلبه وجعلوه يغير موقفه منهم حتى وصل به الحد إلى أن قتل جعفراً واعتقل الباقين

---

(١) نفس المصدر حـ ٦ ٤٧٧ ـ ٤٧٨.

وأزال نعمتهم. ولا تلقي الوثائق التي بين أيدينا أي ضوء على أسباب نكبتهم. والشيء الجديد بالاعجاب هو الفصاحة والبلاغة والإيجاز التي اختص بها جعفر البرمكي ـ وهو الفارسي الأصل ـ مما يعجز عنه كثير من العرب الخلص. كذلك لا بد لنا من أن نعجب بكفايته الإدارية وحسن سياسته. فقد هدأ الأمور في سورية وتغلب على العصبية فيها؛ وتدل خطبتاه فيها على مدى كفايته الإدارية وفصاحته العربية، كذلك تعتبر خطبته التي ألقاها بين يدي الرشيد بعد عودته من سورية ونجاح مهمته فيها بمثابة تقرير عن بعثته. وهي كذلك شاهد حي على فصاحته. ولكن الشيء المهم فيها هو إنه نسب كل ما حققه وكل ما أحرزه إلى الرشيد الذي استطاع بتوجيهاته أن يصل إلى ذلك بحيث نصل إلى الاستنتاج أن مهمة جعفر كانت تنفيذ خطة رسمها له الرشيد.

والذي يبدو لنا من الوثائق المتوفرة لدينا أن يحيى البرمكي كان متوقعاً أن يحل بابنه جعفر شيء مما حل به نتيجة لخلطته الزائدة مع الرشيد؛ فقد كان ينهاه عن ألا يغال في منادمة الرشيد وهو لا يرعوي فلما أعياه أمره كتب إليه يقول: إني إنما أهملتك ليعثر بك الزمان عثرة تعرف بها أمرك، وإن كنت لأخشى أن تكون التي لا شوى لها [1].

وكذلك يظهر أن نكبة البرامكة وما حل بهم لم يكن أمراً عارضاً أو تدبيراً عاجلاً اتخذه الرشيد ضدهم ثم ندم أو أحس أنه تعجل. فقد ظلت السحابة فترة طويلة وهي تتجمع في الأفق، ونصح أناس كثيرون الرشيد وحرضوه ضدهم، كما فعل محمد بن الليث الذي أرسل إلى الرشيد يقول له: إن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً وقد جعلته فيما بينك وبين عبادك... [2] كذلك وزعت

---

(١) نفس المصدر جـ ٦ ـ ٤٨٩.

(٢) الرفاعي، أحمد فريد، عصر المأمون، الطبعة الثالثة، القاهرة. دار الكتب المصرية، ١٦٤٨ م. ٣ جـ. جـ ١ ـ ١٥٥.

مناشير غفل من التوقيع تحرض الخليفة ضدهم. ومن ذلك إن أحد الأشخاص المجهولين أرسل إلى الرشيد رسالة يحرضه ضدهم ويقول:

هذا ابن يحي قد غدا مالكاً مثلك ما بينكم حد
أمرك مردود إلى أمره وأمره ليس له رد
ونحن نخشى إنه وارث ملكك إن غيبك اللحد (١)

ولذلك بطش بهم الرشيد بطشته الكبرى فقتل جعفراً واعتقل الباقين وصادر أموالهم وهدم منازلهم وعفى آثارهم. ويبدو لنا أنه فعل ذلك بعد كثير من التدبر وأنه لم يندم قط على ذلك ولم يلن ولم يتراجع أمام رسائل الاستعطاف الكثيرة التي وجهها له من السجن يحي البرمكي ويمت له بأبوته إياه وبأياديه السابقة عنده (٢) وكذلك لم تنفعه وساطة الأمين وأمه زبيدة في الموضوع (٣). ويدل على ذلك أيضاً أبلغ الدلالة جواب الرشيد على رسالة يحي الأخيرة التي أرسلها إلى الرشيد وهو يعالج سكرات الموت وأوصى السجان أن يوصلها إلى الرشيد بعد موته وفيها: بسم الله الرحمن الرحيم. قد تقدم الخصم إلى موقف الفصل وأنت على الأثر. والله حكم عدل وستتقدم فتعلم. ولقد وقع الرشيد على هذه الرسالة بما يلي: الحكم الذي رضيت به في الآخرة هو أعدى الخصوم عليك وهو من لا ينقض حكمه ولا يرد قضاؤه (٤).

ولقد امتازت علاقة الرشيد بالروم بالعنف والحرب التي أجبرت ملك الروم على دفع الجزية حتى عن نفسه وولده، ولكن شخصية الرشيد الخصبة المتعددة الجوانب أبت إلا أن تظهر في تعامله مع الروم. ذلك ان نقفور ملك الروم لما

---

(١) ابن العماد الحنبلي، ابن الفلاح، المصدر المذكور آنفاً جـ ١ ـ ٣١٢.
(٢) ابن عبد ربه، المصدر المذكور آنفاً جـ ٥ ٦٨ ـ ٦٩.
(٣) نفس المصدر جـ ٥ ـ ٦٥.
(٤) نفس المصدر جـ ٥ ـ ٦٩.

أرسل رسالته الشهيرة يهدد ويتوعد بها، لم يكن له من جواب من الرشيد سوى أن وصفه بالكلب ثم الحرب التي حطمت غروره وألزمته بالخضوع. وتجمع المصادر التي بين أيدينا على أن هارون الرشيد أرسل جواب رسالة نقفور التهديدية ما يلي، بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم... ولكن هناك مصدراً واحداً ذكر خلاف ذلك وهو ابن العبري أبو الفرج الذي ذكر أن الرشيد أرسل إلى نقفور يقول: من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور زعيم الروم[1]. وهذا ليس بمستغرب من ابن العبري الذي كان حبراً من أحبار الكنيسة الملكانية وألف كتابه وهو تحت تأثير أفكاره وعقائده الدينية فحذف منه كل ما يشم منه رائحة الإهانة للكنيسة أو ممثليها، ولو كان ذلك على حساب الحقيقة التاريخية. ولكن عندما خضدت شوكة الروم بعد حروب هرقلية وجنح ملك الروم إلى السلم وأرسل إلى الرشيد يطلب منه أن يرسل إليه كهدية، جارية من سبي هرقلية كان ابنه قد خطبها قبل سقوط البلد بيد المسلمين، فإن الرشيد الحصيف الشهم لبى طلبه وأرسل إليه الجارية المطلوبة هدية مع هدايا أخرى كثيرة، وكيف لا يفعل الرشيد ذلك وقد بدأ نقفور رسالته إليه بقوله: لعبدالله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم[2].

كذلك حاول الرشيد مجادلة الروم بالتي هي أحسن وهدايتهم للاسلام ودعوتهم له فأرسل إلى ملكهم قسطنطين رسالة طويلة يشرح له فيها حقائق الإسلام ويؤكد فيها بشكل خاص على نبوة سيدنا محمد وأنها نبوة صحيحة يقتضيها العقل ويؤيدها النقل، ويبرهن على ذلك مستخدماً المنطق والتاريخ والتفكير السديد والنصوص الدينية الواردة في القرآن والتوراة والإنجيل، ثم ينتقل

---

(١) ابن العبري، أبو الفرج، مختصر تاريخ الدول، تحقيق أنطون صالحاني اليسوعي الطبعة الثانية، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥٨ م ص ١٢٩.

(٢) الطبري، المصدر المذكور آنفاً جـ ٦ ـ ٥١٠.

إلى ذكر نبوءات التوراة والإنجيل وإرهاصها بمقدم سيدنا محمد وأقوالها حوله. وينهي رسالته بالبرهنة على بشرية السيد المسيح وفائدة الانضمام إلى الإسلام أو دفع الجزية وسيادة السلم بين الروم والمسلمين. والرسالة مهمة كل الأهمية لأنها تكشف النقاب عن العلاقات السلمية والثقافية التي كانت سائدة بين الطرفين، كما وأنها سجل حي لمعارف المسلمين الدينية حول الأديان الأخرى وبخاصة النصرانية[1].

الأمين:

نصل هنا إلى شخصية اختلفت عليها الأحكام اختلافاً كبيراً، ذلك أن أغلب المصادر مجمعة على تصوير الأمين بصورة الخليفة المستهتر الذي لا يقيم وزناً لأمور الدولة حتى في أدق مراحلها حرجاً، والذي همه سروره ولذته وهو في الوقت نفسه ناقض للعهد، ناكث للمواثيق ضعيف التفكير... والحق أن النصوص الوثيقة التي بين أيدينا تصحح هذه الصورة إلى حد بعيد. ذلك أن الأمين - إذا جاز لنا أن نحكم عليه وأن نزنه بمعايير هذه الأيام - شخصية رومانتيكية، على حين أن شخصية أخيه المأمون شخصية عملية وصولية مكيافيللية، والمنهزمون في كل زمان ومكان هم المخطئون وهم الضعيفون وهم العاجزون. وقد أثرت دعاية المأمون تأثيراً هائلاً على تشويه سمعة أخيه الأمين وإبرازه بالصورة المعروفة! والذي يبدو لنا أن الأمين شخص أصابه الغرور وكان يشعر بتفوقه على أقرانه، وقد أفسده الدلال وأبطره الغنى وخانه أتباعه الذين لم يحسن اختيارهم، والمخلصون منهم كانوا عاجزين ولا يوازنون بأنصار أخيه المأمون. فمجرد ترشيحه للخلافة بعد أبيه على الرغم من وجود أخيه المأمون الأسن منه جعله يعتقد - مصيباً أو مخطئاً - أنه شخص له قيمة خاصة ومكانة خاصة، كما وأنه الخليفة العباسي الوحيد الذي أبواه هاشميان

---

(١) الرفاعي، محمد فريد، المصدر المذكور آنفاً جـ ٢ ١٨٨ - ٢٣٦.

عباسيان، وقد أفسده دلال أمه زبيدة باعتباره وحيدها. ولا يقاس أتباعه وأنصاره ومستشاروه وقواده بأتباع أخيه وأنصاره ومستشاريه وقواده. فهناك بون شاسع بين الفضل بن الربيع وبين الفضل بن سهل، ولا يمكن أن نوازن بحال من الأحوال بين طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وبين علي بن عيسى بن ماهان. وإذا أضفنا إلى أن الفرس اعتبروا الصراع صراعهم والتفوا بأجمعهم حول المأمون، على حين لم يفعل العرب نفس الشيء أمكننا أن نتنبأ بنتيجة الصراع الحتمية.

ولا يلام الأمين على محاولته خلع أخيه من ولاية العهد أو إحلال ابنه محله، فقد فعل نفس الشيء أغلب الخلفاء العباسيين بدءاً من أبي جعفر المنصور حتى موسى الهادي الذي حاول خلع أخيه هارون الرشيد من ولاية العهد؛ ذلك أن ما حدث كان أخلاق العصر، وإنما يلام الرشيد لأنه بعهده وبتقسيمه الإمبراطورية ونزعه كل سلطة لمحمد على المأمون جعل الصراع أمراً حتمياً.

وتدل رسائل الأمين إلى أخويه صالح والمأمون، أثناء مرض والده في رحلته إلى طوس وتوقعه موته، على حذر تام ومعرفة بضبط الأمور وحسن تسييرها في أوقات الأزمات، ولكن ثقته بالفضل بن الربيع ومدحه له لم يكونا في محلها [1] كما وإن خطبته لما أصبح خليفة لم تكن أسوأ من غيرها من خطب الخلفاء في مثل هذه المناسبات، بل لعلها أجود من خطب غيره من الخلفاء [2]. ولقد كان الأمين ووالدته على ثقة بالنصر حتى أن السيدة زبيدة أوصت علي بن عيسى - قائد الجيش الموجه إلى حرب المأمون - أن يرفق بالمأمون ودفعت إليه قيداً من فضة ليقيده به [3]. ونلاحظ في وصية الأمين لعلي بن عيسى روحاً عالية وأخلاقاً

(١) الجهشياري، أبو عبدالله محمد بن عبدوس، المصدر المذكور آنفاً ص ٢٧٦.
(٢) اليعقوبي، ابن واضح، المصدر المذكور آنفاً ج ٢ ٤٣٣ - ٤٣٤.
(٣) ابن الأثير، عز الدين، المصدر المذكور آنفاً جـ ٦ - ٢٤٠.

رفيعة: امنع جندك من العبث بالرعية والغارة على أهل القرى وقطع الشجر وإنتهاك النساء... ومن خرج إليك من جند أهل خراسان ووجوهها فأظهر إكرامه وأحسن جائزته، ولا تعاقب أخاً بأخيه وضع عن أهل خراسان ربع الخراج[1]... وتدل رسائله الأولى إلى أخيه المأمون على رغبة في حسن العلاقات بينهما وعلى الوفاء بما عهد به إليهما أبوهما الرشيد، ولكن بعد حين بدأ الأمين محاولاته لانتقاص حقوق أخيه، ومن ثم سعى ليحضره عنده في بغداد، ولكن المأمون تنبه لذلك ورفض الحضور محتجاً أن خراسان ثغر مخوف... ومتى أخللتُ بها أو نزلت عنها لم آمن من انتقاض الأمور فيها وغلبة أعدائها عليها بما يصل ضرره إلى أمير المؤمنين حيث هو...[2] كذلك رفض المأمون - بأدب - طلب الأمين أن يقدم ابنه موسى قبله في ولاية العهد. وهكذا دأب المأمون، بتحريض من الفضل بن سهل، يرفض كل طلب للأمين، حتى ولو كان بسيطاً حتى جرت الأمور بينهما إلى حد إعلان الحرب الفعلية. ولقد تمكن الفضل بن سهل أن يشتري أحد كبار مستشاري الأمين وحرضه على أن يجعل الأمين يعهد بقيادة الجيش المرسل إلى حرب المأمون إلى علي بن عيسى... إن أبى القوم إلا عزمة الخلاف فألطف لأن يجعلوا أمره لعلي بن عيسى[3]... وذلك لكره أهل خراسان له ولسوء أثره فيها أيام الرشيد كما يقول الطبري.

ولكن رأينا في الموضوع هو أن الفضل اختاره - وبالدرجة الأولى - لما يعرف من غروره وغطرسته وقلة احترازه وهذه كلها صفات لا تؤهل صاحبها البتة لقيادة جيش. فلما عهد إليه بقيادة الجيش كانت النتيجة كارثة للأمين وقتل قائد الجيش وانفض جمعه وزحف أعداؤه إلى عاصمته يطلبون مهجته. ولقد

---

(١) الطبري، أبو جعفر، المصدر المذكور آنفاً ج ٧ - ١٧.

(٢) أبو حنيفة الدينوري، المصدر المذكور آنفاً ص ٣٩٥.

(٣) الطبري، أبو جعفر، المصدر المذكور آنفاً جـ ٧ - ١٠.

سعى المأمون أن يفسد جند الأمين فأرسل إلى عدد كبير من قواده رسائل يذكرهم العهود والمواثيق ويظهر نفسه بمظهر المظلوم والمنفذ الوحيد والحقيقي لوصية والده على حين أن أخاه ظالم معتد ممزق للمواثيق (١). ويبدو أن هذه أثمرت وأن بعض القواد على الأقل أصغوا إليها وأجابوا المأمون عنها (٢).

كذلك لم تكن جبهة الأمين الداخلية موحدة وانفض أكثر أنصاره عنه لما اقترب الجيش المأموني من بغداد، بل لقد حصلت ثورة، أو بالأحرى انقلاب ضد الأمين وخلع عن العرش، ولكن أنصاره أعادوه مجدداً له(٣). ولما أحكمت حلقة الحصار حول الأمين حاول هذا أن يفسد طاهر بن الحسين قائد الجيش المحاصر فأرسل إليه يقول: ما قام لنا منذ قمنا قائم بحقنا فكان جزاؤه عندنا إلا السيف فانظر لنفسك أو دع (٤). ولما لم تفلح هذه الرسالة وأدرك الأمين أنه خسر كل شيء كتب ثانية إلى طاهر يطلب منه أن يمنحه أماناً حتى يخرج إلى أخيه المأمون (٥). ولكن طلبه هذا ظل بلا جواب، فاضطر أن يلجأ إلى هرثمة يطلب منه الأمان الذي وافق على ذلك وقرر استلامه والتوسط بينه وبين أخيه المأمون غير أن طاهراً وأنصاره كانوا بالمرصاد فحالوا دون تنفيذ ذلك وكانت النتيجة أن حاق الخذلان بالمشروع وأسر الأمين ثم قتل.

وتعتبر رسالة طاهر بن الحسين إلى المأمون يبشره بفتح بغداد وقتل أخيه الأمين بمثابة دفاع عن نفسه وإن قتل الأمين لم يجر بعلمه وإن أتباعه [أتباع طاهر] قتلوه لما عرض عليهم الرشوة وإنه خرج إليهم دون عهد ولا عقد. ذلك

---

(١) نفس المصدر جـ ٦ - ٢٦٠.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر جـ ٧ ٣٥ - ٣٧.

(٤) السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، المطبعة التجارية الكبرى، ١٩٥٢ م ص ٣٠٠.

(٥) نفس المصدر ص ٣٥٠.

أن طاهراً يعلم أن المأمون سيتأثر لمصرع أخيه الأمين وهو يعلم أن هرثمة سيقص على المأمون الملابسات التي أدت إلى قتل الأمين، فأراد أن يقطع عليه الطريق بأن يذكر له قصة قتل الأمين كما يرويها هو لا كما يرويها هرثمة... فبادر بعضهم [بعض أتباع طاهر] حراقة هرثمة فتكفأت بهم حتى أغرقت في الماء ورسبت، فانصرف بعضهم إلى المدينة، ورمى المخلوع عند ذلك بنفسه من الحراقة في دجلة متخلصاً إلى الشط فابتدره عدة من أوليائي ... فأخذوه عنوة وقهراً بلا عهد ولا عقد... فعرض عليهم مائة حبة ذكر إن قيمة كل حبة مائة ألف درهم، فأبوا إلا الوفاء لخليفتهم. فتعلقوا به قد أسلمه الله وأفرده كل يرغبه ويريد أن يفوز بالحظوة عندي دون صاحبه حتى اضطربوا فيما بينهم وتناولوه بأسيافهم منازعة فيه وتشاحا عليه إلى أن أتيح له... فأتي عليه[1].

هذه هي الرواية الرسمية لقتل الأمين وهي تختلف عن رواية الطبري لها والتي يقول إنها الحقيقة وفي رأينا أن طاهراً زور القضية هنا ليبرر إعدامه وقتله للأمين أخي المأمون، وهذا مثل صارخ على التزوير الرسمي للحقائق.

قتل الأمين وتهدمت بغداد وهزم الحزب العربي وانتشرت الفوضى في العراق وأصبح المأمون الحاكم الوحيد للأمبراطورية الإسلامية.

المأمون:

يعتبر عصر المأمون ـ مع عصر الرشيد ـ كما سبق أن قلنا العصر الذهبي ليس في التاريخ العباسي فحسب، بل في التاريخ الإسلامي كله. ويبدو لنا المأمون ـ من خلال النصوص، ومن خلال المنجزات التي تمت في عصره ـ شخصية واقعية عملية ـ من وجهة نظر سياسية ـ تختلف اختلافاً جذرياً عن شخصية أخيه الأمين الرومانتيكية الخيالية الحالمة. وأما من الناحية العلمية فقلائل هم

(١) الطبري، أبو جعفر، المصدر المذكور آنفاً جـ ٧ ٨٧ ـ ٨٨.

الخلفاء والحكام المسلمون الذين يمكن موازنتهم بالمأمون في علمهم وحبهم للعلم والمعرفة وتشجيعهم للبحث والدرس والتأليف...

وتدل خطب المأمون المحفوظة لدينا على نفس ديني وعظي، كما هي الحال مع والده من قبل، ذلك أن الخطابة السياسية التي كان الخلفاء يبسطون سياسة الدولة بواسطتها وينذرون ويوعدون ويعدون ويستميلون ماتت مع نهاية العصر الأموي ومطالع العباسي. هذا وإن الشغل الشاغل للمأمون هما قضيتان: قضية ولاية العهد وقضية خلق القرآن:

ولا ندري متى اهتم المأمون بقضية ولاية العهد، كما وإننا لا ندري بالضبط متى اتجهت ميوله نحو تولية العهد شخصاً علوياً، والذي يبدو لنا أن المأمون، الحر التفكير المعتزلي الآراء، كان معجباً كل الإعجاب بعلي بن أبي طالب. وهذا شيء طبيعي فيه طالما أن أفكاره معتزلية لأن أغلب المعتزلة ميالون لعلي على حساب معاوية. ولقد بلغ تعصب المأمون ضد معاوية ذروته حتى إنه هم بلعنه على المنابر وأمر منادياً ينادي في الناس بما يلي: برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير أو فضله على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ (١). ويبدو أن طول مقام المأمون في خراسان ونفوذ الفضل بن سهل جعلاه يجنح إلى تولية عهده شخصاً علوياً، هذا بالإضافة إلى موقف العباسيين المعادي للمأمون بسبب صراعه مع أخيه واستقراره في خراسان وتركه بغداد مما جعلهم ينتخبون أميراً عباسياً من بينهم لتسيير الأمور، ثم أعلن نفسه خليفة. ذلك هو إبراهيم بن المهدي. ولا نعتقد أن ثورات العلويين، ولا سيما تلك التي قام بها أبو السرايا باسم أحد العلويين كان لها كبير وزن في قرار المأمون هذا، لأنها لم تكن ثورات جدية وأمكن التغلب عليها بسهولة. والطريف في الأمر أن أهل الكوفة الذين أعانوا أولاً أبا السرايا وساعدوه ضد جند المأمون تخلوا عنه أخيراً فخطبهم خطبة

(١) ابن الأثير. عز الدين، المصدر المذكور آنفاً جـ ٦ - ٤٠٦.

ملتهبة هاجمهم فيها أعنف هجوم يذكرنا بخطب الحجاج ويوسف بن عمر ضدهم[1] . ويدل منشور المأمون الذي أصدره عندما اختار علياً الرضا لولاية العهد على شعور بالمسؤولية كبير وأنه إنما فعل ذلك شعوراً منه بالمسؤولية وقياماً بالواجب الملقى على عاتقه. ذلك أن... الله عز وجل جعل العهد بالخلافة من تمام الإسلام وكماله وعزه وصلاح أهله، وألهم خلفاءه من توسيده لمن يختارونه له من بعدهم ما عظمت به النعمة وشملت منه العافية[2] ... وأن المأمون، بعد أن استخار الله في ذلك، وبعد أن نظر في أفراد البيتين العباسي والعلوي لم يجد أفضل من علي الرضا لهذا المنصب... فعقد له بالعقد والخلافة إيثاراً لله والدين ونظراً للمسلمين وطلباً للسلامة وثبات الحجة والنجاة في اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين[3] . وكالعادة يعلن علي الرضا في جوابه للمأمون على رسالته السابقة شكره للمأمون: لأنه عرف من حقنا ما جهله غيره فوصل أرحاماً قطعت وأمن أنفساً فزعت[4] ... ويتعهد بالسير بكتاب الله وسنة رسوله وعدم الظلم وعدم سفك الدماء إذا آلت إليه الخلافة.

وأما القضية الثانية التي أقضت مضجع المأمون وجعلته يبذل جهوداً جبارة في سبيلها فهي قضية خلق القرآن. ولا ندري متى بدأ المأمون يهتم بخلق القرآن والقول به، ويبدو أن اهتمامه هذا قديم ولكن هذا الاهتمام أخذ شكلاً نشطاً حاداً في السنة الآخرة من خلافته حتى أن ذهابه إلى بلاد الروم للغزو والحرب لم يمنعه من الاهتمام البالغ بهذه القضية فنراه يرسل الرسائل تلو الرسائل إلى واليه على بغداد من أجلها. وتدل رسائله على فصاحة وبلاغة، كما تدل على مقدرة عجيبة

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني، المصدر المذكور آنفاً ص ٥٤٥.

(٢) القلقشندي، أبو العباس أحمد، كتاب صبح الأعشى، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩١٤ - ١٩١٩ م. ١٤ جـ الجزء التاسع ص ٣٦٤.

(٣) نفس المصدر، الجزء التاسع ص ٣٦٥

(٤) نفس المصدر، الجزء التاسع ص ٣٩١.

على الجدل والبرهنة على الرأي ودعمه والاستشهاد من أجل إثباته بالآيات القرآنية المؤيدة له. وهو يعلن أن واجبه كخليفة أن يبين الحقيقة وأن يمحق الضلالة بل والشرك، لأنه اعتبر القول بقدم القرآن شركاً بالله تعالى. ولما كان رجال الدين، في رأيه، هم قواد هذه البدعة ـ القول بعدم خلق القرآن ـ بل هم المروجون لها، ولذلك أصدر أمره أن يصار إلى امتحان القضاة والشهود. فأما القضاة الذين لا يقولون بخلق القرآن فيجب صرفهم عن مناصبهم وإرسال أسمائهم إلى أمير المؤمنين، وكذلك يجب القيام بنفس العمل في جميع أنحاء وأطراف البلاد الإسلامية. وأما الشهود فيجب امتحانهم فمن أقر أن القرآن مخلوق قبلت شهادته ومن رفض ردت شهادته.

قد يكون للمأمون عذر في صرف القضاة المخالفين عن عملهم؛ لأن هؤلاء القضاة يخالفون مذهب الدولة الرسمي، ولكن قضية الشهود هذه غير مقبولة لأن عدالة الشاهد لا تتعلق بمعتقده وإنما تتعلق بسلوكه وأخلاقه، ولكن رأى المأمون أنه... من عمي عن رشده وحظه من الإيمان بالله وتوحيده كان عما سوى ذلك من عمله والقصد في شهادته أعمى وأضل سبيلاً[1].

كذلك تابع نفس الخط من السياسة في رسائله الأخرى التي وجهها إلى واليه على بغداد ودعمها بأدلة أخرى وحجج من القرآن الكريم، وازداد تصلباً وشراسة في معاملة من خالفوه، ذلك أن واليه إسحاق بن إبراهيم أرسل له محضر أقوال الفقهاء والقضاة الذين جمعهم من أجل القول بخلق القرآن. ويبدو أن بعض هذه الشهادات والأقوال لم تعجب المأمون فأرسل أوامره وتعليماته إلى إسحاق هذا من أجل معاملة هؤلاء وأمثالهم. ولقد كان موقفه عنيفاً كل العنف مع شخصين سماهما هما بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدي، ويبدو أنهما رفضا القول بخلق القرآن فأرسل إلى إسحاق يطلب منه أن يستتيبهما من القول بعدم خلق

(١) الطبري، أبو جعفر. المصدر المذكور آنفاً جـ ٧ ـ ١٩٧٠.

القرآن فإن تابا واعترفا أن القرآن مخلوق كان بها... وإلا فاضرب عنقه وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه [١]... ونفس الشيء صحيح بالنسبة لإبراهيم بن المهدي. ولقد رد المأمون رداً عنيفاً على آراء الفقهاء الذين أورد إسحاق ردودهم وأقوالهم في رسالته، وذكر كل فرد منهم باسمه وفند آراءه وهاجمه وتهكم عليه ووصمه بإحدى الوصمات. ثم يطلب من واليه أن يعاود أسئلتهم عن القرآن، فمن أصر على القول أنه غير مخلوق أمره بحمله موثقاً بالحديد إلى المأمون في بلاد الروم ـ ما عدا بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدي ـ لينصهم أمير المؤمنين، وإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف إن شاء الله ولا قوة إلا بالله [٢].

تعتبر هذه الرسالة وثيقة ذات أهمية خاصة لأنها: حوت آراء المأمون وجدله وبراهينه حول خلق القرآن، ورده على من خالف رأيه. ثم إنها تظهر معاملته لمن خالفه وهي تنقض رأي من يعتقد أن المأمون متسامح. فهذه الرسالة تضع المأمون في عداد أشد المتعصبين وأكثر المتحمسين غلواً وأن جزاء المخالفين الوحيد هو السيف. لم ينج القومَ من السيف إلا قولهم بما قال الخليفة من أن القرآن مخلوق ولم يشذ عن ذلك إلا أحمد بن حنبل وابن نوح اللذان أصرا على موقفيهما فحملا إلى المأمون، فمات ابن نوح على الطريق وبقي ابن حنبل، ولكن أنقذه الله منه إذ أتـاه في الطريق نبأ وفاة المأمون. ولا ندري ما يمكن أن يكون موقف المأمون من ابن حنبل، ولكن الدلائل تشير إلى أن المأمون كان جاداً في تهديداته. والطريف في الموضوع أن المسكين بشر بن الوليد اعترف أن القرآن مخلوق، ولكنه أذاع ان ذلك تقية منه، ووصل القول إلى المأمون فغضب وأمر بإرساله إليه [٣]. ولا ندري بعد ذلك ما حدث.

---

(١) نفس المصدر جـ ٧ ـ ٢٠٣ والإشارة هنا لبشر بن الوليد.

(٢) نفس المصدر جـ ٧ ـ ٢٠٥.

(٣) نفس المصدر جـ ٧ ـ ٢٠٦.

ولقد أظهر المأمون كياسة ولباقة في معاملة زبيدة أم أخيه الأمين وزوجة أبيه الرشيد ذلك لأنه كان يعلم مقدار الفاجعة التي أصابتها في وحيدها ويدرك شعورها ولذلك حاول أن يكون معها لطيفاً كل اللطافة، فقد أرسلت له رسالة بعد دخوله بغداد تستعطفه عليها وتقول في خاتمتها... فإن رأيت أن ترحم ضعفي واستكانتي وقلة حيلتي وأن تصل رحمي وتحتسب فيما جعلك الله له طالباً وفيه راغباً فافعل، وتذكر من لو كان حياً كان شفيعي إليك[1]. وكان جواب المأمون آية في الشهامة: وصلت رقعتك، يا أماه أحاطك الله وتولاك برعايته... وساءني، شهد الله، جميع ما أوضحت فيها، لكن الأقدار نافذة... وقد أمرت برد جميع ما أخذ لك، ولم تفقدي ممن مضى إلى رحمة الله إلا وجهه، وأنا، بعد ذلك، على أكثر ما تختارين[2].

وجميع أو أغلب رسائل المأمون قطع أدبية يمكن دراستها واستكناه فحواها وتركيبها، على حين أن رسائله المتعلقة بخلق القرآن قطع أدبية صيغت بلغة عقدية منطقية من أجل إثبات فكرة مسيطرة بالبرهنة عليها عقلاً ونقلاً.

وتعتبر رسالة طاهر بن الحسين إلى ابنه عبدالله لما ولاه ديار ربيعة رسالة جامعة ودستوراً للسلوك الشخصي والسلوك الأخلاقي ودستوراً للحكم يحدد علاقة الحاكم بمن هو أعلى منه وبمن هم نظراؤه وبرعيته، وما هي واجباته وكيف يؤدي هذه الواجبات تجاه ربه وتجاه خليفته وتجاه أميره وجيشه وجنده وتجاه عمال الخراج وتجاه أفراد الرعية، مع أسلوب فحل ولغة قوية وبيان مشرق مما يجعلها ـ بحق ـ قطعة أدبية فنية سياسية من الطراز الممتاز. ولعل أفضل وصف لها هو قول المأمون الذي قال بعد أن اطلع عليها وذلك بعد أن شاعت وذاعت وتناقلها

(١) الهاشمي، السيد أحمد. جواهر الأدب في أدبيات وإنشا لغة العرب. تحقيق لجنة من الجامعيين، طبعة جديدة ومنقحة، بيروت. مؤسسة المعدة، ٢ جـ في مجلد واحد جـ ١ ـ ٨٤

(٢) نفس المصدر

الناس: ما بقى أبو الطيب [يعني طاهر بن الحسين] شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأي والرياسة واصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه [1] وأمره أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في جميع الأعمال.

ولقد امتازت علاقة المأمون بالروم بالسلم الذي ران عليها أول عهده بالخلافة. وهذا طبيعي بسبب الحرب الأخوية والاضطراب الذي أعقبها، ثم امتازت بالأعمال الحربية التي شغلت القسم الأخير من خلافته حتى وفاته. ولقد دارت رسائل بينه وبين تيوفيل ملك الروم، ولقد حاول تيوفيل الحصول على صلح من المأمون، ولكن لم يطلبه طلب المهزوم المغلوب وإنما أرسل إلى المأمون رسالة يشرح فيها فوائد السلم والاتفاق بين الخصمين ويعرض عليه الصلح على ذلك المبدأ، وإلا فالحرب.

ولكن ذلك لم ينطل على المأمون الذي أرسل له رسالة تبرق وترعد ولكنه ختمها بأن عرض عليه الإسلام أو دفع الجزية، أو الحرب [2].

ولقد حارب المأمون ملك الروم وهزمه فأرسل إليه هذا رسالة ثانية ولكن المأمون رفض استلامها وقال للأسقف الذي حملها: أما يرضى أن أسمح له بمراسلتي حتى يبدأ بنفسه! فأرسل تيوفيل رسالة ثانية بدأ فيها بالمأمون ومطلعها: لعبد الله غاية الناس في الشرف ملك العرب من تيوفيل بن ميخائيل ملك الروم [3] ...

ولقد أوصى المأمون بالخلافة من بعده لأخيه المعتصم وأوصاه أن يشمر عن

---

(١) الطبري، أبو جعفر. المصدر المذكور آنفاً جـ ٧ - ١٦٨.

(٢) نفس المصدر، جـ ٧ - ١٩٤.

(٣) اليعقوبي، ابن واضح. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٢ - ٤٦٥.

ساعد الجد وأن يتفرغ للخرمية وأن يستمر في حربه ضد الروم وأن يتابع السير في سياسة المأمون القائلة بخلق القرآن.

المعتصم:

يعتبر عهد المعتصم ـ من بعض النواحي ـ امتداداً لعصر المأمون، فقد استمر النشاط الحربي ضد البيزنطيين وفاق ما كان جارياً زمن المأمون، وبلغ ذروته في سقوط عمورية بيد المعتصم، كذلك أظهر المعتصم نشاطاً عسكرياً كبيراً ضد بابك حتى تمكن من القضاء عليه. ولقد استمر المعتصم في سياسة أخيه الدينية القائلة بخلق القرآن. ولكن الفرق بين العهدين يكمن من رأينا في شخصية المعتصم. فهناك فرق بعيد وبون شاسع بين علم المأمون وذكائه وتألقه وبين جهل المعتصم وأُميته وعدم فهمه في مثل هذه المسائل العقلية، ولذلك نجد عصر المأمون أكثر تألقاً بكثير من عصر المعتصم على الرغم من تفوق المعتصم وعصره على المأمون وعصره من الناحية الحربية على الأقل. ولعل أهم القضايا التي عرضت له في عهده هي مشكلة بابك الخرمي ومشكلة الأفشين.

ولقد ثار بابك هذا وكان شوكة في جنب المسلمين وهزم للمأمون عدة جيوش حتى تمكن المعتصم من القضاء عليه بعد معارك طاحنة وجهود مضنية وتدل رسالته التي وجهها إلى ملوك الآفاق من المسلمين لما أسر بابك وقضى عليه وعلى حركته على مقدار اهتمامه بهذا الموضوع ومقدار الجهد الذي بذل في سبيل القضاء على هذا العدو... ولا يعلم أمير المؤمنين مع كثرة أعداء المسلمين عدواً كان أعم بلية ولا أجل خطباً ولا أشد كلباً ولا أبلغ مكايدة ولا أرمى بمكروه من هؤلاء الكفرة[1]... وكذلك يبرز اهتمامه البالغ بالقضاء عليه وعلى حركته من قوله:... ولم يزل أمير المؤمنين، قبل أن تفضي إليه الخلافة ماداً عنقه موجهاً همته إلى أن يوليه الله أمر هؤلاء الكفرة ويملكه حرمهم ويجعله القارع لهم عن

(١) القلقشندي، أبو العباس أحمد. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٦ ـ ٤٠١.

دينه والمناجز لهم عن حقه[1]... ثم يذكر جهوده وما بذله في سبيل القضاء على بابك وحركته وخضد شوكته وشوكة من والاه حتى صنع الله له وأتى ببابك أسيراً فضربت عنقه وانتهى أمره[2].

وأما الأفشين فمشكلته معقدة: ذلك إنه من أبناء ملوك أشروسنة، اعتنق الإسلام وأظهر مقدرة حربية دعت المعتصم إلى أن رفعه وتوجه وطوقه وقلده، فأثار هذا العمل غروره من جهة، كما أثار حسد رجال الدولة الآخرين وخوفهم من ناحية ثانية، فتألبوا ضده، وهو من جهته لم يحسن التصرف حيال مثل هذا الوضع المتأزم فأدى الأمر إلى اعتقاله ومحاكمته. ويبدو لنا الافشين في محاكمته هادئاً رزيناً منطقياً يعرف كيف يرد التهم وكيف يتخلص من الأسئلة المحرجة كما فعل في جوابه لمحمد بن عبد الملك الزيات لما سأله عن كتاب محلى بالذهب والجواهر عنده ما يفعل به... قال له محمد: ما كتاب عندك قد زينته بالذهب والجواهر والديباج فيه الكفر بالله؟! قال الافشين: هذا كتاب ورثته عن أبي فيه أدب من آداب العجم، وما ذكرت من الكفر فكنت استمتع منه بالأدب وأترك ما سوى ذلك، ووجدته محلى فلم تضطرني الحاجة إلى أخذ الحلية منه فتركته على حاله ككتاب كليلة ودمنة وكتاب مزدك في منزلك، فما ظننت أن هذا يخرج من الإسلام[3].

ولكن رسالة الافشين الشفوية التي وجهها من حبسه إلى المعتصم يرجو عطفه وإزالة ما علق بذهنه من وشاية الوشاة ويشرح قضيته لم تكن على هذا المستوى ولم يوفق فيها بضرب المثل بالعجل والأسد، ذلك إنه شبه نفسه بالعجل وإن أعداءه موهوا على المعتصم حتى جعلوه يعتقد أنه أسد لا عجل فذبحه[4].

---

(١) نفس المصدر، جـ ٦ ـ ٤٠٣.

(٢) نفس المصدر، جـ ٦ ـ ٤٠٤.

(٣) الطبري، أبو جعفر. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٧ ـ ٣٠٦.

(٤) نفس المصدر، جـ ٧ ـ ٣١٠.

الواثق:

عهد الواثق قصير وشخصيته غير واضحة المعالم. وقد سار على سنن أبيه وعمه في القول بخلق القرآن، ولم يكن له نشاط حربي يذكر، ولذلك ركز جهوده على نشر القول بخلق القرآن. ويبدو لنا أنه أصيب بصدمة قوية لما سمع المناظرة التي درات بين أحمد بن أبي دؤاد وبين شيخ أتى به وهو متهم أنه لا يقول بخلق القرآن. ذلك أن هذا الشيخ تمكن أن يفحم أحمد بن أبي دؤاد الذي اعترف للشيخ أن القول بخلق القرآن شيء لم يعرفه رسول الله ﷺ ولا الخلفاء الراشدون. فقال له الشيخ: سبحان الله! شيء لم يعلمه النبي ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا الخلفاء الراشدون وعلمته أنت! فخجل ابن أبي دؤاد وطلب من الشيخ إقالته، فلما أعاد الشيخ سؤاله كان جواب أحمد بن أبي دؤاد إن هذا شيء علمه النبي والخلفاء الراشدون ولكنهم لم يدعوا إليه. فقال له الشيخ: أو لا وسعك ما وسعهم[1].

كذلك كان الواثق متحمساً لنشر مذهب الاعتزال بالقوة وحتى قتل من قال بغير مقالته. وهذا ما لم يصل إليه عمه وأبوه من قبل، فقد قتل أحمد بن نصر وعلق في أذنه رقعة ذكر فيها أسباب قتله إياه وذلك بعد ... أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفي التشبيه وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع إلى الحق فأبى إلا المعاندة والتصريح[2].

المتوكل:

كان المتوكل على نقيض أخيه وأبيه وعمه، إذ أنه أهمل مذهب الاعتزال وأحيا السنة وكان متعصباً ضد العلويين فهدم قبر الحسين واضطهد العلويين وأشياعهم وشدد على أهل الذمة.

---

(١) الخطيب البغدادي، المصدر المذكور آنفاً جـ ٤ - ١٥٢.

(٢) الطبري، أبو جعفر، المصدر المذكور آنفاً جـ ٧ - ٣٢٩.

ويعتبر عهده عهد صراع مرير بينه وبين القواد الأتراك انتهى ـ لسوء الحظ ـ بتغلب الأتراك عليه وقتلهم إياه. وقد افتتح المتوكل عهده بمرسوم أصدره إلى الآفاق يعلن توليه الخلافة وتلقبه بالمتوكل على الله ويطلب ألا يخاطب إلا بذلك اللقب [1].

ولقد حاول المتوكل أن يقلد جده الرشيد فقسم الامبراطورية بين أولاده الثلاثة: المنتصر والمعتز والمؤيد وجعل ولاية العهد من بعده للمنتصر ومن بعد المنتصر للمعتز ومن بعد المعتز للمؤيد. ولكن هذا تقليد سيء لأن الرشيد أخطأ في ذلك مما أدى إلى الحرب الأخوية بين الأمين والمأمون كما رأينا، وقد أخذ المتوكل عليهم من العهود ما أخذه الرشيد على أولاده وخصص وعين وحذر وأوعد واستشهد بآي الذكر الحكيم، ولكن جميع ذلك كان دون جدوى إذ لم ينفذ شيء من ذلك.

أضف إلى ذلك أن المتوكل غفل عن نقطة مهمة جداً في الموضوع وهي أن عصره غير عصر جده الرشيد وأن المتوكل غير الرشيد، وأن القوى المسيطرة في عهده هو غير القوى التي كانت مسيطرة في عهد جده الرشيد، ولذلك كان تقسيمه هذا حبراً على ورق ولم يأخذه أحد بعين الاعتبار وسقط بعيد وفاة المتوكل [2].

أما منشوره الذي أصدره من أجل معاملة أهل الذمة، فلا يحوي إلا تعليمات تتعلق بلباسهم ـ لبس الطيالس العسلية أو تركيب خرقتين لونهما عسلي لمن لم يستطع لبس الطيالس، ووضع أزرة على القلانس يخالف لونها لون القلنسوة، واتخاذ أكرة من خشب تنصب على قرابيس سرجهم، وأن يؤخذ عبيدهم

---

(١) ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق دي غويه ودي يونج. ليدن، بريل، ١٨٦٩ م جـ ٦ الجزء السادس ص ٢٣٦.

(٢) الطبري، أبو جعفر، المصدر المذكور آنفاً جـ ٨، ٣٥٨ ـ ٣٦٢.

وإماؤهم ومن يلبس المناطق من تلك الطبقة بشد الزنانير والكساتيج مكان المناطق [1].

هذا مع العلم أن كتب التاريخ تذكر أنه أمر ألا يظهروا احتفالاتهم وألا يظهروا صلبانهم وألا يرفعوا أصوات نواقيسهم، وألا يُستخدموا في الأمور التي يكون لهم فيها يد على المسلمين وغير ذلك مما لا وجود له البتة في منشوره هذا، ولا ندري أيها أصدق المنشور أم الأخبار التي يوردها المؤرخون؟.

---

(١) نفس المصدر، جـ ٧، ٣٥٦ - ٣٥٧.

العصور العباسية المتتابعة

٢٤٧ ـ ٦٥٦ هـ

٨٦١ـ ١٢٥٨ م

سبق أن ذكرنا في دراسة سابقة أن العصر العباسي يعتبر عصر الإبداع في الحضارة الإسلامية، فيه بلغت الحضارة الإسلامية أوجها وأثمرت ثمارها اليانعة، وشاهدت نهايته بداية انحطاطها وانحلالها. والواقع أن العصر العباسي عصر طويل يمتد على أكثر من خمسمائة سنة وحدثت به أحداث كثيرة جداً ومهمة جداً. ولقد قسم المؤرخون هذا العصر إلى أربعة أو خمسة أدوار حسب المميزات الغالبة. والمؤلف، وإن كان يقف موقف المعارض من تقسيم مجرى التاريخ إلى أدوار، إذ أن هذا التقسيم لا معنى له ولا يعكس حقيقة الأوضاع التي كانت سائدة آنذاك، إلا أنه يوافق على هذا التقسيم الذي هو سياسي بالدرجة الأولى ولا علاقة له بالناحية الحضارية، وذلك حسب الصفات والمميزات العامة للعصر. فقد قسم المؤرخون العصر العباسي إلى أدوار خمسة:

دور القوة، وعصر النفود التركي، وعصر بني بويه، والعصر السلجوقي، والعصر الأخير. ونعود فنقول إن هذا التقسيم سياسي ومن وجهة نظر سياسية محضة ولا يؤثر أدنى تأثير في سير الحضارة، كما وإنه يسهل البحث في هذا المجرى التاريخي الطويل.

هذا ولقد تناولنا بالدراسة خصائص ومميزات ووثائق العصر العباسي الأول الذي هو عصر القوة والذي يمتد بين عامي ١٣٢ ـ ٢٤٧ هـ وذلك في كتابنا: **الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول: دراسة**

ونصوص. والآن نريد أن نعطي الملامح العامة لبقية الأعصر العباسية كما تبدو من خلال الوثائق السياسية والإدارية العائدة لتلك الأعصر مع ذكر أهم تلك الوثائق.

إن هذه العصور هي امتداد لشجرة كبيرة هي شجرة الحضارة الإسلامية، وكل ما حدث فيها من تغيرات أو نكسات لم تحرف جدول هذه الحضارة عن سيره المرسوم له، وإنما لونتها وأعطتها مظهراً مغايراً بعض المغايرة لها في عصور سابقة أو لاحقة. هذا مع العلم أن التغيرات السياسية كانت واضحة كل الوضوح وأثرت تأثيراً قوياً في حياة الشعب وفي قوة الدولة وعظمتها أو ضعفها وانحطاطها وتجزئتها.

ولا تتحدث المصادر الإسلامية المعاصرة لتلك الأحداث على أنها شيء متميز، وإنما أجمع المؤرخون المسلمون على اعتبار التاريخ الإسلامي وحدة، على الرغم من التجزئة السياسية التي حلت بالبلاد الإسلامية منذ استلم العباسيون الحكم، وعلى الرغم من تتابع السلالات وتتابع مراكز القوى وتوزعها، وإن كان هناك، لدى بعض المؤرخين، تركيز على بعض النواحي المعينة أو الأماكن المعينة حسب اهتمامات المؤلف أو أصله أو ميوله...

مصادر الوثائق:

والواقع أن كتب التاريخ التي تغطي جميع العصور العباسية قليلة، وتغطيتها ضعيفة وهزيلة في جميع المجالات ولاسيما في حقل الوثائق. فهناك كتب تؤرخ لعصور الإسلام جميعها حتى العصر المملوكي كالسيوطي في تاريخه: **تاريخ الخلفاء**، وابن كثير في كتابه: **البداية والنهاية**، والذهبي في كتابه: **العبر**، وابن تغري بردي في كتابه: **النجوم الزاهرة**، وأبي الفداء في كتابه: **المختصر في أخبار البشر** وابن العبري في كتابه: **تاريخ مختصر الدول**. ولكن أغلب هذه الكتب معلوماتها موجزة هزيلة لا تسمن ولا تغني من جوع، ووثائقها نادرة كل

الندرة، ويكتفي أغلبها، عندما يورد وثيقة من الوثائق بإيراد مقتطفات منها.

ولكن هناك استثناءً واحداً مهماً من الحكم السابق وهو كتاب القلقشندي المسمى باسم **صبح الأعشى في صناعة الانشا**. فهذا الكتاب العظيم حشد فيه مؤلفه وثائق سياسية وإدارية لمختلف عهود الإسلام منذ عهد صاحب الرسالة عليه السلام حتى عصر المؤلف أوائل القرن التاسع الهجري. وعلى الرغم من أن كتاب **صبح الأعشى** ليس كتاباً تاريخياً بحال من الأحوال، إلا أنه يحوي أكبر نسبة من الوثائق الإسلامية لمختلف العصور. وهو بهذا الوصف مصدر لا يثمن لدراسة الوثائق الإسلامية وتطورها خلال فترة طويلة من الزمن. كما وإن هذه الوثائق بما فيها من معلومات تاريخية وسياسية وإدارية تعكس سير التطور التاريخي والإداري والعلاقات السياسية والمالية أفضل عكس وأوضحه. وسنعود للكلام عنه عند تحليلنا لعدد من الوثائق.

أما بالنسبة لكل عصر من هذه الأعصر أو لعصرين أو أكثر فهناك مصادر كثيرة نجمل مميزاتها فيما يلي:

ويأتي على رأس القائمة كتاب الطبري العظيم الذي مر معنا ذكره في عدد من الدراسات السابقة، وهو، باعتباره عراقي الهوى والاتجاه يركز كل التركيز على العراق والقسم الشرقي من الامبراطورية الإسلامية ويأتي بعدد من الوثائق الهامة جداً لذلك العهد ولا نجدها في غيره من المصادر. ولسوء الحظ يقف الطبري في تاريخ عند سنة ٣٠٢ هـ. وهو، عملياً، يتوقف عن إيراد وثائق بشكل غزير ومنتظم منذ التسعينات من القرن الثالث الهجري. ومعلومات الطبري جيدة صادقة متسقة، وهو دقيق كل الدقة في إيراد نصوص العهود والرسائل وما شاكل ذلك، مما يجعله مصدراً أساسياً لمثل هذه الدراسات.

وعلى الرغم من أن عُريباً القرطبي حاول إكمال عمل الطبري فأصدر كتابه المعروف باسم **صلة تاريخ الطبري** إلا أنه لا يوازن بكتاب الطبري دقة

وتمحيصاً واهتماماً وثقة، كما أن وثائقه هزيلة في الكم ضعيفة في النوع مما يجعله صلة باهتة لأصل جيد وهاج.

وأما بقية العهد التركي فيغطيه المؤرخون العامون كابن الأثير وابن كثير وغيرهما، ولكن ابن مسكويه وعريباً هما أهم من غطى بقية هذا العهد، وقسماً كبيراً من العهد البويهي بالنسبة مسكويه فقط.

يعتبر ابن مسكويه من المؤرخين الموثوقين في التاريخ الإسلامي، وكتابه المسمى باسم **تجارب الأمم وتعاقب الهمم** يعكس وجهة نظره في التاريخ. فالتاريخ في رأيه تجارب الأمم، ومن واجب الحاكم العاقل أن يستفيد من تجارب الأمم السابقة. وعلى الرغم من عظمة ابن مسكويه كمؤلف في الأخلاق وفي التاريخ، وعلى الرغم من أنه عاش فترة من عمره في العصر البويهي واتصل بالحكام البويهيين وخدمهم وكان موظفاً ومستخدماً عند عضد الدولة البويهي وكان ذا خطوة ونفوذ لديهم، إلا أن كتابه خالٍ تقريباً من وثائق مهمة تعود لذلك العصر. ذلك أن المفروض أن يستغل ابن مسكويه مكانته هذه ووظيفته ليثبت في كتابه هذا نصوص وثائق أكثر أهمية مما فعل وأكثر عدداً مما أثبت.

وهناك مؤلف ثالث له أهمية خاصة في تاريخ العراق وما وراءه في هذه الفترة وفي التي تليها حتى عهد الناصر لدين الله العباسي. وأعني به ابن الجوزي وكتابه: **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**.

وابن الجوزي مؤلف غزير كل الغزارة متنوع كل التنوع ألف في كثير من الموضوعات كالتاريخ والتراجم والحديث الشريف والتفسير والتصوف... وكان ذا خطوة لدى الخلفاء، وألف كتابه هذا ليقص سيرة التاريخ العام من بدء الخليقة حتى عصره هو. والكتاب الموجود بين أيدينا الآن ناقص مبتور يبدأ بالجزء الخامس، والطبعة سقيمة وغير محققة وتحوي كثيراً من الأخطاء الشنيعة مما يجعل الاعتماد عليه صعباً، والحكم بموجبه على ابن الجوزي كمؤرخ لا يخلو من

مخاطر. والذي يبدو لنا، من مطالعاتنا لكتاب ابن الجوزي المذكور آنفاً، أنه حاول فيه تقليد الطبري في تاريخه المذكور آنفاً وهو كتاب **تاريخ الرسل والملوك**، أو كما يسمى أحياناً باسم **تاريخ الأمم والملوك**. وذلك واضح من العنوانين، كما وإن ابن الجوزي اتبع طريقة الحوليات في روايته التاريخية. ولكن ابن الجوزي ابتعد عن طريقة المحدثين التي اتبعها الطبري، كما وانه خصص حيزاً أكبر بكثير للوفيات وتراجم الأعلام مما فعل الطبري، حتى إنه يمكن القول أن كتاب ابن الجوزي كتاب تراجم أكثر منه كتاب تاريخ. كما وإن الاثنين يشتركان في الدفاع عن السنة، وخاصة ابن الجوزي الذي يدافع عن السنة ضد العلويين والشيعة. ويأخذ ابن الجوزي خاصة جانب الخلفاء العباسيين في كل صغيرة وكبيرة ويناصرهم على خصومهم من المتغلبين الأتراك والبويهيين والسلاجقة... ويبدو ذلك حتى في الوثائق التي يثبت نصوصها في كتابه. على حين أن الطبري أوسع أفقاً وأرحب نظرة وأغزر غزراً وأكمل بحثاً بما لا يقاس من ابن الجوزي. وعلى الرغم من أن اتجاه الاثنين محلي، إلا أن محلية الطبري لا تمنعه من أن يكون أوسع أفقاً بكثير وأدق معلومات فيما يتعلق بالمقاطعات البعيدة عن العراق.

هذا وإن قسماً وافراً من الوثائق العائدة للعهد البويهي أتتنا من القلقشندي وكتابه **صبح الأعشى**.

ذلك أن هذا العصر أنتج علماً من أعلام النثر العربي والفصاحة العربي هو أبو إسحاق الصابي. وقد دخل الصابي في خدمة عدد من خلفاء بني العباس كالمطيع والطائع وعدد من أمراء بني بويه كعز الدولة وعضد الدولة وغيرهما. ولذلك أتت رسائله التي كان يوجهها باسم هؤلاء الحكام لمختلف الناس وفي جميع الأغراض آية من آيات البلاغة والفصاحة اللفظية، يوردها القلقشندي على أنها نماذج يمكن بل يجب احتذاؤها في إنشاء الوثائق التي هي رسائل وعهود وما شاكل. وإذا حللنا هذه الوثائق وجدنا أن من الممكن تلخيصها في أسطر قلائل،

ذلك إنها كثيرة المترادفات طويلة الجمل، الصنعة فيها ظاهرة كل الظهور، تشغل التحميدات والصلوات والأوامر والنواهي ومدح الخليفة أو الحاكم حيزاً كبيراً جداً من الوثيقة بحيث لا يبقى للمعلومات الحقيقية التي تحويها الوثيقة إلا مكان متواضع كل التواضع. وسنحلل فيما بعد إحدى هذه الوثائق كنموذج على بقية هذا النمط من الوثائق.

والواقع الملاحظ من خلال دراستنا لوثائق هذا العصر أن الوثائق تطول وتظهر فيها الصنعة وتصبح مجالاً طيباً لإظهار بلاغة الكاتب وفصاحته وقدرته اللغوية والبيانية حيثما وجد كاتب قدير بليغ متولياً لديوان الإنشاء، كما هي الحال مع أبي إسحاق الصابي المذكور آنفاً، ومع أحمد بن الخصيب الذي كتب للمنتصر وغيره من الخلفاء، والعلاء بن موصلايا الذي كتب للقائم بأمر الله، والطغرائي الذي كتب عهد طغتكين لما ولاه السلطان السلجوقي محمد بلاد الشام. أما في ما عدا هذه الحالات فالوثائق عادية في حجمها، سهلة في تركيبها، تطرق الغرض مباشرة بعد مقدمة قصيرة لا بد منها وكذلك الخاتمة.

كذلك يجب ذكر كتاب **ذيل تجارب الأمم** لأبي شجاع الذي ألفه تكملة لتاريخ ابن مسكويه كمصدر آخر للوثائق في العصر البويهي.

وأما العهد السلجوقي فتغطيه أغلب المصادر المذكورة آنفاً، وأخص بالذكر **المنتظم** لابن الجوزي، **والكامل** لابن الأثير، **وذيل تاريخ دمشق** لابن القلانسي، مع وجود عدد من الوثائق في كتاب **صبح الأعشى** للقلقشندي، ولكنها أقل بالعدد من الوثائق العائدة للعهد البويهي، كما وإن مستواها الفني أقل.

وهناك كتاب يجب ذكره هو كتاب **الجامع المختصر** لابن الساعي الخازن. هذا كتاب ضخم في تاريخ العراق خاصة ولكن لم يصلنا منه إلا جزء صغير جداً يغطي عدداً قليلاً من سنوات حكم الخليفة الناصر. وهو يعطينا نصوص

ثلاث وثائق مهمة كل الأهمية أصدرها الخليفة الناصر. وإذا كان الكتاب ـ ككل ـ يحوي نفس النسبة وعلى نفس المستوى من الوثائق، فإن ذلك يجعله كتاباً وثقياً من الدرجة الأولى، ولكن عدم وجود الكتاب يجعل من المستحيل القطع بمثل هذا الحكم.

ويؤرخ السنوات الأخيرة للخلافة العباسية مؤرخ مشهور هو مؤرخ المغول المعروف الهمذاني وذلك في كتابه المعروف باسم **جامع التواريخ**، وهو يحوي نصوص مراسلات دارت بين المستعصم آخر خلفاء بني العباس وبين هولاكو السفاك المشهور. وهي تكشف موقف المستعصم وموقف هولاكو، ولا ندري إذا كانت هذه الرسائل كتبت أصلاً باللغة العربية أم انها كتبت بالمغولية، أم، وهو الأغلب، بالفارسية ثم نقلت إلى العربية. ونحن نعتقد أنها لم تكتب أصلاً بالعربية وإنما نقلت إليها لأن أسلوبها وروحها بعيدان عن اللغة العربية.

أما كتب الثقافة العامة فلا تقدم إلا أقل مساعدة ممكنة في حقل الوثائق إذ انها خلو أو شبه خلو منها. وكم كان بودنا لو نحصل على كتاب **رسائل الصابي** لنوازن محتوياتها بما وصل إلينا من نصوص رسائله ليكون حكمنا أدق، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه.

كذلك لا تقدم كتب التراجم العامة والخاصة إلا قدراً ضئيلاً جداً من الوثائق وذلك مثل **تاريخ بغداد للخطيب** البغدادي **ومعجم الأدباء** لياقوت الحموي **ووفيات الأعيان** لابن خلكان. ولكن هناك استثناء وحيد في هذا المجال هو **سيرة أحمد بن طولون** للبلوي، إذ تحوي وثائق غاية في الأهمية تكشف شخصية ابن طولون وعلاقاته مع قضاته ومع الخلفاء ومع ابنه الثائر ضده مما يجعل له قيمة وثقية كبرى.

وأما في حقل الخراج وأموره فلا بد من ذكر كتاب **خطط المقريزي** إذ يحوي نصوص عدد من الأوامر الخلافية التي أصدرها خلفاء بني العباس

المتعاقبون وذلك لجعل السنة التقويمية مطابقة للسنة الخراجية، وهذا أمر مهم كل الأهمية في هذا الموضوع. وهو يتناغم ويتكامل مع بعض نصوص وردت في القلقشندي وكتابه **صبح الأعشى** في هذا الموضوع.

ويمكن القول إن مصادر الوثائق السياسية والإدارية في الأعصر العباسية المتتالية هي كتب التاريخ الإسلامي المعروفة بالإضافة الى كتاب صبح الأعشى.

هذا ولا بد من التنويه ان أغلب الوثائق، بل ان غالبيتها العظمى الساحقة، مواد مكتوبة ـ عهود، رسائل، مراسيم، أوامر.. الخ ـ أما الخطب فقد ولى عهدها إلى غير رجعة وليس لدينا إلا عدد ضئيل جداً من كلمات قيلت في بعض المناسبات الخاصة، لا تسمى خطباً بحال من الأحوال، ولا يمكن أن ترقى بشكل من الأشكال إلى مستوى أبسط الخطب في العصور السابقة.

كذلك نحب أن نؤكد هنا مرة أخرى عدم مسؤوليتنا عن هذه الوثائق ومدى صحتها، إذ ان همنا فقط هو جمع الوثائق، بصرف النظر عن طبيعتها أو محتوياتها وما إذا كانت منحولة أو صادقة، أم تمثل رأياً معيناً أم فكرة معينة. أما قضية إظهار صدقها من زيفها وبيان أصالتها من تزويرها فتقع على عاتق البحاثة الذين سعينا هو تقديم المادة اللازمة لهم وجعلها في متناول أيديهم.

كما واننا هنا نقدم ونعرض الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة حتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ بيد المغول، كما نعرض الوثائق العائدة لعدد من الدول المتغلبة وأخص بالذكر البويهيين والسلاجقة الغزنويين والخوارزميين والمغول في شرقي الامبراطورية الإسلامية، والطولونيين والاخشيديين والحمدانيين في غربي الخلافة العباسية. أما بقية المناطق وبقية المتغلبين فهذه ستكون مجال أبحاث قادمة بإذن الله وإن شاء الله.

وإذا أردنا استعراض مميزات العصور العباسية المتتابعة كما تبدو من الوثائق قلنا ان العصر الأول منها ـ وهو ما يسمى بعصر النفوذ التركي ـ كان عصر

صراع عنيف مرير في أوله وآخره على حين ساد أواسطه هدوء نسبي.

عصر النفوذ التركي:

فقد افتتح هذا العصر بقتل الأتراك الخليفة المتوكل. بالاتفاق مع ولده المنتصر. وهذه أول مرة في التاريخ الإسلامي يقتل الخدم والعبيد سيدهم ويتآمر الولد مع عبيده ضد والده الخليفة. وهذا وحده دليل على تدهور الأخلاق وتدهور الوضع في الخلافة العباسية. وقد استمر الصراع بين الخلفاء والأتراك من جهة، وبين الخلفاء ومنافسيهم من بني العباس، وبين الأتراك بعضهم بعضاً عشر سنوات كما في صراع المستعين ضد الأتراك وصراع بغا ووصيف ضد صالح وكما في صراع المهتدي والمعتز. وظل الأمر على هذا الشكل العنيف حتى ظهر شخص قوي هو الموفق أخو الخليفة المعتمد الذي تمكن من السيطرة على أخيه وعلى الجيش وهدأت بذلك حدة الصراع الداخلي. ولكن الخلافة تعرضت خلال هذه الفترة لثورات داخلية تمثلت في ثورة الزنج وحركات القرامطة وغيرهم. كذلك تمكن ابنه المعتضد أن يضبط الأمور بشكل جيد وأعاد للدولة شيئاً من هيبتها. واستمر الوضع بشكل مرض في عهد ابنه المكتفي، ولكن وفاة المكتفي وخلافة المقتدر الذي كان صغير السن فتح الباب من جديد للصراعات الداخلية بين القواد والخليفة وبين بعضهم بعضاً. والواقع أن الخلافة العباسية التي امتحنت بالأتراك قد تكشفت خلال هذه الفترة الأولى من هذا الصراع عن بعض الحيوية مما أدى استرداد شيء من هيبتها وقوتها على يد الموفق والمعتضد. ولكن صغر سن المقتدر وشخصيته المهلهلة أدت إلى عودة الوضع أسوأ مما كان، فتدهور الوضع الاقتصادي وتدخل النسوة في شؤون الخلافة وتصارع الأتراك مع الخليفة ومع بعضهم بعضاً، وعاد الصراع على الخلافة بين العباسيين إلى أشده حتى بلغ الأمر ذروته بمصرع المقتدر سنة ٣٢٠ هـ، وبموته افتتح عهد من أقبح عهود الخلافة العباسية امتلأ بالدسائس والصراع وخلع الخلفاء وسملهم وغير ذلك، حتى إذا تعب المتصارعون وكلوا برز عنصر ثالث هو العنصر البويهي الذي

احتل زعيمه معز الدولة بغداد وسيطر على الأمور فيها وجرد الخليفة العباسي من كل سلطة له.

العصر البويهي:

ويعتبر البويهي من أقبح عهود التارخ الإسلامي وأشدها. فقد احتل البويهيون قسماً كبيراً من شرقي الخلافة العباسية بما فيها العراق وبغداد، وكانوا شيعة غلاة، ولم يلغوا الخلافة العباسية لأسباب سياسية فأدى الأمر إلى صراع مرير جداً بين السنة والشيعة، وكانت بغداد خاصة مسرح هذا الصراع. كما وأن جميع رجالات بني بويه ـ باستثناء عضد الدولة ـ كانوا أشخاصاً ثانويين ليسوا أهلاً للحكم وأساءوا التصرف ولم يتمكنوا من ضبط الأمور في الداخل والخارج ففسدت أحوال الرعية وخرب السواد وكثر اللصوص والدعار وزالت هيبة الحكومة وتناقص عدد السكان بشكل رهيب، كما وأن الروم البيزنطيين اجتاحوا منطقة الثغور الشمالية وزحفوا على سورية واحتلوا قسماً منها وهو الشمالي، على حين احتل الفاطميون البقية الباقية منها.

والشخصية الوحيدة التي تبدو بارزة بين بني بويه هي شخصية عضد الدولة البويهي الذي تمكن أن يوحد قسماً مهماً من تراث بني بويه تحت سلطته ووطد الأمن وقضى على الفوضى وأصلح الأحوال، ومع هذا فإن عضد الدولة كان طموحه أكثر من إمكاناته، ولا يمكن موازنته مع عظماء رجال التاريخ الإسلامي وعمالقته كالخليفة المنصور أو الخليفة الأموي الناصر أو الحاجب المنصور، وإنما هو شخص ثانٍ تالٍ لهؤلاء العظماء.

ولكن هذا العصر امتاز بالهدوء الذي ساد علاقات البويهين بالخلفاء العباسيين، والسبب في ذلك أن البويهيين جردوا الخلفاء من كل سلطة. ورضي الخلفاء بهذا الوضع، ولذلك لم يعد أحد يطمح إلى منازعة الخلفاء على هذا

المنصب الأسمى. وانصرف الخلفاء أنفسهم إلى النواحي الدينية كما فعل القادر والقائم.

العصر السلجوقي:

ولقد أمد السلاجقة الإسلام بدماء جديدة وخلقوا نهضة جديدة في العالم الإسلامي كان لها آثارها الكبرى. فقد احتل زعيمهم طغرلبك بغداد وأنهى حكم البويهيين في وقت أصبح سلطان البويهيين منهاراً ومن الواجب إزالته. كذلك نصر السلاجقة مذهب أهل السنة وأوقفوا الشيعة عند حدهم.

ولقد نظر الناس والخلفاء العباسيون إلى السلاجقة على أنهم منقذون ولذلك استقبلوهم بترحاب.

ويبدو لنا أن خلفاء بني العباس اعتادوا على أن يكونوا بعيدين عن مسرح الأحداث، ولذلك لم يحاول أوائلهم زمن بني سلجوق الاستقلال واستعادة النفوذ السياسي المسلوب. ولقد تدفقت جيوش السلاجقة على سورية وعلى الأناضول وأعادوا للإسلام شبابه ومجده وخاصة في معركة ملاذكرد الشهيرة التي دارت بين ألب أرسلان ورومانوس ديوجينيس ملك الروم في شرقي الأناضول. ولقد كان لهذه المعركة نتائج بعيدة المدى إذ أنها فتحت أبواب الأناضول أمام أفواج الأتراك للاستيطان بها ومهدت السبيل لتتريك الأناضول وتأسيس دولة قوية هي سلاجقة الروم، كما كانت من أهم الأسباب المباشرة للحملات الصليبية على سورية. كما وأن السلاجقة أعادوا سورية للخلافة العباسية وأوشكوا القضاء على الخلافة الفاطمية. ولقد استفاد ملك شاه من كل هذه الظروف فوطد سلطانه ونفوذه على مساحة واسعة من الأرض وحكمها حكماً صالحاً ولا سيما وقد رزقه الله وزيراً من أقدر الوزراء الذين عرفهم التاريخ الإسلامي وهو نظام الملك الذي عمم المدارس المعروفة باسم المدارس النظامية وحكم أفضل حكم حتى وفاته.

ولكن وفاة نظام الملك وملك شاه فتحت الباب لعهد شنيع من الفوضى والحروب والانقسام استمر زمناً طويلاً حتى تاريخ انقضاء الحكم السلجوقي، ولم يبرز من أولاد ملك شاه من يتمكن من ضبط الأمور، أضف إلى ذلك أن السلاجقة قسموا الممالك بين أبناء ملك شاه وكأنها إرث شخصي، وكان أغلبهم صغار السن فنشب صراع مرير على السلطة وعلى الملك وعلى الأراضي. والشخص الوحيد الذي تمكن أن يثبت وجوده وأن يؤسس مملكة قوية هو سنجر ابن ملك شاه الذي أسس مملكته في خراسان، ولكن نهايته كانت مفجعة. ولقد استغل بعض الخلفاء الطموحين فرصة الصراع بين السلاجقة فحاولوا الخلاص من التبعية لهم، كما فعل المسترشد ومن بعده الراشد، ولكن لم يقدر لهذه المحاولات النجاح. وأخيراً زال سلطان السلاجقة عن بغداد ليظهر في آسيا الصغرى باسم دولة سلاجقة الروم. وهم الذين لعبوا دوراً هاماً جداً في الحروب الصليبية، وتمكن الخليفة الناصر العباسي من التحرر من التبعية وحكم هو وخلفاؤه بغداد وقسماً من العراق حكماً مباشراً بدون أية سلطة من أية فئة واستمر الوضع هكذا حتى سقوط بغداد بيد المغول سنة ٦٥٦ هـ.

حيوية الحضارة الإسلامية ووحدتها وازدهارها:

وبعد فنقول إن هذا الاضطراب السياسي والانقسام السياسي لم يؤثر في الحضارة الإسلامية. ذلك أن هذا العصر الذي حفل بالحروب والفواجع والكوارث، والذي انقسمت فيه دار الخلافة إلى عدد كبير جداً من الدويلات الهزيلة، والذي سيطر فيه الأعاجم الجهلة، وبعضهم كان لا يعرف كلمة واحدة من العربية. والذي حفل بالمبادىء المنحرفة عن الإسلام كالباطنية الذين استشرى شرهم وعظم خطبهم وكانوا أشد على المسلمين من أي عدو لهم، أقول أنه في هذا العصر وصلت الحضارة الإسلامية إلى أوجها وذروة تطورها، ونبغ العظماء في كل حقل وفن. ولسنا بصدد تعليل هذه الظاهرة، ولكنا نريد أن نقول إن بذور النور الأولى غرسها الإسلام في أرض خصبة، وسقتها الرعاية

والعناية بمزيد من الاهتمام والاحتياط، ولذلك أنبتت هذه البذور الطيبة ثماراً يانعة، على الرغم من كل ما حدث من تمزق وانقسام، ولا ننسى كذلك ظهور مشاعل أضاءت الطريق المظلم، وأعني بذلك الحكام المتنورين أمثال عضد الدولة ونظام الملك وغيرهما. كما وأن تعدد المراكز الحضارية وتنافس الحكام على اجتذاب العلماء والدراسين، كل ذلك، مع غيره من العوامل، أدى إلى حدوث هذه الظاهرة، ظاهرة بلوغ الحضارة الإسلامية أوجها في عصر الاضطراب السياسي والضعف والتمزق الفتن.

وهذا كله يقودنا إلى القول أن حيوية الإسلام الحضارية وتوجيهه نحو النور أقوى بكثير من عوامل الهدم والتجزئة والفرقة والخصام.

بعد هذه الكلمة الموجزة والاستعراض السريع نحاول إعطاء الملامح العامة لخلفاء هذا العصر كما تبدو من خلال الوثائق.

المنتصر:

فالمنتصر الذي تآمر ضد أبيه حتى أصبح خليفة ليس من السهل أبداً إصدار حكم عليه أو له. ذلك أن عهده قصير جداً لم تتضح فيه معالم شخصيته ولا أعماله. كما وأن كل حكم لا بد وأن يتأثر بفعلته الشنعاء هذه التي تقف حائلاً دون محاولة إصدار حكم منصف عادل عليه. والذي يبدو لنا من خلال الوثائق العائدة لعهده أنه تأثر في صياغة هذه الوثائق خطى والده المتوكل ولا سيما فيما يتعلق بأخذ عهود البيعة. فقد أخذ على المبايعين أشد العهود والمواثيق التي يمكن أن تؤخذ على إنسان: من طلاق نسائه البتة ثلاثاً وعتق مماليكه وجعل أمواله صدقة للفقراء والحج إلى بيت الله الحرام مشياً ثلاثين سنة. إلى غير ذلك من الأمور المشددة. ولكن جميع هذه العهود والمواثيق أثبتت أنها لا شيء عند أقوام مردوا على التآمر والدس والثورة والسعي للحصول على المكاسب الدنيوية، لا همّ

لهم إلا ذلك. ولذلك فقد كانت جميعها حبراً على ورق، ومات المنتصر مسموماً كما قيل بيد الأتراك[1].

المستعين:

أما المستعين الذي خلف المنتصر فقد كان شخصاً غير عارف بحقيقة القوى المتصارعة من حوله وغير عارف بنفسيات القواد وأهوائهم والدوافع التي تحركهم. وقد أسلم نفسه وأمره إلى محمد بن عبدالله بن طاهر وترك له تدبير أمور السلم والحرب، ذلك أن قسماً من الأتراك رفضوا بيعته وعقدوا البيعة للمعتز ودارت الحرب بين الطرفين. وقد أمّل المستعين، كما يبدو، أن يعيد محمد ابن عبدالله بن طاهر دور جده طاهر بن الحسين في نصرة المأمون ضد الأمين، ولكنه كان واهماً في ذلك. ويدل البيان الذي أذاعه محمد بن عبدالله باسمه لما انتصر في إحدى معاركه ضد حزب المعتز على رغبة عارمة في إسباغ ثوب الجهاد على حربه ضد حزب المعتز وعلى أنه هو وخليفته صاحب الحق وأن الآخرين هم المعتدون، كما ويدل البيان على إظهار حزب المستعين بمظهر الجماعة التي تحاول منع الحرب بمختلف الوسائل وتعظ خصومها ولا تخوض حرباً إلا إذا اضطرت إلى ذلك[2]. كذلك تظهر لنا شخصية محمد بن عبدالله من خلال البيان ومن خلال أفعاله فيما بعد شخصية خيالية متقلبة لا تعرف ما تريد وانتهى به الأمر أن خان المستعين وبايع للمعتز.

المعتز:

وكما أخذ المنتصر على الذين بايعوه أشد العهود والمواثيق، كذلك فعل المعتز عندما بايعه جنده وقواده وحزبه، فقد أعطوه من أنفسهم أوثق المواثيق وأقسى

---

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك. القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٩ م جـ ٧: ٤٠٢ - ٤٠٤.

(٢) نفس المصدر. جـ ٧: ٤٥٠ - ٤٥٦.

العهود من عتق وطلاق وزكاة وحج وما شاكل، ولكن ذلك كله لم يمنعهم أبداً من أن يخلعوه ويقتلوه، وقد فعلوا الأولى بمنتهى البساطة وفعلوا الثانية ببساطة أكبر [١]. وإذا كان كلام الرجل دليل عقله وتفكيره فخطاب المعتز في أنصاره يدل على أنه شخص ذو فكر جيد ومعرفة لا بأس بها في صفات قواد الجيوش وما يجب أن يتحلوا به: وقد علمتُ أنه لا يصلح لقود الجيوش وسد الثغور وإبرام الأمور وتدبير الأقاليم إلا رجل تكاملت فيه خصال أربع: حزم يتقي به عند موارد الأمور حقائق مصادرها، وعلم يحجزه عن التهور والتغرير في الأشياء إلا مع إمكان فرصتها، وشجاعة لا تفضها الملمات... وجود يهون تبذير الأموال عند سؤالها [٢].

المهتدي:

وإذا وصلنا إلى المهتدي الذي أصبح خليفة بعد خلع المعتز وقتله، نكون قد وصلنا إلى شخص خيالي غير واقعي خلق لغير وقته وزمانه، ذلك أنه حاول أن يكون في بني العباس كعمر بن عبد العزيز في بني أمية، ولكنه غفل عن الظروف الموجود فيها، وغفل عن الزمان والبشر الذين حوله، وعجز عن إدراك أنه لا حول له ولا قوة، بينما كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يأمر فيطاع. كذلك غفل عن نفسية أنصاره من الأتراك، ذلك أنهم مردوا على الشقاق والخصام، ولم يعد يهمهم إلا المال، وفقد شخصُ الخليفة في نظرهم كل قيمة واعتبار، ولم يعودوا يحترمون إلا القوة ولا يخضعون إلا للقوة وبالقوة. كذلك لم يعد للعهود والمواثيق عندهم ذلك الوزن الذي كان لها سابقاً. ولذلك لم يلبثوا أن دخلوا مع الخليفة في صراع غير متكافىء، وعلى الرغم من أن العامة، وخاصة عامة بغداد،

---

(١) نفس المصدر. جـ ٧: ٤٤٠ - ٤٤٢.

(٢) ابن الاثير، أبو الحسن عز الدين علي. الكامل في التاريخ. القاهرة دار الطباعة المنيرية، ١٣٥٦ هـ. جـ ٧: ١٩٦ - ١٩٨.

أحبت الخليفة كل الحب، وأبدت استعدادها لنصرته والدفاع عنه وهددت بقتل رؤساء الأتراك إن سقطت شعرة من رأس أمير المؤمنين[1]، وعلى الرغم من نواياه الطيبة تجاه الجميع ورغبته وسعيه لإصلاح ذات البين إلا أنه هزم في صراعه ضد الأتراك، واضطر إلى اللجوء إلى بغداد حيث جرت حرب بينه وبين أعدائه انتهت بانهزامه وخلعه وقتله، ولم تغن العامة وعواطفها شيئاً عنه أمام قوة الأتراك وهجومهم. ولقد حاول فريق من العامة إثارة عواطف الشعب ليهب لنصرة الخليفة، فألقوا المناشير في المساجد طالبين من المصلين الدعاء للخليفة المظلوم الشبيه بعمر بن الخطاب أن ينصره الله على أعدائه[2]. ولكن الله تعالى لم يستجب لدعائهم وانتهى الخليفة نهاية فاجعة، ولله في خلقه شؤون.

المعتمد:

ولقد هدأ الصراع على الخلافة بصعود المعتمد إلى عرشها، ذلك أن أخاه الموفق استبد بالأمور دونه وتمكن من السيطرة على أخيه وعلى الجيش والأتراك، ولا تبدو شخصيته واضحة من خلال الوثائق لندرتها.

المعتضد:

ولقد استلم الخلافة بعد المعتمد ابن أخيه المعتضد الذي يوصف أنه خليفة قوي. والواقع أنه من أقوى خلفاء هذه الفترة إن لم يكن أقواهم، ولكنه كان يضطرم حباً لعلي بن أبي طلب وبغضاً لمعاوية بن أبي سفيان حتى أنه قرر أن يذكر مثالب معاوية على المنابر ويدعو الناس إلى ذلك. ولقد حاول قواده ونصحاءه ثنيه عن ذلك فلم يزدد إلا إصراراً. ولكن وزيره تمكن أن يقنعه أن إذاعة هذا المنشور من شأنه أن يقوي موقف العلويين الثائرين ضد الدولة

---

(١) الطبري. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٧: ٥٧٢ - ٥٧٣.

(٢) نفس المصدر. جـ ٧: ٥٧١ - ٥٧٢.

العباسية في بلاد الديلم وجيلان والجبال وغيرها من المناطق، فاضطر إلى الكف عن ذلك، ولكن وصلتنا صورة ذلك البيان الذي يقال إن أول من أعده ليذيعه المأمون ثم كف عن إذاعته لنفس الأسباب التي دعت المعتضد للكف عن ذلك، ويقال إن المعتضد أخذ صورة عن ذلك المنشور الذي أعده المأمون ولم يذعه. والملاحظ في هذا البيان استناده التام إلى القرآن الكريم والحديث الشريف لإثبات كفر أبي سفيان ومعاوية ومن أتى بعدهما من خلفاء بني أمية. ولما كان القرآن الكريم غير قابل للكذب أو الدس أو الزيادة، لذلك فقد لجأ الخليفة إلى تأويل الآيات ليثبت أن من تعنيه هذه الآيات هي الأسرة الأموية، كما في قوله تعالى: ﴿والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ (١). ويقول منشوره: إنه لا اختلاف بين أحد أنه أراد بني أمية (٢). كذلك يلجأ إلى إيراد أقوال نسبها إلى رسول الله عليه السلام يذم بها بني أمية ويلعنهم، وهي كثيرة لا مجال لإيرادها هنا وكلها طعن في أبي سفيان ومعاوية وتكفير لهما. أما إذا وصل إلى يزيد بن معاوية ومروان بن الحكم فالمجال أمامه واسع كل الاتساع لتكفيرهما ولعنهما والطعن عليهما (٣). وإن المرء ليعجب من جراءة خليفة من الخلفاء على الله ورسوله حيث يأتي بأقوال مكذوبة وأحاديث موضوعة ينسبها إلى رسول الله ليثبت دعواه.

بقية الخلفاء:

هذا ولا نجد بين الخلفاء الذين توالوا على الخلافة بعد المعتضد من المقتدر بالله إلى القادر بالله شخصية لها وزن، فكلهم أصبحوا ألعوبة بيد الحكام العسكريين، وأكثرهم كان مصيره القتل أو السمل أو الخلع، وإذا وصلنا إلى بني

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٦٠.

(٢) نفس المصدر. جـ ٨: ١٨٣ - ١٨٩.

(٣) نفس المصدر. جـ ٨: ١٨٣ - ١٨٩.

بويه لا نجد بين خلفاء ذلك العهد من كان عنده الشخصية القوية، وإنما تركز نشاطهم حول المسائل الدينية. ومن جهة أخرى أظهر بنو بويه احتراماً ظاهرياً لهم مبالغاً فيه كل المبالغة، كما هو ظاهر من الخطاب الذي وجهه جلال الدولة البويهي إلى الخليفة القادر لما سمى ابنه ولياً للعهد (١).

أما القائم بأمر الله الذي عاصر بني بويه وآل سلجوق فيبدو لنا شخصاً عادياً لا يمتاز بشيء من دهاء كبير أو ذكاء أو طموح، ويبدو أن هؤلاء الخلفاء تعودوا أن يروا إلى جانبهم أناساً يحمونهم ويحكمون باسمهم.

وكذلك الحال بالنسبة لخلفاء آل سلجوق باستثناء المسترشد والراشد اللذين حاولا الخلاص من وصاية آل سلجوق عليهما فأدى الأمر إلى الحرب بين الخليفة من جهة وبين السلطان السلجوقي من جهة أخرى وكانت النتيجة خسارة الخلافة العباسية ومصرع الخليفة وعودة نفوذ آل سلجوق.

ولقد استفاد الخليفة الناصر من عدد من الظروف، بجانب طموحه واستعداده الشخصي وذكائه حتى تمكن من الخلاص من النفوذ السلجوقي وحكم بغداد وقسماً من العراق حكماً حراً مباشراً واستمر ذلك في خلفائه حتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ.

ولقد حاول ابنه الظاهر أن يكون عادلاً وأن ينصف الرعية ويحسم مواد الفساد التي كانت سائدة بين كبار الموظفين. ويدل مرسومه الذي أصدره عقب توليه عرش الخلافة على رغبة أكيدة في الإصلاح والعدل وسياسة الرعية (٢). ولكن قصر عهده حال دون تنفيذ هذه السياسة الحكيمة.

---

(١) ابن الجوزي، علي بن عبد الرحمن، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧ هـ. ج ١٠: ١٩٣ - ١٩٤.

(٢) ابن الأثير. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١٢: ٤٥٦ - ٤٥٧.

الوزارة والوزراء:

ولقد حفل هذا العصر بالوزراء العظام الذين ساسوا البلاد أفضل سياسة، وكانوا مصابيح تضيء وسط الغياهب، على الرغم من وجود عدد كبير منهم سيئين فاسدين وأثرهم غير محمود. ولقد زهى عصر المقتدر خاصة بوزيرين من ألمع وزراء بني العباس، وأعني بهما ابن الفرات وعلي بن عيسى بن الجراح الذي تقلد كل واحد منهما الوزارة عدة دفعات. ولقد كان ابن الفرات إدارياً ممتازاً ومواسياً لجراح الدولة المالية ممتازاً على الرغم من أنه لم يكن نظيف الكف واليد. أما علي بني عيسى فعبقرية إدارية من الطراز الممتاز، ويفضل عليٌّ ابنَ الفرات بعفته عن أموال الدولة وأموال الناس وخوفه من الله ومحاولته استيفاء حقوق بيت المال بالطرق الشرعية دون ظلم أو إرهاق. فقد كان يوجه رسائله إلى جميع عماله وفيها هذه التعليمات:... وتمكن في نفسك أنه لا رخصة عندي ولا هوادة في حق من حقوق أمير المؤمنين أغضي عنه، ولا درهم من ماله أسامح فيه، ولا تقصير في شيء من أمور العمل أصبر لقريب أو بعيد عليه. ولا تكون باظهار أثر جميل في ذلك أشد عناية منك بإنصاف الرعية والعدل عليها ورفع صغير المؤن وكبيرها عنها. فإني أطالبك بذلك كما أطالبك بتوفير حقوق السلطان وتصحيحها...(١).

كذلك وجد في العصر البويهي وزراء جيدون - من الناحية الإدارية - كالمهلبي وابن بقية وغيرهما، ولكن الملاحظ أنه أصبح هناك وزيران في العصر البويهي أحدهما للخليفة والثاني للحاكم البويهي واستمر ذلك في العصر السلجوقي، وكانوا جميعهم من المرتشين، وأغلبهم من أصل وضيع. وكما فقد الخليفة سلطته الزمنية لحساب المتغلب، كذلك فقد وزير الخليفة سلطته لحساب

---

(١) ابن مسكويه، أبو أحمد بن محمد. تجارب الأمم وتعاقب الهمم، القاهرة، شركة التمدن الصناعية، ١٩١٤ م. جـ ١ - ٢٧.

وزير المتغلب. ويعتبر مرسوم القائم بأمر الله الذي أصدره سنة ٤٧٢ هـ بتعيين فخر الدولة ابن جهير وزيراً له نموذجاً احتذاه الآخرون في صياغة مراسيم تعيين الوزراء. فقد افتتح المرسوم بحمد لله والثناء عليه، وثنى بالصلاة على الرسول الكريم والسلام عليه ومدحه، ثم انتقل إلى مدح الخليفة وبيان حقه وفضله وقرابته، وبعد ذلك يذكر المرسوم أن الله تعالى أرشد الخليفة إلى إقرار الحقوق في أماكنها وذلك إنه شعر بالحاجة إلى وزير ولم يجد من هو أفضل من ابن جهير ليكون وزيراً، ويطنب المرسوم في مدحه وذكر خلاله، وإنه أوحد الزمان ويلقبه بلقب تاج الوزراء، ويذكر أن هناك كثيرين كانوا يأملون الفوز بهذا المنصب العظيم ونصبوا كثيراً من الأحابيل وعملوا كثيراً من الدسائس، ولكن الخليفة آثره بهذا المنصب لخلاله الرفيعة [1].

ولعل نظام الملك أشهر وزير وزر في الإسلام بعد البرامكة، وهو، وإن لم يكن وزير خليفة إذ كان وزيراً لسلطانين من سلاطين السلاجقة هما ألب أرسلان وملك شاه، إلا أنه كان واسع النفوذ جداً، وهو الذي ساس الإمبراطورية السلجوقية أفضل سياسة حتى تضايق من نفوذه ملك شاه نفسه وحتى يتهم أنه عمل على أغتياله، لأنه ـ أي السلطان ـ لم يجرؤ على خلعه أو قتله. وكفى بهذا دليلاً على مكانته. وهو الذي أقام للعلم والعلماء سوقاً نافقة وأنفق الأموال الطائلة في بناء المدارس ووقف الأوقاف عليها وجذب العلماء إلى خدمته حتى أعاد لبغداد وجهها الجميل المعروف زمن الرشيد والمأمون.

أما من أتى من الوزراء فيما بعد فلم يكن لهم شأن يذكر حتى اختتمت سلسلتهم في بغداد بمؤيد الدين ابن العلقمي وزير المستعصم الذي يتهم عادة بالتواطؤ مع المغول ضد سيده الخليفة وضد الإسلام والمسلمين. ومن الطريف أن

---

(١) القلقشندي، أبو العباس أحمد. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩١٣ م. جـ ١٠: ٢٣٤ ـ ٢٣٧.

نلاحظ تقليداً كان سائداً على الأقل زمن الخليفة الناصر في إرسال الخلعة إلى الوزير الجديد. فقد أصدر الخليفة الناصر مرسوماً بتعيين ابن زيادة للوزارة، وكان مقيماً بواسط، فأرسل الخليفة إلى ناظر واسط نص المرسوم مع رسالة يقول فيها: قد بعثنا خلعة ودواة لابن زيادة، فتحمل الخلعة على رأسك، والدواة على صدرك وتمشي راجلاً إليه وتلبسه الخلعة وتجهزه إلينا وزيراً[1].

القضاء والقضاة:

وإذا وصلنا إلى القضاء لاحظنا هذه الملاحظة: وهي أن جميع المراسيم التي صدرت بتعيين القضاة صادرة عن الخلفاء باستثناء مرسوم واحد أصدره أحمد بن طولون بتعيين قاضٍ نجهل اسمه للقضاء في برقة ونواحيها. وهذا يدلنا على أن قضية تعيين القضاة تركت للخلفاء ليقوموا بها هم أنفسهم، لأن ذلك لا يؤثر على سلطة المتغلبين. ويعتبر مرسوم ابن طولون هذا السلف الذي سارت على نهجه جميع مراسيم الخلفاء في تعيين القضاة وبيان واجباتهم وحقوقهم، وهو يجمل ما فصلته المراسيم اللاحقة له والتي أصدرها الخلفاء اللاحقون. ولكن مرسومه هذا تفرد بذكر راتب القاضي وراتب أعوانه وحاجبه ونفقات قراطيسه وهو مبلغ أربعين ديناراً شهرياً[2]. وهو مبلغ يبدو لنا قليلاً حتى بمقاييس تلك الأيام.

ولعل أكمل مرسوم وأشمله وأكثره تفصيلاً وبياناً لوظائف القاضي، وبشكل أدق قاضي القضاة وصاحب المظالم هو المرسوم الذي أصدره المسترشد بتقاليد علي بن الحسين الزينبي القضاء في بغداد وسائر الجهات. فهو يذكر الأسباب التي دعت الخليفة إلى أن يعهد إليه بهذا المنصب الرفيع والتي يمكن إجمالها في عقل رصين ودين متين وأمانة مشكورة ونزاهة محبورة. بالإضافة إلى النسب الرفيع

---

(١) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد. وفيات الأعيان... تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨ م. جـ ٥ ـ ٢٩١.

(٢) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١١: ٢٩ ـ ٣٢.

والعلم المكتسب والسوابق المحكمة، ثم يذكر مجال سلطته وهي مدينة السلام وسائر أمصار الدولة العباسية. وبعد ذلك تأتي الأوامر: وأولها تقوى الله تعالى ويطنب في وصفها وفائدتها وأهميتها بشكل خاص للقضاة ويختم كلامه عنها بآية من آيات الذكر الحكيم. ثم يثني بأمره. بالخوف من الله تعالى واستشعار خشيته التي هي الجنة الواقية، وكذلك يختم كلامه بآية أخرى تناسب المقام. بعد ذلك ينتقل إلى أمره بتلاوة القرآن الكريم بشكل دائم وأهمية ذلك وفائدته للجميع وخاصة القضاة. ثم يطلب منه ويأمره بدراسة السنة النبوية المطهرة وتمحيصها وطرح الموضوع منها والتمسك لمن يتصدى للمظالم والفصل بين الناس. كذلك يطلب إليه أن يواظب على حضور الصلوات الخمس المفروضة في أوقاتها مع الجماعات. بعد هذا يؤكد عليه في الأمر بضرورة مجالسته للعلماء ومباحثته الفقهاء للاهتداء بآرائهم فيما يعرض له من مشاكل، ويبين له فوائد الشورى وما يؤدي إليه تبادل الآراء. ويطلب إليه أن يحكم بين الخصوم بالعدل، ويكون ذلك في الأماكن الفسيحة وأن يوصل إليه جميع الخصوم وأن يساوي بينهم في لحظه ولفظه ويعاملهم معاملة واحدة. وعندما يريد الحكم عليه الرجوع إلى القرآن الكريم وإذا لم يجد به لجأ إلى السنة المطهرة، فإن لم يجد رجع إلى ما قاله الفقهاء السابقون وما حكم به الأئمة المجتهدون، وإن لم يجد أعمل عقله وبادر إلى اجتهاده وبذل وسعه في سبيل الوصول إلى الحق. كذلك يطلب إليه ألا يعجل في إصدار الأحكام وأن ينتبه للخصوم وفصاحة بعضهم وعي البعض الآخر حتى لا يتأثر بفصاحة الأول وعي الثاني، وأمره بالتفرغ لعملية القضاء تفرغاً جسمياً ونفسياً حتى لا يقع في الخطأ. وأمره كذلك أن يقيم الحدود بالبينات وأن يدرأها بالشبهات ولا يعجل أبداً في إصدار حكم لا يمكن الرجوع فيه. وطلب إليه التثبت من الشهود وأحوالهم وعدالتهم وأن يقبل شهادة من ثبتت عدالته ويرد شهادة من لا تستقيم عدالته. ولقد عهد إليه أيضاً أن ينظر في أحوال اليتامى وأموالهم وتربيتهم وزواجهم، وأن يكل ذلك إلى من يثق بهم من الأولياء

وكذلك عهد إليه الإشراف على الأوقاف ومراعاة أحوالها، وفوض إليه أن يعين قضاة من قبله يرتضيهم هو على البلاد والأقطار النائية وأن يراقب عملهم وأن يكونوا مسؤولين أمامه وهو مسؤول عنهم. وكذلك طلب إليه أن يوافق على أحكام القضاة السابقين وألا يحاول تتبع عوارتهم أو هفواتهم إلا في حال حكمٍ إنحرافهُ عن الشريعة الإسلامية ظاهر. كذلك فوض إليه أمر إيجاد كاتب له فيه الصفات الجيدة الواجب توفرها في مثله، ورغب إليه أن يتسلم ديوان القضاء وما فيه من وثائق وحجج ليضيف إليه وثائقه. وختاماً يقلده أمر الحسبة ومراقبة الأسواق والأسعار والآداب العامة وما ماثل ذلك [1].

وبالجملة يعتبر هذا المرسوم جامعاً لواجبات القضاة في الإسلام ووظائفهم والأسس التي يجب أن يقوم عليها القضاء بين الناس مما يؤدي إلى تحقيق العدل ورفع الظلم وإيجاد القاضي الصالح الذي يأخذ على يد الظالم ويأخذ بيد المظلوم. فهو بهذه الصفة دستور للقضاء في الإسلام زمن العباسيين.

وعلى الرغم من تدهور الوضع السياسي في هذا العصر، وعلى الرغم من فساد أخلاق وذمم عدد كبير ممن بيدهم الحل والعقد من وزراء وولاة وقواد وغيرهم، إلا أنه وجد قضاة وقفوا في وجه الحكام المنحرفين ورفضوا الانصياع لرغباتهم. والقاضي أبو خازم الذي وجد زمن المعتضد بالله من هذا النوع، فقد خاطب الوزير عبيد الله بن سليمان القاضي أبا خازم في بيع ضيعة ليتيم تجاور بعض ضياعه فرفض وكتب إليه يقول: إن رأى الوزير ـ أعزه الله ـ أن يجعلني أحد رجلين: إما رجلاً صين الحكم به، أو صين الحكم عنه، والسلام [2].

---

(١) نفس المصدر. جـ ١: ٢٦٤ - ٢٧٦.

(٢) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد. تاريخ بغداد أو مدينة السلام. القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٣١ م جـ ١١ - ٦٢.

العلويون والشيعة:

وتمتاز علاقة العباسيين بالعلويين خلال هذه الفترة بناحيتين: الأولى إيجابية والثانية سلبية.

أما الناحية الإيجابية فهي تعاون العباسيين مع الطالبيين الموجودين تحت حكمهم في بغداد وغيرها، ذلك أن العباسيين حاولوا إرضاء الطالبيين فأوجدوا نقابة الطالبيين وعهدوا برئاستها إلى أحد العلويين وجعلوها من المناصب المهمة. وعندنا عدد من المراسيم التي أصدرها الخلفاء يعهدون بها إلى أفراد من العلويين برئاسة هذا المنصب الرفيع مثل الطائع لله والقادر بالله والناصر لدين الله.

وتظهر هذه المراسيم مهام وواجبات هؤلاء النقباء وما يجب أن يقوموا به من أعمال. هذا وإن استعراض أحدها: وهو المرسوم الذي أصدره الخليفة الطائع لله بتقليد الشريف أبي الحسن محمد بن الحسين العلوي نقابة الطالبيين والإشراف على المساجد، يعطينا فكرة واضحة عن طبيعة هذه الوظائف والمهام، إذ أن جميع المراسيم اللاحقة اقتفت أثره في ذلك.

فهو يفتتح مرسومه بذكر الصلة الموجودة بين الخليفة وبين نقيب الطالبيين ويذكر أنه اختاره ليخلف أباه في هذا المنصب الهام، لأنه وجده متحلياً بالصفات الحميدة وله المواقف الجيدة في خدمة الدولة والدعوة العباسية. والخليفة، إذ يفعل ذلك إنما يهدف لرفعة شأنه ومكافأته ومكافأة والده واجراء الأمور في نصابها.

ثم بعد ذلك يبدأ توصياته له التي هي بيان واجبات شاغل هذا المنصب وأولها هو تقوى الله تعالى ومراقبته بالسر والعلن ثم المواظبة على تلاوة القرآن الكريم إذ أن ذلك يساعده في إيجاد حلول للمشكلات التي تعرض له، بجانب الفوائد الأخرى من ذلك. ومن ثم يعرض لناحية هامة هي طلبه منه أن يضبط نفسه

وأن ينزهها عن الشبهات ويحكم عقله في أموره كلها، ولا يجعل غضبه يسيطر عليه.

وهذه نصيحة جيدة حبذا لو اتبعها كل إنسان وخاصة من بيده الحل والعقد. بعد ذلك، وبعد أن فرغ من وعظه في سلوكه وأخلاقه يبين له واجباته تجاه من عهد إليه الإشراف على شؤونهم.

وأول هذه الواجبات تفقد أحوالهم وتعهد شؤونهم باستمرار وأن يثيب المحسن ليزداد إحساناً وأن يعاقب المسيء ليقلع عن إساءته. كما يأمره أن يعطي كل ذي حق حقه من الرعاية والنظر والإحسان والإكرام. ويأمره أيضاً أن يسلك في عقوبة من يستحق العقوبة طريق التدرج لأن الغاية من العقوبة الإصلاح لا الإنتقام.

ثم ينتقل إلى موضوع مهم بالنسبة للأسرة الهاشمية وهو موضوع النسب، ذلك أن كثيراً من الناس يحبون أن ينتسبوا إلى هذا النسب الشريف وهم ليسوا منه، ولذلك طلب منه حياطة هذا النسب الأطهر والشرف الأفخر عن أن يدعيه الأدعياء أو يدخل فيه الدخلاء. وطلب منه الرجوع إلى شجرة النسب للتثبت من ذلك. كما طلب منه أن يعاقب الأدعياء والدخلاء عقوبة تردعهم وتكون وازعة لغيرهم عن الإقدام على ذلك. كما طلب منه أن يكون أباً حانياً وراعياً صالحاً لشؤونهم وأحوالهم المادية والإجتماعية: فقد أمره بمراعاة متبتلي أهله ومتجهديهم وصلحائهم حتى يسد خلتهم ويدر الموارد عليهم، كما أمره أن يربي اليتامى وأن يعلمهم ويجعلهم يقصدون الكتاتيب ليتعلموا القرآن الكريم والفرائض، كما أمره أن يزوج الأيامى بأكفائهن، وبكلمة مختصرة أمره أن ينظر إليهم كما ينظر رب الأسرة إلى جميع أفراد أسرته ويهتم بأمورهم جميعاً. كذلك أمره أن ينوب عن والده في نظر المظالم ورسم له طريق النظر في المظالم، وطلب منه أن يتعاون مع الحاكم في ذلك لا أن يعمل بطريقة معاكسة له.

وطلب إليه أن يهتم بتسيير الحجاج إلى بيت الله الحرام وأن يسهل سبلهم في الذهاب والإياب وأن يوجد لهم المنازل وأن يوردهم المناهل.

وأمره أن يتفقد أحوال المساجد في بغداد وغيرها من البلاد الأخرى وأن ينظر في الأوقاف وأن يصلح أمورها، كما سمح له أن يثبت اسمه بعد ذكر اسم أمير المؤمنين على المساجد المستجدة والمصلحة التي يتم ذلك على يده. كذلك سمح له باتخاذ الأعوان والنواب والموظفين في بغداد وبقية الأطراف، الذين يحتاجهم لأجل القيام بعمله خير قيام. وأخيراً أعطاه سلطة مخاطبة مدراء الشرطة في كل مكان ومكاتبتهم من أجل تنفيذ الأحكام التي يصدرها أو يصدرها موظفوه [1].

وبالجملة فهو سجل حي لمهام نقيب الطالبيين في العصر العباسي.

كذلك تمثلت الناحية الإيجابية في علاقة العلويين بالعباسيين في تعاون الطرفين في الطعن بنسب الفاطميين الذين حكموا مصر وتقدموا إلى سورية وأصبحوا خطراً يهدد العباسيين في عقر دارهم. فقد أنشىء محضر في بغداد سنة ٤٠٢ هـ في الطعن بنسب الفاطميين وأنهم ليسوا من نسل علي بن أبي طالب وإنما هم أدعياء كذبة ينسبون إلى ديصان بن سعيد الخرمي أحزاب الكافرين ونطف الشياطين. وقد وقع المحضر عدد كبير من العدول من بينهم الشريف المرتضى والرضي وغيرهما من العلويين [2].

ولكن الناحية السلبية كانت أبرز خلال ذلك العهد. فقد حصل أول ذلك العهد تقارب بويهي فاطمي، وذلك زمن عضد الدولة البويهي فقد خضع عضد الدولة، في إحدى لحظات ضعفه، لميوله الشيعية وراسل العزيز بالله الفاطمي

---

(١) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١٠ : ٢٤٧ - ٢٥٤.

(٢) ابن الجوزي المصدر المذكور آنفاً. جـ ٧ - ٢٥٥.

الذي بدأه بالرسالة وإرسال الرسل، فرد عضد الدولة التحية بأحسن منها ولقب العزيز بالله بالحضرة المحروسة ـ حرسها الله تعالى [١]. كما وأن العزيز بالله اهتبل هذه الفرصة وأرسل رسولاً آخر ومعه رسالة يشكر بها عضد الدولة على ولائه له ومودته ومعرفته بحق إمامته مما جعل العزيز بالله يسر ويعرف أنه (أي عضد الدولة) لا يعدل عن الحق [٢].

ولكن يبدو أن عضد الدولة، وهو الحاكم القوي، أدرك خطر مثل هذه المحاورات فتوقف عنها.

كذلك تمثلت هذه الناحية السلبية في ثوران الشيعة المتكرر في بغداد نفسها وتحديهم الخليفة نفسه ولا سيما زمن القادر بالله الذي حدثت في عهده حادثتان مهمتان في هذا الموضوع: الأولى هجوم المصلين في مسجد براثا في بغداد ـ وهو وكر الشيعة ومقرهم ـ على خطيب للمسجد أرسله القادر هناك ليخطب الجمعة فأثارت خطبته جمهور المصلين الشيعة فقذفوه بالآجر وضربوه حتى أوشك على الموت. والثانية الأبيات التي قالها الشريف الرضي العلوي ينعي وجوده ومقامه على الذل في بغداد، وفي مصر الخليفة العلوي الذي أبوه أبو الشريف وعرقه عرقه، وهي الأبيات المشهورة المعروفة.

ولم يكن لدى القادر قوة يبطش بها فاضطر أن يكتب إلى جلال الدولة البويهي المتغلب على بغداد يطلب منه التدخل لوضع حد لمثل هذه الأعمال. وتحوي هذه الرسالة فقرات مما كان يدعو به إمام مسجد براثا مقر غلاة الشيعة لعلي بن أبي طالب وكيف أنه نسب له قوى خارقة مما اضطر الخليفة لعزله وتعيين

---

(١) جمال الدين، علي بن ظافر. أخبار الدول المنقطعة. تحقيق اندريه فريه. القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٧٢ م. ص ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين. النجوم الزاهرة... القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب. جـ ٤ : ١٢٤ ـ ١٢٥.

شخص من أهل السنة ليحل محله، ولكن ذلك لم يعجب المصلين فأشاطوا دمه ولم ينقذه منهم إلا وجود أربعة من الأتراك أنقذوه. ويطلب الخليفة من جلال الدولة التدخل وحماية الخطيب ومعاقبة المسؤولين ووضع حد لمثل هذه الأمور (١).

ووصلت إلى مسامع القادر الأبيات التي قالها الشريف الرضي في مدح الفاطميين ويذكر إقامته على الذل في أرض الهوان وما ماثل ذلك، فغضب القادر كل الغضب، وحق له الغضب، فقد كان القادر عهد إلى أبي الشريف الرضي بنقابة الطالبيين وقلد الشريف الرضي النيابة عن أبيه في النقابة وتسيير الحجيج، وهي أعلى المناصب المتروكة للخليفة العباسي. ولذلك أرسل إلى والده يعتب عليه ويذكر ما قاله ابنه ويطلب منه معاقبته.

ولعمري لقد صدق القادر عندما قال لوالده: وعساه لو كان بمصر لما يخرج عن جملة الرعية (٢).

كذلك تمثلت هذه الناحية السلبية في سلوك القرامطة وموقفهم من الخلافة العباسية وموقف الخلافة منهم.

القرامطة وموقفهم من الخلافة العباسية:

فقد أصبح القرامطة خطراً في أواخر الثالث هجري وأول الرابع وهاجموا مكةالمكرمة بعد أن أسسوا لهم دويلة في هجر وأصبحت خطراً يهدد أطراف الدولة العباسية.

ولا ندري مدى صحة الكتاب الذي يورده الطبري في تاريخه ويذكر أن فيه تعاليمهم، ولكن إذا صح، وهو في الغالب صحيح، فهذا يعني الانسلاخ التام من الإسلام عقيدة وشريعة ونصاً وروحاً. ومستوى التعاليم منخفض وتملؤه المفاهيم

---

(١) ابن الجوزي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٨: ٤٢ ـ ٤٣.

(٢) نفس المصدر. جـ ٧ ـ ٢٨٢.

القرآنية، مع تشويه لها وصرف لها عن أهدافها السامية لخدمة وثنية كافرة كاذبة[1].

كذلك دارت معارك بينهم وبين جيوش الخلافة وكان النصر تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، وتعطي هذه الرسائل تفاصيل عن سير المعارك وأسماء القواد الذين اشتركوا في قود الجيوش من الطرفين وما شاكل ذلك [2]. ولكن المضحك في الأمر أن أتباع القرمطي يخاطبونه بأمير المؤمنين، والمهدي، والقائم بأمر الله، وغير ذلك من الألقاب[3].

ولعل رسالة أبي سعيد الجنابي إلى المعتضد تمثل أصدق تصوير ترف الجيش العباسي الذاهب لمحاربة القرامطة وشظف عيش هؤلاء ويقظتهم. فقد هزم أبو سعيد جيشاً للخليفة المعتضد وأسر قائده، ولكنه أحسن للقائد وأعاده برسالة شفوية للخليفة ينصحه بألا يعاود إرسال الجيوش لمحاربته... فوالله لو أنفذت إلي جيشك كله ما جاز تظفر بي لأني رجل نشأت في العسف فاعتدته أنا ورجالي ولا مشقة علينا فيه، وأنت تنفذ جيوشك من الجيوش، والثلج والريحان، فيجيئون من المسافة البعيدة الشاقة قد قتلهم السفر قبل قتالنا، وإنما غرضهم أن يبلغوا غرضاً من موافقتنا ساعة ثم يهربون، وإن هم هزموني بعدت عشرين فرسخاً أو ثلاثين وجلت في الصحراء شهراً أو شهرين ثم كبستهم على غرة فقتلتهم[4].

الشؤون الإدارية:

تضم الشؤون الإدارية عدداً من الوثائق في موضوعات متفرقة، بعضها يتعلق

---

(١) الطبري. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٨: ١٦١ - ١٦٢.

(٢) نفس المصدر. جـ ٨: ٢٢٦ - ٢٢٨.

(٣) نفس المصدر. جـ ٨: ٢٢٤.

(٤) ابن الجوزي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٥ - ١٣٤.

بالاضطرابات التي أثارها الحنابلة في بغداد ضد خصومهم، وبعضها إقطاع لبعض العمال، وبعضها محاولات بذلها بعض الخلفاء لتسكين ثائر قواد الجيش، وبعضها مراسيم للتدريس في نظامية بغداد ولتنظيم الفتوة وغيرها.

فقد أثار الحنابلة المشاكل في بغداد وأصبحوا قوة حتى اضطر الخليفة الراضي بالله أن يصدر منشوراً يندد بهم وبأعمالهم (١).

وإن المرء ليعجب للدرك الذي انحدر إليه خليفة كالمقتدر في مخاطبة خادمه والمسيطر على الجيش مؤنس الخادم، وذلك لما ثار الجيش بقيادته ووجه قواده رسالة للخليفة يعددون مآخذهم ويذكرون طلباتهم «وأما أنت يا أبا الحسن المظفر لا خلوت منك فشيخي وكبيري ومن لا أزول ولا أحول عن الميل إليه والتوفر عليه والتحقق به والإيجاب له، اعترض بيننا هذا الحادث أم لم يعترض، وانتقض الأمر الذي يجمعنا أم لم ينتقض» (٢). وإذا وازنا هذا الكلام وهذا السلوك بسلوك خليفة كالمنصور تجاه أبي مسلم الخراساني، أو الرشيد تجاه البرامكة أمكننا أن نتصور الهوة السحيقة التي انحدر إليها خلفاء بني العباس في أوائل القرن الرابع هجري.

كذلك يعجب المرء من صبر وحلم خليفة كالناصر على أحد مماليكه وهو طغرل الذي أقطعه البصرة، فقد طالبه الديوان العزيز ببعض المال، ولكن طغرل عوضاً عن أن يمتثل للأمر قرر الفرار وترك البصرة واللجوء إلى أحد الأماكن وبلغ الخبر الوزير فأرسل له رسالة هي مزيج من عطف وحب، وإثارة للنزعات الطيبة في نفسه وتذكير له بالأيادي السالفة وما ينتظره من تشريد إن هو نفذ عزمه، وكان لذلك أثره في ثني طغرل عن عزمه وبقائه في مركزه وعفو الخليفة عنه (٣).

---

(١) ابن الأثير. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٨: ٣٠٨ - ٣٠٩.

(٢) ابن مسكويه. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١: ١٨٩ - ١٩٢.

(٣) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٨: ٢٦٩ - ٢٧٤.

هذا وإن مرسوم الخليفة الناصر باسناد التدريس في المدرسة النظامية في بغداد والنظر في أوقافها للقاضي محي الدين محمد بن فضلان دليل على أهمية هذا المنصب الجليل حتى أن الخليفة نفسه أصدر مرسوماً بذلك. كذلك يحوي المرسوم ذاته بعض التوجيهات التربوية التي تحمل نفحة من نفحات توجيه الإسلام الأصيل للمربين نحو النور. فبعد المقدمات التي لا بد منها وبعد مدح القاضي ابن فضلان وكيف أن الخليفة ندبه لهذا المنصب الجليل لكفايته وعلمه واستقامته ودينه، وبعد أن يوصيه بتقوى الله تعالى يقول:

... وأن يشرح صدره للمتعلمين ولا تأخذه ضجرة من المستفيدين، ولا تعدو عيناه عن جهلاء الطالبين، ولا يتبرم بالمبالغة في تفهيم المبتدي، ولا يغفل عن تذكير المنتهي... وليكن بسائر المتفقهة معتنياً رفيقاً، وعليهم حدباً شفيقاً، يفرّع لهم من الفقه ما وضح وتسهل، ويعين لهم ما التبس من غوامضه وأشكل...[1].

ولقد كان الناصر مهتماً كل الاهتمام بالفتوة وأخذها تحت كنفه وصدف أن حدث اضطراب بين الفتيان فغضب وقرر تنظيمها وأصدر مرسوماً يحدد واجباتها ويذكر حقوق الفتيان وواجباتهم وينسب الفتوة إلى علي بن أبي طالب[2]

شؤون الخراج والضرائب:

وإذا وصلنا إلى شؤون الخراج والضرائب لاحظنا اهتماماً متزايداً بقضية أساسية هي الفرق بين السنة الهجرية وإدراك الغلات، فمن المعلوم أن الغلات الزراعية تدرك وتجنى في وقت واحد ثابت من كل سنة شمسية على حين أن

---

(١) نفس المصدر. جـ ١: ٢٩٢ - ٢٩٣.

(٢) ابن الساعي الخازن، أبو طالب علي بن أنجب. الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير. تحقيق مصطفى جواد. بغداد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، ١٩٣٤ م، ٢٢٣ - ٢٢٦.

السنة القمرية أقصر من الشمسية بحوالي أحد عشر يوماً. ومع توالي الأيام والسنين أصبح الفرق واضحاً جداً وأصبح موعد أخذ أموال الخراج والعشور في غير وقت إدراك الغلات مما أدى إلى مشاكل كثيرة وإلى شكوى دافعي الضرائب. ولذلك أصدر المعتضد مرسوماً ينص على ألا يفتتح الخراج في كل عام إلا في شهر حزيران. كذلك أصدر بعده بحوالي ثمانين سنة المطيع لله مرسوماً آخر من أجل نفس الغاية يمتاز بالوضوح والاطلاع على تقاويم الفرس والروم والعرب وغيرهم ويصحح الأوضاع بشكل جيد كل الجودة.

والذي يلاحظ في هذا الباب هو نكول عدد من الناس عن تسديد ما عليهم من خراج ولجوء بعض العمال إلى حبسهم، حتى أن بعض هؤلاء العمال أرسلوا إلى رؤسائهم يستأذنونهم ببسط العذاب على هؤلاء المكلفين كما فعل عامل خراج بادروبا حين أرسل إلى الوزير علي بن عيسى يستأذنه في بسط يده في عقوبتهم: ومتى لم تطلق اليد في تقويمهم واستخراجٍ منهم، كسروه وتأسى بهم أهل السواد فبطل الارتفاع [1]. ولكن الوزير الصالح رفض ذلك وأرسل إلى العامل يقول: الخراج ـ عافاك الله ـ دين، وليس يجب فيه غير الملازمة فلا تتعد في ذلك إلى غيره، والسلام [2].

ومن الوثائق الطريفة في هذا الباب ما سجله أحد كتاب الدواوين عن واردات الدولة العباسية ـ أو بشكل أدق ـ واردات خزينة الخليفة الخاصة، وهو ما يطلق عليه اسم بيت مال الخاصة، وذلك زمن المقتدر بالله الذي امتد حكمه حوالي خمس وعشرين سنة من سنة مائتين وخمس وتسعين إلى ثلاثمائة وعشرين. والغاية من الوثيقة هي بيان تبذير المقتدر المتناهي، ولكنها مهمة لنا كل الأهمية لأنها ترينا مقدار ثروة الدولة العباسية في ذلك الوقت المضطرب

---

(١) ابن مسكويه. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١ ـ ٣١.

(٢) نفس المصدر.

والذي حفل بالثورات والحروب، وفي وقت انفصلت فيه أغلب الأقطار عن جسم الخلافة ولم يعد للحكومة المركزية سلطة فعلية إلا على شقة ضيقة من الأرض بالنسبة للسابق. وتذكر الوثيقة أنه في مدى خمس وعشرين سنة دخل خزانة المقتدر الخاصة مبلغ مقداره تسعة وثمانون ألف ألف دينار، أنفق منها بطريقة قانونية ولحاجات ضرورية حوالي بضعة عشر ألف ألف دينار، فيكون المتبقي نيفاً وسبعين ألف ألف دينار كلها أتلفت (١).

الثورات والثوار:

ولقد حفل هذا العصر بالثوار والثورات من كل جنس ومذهب: فهناك ثورات العلويين وحركات القرامطة وهناك تصارع المتغلبين على السلطة كالبريدي وابن رائق، وهناك ثورة الزنج التي كلفت الدولة الملايين وهلك بها مئات الألوف، وهناك وهناك. والملاحظ في بعض هذه الوثائق أنها رسائل بلاغية من الدرجة الأولى دبجت وأصدرها الخليفة من أجل تأمين جماعة من العرب الثائرين، أو لانتصار المتغلب على الخليفة على شرذمة من الثائرين كما فعل الطائع لله عندما وجه رسالته إلى صمصام الدولة يمدحه لأنه تغلب على أحد الثوار التافهين. وهكذا انحدرت الدولة العباسية ووصلت إلى هذا الدرك.

وإن ثورة البساسيري ضد الخلافة العباسية هي أخطر هذه الثورات وأجدرها بالبحث، ذلك أنها هدفت لإلغاء الخلافة العباسية وإحلال غيرها محلها. وقد قام بها أحد قواد الأتراك الداخلين في خدمة أواخر البويهيين في بغداد واسمه أبو الحارث البساسيري. ذلك أن هذا القائد الطموح إستغل فرصة انشغال طغرل بك السلجوقي الذي احتل بغداد وأنهى الحكم البويهي فيها بثورة أخيه إبراهيم أينال في خراسان واضطراره لترك بغداد والتوجه بجيشه إلى خراسان لمحاربة أخيه، فتحالف مع أمير بدوي من بني عقيل هو قريش واحتلا بغداد وأعلنا خلع

---

(١) نفس المصدر. جـ ١: ٢٣٨ - ٢٤١.

الخليفة القائم وإلغاء الخلافة العباسية وخطبا في بغداد نفسها مدة سنة كاملة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله. ولقد كان من الممكن أن يتغير سير الحوادث لو أن خليفة مصر تمكن أن يقوم بعمل من الأعمال لمساعدة الثائرين، وعلى الرغم من أنهما أرسلا إليه رسلاً يبلغانه ما حدث ويطلبان منه المعونة والنجدة، إلا أنه أعارهما أذناً صماء ولم يلب طلبهما، وذلك واضح من خطاب قريش الذي وجهه إلى البساسيري لما سمع أن طغرل بك، بعد أن فرغ من أمر أخيه، قد توجه بجيشه من جديد إلى العراق لمحاربتهما وإعادة الخليفة القائم إلى مقره ودار خلافته: قد دعوت إلى سلطان على ستمائة فرسخ فخدمناه وفعلنا ما لم يكن يظنه، ومضى لنا ستة أشهر من فتحنا العراق ما عرفنا منه خيراً ولا كتب إلينا حرفاً ولا فكر فينا، وقد عادت رسلنا بعد سنة وكسر صفراً من شكر وكتاب فضلاً عن مال ورجال. ومتى تجدد خطب فما يشقى به غيري وغيرك. والصواب المهادنة والمسالمة ورد الخليفة إلى أمره والدخول تحت طاعته وأن يستكتب أمنه (١).

ولقد اضطر الخليفة العباسي، الذي فقد المحامي والنصير والذي وجد نفسه في وضع حرج كل الحرج، أن يجد ملجأ لدى أمير بدوي آخر هو مهارش ابن عم قريش الذي أذمه وأمنه حتى رجع طغرل بك وقتل البساسيري وأعاد الخليفة إلى عرش خلافته. ويدل الخطاب الذي وجهه الخليفة القائم إلى مسعود الغزنوي بمناسبة عودته للخلافة وانتهاء محنته على مدى الأهمية التي أعطاها الخليفة لهذا الحادث، وكيف أن العناية الإلهية أسبغت عليه هذا النصر المؤزر، وكيف أن العناية الربانية هيأت له طغرل بك الذي حطم الكفرة المارقين وأباد جمعهم وأعاد للإسلام بهجته ونضارته وجدد للخلافة بهجتها ورونقها. والكتاب كله مدح لشاهنشاه طغرل بك وطعن في البساسيري وأنصاره وتصوير الأمر أنه معركة بين الكفر والإيمان والإسلام والإلحاد (٢).

---

(١) ابن الجوزي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٨ - ٢٠٢.

(٢) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٦ : ٤٠٤ - ٤٠٩.

أهل الذمة:

ولقد عاش أهل الذمة تحت كنف الحكومات الإسلامية المتعاقبة عيشة تسامح وحرية، حتى أن أحوالهم كانت أفضل من أحوال عامة الرعية المسلمة الذين كانوا عرضة للسلب والنهب والإضطهاد وفرض الضرائب الثقيلة. والشيء الوحيد الذي كان يضايق أهل الذمة هو إلزامهم لبس لباس معين يميزهم عن المسلمين. وأن ورود مثل هذه المراسيم، بين الفينة والفينة، دليل في ذاته على أن أهل الذمة لم يكونوا يتقيدون بتطبيقه، فكان الأمر يحتاج إلى صدور مراسيم على مراحل متتابعة تلزمهم فعل ذلك، كما فعل القائم بأمر الله فأصدر مرسومه سنة ٤٢٩ هـ بإلزامهم اللباس المميز لهم(١). كذلك كان الخلفاء يصدرون مراسيم ينصون بها على تنصيب رئيس أعلى للمسيحيين في ديار الإسلام، ورئيس لليهود أيضاً. ولا يعتبر تنصيب الرئيس الروحي للمسيحيين أو اليهود شرعياً أو نافذاً إلا إذا كان صادراً عن الخليفة. فقد أصدر الخليفة القائم بأمر الله أمراً بتقليد عبد يشوع البطرك جاثليقاً. ولقد افتتح المرسوم بحمد الله تعالى ومدح الإسلام والصلاة على النبي عليه السلام، ثم تطرق إلى ذكر الخليفة ومدحه ومدح نسبه وأفضاله، ثم يذكر أن واجب أمير المؤمنين النظر والرعاية إلى جميع رعاياه بصرف النظر عن أديانهم، وبعد ذلك يعدد فضائل عبد يشوع التي أهلته ليكون بطركاً لطائفته، وأوجب على جميع النصارى طاعته وعدم معارضته، وألا يسمح لإنسان أن يحتل مكانه، ثم بعد ذلك يذكر وظائفه ومهماته وواجباته وحقوقه، ويطلب إليه أخيراً أن يحتفظ بكتاب الخليفة هذا حجة ومستنداً شرعياً يرجع إليه إذا اقتضت الضرورة ذلك(٢).

وقد تضمن نفس المبادىء التي تضمنها المرسوم السابق، في بيان حقوق وواجبات رئيس اليهود في الإمبراطورية العباسية، المرسوم الذي أصدره الخليفة

---

(١) ابن الجوزي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٨: ٩٦ - ٩٧.

(٢) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١٠: ٢٩٤ - ٢٩٩.

الناصر لدين الله سنة ٦٠٥ هـ ويولي بموجبه دانيال بن العازر بن هبة الله رئاسة اليهود[١]. وهذا وحده دليل على الحرية الدينية التي منحت لأتباع الأديان الأخرى، ودليل على أن هؤلاء الأتباع ورؤساءهم الروحيين كانوا ينظرون إلى الخلفاء العباسيين على أنهم المصدر الرسمي والشرعي لاستلامهم مناصبهم وتوليهم مهامهم.

العلاقات الخارجية:

نجد، في حقل العلاقات الخارجية، أن هذه العلاقات، تمركزت أكثر ما تكون المركزية، مع دولة الروم البيزنطيين، وأن هذه العلاقات كانت على نوعين: علاقات سلمية وعلاقات حربية.

أما العلاقات السلمية فقد شملت التراسل والتباحث وتبادل الرسل من أجل تبادل الأسرى الذي يسميه المؤرخون المسلمون الفداء، كذلك التباحث والتراسل من أجل طلب الهدنة من الطرفين. وهناك رسالة مهمة وجهها ملك الروم إلى الأخشيد المتغلب على مصر، وليس لها هدف محدد إلا التباهي من جهة، وطلب السماح لملك الروم بتصريف بضائع أرسلها إلى مصر مع رسله وشراء ما يناسب من عروض مصر لأخذها إلى القسطنطينية، وجس النبض ما إذا كان الأخشيد يوافق على تبادل الأسرى. وقد عرفنا ذلك من جواب الأخشيد للملك.

وأما الناحية الحربية فقد تأرجحت بين مد وجزر، فقد بدأ المسلمون في أوائل هذا العهد يفقدون تفوقهم الحربي أمام الروم، وبدأوا يفقدون عدداً من ثغور الجزيرة والشام. وكان الحكم البويهي كارثة في هذا المجال واستشرى خطر الروم ووصل ذروته في حملات نقفور فوكاس وتزيمسكيس وباسيل الثاني الذين تمكنوا من احتلال أقسام من بلاد الشام الشمالية وجزيرة كريت، وأجبروا عدداً من دويلات الشام على دفع الجزية لهم. ولكن هذا الوضع تغير مع قدوم

(١) ابن الساعي. المصدر المذكور آنفاً. ص ٢٦٦ - ٢٦٩.

السلاجقة الذين أمدوا الإسلام بدماء جديدة، وهم الذين أوقفوا المد البيزنطي أولاً، ثم بعد هنيهة بدأوا عملية الزحف نحو الأناضول والاستيطان وذلك إثر معركة ملاذكرد التي كانت مصيرية فيما يتعلق بمستقبل الأناضول ومستقبل علاقات بيزنطة بالإسلام. وعلى الرغم من أن البيزنطيين استردوا قواهم فيما بعد، أو بالأحرى، قسماً من قواهم، وانتعشوا وحاولوا التدخل من جديد في شؤون العالم الإسلامي، ولا سيما زمن الحروب الصليبية، إلا أنهم لم يستردوا قط كامل قواهم وأهميتهم السابقة، وظل هذا الوضع حتى سقوط القسطنطينية بيد محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ م.

هذا وأن الفداء قديم بين المسلمين والروم بدأ منذ العصر العباسي الأول واستمر خلال هذا العهد. وعندنا رسالة موجهة من عامل طرسوس إلى الخليفة المعتضد يذكر فيها كيفية إجراء الفداء وذلك سنة ٢٨٣ هـ. ويذكر اسم المتولي له من قبل المسلمين واسم المتولي له من قبل الروم وكيف أن الروم يحجزون عندهم المتولي المسلم ويحجز المسلمون المتولي الرومي، ويطلق هذان معاً عند انتهاء عملية تبادل الأسرى[1].

كذلك كان بعض ملوك الروم يسيء معاملة الأسرى المسلمين ويعذبهم في محاولة منه لإرغامهم على التنصر، وقد حدث ذلك زمن المقتدر، وأرسل عامل الثغر إلى علي بن عيسى الوزير يخبره بذلك فطلب الوزير من بطريرك أنطاكية وجاثليق القدس التوسط لدى القسطنطينية لكف الأذى عن الأسرى. وقد استجاب الأسقفان لطلب الوزير وأرسلا إلى حكام القسطنطينية يطلبان منهم كف الأذى عن الأسرى وإلا لعناهم وحرماهم[2].

ويبدو الأخشيد، في رسالته الجوابية لملك الروم، شخصاً ذكياً شديد الدهاء

---

(١) الطبري. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٨ ـ ١٧٦.

(٢) ابن الجوزي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٦ ـ ٣٠٣.

وسياسياً بارعاً ومساجلاً من الطراز الأول لملك الروم. وعلى الرغم من أننا لا نملك إلا نص رسالة الأخشيد، إلا أنها كافية لبيان مضمون رسالة ملك الروم الذي أرسلها مع رسولين هما نقولا وإسحاق. ذلك أن الأخشيد يرد على كل فقرة من فقرات رسالة ملك الروم.

ولقد افتتح ملك الروم رسالته للأخشيد بذكر فضيلة الرحمة وإنه بلغه أن الأخشيد رحيم وإنه حاكم عادل، وإنه ليس من عادة ملك الروم أن يراسل أحد أتباع الخلفاء، إلا أنه فعل ذلك الآن حباً في الأخشيد وتواضعاً ورغبة منه في إقامة علاقات جوار طيبة وفي تبادل الأسرى وازدهار التجارة وما شاكل ذلك.

ولقد رد الأخشيد بتوسع على رسالة ملك الروم فقرة فقرة، وأظهر له أنه - أي الإمبراطور - هو الرابح باتصاله بالأخشيد وبدئه في مراسلته، لأن الأسير المسلم لا ينتظر إلا إحدى الحسنيين، أما الأسير الرومي فأمره مختلف. كذلك يثبت له بالدليل القاطع أن ملوك الروم السابقين كاتبوا وراسلوا حكاماً مسلمين أقل منزلة من الأخشيد مثل خمارويه بن أحمد بن طولون ومثل تكين. ثم يذكر له أن الممالك التي يتقلدها الأخشيد نيابة عن أمير المؤمنين ويحكمها باسمه أعظم وأهم وأوسع بما لا يقاس من مملكة الروم.

وألطف ناحية في هذه الرسالة العظيمة هو رد الأخشيد على فخر ملك الروم أن ملكه باقٍ على الدهر موهوب لهم من الله خاصة، فقد قال له: إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وإن الملك كله لله يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء. وإن الله تعالى نسخ ملك الملوك وجبروت المتجبرين بنبوة محمد عليه السلام، وشفع نبوته بالإمامة وحازها للعترة الطاهرة من العنصر الذي منه أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه -... وجعلها خالدة فيهم يتوارثها كابر عن كابر [1].

(١) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٧: ١٠ - ١٨.

ثم يوافق على اقتراح ملك الروم بتبادل الأسرى، ويشكره على حسن ظنه وما يستشعر نحوه من المحبة والمودة ويؤكد له أنه يجد عنده المزيد من المحبة والمودة، ويعده بتسهيل المتاجر والحصول على البضائع من مصر ما دام ذلك لا يحظره دين ولا تمنعه سياسة.

وبالجملة فرسالة الأخشيد الجوابية مثل طيب على الدبلوماسية الإسلامية الذكية النيرة تجاه الروم بخاصة.

كذلك تمثلت الناحية السلمية في علاقات المسلمين بالروم في قضية سكليروس ولجوئه إلى البلاد الإسلامية.

ذلك أن سكليروس الذي يسميه المؤرخون المسلون باسم وردس سقلاروس هُزم أمام منافسه في الحصول على عرش بيزنطة وهرب واضطر إلى اللجوء إلى البلاد الإسلامية. وكان الخليفة آنذاك الطائع لله، ولكن لم يكن له حول ولا طول وإنما السلطات كلها بيد المتغلبين على الخلافة من آل بويه.

ولقد حاول هؤلاء المتغلبون اللعب بورقة سكليروس هذا ظناً منهم أنها ورقة رابحة، وساوموا عليه وساوموا معه، ولكن لم يحصل كبير فائدة من هذا الموضوع، فهم لم يكونوا في وضع يمكنه من مساعدته عسكرياً حتى يستطيعوا مطالبته بما تم الاتفاق عليه. وهو نفسه كان عاجزاً عن الرجوع إلى عرش بيزنطة بقواته الذاتية، ولذلك ظل الاتفاق الذي عقد بينه وبين صمصام الدولة البويهي والذي بموجبه يعد سكليروس أن يصير حليفاً للعباسيين يوالي من يوالون ويعادي من يعادون، ويعد أن يسلمهم سبعة حصون شهيرة على الحدود بين البلاد الإسلامية وبيزنطة، وغير ذلك من الوعود، أقول ظلت هذه الوعود حبراً على ورق لأن سكليروس عجز عن الحصول على العرش وعجز البويهيون عن مساعدته وانتهى الإتفاق إلى لا شيء [1].

---

(١) نفس المصدر، جـ ١٤ : ٢٠ ـ ٢٤.

أما العلاقات الحربية فقد مرت في ثلاثة أدوار: الدور الأول ويمكن أن نسميه دور التوازن، وذلك عندما كان المسلمون يهاجمون الروم والروم يهاجمون المسلمين ويتناوبون احتلال مدن وحصون الثغور.

وأما الدور الثاني فهو دور التفوق البيزنطي الذي تم على أيدي ثلاثة أباطرة هم نقفور فوكاس، ويوحنا تزيمسكيس وباسيل الثاني.

ولدينا من العهد الأول رسالة وجهها المنتصر إلى محمد بن عبدالله بن ظاهر تتعلق بإرسال جيش لغزو الروم بقيادة وصيف والكتاب عبارة عن دعوة إلى الجهاد في سبيل الله واستنفار للناس للقيام بهذا الواجب المقدس ضد العدو الذي وطئت جيوشه أرض الإسلام [1].

ولقد أسفرت حملات نقفور فوكاس ويوحنا تزيمسكيس عن احتلال أقسام من شمالي سورية، ولكن تزيمسكيس، في خطابه الموجه إلى أشوط ملك أرمينية، يجنح به الخيال جنوحاً خطراً فيصور انتصارات وهمية، فاحتلاله لنصيبين الصغيرة الواقعة في أقصى شمالي العراق فسره على أنه إخضاع لكل الشرق الفارسي. كما وأنه يسمي الفاطميين الأفريقيين، وإذا كانت جيوشه وصلت إلى مشارف شمالي فلسطين فهذا لا يعني أن فتوحاته اتسعت حتى وصلت إلى مدينة بابلون الكبرى ـ القاهرة. وهو يعدد أسماء الأماكن التي أخضعها، وفي سردها اضطراب تارة في الشمال وتارة في الجنوب، وبعض أخباره تؤيده المصادر الإسلامية والآخر تنفيه نفياً قاطعاً. والملاحظ هنا هو الروح الصليبية التي كانت تحركه في حروبه ضد المسلمين، وليست الرغبة في الدفاع عن بلاده أو توسعة حدود بلاده أو غير ذلك من البواعث [2].

---

(١) الطبري. المصدر المذكور آنفاً، جـ ٧: ٤٠٦ ـ ٤٠٨.

(٢) توفيق عمر كمال. العدوان الصليبي... الطبعة الثانية. القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٧ م. ١٧٩ ـ ١٨٦.

ويبدو أن تزيمسكيس كان يفكر بشن حرب شاملة ضد المسلمين والإسلام، وأدرك أهمية المبادلات التجارية التي تقوم بها البندقية في تقوية المسلمين ضده وضد مشاريعه فاستعمل نفوذه على البندقية ومارس عليها ضغطاً قوياً جداً حتى أجبرها أن تصدر تعهداً بعدم تصديرها إلى بلاد المسلمين أسلحة أو بضائع يمكن أن تستخدم في صناعة الأسلحة أو أخشاباً تصلح لبناء السفن [1].

ولقد هاجم جيش من الروم بقيادة دمستق يسميه العرب مليحاً منطقة الثغور الشمالية الجزرية فتصدى لهم أبو تغلب الحمداني وأتته النجدات من عز الدولة البويهي فهزم الروم وأسر بطارقتهم وعلى رأسهم الدمستق مليح، فكان ذلك مناسبة بلاغية أبدى فيها أبو إسحاق الصابي بلاغته الفائقة في شكل خطاب وجهه الخليفة الطائع إلى ركن الدولة عميد آل بويه وعم عز الدولة. والغاية الأساسية إبراز الدور العظيم الذي لعبه عز الدولة في تحقيق هذا النصر [2].

ولكن ميزان القوى انقلب رأساً على عقب عندما أتى السلاجقة، فقد زحفوا على سورية وحرروها بكاملها من الروم وبدأوا يدقون أبواب الأناضول بإلحاح وقوة حتى فتح أمام ضرباتهم، وكانت معركة ملاذكرد أو منزيكيرت كما تسمى أحياناً الضربة التي فتحت باب الأناضول أمامهم. وعلى الرغم من أن ألب أرسلان لم يكن مستعداً للحرب عندما التقى بجيش الأمبراطور البيزنطي الذي يفوق جيشه جيش ألب أرسلان أضعافاً مضاعفة، وعلى الرغم من أنه جنح للسلم وراسل الأمبراطور البيزنطي في ذلك فرفض هذا العرض ورفض أن تكون هدنة إلا بالري [3]. أقول بالرغم من كل هذه الظروف المثبطة فإن ألب أرسلان وكل الأمر إلى الله تعالى وخاض المعركة بقلب سليم وإيمان صادق ورغبة أكيدة في نوال إحدى الحسنيين إما النصر أو الشهادة.

---

(١) نفس المصدر. ص ١٨٧ ـ ١٩٠.

(٢) نفس المصدر. ص ٢٠٣ ـ ٢١٠.

(٣) ابن الجوزي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٨ ـ ٢٦١.

ويدل خطابه لجنوده قبيل المعركة مباشرة على هذه الروح الصادقة... وأريد أن أطرح نفسي عليهم في هذه الساعة التي يدعى فيها لنا وللمسلمين على المنابر، فإما أن أبلغ الغرض أو أمضي شهيداً إلى الجنة، فمن أحب أن يتبعني منكم فليتبعني، ومن أحب أن ينصرف فليمض مصاحباً عني فما هاهنا سلطان يأمر ولا عسكر يؤمر[1] ... ولكن جنده رفضوا التخلي عنه وخاضوها معركة من أروع معارك الإسلام، وحققوا نصراً مؤزاً وأسروا ملك الروم نفسه.

الدول المتغلبة

الطولونيون:

إن شخصية أحمد بن طولون هي وحدها التي تستحق أن تذكر من بين جميع الطولونيين الذين تعاقبوا على حكم مصر.

ولقد بدأ أحمد بن طولون حياته في خدمة الخلافة العباسية وأثبت أنه شخص ذو قيم منذ اللحظة الأولى، فقد طُلب إليه أن يقتل المستعين الخليفة العباسي الذي وضع في عهدة أحمد بن طولون بعد خلعه لقاء تعيينه والياً على واسط ولكنه رفض وأجاب: لا رآني الله قتلت خليفة بايعت له أبداً[2]. كذلك أثبت منذ أصبح والياً على مصر أنه شخص طموح وعملي ويعرف من أين يأتي الخطر وكيف يدرؤه وكيف يجرد منافسيه من قوتهم ومن كل ما يجلب لهم الهيبة والسمعة؛ ذلك أن ابن طولون ولي ولاية مصر نيابة عن باكباك، وكان ابن المدبر عامل خراجها، وكان شخصاً قوياً وذكياً، فخاف أن يحاول ابن طولون الاستبداد بحكم مصر فقرر طيه تحت جناحه، فأرسل له هدية جليلة يوم وصوله غير أن أحمد رفضها. ولكنه لاحظ في نفس الوقت أن ابن المدبر يمشي في موكبه

(١) نفسه المصدر جـ٨ ـ ٢٦٢

(٢) ابن تغري بردي. المصدر المذكور آنفاً جـ٣ ـ ٦.

وحوله مائة غلام بالسلاح مما يعطيه هيبة عظيمة، فأراد ابن طولون تجريده من هذه الهيبة، فأرسل إليه بعد فترة: قد كنت ـ أعزك الله ـ أهديت لنا هدية وقع الاستغناء عنها، فلم نجز تغنم مالك ـ أكثره الله ـ فرددناها توفيراً عليك، وأحب أن تجعل العوض عنها الغلمان الذين رأيتهم بين يديك، فأنا إليهم أحوج منك (١).

ولقد حاول منافسو أحمد وأعداؤه جعل الخليفة يخاف جانبه وظلوا يحوكون الدسائس ويحذرون الخليفة المعتمد جانبه وقوته حتى نجحت دسائسهم وأصدر المعتمد أمراً يقضي بعزله عن مصر بطريقة حسنة (٢).

ولكن أحمد الطموح القوي المستعد للأمر لم يأبه لما حصل وظل في مكانه وتمكن أن يكسب رضا الخليفة إذ أخذ جانبه لما نشب الصراع بين الخليفة وأخيه الموفق.

هذا وإن أبرز حادثين أثرا في حياة ابن طولون ولونا سيرته هما صراعه مع الموفق أخي المعتمد، وثورة ابنه العباس ضده في أواخر عمره.

وإن الصدام بين الموفق وابن طولون متوقع وحتمي لان كليهما قوي وطموح، والموفق معتز بأصله ومنصبه، ويفكر ويسعى لإعادة توحيد الخلافة تحت ظله، على حين كان ابن طولون يسعى جاهداً للاستقلال وإبراز شخصيته، ولذلك استعد وأوجد جيشاً ضخماً وحاول التوسع غرباً وشرقاً. ولقد بدأ الصراع والصدام بين الشخصين عندما طلب الموفق مالاً من ابن طولون فأرسل له مبلغاً زهيداً فلم يكفه وأرسل يطلب المزيد ويقول له: إن الحساب يوجب

---

(١) البلوي، أبو محمد عبدالله بن محمد. سيرة أحمد بن طولون. تحقيق محمد كرد علي. دمشق، المكتبة العربية، ١٣٥٨ هـ. ص ٤٥.

(٢) نفس المصدر. ص ٥٦ ـ ٥٧.

أضعافه، فأثار بذلك غضب ابن طولون وحذره وأراد معالجة الداء معالجة حاسمة، ولذلك أرسل إلى الموفق خطاباً يتسم بصفات ثلاث:

أولها: النعومة في القول والعتب على الموفق لأنه جعل بهذا الأسلوب ابن طولون عدواً وكان بإمكانه جعله ولياً حمياً... وكان - أسعده الله - خليقاً بحسن التخير له في اختياره مثلي وتصييره عمدته التي يعتمد عليها...

والثانية: إن طلب الموفق غير شرعي لأن أعمال ابن طولون تابعة للأمير جعفر المفوض ابن المعتمد وهو المشرف على شؤون الجناح الغربي من الخلافة العباسية:... وتقليدي ليس من قبله ولا ولايته، فإنه والأمير جعفر المفوض - أيدهما الله - قد اقتسما الأعمال وصار لكل واحد منهما قسم قد انفرد به دون صاحبه وأخذت عليه البيعة فيه أن من نقض عهده أو خفر ذمته ولم يفِ لصاحبه بما أكد على نفسه فالأمة بريئة من بيعته وفي حل وسعة من خلعه...

والثالثة: تعريضه بالموفق أنه عجز عن إخماد ثورة الزنج ومحلها قريب من بغداد وتهديده إياه بالمبايعة لأحد العلويين المنبثين في الآفاق.

ويختتم رسالته بقوله: وما مثل الأمير في أصالة رأيه قصد لمائة ألف عنان عدة له فجعلها عدة عليه بغير ما سبب أوجب ذلك[١].

ثم بعد فترة نشب صراع عنيف بين المعتمد وأخيه الموفق فأراد ابن طولون استغلال هذه الفرصة لضرب الموفق ضربة قاصمة، فأرسل إلى المعتمد يدعوه للحاق به في مصر ويعده بالنصرة والعز والمنعة[٢]. ولكن الموفق كان له بالمرصاد فمنع أخاه من السفر وحجر عليه وعاقب كل من ساعده في هذا المشروع.

---

(١) نفس المصدر: ص ٨٢ - ٨٥.

(٢) نفس المصدر: ص ٢٨١.

ولذلك ثار ثائر ابن طولون واستصدر فتيا من الفقهاء بخلع الموفق من ولاية العهد، وإنه بحجره على الخليفة قد فارق الطاعة وبرىء من الذمة ووجب جهاده على الأمة [1].

ولقد رد الموفق التحية بأحسن منها فأمر بلعن ابن طولون على المنابر وتبرأ منه وأظهر كفره وما فعله في حريم المسلمين وثغورهم [2].

والحادثة الثانية الهامة في حياة ابن طولون والتي ختمت حياته أسوأ خاتمة هي عصيان ابنه العباس ضده وهربه مع أتباعه إلى برقة. ولقد حاول ابن طولون معالجة الأمر بالحسنى وأرسل إلى ابنه رسالة شفوية يستعطفه ويستعتبه ويخاطبه بأرق الألفاظ مثل: يا أقرب الناس إلي وأبرهم لدي... عن غير إساءة كانت مني إليك... أيا سبحان الله أما تخاف العقوبة في العقوق وقاضيها الله جل اسمه فيك...

ثم أتبع هذه الرسالة الشفوية بأخرى مكتوبة كلها أعتاب وتذكير واستعطاف عله يرجع عن غيه، ويذكر له أن عصيانه هذا إنما تم بتحريض أشخاص عاقبهم ابن طولون أو صرفهم لإساءتهم فأفسدوا ابنه عليه [3].

ولقد أجابه ابنه برسالة حاول أن يبرر انتزاءه عليه وهربه من لدنه برغبته في أن لا يصطدم بوالده لأن والده مجانب للحق مبتعد عن الحكم بما أنزل الله، ظالم لا يرقب وجه الله في أحكامه وأعماله. وقد احتار الولد إزاء هذا الوضع فهو كولد للأمير عليه واجب مساعدته ومساندته، ولكنه، كمسلم حقيقي، واجبه محاربة الطغيان والانحراف والزيغ. ولما كان لا يستطيع ذلك لكون من سيتصدى

---

(١) نفس المصدر: ص ٢٩٥ - ٢٩٧.

(٢) نفس المصدر: ص ٢٩٩.

(٣) نفس المصدر: ٢٥٠ - ٢٥٢.

لمحاربته أباه، لذلك آثر الانسحاب والابتعاد عن والده، وبذلك يكون قد قام بحق والده وحق الله تعالى، وللتدليل على ذلك يقول:

إن فهـــت ضـــاع دمـــي　　وإن سكت فمثل النار في كبـدي [١]

ولما يئس ابن طولون من استصلاح ابنه بالحسنى وبلغه هزيمته أمام جند برقة وهربه منهم وقدومه إلى الاسكندرية وتحصنه بها أرسل له رسالة عنيفة تقطر سماً وتقريعاً وتوبيخاً وانذاراً ويعدد عليه ذنوبه، ولعل أكبرها في رأيه ادعاء ابنه التباس الأمور على أبيه أحمد بن طولون في الثغر فأتى هو إليه ليصلح ما فسد من أمرها، ثم ينذره بالويل والثبور والحرب حتى النهاية والكتابة إلى كل مكان يصل إليه سلطان ابن طولون بلعنه وثلبه أو يثوب إلى الطاعة ويستسلم لأبيه [٢].

وأخيراً أرسل ابن طولون جيشاً حارب ابنه وأنصاره وفض جمعه واعتقله وأتى به إلى والده.

ولقد امتحن ابن طولون بشخصية صلبة أثناء حكمه مصر هي شخصية القاضي بكار الذي كان لا تأخذه في الحق لومة لائم ولو لاقى صنوف العذاب من أجل ذلك. ولقد اصطدم مع ابن طولون في أمر خلع الموفق إذ رفض الموافقة على خلعه لأنه لم يثبت عنده ما ادعاه عليه ابن طولون فاعتقله فترة، ثم لما مرض ابن طولون مرض الموت أراد إصلاح أمره مع القاضي فأرسل يعرض عليه إطلاق سراحه وبره على أن يعترف بالخلع، فأجابه القاضي: يعز عليَّ أن يكون حرصك على ما تفارقه أكثر من ميلك إلى ما لا بد منه، وقد أعنتني وآذيتني لأنك تكلفني الشهادة بالبلاغات التي لا يعد لها الحكام، فخفف الله في أمري فإني شيخ فانٍ وأنت مدنف ولعل التقاءنا بين يدي الله عز وجل قريب [٣].

---

(١) نفس المصدر. ص ٢٥٦ - ٢٦٠.

(٢) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٧: ٥ - ١٠.

(٣) البلوي. المصدر المذكور آنفاً. ص ٣٣١ - ٣٣٢.

البويهيون:

يشغل البويهيون حيزاً كبيراً في التاريخ الإسلامي وذلك على الرغم من أن أثرهم السياسي سلبي بشكل تام، ذلك لأنهم شيعة واشتغلوا بالصراع مع أهل السنة ولم يكن عندهم تصور واضح لمفهوم الحضارة والدولة بشكل راقٍ، اللهم إلا عضد الدولة الوحيد من بينهم الذي اقترب من أن يكون رجل دولة.

ولكن الحضارة الإسلامية وصلت في عهدهم إلى عصر النضج وتفتحت العبقريات الإسلامية.

هذا وإن علاقتهم بالخلفاء العباسيين هي علاقة القوي بالضعيف، فقد أضعف العصر التركي نفوذ الخليفة وهيبته وسلطته كل الإضعاف. وأتى العصر البويهي فسلب الخليفة كل سلطة وتحكم فيه كل التحكم، على الرغم من أنهم درجوا على تعظيم الخليفة وتقبيل الأرض بين يديه وما ماثل ذلك...

ولقد أراد معز الدولة البويهي إلغاء الخلافة العباسية والمبايعة لأحد العلويين واستشار أصحابه في ذلك، فكلهم وافقه إلا نفراً من ذوي البصيرة منهم نصحه بأن لا يفعل ذلك قائلاً: ليس هذا برأي فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله قتلوه مستحلين دمه. ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك قتلوك [1]. فأعرض معز الدولة عن ذلك.

ولقد كان خلفاء بني العباس يعرفون أنهم مسلوبو السلطة مع بني بويه، وإنهم إنما تركوهم لأغراض سياسية، نجد ذلك واضحاً في رسالة وجهها الخليفة الطائع لله إلى عز الدولة البويهي الذي ورث حكم والده معز الدولة في بغداد وورث السيطرة والوصاية على الخلافة العباسية.

---

(١) ابن الأثير. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٨ - ٤٥٢.

فقد حدث أن هاجم الروم الثغور الشمالية واحتلوا نصيبين فثار العامة وضغطوا على بختيار عز الدولة من أجل الجهاد، فوجدها فرصة مناسبة لابتزاز أموال الخليفة، فأرسل إليه يطلب منه مالاً ينفقه في الجهاد وإن ذلك واجب الإمام، فاجابه الطائع بما يلي:

الغزو يلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وإليّ تدبير الأموال والرجال وأما الآن وليس لي فيها إلا القوت القاصر عن كفائي وهي في أيديكم وأيدي أصحاب الأطراف. فما يلزمني غزو ولا حج ولا شيء مما تنظر الأئمة فيه، وإنما لكم مني هذا الاسم الذي يخطب به على منابركم تسكنون به رعاياكم، فإن أحببتم أن أعتزل اعتزلت عن هذا المقدار وتركتكم والأمر كله (1).

هذا وإن تحليلاً لأحد عهود الخلفاء لأحد حكام آل بويه يكشف عن مدى البون الشاسع بين ما يطلب الخليفة من الأمير الاضطلاع به في تصريف أمور البلاد وإدارة العباد وبين ما كان يقوم به ذلك الأمير فعلاً. فعهدُ الطائع إلى فخر الدولة بن ركن الدولة سنة ٣٦٦ هـ بتقليده ما كان أبوه يتقلده في بلاد فارس قطعة أدبية بلاغية فنية ويعطي الانطباع أن أمير المؤمنين إنما قلده ذلك لأنه اختاره اختياراً حراً ولما يتمتع به من صفات حميدة وأخلاق رفيعة ودين متين، إلى جانب مقدرة إدارية وقيادية فائقة. كما وإن العهد يطلق يده إطلاقاً تاماً في جميع الشؤون المالية والإدارية والعسكرية والقضائية وغيرها، ويذكر أسماء الأماكن التي يشملها حكمه: فقلده الصلاة وأعمال الحرب والمعاون والأحداث والخراج والأعشار والضياع والجهبذة والصدقات والجوالي وسائر وجوه الجبايات والعرض والعطاء والنفقة في الأولياء والمظالم وأسواق الرقيق والعيار في دور الضرب والطرز والحسبة في كور همذان واستراباذ والدينور وقرميسين

(1) ابن مسكويه. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٢ - ٣٠٧.

والايغارين وأعمال أذربيجان وأرّان والسحانين وموقان واثقاً منه باستبقاء النعمة واستدامتها والاستزادة بالشكر منها...

ثم يعد ذلك يفصّل له واجباته بأوامر يصدرها له وأولها تقوى الله تعالى وبيان محاسنها في حكم الآخرين وفي حسن تصريف الأمور، وبعد ذلك يأمره باتخاذ كتاب الله العزيز إماماً يقتدي به في تصريف الأمور كبيرها وصغيرها، وأن يحافظ على الصلوات المفروضة وأن يؤديها في المساجد الجامعة مع صلوات الجمعة والعيدين، وأن يراعي أحوال مستخدميه ولا سيما الجند منهم وأن يعاملهم برفق من غير ضعف وخشونة من غير عنف، وأمره أن يسد ثغور المسلمين وأن يعمرها وأن يشحنها بالمقاتلة والمؤن، وأمره بالعدل في الأحكام والنظر في السجون وأن لا يتسرع في تنفيذ حكم الاعدام حتى يحصل على موافقة الخليفة، وأمره أن يعطل ما في أعماله من الحانات والمواخير، وأن يختار خيار الناس وأكفاءهم لتنفيذ هذه المهام. كما وأمره أن ينتبه لمن يجتاز أرضه من العبيد خوفاً أن يكونوا من الآبقين. كذلك أمره أن يضفي على الحكام والقضاة مهابة وذلك بالشد على أيديهم وتنفيذ أحكامهم. وطلب منه الاهتمام بجباية الخراج والعشور بشكل لا يهمل حق بيت المال ولا يعسف على الرعية. كما أمره أن يجلس للشعب جلوساً عاماً أسبوعياً للنظر في شكاياتهم، وأن يوجد جهازاً صالحاً للتفتيش على الموظفين وقطع دابر الغش والتزوير والسرقة ولا سيما في دار الضرب، وأن يراعي الحسبة والآداب الشرعية وأسواق الرقيق[1]...

وبالجملة لم يترك هذا العهد ناحية من نواحي الحكم إلا أكد عليها ونبه عليها ورسم له كيفية السير فيها، بحيث لو أن صاحبنا فخر الدولة نفذ بعضاً منها لارتفع به ذلك إلى مستوى الولاة العظام ولأصبح في العدل قريناً لسيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه. ولكنه عمل بنقيض هذه الوصايا بنداً بنداً.

---

(١) القلقشندي، المصدر المذكور آنفاً. جـ ١٠: ١٥ - ٣١.

وعلى الرغم من أن واردات الخليفة الخاصة تقلصت كل التقلص، وعلى الرغم من هزال ما تدره هذه الواردات إلا أنها كانت عرضة، بين الفينة والفينة، لهجوم يشنه عليها أمير بويهي مفلس. فقد أفلس جلال الدولة ذات مرة وطالبه الجند بالمال، ولم يكن لديه شيء منه فصادر ما جباه وكلاء الخليفة من أموال الجوالي، فشق ذلك على الخليفة وأرسل يعتب على جلال الدولة وينسبه إلى نقضان العهود والعدول عن العقود ويقول... فإن ذكر أن ضرورة دعت إلى ذلك فألا راسلنا على الوجه الأجمل...[1] ولكن ذلك لم يؤد إلى نتيجة واعتذر جلال الدولة عن ذلك بأنه نائب عن الخدمة نيابة لا تنتظم إلا بإطلاق أرزاق العساكر. وقد التجأ جماعة من خدمنا إلى الحريم واستعصم به، حتى أن أحدهم أخذ من تلاعنا في دفعة واحدة تسعمائة بدرة ونحن نمنع من إحضارها [2].

ولقد كانت علاقات البويهيين بعضعم بعضاً سيئة كل السوء وتخللتها الدسائس والحروب والمؤامرات وذلك باستثناء الأخوة الثلاثة المؤسسين ركن الدولة وعماد الدولة ومعز الدولة. ولقد بدأ النزاع بين عز الدولة وعضد الدولة في عهد ركن الدولة والد عضد الدولة. ذلك أن عضد الدولة ساعد ابن عمه عز الدولة في قمع اضطراب قام به الجند ضده في بغداد، فقد أرسل له جيشاً لمساعدته، ولكنه اكتشف ضعف عز الدولة وسوء إدارته وكره الشعب له وعدم ولاء جيشه له فقرر أن يحل محله وأن يطرده من بغداد. ويبدو أن نية عضد الدولة هذه كانت معروفة لدى عز الدولة سابقاً، يدلنا على ذلك خطاب أرسله قبيل ذلك عز الدولة إلى عضد الدولة يعتذر ويتنصل ويبدي الخضوع، وإن المرء ليعجب من صدور مثل هذا الخطاب من ند إلى ند. وعلى الرغم من أن الخطاب قطعة أدبية وفنية رائعة ويحوي نصائح كثيرة تظهر فوائد الألفة ومضار

---

(١) ابن الجوزي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٨: ١١٣ - ١١٤.

(٢) نفس المصدر.

الاختلاف.ويذكر أن دولة آل بويه مبنية على أسس الترافد والتعاضد وموضوعة على قاعدة التوازر والتظافر، وعلى الرغم من أنه هوى إلى الحضيض في استعماله عبارات لا يجوز أن تصدر من حاكم نظير إلى نظير مثله: ولو وقف بي مولانا الملك الجليل قبل أواخر الجفاء وعطف معي على أول شرائع الصفاء لكانت عريكتي عليه ألين، وطريقه إلى ارتباط طاعتي وولائي أقصد...[1]. إلا أن كل ذلك لم يؤثر في عضد الدولة ولم يثن عزمه. ولذلك لجأ عز الدولة، بطريقة حمقاء، إلى أن جعل الخليفة يرسل خطاباً جافاً إلى عضد الدولة يعدد فيه مزايا عز الدولة وتفوقه وسموه مما لا يترك مجالاً للظن أن المقصود بذلك هو عضد الدولة وأن الخطاب كله بيان لسمو منزلة عز الدولة واتضاع منزلة عضد الدولة تجاهه. فقد قال الخليفة بعد كلام طويل:

... رأى (أمير المؤمنين) أن من أوجب الحق عنده وألـزم الأمر له أن يبين عز الدولة أبا منصور بشعار من الاكرام... لا يساويه فيها مساوٍ، إشارة إلى موقعه اللطيف... وتمييزاً له عن الأكفاء، وإيفاءً به على النظراء... فجدد له أمير المؤمنين، مع هذه المساعي السوابق والمعالي السوامق، التي يلزم كل دانٍ وقاصٍ وعام وخاص، أن يعرف له حق ما كرم به منها[2].

ولقد زاد ذلك من حنق عضد الدولة على عز الدولة طمعه في ملكه فأقـدم على احتلال بغداد، وهرب منها بختيار وأهله، ووصل الخبر إلى أبيه ركن الدولة فغضب كل الغضب وقاطع ابنه وقرر حربه وأرسل له رسالة شفوية تفيض بالولاء لأخيه والحرص على ملك أولاد أخيه: خرجت إلى نصرة ابن أخي أو الطمع في مملكته؟ أما عرفت أني نصرت الحسن بن الفيروزان، وهو غريب عني،

(١) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً، جـ ٦: ٥٦٤ - ٥٦٨.

(٢) الصابي، أبو الحسين هلال بن المحسن. رسوم دار الخلافة. تحقيق ميخائيل عواد. بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٤ م. ص ١١٣ - ١٢٠.

مراراً كثيرة... حتى إذا ظفرت وتمكنت من البلاد سلمتها إليه وعدت من غير أن أقبل منه ما قيمته درهم فما فوقه طلباً للذكر الجميل ومحافظة على الفتوة أتريد أن تمن أنت عليَّ بدرهمين أنفقتهما عليَّ وعلى أولاد أخي ثم تطمع في ملكهم[1].

ولكن عضد الدولة أراد أن يصل إلى تسوية سلمية للقضية. فقد أحب بغداد والعراق والسيطرة على الخليفة وأرسل إلى والده مع ابن العميد عدة مقترحات: منها أن يدفع له ثلاثين مليون درهم عن حكم العراق، وذلك بعد أن حاول اقناع والده بضعف بختيار وعجزه عن الحكم، وفي مقابل ذلك لا بأس أن يقطع والده بختيار وأخوته إقطاعات في أملاكه أو في أملاك عضد الدولة في فارس، ومنها أن يستلم والده نفسه حكم العراق ويضع بختيار مكانه في الري، ويختم رسالته بالتهديد بضرب رقاب بختيار وإخوته في حال اضطراره لترك العراق[2].

ولكن والده كان أصلب منه فاضطر عضد الدولة للرضوخ وعاد بختيار إلى بغداد ولكن إلى حين، فما أن مات ركن الدولة حتى عاد عضد الدولة واحتل العراق وضمه إلى ملكه وطرد بختيار وأخوته ولقد بلي عضد الدولة في أولاده بنفس الشيء فقد اختلفوا بعد وفاته وتحاربوا وتصالحوا، وفعل نفس الشيء أحفاده حتى انتهى عهدهم على يد السلاجقة.

ولقد امتازت علاقة البويهيين بالمتغلبين الآخرين بكونها عدائية في الأعم الأغلب. وهذا شيء بديهي في مثل تلك الأوضاع حيث لاوازع لدى الحكام من دين أو أخلاق أو ضمير أو مصلحة عامة أو غيرها، وإنما المحرك الوحيد المصلحة الفردية والمستند القوة المادية والعسكرية، فمتى سنحت الفرصة لأحد المتغلبين انتهزها ضد زميله أو صديقه أو... وإن قصة الحملات العسكرية

---

(١) ابن مسكويه. المصدر المذكور آنفاً، جـ ٢ ـ ٣٥٠.

(٢) نفس المصدر جـ ٢: ١٦٩ ـ ١٧٠.

التي وجهها البويهيون إلى الموصل لإخضاع الحمدانيين تملأ صفحات كثيرة من تاريخنا. ولكن الطريف أن معز الدولة يأخذ على ناصر الدولة الحمداني، في إحدى رسائله، الغدر به والزحف على بغداد في وقت كان فيه معز الدولة مشغولاً في جنوبي العراق... ثم حصلت في يد وزيري الضيمري حصول المستجير الذليل فوفى لك ولو شاء لأسرك واشتمل على بلادك وقلاعك. وظننتُ أنك تعرف لي حق هذه النعمة وتطالب نفسك عليها بالمجازاة فأبيت إلا غدراً وتقبيحاً في معاملتي[1].

وإن جواب ناصر الدولة يكشف الهوة السحيقة التي انحدر إليها القوم آنذاك في أخلاقهم ومعاملاتهم فهو يعتذر ويقول أنك قد صدقت في جميع ما عددت... والله ما كان عن رأيي ولا أمرت به، ولكني شيخ لي أولاد أحداث يخالفونني في تدبيرهم فيركبون الهوى في أمورهم ولا رأي لمن لا يطاع[2].

وإن المرء ليعجب من حاكم ضعيف مخذول مثل عز الدولة تمكن من هزيمة حاكم مسلم أضعف منه وأتفه هو أبو تغلب الحمداني واحتل بلده الموصل فنراه يطبل ويزمر ويصيح ويحتفل وكأنه احتل القسطنطينية، وذلك في رسالة وجهها إلى الخليفة المطيع سنة ٣٦٣ هـ عند احتلاله الموصل. والرسالة قطعة فنية وأدبية وبلاغية ساحرة، ولكن لا شيء ذا غناء فيها ولم تحدث حتى معركة بين الطرفين وإنما انسحب أبو تغلب واحتل عز الدولة الموصل. وأغلب الرسالة تدور حول سلوك أبي تغلب المنافي للإسلام وتحالفه مع الروم وإهدائه إياهم الخيول والسلاح والخمور والصلبان وما ماثل ذلك[3].

كذلك كان عز الدولة مضطرباً في علاقاته مع عمران بن شاهين حاكم البطيحة. فقد حاربه أولاً ثم هُزم أمامه. ولما أحس بخطر عضد الدولة راسل

---

(١) نفس المصدر. جـ ٢: ١٦٩ - ١٧٠.

(٢) نفس المصدر.

(٣) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً جـ ٦: ٤٨٣ - ٤٩٢.

عمران بن شاهين وأخبره باعفائه من متبقي الأموال في ذمته وأرسل له هدية وفرساً وأرسل يخطب إليه إحدى بناته. ويدل جواب عمران على مدى استخفافه بعز الدولة وهوانه عليه. فهو يقبل منه إسقاط الدين المتروك ولكن لا يحمده على ذلك لأنه ساقط، وهو لا يلبس الملابس ولا يركب الفرس وإنما يعطيها لابنه، ويرد طلبه تزويجه إحدى بناته ويقول للرسول: قل له: ينبغي أن تتوقر وتترزن ولا تستعمل هذه الخفة والنزق. فقد قصدتني محارباً فرجعت عني منهزماً، وقصدت الأهواز فرجعت منهزماً... وأنا أعلم أن أمرك سيتأدى إلى أن تجيئني وتلوذ بي وتحصل عندي وسأذكرك هذا [١]... وقد تم ما توقعه عمران.

أما عضد الدولة الذي تمكن أن يوحد تحت سلطته تراث بني بويه فقد التفت إلى إصلاح أوضاع بلاده وتصالح مع صاحب خراسان وآثر الدبلوماسية على الحروب، كما يدل على ذلك الخطاب الذي وجهه له نائبه أبو الفضل الشيرازي لما أخبره عضد الدولة بصلحه مع صاحب خراسان [٢].

وتدل رسالة عضد الدولة إلى بني عقيل على هيبته وعلى سياسته في ضبط الأمور وحماية الأموال والأملاك والطرقات، فقد سرق أحد أفراد بني عقيل أموال الدولة وأخذها لنفسه فطلبه عضد الدولة أشد الطلب حتى ظفر به، وتشفع به بنو عقيل فلم يقبل شفاعتهم وإنما قتله وأرسل يقول لهم: متى لم يضمن أكابركم أصاغركم ويلزموا عهدتهم ويضبطوا الطرق ويحموا مواد الفساد صرفناكم عن ممالكنا [٣].

السلاجقة:

كانت علاقة السلاجقة الأول، وأعني طغرل بك وألب أرسلان وملك شاه،

(١) ابن مسكويه، المصدر المذكور آنفاً جـ ٢: ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٢) القلقشندي، المصدر المذكور آنفاً جـ ٧: ٨٢ ـ ٨٥.

(٣) ابن شجاع، محمد بن الحسين الروذراوري. ذيل تجارب الأمم. تحقيق امدروز. القاهرة، شركة التمدن الصناعية، ١٩١٦ م. جـ ٣ ـ ٥٦.

علاقة هادئة مع خلفاء بني العباس، وذلك عائد لقوة السلاجقة الحكام من جهة، ولشعور الخلفاء العباسيين بالامتنان لآل سلجوق لتثبيتهم دعائم خلافتهم من جهة أخرى، ولم يعكرها سوى بعض الأمور الطارئة. ولكن وفاة ملك شاه وانقسام إمبراطوريته بين أولاده كان إيذاناً بافتتاح عهد من أسوأ عهود التاريخ الإسلامي حروباً وثورات وانقساماً ومعارك وتطاحناً؛ ولم يل عرش آل سلجوق سلطان قوي ولذلك نشب نزاع مرير جداً بين سلاطين آل سلجوق وبين خلفاء بني العباس وأخص بالذكر المسترشد والراشد. ولقد كان من الممكن أن يتغير مجرى التاريخ الإسلامي العباسي لو قيض لأحد هذين الخليفتين أن ينتصر في حروبه ومعاركه ضد السلاجقة، ولكنهما انهزما ولاقيا حتفيهما في ظروف وصفت أنها غامضة. ثم ضعف آخر السلاجقة كل الضعف وتمكن خلفاء بني العباس أن يستقلوا بحكم بغداد وقسم من العراق، وظلوا أحراراً في حكمه حتى سقوط بغداد بيد المغول.

ولقد كان الشغل الشاغل لطغرل بك بعد القضاء على ثورة أخيه في خراسان إعادة الخليفة القائم إلى سدة خلافته والقضاء على البساسيري، ولذلك أرسل إلى قريش بن بدران، وهو الأمير البدوي الذي ثار ضد الخليفة مع البساسيري، يعرض عليه توليته العراق بأسره لقاء إتيانه بالخليفة سالماً معززاً مكرماً، أو السماح لمن يرسله طغرل بك أن يأتي بالخليفة في أمان. وهو قد أظهر احتراماً تاماً لقريش وبدأه الخطاب بقوله: إلى الأمير الجليل علم الدين أبي المعالي قريش بن بدران[1].

ولقد حاول قريش أن يجر المغانم لنفسه وأن يضمن العفو عن جريمته ولذلك أجاب طغرل بك بالخضوع، وبنفس الوقت كتب إلى ابن عمه مهارش ـ الذي

---

(١) ابن الجوزي، المصدر المذكور آنفاً، جـ ٨: ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

أضاف الخليفة لديه ـ يطلب منه أن يسلمه الخليفة حتى يمكنه المساومة عليه وجر المغانم له ولابن عمه ولكن ابن عمه رفض ذلك (١).

ولقد تعكر صفو العلاقات بين طغرل بك والقائم، وذلك إثر رفض الخليفة تزويج ابنته من طغرل بك الذي خطبها إلى أبيها، وحدث اضطراب في بغداد وأوشكت الفتنة تنشب أظفارها، وكذلك استاء طغرل بك من هذا الرفض وأرسل إلى قاضي القضاة يقول: هذا جزاء من الخليفة الذي قتلت أخي في خدمته وأنفقت أموالي في نصرته وأهلكت خواصي في محبته (٢).

ولقد وقعت نفرة بين ملك شاه والخليفة المقتدي فطلب ملك شاه من الخليفة أن يغادر بغداد فوراً، وعلى الرغم من أن الخليفة طلب الإمهال شهراً إلا أن السلطان رفض ذلك، ثم توسط الوسطاء بين الطرفين فأمهله مدة، وتوفي السلطان قبل انتهاء الأجل (٣).

كذلك نشب خلاف بين المستظهر وبركياروق: ذلك أن هذا الأخير ضاقت أحواله المادية فقرر مصادرة وزير الخليفة الغني ابن جهير. ولكن الخليفة أرسل إلى بركياروق يقول: ... فلا يغرك إمساكنا عن مقابلة الفلتات،فوحق السالف من الآباء المتقدمين بحكم رب السماء لئن قصر في أن يعاد شاكراً وبالحباء موفوراً لنفعلن (٤).

ولقد حاول المسترشد التحرر من وصاية السلاجقة، وصدف أن نشب خلاف بين السلطان السلجوقي مسعود وبين ثلاثة من أبرز قواده فانفصلوا عنه وأرسلوه للخليفة يحرضونه على الخروج معهم ويعدونه النصرة، ووافق المسترشد على ذلك وأرسل يقول لهم: كونوا على ما أنتم عليه فأنا صائر إليكم (٥).

(١) نفس المصدر جـ ٨ ـ ٢٠٦.
(٢) ابن الأثير، المصدر المذكور أنفاً جـ ١٠ ـ ٢٢.
(٣) ابن الجوزي، المصدر المذكور آنفاً جـ ٩ ـ ٦٢.
(٤) نفس المصدر جـ ٩ ـ ١١٢.
(٥) نفس المصدر، جـ ١٠: ٤٣ ـ ٤٤.

ولقد حاول المسترشد ضرب السلاجقة بعضهم ببعض فاتفق أولاً مع السلطان محمود ضد طغرل، ولكن السلطان سنجر سلطان خراسان وعم السلاطين المتنازعين أدرك نية الخليفة وأرسل إلى محمود يحذره الخليفة ويقول له: أنت يميني والخليفة قد عزم على أن يمكر بي وبك، فإذا اتفقتما عليَّ فرغ مني وعاد إليك فلا تلتفت إليه (١).

ولقد نشبت الحرب بين الخليفة المسترشد وحزبه والسلطان مسعود، وهُزم الخليفة وأسر هو نفسه، ويبدو أنه حدثت، في نفس الوقت الذي كان فيه الخليفة مأسوراً لدى السلطان مسعود، عوارض طبيعية من رياح وعواصف وبروق وزلازل حتى خاف السلطان سنجر من هذا الوضع وأرسل إلى ابن أخيه يطلب منه اطلاق سراح الخليفة وإعادته إلى مستقر عزه وأن يسلم إليه دبيساً، ويطلب إليه التعجيل وأن ينصب له السرادق ويحمل له الغاشية كما كان يفعل سلاطين السلاجقة السابقون مع الخلفاء الماضين (٢).

وهذا الكتاب وحده دليل قاطع على ما تأصل في أذهان الناس آنذاك من قدسية الخلافة العباسية وحمايتها حماية أزليه من الله تعالى، وإن كل ما حدث انذار رباني لمن مس قدسية الخليفة أدنى مساس حتى يرعوي عن غيه ويثوب إلى رشده، كما وأن سنجر يذكر في رسالته أن العساكر تغيرت عليه وامتنع الناس عن الصلاة في الجوامع وكسرت المنابر مما يعزز رأينا في تعزز وتأصل فكرة الحماية الإلهية للخلافة العباسية وإن كل من مسها بسوء قصمه الله، مما سيكون له أثر واضح في موقف الخليفة المستعصم من هولاكو بعد فترة ليست طويلة.

وعلى الرغم من أن الخليفة المسترشد أطلق سراحه إلا أنه اغتيل بيد الباطنية وحل محله الراشد الذي تابع النضال ضد البيت السلجوقي. فقد أرسل السلطان

---

(١) نفس المصدر جـ ٩: ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٢) نفس المصدر، جـ ١٠: ٤٧ - ٤٨.

مسعود جيشاً إلى بغداد ليحصل من أهلها خمسمائة ألف دينار وليحصل من الراشد سبعمائة ألف دينار كان المسترشد تعهد بدفعها له، ولكن الخليفة رفض مطاليب قائد الجيش وأرسل يقول له: أما الأموال المضمونة فإنما كانت لإعادة الخليفة إلى داره سالماً وذلك لم يكن وأنا مطالب بالثأر. وأما مال البيعة فلعمري إلا أنه ينبغي أن تعاد إليَّ أملاكي وأقطاعي حتى يتصور ذلك. وأما ما تطلبونه من العامة فلا سبيل إليه، وما بيننا إلا السيف[1].

ولسوء الحظ هزم الراشد وحزبه ودفع هو دمه ثمناً لذلك.

كذلك ساءت العلاقات بين المقتفي الذي خلف الراشد والسلطان مسعود وذلك فور تسلمه الخلافة. ذلك ان السلطان كان شرهاً إلى المال وبحاجة إليه، فأرسل يطالب الخليفة بمائة ألف دينار، ولكن الخليفة أجابه أنه لا يمتلك درهماً واحداً وذلك لأن السلطان أخذ جميع محتويات دار الخلافة بما فيها الأثاث، وتصرف بدار الضرب ودار الذهب والتركات والجوالي. ولذلك ليس أمامه إلا أن يسلم الدار للسلطان، لأن الخليفة عاهد الله أن لا يأخذ حبة واحدة ظلماً[2].

ومن المشاكل التي تعرض لها البيت السلجوقي مشكلتان: الأولى منهماتتعلق بتحديد صلاحيات الوزراء، والثانية مشكلة الباطنية الذين استفحل أمرهم كل الاستفحال وأصبحوا خطراً كبيراً.

ولقد كانت المشكلة الأولى تطل برأسها حين وجود وزير قوي يستبد بالأمور ويحاول السلطان إيقافه عند حده. وهذا ما حصل بين نظام الملك والسلطان ملك شاه، ذلك ان الملك سلم المناصب الهامة لأولاده وأحفاده وأنصاره. وصدف أن أساء أحدهم معاملة أحد خلصاء السلطان، وهناك كثيرون، ولا بد، حرضوا السلطان ضد الوزير ودسوا لديه عليه وأوغروا

---

(١) نفس المصدر جـ ١٠ ـ ٥٤.

(٢) نفس المصدر جـ ١٠ ـ ٦٦.

صدره ضده حتى أرسل إليه رسالة يطلب منه، باعتباره نائبه لا شريكه، أن يلزم حد التبعية. ولكن نظام الملك الذي آلمه جحود السلطان ونكرانه لجهوده في خدمة البيت السلجوقي أجاب جواب إنسان معتد بمركزه: إن كنت ما علمت أني شريك في الملك فاعلم فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيري ورأيي... قولوا له عني: أن ثبات تلك القلنسوة معذوق بهذه الدواة... فإن عزم على تغيير فليتزود للاحتياط قبل وقوعه(١).

وإن المرء ليعجب لجرأة هذا الوزير وصدق حدسه إذ لم يمض أسبوعان على اغتيال نظام الملك حتى مات ملك شاه.

وأما قضية الباطنية فهؤلاء انتشروا في طول البلاد الإسلامية وعرضها: في سورية والعراق وبلاد خراسان وفارس وما وراء النهر، وكان مركزهم الرئيسي قلعة الموت في فارس. وقد حاربهم جميع الملوك على درجات متفاوتة من النجاح. ولقد تمكن السلطان محمد السلجوقي سنة ٥٠٠ هـ من احتلال قلعة شاه ذر وأستأصل الباطنية منها، وهي من أضخم قلاع الباطنية وأقواها وأمنعها، وكان الباطنية فيها برئاسة ابن عطاش يؤذون المسلمين إيذاءً شديداً فتمكن السلطان محمد من فتحها وأرسل خطاباً إلى وزير الخليفة يبشره بذلك ويذكر له كيف تم الفتح وكيف أسر ابن عطاش وصُلب فيما بعد وكيف هدم القلعة. ولكن الملاحظ هنا هو وجود موظفين لدى السلطان على مستوى عالٍ كان ضلعهم مع الباطنية وكانوا ينقلون إليهم الأخبار حتى اضطر السلطان إلى الخلاص منهم والبطش فيهم(٢).

كذلك أرسل السلطان محمد نفسه رسالة إلى ألب أرسلان بن رضوان ملك

---

(١) ابن الأثير، المصدر المذكور آنفاً جـ ١٠: ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٢) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة. ذيل تاريخ دمشق... تحقيق أمدروز. بيروت مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨ م. أعادت مكتبة المثنى ببغداد طبعه بالأوفست. ص ١٥٢ - ١٥٦.

حلب يطلب منه فيها أن يقتل الباطنية ويقول له : كان والدك يخالفني في الباطنية وأنت ولدي فأحب أن تقتلهم[١] .

ولقد تشبه السلطان محمد السلجوقي بالخلفاء فأصدر العهود بتولية الحكام للأقاليم. من ذلك مرسومه باطلاق يد طغتكين في بلاد الشام سنة ٥١٠ هـ . والملاحظ أن طغتكين كان أتابكاً لأمير سلجوقي في دمشق ثم اغتصب الحكم منه ، ولذلك كان يهمه أن يصدر مثل هذا التقليد عن سلطان سلجوقي حتى يضفي صفة الشرعية على ملكه ، علماً أن هذا المرسوم ليس له أية قيمة عملية سوى ما ذكرنا ، لأن كل ما ورد في المرسوم كان طغتكين قد حصل عليه سابقاً . كذلك تشبه السلطان بالخلفاء من حيث توصياته لطغتكين وأوامره له بتقوى الله تعالى وشحن الثغور وجهاد العدو والصبر عند اللقاء . وأن يوطد الأمن في بلاده وأن يرفق برعاياه أتم رفق ويرعاهم أحسن رعاية وأن يعدل بينهم ، إلى غير ذلك من الأمور [٢] .

الغزنويون :

الغزنويون هم الحكام الذين جعلوا غزنة عاصمة لهم وحاربوا آل سامان في خراسان وحلوا محلهم في حكمها. وإن أبرز وجه عندهم هو السلطان محمود الغزنوي صاحب الغزوات المشهورة في الهند وغيرها . وهو الذي حطم بيوت الأصنام وأخمد أماكن النيران وجاهد في الله حق جهاده وجعل الهند مكاناً طيباً لفتوحاته وحروبه. وقد كان من أهل السنة والجماعة ولذلك كان يهمه كسب تأييد الخليفة العباسي ورضاه وشرعيته. وتدل رسالته التي أرسلها إلى الخليفة القادر بالله لما فتح خراسان وأزال حكم ورسم آل سامان عنها على هذه الروح .

---

(١) ابن العديم. زبدة الحلب من تاريخ حلب. تحقيق سامي الدهان. دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٥١ م. جـ ٢ - ١٦٨ .

(٢) ابن القلانسي. المصدر المذكور آنفاً. ١٩٣ - ١٩٧ .

فقد أنهى حكم السامانيين وذلك بعد حروب متصلة. وصور في خطابه الحرب والفرق والقواد وتوزع الجنود أفضل تصوير. كما وأنه أظهر نفسه وجنده بمظهر المؤيدين بالعناية الربانية. أما الطرف الآخر ففاجر داعر. ولذلك كانت النتيجة حتمية وصفت بلاد خراسان كلها لحكم محمود الغزنوي: وكتابي هذا وقد فتح الله تعالى لمولانا أمير المؤمنين بلاد خراسان قاطبة وجعل منابرها تذكر اسمه متباهية وكلمة الحق عالية [١] ...

كذلك تابع محمود الغزنوي بعد ذلك رسائله إلى الخليفة القادر يبشره فيها بفتوحاته في الهند ويفصل كيفية سير الحملات وعدد الفرسان والرجالة والفيلة ويذكر انتصاراته وعدد من اعتنق الإسلام من الوثنيين [٢]. والملاحظ في رسائل السلطان محمد إلى الخليفة القادر مبالغة لاندري كيف نعللها. ففي إحدى رسائله يذكر فتحه قلعة كبرى في الهند تتسع لخمسمائة ألف إنسان وخمسمائة فيل وعشرين ألف دابة [٣]. ولكن الأعجوبة حقاً هو الطائر الذي تدمع عيناه إذا كان موجوداً في مكان وقدم في ذلك المكان طعام مسموم. وهذا الطائر إحدى هدايا ملك تلك القلعة للسلطان.

والشيء الذي يذكر لهذا السلطان بالتقدير العظيم هو تحطيمه الأصنام وإيمانه المطلق والصحيح بالله تعالى وحده؛ هذا الإيمان الذي جعله لا يعبأ بما تردد عن الصنم سومنات من معجزات وذلك على الرغم من أن كثيراً من الناس فتنوا به وكانوا يقصدونه من كل فج عميق من أجل الكرامات، ولذلك قصده بالرغم من المشقة الهائلة التي لقيها في الطريق والصعوبات التي صادفها حتى وصله وهناك تمكن من تحطيمه وتخليص الناس من عبادة الوثن [٤].

---

(١) الصابي، أبو الحسين. المصدر المذكور آنفاً. ٣٤١ - ٣٤٥.

(٢) ابن الجوزي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٧: ٢٩٢ - ٢٩٣.

(٣) نفس المصدر. جـ ٨ - ١٣.

(٤) نفس المصدر. جـ ٨: ٢٩ - ٣٠.

كذلك لم ينس محمود جهاد الباطنية وكان له باع طويل في حربهم واستئصالهم كما فعل في الري ٤٢٠ هـ عندما اعتقل رؤوسهم وعامتهم وجلتهم وصلبهم على جانبي شوارع الري وأراح الناس من شرهم[١] .

فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين من ملك مجاهد عظيم له أيادٍ بيضاء في نصر الإسلام والمسلمين وقمع الزنادقة والباطنية والملحدين.

ولم يتميز أحد من خلفائه بشيء من مقدرته أو ذكائه أو حيويته وبعد فترة زالت مملكته وورثها السلاجقة. وهكذا حال الدنيا حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

المغول:

المغول أقوام من العنصر الأصفر أصلهم من منغوليا وإليها ينسبون، وقد أصبحوا قوة كبرى في أواخر القرن السادس الهجري على يد زعيمهم جنكيز خان، ثم بعد ذلك بدأوا بالتوسع غرباً فكانت البلاد الإسلامية المسرح الرئيسي لنشاطهم، وبلغ نشاطهم ذروته في سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ على يد هولاكو، واحتلوا العراق وتقدموا غرباً فاحتلوا سورية وهددوا مصر، ولكن معركة عين جالوت أنقذت العالم كله من شرهم فهزم المغول لأول مرة في التاريخ وتراجعوا عن سورية وتمركزوا في العراق وما وراءها من البلاد.

ولقد كان المغول منظمين حتى في تخريبهم وتدميرهم وهمجيتهم وكان همهم إيجاد إمبراطورية وحكمها حكماً وراثياً. وكانوا يعتقدون أنهم نواب رب السماء كما كان يدعي جنكيز خان في مفتتح رسائله إلى الملوك. من نائب رب السماء ماسخ وجه الأرض ملك الشرق والغرب قان قان[٢] .

---

(١) نفس المصدر. جـ ٨ : ٣٨ ـ ٤٠ .

(٢) ابن كثير، إسماعيل. البداية والنهاية في التاريخ. القاهرة، المطبعة السلفية، ١٩٣٢ م. جـ ١٣ ـ ١٥٦ .

كذلك أحس المسلمون بخطرهم الداهم وأنهم يقصدون إبادة العباد وتخريب البلاد. فقد ورد في رسالة أرسلها أحد تجار الري، وهو مجهول الاسم، إلى أصحابه بالموصل سنة ٦٢٧ هـ يحذرهم الاستخفاف بالمغول ويقول لهم: لا تظنوا أن هذه الطائفة التي وصلت إلى نصيبين والخابور... كان قصدهم النهب، إنما أرادوا أن يعلموا هل في البلاد من يردهم أم لا، فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من ممانع ومدافع... فقوي طمعهم وهم في الربيع يقصدونكم وما يبقى عندكم مقام، إلا إذا كان في بلد الغرب، فإن عزمهم على قصد البلاد جميعها، فانظروا لأنفسكم [١].

ولقد افتتح هولاكو حملاته على بلاد فارس والعراق بقصد قلاع الملاحدة كألموت وغيرها ووجه نداء إلى جميع حكام إيران ـ ومن جملتهم الخليفة العباسي ـ طالباً منهم، بناء على أمر القرآن أن يمدوه بالجيوش والمساعدة لإخضاع هذه القلاع واستئصال هذه الطائفة [٢]. ولقد نقم هولاكو على الخليفة عدم تلبية طلبه بهذا المناسبة. ولما زحف سنة ٦٥٥ هـ إلى بغداد أرسل قبل الحرب رسالة له يهدده ويعاتبه على عدم تلبية طلبه ويطلب منه الخضوع. ولم يفت هولاكو أن الخليفة سليل أسرة عريقة أعرق من أسرته، ولذلك قال له: ومهما تكن أسرتك عريقة وبيتك ذا مجد تليد، فإن لمعان القمر قد يبلغ درجة يخفي معها نور الشمس الساطعة. ثم يذكر له ما فعله الجيش المغولي من عهد جنكيز خان حتى عهده هو بالأسر السلجوقية والخوارزمية والأتابكية وغيرهم، ويختم رسالته بطلب حضور الخليفة شخصياً لمقابلته، وإذا تعذر ذلك فليرسل

---

(١) ابن الأثير. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١٢ ـ ٥٠٣.

(٢) الهمذاني، رشيد الدين فضل الله. جامع التواريخ... تعريب محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد. القاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي. جـ ٢، ق ١ ـ ٢٤٠.

الخليفة عنه الوزير وسليمانشاه والدواتدار ليبلغوا الخليفة رسالة هولاكو له، ويعده، في حال خضوعه، بإبقاء حكمه وملكه له وعدم التعرض لدولته وينذره الدمار والفناء والموت إن عصى(١).

ويدل جواب الخليفة له على نفسية شخص واثق من نفسه كل الثقة وأن العناية الإلهية التي حرست الخلافة العباسية أكثر من خمسمائة سنة ستحرسها الآن، وسيقيض لها من ينقذها من محنتها كما أنقذها سابقاً. ويقول له: إن كل فرد يؤمن بالله، مهما تكن رتبته أو جنسه أو عمره أو مهنته، جندي له، وإنه إذا أشار اجتمع الجميع تحت إشارته ولبوا نداءه، ويبدي له أنه مستعد للحرب والطعان(٢). وعلى الرغم من غضب هولاكو لهذه الرسالة إلا أن الخليفة أرسل له رسالة ثانية يؤكد فيها حقه وأن العناية الإلهية الربانية تكلؤه وترعاه، وأنه كلما هجم باغٍ على الخلافة لإزالتها أنقذها الله من براثينه وقيض لها من ينصرها، وإن هذا البيت باق إلى يوم القيامة. وهو يذكره بحوادث التاريخ العباسي من لدن عهد الصفار والبساسيري إلى السلطان محمد السلجوقي إلى خوارزمشاه، وما حاولوه من عدوان وكيد وكيف أن الله تعالى دمرهم تدميراً. ونحب أن نؤكد هنا أن هذه المعلومات والمراسلات لا وجود لها في المصادر العربية وإنما نستمدها من كتاب الهمذاني الذي ألف أصلاً بالفارسية ونقل إلى العربية. كما وأن الخليفة يرتكب بعض الأخطاء التاريخية فيما يتعلق بالصفار والبساسيري، ومع ذلك يبدو لنا أن الخليفة كان مقتنعاً كل الاقتناع بذلك وأن العناية الإلهية تحرسه وستنقذه من براثن هولاكو. ولكنه كان مخطئاً في ذلك هذه المرة ودفع هو وأسرته وأهل بغداد والمسلمون جميعاً ثمناً باهظاً جداً لهذا التواكل والتخاذل.

---

(١) نفس المصدر. جـ ٢، ق ١: ٢٦٧ - ٢٦٨.

(٢) نفس المصدر. جـ ٢، ق ١: ٢٦٩ - ٢٧٠.

العصور الفاطمية والأتابكية والأيوبية

٢٩٥ هـ ـ ٦٥٠ هـ

ان الهدف من هذه الدراسة إلقاء بعض الأضواء على الوثائق السياسية والادارية في العصور الفاطمية والأتابكية والأيوبية. وهي فترة من أخطر فترات التاريخ الإسلامي وأحفلها بالتطورت الهامة جداً في التاريخ الإسلامي في عصوره الزاهية.

ذلك ان العصر الفاطمي عاصر عهود الضعف والتجزؤ في الدولة العباسية. واستفاد من الظروف التي كانت آنذاك سائدة، وتمكن الفاطميون أن يؤسسوا دولتهم القائمة على المذهب الشيعي في شمالي افريقيا اولاً ثم في مصر، وتمكنوا خلال فترة ليست بالطويلة أن يوسعوا حدود البلاد الخاضعة لحكمهم لتشمل بلاد الشام كلها ومصر وقسماً مهماً من شمالي افريقيا؛ بل أنهم هددوا الخلافة العباسية نفسها في عاصمتها بغداد حيث خُطب للمستنصر بالله الفاطمي هناك لمدة تقارب السنة، وكان ذلك في اواسط القرن الخامس الهجري ورافق احتلال السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ. ولكن أعقب هذا المد جزر سريع، اذ ظهر السلاجقة الأتراك الذين ما لبثوا أن اعتنقوا الإسلام على المذهب السني فأعادوا تفوق السنة على الشيعة، واحتلوا القسم الشرقي من الإمبراطورية الإسلامية ودخلوا بغداد سنة ٤٤٧ هـ. بقيادة طغرل بك، ولم يلبثوا أن أصبحوا القوة الرئيسية في دنيا الإسلام، وانتزعوا سورية من يد الخلافة الفاطمية وهددوا الخلافة الفاطمية في عقر دارها، ثم حدثت تطورات سريعة وكثيرة أضعفت من

قوة الاندفاع السلجوقي ومكنت الخلافة الفاطمية من أن تسترد أنفاسها. واقتصرت هذه الخلافة على مصر وحدها، مع جزء من فلسطين الحالية بعض الأحيان. وضعف الخلفاء وسيطر عليهم وزراؤهم العظام من أمثال بدر الجمالي وابنه الملك الأفضل. وظل هذا الوضع سائداً حتى نهاية التاريخ الفاطمي.

كذلك شاهدت هذه الفترة بداية الحملات الصليبية على بلاد الإسلام بقصد احتلال هذه البلاد وابادة سكانها واقتلاع الإسلام منها كدين وحضارة. ونحن وان كنا لا نعتقد أن الحروب الصليبية بدأت ضد الإسلام آنذاك، إذ أنها بدأت أبكر من ذلك بكثير، إلا أن طبيعة الحوادث تجعلنا نطلق على هذه الحملات التي بدأت سنة ١٠٩٥ م. وانتهت سنة ١١٩٢ م. اسم الحروب الصليبية كشيء متميز عن الحروب السابقة التي شنت على الإسلام. وكشيء متميز عن الحروب اللاحقة التي شنت ولا تزال تشن على الإسلام. ذلك أن لها طبيعة خاصة وصفة مميزة: وهي أن اوربا كلها حشدت كل إمكاناتها وطاقاتها الروحية والعسكرية والبشرية والاقتصادية لاقتلاع الإسلام من جذوره الأساسية. على حين أن الحملات السابقة كانت مشاركة أوربا فيها أقل. كما وان دوافع أخرى - وقومية وسياسية واستراتيجية - شابت الهدف الأوربي الصليبي والحملات الصليبية التي هاجمت العالم الإسلامي فيما بعد ولا تزال.

ولما كانت الحروب الصليبية - بمعناها الاصطلاحي الضيق المتخصص - حدثاً هاماً جداً في دنيا الإسلام، وأحدثت هزة عنيفة كل العنف في العالم الإسلامي، وكان لها نتائج واسعة جداً، لذلك فقد رأينا أن نخصص لها حيزاً خاصاً منفصلاً، ولا سيما وإن الوثائق والنصوص المتعلقة بها مهمة كل الأهمية وغزيرة كل الغزارة، بجانب أن هذه الحروب عاصرت أربعة عهود إسلامية هي: العهود الفاطمية - السلجوقية والأتابكية والأيوبية والمملوكية. ولذلك فلن يكون في امكاننا هنا الإتيان بشيء له علاقة بهذا الموضوع الهام.

أما الدولة الأتابكية، وهي الدولة التي أسسها زنكي عماد الدين في شمال

العراق، وبلغت ذروتها في عهد ابنه نور الدين، فهي مهمة جداً ولها آثار رائعة في التاريخ الإسلامي. ذلك أنها سجلت بداية تجمع القوى الإسلامية ووقوفها ضد الصليبيين، وهي التي وضعت الأساس لانتصارات صلاح الدين والظاهر بيبرس وقلاوون ضد الصليبيين. كذلك افتتحت عهد التوحيد والوحدة في العالم الإسلامي، ذلك العهد الذي كان من أبرز نتائجه اندماج سورية ومصر في دولة واحدة استمرت عدة قرون، والقضاء على الدولة الفاطمية وإعادة مصر إلى أحضان أهل السنة والجماعة. وإن عهد نور الدين مهم جداً في هذا الناحية، لأنه وضع الأسس التي سار عليها صلاح الدين بحيث يمكن القول بسهولة أن عظمة صلاح الدين وإنجازاته وضع أساسها وغرس بذورها نور الدين.

ولقد تابعت الدولة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين الخط الذي رسمه نور الدين. فقد تمكن صلاح الدين أن يحوز ميراث نور الدين بكامله وتمكن ان يعيد للإسلام شبابه وحيويته في معاركه المظفرة ضد الصليبيين، وأن يتوج ذلك بتحرير القدس. كذلك استطاع أن يقف بوجه رد فعل أوربا العسكري البالغ العنف ضد الإسلام المتمثل بما يسمى بالحملة الصليبية الثالثة، وأن يحطم أغلب هذه الحملات ويحتفظ بقسم مهم من الأراضي المحررة. كذلك ناصر صلاح الدين مذهب أهل السنة وحارب المذهب الشيعي وتابع خلفاؤه هذا الخط المزدوج طوال تاريخهم حتى أواسط القرن السابع الهجري عندما زالت أغلب دويلاتهم، وحلت محلها دولة المماليك البحرية.

ولقد شاهد العالم الإسلامي، ولا سيما القسم الشرقي منه، الغزو المغولي المريع الذي كان أكبر كارثة أصابت العالم الإسلامي عبر تاريخه الطويل، ولقد تعاصر هذا الغزو المغولي مع الحروب الصليبية واستمر بعدها. ولقد استمر الزحف المغولي المدمر يجتاح بلاد الإسلام حتى تمكن السلطان قطز رحمه الله من إيقاف هذا السيل الجارف المدمر أثر انتصاره العظيم عليهم في معركة عين جالوت في فلسطين سنة ٦٥٨ هـ. وتمكن بذلك أن يدفع شرهم عن مصر وأن يستنقذ بلاد الشام

من براثنهم. على حين ظـل العـراق ومـن ورائـه إيـران ومـا وراء النهـر تحت الإحتلال المغولي. ولقد تكرر غزوات المغول لبلاد الشام فيما بعد، وردهم ملوك المماليك مرة بعد مرة حتى اعتنق ملوكهم الإسلام في أواسط القرن الثامن الهجري فخفت حدة العداء، ولكن لم تنقطع الحروب. وآخر هذه الغزوات المغولية المدمرة غزوة تيمورلنك الذي فعل الأفاعيل في كل مكان حل به. ولن يكون بإمكاننا هنا أن نأتي بوثائق تتعلق بالمغول وغزواتهم، وذلك لغزارة المادة وأهمية الموضوع وضيق المجال هنا؛ ولـذلـك سنخصـص حيـزاً منـاسبـاً لهذا الموضوع عند بحثنا الوثائق المتعلقة بالغزو الصليبي للعالم الإسلامي.

أهمية الموضوع:

ولقد أثبت الواقع ـ واقع البحث ـ أن الوثائق مهمة جداً. بل لا نغالي إذا قلنا أنها العمود الفقري لكل بحث رصين أصيل. إذ لا يمكن القيام بالأبحاث الأصلية الرصينة دون وجود وثائق يمكن الرجوع إليها. وهذا الشيء صحيح في جميع الموضوعات، سواء أكانت تاريخية أم علمية أم أدبية...

ولسوء الحظ فإن الوثائق في العالم العربي قليلة كل القلة، وقسم كبير منها دمره الجهل والإهمال وسوء الاستعمال، ولا سيما في العصور الغابرة حيث لم يكن القوم يدركون أهمية مثل هذه المواد فأهملوها إهمالاً أدى إلى تلفها تلفاً كلياً. ولم يبدأ الاهتمام بالوثائق وجمعها ودراستها إلا في العصور الحديثة. وأول من اهتم بجمع وثائقنا وتراثنا بشكل عام هم الأوربيون الذين أغاروا، منذ أواخر القرن الثامن عشر، على العالم العربي الإسلامي الغارق في سبات دونه سبات أهل الكهف، وبدأوا التنقيب والجمع والدراسة والشحن إلى أوربا. وإذا قدر لأحدنا أن يزور أحد متاحف اوربا أو إحدى مكتباتها أو إحدى دور محفوظاتها، فإنه سيجد ان الوثائق المأخوذة من العالم العربي سواء أكانت لوحات فخارية أم أوراق بردى أم مخطوطات تملأ تلك المؤسسات الثقافية، وتشكل أوفى وأجمل وأثمن مجموعة مما تمتلكه تلك المعاهد من وثائق، على حين ان معاهدنا ومؤسساتنا

الثقافية خلو أو تكاد تكون خلوة من مثل هذه النفائس. فالمتحف البريطاني في لندن يمتلك أثمن وأضخم وأكمل مجموعة من اللوحات الفخارية المستخرجة من بلاد الرافدين بخاصة. كذلك تمتلك مكتبته مجموعة رائعة من أوراق البردى المكتشفة في أرض النيل. وهي تمتلك مجموعة رائعة جداً وثمينة جداً ونادرة كل الندرة من المخطوطات العربية والفارسية والتركية وحتى الصينية. والشيء نفسه صحيح لبقية المؤسسات العلمية الأوربية والأمريكية كالمكتبة الأهلية في باريس وكالمكتبة الأهلية في فيينا وبقية مكتبات العالم الأوربي.

وهذا الوضع طبيعي بالنسبة للعالم العربي الإسلامي. ذلك ان هذا العالم غرق في جهل وظلام وفساد وتفسخ وتقسم وضعف سياسي واقتصادي وفكري فترة طويلة من الزمن، ولم يستيقظ من غفلته إلا مؤخراً. ولذلك لم يكن هذا العالم في وضع يمكنه من اكتشاف تراثه والحفاظ عليه. وكان الأوربيون آنذاك متعلمين وأقوياء ومهتمين بمثل هذه الموضوعات، وكانوا بدأوا الإغارة على الشرق لاحتلاله واستعباد شعوبه واستثمار خيراته. ولذلك فمن البدهي أن يبدأ القوم بدراسة الشرق واستكشافه ومعرفة كنوزه حتى يتمكنوا من معرفة مواطن الضعف فيزيدوها ضعفاً، وحتى يتمكنوا من معرفة مواطن القوة فيضعفوها. وهكذا فقد استكشف القوم الشرق واستغلوه ودرسوه أفضل دراسة ممكنة وجمعوا ما وصلت أيديهم إليه من تراثه ونقلوه إلى بلادهم. وكان موقفهم في هذا المجال موقف من يمتلك بقرة حلوباً اهتم بها لا لمصلحتها بل لمصلحته الخاصة به.

ـ وعلى الرغم من أن الوضع، بالنسبة لسرقة التراث والوثائق، قد تغير الآن عما كان عليه في السابق، إلا أن الصورة لم تتغير كثيراً في بلاد العرب. ذلك أن الجهل لا زال مسيطراً على نسبة كبيرة من أبناء هذا الشعب العربي، كما وأن عدم الاستقرار السياسي والنضال ضد الاستعمار، وتخصيص موازنات ضخمة للدفاع ضد العدو الإسرائيلي، وعدم انتباه كثير من الحكام والمثقفين إلى أهمية

الوثائق وحفظها والعناية بها، أدى ولا زال مؤدياً إلى عدم اعطاء موضوع الوثائق والعناية بها حقه من الرعاية والعناية والاهتمام التي تتناسب مع أهميتها الفائقة.

صعوبة الموضوع:

ولذلك، وفي ضوء ما تقدم، يستطيع القارىء أن يدرك الصعوبات التي تكتنف مثل هذه الموضوعات. ذلك أن الوثائق الأصلية مفقودة كلياً، ولا سيما بالنسبة للفترة التي نقوم بدارستها هنا. وإذا وجد بعض الوثائق الأصلية، فهي محفوظة في دور المحفوظات والوثائق الأوربية، ولذلك اضطررنا إلى الاعتماد على ما ورد في كتب التراث من شذرات هنا وهناك، فجمعناها ورتبناها ونسقناها وقدمناها للدارسين والباحثين حتى تكون تحت تصرفهم يستطيعون درسها ونقدها وردها أو الاعتراف بها وبصحتها وغير ذلك، مما يخرج عن حيز ونطاق هذه الدراسة.

- وطبعاً لا يمكن اعتبار هذه الوثائق أصلية. ولكن عند فقدان الوثائق الأصلية، فإن الباحثين مضطرون إلى الاعتماد على صور عن هذه الوثائق. وبعد دراستها وتسليط أنوار النقد التاريخي المنهجي عليها، وبعد النقد الداخلي لمحتوياتها يمكن القطع بصحتها وأصالتها، واطراحها وإهمالها.

- ولكن حسبنا أن نقوم بهذا العمل لنسد ثغرة من الثغرات الكبيرة الموجودة في حقل الوثائق التاريخية الإسلامية ودراستها.

مصادر الوثائق:

ان ما سبق يقودنا إلى الكلام، بشكل منطقي، عن مصادر هذه الوثائق. ذلك أننا حصلنا على صور عن هذه الوثائق من كتب التراث التاريخي.

والواقع أن التراث التاريخي الإسلامي ضخم جداً وغزير جداً ومتنوع كل التنوع. ولكن الملاحظ أن قسماً كبيراً من هذا التراث، لعله القسم الأكبر، يهتم

وبالدرجة الأولى بالحياة السياسية بمعناها الضيق، أي يهتم بالأحداث الجارية في منطقته ومنطقة اهتمامه، ويغفل إغفالاً كبيراً ما يدور في الأماكن البعيدة عن منطقته، ففي تلك الفترة نجد أن اهتمام المؤرخين المسلمين الذين تركزوا في سورية ومصر، قد تمركزوا في هذه المنطقة من العالم الإسلامي، وأولوا أهمية أدنى لما يجري في أماكن أخرى من العالم الإسلامي. كما وأن محدثهم ينقل عن قديمهم. وتدخلت المذاهب السياسية وخاصة المذهبية والعقدية في كتابة التاريخ وصبغتها بصبغتها. هذا إلى أن الوثائق في تلك المؤلفات ترد عرضاً وليست هدفاً في حد ذاتها. هذا القول صحيح مع استثناء واحد ضخم هو كتاب **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** للقلقشندي الذي يحوي مئات الوثائق والتي جمعها المؤلف وعرضها لغاية تربوية تعليمية ومهنية هي أن يضرب المثل للكتاب المبتدئين وأن يعلمهم كيف يكتبون الوثائق والعهود والمعاهدات وما شاكل ذلك.

ـ ولا بد أن نذكر أن القلقشندي يعتبر أول واضع لعلم دراسة الوثائق بمعناها الحديث. فهو قد صنفها حسب الشخص المرسل والشخص المرسل له، وحسب الرتبة والمكانة وحسب المحتويات والمضمون وحسب الموضوعات وحسب العصور... وبكلمة أوضح دشن افتتاح دراسة الوثائق دراسة علمية في العالم الإسلامي، ولسوء الحظ لم يأتي بعد القلقشندي من أكمل طريقته وتابعها حتى العصور الحديثة.

ـ ولذلك اقتصر اعتمادنا على كتب التراث الإسلامي التاريخي وما تحويه من أخبار ووثائق؛ ولكنا أهملنا المخطوطات وذلك لصعوبة الوصول إليها وصعوبة قراءتها، وإن معرفة محتوياتها والاطلاع على ما تحويه من معلومات تفتقر إلى عنصرين رئيسيين أساسيين هما الوقت والارتحال، وكلا العنصرين غير متوفر لدى المؤلف.

ـ هذا وإن كتب التراث تنقسم إلى أقسام ثلاثة:

• فهناك أولاً كتب التاريخ العام التي تبحث التاريخ الإسلامي ككل مثل كتب ابن الأثير وابن كثير وابن خلدون... وهذه تكمل المصادر الأخرى وتصححها وتتناغم معها.

• وهناك ثانياً كتب التاريخ الخاص. ذلك أنه شاع في هذا العصر الذي ندرسه أن يكتب أحد المؤرخين تاريخاً لقطر معين أو لدولة بذاتها، أو لحاكم بنفسه.

ولحسن الحظ حفل العصر بعدد من المؤلفين الممتازين الذين طرقوا مثل هذه الموضوعات.

والذي يجب ملاحظته أن من ألف كتاباً عن مصر مثلاً يذكر جميع الدول التي نبعت فيها سواء أكانت شيعية كدولة الفواطم أم كانت سنية كالدولة الأيوبية. ولذلك فقد استوعبت مثل هذه الكتب استيعاباً جيداً. على حين أن الكتب التي خصصت لبحث دولة معينة اقتصرت على تلك الدولة وكانت مفيدة كل الفائدة في هذا المجال.

• وهناك أخيراً كتب التراجم العامة والخاصة والتي كانت معيناً لا ينضب للأخبار والوثائق عن عهدنا هذا أيضاً.

ولا بد أن نذكر كتاباً واحداً يقف شامخاً عملاقاً يشكل كياناً مستقلاً بذاته هو كتاب **صبح الأعشى** للقلقشندي الذي مر ذكره آنفاً.

إن ما سبق ذكره أعلاه لمحة موجزة لكتب التراث، وسنفصل فيما يلي مصادر كل دولة من الدول التي سنبحثها هنا.

ولا بد لنا من أن نذكر أن ميول المؤلف السياسية وعقائده السياسية والمذهبية كانت ولا تزال تلون نظرته للأمور، وأن معالجته لأمور عصره تخضع بالتالي لهذه الاعتبارات ولاعتبارات أخرى شخصية، من حب أو كره ورغبة أو رهبة، أو طمع... ولذلك وجب علينا أن ندخل كل هذه الأمور في حسابنا، وبالتالي لا نعجب لعدم ورود وثائق فاطمية كثيرة، تمثل وجهة نظر الفواطم أو أفكارهم

أو مذهبهم، في تاريخ ألفه شخص سني مثلاً؛ أو ألف في عصور كان أهل السنة هم المسيطرين، أو في بلد معادٍ لمذهبهم.

كذلك من الملاحظ أن الوثائق خاصة تغزر وتكثر وتصبح أكثر دقة ودلالة كلما تقدمنا نحو زمن المؤلف، حتى يصل الأمر ذروته في العصر المملوكي. فالوثائق العائدة للعهد الأموي نادرة في **صبح الأعشى** مثلاً، فإذا أتينا إلى العصر العباسي الأولى وجدنا الوثائق تغزر وتزداد أهمية وتنوعاً، حتى إذا وصلنا إلى العصر المملوكي وجدنا هذه الوثائق تغطي جميع نواحي الحياة السياسية والإدارية وحتى الاقتصادية لذلك العصر. والشيء نفسه صحيح، حسب نسب متفاوتة، عند بقية المؤرخين.

فإذا أتينا إلى العصر الفاطمي الذي امتد أكثر من قرنين ونصف لا نجد إلا النزر اليسير جداً من الكتب الشيعية التي تبحث تاريخ الفاطميين، كما ونجد أن الخلاف المذهبي والعقدي والعداء السياسي ذهب بقسم كبير من وثائقهم، وما تبقى منها تبعثر في بطون الكتب، وهي تمثل وجهة نظر خاصة في الموضوع.

ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا المقريزي العظيم في كتابه الشهير **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**. وهو كتاب جليل خصصه مؤلفه لتأريخ الدولة الفاطمية منذ تأسيسها حتى إلغائها على يد نور الدين الشهيد، وحاول أن يكون منصفاً وتمكن أن يعرض تاريخ القوم بحياد وبإشراق وبروح علمية. كما وأن كتابه حوى نصوصاً غاية في الأهمية لوثائق فاطمية لا تجدها في مكان آخر، وإن كان بعضها ناقصاً مبتوراً. ويزيد من قيمة الكتاب التحقيق العلمي الذي بدأه الشيال، وأتمه حلمي.

ولا بد من ذكر كتاب آخر يؤرخ لفرع من فروع الشيعة كان الأصل الذي نبع عنه الفاطميون ثم دخلوا معه في صراع رهيب وأعني بذلك القرامطة. والكتاب اسمه **تاريخ أخبار القرامطة**. وهو بحالته الحاضرة لا يقدم شيئاً ذا

غناء في حقل الوثائق الفاطمية، لأن ما اكتشف منه هو قسم ضئيل جداً ولا يقص إلا نبذة من تاريخ القرامطة في صراعهم في سورية والعراق مع العباسيين، ويبدو أن مؤلفه لم يكن شيعياً.

أما بقية معلوماتنا ووثائقنا عن الفاطميين فنستمدها من مؤلفات أخرى متأخرة عن عصرهم. فمثلاً كتاب **الخطط المقريزية** يمدنا بمعلومات وبنصوص ثمينة جداً عن الفاطميين وتنظيماتهم المالية خاصة. وبشكل عام يعتبر كتاب **الخطط المقريزية** أنفس كتاب عن خطط مصر من الفتح الإسلامي حتى عهد المؤلف (حدود ٨٤٠ هـ). والمؤلف، الذي امتاز بالحياد العلمي والدقة والوضوح والنظرة الشاملة الرحبة، استطاع في هذا الكتاب الذي هو كنز لا ينضب من المعلومات عن مصر من جميع النواحي، أن يجمع من النصوص والوثائق التي لها علاقة بالدولة الفاطمية ما يكمل ما جمعه في كتابه السابق **اتعاظ الحنفا** ويتناغم معها ويجعل الاثنين كلاً غير منفصل.

كذلك توجد في كتاب **صبح الأعشى للقلقشندي** مجموعة من النصوص العائدة للعصر الفاطمي تلقي أضواءاً كاشفة على كثير من جوانب التاريخ الفاطمي، ولاسيما في عهوده الأخيرة وعلاقاتهم الخارجية، مع أوربا، ومع الخلافة العباسية وممثليها القويين نور الدين وصلاح الدين، ومع الصليبيين. هذا مع العلم أن هناك أخطاء تاريخية في نصوص القلقشندي نبهنا عليها وصححنا بعضها كلما كان ذلك ممكناً. وهذا لا يقدح ولا يطعن في القلقشندي ولا ينتقص من قيمته أو وزنه كمصدر أساسي رئيسي من مصادر الوثائق الإسلامية، ذلك ان غزارة المادة واتساع المجال الذي عالجه وقصور مصادر المؤلف وأخطاء معاونيه، كل ذلك، مع عوامل أخرى، أدت إلى مثل هذه الهنات الهينات.

ولا بد من ان نذكر ان عدداً من الكتب الباحثة في تاريخ مصر مثل كتاب **النجوم الزاهرة...** لابن تغري بردي، **وحسن المحاضرة...** للسيوطي،

والسلوك في معرفة دول الملوك للمقريزي قد أوردت عدداً من الوثائق الفاطمية تأتي هنا وهناك مبعثرة، وفيها أخطاء تاريخية، وتنظر إلى التاريخ الفاطمي من زاوية معينة.

ونفس الشيء يقال عن كتب التاريخ العام ككتاب المنتظم... لابن الجوزي، **والكامل في التاريخ** لابن الأثير، **والبداية والنهاية** لابن كثير، **وتاريخ ابن الفرات**، وان يكن تاريخ ابن الفرات يحوي مجموعة ثمينة من الوثائق الفاطمية تؤيد وتدعم ما سبق وجوده، وبعضها فريد في بابه.

لكن قسماً من الوثائق الفاطمية أتى من كتب لم تخصص لدراسة الفواطم وإنما خصصت لدراسة خصومهم، وأعني بذلك الكتب الباحثة والدارسة لسير الأتابكة والأيوبيين، وأخص بالذكر كتابين أساسيين الأول: **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية** لأبي شامة، والثاني: **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**. فقد حوى هذان المؤلفان، وبخاصة الأول نصوص وثائق فاطمية غاية في الأهمية. ذلك أن المؤلفين، وخاصة أبو شامة، كانا في مركزين رسميين حكوميين مكناهما من الاطلاع المباشر على الوثائق الحكومية، ومن الاطلاع على الأخبار واستمدادها من مصادرها الأصلية، بل والمشاركة في صنع بعض هذه الأحداث. ولذلك لا غرو إن أصبح هذان الكتابان العمدة في دراسة الأيوبيين ونور الدين الشهيد والعصر الفاطمي الأخير والفترة التي عاصراها من الحروب الصليبية. هذا إلى جانب النظرة الإشراقية الاستشفافية التتبعية الدؤوبة التي تميز أبا شامة بخاصة.

وهناك كتابان آخران حويا بعض النصوص الفاطمية، ولكن ليس نفس المستوى السابق، وهما: **الإشارة إلى من نال الوزارة** لابن منجب الصيرفي، والثاني: **مضمار الحقائق...** لمحمد بن عمر شاهنشاه الأيوبي. فقد حوى الأول بعض النصوص المتعلقة بعدد من وزراء الفاطميين. أما الثاني الذي خصص كلياً

للتاريخ الأيوبي المحلي، فقد ذكر نبذاً من وثائق فاطمية اثناء حديثه عن الأيوبيين.

ولا بد من التنويه ان المرحوم الدكتور الشيال جمع في كتابه: **مجموعة الوثائق الفاطمية...** عدداً من الوثائق الفاطمية استمدها من هنا وهناك. ولذلك لم أشأ ان أعيد في كتابي هذا نصوص هذه الوثائق، وإنما اكتفيت باعطائها رقماً متسلسلاً مع تسلسل باقي الوثائق وذكرت اسمها وعنوانها وأحلت القارىء إلى رقم الصفحة الموجودة فيه في مجموعة الشيال آنفة الذكر، وذكرت المصادر التي استقى منها معلوماته ونصوصه وأضفت إليها مصادر اخرى في حال ورودها في أماكن أخرى.

أما العصر الأتابكي والعصر الزنكي كما يسمى أحياناً، فهو من العصور الزاهية في التاريخ الإسلامي، ولكن يبدو ان قصر عهده وقدوم صلاح الدين في أعقابه في بلاد الشام جعلت الأنوار أقل تسلطاً عليه. ولا بد من الذكر أن أبا شامة في كتابه الذي ذكرناه آنفاً كتاب **الروضتين** قد خصص حيزاً محترماً لنور الدين الشهيد وابنه الملك الصالح، وأغنى مجموعاتنا الوثقية بعدد من أثمن الوثائق وأنفسها عن عهد نور الدين. وهنا لا بد من ذكر مؤرخ نشأ في كنف الدولة الأتابكية وغذي بنعمتها ووقف نفسه لخدمتها والدفاع عنها وأعني بذلك ابن الأثير المؤرخ المشهور صاحب كتابي **الكامل في التاريخ والتاريخ الباهر في تاريخ أتابكة الموصل**. نشأ ابن الأثير في الجزيرة الفراتية وولد في مدينة جزيرة ابن عمرو وتربى في الموصل ودخل أبوه في خدمة عز الدين زنكي مؤسس السلالة ثم في خدمة أولاده من بعده. ولذلك نجد في تواريخ ابن الأثير تعصباً لهم. ويعتبر ابن الأثير، إلى حد ما، مؤرخاً معاصراً للأحداث طالما أنه توفي في حدود سنة ٦٣٠ هـ. وكتابه **الكامل...** كتاب حولي يعكس أفكار واهتمامات العصر ونظرته إلى التاريخ، وهو مهم جداً من أجل حدثين هامين جداً في حياة المسلمين آنذاك، وأعني بذلك الغزو المغولي والحروب الصليبية، وهو نفسه عاصر

هذين الحدثين الهامين وأرخ لهما. وعلى الرغم من أنه موثوق كمؤرخ نزيه وله نظرات صائبة، وهو ذو نزعة أخلاقية واضحة، إلا أن اهتمامه بالوثائق يأتي عرضاً، ولا نجد عنده الغزارة من الوثائق التي نجدها عند أبي شامة مثلاً. ولا يتميز ابن الأثير في كتابه **التاريخ الباهر** الذي خصصه لبحث الدولة الأتابكية وتاريخها بشيء ذي غناء؛ فهو يعيد هنا أغلب ما ذكره في تاريخه العام، أو أن العكس هو الصحيح، ولا يوازن تأريخه لنور الدين وبحثه لمنجزاته بما فعله أبو شامة في كتابه الروضتين عن نفس الموضوع، ولا نجد فيه عدداً مهماً من الوثائق.

ومن الكتب المهمة جداً لتأريخ هذه الفترة كتاب ابن القلانسي **ذيل تاريخ دمشق**. وابن القلانسي مؤرخ معاصر توفي بعيد انضمام دمشق لحكم نور الدين، ولذلك فمعلوماته أساسية لدراسة هذه الفترة. وهو مؤلف قدير ومنصف إلى حد كبير ويأتي في كتابه بعدد كبير من الوثائق الأساسية لدراسة عصر نور الدين وعلاقته مع حكام دمشق، ومن ثم مع أهالي دمشق وسياسته المالية والداخلية.

كذلك لا بد من ذكر كتابين محليين خصصا، ككتاب **ذيل تاريخ دمشق** لابن القلانسي، لبحث التاريخ المحلي لبلاد الشام أو لأقسام منها، الأول كتاب **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة** لابن شداد، والثاني **زبدة الحلب في تاريخ حلب** لابن العديم. وعلى الرغم من أن الكتابين يتناولان تاريخ المنطقة ككل، إلا إنهما يخصصان حيزاً أكبر للدولة الأتابكية لأنهما كانا قريبين من عهدها، ولأهميتها في تاريخ الإسلام، ولما قام به نور الدين رحمه الله بشكل خاص، في سبيل توحيد البلاد ومحاربة الفرنج، وهما معتبران من المصادر الأصلية في دراسة المنطقة وقريبان من الفترة الزمنية التي يقصان حوادثها ويحويان عدداً من الوثائق المهمة.

وأما في العصر الأيوبي، فقد أصبحت الصورة أكمل واوضح، ذلك ان هذا العصر شاهد عدداً من المؤرخين المعاصرين الذين تخصصوا في تأريخه، وأغلبهم

موثوق به وذو نظرة شاملة رحبة، ولذلك نجد الدراسات هنا وافية غزيرة، والوثائق كثيرة متنوعة وموثوقة، لأنها تعتبر أصلية أو بكلمة أدق منسوخة عن الوثائق الأصلية. ولا ننسى أن أعمال صلاح الدين العظيمة في توحيد البلاد الإسلامية، وقضاءه، مع نور الدين الشهيد، على الدولة الفاطمية، ونصره لمذهب السنة، وحروبه المتواصلة المتلاحقة ضد الفرنج الصليبيين وانتصاراته العظيمة عليهم، وتحريره لبيت المقدس منهم، كل ذلك كانت عوامل وبواعث دعت إلى غزارة التأليف في هذا المجال.

ووثائقنا عن العصر الأيوبي تأتينا من ثلاثة مصادر: الأول، المصادر الأولية المتخصصة، والثاني، المصادر الثانوية المتخصصة، والثالث، المصادر العامة غير متخصصة سواء أكانت أولية أم ثانوية.

ونقصد بالمصادر الأولية الكتب المعاصرة للدولة الأيوبية وألفت في عهدها، أما المصادر الثانوية فهي التي ألفت في العصر المملوكي.

ويأتي على رأس المصادر الأولية المتخصصة كتاب أبي شامة كتاب **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، وكتاب ابن واصل: **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، وكتاب محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي: **مضمار الحقائق...** وكتاب ابن شداد: **النوادر السلطانية...** وكتاب العماد الأصفهاني **الفتح القسي في الفتح القدسي**.

لقد سبق ان ذكرنا كتاب أبي شامة كتاب **الروضتين...** وذكرنا إنه خصصه لبحث حياة كل من نور الدين الشهيد وصلاح الدين الأيوبي. والكتاب، إلى جانب مميزاته الكثيرة، يحوي عدداً كبيراً جداً من الوثائق التي تلقي ضوءاً ساطعاً على حياة وأعمال البطلين الخالدين. وهذا يعزز الرأي القائل أن أبا شامة كان على اطلاع تام على أعمال الدواوين وسجلاتها وإنه أحسن استخدامها كل الإحسان. ولسوء الحظ ليس هناك طبعة محققة منقحة للكتاب

جميعه، وإنما بين أيدينا طبعة بولاق كاملة. وقد بدأ بعض الأفاضل في مصر تحقيق هذا الكتاب وأصدروا قسماً منه محققاً تحقيقاً جيداً، ولا زال الأمل معقوداً في ان يصدر الباقي من الكتاب محققاً.

كذلك يعتبر ابن واصل من المؤرخين المعاصرين أو القريبين كل القرب من مسرح الحوادث. وكتابه مخصص كلياً لسرد تاريخ آل أيوب من أول أمرهم حتى أيام المؤلف أواسط القرن السابع هجري. وابن واصل مؤرخ دؤوب ومنصف وذو نظرات صائبة، وأن يكن اعتماده على الوثائق، وإيراده نصوصها أقل بكثير من أبي شامة، وكان أحد مصادر المقريزي الأساسية في كتابه **السلوك...** الذي أرّخ فيه لآل أيوب في مصر والشام.

أما محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي فهذا أمير من أمراء آل أيوب ومن معاصري صلاح الدين وأخيه العادل. ولذلك أتى كتابه تحفة فنية فيما يتعلق بظهور آل أيوب وحكم صلاح وأخيه العادل وأولادهما. كذلك يخصص المؤلف أهمية قصوى لأبيه الذي كان ابن أخي صلاح الدين ومن كبار مساعديه، وقلده صلاح الدين عدداً من الممالك، ولذلك نرى المؤلف يورد كثيراً من الوثائق التي لا نجدها في غيره. وهو بهذا يكون قد ساهم مساهمة جيدة في إغناء معلوماتنا التاريخية ووثائقنا عن تلك الفترة.

ولقد كان ابن شداد قاضياً زمن صلاح الدين ويوصف بأنه قاضي صلاح الدين أي إنه كان قاضياً في دمشق نفسها ويقضي بين يدي السلطان، ولذلك أتى كتابه **النوادر السلطانية...** وصفاً حياً لأحداث عاشها المؤلف إلى جانب السلطان وسجلها بأمانة واخلاص ودقة وحياد. وهو في كتابه يعطي أهمية خاصة لصلاح الدين الأب ولصلاح الدين الإنسان، ويورد بعض الوثائق التي تلقي بعض الضوء على ملامح ذلك البطل العظيم. ولكن المرء كان يتوقع من مثل هذا المولف الذي كان على اتصال مباشر بالمصادر الأولية ان يزودنا بمزيد من

الوثائق المهمة في هذا الباب، وهذا ما لم يفعله ابن شداد، إذ وثائقه محدودة.

ولعل كتاب **الفتح القسي في الفتح القدسي** الذي ألفه العماد الأصفهاني الكتاب الوحيد الذي ألف للتحدث عن القدس واسترجاعها من يد الفرنج. والغاية منه إظهار البلاغة الكلامية في وصف الأحداث التي أدت إلى هذا العمل العظيم. وهو كتاب يلتزم فيه مؤلفه السجع ويتفنن في إبراز بلاغته وفصاحته ويورد كثيراً من الوثائق التي لها علاقة بالموضوع، وذلك بحكم مركزه ووظيفته التي شغلها في بلاط صلاح الدين. ولما كان موضوع الكتاب متعلقاً بالحروب الصليبية أكثر من تعلقه بالنواحي الأخرى، ولذلك كانت الوثائق المستلة منه قليلة العدد، وإن تكن مهمة.

وأما المصادر الثانوية المتخصصة فقد سبق ان ذكرنا أغلبها **كصبح الأعشى** للقلقشندي، **والنجوم الزاهرة** لابن تغري بردي، **وحسن المحاضرة**، للسيوطي، وكتاب **السلوك...** وكتاب **الخطط...** للمقريزي، وكتاب **تاريخ ابن الفرات** وكتاب **زبدة الحلب...** لابن العديم وغيرها من الكتب. فهذه الكتب متخصصة في تاريخ منطقة من المناطق (مصر وبلاد الشام) وألفت في العصر المملوكي ولكنها حوت الكثير من الوثائق الهامة التي لها علاقة بالعصر الأيوبي.

والمصادر العامة كثيرة جداً، وهي تقص سير التاريخ الإسلامي بشكل عام كما فعل ابن الأثير في كتابه **الكامل** الذي يعتبر مصدراً أولياً لعصرنا هذا، ولكنه عام. وكذلك يعتبر كتاب ابن كثير **البداية والنهاية** مصدراً عاماً للتاريخ الإسلامي، ولكنه ثانوي لأنه ألف في العصر المملوكي. وكذلك كتاب **نهاية الأرب...** للنويري، وكتاب **ذيل مرآة الزمان...** لليافعي، وكتاب **الكواكب الدرية...** لابن قاضي شهبة، وكتاب **تاريخ الخلفاء** للسيوطي، **وتاريخ الذهبي وتاريخ العبر...** لابن خلدون، وكتاب **المختصر في أخبار البشر** لأبي الفداء، وكتاب **مختصر تاريخ الدول...** لابن العبدي.

ويدخل في هذا الباب أيضاً كتب التراجم العامة **كوفيات الأعيان**... لابن خلكان، **وفوات الوفيات**... لابن شاكر الكتبي، **وشذرات الذهب**... لابن العماد الحنبلي. وهي كتب حوت بعض الوثائق المهمة التي لها علاقة وثقى بأحداث العصر الذي نبحثه؛ ووجد في بعضها بعض الوثائق المهمة المفردة، والتي لا وجود لها إلا في تلك الكتب، وبشكل خاص **وفيات الأعيان**... فقد حوت بعض الوثائق التي ـ وإن كانت قليلة ـ إلا إنها معبرة ومهمة.

بعد هذا العرض السريع الذي قمنا به لمصادر بحثنا ووثائقنا، لا بد لنا من أن نعيد ونؤكد هنا ما سبق أن ذكرناه في كتبنا السباقة، وهي إننا نعرض الوثائق هنا كما وجدناها في كتب المصادر، وانا لسنا مسؤولين عن محتوياتها، ونحن لا نتبنى أياًّ منها، ولا نجزم بصحة أو زيف أي منها، وإنما هذه مهمة الدارسين. كذلك لا يعني جمعنا لهذه الوثائق أن مضمونها يعبر عن آرائنا أو معتقداتنا أو أي شيء من هذا القبيل، وإنما نحن نجمعها ونعرضها بهدف تسهيل عملية البحث وتسهيل عمل الباحثين. والمجال واسع ومفتوح أمام كل باحث ليطرق هذه الموضوع ويقوم بالدراسة حول هذه الوثائق.

والآن، وبعد ان انتهينا من هذه المقدمة التمهيدية الضرورية نقوم بعرض سريع شامل مباشر لكل عهد من عهود الدول الثلاث التي تشملها دراستنا، وهي العصور الفاطمية والأتابكية والأيوبية كما تتراءى لنا من خلال وثائقها.

الدّولة الفاطميّة:

يعتبر تأسيس الدولة الفاطمية في شمالي أفريقيا سنة ٢٩٦ هـ على يد المهدي العلوي وداعيته أبي عبدالله الشيعي انتصاراً حقيقياً للشيعة وتتويجاً لجهودها ومساعيها في استلام الخلافة في العالم الإسلامي أو في قسم منه. وعلى الرغم من أنه تأسست قبلها دولة علوية في المغرب الأقصى على يد إدريس الأول الذي هرب من معركة فخ، زمن الهادي العباسي، إلا إنها لم تستقطب آمال الشيعة ولم

تعبر عن اهتماماتهم، ولم يكن لها ذلك الوزن الذي أصبح للدولة الفاطمية فيما بعد.

ولقد سعى الشيعة، الذين هم أنصار علي وأولاده، أن يحصلوا على الخلافة طوال العصر الأموي، وتحالفوا من أجل ذلك مع العباسيين، وثاروا عدة مرات محاولين تحقيق حلمهم هذا، ولكنهم خذلوا وعجزوا عن تحقيق ذلك الحلم وقتلوا وشردوا، حتى تمكن العباسيون أن يقضوا على الأمويين ويحلوا محلهم في حكم العالم الإسلامي. وقد جعلوا شعارهم أثناء كفاحهم ضد الأمويين المناداة بشعار المبايعة: للرضا من آل محمد وهي جملة مطاطة تحتمل كثيراً من الشد والجذب والتأويل. ولكن ما أن انتصر العباسيون واستلموا الحكم حتى انهار التحالف بينهم وبين أبناء عمهم آل علي وشيعته. وسرعان ما أدرك أوائل الشيعة أنهم استبدلوا سيداً بسيد؛ ولذلك بدأ عهد من الصراع المرير بين الطرفين. وكان الصراع هنا حربياً ومذهبياً وعلنياً وسرياً. ذلك إذا كان العلويون والعباسيون متفقين بأحقيتهم في الخلافة، إلا أنهم اختلفوا حول أحقية أحد الطرفين. وقد ثار الجدل النظري بجانب الخصام السياسي والحربي. وقد بطش المنصور بخاصة بالعلويين، ولم تكن معركة باخمرا أقل هولاً من كربلا. ولكن ذلك لم يقنع العلويين فعادوا للثورة زمن الهادي فعاود التنكيل والبطش بهم، وخاصة في معركة فخ التي كان لها نتائج بعيدة المدى في التاريخ الإسلامي، إذ تمكن أحد العلويين، وهو إدريس، من الهرب من المعركة واستقر في شمالي افريقيا في المغرب الأقصى، واستطاع أن يؤسس دولة شيعية هناك قدر لها أن تعيش أكثر من قرنين.

وعلى الرغم من ان محاولات العلويين وثوراتهم استمرت زمن الرشيد والمأمون ومن بعدهما، إلا أنها لم توفق، ولذلك لجأ الشيعة إلى الأسلوب السري. وهو نفس الأسلوب الذي اتبعه العباسيون من قبلهم؛ وظلوا يخططون وينظمون ويبثون الدعاة حتى تمكنوا من تأسيس دولتهم هذه في تونس، تلك الدولة التي

قدر لها ان تحتل مصر وان تجعلها مركزاً لها، وتوسعت في سورية وبلاد العرب حتى أوشكت أن تقضي على الخلافة العباسية لولا ظهور الأتراك السلاجقة الذين اعتنقوا الإسلام على المذهب السني فأمدوا الخلافة العباسية بدماء جديدة تمكنت من إيقاف الزحف الشيعي باتجاه الشرق، ونصروا مذهب أهل السنة ضد المذهب الشيعي واسترجعوا منها القسم الأكبر من بلاد الشام. ولقد ظلت الدولة الفاطمية بعد ذلك موجودة في الحياة ومتمركزة في حدود مصر وجزء صغير من جنوبي بلاد الشام حتى نهاية تاريخها.

يقسم تاريخ الدولة الفاطمية إلى قمسين كبيرين: العهد المغربي ويمتد من تأسيس الدولة في تونس على يد المهدي سنة ٢٩٦ هـ حتى انتقال المعز لدين الله إلى القاهرة في حدود سنة ٣٥٨ هـ. والعهد المصري ويبدأ من انتقال المعز إلى القاهرة ويستمر حتى نهاية الدولة الفاطمية. ولم يكن العهد المغربي ذا تأثير كبير في التاريخ الإسلامي، إنما المهم العهد المصري الذي عاصر أحداثاً مهمة جداً في تاريخنا السياسي والحضاري والمذهبي. ولقد تميز العهد المصري بأنه افتتح بعدد من الخلفاء الأقوياء يمثلون الذروة التي وصلت إليها الدولة الفاطمية أمثال المعز والعزيز اللذين توسعا في بلاد الشام وبلاد العرب. ويعتبر عهد المستنصر بالله عهد انتقال من عصر القوة والمنعة إلى عصر التوقف وبداية التأخر. وكذلك أمتاز أواخر عصره وعصر من أتى بعده من الخلفاء بوجود عدد من الوزراء العظام أمثال بدر الجمالي وابنه الملك الأفضل الذين استبدوا بالخليفة وحجبوه وصرفوا الأمور كما يشاءون. أما العهد الاخير من عهود الدولة الفاطمية في مصر فامتاز بالصراع بين الوزراء على السلطة إلى جانب صراعهم مع الخلفاء، ودسائس أهل القصر وأسرة الخلافة، والصراع مع الصليبيين واستمر ذلك إلى آخر أيامهم وتاريخهم.

سبق أن قلنا أن الصراع بين بني العباس وشيعة علي كان صراعاً متعدد الجوانب. وقد حاول العباسيون إبان ضعفهم، أن يشككوا في صحة انتساب

الفاطميين إلى علي بن أبي طالب، وعملوا في ذلك عدداً من محاضر الطعن في نسبهم ووقع عليها الأشراف والقضاة والأعيان وعدد من الطالبيين المقيمين تحت ظل الدولة العباسية. ولقد حفظت لنا كتب المصادر التاريخية سجلاً كاملاً لأحد هذه المحاضر الذي صدر سنة ٤٠٢ هـ وكله طعن في الفاطميين وفي نسبهم واتهامهم بالكفر والزندقة وأنهم أدعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وان ما ادعوه من الانتساب إليه زور وباطل... [١] وإن هذا الناجم بمصر (الحاكم بأمر الله) ـ هو وسلفه ـ كفار فساق زنادقة ملحدون معطلون... [٢].

ولكن السؤال الذي يعرض الآن: هل صحيح أن الفاطميين لا ينتسبون إلى علي بن أبي طالب وإنهم أدعياء؟ ثم ما هي الفائدة العملية من مثل هذا المحضر؟

إن مشكلة نسب الفاطميين هي مشكلة تاريخية ولا يمكن أن تحل. فكما أن بإمكان كل عدو أن يشك ويشكك في نسبهم، فكذلك بامكان كل مؤيد ومحبذ أن يؤكد انتسابهم إلى علي بن أبي طالب وهذا لا يغير من الوضع القائم شيئاً، وستبقى هذه المشكلة قائمة لأن المصادر تختلف كل الاختلاف حسب ميولها وميول مؤلفيها. وهذا شيء طبيعي ومنطقي أن يحدث ولا يؤخر ولا يقدم في الأمر شيئاً. ويخيل إلينا أن العباسيين استفادوا من الشذوذ والاضطراب وسوء التصرف الذي أوجده الحاكم بأمر الله الفاطمي، وهو الخليفة المضطرب التفكير المتقلب الأهواء المتردد الهزوز الشخصية، فأصدروا هذا المحضر ضده لينفروا الناس من سلوكه. ويبدو لنا أيضاً أن العباسيين ـ في محضرهم هذا ـ كانوا مدافعين عن أنفسهم أكثر منهم مهاجمين، ذلك أنه هالهم انتشار الحركة العلوية

---

(١) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا. تحقيق جمال الدين الشيال. القاهرة دار الفكر العربي، ١٩٤٨ م. جـ ١، ص ٥٨ ـ ٦٠.

(٢) نفس المصدر.

وإسراع الناس للانضواء تحت لوائها حتى في بغداد نفسها، فلجأوا فيا لجأوا إليه، إلى تشكيك الناس في نسب الفاطميين وفي دينهم وسلوكهم. وهذا هو المبرر الوحيد - في رأينا - لإصدار مثل هذه المحاضر، وهذه هي فائدتها المتوخاة.

المهدي العلوي:

ويبدو أن أعداء الفاطميين، وأعداء الشيعة بشكل عام، قد اعتادوا على وصفهم بالكفر والزندقة والإلحاد حتى قبل أن تقوم دولة الفواطم، ونجد ذلك واضحاً في الرسالة التي وجهها المهدي العلوي إلى أبي طاهر الجنابي القرمطي لما قتل الحاج ودخل البيت الحرام وقلع الحجر الأسود وأخذه إلى البحرين سنة ٣١٧ هـ: سجلت علينا في التاريخ نقطة سوداء لا تمحوها الليالي والأيام. قد حققت على دولتنا وشيعتنا ودعاتنا اسم الكفر والزندقة والإلحاد بفعالك الشنيعة هذه...[(١)].

القائم العلوي:

وما أن استقرت قدم الفواطم في شمالي افريقيا حتى بدأوا يحاولون التوسع نحو الشرق واحتلال مصر، كما فعل المهدي وخلفاؤه من بعده حتى تكللت جهودهم بالنجاح على يد المعز لدين الله، وبنفس الوقت بدأوا يدعون الآخرين للانضمام إلى صفوفهم. فقد أرسل القائم بأمر الله ابن المهدي وخليفته رسالة إلى أهل مكة يدعوهم إلى الانضمام إلى صفوف الفاطميين ويقول: نحن أهل بيت الرسول ومن أحق بهذا الأمر منا؟ وضمن الرسالة أبياتاً من الشعر فيها تعنيف لأهل مكة المكرمة لأنهم اتبعوا العباسيين غير الشرعيين - في رأي الخليفة القائم - وتركوه

---

(١) ثابت بن سنان. تاريخ أخبار القرامطة، تأليف ثابت بن سنان وابن العديم. تحقيق سهيل زكار. بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧١ م. ص ١٤.

هو، وهو الخليفة الشرعي القائم بأمر الله حقيقة[1]. وقد أرسل أهل مكة الرسالة إلى الخليفة العباسي - إما المقتدر أو الراضي - الذي أمر كاتبه الصولي فرد على القائم أسوأ رد واتهمه أنه كاذب وأنه دعي وأنه مهدي السفاهة والخنا[2] ولا بد من التنويه هنا أن ابن الأبار راوي القصة يذكر أن الخليفة العباسي هو المقتدر العباسي. ولكن ذلك غير ممكن لان المقتدر توفي سنة ٣٢٠ هـ على حين تولى القائم الفاطمي الخلافة سنة ٣٢٢ هـ. واذن هناك خطأ في أحد هذين الاسمين. فإما أن يكون الخليفة الفاطمي هو المهدي الذي كان معاصراً للمقتدر، ويرد اسمه في الشعر: مهدي السفاهة والخنا؛ أو أن الخليفة العباسي المقصود هو الراضي بالله الذي حكم بين سنتي ٣٢٢ - ٣٢٩ هـ، وكان الصولي كاتبه.

المعز لدين الله الفاطمي:

وإذا وصلنا إلى المعز لدين الله نكون قد وصلنا إلى شخصية قوية من الخلفاء الفاطميين، وهو مفتتح دور القوة والعظمة في الدولة الفاطمية.

ولقد حقق المعز أحلام أسلافه في احتلال مصر وجعلها مقراً للخلافة الفاطمية. وقد استفاد المعز كل الفائدة من الضعف الذي آلت إليه الخلافة العباسية في المشرق وسيطرة الأتراك على مقدرات الأمور في بغداد وانقسام الخلافة العباسية إلى عدد كبير من الدويلات المتناحرة، كما وأنه استفاد من ضعف مصر وحكم كافور لها، وخلو البلد من شخصية تستطيع جمع شمل القوى تحت قيادة حازمة فتمكن من احتلال مصر على يد مولاه جوهر الذي احتل البلاد وشرع في بناء القاهرة، والتي قدر لها أن تصبح منذ ذلك الزمن احدى أمهات المدن الرئيسية في دنيا الإسلام والعروبة حتى الوقت الحاضر.

---

(١) ابن الأبار. الحلة السيراء، تحقيق مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣ م. جـ ٢، الجزء الأول - ٢٨٧.

(٢) نفس المصدر.

وتدل وصية المعز ليوسف بن زيري الصنهاجي الذي عهد إليه بحكم المغرب نيابة عنه لما قرر الارتحال عن المغرب والاستقرار في مصر على فهم عميق لطبيعة وأخلاق البربر بخاصة، ذلك أنه أوصاه ألا يرفع الجباية عن أهل البادية، وألا يرفع السيف عن البربر، وألا يول أحداً من إخوته وابناء عمه لأنهم يرون أنفسهم أحق منه بالولاية وأن يحسن لسكان المدن (١).

كذلك يدل الأمان الذي منحه جوهر باسم مولاه المعز لأهل مصر لما احتلها على حنكة سياسية ونزعة عملية نحو تطمين سكان مصر أن الأمور ستسير كما يحبون، وأنه لن يكون هناك تغيير قهري. وهو يذكر أن مولاه طلب منه احتلال مصر لانقاذ المصريين مما أصابهم من فساد واضطراب، وأن ما حل بأهل المشرق عامة قد أبكى عينه وأرمضه وأمضه، وأن المعز طلب إلى جوهر أن يستنقذ من أصبح منهم في ذل مقيم، (٢). كذلك حوى الأمان، بناء على طلب خاص من أهل مصر، أن يسمح لهم بالإقامة على مذهبهم، وأن يتركوا على ما كانوا عليه من أداء الفروض، وأن يجري الأذان وصيام شهر رمضان والصلاة وقيام رمضان والزكاة والحج والجهاد على أمر الله في كتابه وعلى سنة نبيه ﷺ، وأن يجري أهل الذمة على ما كانوا عليه.

ونحن نلتمس عذراً لأهل مصر في تأكيد هذه الأمور، لأن مذهب الفاطميين يخالف في كثير من هذه المسائل المذهب السني الذي عليه أهل مصر، ولذلك أصر القوم عليها، ويذكر جوهر أنه يذكرها بناء على رغبتهم وتطميناً لهم، وإلا فلم يكن لذكرها معنى ولا في نشرها فائدة، إذ كان الإسلام سنة واحدة وشريعة واحدة (٣).

---

(١) المقريزي، المصدر المذكور آنفاً جـ ١، ص ١٤٢ ـ ١٤٥.

(٢) نفس المصدر. جـ ١، ص ١٤٨ ـ ١٥٣.

(٣) نفس المصدر.

والملاحظ في هذا الأمان، وفي أغلب العهود والمواثيق الفاطمية، إنه كلما مر ذكر الخليفة يتبعه بجملة ـ صلوات الله عليه ـ وفي أحيان كثيرة يقول: صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين[1] وهذا شيء غير معروف عند أهل السنة. إذ جملة ـ صلى الله عليه ـ لا تقال إلا بعد ذكر اسم الرسول الكريم صلى الله عليه.

كذلك برهن المعز مرة ثانية على فهمه للنفس البشرية، وبشكل خاص لأنماط معينة منها، عندما حذر مولاه جوهراً من الاستنامة إلى حد من آل حمدان الذين لجأوا إلى جوهر وعرضوا خدماتهم عليه: فبنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم وليس لهم فيها نصيب. يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب، ويتظاهرون بالكرم وليس لواحد منهم كرم في الله، ويتظاهرون بالشجاعة وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة[2].

وتؤكد جميع النصوص الفاطمية الواصلة إلينا من ذلك العهد على أحقية الفاطميين سلالة الرسول الكريم بالخلافة، وإن ذلك أمر بدهي ومفروغ منه ولا مناقشة فيه، وإن الله سبحانه أنقذ البشر بخلافتهم إلى غير ذلك من المفاهيم[3].

ومن الحوادث الكبرى في تاريخ المعز، ومن الأخطار الجسيمة التي تعرض له البناء الفخم الذي أقامه في مصر، هو هجوم القرامطة بزعامة الحسن الأعصم على مصر، قبل قدوم المعز إليها، وبعيد ذلك، وهزيمتهم لجوهر قائده ومولاه هزائم متواليات منكرات. وقد أدرك المعز خطر القرامطة، وأدرك في الوقت نفسه عجزه عن دفعهم، فلجأ إلى طريقين متوازيين للتغلب على ذلك الخطر. الأول

---

(١) نفس المصدر.

(٢) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. الخطط المقريزية. الشياح، لبنان، مكتبة إحياء العلوم. جـ ٣ جـ ٢، ـ ١٥٧.

(٣) ابن الجوزي، علي بن عبد الرحمن. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٩ هـ. جـ ٧، ص ٥٧ ـ ٥٨.

كسب الوقت بالتراسل مع الحسن الأعصم، ولعله ظن أن ذلك قد يؤثر في القرمطي، والثاني عمله على شق جبهة التحالف المعقود بين القرمطي وبين حسان ابن الجراح أمير العرب.

وقد حفظ لنا المقريزي في **اتعاظ الحنفا** قسماً مهماً من الخطاب الذي وجهه المعز إلى الحسن الأعصم، ولا ندري لماذا لم يأت به كاملاً، ولعل ذلك عائد إلى النساخ لا إلى المؤلف نفسه. وأسلوب هذا الكتاب عجيب في بابه، فريد من نوعه. فعلى الرغم من أنه موجه إلى الحسن الأعصم إلا أن مفتتحه وكأنه خطبة موجهة إلى جميع الناس: أما بعد أيها الناس فإنا نحمد الله بجميع محامده...[1] ثم يبدأ فيعدد الآيات والبراهين المقدمات التي دلت على قدومه [أي المعز] وعلى ظهوره، وإن من واجب جميع البشر طاعته، وإن طاعته طاعة الله وإن الله تعالى في علمه قدوم المعز، وإن الإسلام لا يقوم إلا به والاعتراف به، وإن أصله الهي؛ ثم بعد ذلك ينتقل إلى خطاب حسن الأعصم ويصفه بالغادر والخائن الناكث والبائن عن هدي آبائه وأجداده، وهو يقرعه ويعدد عليه ما فعله في جيوش المعز في بلاد الشام وقتله أنصاره وأجناده، ثم يعرض عليه خصالاً ثلاثاً، إن أباها كلها فهو لعين وهو رجيم[2] والكتاب كله مليء بالآيات القرآنية التي حشدت هنا وهناك للبرهنة على عقيدة المعز، وهو بالحقيقة كتب لكسب الوقت وليكون معرضاً للدعاية للمذهب الفاطمي وبيان الرأي الرسمي في مذهب الدولة الفاطمية الرسمي.

ولكن الطامة الكبر ان الحسن الأعصم لم يتأثر بما أورده المعز أدنى تأثر، بل أدرك أن كل ذلك كلام لا معنى له، وإن غاية المعز معروفة لديه فأجابه جواباً

---

(١) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. اتعاظ الحنفا... تحقيق جمال الدين الشيال القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٤٨ م. الجزء الأول. جـ ١، ص ٢٥١ - ٢٦٥.

(٢) نفس المصدر.

لا أعتقد أن هناك جواباً آخر أكثر دلالة من جواب الحسن الأعصم للمعز... ذلك أن خطاب المعز يشغل صفحات كثيرة وفيه استشهادات كثيرة، وأسلوبه اختلف من الأسلوب الخطابي إلى الأسلوب الشخصي التهديدي العنيف، على حين أن جواب الحسن الأعصم جواب مختصر بليغ كل البلاغة معبر كل التعبير، وفيه من الإهانة للمعز. والاستخفاف بكل أقواله ما يعجب معه المرء كيف تحمل المعز مثل هذه الإهانة: وصل كتابك الذي قل تحصيله وكثر تفصيله، ونحن سائرون إليك على أثره، والسلام (١).

وأما التدبير الثاني الذي لجأ إليه المعز وأفلح بواسطته أن يرد عادية القرمطي عنه بواسطته، فهو اتصاله بأمير العرب حسان بن الجراح واغراؤه بالمال حتى وافق أن يتخلى عن حليفه وقت المعركة: ابعث إليّ بما التزمت وتعال بمن معك، فإذا التقينا انهزمت بمن معي فلا يبقى للقرمطي قوة فتأخذه كيف شئت (٢).

العزيز بالله:

ولقد استمر القرامطة خطراً يهددون الدولة الفاطمية زمن ابن المعز العزيز بالله، ولكن ليس على نفس المستوى السابق، وعلى الرغم من تحالف القرامطة مع افتكين التركي وغيره من الثوار، إلا أن العزيز خرج بنفسه للقائهم وأنزل بهم هزيمة قوية وأرسل البشائر بذلك إلى مصر وإلى نائبه فيها يبشره بهذا الانتصار. والكتاب قطعة بلاغية مطولة كلها تمجد العزيز بالله وتؤكد حقه الإلهي في الخلافة وإن الله تعالى اختاره لإعلاء دينه وقمع كل مارق عنه. ثم ينتقل إلى ذكر الحرب التي دارت بينه وبين أفتكين وحلفائه القرامطة، وكيف أن الله تعالى ساعد

---

(١) ابن الأثير، عز الدين، الكامل في التاريخ. تحقيق عبد الوهاب نجار. القاهرة، المطبعة المنيرية، ١٣٤٨ هـ. جـ ٨، ص ٦٣٨.

(٢) ابن كثير، إسماعيل. البداية والنهاية في التاريخ. القاهرة، المطبعة السلفية ١٩٣٢ م. جـ ١١، ص ٢٧٦.

العزيز ضدهم حتى هزم الجميع وأسر أفتكين قبضاً باليد بدون عهد أو عقد [1].

والواقع أن أفتكين هذا الذي مر ذكره أصبح خطراً ماحقاً هدد العزيز في ملكه، بعد أن كان من قواده، وصب الهزائم المهينة على رأس قائده جوهر حتى أنه لم يسمح لجوهر أن يخرج من عسقلان هو وعسكره إلا من تحت سيفه الذي علقه على الباب مبالغة في إذلاله [2].

ولقد اضطر العزيز أن يخرج بنفسه إلى حرب أفتكين، ولكنه رغب قبل المعركة مباشرة أن يستميله إليه، فأرسل إليه يعرض عليه الأمان ويعد العفو وأن يعيده قائد جيشه: فلك عهد الله وميثاقه أني أؤمنك وأصطفيك وأنوه باسمك وأجعلك أسفهسلاَّر عسكري وأهب لك الشام بأسره وأتركه في يدك [3].

ولقد واجه العزيز تحدياً آخر لخلافته وإدعاءاته في شخص خلفاء قرطبة الأمويين، ذلك أن عبد الرحمن الناصر ادعى الخلافة في الأندلس وتلقب بألقابها سنة ٣١٦ هـ وحارب الفاطميين في المغرب الأقصى. وتابع ابنه وخليفته الحكم المستنصر بالله (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) سياسة والده وتمكن أن يقضي على نفوذ الفاطميين في المغرب الأقصى وأن يقضي على دولة الأدارسة هناك. ولما لم يكن بإمكان العزيز إرسال قوات لاستعادة ما فقده هناك، فقد حنق على الحكم الأموي، ولذلك أرسل رسالة إلى الحكم الأموي كلها هجاء وثلب فأجابه الحكم بما يلي: عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لهجوناك وأجبناك والسلام [4].

---

(١) القلقشندي، أبو العباس أحمد. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩١٣ م. ١٤ جـ ٦ ص ٤٣٣ - ٤٣٩.

(٢) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. اتعاظ الحنفا... تحقيق جمال الدين الشيال ومحمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٩٦٧ م. جـ ٤، جـ ١ ص ٢٤١.

(٣) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة. ذيل تاريخ دمشق تحقيق أمدروز. بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨ م. اعادت مكتبة المثنى في بغداد طبعه بالأوفست، ص ١٨.

(٤) ابن العماد الحنبلي. شذرات الذهب في أخبار من ذهب. القاهرة، مكتبة القدسي، ١٣٥١ هـ. جـ ٣، ص ١٢١.

الحاكم بأمر الله:

يُعرف الحاكم لدى الباحثين والمؤرخين أنه شخص مضطرب التفكير كثير التردد عاطفي النزعة قاسٍ مغرور، وإن حكمه كان كارثة على الحكم الفاطمي بالذات وانتهى بفاجعة أودت بحياته بشكل غامض.

والواقع حدثت بعض الأمور جعلت الحاكم ينحو هذا النحو. فهو قد استلم الخلافة حدثاً، وقد ترك له أبوه **أمبراطورية** واسعة متماسكة ـ في الظاهر على الأقل ـ وقد التف حول الحاكم فريق من الدعاة والمؤيدين الذين لم يبالوا بكبح جماح شذوذه، بل شجعوه وصعدوا ذلك لديه حتى انتهى به الأمر إلى ادعاء الألوهية. أضف إلى ذلك ان أعداء بني العباس، وحتى بعض المتغلبين على الأطراف ممن يدين بالولاء المهزوز للخلافة العباسية، مثل قرواش بن المقلد حاكم الموصل، كانوا يخطبون للفاطميين كلما أرادوا مضايقة العباسيين أو دخلوا في نزاع معهم. فقد خطب قرواش هذا في بلده للحاكم بأمر الله، لما نشب خلاف بينه وبين الخليفة العباسي، فوصفه بأوصاف لا يوصف بأعلى منها حتى الأنبياء: اللهم واجعل نوامي صلواتك وزواكي بركاتك على سيدنا ومولانا إمام الزمان وحصن الإيمان وصاحب الدعوة العلوية والملة النبوية، عبدك ووليك المنصور أبي علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين [١] ...

ويدل مرسومه الذي قلد بموجبه الحسين بن علي بن النعمان القضاء في مصر وأجناد الشام وبلاد المغرب وغير ذلك من الأمور على ذهن متفتح ورغبة في إحقاق الحق وإعلاء منار الشرع وإفراغ الهيبة على الحكم وتنزيه القاضي ومنصبه

---

(١) ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة. القاهرة، دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م. جـ ٤، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٧.

عن السفاسف والصغائر. كما وإنه يطلب منه أن يأخذ بأحكام آباء وأسلاف الحاكم في الأحكام ويجعلها قبلة له(١).

ولكن الذي يكشف شخصية الحاكم وتناقضه هو موقفه من الجند المغاربة والأتراك وأهل مصر والعبيد السود. ذلك ان الحاكم غضب كل الغضب من أهل القاهرة الذين أسمعوه كل مكروه، فأراد أن ينتقم منهم، ولكن لا كما يفعل الحاكم العاقل الذي يؤدب رعاياه ويضبط الأمن في بلده، بل بحسب عقله المضطرب هو، فحرض العبيد السود والأتراك على إحراق القاهرة، ولكن أهل القاهرة دافعوا عن بلدهم ودار قتال عنيف بين الطرفين، ثم تمكن أهل القاهرة أن يجذبوا الجند الأتراك والمغاربة إلى طرفهم وأصبح الجميع ضد العبيد وأرسلوا إلى الحاكم يسألونه هل ما فعله العبيد بإذنه وعن أمره، أم ان ما فعلوه ويفعلونه مخالف لرأيه؟ فإن كان ذلك من رأي الحاكم فليسمح لهم بإخراج عيالهم وأموالهم من القاهرة وإن لم يكن ذلك من رأيه فليطلق يدهم في حرب السودان. ولكن الحاكم أعلن للأتراك انهم على صواب وسمح لهم بنصر المصريين والإيقاع بالسودان، وفي نفس الوقت ارسل إلى السودان سراً رسالة يقول لهم: كونوا على أمركم. ولما وصلت أنباء هذه الرسالة إلى مسامع الأتراك والمغاربة ثاروا ثورة عارمة ضده وأرسلوا له يقولون بأنهم عرفوا غرضه وهو تدمير القاهرة وهلاك أهلها وهلاك الأتراك والمغاربة، ولكنهم أنذروه إنه لن يسلموا أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وأنذروا بإحراق القاهرة ان لم يكفّ عبيده عنهم(٢).

والواقع ان هذا التفكير المضطرم المضطرب والشخصية المتقلبة القلقة أدت إلى خراب جسيم أصاب مصر والقاهرة وكل البلاد الفاطمية، ولم يكن مناص من أن تزول شخصية الحاكم هذه فزالت وكان زوالها على يد أقرب الناس إليه: أخته.

---

(١) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١٠، ص ٣٨٥ - ٣٨٩.

(٢) ابن تغري بردي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٤، ص ١٨١ - ١٨٢.

المستنصر بالله الفاطمي:

نصل الآن إلى خليفة هو أطول الخلفاء المسلمين حكماً إذ امتد حكمه فترة تنوف على ستين سنة هجرية (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ) وهي فترة امتازت بحدوث حوادث كثيرة جداً ومهمة جداً أثرت بعمق في سير التاريخ الإسلامي ككل.

فقد بلغت الدولة الفاطمية في أوائل عهده أوج مجدها، ومن ثم بدأت في الانهيار، كما وإن عهد الخليفة هذا شاهد تضاؤل سلطة الخليفة الزمنية كل التضاؤل، اذ دشن بدر الجمالي عهد الوزراء العظام الذين حجبوا الخليفة الفاطمي وحكموا باسمه وسلبوه كل سلطة. كما وإن **الامبراطورية** الفاطمية خسرت في أواسط القرن الخامس بلاد الشام كلها التي احتلها الأتراك السلاجقة بعد ان احتلوا بغداد سنة ٤٤٧ هـ واندفعوا غرباً نحو بلاد الشام وغرباً بشمال نحو الأناضول، وغرباً بجنوب نحو مصر. كما وان مصر تعرضت في عهده لأسوأ مجاعة أصابتها في تاريخها الإسلامي حتى هجر الناس البلاد ومات البشر بالألوف وأُكِلتْ الجيف. وظل الناس في هذه الأزمة الخانقة ما يقارب السبع سنوات وسميت هذه المجاعة باسم الشدة العظمى، وأخيراً حضر بدر الجمالي حاكم عكا إلى مصر واستلم الحكم فيها ونظم الأمور وانفرجت الأزمة وسيطر على الخليفة وأعاد الهدوء والاستقرار. ولقد سعى بدر الجمالي أن يزوج ابنته إلى الخليفة الفاطمي حتى إذا رزقت بولد منه أمكنه ان يرث زعامة الدنيا والدين. وهذا ما حدث، ولكن ذلك أدى إلى اضعاف الخلافة الفاطمية وحدوث انشقاق رهيب في صفوف دعاتها كما سنذكر بعد.

ومما يدل على هيبة الدولة الفاطمية في أوائل حكم المستنصر أن أحد قواده أنوشتكين شق عصا الطاعة وأعلن عصيانه على الدولة في حلب، فلم يرسل له المستنصر جيشاً وإنما أرسل له كتاباً يهدده وينذره ويوبخه ويعدد أياديه وأيادي الدولة الفاطمية عليه ويقول له: وإنما بقي لك الأيام القلائل ويكثر لك الندم

وتحل بك النقم[١]، والكتاب كله قطعة فنية أدبية بلاغية يكثر فيها الاستشهاد بالقرآن الكريم وتكثر فيها الصور البيانية والبلاغية مما يترك في النفوس انطباعاً جيداً. وهذا ما حدث لأنوشتكين، فقد أثر ذلك في أعصابه وأرسل إلى الخليفة يعتذر ويتنصل ويعلن عبوديته وولاءه ويقول: ... ولكنه بعد توصله وإعترافه بجرائره وذنوبه وتنصله يرجو قبول توبته وتمهيد عذره في إنابته[٢].

ومن الحوادث الهامة في تاريخ المستنصر ثورة البساسيري في العراق وإقامته الخطبة في قلب بغداد للخليفة الفاطمي وخروج الخليفة العباسي من بغداد ولجوءه إلى أحد الأمراء المحليين حتى تمكن طغرل بك زعيم السلاجقة، بعد ان قضى على ثورة أخيه إبراهيم ينال، ان يقضي على حركة البساسيري ويعيد الخليفة العباسي إلى مقر ملكه ويقضي على البساسيري نفسه. ولا ندري ماذا كان من الممكن أن يحدث لو أن الخليفة المستنصر كان في وضع يمكنه من استغلال هذه الثورة ومساعدة القائمين بها، ولكن الذي حدث والذي نعرفه ان أحد أسباب خذلان ثورة البساسيري عدم مساعدة الخليفة المستنصر الفاطمي للقائمين بهذه الثورة.

كذلك كان قطع المعز بن باديس خطبة العلويين في المغرب، وذكره اسماء الخلفاء العباسيين في الخطبة من الحوادث الهامة في عهد المستنصر. ذلك ان الخلفاء الفاطميين، من عهد المعز ومن بعده، ادركوا أنهم بارتحالهم إلى مصر قد أضاعوا المغرب، ولكن كان هناك ذلك الرباط الواهي بين الطرفين المتمثل في ذكر أسماء الخلفاء الفاطميين على منابر المغرب. ولكن المعز بن باديس قطع هذه الصلة الواهية فجرح بذلك كبرياء الفاطميين؛ ولم يكن بإمكان الخليفة إرسال جيش لمحاربة المعز، ولكنه، عملاً بإشارة وزيره اليازوري، أرسل له القبائل العربية التي خرجت من الجزيرة العربية في عهد مبكر وقدمت إلى مصر تعيث فيها فساداً،

---

(١) ابن القلانسي. المصدر المذكور آنفاً ص ٧٦ - ٧٨.

(٢) نفس المصدر.

ولذلك وجهت هذه القبائل، التي هي قبائل بني سليم وهلال إلى المغرب، وكان ذلك سبباً رئيسياً لخراب المغرب وتأخره الحضاري. ولقد أرسل الوزير اليازوري إلى المعز رسالة تهكمية يخبره بتوجه العربان نحو بلاده، فقد أرسلنا اليكم خيولاً فحولاً وحملنا عليها رجالاً كهولاً ليقضي الله امراً كان مفعولاً [1].

ولكن ظهور السلاجقة والشدة العظمى وتصارع السودان والأتراك ـ وهما العنصران الأساسيان في الجيش الفاطمي، حطم كيان الدولة الفاطمية وتحيفها كل التحيف وكاد يأتي عليها. فقد احتل السلاجقة بلاد الشام وضموها إلى أمبراطوريتهم، وأنهكت الشدة العظمى قوى مصر كل الإنهاك، وتحالف مع صراع الجيش في إذلال الخليفة، وأفسحت المجال أمام بدر الجمالي ليحضر إلى مصر ويسيطر على شؤون الخلافة ويحجب الخليفة ويتحكم به. ومنذ ذلك الوقت زال سلطان الخلفاء الفاطميين الدنيوي وبدأ عهد الوزراء العظام الذين تلقبوا بالملوك وبالسيد الأجلّ. كذلك شاهد المستنصر في أواخر أيامه **انقسام الحزب الفاطمي** قسمين رئيسيين: النزارية والمستعلية. وتنسب النزارية إلى نزار ولد الخليفة الأكبر، والمستعلية نسبة إلى المستعلي ولد الخليفة الأصغر من بنت بدر الجمالي. وعلى الرغم أنه لا يجوز أن يحوز المستعلي الإمامة في المذهب الفاطمي، إلا أن نفوذ بدر الجمالي ومن بعده ابنه الملك الأفضل جعلت المستعلي يصبح خليفة وهرب نزار من البلاد وانقسم الفاطميون إلى قسمين وجرى بين الطرفين نزاع حربي وجدل مذهبي، نجد ذلك واضحاً في الرسالة التي أذيعت لتبرير حق المستعلي في الخلافة ودحض دعوى أخيه نزار [2].

---

(١) ابن الأثير. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٩، ص ٥٦٦.

(٢) الشيال، جمال الدين. مجموعة الوثائق الفاطمية... القاهرة، دار المعارف. ١٩٦٥ م. ص ٢٠٥ ـ ٢٣٠.

الآمر بأحكام الله:

هذا وإن أشهر الوزراء العظام الذين حكموا مصر وأبرزهم أثراً هو الملك الأفضل ابن بدر الجمالي. وقد جرى على عادة والده في الاستبداد بالخلفاء الفاطميين. ولما اغتيل الملك الأفضل اتهم كثير من المؤرخين الخليفة الآمر بتدبير اغتياله، ولكن الآمر، ربما لكي يبعد التهمة عنه، وربما لسبب آخر، أصدر كتاباً ينعي فيه وزيره ويكيل له الثناء ويظهر عليه التأسف والتفجع. وكذلك خاف الخليفة، في نفس الوقت، من ردة ضده، ولا سيما ان للأفضل أنصاراً أقوياء. فأعلن اهتمامه بمصالح الجمهور وتسكينه لأمورهم، ويعدهم: أن لا يشغله عن مصالح الكافة شاغل، وإن باب رحمته مفتوح لمن قصده، وإحسانه عميم شامل، وله إلى تأمل أحوال الصغير والكبير منكم عين ناظرة، وفي إحسان سياستكم عزيمة حاضرة وأفعال ظاهرة[1].

وقد ظن الآمر إنه استرد سلطانه واصبح حراً في حكمه، ولكنه كان واهماً فإنه استبدل سيداً بسيد في شخص المأمون البطائحي الذي عينه هو نفسه وزيراً ولقبه بـ: الأجل المأمون عز الإسلام فخر الأنام نظام الدين خالصة أمير المؤمنين...[2].

وقد تميز عهد الآمر بمحاولات قام بها وزراؤه من أجل تصحيح زمن الخراج وتنظيم دفعه وإزالة الفروق بين السنة الهلالية التي عدد أيامها ٣٥٥ يوماً، والسنة الخراجية التي عدد أيامها ٣٦٥ يوماً وربع اليوم. فقد أصدر الأفضل مرسوماً سنة ٥٠١ هـ لأجل هذا التصحيح. كذلك حاول المأمون البطائحي أن يوجد له قاعدة شعبية فأصدر عدداً من المراسيم كلها تهدف، من جهة، إلى تنظيم إدارة

---

(١) ابن منجب الصيرفي، أبو القاسم علي. الإشارة إلى من نال الوزارة. تحقيق عبدالله مخلص. المعهد الفرنسي، أعادت مكتبة المثنى في بغداد طبعه بالأوفست. ص ٦٢.

(٢) المقريزي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٣، ص ٦٨ ـ ٦٩.

جباية الأموال، ومن جهة ثانية إلى التخفيف عن صغار الكسبة شيئاً من الأعباء المالية المفروضة عليهم. فقد أصدر مرسوماً بمسامحة أهل الخراج بما تبقى عليهم إلى آخر سنة ٥١٠ هـ، وذلك للفرق بين السنتين الهلالية والخراجية. كذلك حمى الوزيرُ الضامن من الزيادة التي يمكن ان تزاد على ضمانه اثناء فترة عقده لضمان شيء من أراضي الدولة أو أملاكها، كما كانت العادة آنذاك. وكان المأمون كريماً متسامحاً في حقوق بيت المال تجاه من يجب عليهم دفع الخراج عن سنوات عدة. فقد اعتاد كثير من المكلفين ولاسيما الأقوياء منهم، أن يماطلوا في دفع الخراج سنوياً وبانتظام مما جعله يتراكم لعدد من السنين فأصدر الآمر مرسوماً بإعفاء أمثال هؤلاء من المتراكم عليهم. ولكي يجعل الوزير الناس يحبونه، ولاسيما الفقراء، فقد أصدر باسم الخليفة مرسوماً يعفي مستأجري العقارات العائدة للدولة من دفع إيجار شهر رمضان كل عام تخفيفاً عليهم ورغبة منهم في الأجر وفي أن يدعوا له.

الحافظ لأمر الله:

وإذا وصلنا إلى خلافة الحافظ نكون قد وصلنا إلى عصر الإنهيار في كيان الدولة الفاطمية. فقد امتاز هذا العصر بالصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة، كما امتاز بصراع الخلفاء مع الوزراء ومع قواد الجيش، وبصراع الوزراء ومؤامراتهم، وكثرت استعانتهم بالفرنج الصليبيين وبنور الدين الشهيد، وطمع الفرنج كل الطمع في مصر وحاولوا احتلالها أكثر من مرة، واضطر حكامها ان يدفعوا لهم جزية ضخمة ليكفوا عاديتهم عنها، وأخيراً أتتها الضربة القاضية على يد نور الدين وقائد جيشه صلاح الدين عندما ألغيا الخلافة الفاطمية زمن العاضد بالله آخر الخلفاء الفاطميين.

ونحن نعلم أن الخلفاء الفاطميين قبل الحافظ، وبشكل خاص العزيز بالله، تسامحوا مع أهل الذمة كل التسامح حتى أن منهم من جعل أحد أفراد أهل الذمة

وزيراً له. ولكن لم يحدث ان استلم منصب الوزارة عند الفاطميين شخص ذمي أرمني. ونحب ان نذكر هنا أن الوزير عند الفاطميين، من لدن بدر الجمالي كان قائداً للجيش كما كان رئيس الجهاد الإداري، أي إنه حامل خطتي السيف والقلم، وهذا يجعله صاحب السلطة الحقيقية. ولقد استلم بهرام الأرمني السلطة زمن الحافظ واستقطب حوله أبناء جنسه وأساء السيرة حتى حدثت ثورة ضده بقيادة رضوان بن ولخشي فاضطر للهرب إلى بلاد الشام، ومن هناك بدأ يحيك الدسائس ويحاول العودة إلى مصر لاستلام الوزارة مجدداً، فأرسل إلى الحافظ رسالة يعلن ولاءه ويجس نبضه لمعرفة ما إذا كان لا زال على العهود والمواثيق التي قطعها له، ويطلب منه ان يرسل له ابناء طائفته إليه ويذكر رغبته في الاعتزال في دير من الأديرة والانقطاع إلى العبادة.

ويدل جواب الحافظ له على تيقظ وانتباه لمكايد إنسان عرفه سابقاً وخبره قديماً ويعرف خداعه ونزواته، وهو يخبره إنه لا زال على العهد القديم: ولكن المسلمين في البعد والقرب غضبوا للمتهم وامتعضوا مما لم تجر به عادة في شريعتهم ونفرت نفوسهم مما يعتقدون ان الصبر عليه قادح في دينهم ومضاعف لآلامهم... حتى إن أهل المشرق أخذوا في ذلك وأعطوا وعزموا على ما اتفقوا عليه مما صرفه الله وكفى مؤونته والاشتغال به[1].

ويرد طلبه في إرسال أهل ملته له بأنه: أمر لا يسوغ ولا يمكن فعله. ولو جاز أن يؤمر به لمنع المسلمون منه فلم يفسحوا فيه[2]. ثم يقول له: والآن فلن يخلو حالك من أحد قسمين: إما ان تكون متعلقاً بأمور الدنيا... فأمير المؤمنين يخيرك في ولاية أحد ثلاثة مواضع: إما قوص أو أخيم أو أسيوط... وإما أن تكون على القضية التي ما زلت تذكر رغبتك فيها وإيثارك لها: من التخلي عن

---

(١) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٨، ص ٢٦٠ ـ ٢٦٢.

(٢) نفس المصدر.

الدنيا ولزوم أحد الأديرة والانقطاع إلى العبادة، فإن كنت مقيماً على ذلك فتخير ضيعة من أي الضياع شئت يكون فيها دير تقيم فيه وتنقطع إليه، فتعين الضيعة ليجعلها أمير المؤمنين تسويفاً لك مؤبداً [1].

ثم ينذره بحرب شاملة مقدسة يشنها عليه جميع المسلمين وكل من يقول بالشهادتين من قاصٍ ودانٍ وقريب وبعيد حتى يستأصلوا شأفته ان هو رفض العرضين السالفين [2].

ومن الحوادث الهامة التي وقعت زمن الحافظ العلاقات الحسنة التي قامت بين روجر الثاني ملك صقلية النورماندي وبين الخلافة الفاطمية. ذلك إن علاقات روجر الثاني العدائية مع دول شمالي افريقيا المسلمة ورغبته في ضمان حياد مصر في هذا الصراع، ورغبته في فكاك الأسرى النورمانديين الموجودين في مصر، ورغبته في فتح أبواب التجارة بين بلاده ومصر، كل ذلك عوامل ساعدت على تدشين هذا العهد. ولم يكن لدى الحافظ وحكومته مانع من مثل هذه العلاقات الطيبة. ولقد حوت الرسالة الجوابية التي أرسلها الحافظ إلى ملك صقلية رداً مفصلاً على كل فقرة من فقرات الملك بحيث نستطيع معرفة مضمون رسالة الملك من رد الحافظ عليها. وقد عرض الملك في رسالته صداقته وطلب تحقيق عدد من المطالب يرجو الخليفة ان يحققها له.

ويبدو ان ملك صقلية افتتح رسالته على الطريقة الإسلامية، بحمد الله تعالى وشكره على نغمه وعلى ما أولاه للملك روجر الثاني ملك صقلية من نعم ومواهب. وهذا يدل على مدى تأثر النورمانديين بالحضارة الإسلامية حتى فيما يتعلق بطرق التخاطب، كما يدل على فهم الملك لعادات وتقاليد مجاوريه من الملوك والأمم فخاطبهم حسب عاداتهم، وينتهز الحافظ هذه الفرصة ليؤكد

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

للملك ان الله تعالى أعطاه وأعطى آباءه من قبله الدنيا والآخرة: إذ كان أفرادهم دون الخليقة بأن أعطاهم الدنيا ثم أعطاهم الآخرة[1].

كذلك يبدو ان ملك صقلية أراد أن يبرر أمام الحافظ احتلاله لجزيرة جربة، وهي جزيرة قرب تونس وهي بلد إسلامي، ولا يجوز لحاكم مسلم السكوت والرضا عن احتلال غير المسلمين لأرض إسلامية، وخاف روجر الثاني من ردة فعل من الخلافة الفاطمية فبرر احتلال الجزيرة بعدوان أهلها وعدولهم عن طرق الخيرات وسبلها، واجترائهم في الطغيان على أسباب لا يجوز التغافل عنها. ولقد كان جواب الحافظ متفقاً مع عجز الدولة الفاطمية عن القيام بأي عمل، فأقر الملك على فعله: فإن من كانت هذه حالته حقيق أن تكون الرحمة عنه نائية، وخليق ان يأخذه الله من مأمنه أخذة رابية[2].

ولقد مهد ملك صلقية، الذكي الأريب، لطلباته، بإطلاق سراح مركب من مراكب الخليفة اسمه المركب العروس كان أحد قباطنة سفنه الحربية اعتقله في مياه البحر الأبيض المتوسط. فلما علم الملك أنه يخص الحافظ أعاد الأشياء المصادرة، وأمر بإعادة المركب سالماً مخفوراً إلى الموانيء المصرية. وقد ذكر الملك ذلك في رسالته وجعله سبباً يمتّ به إلى الحافظ لإطلاق سراح عدد من الأسرى النورمانديين الموجودين في سجون مصر، ويخبره الحافظ أنه أطلق سراحهم وأمر بتسييرهم إليه. ثم يحدث الملك عن قضية بهرام وما فعله وما اقترفه من جرائم ضد الخلافة ثم كيف خلع وهرب. ويختم رسالته بالاعتراف باستلامه الهدايا التي أرسلها الملك مع رسوله إلى الخليفة وإلى رجال دولته وأجناده، وثم يخبره أنه، أي الحافظ مسير من قبله رسولاً إلى الملك مع رسالة وألطاف وهدايا أجود وأفضل وأغزر مما أهدى إليه[3].

(١) نفس المصدر. جـ ٦، ص ٤٥٨ - ٤٦٣.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

العاضد بالله:

ولقد امتاز عهد العاضد بالفوضى المتناهية التي شملت كل مرافق الحياة تقريباً، وبالعجز المطلق للخلافة الفاطمية، وبالصراع الرهيب الذي دار بين الخليفة من جهة، وبين وزرائه من جهة ثانية، ثم بين الوزراء بعضهم بعضاً، ولقد دخل الصليبيون، بعد هنيهة، طرفاً ثالثاً في هذا الصراع وهددوا مصر تهديداً خطيراً كل الخطورة حتى اضطر العاضد ووزراؤه إلى الاستعانة بنور الدين وجيوشه ثلاث دفعات. ولكن نور الدين وقائد جيشه أسد الدين شيركوه لم يكونا ينظران إلى الأمر على أنه مجرد استعانة، وإنما وضعا أمام أعينهما هدفاً محدداً ثابتاً هو إنقاذ مصر من الخطر الصليبي الماحق الذي يهددها. وهذا لا يتم إلا بإكمال عملية التوحيد التي بدأها عماد الدين زنكي وسار فيها شوطاً بعيداً ابنه نور الدين وأكملها من بعده صلاح الدين.

ولكن ذلك لا يمكن ان يتم مع وجود ثلاث قوى تمنع من ذلك: القوة الأولى الصليبيون، والقوة الثانية قوة الوزراء الفاطميين المتمثلة خاصة بشاور وولده وأخيراً الخلافة الفاطمية نفسها.

أما الصليبيون فقد تمكن أسد الدين شيركوه ومن بعده صلاح الدين من رد عاديتهم عن مصر.

وأما الوزراء الفاطميون فقد دخلوا في صراع مرير رهيب مع أسد الدين وصلاح الدين. وأخيراً تمكن صلاح الدين من التحالف مع العاضد والقضاء على شاور وابنه، وأصبح شيركوه أسد الدين وزيراً للعاضد، وبعد وفاته حل محله في هذا المنصب ابن أخيه يوسف بن أيوب المعروف بلقبه صلاح الدين.

ولقد ظن شاور أن أسد الدين شيركوه مثل غيره من الرجال وإنه يمكنه اللعب به، ولذلك بعد أن حضر شيركوه إلى مصر نجدة لشاور ضد الصليبيين وهرب هؤلاء أهمله شاور كل الإهمال ولم يلتفت إليه، فأرسل إليه شيركوه

سنجزه وعوده ويقول له: قد طال مقامنا في الخيام، وقد ضجر العسكر من لحر والغبار، فأرسل إليه شاور ثلاثين ألف دينار وقال له خذها وانصرف بأمان لله. ولكن شيركوه كان له رأي آخر في الموضوع: كان يحلم في البقاء بمصر بحكمها ولذلك رفض ذلك متذرعاً أن سيده نور الدين أمره أن يبقى في مصر مد عودة شاور إلى الوزارة وأن يقسم واردات مصر ثلاثة أقسام: قسم لشيركوه عسكره، وقسم لشاور وعسكره وقسم للخليفة العاضد. ولكن شاور أنكر أن كون مثل هذا الاتفاق تم بينه وبين نور الدين، ورفض شيركوه الرجوع إلى لاد الشام والعودة إلى نور الدين[1]. وتعقدت القضية حتى تدخل نور الدين طلب إلى شيركوه العودة إلى بلاد الشام، فعاد. ولكن بعد برهة رجع إلى مصر ثر تهديد صليبي لها، ولكنه في هذه المرة أقام وخلع شاور عن الوزارة وحل محله ي سدتها، ولما توفي بعد فترة أصبح صلاح الدين وزيراً للخليفة. وأخيراً صدر مر نور الدين الحازم الذي لا رجعة فيه بإلغاء الخلافة الفاطمية إلى صلاح لدين. **وصدف** أن مات العاضد وبعد موته بأسبوع واحد ألغيت الخلافة لفاطمية سنة ٥٦٧ هـ وعادت مصر إلى أحضان السنة.

والملاحظ أن إلغاء الخلافة الفاطمية تم بمنتهى الهدوء ولم يثر أي اضطراب أو .د فعل من جراء هذا العمل في مصر بخاصة، إذ هي مركز الحكم الفاطمي. بل على إلغاءها قوبل من سواد الشعب المصري بالارتياح، ولم يقم بشيء من أعمال لشغب والعنف إلا بعض المنتفعين من المرتزقة والجنود الذين تضرروا مادياً من إلغاء الخلافة الفاطمية وخسروا مناجعهم ومراكزهم وما كانت تدره عليهم، فأرادوا إعادة الخلافة الفاطمية، ولكنهم سرعان ما حطموا وحطمت مؤامرتهم

---

(١) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. تحقيق محمد حلمي محمد أحمد. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦ م. جـ ١، ق ١، ص ٤٣٠ - ٤٢١.

كما تحطم قطعة من الزجاج. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على تأصل وتعمق المذهب السني في نفوس أهل مصر، ورفضهم كل ما يخالف هذا المذهب من عقائد وبدع.

وإذا أردنا أن نضع الدولة الفاطمية في مكانها الصحيح في إطار التاريخ الإسلامي قلنا إن المبدأ الذي نبعت منه هذه الخلافة منبع لا يمتّ إلى الإسلام الحقيقي بصلة. ذلك أن مبادىء الفاطميين الداعية والقائلة بتقديس الخليفة واعتباره معصوماً وتكفير كل من خالفه وما شابه ذلك من تعاليم تخالف روح الإسلام وتعاليمه. وهذا يفسر سرعة زوال كل أثر لهذه الدولة ولما بثته من تعاليم وعقائد.

ولكن من جهة أخرى فقد كان للفاطميين الأوائل جهد مشكور في رد الروم عن بلاد الشام، كما كان لهم بعض الأثر في الصراع ضد الفرنج في بلاد الشام، وإن كانت مبادئهم وظروف أخرى كثيرة، حالت دون تكوين حلف إسلامي يقف في وجه الصليبيين. كما وإن صراعهم العسكري مع السلاجقة أضعف الطرفين وكان أحد العوامل الرئيسية في نجاح الصليبيين واحتلالهم ساحل بلاد الشام. ولقد كانت الدولة الفاطمية دولة متسامحة مع أهل الذمة حتى أصبح عدد من الذميين وزراء في عهود عدد من الخلفاء، كما وأنها شجعت العلوم والآداب والفنون والمكتبات خاصة كما فعل العزيز بالله والحاكم بأمر الله. ولقد كان أوائل الخلفاء متحمسين لنشر مذهبهم ولذلك كان تسامحهم مع مخالفيهم من أهل السنة أقل بكثير من تسامحهم مع أهل الذمة. ولكن متأخري خلفائهم لم يعودوا يهتمون إلا بالمنصب وأصبحت الدعاية للمذهب الفاطمي عملاً تقليدياً. كذلك حفظت الدولة الفاطمية علاقات خارجية جيدة مع جيرانها من الدول المسيحية فكان ذلك أحد عوامل ازدهار التجارة. وإن وجود بعض الوزراء الأقوياء في العصور الأخيرة مثل الأفضل والمأمون البطائحي جلب شيئاً من

الرخاء إلى سكان مصر، على حين كان صراع الوزراء المتأخرين سبباً في جلب الكوارث والخراب للدولة التي تلقت الضربة القاتلة النهائية من يد نور الدين الشهيد سنة ٥٦٧ هـ.

الدّولة الأتابكيّة:

وتسمى أحياناً الدولة الزنكية نسبة إلى مؤسسها زنكي بن آق سنقر. وأما الأتابكية فنسبة إلى أتابك وهو لقب كان يلقب به مربو الملوك السلاجقة وهو مؤلف من مقطعين أعجميين الأول أتا بمعنى أب أو والد، والثاني بك بمعنى أمير، وكلمة أتابك تعني الأمير الوالد. وكما قلنا كان يعهد بالأمير السلجوقي أو الملك الحدث إلى أحد الأمراء المجربين حتى يعلمه ويدربه، ولقبه أتابك، ثم صار لقب شرف يمنحه السلاطين للمقربين من الأمراء وغيرهم. وزنكي مؤسس الدولة منحه أحد ملوك السلاجقة هذا اللقب فانسحب اللقب على السلالة التي أسسها وعلى الدولة التي أوجدها. ولقد تأسست هذه الدولة في شمالي العراق في الموصل على **يد عز الدين زنكي** الذي ما لبث أن توسع غرباً فاحتل حلب، ثم أتى ابنه نور الدين محمود فتوسع في بلاد الشام حتى ضم دمشق وبقية بلاد الشام باستثناء التي تقع تحت الاحتلال الصليبي، ثم توج عمله بالقضاء على دولة الفواطم وتأسيس دولة قوية في بلاد الشام ومصر. ولقد قدر لدولة نور الدين الشهيد أن تضعف كل الضعف بعد وفاته، ذلك أنه توفي ولم يخلف سوى ولد ذكر قاصر، ولم يحسن الأمراء حوله السياسة ودخلوا في صراع مع صلاح الدين وخيم على البلاد شبح الحرب الأهلية. ثم فر الأمراء حول الملك الصالح بن نور الدين بالملك إلى حلب، وهناك استمر الملك الصالح حاكماً فيها حتى وفاته في سن السابعة عشرة، ثم تمكن صلاح الدين من إعادة توحيد بلاد الشام ومصر تحت حكمه. وهكذا زال الفرع النوري من الدولة الأتابكية من الوجود في سورية ومصر، على حين ظل فرع الموصل من الدولة الأتابكية في الحكم في الموصل، بشكل أو بآخر، حتى الغزو المغولي للمنطقة.

عماد الدين زنكي:

وتدل أخبار عماد الدين على أنه شخصية قوية طموحة ذكية. وقد كان مدركاً تمام الإدراك لمخاطر الغزو الصليبي للعالم الإسلامي، وكان على علم تام أن العلاج الوحيد والسبب الأقوى للوقوف في وجه الصليبيين هو الوحدة. ولما كان عارفاً بطبيعة عصره وأن الوحدة لا يمكن أن تتم إلا بالقوة، فقد أخذ بأسباب القوة، وافتتح دورين أساسيين في التاريخ الإسلامي: دور توازن القوى في الحروب الصليبية، ودور التوحيد للقوى والأراضي الإسلامية. وعلى الرغم من أن عماد الدين اشتغل أول أمره مع سلاطين السلاجقة وانغمس في مشاكلهم ومنازعاتها وحروبهم التي تمركزت حول شرقي **الأمبراطورية** الإسلامية. إلا أنه لم يلبث أن تخلص من تلك المشاكل والتفت إلى إنجازيه العظيمين. فهو الذي دق أول مسمار في نعش الوجود الصليبي في البلاد الإسلامية وذلك عند احتلاله مدينة الرها وتحريرها واسترجاعها من الصليبيين. وكان احتلاله إياها بداية النهاية في الحروب الصليبية وفاتحة عهد الاسترجاع الكبرى التي استمرت زهاء قرن ونصف بعد ذلك.

كذلك سعى زنكي حتى ضم بالقوة جميع مدن الجزيرة إلى مملكته. وتدل أعماله على شجاعة وذكاء ودهاء، فقد تمكن بدهائه وحيلته أن يجعل أهل نصيبين ييأسون من دعم حاكمها لهم وأن يستسلموا لعماد الدين ذلك أن عماد الدين حاصر نصيبين ولم يكن أميرها موجوداً فيها وإنما كان عند ابن عمه حاكم ماردين، فأرسل على أجنحة الطير رسالة إلى أهل نصيبين يطلب إليهم أن يصمدوا خمسة أيام فقط لأنه سيكون عندهم عند انقضاء هذه المدة بجيش قوي مع ابن عمه؛ ولكن الرسالة وقعت بيد عماد الدين قبل وصولها لأهل نصيبين، فما كان منه إلا أن غير فيها بعض الأرقام فجعل الأيام الخمسة عشرين يوماً، فأدى ذلك إلى أن فُتَّ في عضد أهل البلدة واستسلموا لعز الدين[1] كذلك

(١) ابن الأثير. المصدر المذكور آنفاً. ١٠ جـ، ص ٦٤٦.

حرص عماد الدين أن يجعل علاقاته طيبة مع السلطان السجلوقي والخليفة العباسي اللذين حاولا استدراجه للانغماس في مشاكلهما، ولكنه لم يتخل عن هدفه المزدوج، وإن يكن حاول إرضاء الطرفين، ولقد حاول عدة مرات احتلال دمشق، ولكنه لم ينجح.

كذلك لعماد الدين يد طولى في صد غزوات وهجمات الروم عن شمالي بلاد الشام وخاصة لما حاصروا شيزر سنة ٥٣٢ هـ. فقد تمكن بدهائه أن يجعل الأعداء ينسحبون من شمالي سورية على الرغم من ضعف موارده العسكرية بالنسبة لهم.

وأخيراً لقي مصرعه وهو يحاصر قلعة جعبر فأكمل عمله ابنه الثاني نور الدين محمود الشهيد.

نور الدين الشهيد:

نجد في نور الدين وشخصيته قبسات من ملامح وشخصية الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم. فقد كان ملكاً مجاهداً بكل ما في الكلمة من معنى. وكان يخاف الله تعالى في نفسه، ولكنه كان يخاف الله تعالى أكثر ما يكون في الرعية. وكان عنده شعور عظيم بالمسؤولية ويخاف من تحمل المسؤولية أو بالأحرى من التقصير في حملها. وقد ظل طوال عمره عاملاً على نصرة الإسلام والمذهب السني، جاعلاً موئله الأساسي أوامر الله تعالى ونواهيه، سواء أكان ذلك في حياته الشخصية أم في حياته العامة. كذلك ورث عن أبيه مهمة تحقيق الوحدة التي بدأها أبوه. وقد شاء الله أن تتوحد على يديه بلاد الشام ومصر، وكانت هذه الوحدة الأساس الذي استندت إليه عملية تطهير الأراضي الشامية من رجس الوجود الصليبي، كما كان يعمل جاهداً في سبيل تطهير بلاد الشام من الوجود الصليبي ويتطلع إلى اليوم الذي يستعيد فيه القدس الشريف ويعيده إلى أحضان الإسلام والمسلمين. وإذا تمكن صلاح الدين أن يحقق أحلام نور الدين

في استرجاع القدس الشريف وفي كسر حدة الصليبيين وفلّ حدهم، فإن الفضل الأول في ذلك لنور الدين وأعماله وجهوده في هذا السبيل.

كذلك لا ننسى عدل نور الدين الذي يضرب به المثل حتى لقب بالملك العادل، ولا ننسى أعماله العمرانية والثقافية وجهوده في سبيل النهوض بشعبه إلى أعلى المستويات. فقد بنى المدارس والمشافي ودار العدل وأصلح الطرقات، وفعل كل ما يجب أن يفعله الحاكم الصالح لشعبه. ولا تزال المدرسة النورية والمارستان النوري في دمشق شاهدين حيين بصحة ما نقول. وفي الوقت نفسه لا زالا شاهدين عدلين على عظمة فن العمارة الإسلامي وما بلغه هذا الفن من رقي زمن نور الدين رحمه الله.

أيام نور الدين الأولى:

وإن ما ذكرناه ينطبق على نور الدين من أول أيامه في الحكم، عندما كان حاكماً صغيراً، إلى آخر أيامه عندما أصبح ملكاً على بلاد الشام ومصر. كما وأنه ذو فكرة نيرة جداً عن احتياجات الجهاد والحرب والإعداد الذي يجب أن يُعَدَّ من أجلها. وهو مثل أعلى للمسلم الذي يستغل حتى أوقات اللعب للاستعداد للجهاد ومجاهدة الأعداء. فقد كان نور الدين يدمن اللعب بالكرة، وكان هناك رجل صالح في الجزيرة بينه وبين نور مودة وأنس، وظن أن لعب نور الدين للعب وتمضية الوقت فقط فكتب إليه يقول: ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل دون فائدة دينية. ولكن الواقع أثبت أن نور الدين في وادٍ، والرجل الصالح في وادٍ آخر، ذلك أن نور الدين كان يقصد بالإدمان على لعب الكرة تدريب الخيل والرجال على الكر والفر وإذهاب جمام الخيل: ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة. فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب

فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة[1].

كذلك يظهر تمسكه التام بحدود الله تعالى واعتقاده بكفايتها من أجل إقامة نظام الكون وتحقيق العدالة في رسالته الجوابية إلى الشيخ عمر الملا. وذلك أن نور الدين ولى شحنة الموصل إلى كمشتكين وطلب إليه أن لا يخرج عن أمر الشيخ عمر الملا. ويبدو أن حكم كمشتكين لم يكن حازماً فطلب إلى الملا أن يكتب إلى نور الدين أن يسمح لهم باستعمال الشدة من قتل وصلب مع العصاة. وأرسل الشيخ إلى نور الدين رسالة يطلب منه ذلك. ولكن نور الدين العالم بحدود الله تعالى وكفايتها، والمتمسك بها أجاب الشيخ بما يلي: إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بما يصلحهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى[2].

كذلك يدل حرصه على ما يرضي الله تعالى وعلى راحة رعيته والمسلمين وصيتُه لأجناده وقد مرض ذات مرة مرضاً يئس فيه من الشفاء وظن أن أيامه أوشكت على الانقضاء، فعدل بوصيته بالحكم بعده ـ ولم يكن رزق بولده الملك الصالح بعد ـ عن أخيه نصرة الدين لما يعرف من أخلاقه وسوء أفعاله إلى أخيه الآخر قطب الدين مودود لما يرجع إليه من عقل وسداد ودين وصحة اعتقاد[3]. ثم منّ تعالى عليه بالشفاء ولم يعد هناك حاجة للوصية.

علاقة نور الدين بالدولة الفاطمية:

يبدو أن فكرة إلغاء الخلافة الفاطمية تبلورت عند نور الدين بالتدريج، ولم تكن تلك الفكرة جاهزة في ذهنه عندما بدأ اتصاله الأول بالفاطميين. وهذا

---

(١) أبو شامة. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١، ق ١، ص ١٢ ـ ١٣.

(٢) نفس المصدر. جـ ١، ق ١، ص ٣٢.

(٣) ابن القلانسي. المصدر المذكور آنفاً. ص ٣٥٥.

وضع طبيعي، فقد كان يجهل الكثير عن قوة الدولة الفاطمية، وكان لا يعرف مدى استعداد الشعب المصري لإلغائها، كما وكان هناك الفرنج الصليبيون الذين كانوا حلفاء طبيعيين للفاطميين ضد نور الدين. وأخيراً خاف من طموح قائد جيشه أسد الدين شيركوه أن يستقل بحكم مصر، وهو يريد مصر قوة لدولته لأجل التغلب على الصليبيين. ولذلك لما تخاصم شيركوه مع شاور من أجل البقاء في مصر أو الارتحال عنها، أمر نور الدين شيركوه بالرجوع إلى بلاد الشام، فسر بذلك شاور كل السرور وأرسل إلى نور الدين يشكره ويمدحه ويقول: ورد كتاب استدعى شكري وحمدي واستخلص من الصفاء ما عندي واستفرغ في الثناء على مرسله جهدي [1]. ولكن هذا الود الشاوري كان خداعاً، وأدرك نور الدين خداعه وضعف مصر المتناهي وعدم وجود سند شعبي للخلافة الفاطمية فيها؛ فأرسل شيركوه، ومعه ابن أخيه صلاح الدين، للمرة الثالثة إلى مصر. وهناك تمكنت الحملة من إبعاد الخطر الصليبي، ثم تمكنت من إبعاد شاور وقتله وأصبح أسد الدين شيركوه وزيراً للخليفة الفاطمي، فأثار بذلك مخاوف نور الدين أن يستبد شيركوه بحكم مصر، ولذلك نراه يحاول إرجاعه إلى بلاد الشام. ولكنه في رسائله الموجهة إلى الخليفة الفاطمي يعرض بحاجته إليه، ولم يذكر رغبته في عودته إلا تلميحاً مثل قوله... وقد افتقر العبد إلى بعثته وأعوز عسكره يمن نقيبته، واشتد حزب الضلال على المسلمين لغيبته [2].

ولقد توفي أسد الدين شيركوه بعد ان حقق شيئاً أساسياً في هذا المجال؛ وهو إدراكه أن أهل مصر يرحبون بإلغاء الخلافة الفاطمية وعودة مصر إلى أحضان السنة. فقد قال في وصيته عند وفاته: الحمد لله الذي بلغنا من هذه

---

(١) ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم. تاريخ ابن الفرات. تحقيق حسن محمد الشماع. البصرة، مطبعة حداد، ١٩٦٧ م. الجزءان الرابع والخامس. جـ ٤ ـ ٥ ـ ٦.

(٢) نفس المصدر. جـ ٤، ص ٤٨.

البلاد ما أردنا، وصار أهلها راضين عنا [1]...

ولقد خلفه في قيادة الجيش وفي الوزارة للخليفة الفاطمي ابن أخيه يوسف ابن أيوب الملقب بصلاح الدين فحقق جميع مطامح وأفكار نور الدين وأولها إلغاء الخلافة الفاطمية.

ولقد أدرك نور الدين ان الوقت قد حان لتنفيذ أمنية من أعز أماني الخلافة العباسية وهي إلغاء الخلافة الفاطمية، ولاسيما وإن الخليفة العباسي المستنجد بالله أرسل إلى نور الدين يحثه على ذلك. ويبدو ان صلاح الدين خاف سوء العاقبة فتمهل في مثل هذا الأمر الخطير. ولكن نور الدين ألزمه إلزاماً لا مندوحة منه وأرسل إليه يقول: وهذا أمر تجب المبادرة إليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت، ولاسيما وأمام الوقت متطلع إلى ذلك بكليته وهو عنده من أهم أمنيته [2].

وعندئذٍ أقدم صلاح الدين على إلغاء الخلافة الفاطمية وعلى إقامة الخطبة في مصر للخليفة العباسي المستضيء بنور الله. وكان ذلك في أوائل المحرم من سنة ٥٦٧ هـ. ولم يثر إلقاؤها إلا رد فعل بسيطاً من بعض المتنفعين الذين ساءهم حرمانهم من مناصبهم ومراكز قوتهم، فحاولوا القيام بمحاولة مخذولة لإعادة الخلافة الفاطمية، ولكنهم ضبطوا وسجنوا وقتل رؤساؤهم كما سنرى بعد حين.

ونستطيع ان نتصور الأثر النفسي العظيم الذي أحدثه إلغاء الخلافة الفاطمية في نفوس الحكام والشعب آنذاك. فقد اعتبر ذلك أعظم إنجازات نور الدين وصلاح الدين، وصدرت الكتب عن نور الدين وصلاح الدين إلى الخليفة العباسي تبشره بهذا العمل، وأصدر نور الدين بشارة إلى عموم المسلمين بإلغاء

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن، كتاب العبر... بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٧١ م. ٦ جـ، ق ٥، ص ٦٢٢

(٢) أبو شامة، المصدر المذكور آنفاً ١ جـ، ق ٢ ـ ص ٤٦٦.

الخلافة الفاطمية وقيلت بهذه المناسبة الأشعار ودبجت المقالات... فقد أرسل صلاح الدين إلى الخليفة يبشره بهذا الحدث الجلل ويقول: لم يبق بتلك البلاد منبر إلا وقد اجتمعت عليه الخطبة لمولانا الإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين وتمهدت جوامع الجمع وتهدمت صوامع البدع[1] كما يقول من رسالة ثانية حول نفس الموضوع: واستفتح بلبس السواد الأعظم الذي جمع الله عليه السواد الأعظم[2].

ويقول نور الدين في إحدى رسائله إلى المستضيء:

قد خطبنا للمستضيء بمصر نائب المصطفى إمام العصر
ولدينا تضاعفت نعم الله وجلت عن كل عد وحصر[3]

ويقول نور الدين في بشارته لجميع المسلمين بإلغاء الخلافة الفاطمية: وهو ما اعتمدنا من إقامة الدعوة الهادية العباسية بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية والإسكندرية ومصر والقاهرة وسائر الأطراف القاصية والدانية... ولم يبق بتلك البلاد منبر إلا وقد أقيمت عليه الخطبة لمولانا وسيدنا الإمام المستضيء بنور الله أمير المؤمنين...[4] ولقد اعتبر نور الدين عمله هذا عملاً دينياً عظيماً لا يقل عن حرب الفرنج والصليبيين. وانتصاره في إلغاء الخلافة الفاطمية انتصار كبير لا يقل عن الانتصار على الفرنج... واجتمع داءان: الكفر والبدعة وكلاهما شديد الروعة مديد اللوعة، فأنهضنا إليها من عساكرنا المنصورة كل ناهض... وملكنا الله ملك البلاد ومكن لنا في الأرض، وأقدرنا على ما كنا نؤمله من إزالة الإلحاد والرفض من إقامة الفرض[5].

(١) السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن. تاريخ الخلفاء... تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة. القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٦٩ م. ص ٤٤٦.

(٢) أبو شامة. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١، ق ٢ - ص ٤٩٦ - ٤٩٧.

(٣) ابن تغري بردي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٥، ص ٣٥٦.

(٤) ابن الفرات. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٤، ص ١٧٤ - ١٧٧.

(٥) نفس المصدر.

ولكن ذلك لم يكن خاتمة المطاف مع أنصار الخلافة الفاطمية في مصر، فقد سكتوا على مضض، وبدأوا يعملون في الظلام ويوحدون صفوفهم واستعانوا بفرنج الشام حتى يتمكنوا ان يستعيدوا عزهم ونفوذهم السالفين ولكن صلاح الدين، وهو الحاكم الذكي اليقظ، كان متنبهاً لهم كل التنبيه، ومدّ لهم في حبل الرجاء، حتى إذا نضجت المؤامرة وجه لها وللمتآمرين ضربة قاصمة اجتثت أصولهم وأطاحت بفروعهم. ولقد فصل كل ذلك في رسالته التي وجهها إلى نور الدين حول ذلك الموضوع. تقرأ الرسالة فتشعر بعظمة صلاح الدين إذ إنه توقع ذلك من أنصار الفاطميين وأجنادهم منذ اللحظة الأولى، ولذلك وضعهم تحت المراقبة الخفية الذكية، ومدّ لهم في فسحة الأمل. وهو يذكر إنه اعتقلهم أول مرة، ولما لم يثبت عليهم شيء أطلق سراحهم. وما أجمل قول صلاح الدين مخاطباً نور الدين:

والمولى عالم ان عادة أوليائه المستفادة من أدبه ألا يبسطوا عقاباً مؤلماً ولا يعذبوا عذاباً محكماً، وإذا طال لهم الاعتقال ولم ينجع السؤال أطلق سراحهم وخلى سبيلهم، فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة ولا الرقة عليهم إلا قساوة[1] ثم اتصل القوم بملك القدس الصليبي الذي أرسل رسوله «جرج» ظاهراً ليفاوض صلاح الدين ببعض الأمور التفصيلية، وباطناً ليتصل بالمتآمرين ويضع معهم خطة العمل. كما وانهم اتصلوا بسنان زعيم الحشيشية وطلبوا إليه العمل على اغتيال صلاح الدين. ووضعوا خطة للعمل وقرروا تنفيذها عندما يكون صلاح الدين مشغولاً بحرب الصليبيين وعينوا خليفة فاطمياً ووزراء. فلما نضجت المؤامرة وتجمعت خيوطها في يد صلاح الدين بطش بالمتآمرين بعد أن أفتاه الفقهاء بضرورة قتل المتآمرين، فقتل رؤوس المؤامرة وشرد جند السودان إلى

---

(١) أبو شامة. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١، ق ٢، ص ٥٦٣ - ٥٦٦.

أقصى الصعيد ووضعت حول القصر الفاطمي الحوطة وفرضت الرقابة الصارمة عليهم أجمعين [١]

علاقة نور الدين بالخلافة العباسية:

ولقد كانت علاقة نور الدين، منذ أيامه الأولى، بالخلافة العباسية علاقة ود وإكبار، فكان ينظر إلى الخليفة على انه خليفة الرسول ونائبه وإمام العصر. كذلك بادلته الخلافة العباسية وداً بود وحباً بحب حتى تمكن ان يقدم لها أكبر خدمة أداها إنسان لها وهي إلغاء الخلافة المنافسة للعباسيين والتي ظلت فترة طويلة وهي شجىً في حلوقهم وقذى في عيونهم. ولكن لم يكن باستطاعة الخلافة العباسية ان تمد نور الدين وجميع المؤيدين بأكثر من التأييد المعنوي والتقليد والخلعة، وهم بدورهم كانوا يخطبون للخليفة العباسي في بلادهم، فبادلوهم روحانيات بروحانيات. كذلك كان نور الدين، بين الفينة والفينة، يحيط الخليفة علماً بما يجد لديه من حوادث، فإن كانت كوارث ومصائب، كما في حال الزلازل الرهيبة التي ضربت بلاد الشام في أواسط القرن السادس للهجرة عرض بذكر المساعدة:... وإن بالثغور الإسلامية شدة افتقار إلى تحصينها، وإعادة بناء حصونها قبل أن يستفحل الداء ويتفرغ لشغلها الأعداء. والحال مفتقر لعمارة الثغور وضبط الأمور... إلى ذخائر أموال تبذل وتدال، ولا غنى عن مساعدة ومساعفة بنفقات يستعان بها على سد الثلمة ودفع الملمة وتجديد العمارة الزائلة، وتسديد حال الزلزلة الهائلة [٢].

علاقة نور الدين بصلاح الدين:

وصلنا الآن إلى نقطة شائكة حساسة، وهي علاقة صلاح الدين بنور الدين. وقد اتهم كثير من الباحثين صلاح الدين بقلة الوفاء وإنه عض اليد التي أحسنت

(١) نفس المصدر.

(٢) ابن الفرات. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٤، ص ٩٦ ـ ٩٧.

إليه. ونحن لا ننكر على صلاح الدين طموحه، وإنه كان يسعى لإيجاد ملك له. ولكن الذي يبدو لنا ان هذه الفكرة لم تنبت في ذهنه إلا بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه واستقلاله في أمر مصر. ذلك ان شخصية أسد الدين كانت طاغية وطموحه معروف، ولكن ما ان ثبتت قدم صلاح الدين في مصر واستدعى أهله إليه حتى ظهر ذلك الطموح واضحاً. فقد بدأ يخاطب الخليفة العباسي مباشرة. كذلك بدأ يفكر حتى بمقاومة نور الدين ان فكر في مهاجمة مصر وإخراجه منها، كما تدل على ذلك محاورته مع أبيه وخاله وبقية قواده. ولقد علمه أبوه درساً في الكتمان وكيف ان على المرء أن يستعين بالكتمان في قضاء حوائجه[1] ولا نعتقد ان نور الدين كان خافياً عليه طموحهم، ولكنه أراد، في رأينا، أن يستفيد من الامكانات الممتازة المتوفرة لدى آل أيوب، وفي نفس الوقت يحقق لهم من هذا الطموح ما لا يضر بالمصلحة العامة ولا يؤثر على مركز نور الدين. وهذا ما يفسر تغاضي نور الدين عن صلاح الدين وعدم قصده بالعداء. ذلك لأن مطامح صلاح الدين في مصر أصبحت واضحة كل الوضوح. ولكن رغبة نور الدين في حقن دم المسلمين، ورغبته في توجيه جميع القوى نحو الفرنج جعلته يتمهل ولا يعجل. كذلك فإننا نعتقد أن صلاح الدين، على الرغم من طموحه ورغبته في ملك مصر، لم يكن ذلك الرجل الذي يحارب سيده ويشق عصا المسلمين ويفرق وحدتهم من أجل هذا الطموح، إذ ان الرجلين كانا مثالين نادرين للإخلاص لله تعالى ونصرة الإسلام والمسلمين وقضاياهم. وتدل الرسائل التي أرسلها صلاح الدين إلى نور الدين في السنة التي سبقت وفاته على رغبة صادقة في إرضائه ولهجة موثوقة بالطاعة والإخلاص والولاء. فقد بلغت صلاح الدين إشاعة وهو في مصر، أطلقها فرنج الشام، ان نور الدين توفي، فأرسل له رسالة مستفسراً عن صحته وعن مدى صحة هذه

---

(١) ابن الأثير. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١١، ص ٣٧٢ - ٣٧٣.

الإشاعة. وهو في رسالته هذه يحض من حول ابن نور الدين على الإتحاد وعدم تفرق الكلمة: ... فاللهَ اللهَ ان تختلف القلوب والأيدي فتبلغ الأعداء مرادها... فكونوا يداً واحدة وأعضاداً متساندة[1]... ثم يقول للأمراء والجميع: ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله وقائم لا نسلمه. وقد كانت وصيته إلينا سبقت، ورسالته عندنا تحققت بأن ولده القائم بالأمر وسعد الدين كمشتكين الأتابك بين يديه، فإن كانت الوصية ظهرت وقبلت، والطاعة في الغيبة والحضور أديت وفعلت، وإلا فنحن لهذا الولد يد على من ناوأه وسيف على من عاداه[2] ثم يختم رسالته هذه بقوله: وان أسفر الخبر عن معافاة فهو الغرض المطلوب والنذر الذي يحل على الأيدي والقلوب[3].

يمكننا ان نسمي هذه الرسالة اعلان الولاء يقدمه صلاح الدين لنور الدين ولولده من بعده. ولقد أدرك ذلك كله نور الدين فلم يتعرض لصلاح الدين طوال حياته. ولما انتقل إلى جوار ربه حدثت أحداث كثيرة غيرت سير الأمور جذرياً وقذفت بصلاح الدين إلى الذروة وتقهقر البيت الأتابكي إلى الخلف.

سياسة نور الدين الخارجية «باستثناء الصليبيين»:

كان هدف نور الدين الأول ـ بعد استلامه حكم حلب أثر وفاة والده ـ احتلال دمشق وضمها إلى ملكه، وكانت مملكة دمشق قد ضعفت كل الضعف وتوفي حاكمها معين الدين أنر، وبدأت تجمع الجزية للفرنج، فأتاها نور الدين يريد احتلالها، ولكنه استعمل الدهاء حتى لا يلقي حاكمها مجير الدين نفسه في أحضان الفرنج، فأرسل يخبره إنه لم يأت محارباً وإنما أتى ليحارب الفرنج ويطلب منه المعاونة على هذا الغرض النبيل. ولكن مجير الدين أجابه بوقاحة:

---

(١) أبو شامة. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١، ٢ ق، ص ٥٨٧.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

ليس بيننا وبينك إلا السيف وسيوافينا من الفرنج ما يعيننا على دفعك ان قصدتنا ونزلت إلينا [١]. فاضطر إلى ترك المدينة وأجل احتلالها إلى فرصة مواتية، وقد واتت الفرصة بعد فترة وتمكن من احتلالها وجعلها عاصمة ملكه. كذلك كان هناك علاقات خارجية سياسية بين نور الدين وكل من سنان شيخ الحشيشية وقليج أرسلان ملك سلاجقة الروم وايلدكز صاحب أذربيجان.

فقد ساءت العلاقات بين نور الدين وسنان فأرسل إليه نور الدين يتهدده، فأجابه سنان شعراً يسخر منه ويقول:

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلت   بيوتك فيها واشمخر عمودها
فأصبحت ترمينا بنبل بنا استوى   مغارسها منا، وفينا حديدها

كذلك حارب نور الدين قليج أرسلان ملك سلاجقة الروم وهزمه فاضطر لطلب الصلح، وهنا يظهر اتجاه نور الدين الإسلامي السني واضحاً كل الوضوح، فهو لم يطلب منفعة ولا مالاً وإنما طلب من الملك ان يجدد إسلامه على يدي رسول نور الدين إليه لأنه يعرف ان قليج ارسلان يعتقد اعتقاد الفلاسفة، ولا يحل لنور الدين تركه ملكاً على بلاد إسلامية. كذلك طلب منه ان يمده بعسكر من عنده عندما يريد ان يحارب الفرنج [٢].

وأخيراً منع نور الدين ايلدكز صاحب أذربيجان من التدخل في شؤون الأسرة المالكة في الموصل عندما نشب خلاف بين أبناء أخي نور الدين حكام الموصل، فأراد صاحب اذربيجان ان يتدخل بين الأخوين، ولكن نور الدين منعه من ذلك وأرسل يقول له: إنا أصلح لأولاد أخي منك فلا تدخل بيننا [٣].

(١) ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد. وفيات الأعيان... تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨ م. ٦ جـ، جـ ٤، ص ٢٧٤.

(٢) ابن الأثير، عز الدين. التاريخ الباهر في تاريخ أتابكة الموصل ص ١٦٠ - ١٦١.

(٣) ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد. زبدة الحلب من تاريخ حلب... تحقيق سامي الدهان. دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية، ١٩٥١ - ١٩٦٨م. جـ ٣، جـ ٢، ص ٣٣٢.

شؤون المال والضرائب والمكوس زمن نور الدين:

قلنا سابقاً ان نور الدين كان يضع الشرع وأحكامه أمام عينيه ويسير حسب أحكامه وأوامره. وقد تمثل ذلك أكثر ما تمثل في شؤون المال. فقد كانت صدقاته ومباره للفقراء والصوفية كثيرة. ولما احتاج إلى مال ذات مرة لتجهيز الجيش لحرب الأعداء، اقترح عليه نوابه الاستعانة بمخصصات الفقراء والصوفية فرفض كل الرفض[1]. كما وانه يكره السعاة ويعاقبهم ولو كانوا يحملون له الأموال الغزيرة في سعايتهم كما فعل مع شخص أخبره ان تاجراً موسراً خلف ولداً قاصراً عند موته ويغريه بأخذ المال فأجابه: أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشاه الله، وأما المال فثمره الله، وأما الساعي فلعنه الله[2]. ولقد سار نور الدين على سياسة الغاء المكوس واطلاق المظالم ورد الأموال المغتصبة إلى أصحابها كلما وجد إلى ذلك سبيلاً كما فعل في كل من دمشق وحلب وحمص وحران وغيرها من البلاد. وهو يفعل ذلك تقرباً إلى الله تعالى ورأفة بالمسلمين وشكراً لله على ما أولاه من النصر على الفرنج[3].

كذلك حركته نفس الروح الدينية النبيلة وروح الحاكم الصالح الذي يحب رعاياه ويحنو عليهم ويرأف بهم لإلغاء المكوس جملة واحدة من مصر سنة ٥٦٧ هـ. وقد تلا مرسوم الاسقاط صلاح الدين بأمر من نور الدين. وهنا نجد نفس الدوافع السابقة التي حركته لالغاء المكوس ورد المظالم في بلاد الشام هي التي حركته لابطال المكوس في مصر[4]. ولقد تتبع نور الدين جميع الضرائب غير الشرعية فأسقطها عن شعبه كما فعل لما اسقط ضريبة الاتبان في دمشق وضواحيها

(١) ابن العماد الحنبلي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٤، ص ١٨١.

(٢) ابن قاضي شهبة، بدر الدين. الكواكب الدرية في النورية. تحقيق محمود زائد، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٧١ م. ص ٢٦.

(٣) أبو شامة. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١، ق ١، ص ٣٨ ـ ٥١.

(٤) نفس المصدر، جـ ١ ق ٢، ص ٥٢٢ ـ ٥٢٣.

سنة ٥٦٨ هـ [١]. وأخيراً ختم رحمه الله حياته بإصدار مرسوم عام يبطل المكوس في جميع البلاد الخاضعة لحكمه [٢].

الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين الشهيد :

أطلت الفتنة العارمة برأسها أثر وفاة نور الدين الشهيد، وحدثت مشاكل كبيرة ودارت حروب مريرة ذلك إنه خلّف ولداً صغيراً قاصراً اسمه إسماعيل تلقب بالملك الصالح. ولقد التفت حوله عدد من الأمراء المختلفين المتنابذين المتحاسدين ففرطوا وضيعوا كذلك كان هناك فرع الموصل الأتابكي يتحفز لاحتلال شمالي بلاد الشام كلما سنحت له الفرصة، وقد سنحت له الفرصة بوفاة نور الدين وتولي ابنه القاصر. كذلك كان هناك الفرنج المستعدون للتحرك كلما سنحت الفرصة، حتى بدا للعيان واضحاً أن البناء الذي شيده نور الدين سيتعرض للانهيار ان لم يتدارك الله تعالى الأمة بمنقذ، وقد تداركها بصلاح الدين. وعلى الرغم من أن البعض يعتقد أن تدخل صلاح الدين كان عقوقاً بحق مولاه وابن مولاه، إلا ان مسائل الدول لا ينظر إليها من هذا المنظار، وإنما ينظر إليها بمنظار المصلحة العامة، فقد فرط الأمراء حول الملك الصالح وضيعوا فأتى صلاح الدين فحفظ وأكمل البناء.

ولقد بدا للوهلة الأولى ان العلاقات حسنة بين صلاح الدين والملك الصالح، فقد أرسل الملك الصالح إلى صلاح الدين يخبره بوفاة والده ويطلب إليه ان يستمر في الخطبة له كما كان يخطب لوالده [٣] وقد أرسل له صلاح الدين خطاب

---

(١) نفس المصدر، جـ ١ ق ٢، ص ٥٥٠ ـ ٥٥١.

(٢) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم. مفرج الكروب في اخبار بني أيوب. تحقيق جمال الدين الشيال ومحمد حلمي محمد أحمد. القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي. جـ ٤ جـ ١، ص ٢٧١ ـ ٢٧٩

(٣) نفس المصدر. جـ ٢، ص ٢ ـ ٣.

تعزية ويذكر له إنه أقام له الخطبة باسمه في الديار المصرية [١].

ولما أحس صلاح الدين ان الوضع بدأ يضطرب حول الملك الصالح بـ ـب خلاف الأمراء حوله وتحاسدهم وبسبب قصورهم عن رد كيد سيف الدين صاحب الموصل الذي احتل الجزيرة، أرسل إلى الأمراء رسالة يقرعهم ويهددهم بأنه سيزحف على بلاد الشام وسيجازيهم على تهاونهم ويصحح الأوضاع ويعيد للبيت الأتابكي مجده وسمعته [٢].

ولما لم يصغ الأمراء لصلاح الدين لم يكن مندوحة عن تدخله. وعلى الرغم من ذلك ظل الأمراء يتنازعون، ولم يكونوا أهلاً للوقوف في وجه صلاح الدين، ولذلك لجأوا إلى إثارة عواطفه وتذكيره بأيادي البيت الأتابكي عليه، ولكن صلاح الدين لم يسمح لمثل هذه الاعتبارات ان تصرفه عن غايته، بل بالعكس يدل جوابه على رغبة حقيقية بالوفاء لنور الدين ولولده وتخليصه ممن حوله [٣].

ولقد اضطر الأمراء ومعهم الملك الصالح إلى الارتحال عن دمشق إلى حلب. ولقد حاول صلاح الدين احتلال حلب، ولكنه لم يتمكن من ذلك لفرط محبة أهل حلب للملك الصالح ودفاعهم البطولي ضد صلاح الدين حتى اضطر لتركها. وأخيراً أتت نهاية الملك الصالح المؤلمة وهو في سن السابعة عشرة. ولم يكن له وارث، ففتح موته الباب على مصراعيه أمام صراع مسلح حول إرثه، وبخاصة حلب، حتى تمكن صلاح الدين، بعد حروب كثيرة، من ضمها إلى ملكه.

لا يمكن الحكم على شخصية الملك الصالح لصغر سنه ولأنه لم يكن له رأي

---

(١) أبو شامة. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١، ق ٢ ـ ٥٨٨.

(٢) ابن الأثير. المصدر المذكور آنفاً. ص ١٦٣.

(٣) أبو شامة. المصدر المذكور آنفاً، جـ ١ ق ٢، ص ٥٩٧ ـ ٥٩٨.

ولا تدبير في الأمور التي جرت، وإنما نقول ان حكمه ونهايته يثيران الألم والعطف، وان تكن هي النهاية الطبيعية للأحداث التي رافقتها.

الدّولة الأيوبيّة:

امتد حكم الدولة الأيوبية على القسم الأكبر من بلاد الشام ومصر فترة تقرب من التسعين عاماً هي من أخطر فترات التاريخ الإسلامي، وتعاقب على حكمها ملوك عظام. فقد أسسها صلاح الدين واستقل بحكمها بعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ هـ واستمرت في مصر حتى قبيل سقوط بغداد بيد المغول، أما في سورية فقد زالت بعيد سقوط بغداد بيد المغول، وإن يكن استمر أحد فروعها يحكم في حماة فترة تناهز السبعين عاماً بعد ذلك التاريخ، وذلك ضمن إطار دولة المماليك، وإن من أشهر ملوكها في هذه الفترة أبا الفداء المؤرخ والجغرافي الشهير.

ولقد حاربت هذه الدولة الصليبيين حرباً لا هوادة فيها، وهي التي حررت بيت المقدس من أيديهم، كذلك حررت قسماً مهماً من بلاد الشام من أيديهم. وفي أيامهم تعرضت مصر مرتين للغزو الصليبي. وتعتبر هاتان المحاولتان من أخطر وأقسى ما مر بمصر والمسلمين من أزمات ومحن، ولكن الله سلم وخرجت مصر والبيت الأيوبي منتصرين من هاتين المحنتين. كذلك اهتمت هذه الدولة بالآداب والعلوم والتعليم وتابعت الخط الحضاري الذي سار عليه أسلافها. فهي بالحقيقة حلقة متصلة من حلقات الحضارة الإسلامية، وبشكل خاص تعتبر امتداداً لدولة نور الدين في جميع النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية. ولا غرو فقد تتلمذ مؤسسها رحمه الله على يد نور الدين الشهيد وتأثر به كل التأثر وتأدب بأدبه، كما وان من أتى بعد صلاح الدين تتلمذوا على يديه كأخيه العادل، وهكذا.

صلاح الدين:

والواقع ان شخصية صلاح الدين شخصية خصبة متعددة الجوانب، واستفاد

من جميع الإمكانات والظروف. فقد كان، بجانب روحه الإسلامية المشرقة وشخصيته المثالية، شخصاً عملياً يفرق بين الممكن وغير الممكن ويستفيد من كل الفرص المتاحة له لتحقيق أهدافه السامية. وهو الذي أسس الدولة الأيوبية وحفظ على سورية ومصر وحدتها وتمكن ان يجعل من هذه الوحدة نقطة الانطلاق من أجل تحرير القدس الشريف وباقي الأراضي الإسلامية، وان يحقق للإسلام والمسلمين أمنية من أغلى أمانيهم، وان يجعل من هذه الوحدة الصخرة التي تحطمت عليها جميع غزوات الصليبيين ومن بعدهم المغول.

والذي ساعد صلاح الدين في تحقيق أهدافه وأهداف المسلمين هو إيمانه القوي الذي استطاع ان يجعل الآخرين يتأثرون بهذا الإيمان ويتفاعلون معه. والإيمان خلاق كما يقولون، ولذلك حقق حلماً داعب خيال المسلمين فترة طويلة، كما وإنه استفاد كل الفائدة من جهود وأعمال نور الدين وسار على منواله وأكمل البناء الذي وضع قواعده نور الدين. وكما قلنا، كان شخصاً عملياً فلم يتوقع مساعدة من الخلافة العباسية سوى النواحي المعنوية كالتقليد وغيره. ولم تأته مساعدة تذكر إلا من بعض الأمراء المحليين كملك الموصل الذي ساعده على مضض. وكذلك لم يجن ثمرة من استنجاده بملك الموحدين، ولذلك كان اعتماده على موارد بلاد الشام ومصر المحلية.

كذلك امتاز عصره بنهضة تعليمية وانتشار المدارس في أرجاء كثيرة من بلاد الشام ومصر وخاصة دمشق والقاهرة. وكان كاتبه ووزيره القاضي الفاضل راعي هذه النهضة الأدبية الثقافية التعليمية. والواقع ان القاضي الفاضل من أساطين النثر العربي في عصوره المتتابعة، وتدل رسائله على تمكن تام من علوم العربية وعلى رشاقة في الأسلوب ومتانة في التعبير، وإن يكن التزم السجع كما هي عادة ذلك الزمن، ولكنه سجعه ليس من النوع الثقيل الممجوج بل من النوع المحبب الذي تقبله النفس وترتاح إليه الأذن. والواقع لقد تجاوز القاضي الفاضل دور الكاتب لدى صلاح الدين، وإنما كان دوره دور الوزير والمستشار، بجانب دور

الكاتب وقد ناب عن السلطان مرات عديدة. وكان مدلاً بشخصيته وله رأيه في الحوادث، كما في حال الرسالة المغربية التي سنبحثها فيما بعد. وحتى في حالات كثيرة كان يعارض حملة السيوف بآرائه ويدل عليهم مدعياً ان آثار الأقلام أبقى وأخلد من آثار السيوف. ولقد طال به العمر بعد وفاة صلاح الدين وحاول أن يلعب دوراً في توحيد أبناء صلاح الدين وإزالة خلافاتهم، ولكنه عجز عن ذلك فانسحب من الحياة العامة وظل على ذلك حتى مات. هذا ولا بد من القول إنه كان غنياً كل الغنى ومحباً للكتب وجماعاً لها وبنى مدرسته الفاضلية في القاهرة وخصصها لدراسة المذهب الشافعي.

كذلك يقرن بالقاضي الفاضل عماد الدين الأصفهاني وهو كاتب آخر من كتاب العصر يدخل في خدمة صلاح الدين، ولكنه لم يبلغ منزلة القاضي الفاضل، وكان مغالياً في السجع والتزامه أكثر من القاضي الفاضل. وألف عدداً من الكتب من بينها **الفتح القسي في الفتح القدسي** في تمجيد استرجاع بيت المقدس من الفرنج.

وبالجملة تطل شخصية صلاح الدين علينا عملاقة تملأ فراغاً كبيراً جداً في التاريخ الإسلامي، وقلائل يستطيعون مضارعتها، وهذا يعود إلى ما حققه من إنجازات: ففيه تقمصت وتجسدت شخصية الحاكم المسلم العاقل المستنير الإنساني النزعة الإداري المحنك والقائد العسكري الفذ البطل، وقد تناغمت فيه كل هذه الصفات وتكاملت بحيث شكلت منه الحاكم العادل والقائد العسكري، والسياسي البارع، وهكذا. وستظل ذكرى صلاح الدين عطرة لدى شعوب العالم الإسلامي ولا يزيدها كر السنين إلا تألقاً وعبقاً.

علاقة صلاح الدين بخلفاء بغداد:

من الملاحظ أن علاقة الأيوبيين بالخلفاء العباسيين بشكل عام كانت جيدة كل الجودة. فقد كان الأيوبيون سنَّةً وحاربوا بقية المذاهب كالباطنية والحشيشية

وغيرهما من المذاهب المنحرفة. كما وان الخلفاء العباسيين امدوا أمراء آل أيوب بالقاعدة الشرعية لحكمهم. وفيما يتعلق بصلاح الدين فقد كانت علاقته جيدة بالخلفاء العباسيين، فقد حقق، مع نور الدين الشهيد، حلماً طالماً راود الخلافة العباسية في القضاء على الخلافة الفاطمية وهي التي نافستها في زعامة العالم الإسلامي. كذلك حارب الفرنج في بلاد الشام ومصر وضم اليمن إلى ملكه وكذلك الحرمين الشريفين وبلاد النوبة وبرقة؛ وكان يخطب للخليفة العباسي في تلك الأماكن. وقد حرص صلاح الدين ان يخبر الخليفة في كل خطوة يخطوها ويطلب منه، بالمقابل، التأييد الشرعي لحقوقه وحقوق أولاده من بعده. كما وإن الخلافة العباسية، التي فقدت منذ زمن طويل كل نفوذ سياسي لها خارج العراق، قنعت بهذه الرابطة التي تقضي بمنح الولاء مقابل الاعتراف بالسيادة الإسمية، على الرغم من علم الطرفين ان هذه الرابطة لا تنتج عنها التزامات مادية محددة.

وقد اعتاد صلاح الدين، في أغلب رسائله إلى الخلفاء العباسيين ـ ذلك أنه عاصر خليفتين هما المستضيء والناصر ـ أن يعدد أياديه ومآثره في خدمة الخلافة العباسية، بل بلغ به الأمر أنه غمط نور الدين حقه ونسب لنفسه أشياء فعلها هو عندما كان تابعاً لنور الدين ونائباً عنه وبأمره، كما في حال الغاء الخلافة الفاطمية. وفي إحدى رسائله الى المستضيء يبرر زحفه على بلاد الشام بعد وفاة نور الدين من أجل ابن نور الدين وكفالته وتخليصه من قوم يأكلون الدنيا باسمه ويبالغون في ظلمه [1]. ثم طلب من الخليفة تقليداً جامعاً بمصر واليمن والمغرب والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية [2]. ولكن رد الخليفة، الذي هو قطعة أدبية فاخرة، كان مثلاً أعلى للوفاء والاعتراف بالجميل لنور الدين بعد موته: فقد قلد الخليفة صلاح الدين كل البلاد التي طلبها باستثناء حلب التي كان

---

(١) ابن واصل. المصدر المذكور آنفاً جـ ٢، ص ٢٦ ـ ٢٩.

(٢) نفس المصدر.

حاكمها آنذاك الملك الصالح بن نور الدين الشهيد : ... وأضاف إليها بلاد الشام وما تحتوي عليه من المدن الممدنة والمراكز المحصنة ، مستثنياً منها ما هو بيد نور الدين إسماعيل بن نور الدين محمود رحمه الله ، وهو حلب وأعمالها . فقد مضى أبوه عن آثار في الإسلام ترفع ذكره في الدارين ، وتخلفه في عقبه من الغابرين ... فليكن له منه جار يدنو منه وداداً كما دنا أرضاً ، وتصبح وهو له كالبنيان يشد بعضه بعضاً [1] . هذا وإن التقليد الذي أرسله الخليفة المستضيء إلى صلاح الدين مليء بالعظات والنصائح الجليلة في حق النفس والجار والرعايا . ولكن أكثر ما أكد عليه العهد هو قمع البدع المخالفة لعقيدة الإسلام الأساسية ومتابعة الجهاد ضد الفرنج حتى تتحرر بلاد الشام وبيت المقدس.

ولا تختلف بقية العهود عن هذا العهد في معناها ومبناها ، وان اختلفت ألفاظها وجملها وكلها تـزخـر بـآيـات الذكـر الحكيم استشهـاداً ودعماً للـرأي والنصيحة التي يبديها الخليفة. كذلك لجأ صلاح الدين إلى الخليفة المستضيء يطلب إليه ان يعمل على إيقاف صاحب الموصل عن احتلال حلب لما توفي الملك الصالح . ذلك أن الملك الصالح توفي دون عقب ، فاغتنم ابن عمه صاحب الموصل الفرصة وزحف على حلب واحتلها ، وبدأ الصراع بين صلاح الدين وصاحب الموصل حول حلب. ويبدو ان صاحب الموصل بذل للخليفة وعوداً كثيرة إن هو أمده بتأييده ، ذلك ان صلاح الدين يقول في رسالته للخليفة : وان كان القوم قد بذلوا للدار العزيزة بذولاً معارة ، فقد أسلف الخادم خدمات ليست بعوار ، فإنهم لو بذلوا جلادهم كلها ما وفت بفتح مصر ... فإن اقتضت الأوامر الشريفة ان يوعز للمذكور بحلب بتقليد ، فالأولى ان يقلد الكل ، فلا رغبة فيما لا يؤمن معه شر الشريك [2] . ويبدو ان الخليفة ، بعد هذه الرسالة ، غيّر موقفه

---

(١) السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن. حسن المحاضرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة ٢ حـ جـ ٢ ، ص ٧ - ١٥ .

(٢) ابن واصل. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٢ ، ص ١١٠ - ١١٢ .

وحاول ان يلعب دور الوسيط بين الطرفين. ويلاحظ ان صلاح الدين يلجأ إلى التاريخ ليثبت سلامة موقفه ونبل خدماته الخالصة من الغرض للخلافة العباسية، ذلك ان له في الدولة العباسية آثاراً: لا يعد مثلها أولاً لأبي مسلم لأنه أقدم ثم خامر ووالى ثم ولي، ولا آخراً لطغرل بك فإنه نصر ونصب ثم حجر وحجب [1]. هذا إلى جانب تعداد أياديه الكثيرة.

ولقد بلي صلاح الدين، في شخص الخليفة الناصر، بخليفة قوي الشخصية يغار على المظاهر والألقاب أكثر من أي شيء آخر، ذلك أنه على الرغم من أن الناصر أرسل، عندما أصبح خليفة، تقليداً جامعاً لصلاح الدين، إلا إنه بعد برهة أرسل له رسالة عن طريق وزيره يعاتبه على أمور بلغته عنه: منها إنه تلقب بالملك الناصر وهو لقب الخليفة، وهذا عند الخليفة، من الكبائر التي لا تغتفر. كذلك يعاتبه لأنه يسمح لأعداء الخليفة باللجوء إلى بلاد الشام، ومنها حادث الشغب الذي حدث أيام الحج في المشاعر المقدسة وكان أخو صلاح الدين أحد مسببيه الرئيسيين وتأثر به الحاج العراقي [2]. ولقد كان جواب صلاح الدين غاية في الأدب والإيجاز: الحرب كانت شغلته عن التروي في كثير من الأمور. وأما لقبه الناصر فهو من أيام الخليفة المستضيء، ومع هذا فمهما لقبني أمير المؤمنين فلا أعدل عنه [3]. كذلك واصل رسائله إلى الخليفة حول هجوم المواصلة على حلب ونقضهم العهود، ويطلب ان يصدر الخليفة له، ليس فقط تقليداً جامعاً في حلب وأعمالها، فهذه لـه بطبيعـة الحال، وإنما أمـراً خلافيـاً إلى جميـع ملـوك الأطراف بضرورة مساعدته ضدهم وضد جميع المشركين والكفار [4]. وعلى عادة

(١) نفس المصدر.

(٢) أبو شامة. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين... القاهرة، مطبعة وادي النيل، ١٢٨٧ هـ. جـ ٢، ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٣) ابن كثير. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١٢، ص - ٢٨.

(٤) أبو شامة. كتاب الروضتين... تحقيق محمد حلمي أحمد. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦ جـ ١ ق ٢، ص ٦٤٨ - ٦٤٩.

صلاح الدين في مراسلة خلفاء بني العباس كان يكثر الحديث عن خدماته لهم وما له من الأيادي وما حققه لهم من أعمال فائقة. ويظهر أن ذلك أغاظ الخليفة الناصر ذا الشخصية القوية فأرسل إليه يقول: يمنون عليك ان أسلموا، قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ان كنتم صادقين[1].

علاقة صلاح الدين بأفراد أسرته:

أصبح صلاح الدين رأس أسرته بعد وفاة أبيه. وقد ذهب أخوه إلى اليمن فملكها وكانت علاقته به حسنة، وكان يرسل له الرسائل مبشراً بالفتوح كما فعل لما أرسل له يبشره بفتح ميافارقين سنة ٥٨١ هـ. ولكنه استعان، أكثر ما تكون الاستعانة، بأخيه الملك العادل. والواقع ان الملك العادل تربى على يدي صلاح الدين، هو وابن أخيه تقي الدين عمر، وقد تطبعا بطباعه. وهو، وإن كان سبب ظهورهما، إلا انهما قدما له خدمات جلى. فقد كانت عادة صلاح الدين ان يجعل أخاه العادل نائباً عنه في حكم مصر كلما غاب عنها في حروبه بالشام. وكانت لهما مطامع واسعة لا تعرف الحدود والقيود. ويبدو ان ذلك وضح للقاضي الفاضل كل الوضوح حتى اضطر ان يرسل إلى السلطان رسالة يخبره برغبتهما ان يتملكا طرفاً من الأطراف: الملك العادل والملك المظفر المذكوران ما هما أخ وابن أخ بل هما ولدان لا يعرفان إلا المولى، والداً ومنعماً.. فلا يقنع كل واحد منهما الا طرف يملكه واقليم يتفرد به؛ فيدبر مولانا في ذلك بما يقتضيه صدره الواسع وجوده الذي ما نظر مثله الناظر ولا سمع السامع[2].

ويبدو ان اعتماد صلاح الدين على أخيه العادل كان أكبر من اعتماده على ابن

(١) النويري، شهاب الدين أحمد. نهاية الأرب في فنون الأدب. الطبيعة الثانية. القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٩ م جـ ٧، ص ٣٠. وهذه الآية هي الآية ١٧ من سورة الحجرات.

(٢) أبو شامة. كتاب الروضتين... القاهرة، مطبعة وادي النيل، ١٢٨٧ هـ. جـ ٢ جـ ٢، ص ٧١.

أخيه تقي الدين، وكذلك كانت ثقته به. فقد جعله نائباً عنه عدداً كبيراً من المرات، ثم ولاه حكم حلب، ثم حكم مصر، وأقطعه الاقطاعات الجزيلة في سورية والجزيرة ومصر، وكان يرسل له الرسائل يبشره بالفتوح الكبار والحوادث المهمة. ويبدو ان كل ذلك أغاظ ابن أخيه تقي الدين عمر، ولاسيا عندما ولى صلاح الدين ابنه العزيز مصر والعادل مديرية الشرقية ولم يوله شيئاً، وذلك في أواخر أيامه فغضب وقرر ترك البلاد وأرسل يطلب الإذن له بالسفر لفتح المغرب أو غيره. ولكن السلطان أجابه برسالة هي توبيخ وتقريع بأسلوب بليغ وتذكير له بالأيام الخالية: بالأمس ما كان لكم من الدنيا إلا البلغة. واليوم قد وهب الله هذه النعمة [1].

سياسة صلاح الدين الخارجية «باستثناء الحروب الصليبية»:

بعد أن ثبت صلاح الدين اقدامه نهائياً في حكم بلاد الشام والجزيرة ومصر أصبح مجاوراً لعدد من الدول، وأصبح له، بالضرورة، علاقات خارجية معها فلم ينس امراء الموصل مطامعهم في حلب بخاصة، وحاولوا أكثر من مرة أخذها ولكنهم عجزوا عن ذلك، ثم عقد بين الطرفين حلف كانت فيه لصلاح الدين اليد الطولى. كذلك جاور صلاح الدين بلاد الروم وكان له معهم علاقات خارجية. ونفس الشيء يقال عن سلاجقة الروم وملك قبرص. اما الدولة الوحيدة التي سعى صلاح الدين لخطب ودها وطلب مساعدتها، ولم تكن بينه وبينها حدود مشتركة بالمعنى الصحيح فهي دولة الموحدين زمن الخليفة المنصور، فقد اتصل بها صلاح الدين طالباً نصرتها وإمدادها للوقوف بوجه الصليبيين الذين هاجموا سورية ومصر بأعداد غفيرة وقوى كبيرة بعيد استرجاع صلاح الدين لبيت المقدس من الصليبيين، ولكن دون جدوى.

ولقد حارب ملوك الموصل صلاح الدين أكثر من مرة، وهزمهم هو مرة

---

(١) نفس المصدر. جـ ٢، ص ٧٠.

بعد مرة. حتى اضطروا في الأخير إلى الاعتراف بتفوقه وسيادته عليهم. وقد حدث، في إحدى هذه الحروب، ان انهزم ملك الموصل سيف الدين هزيمة نكراء أمام صلاح الدين وخلف جيشه وأثقاله وخيامه غنيمة لصلاح الدين، فوجد صلاح الدين في خيمة سيف الدين أقفاصاً فيها طيور جميلة من بلابل وقماري وغيرها، فأعادها صلاح الدين إليه مع هذه الرسالة التهكمية: عد إلى اللعب بهذه الطيور، فإنها ألذ من مقاساة الحروب[1].

كما وان علاقته مع خليفة سيف الدين وهو عز الدين ارتفعت صعوداً وهبوطاً. فقد شكره ذاتَ مرة لأنه أرسل له كمية جيدة من السلاح هي رماح وتراس وغيرها. ولكنه في مرة أخرى أرسل له رسالة قاسية كل القسوة وذلك بسبب تصرف عز الدين الأخرق. ذلك إنه حدث اثناء المعارك الطاحنة ضد الصليبيين حول عكا، وهي من أقسى ما عرفه صلاح الدين والمسلمون في تاريخ نضالهم ضد الفرنج، ان أتى عز الدين لنجدة صلاح الدين بفئة من عسكره، ولكنه بعد فترة وقد طال به المطال، طلب من السلطان الاذن له بالسفر فرفض صلاح الدين، فما كان منه إلا ان غادر المعسكر الإسلامي دون إذن السلطان، فارسل له السلطان رسالة مع نجاب يقول فيها: انك أنت قصدت الانتماء إليَّ... وأرجعتني في ذلك مراراً... فقبلتك وآويتك ونصرتك... فاتفق وقوع هذه الواقعة للإسلام فدعوناك فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس وأقمت هذه المديدة وقلقت هذا القلق وانصرفت عن غير طيب نفس وغير فصل حالٍ مع العدو، فانظر لنفسك وابصر من تنتمي إليه غيري واحفظ نفسك ممن يقصدك فما بقي لي إلى جانبك التفات[2].

---

(١) أبو شامة. كتاب الروضتين... تحقيق محمد حلمي محمد أحمد. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦ - جـ ١ جـ ١، ق ٢ ص ٦٥٢.

(٢) ابن شداد، أبو عبدالله محمد بن علي. كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. تحقيق جمال الدين الشيال. القاهرة ص ١٤٥ - ١٤٦.

هذا وإن سوء معاملة الفرنج لفلاحي وسكان الدولة البيزنطية أدت إلى أن يتقارب حكامها مع صلاح الدين في سبيل العدو المشترك. فقد ثبت وجود علاقات طيبة بين الطرفين، وتبادل الطرفان الرسل. وفي إحدى رسائله يعتب امبراطور بيزنطة على صلاح الدين إغفاله الرد على رسائله ويشرح له ما قام به من صد الألمان عن بلاده وكيف أنه حطم قوتهم « بحيث أنهم لا يصلون إلى بلادك، وإن وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كثيرة، لا يقدرون ينفعون جنسهم ولا يضرونك نسبتك »[1]... كذلك يطلب إليه ألا يصدق الإشاعات المغرضة عن موقفه منه ويذكره بأياديه الماضية عليه ويطلب منه ارسال رسول من قبله ليشرح له موقفه منه [أي موقف صلاح الدين من إمبراطور بيزنطة] وما جرى وجدّ من الأمور[2].

ونجد نفس الدافع الذي دفع ملك الروم لالتماس صداقة صلاح الدين، عند ملك قبرص الذي تألم وغضب لاحتلال ملك إنكلترا لبلده قبرص، فأرسل إلى صلاح الدين خطاباً يبذل فيه ولاءه ومودته ويعلن إتحاده مع صلاح الدين ضد ملك انكلترا[3]. واللطيف في هذه الرسالة التي أرسلها القاضي الفاضل إلى السلطان يخبره باتصال ملك قبرص به أن القاضي يبدي آراءً سياسية صائبة غاية في الطرافة فيقول عن ملك الروم: ووالله ما أفلح ملك الروم قط ولا نفع أن يكون صديقاً، ولا حتى أن يكون عدواً[4].

أما علاقة صلاح الدين بملك الموحدين الخليفة المنصور فهذا من المسائل

---

(١) نفس المصدر. ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٢) نفس المصدر.

(٣) أبو شامة. كتاب الروضتين... القاهرة، مطبعة وادي النيل، ١٢٨٧ هـ. جـ ٢ جـ ٢، ص ١٧٨.

(٤) نفس المصدر.

التاريخية المعقدة، وقد اختلفت فيها الآراء. ذلك أن سمعة المنصور الموحدي ارتفعت ارتفاعاً هائلاً في العالم الإسلامي أثر انتصاره على نصارى الإسبان في معركة الأرك المشهورة. وكان صلاح الدين آنذاك يعاني الأمرين والشدائد في حرب الفرنج الذين أتوا إلى بلاد الشام بأعداد غفيرة وقوى هائلة تحدوهم رغبة عارمة في استعادة البيت المقدس من صلاح الدين، ودارت بين الطرفين معارك طاحنة حول عكا بخاصة. وقد أعوز صلاح الدين المدد من الرجال والذخيرة والأسلحة والميرة والمال، وبشكل خاص الأساطيل البحرية التي تستطيع أن تقطع طرق تموين الجيوش الصليبية واتصالها بأوربا، ويؤدي ذلك بالتالي إلى إضعافها وشل حركتها. ففكر وفكر أتباعه بالاستنجاد بالخليفة الموحدي المنصور، ووجه صلاح الدين إليه كتاباً صحبة رسول هو أحد أمراء الدولة المشهورين مع هدية مناسبة، وطلب من الخليفة أن ينجد المسلمين المتضايقين كل المضايقة في حروبهم المستمرة مع الفرنج. وكان أهم ما ركز عليه صلاح الدين في رسالته الأساطيل البحرية، أولاً: لأنها لديه قليلة، وثانياً: لأنها تقطع المدد عن العدو وتقطع عنه الميرة مما يجعل من السهل جداً الوقوف في وجهه، ومن ثم التغلب عليه. ويلاحظ على الرسالة أنها مجدت سلطان الموحدين تمجيداً لا حد له. فقد ذكر عن نفسه صلاح الدين أنه الفقير إلى رحمة ربه يوسف بن أيوب[1]. ولما خاطب سلطان الموحدين وصفه بأوصاف كالتالي: دار الملك ومدار النسك وجل الجلالة واصل الأصالة... وقائم الدين وقيمه ومقدم الإسلام ومقدمه... ومعلي الموحدين على الملحدين[2]. ويستمر في هذا النسق، ثم يذكر بعد ذلك أنه كاتبه لأمرين: الأول شوق قديم والثاني مرام عظيم. ثم يستمر في سرد ما حدث في بلاد الشام من استرداد بيت المقدس وزحف الصليبيين من ديار الغرب إلى الشام لاسترجاع

---

(١) نفس المصدر. جـ ٢، ص ١٧١ - ١٧٣.

(٢) نفس المصدر.

القدس، والمعارك التي خاضها صلاح الدين ضدهم وقلة الموارد ثم يقول له: ولما كان حضرة سلطان الإسلام وقائد المجاهدين إلى دار السلام أولى من توجه إليه الإسلام بشكواه وبثه واستعان به على حماية نسله وحرثه... كان المتوقع من تلك الدولة العالية والعزمة الغادية... أن يمد غربُ الإسلام بأكثر مما أمد به غرب الكفار الكافرين فيملأها - ايهم جواري كالأعلام ومدناً في اللجج سوائر كأنها الليالي [1]... ثم يذكر أنه أوفد إليه رسوله أبا الحزم عبد الرحمن بن منقذ بهذه الرسالة ويستطيع أن يستوضح منه عن كل ما يريده ويختم رسالته بالتحيات الطيبات لسلطان الموحدين [2].

هذا ولا بد أن نذكر أن القلقشندي في كتابه **صبح الأعشى** أورد نصاً آخر لهذه الرسالة ذكر أنها من إنشاء القاضي الفاضل، ولكن محرر **صبح الأعشى** يذكر أنه لم يعثر عليها في مجموعة رسائل القاضي الفاضل المحفوظة صورة فوتوغرافية عنها في دار الكتب المصرية. والخلاف الرئيسي بين نص أبي شامة ونص القلقشندي هو أن صلاح الدين في نص القلقشندي يلقب المنصور بلقب أمير المؤمنين [3]. وهذا وهم كبير ارتكبه القلقشندي سنعود لمناقشة بعد قليل.

ولقد وجه صلاح الدين رسالة إلى الأمير عبد الرحمن بن منقذ يعهد إليه بمهمة السفارة إلى المغرب لدى السلطان المنصور الموحدي وزوده بتعليماته وكيف أن عليه أن يستقصي أحوال القوم وعاداتهم حتى يعاملهم بمقتضاها، ولا يخاطب السلطان إلا بما يسره، ثم يطلب منه أن يشرح للسلطان ما قام به صلاح الدين من غزوات وما خاض من معارك حتى تمكن من إسترجاع البيت المقدس وأهمية ذلك. ثم يذكر له ما قام به الغرب المسيحي من إنجاد إخوانهم في بلاد الشام

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٦، ص ٥٢٧ - ٥٣٠.

والمعارك الرهيبة التي خاضها ويخوضها المسلمون ضدهم، والموقف حول عكا وحاجة المسلمين بشكل خاص إلى الأساطيل: فإن كانت الأساطيل بالجانب المغربي ميسرة، والعدة منها متوفرة، والرجال في اللقاء فارهة، وللقاء غير كارهة فالبدار البدار... وإن كانت دون الأسطول موانع: إما من قلة عدة أو من شغل هناك بمهمة أو بمباشرة عدو... فالمعونة ما طريقها واحدة... تكون تارة بالرجال وتارة بالمال[1]... ثم يطلب إليه أن يبرر لديه هجوم المملوكين يوزيا وقراقوس على أطراف المغرب من طرف ليبيا، في حال سؤاله واعتراضه على ذلك، بأن هذين المملوكين ليسا من الأمراء المعدودين، وإن ما فعلاه كان لحسابها الخاص ولم يكن بأمر أو علم أو رضا صلاح الدين. ثم يذكر له أنه أرسل هدية سيرد تفصيلها في الكتاب الوارد مع الأمير حامل الهدية[2].

ولكن طلب صلاح الدين واستغاثته لم تجد أذناً مصغية لدى الخليفة الموحدي. بل إن السلطان الموحدي لم يجد صلاح الدين أهلاً حتى لأن يرد التحية بتحية مثلها. وكان موقفه هذا خالياً من اللباقة السياسية أو الأخوة الإسلامية.

وهناك أسباب كثيرة أدت إلى هذا الموقف الذي وقفه الموحدون من صلاح الدين. فالملاحظ أن صلاح الدين وأتباعه غالوا في قوة الموحدين وأعطوهم أكثر مما يستحقون. صحيح أن المنصور انتصر على الإسبان في معركة الأرك العظيمة، ولكن تلك المعركة لم تكن حاسمة، ولم تمنع الزحف الإسباني المسيحي أو توقف حركة الاسترداد الاسبانية فترة طويلة. ذلك أنه لم تمض على وفاة المنصور إلا فترة بسيطة حتى نشبت معركة العقاب المشؤومة والتي خسرها الموحدون، وكانت فاتحة ضياع حواضر الأندلس الكبرى كقرطبة وأشبيلية

---

(١) أبو شامة. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٢، ص ١٧٠ ـ ١٧١.

(٢) نفس المصدر.

وغيرهما. كما وإن بني غانية كانوا أعلنوا ثورتهم في منطقة افريقية، وهي منطقة حساسة بالنسبة للموحدين وعلى الرغم من أن المنصور نجح في أبعاد الثوار إلا أن هناك احتمالاً قوياً في أن يعودوا من جديد لمهاجمة المنطقة[1]. كذلك كان المنصور بحاجة ملحة إلى أساطيله لرد عدوان نصارى الأندلس والبرتغال وتأمين مواصلاته مع الأندلس وحماية سواحل بلاده الطويلة[2]. وطبعاً هذه كلها أسباب مقبولة ومعقولة لعدم إرسال الأساطيل. ولكن كما قال صلاح الدين في رسالته لرسوله ابن منقذ، فإن المساعدة ليست سبيلها واحدة. وكان بإمكان المنصور أن يمد إخوانه بالمال أو العتاد أو الميرة أو بكلمة طيبة، فلمَ لم يفعل هذا؟ لماذا؟!

في الإجابة على هذا السؤال لا بد من ملاحظة ما يلي: كان أهل المغرب يتهمون أهل المشرق بالانحراف عن العقيدة الإسلامية الصحيحة، ويتهمونهم بالبدع والضلال والانحراف والزيغ. فقد صرح في ذلك ابن جبير في رحلته في أكثر من موضع. كذلك يذكر المراكشي: فبلغني عن غير واحد أنه (أي المنصور) صرح للموحدين بالرحلة إلى المشرق وجعل يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع ويقول: نحن إن شاء الله مطهروها، ولم يزل هذا عزمه حتى مات[3]. كذلك يذكر ابن خلكان ان المنصور استاء من صلاح الدين لأنه لم يخاطبه بأمير المؤمنين... فعز ذلك عليه ولم يجبه[4]. ونحن وإن كنا لا نعتقد أن المنصور الموحدي لم ينجد صلاح الدين بسبب ذلك، ولكنا نعتقد أنه لم

---

(١) عنان، محمد عبدالله، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤. ٢ جـ جـ ٢، ص ١٨٥.

(٢) نفس المصدر.

(٣) المراكشي، عبد الواحد. المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان. القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٩٦٣ م ص ٣٦٠.

(٤) ابن خلكان. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٦ ـ ١٢.

يرسل له رسالة جوابية ولم يرد على التحية بمثلها لعدة أسباب. أولها: الغرور الذي أصاب المنصور بعد معركة الأرك فجعل ينظر لنفسه بمنظار أعلى مما هي عليه. ثانيها: أنه كان يعتقد أن مسلمي المشرق الإسلامي ليسوا أسوياء في عقيدتهم وإسلامهم، وإن واجبه، وبالتالي واجب كل مسلم حقيقي، احتلال بلادهم وتطهيرها من الملاحدة والبدع وحمل الكافة على القاعدة الشرعية. وأخيراً لأن صلاح الدين لم يلقبه بلقب أمير المؤمنين. وعندنا وثيقة من نفس العصر هي رسالة أرسلها القاضي الفاضل إلى صلاح الدين حول نفس الموضوع موضوع تلقيب صلاح الدين المنصور الموحدي بلقب أمير المؤمنين. ويبدو لنا أنه ثار جدل عنيف حول هذا الموضوع بين أتباع صلاح الدين، وأن صلاح الدين مال إلى هذا الرأي. ولكن لم يقف بوجه هذا الإتجاه إلا القاضي الفاضل في رسالته الموجهة إلى صلاح الدين حول هذا الموضوع. فهو يذكر في رسالته أنه غير معترض على الرسالة المغربية، ولكن اعتراضه على إضافة لفظ أمير المؤمنين، ويذكر أنه خاطب المنصور بشكل فخم كل الفخامة وبشكل يفوق الوصف وبما لا يمكن مخاطبة مخلوق بأكثر منه [1]. وعلى الرغم من أن الأمير نجم الدين، وهو الذي كان من المفروض أن يحمل الرسالة إلى المغرب، اعترض على عدم تلقيب المنصور بأمير المؤمنين واعترض معه آخرون من بينهم العادل أخو صلاح الدين إذ أصروا على ذلك، إلا أن القاضي الفاضل أصر على عدم إضافة اللقب له وعلل رفضه بأسباب: منها أن الصالح بن رزيك وزير خليفة مصر الفاطمي لم يخاطب ابن عبد المؤمن وولي عهده بأكثر من الأمير الأصيل، فلا يليق بصلاح الدين وعظمته أن يلقبه بهذا اللقب. ثم يذكر أن المنصور ليس على درجة من القوة كما يتصورون: وما هو إلا أن يهرب مملوكان طريدان منا **فيستوليان على** أطراف بلاده [2]. ثم يذكر أن بإمكان الرسول أن يخاطبه بهذا اللقب ويمكن أن

(١) أبو شامة. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٢ ١٧٤ - ١٧٦.

(٢) نفس المصدر.

يجحد ذلك فيما بعد، أما تسجيله في خطاب رسمي فشيء غير وارد لأن ذلك يعني خلع الولاء للعباسيين ومبايعة من لا ينصره الله ولا شوكة فيه ولا يحل اتباعه، مرخصين الغالي منحطين عن العالي، شاقين عصا المسلمين[1]... ثم يقول القاضي الفاضل للأمير: إن وجدت للقوم شوكة ولنا زبدة فعدهم بهذا المخاطبة واجعل كل ما تأخذه ثمناً للوعد بها خاصة[2] ثم يتابع القاضي الفاضل اعتراضاته الثانوية ويشك في إمكانية وصول النجدة قبل سنتين، وفي خلال ذلك يبدل الله الأحوال. ويقول إذا أصر صلاح الدين على تلك اللفظة فهو يستقيل من كتابتها ويطلب إلى السلطان أن يكلف غيره من الكتاب كتابتها، وفي نفس الوقت يلوذ بالسلطان ألا يسمح لمخالفي رأيه أن ينتقموا منه لأنه خالفهم، ويختم رسالته النفيسة هذه بما يلي: ولو علم المملوك إن هذا الذي استعفى منه يضره بحيث ينفع المولى ـ أبقاه الله ـ لهان عليه، ولكنه مضرة بغير منفعة، وتعرض لما تذم عاقبته أو يبقى على الخوف منه، وذلك مما لا يقتضيه حسن عهد المولى وفضل رأفته.

رحم الله القاضي الفاضل، فقد كان، بجانب إخلاصه لصلاح الدين إخلاصاً لا تشوبه شائبة، سياسياً بارعاً ورجل دولة بعيد النظر صائب التفكير، متزناً، ذا مبدأ ومعتقد، مستعداً أن يقف في وجه قوى أقوى منه في سبيل مبدئه وعقيدته. ويبدو لنا أن صلاح الدين تبنى وجهة نظره ووجهت الرسالة إلى ملك المغرب، كما نص سابقاً، خلواً من لقب أمير المؤمنين.

شؤون إدارية وخراجية زمن صلاح الدين:

من الملاحظ أن أغلب الشؤون الإدارية كان يقوم بأمرها القاضي الفاضل نيابة عن السلطان وباسمه. ومن المراسيم المهمة مرسوم أصدره صلاح الدين يمنع العامة من الخوض في الحرف والصوت. وهي، كما يبدو، أمور مغيبة من أمور

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

القرآن الكريم. ويشدد المرسوم على المتفقهين ويحذرهم أليم العقاب إن هم عادوا للخوض[1]. كذلك يثبط القاضي الفاضل صلاح الدين عن الذهاب إلى الحج بعد توقيع الصلح مع الصليبيين لأن بقاءه أفضل من الحج خوفاً من غدرة صليبية[2]. ولقد صحح صلاح الدين زمن الخراج وطابق بين السنتين الهلالية والخراجية في مصر[3].

وإذا أردنا ان نختم كلامنا عن صلاح الدين قلنا إنه بطل من أبطال الإسلام الذين نذروا أنفسهم لخدمة ربهم ودينهم وأبناء ملتهم، وإنه كان سياسياً بارعاً إلى جانب كونه بطلاً عسكرياً .وقد تخرج على يديه عدد من أساطين الحرب والسياسة على رأسهم أخوه الملك العادل. وان عصره امتداد لعصر نور الدين، كما وان عصره كان الأساس الذي بنيت عليه فتوحات أفراد أسرته من بعده ومن أتى بعدهم من ملوك المماليك حتى حقق الله تعالى ما كان يحلم به ويؤمله صلاح الدين من تحرير جميع بلاد الشام ومصر من طغيان الصليبيين واحتلالهم. وما أحوجنا في أيامنا هذه إلى إحياء ذكراه وإلى أبطال مثله ليعيدوا إلى حضن الإسلام الفتوحات التي كسبها هو بحد سيفه وفرطنا نحن فيها بتقصيرنا.

أبناء صلاح الدين:

من الملاحظ ان صلاح الدين قسم أثناء حياته ممتلكاته بين أولاده وأخيه وخص كلاً منهم بجزء مستقل، ولذلك ما إن مات صلاح الدين حتى بدأ الخلاف بين الأخوة حول الإرث، وبينهم وبين عمهم الملك العادل. ولقد قاد تقسيم البلاد بين الأبناء واعتبارها إرثاً خاصاً كالممتلكات الشخصية، قاد إلى أوخم العواقب وأفدح الكوارث في التاريخ الإسلامي، سواء على العباد أم البلاد

---

(١) السيوطي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٢، ص ١٩.

(٢) أبو شامة. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٢، ص ٢٠٥.

(٣) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١٣، ص ٧١ - ٧٤.

أم الحكام أنفسهم. وقد بدأ هذه العملية السلاجقة وكانت من أكبر عوامل ضعفهم وضعف البلاد الإسلامية عند الغزو الصليبي لها. وعلى الرغم من الصعوبات الهائلة التي رافقت عملية توحيد البلاد على يد نور الدين وصلاح الدين، إلا أنه، وأعني صلاح الدين، لم يتعظ وقسم بلاده بين أولاده وأخيه فأدى الأمر إلى حدوث مآسٍ مروعة، ولا سيما وإن الأبناء الثلاثة لم يكونوا متفقين، ولم يكن بينهم من يمكن ان يوازن بالعادل دهاء وحنكة وشخصية. كما وإن العادل نفسه لما صفا له الملك أعاد تقسيم بلاده بين أولاده وعادت المأساة للظهور مجدداً.

وليس بين أولاد صلاح الدين من يمكن اعتباره رجل دولة بالمعنى الكلي للكلمة، اللهم إلا الملك الظاهر صاحب حلب ففيه بعض ملامح رجل الدولة. أما الأفضل الذي هو رأس أولاد صلاح الدين فقد كان شخصاً خيالياً يجري وراء أوهام ومثل غير موجودة، كما كانت تنقصه الحنكة السياسية والدهاء اللذان هما عنصران أساسيان لرجل الدولة. ولا يمكن الحكم على الملك العزيز صاحب مصر لأنه مات مبكراً. ولو استطاع أولاد صلاح الدين توحيد صفوفهم لما تمكن عمهم من التغلب عليهم، ولكنهم اختلفوا وتحالفوا مع عمهم ضد بعضهم بعضاً فأدى الأمر إلى استظهار عمهم عليهم. ولقد نبههم القاضي الفاضل إلى ضرورة الاتحاد وذلك في الرسالة التي وجهها إلى الملك الظاهر يخبره بموت والده ويختم هذه الرسالة بقوله... فإنه إن وقع اتفاق فما عدمتم إلا شخصه الكريم، وان كان غيره فالمصائب المستقبلة أهونها موته وهو الهول العظيم والسلام[1]. كما وإن الملك الظاهر نبه أخاه الأفضل إلى عدم الثقة بعمهما العادل لأنه يعرف نواياه فأرسل إليه يقول: أخرج عمنا من بيننا فإنه لا يجيء علينا منه خير، ونحن ندخل لك

(١) اليافعي، أبو محمد عبدالله. مرآة الجنان وعبرة اليقظان. الطبعة الثانية. بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٧٠ م ٤جـ. جـ ٣، ص ٤٦٢.

تحت كل ما تريد. وأنا أعرف به منك... فإنه عمي مثل ما هو عمك وأنا زوج ابنته، ولو علمت أنه يريد لنا خيراً لكنت أولى به منك [1] ولكن الأفضل رفض هذه النصيحة القيمة وأجاب أخاه بقوله: أنت سيء الظن في كل أحد. أي مصلحة لعمنا في أن يؤذينا [2].

وكانت نتيجة هذه الثقة وهذه الخفة والطيش أن فقد الأفضل كل أملاكه وأمضى ما بقي من حياته ملكاً على بليدة صغيرة من بلدان الجزيرة وحاز الملك العادل القسم الأكبر من إرث أخيه.

الملك العادل:

تطالعنا في الملك العادل شخصية قوية هي مزيج من القوة والدهاء، والواقعية والنظرة الرحبة. فقد تعلم في مدرسة صلاح الدين وكانت له باع طولى في الأعمال التي انجزها صلاح الدين. وهو نفسه كان طموحاً وتواقاً إلى ملك، ولم يكن بامكانه تحقيق ذلك ما دام أخوه حياً فتعلم لجم مطامعه؛ ولكنه بدأ في تحقيقها بعد وفاة أخيه. وقد استغل ضعف أولاد أخيه وتفرقهم، فزادهم بدهائه وحنكته ضعفاً وتفرقة حتى تمكن أن يحقق مطامحه. وقد يبدو لنا ذلك عقوقاً من جانبه تجاه أخيه، ولكن السياسة تقضي بذلك، والوحدة خير من التمزق، ومصلحة العباد والبلاد مقدمة على مصلحة الأفراد. وقد دلت الأحداث على أن الملك العادل كحاكم أفضل من أولاد صلاح الدين، ولا سيما وإن البلاد الإسلامية كانت مقبلة في أواخر عهده وعهد ابنه الكامل على تطورات رهيبة كانت بحاجة إلى شخص من طراز خاص حتى يستطيع التعامل معها ودفعها. ولذلك نحن نعتبر ما عمله جيداً وأخلاقياً وذلك للفوائد التي تحققت من أعماله هذه.

---

(١) ابن الأثير. الكامل في التاريخ. تحقيق عبد الوهاب نجار. القاهرة، إدارة الطباعة المنيرية، ١٣٤٨ هـ. جـ ١٢، ص ١٢٢

(٢) نفس المصدر.

ولقد حاول الصلاحية بزعامة فارس الدين ميمون القصري ان يقفوا في وجه العادل، ولا سيما بعد أن خلع الملك المنصور بن الملك العزيز عن عرش مصر وحل محله في عرشها فقد حاول فارس الدين أن يقف بمفرده في وجه العادل فعجز، فكاتب الصلاحية ليقفوا معه في وجه العادل فأجابوه جواباً يكشف عن مدى شعورهم بالأمر الواقع: أنا قد افتضحنا بين الناس بأنا نقيم في كل يوم ملكاً ونعزل ملكاً. ثم إلى من نسلم الأمر؟ الملك الأفضل ما فيه رجاء وباقي إخوانه غير الظاهر ليست لهم في النفس عظمة. والظاهر فما يمكنه أن يخلي بلاده ويصير الينا (١).

بقايا الأيوبيين:

وقع العادل في الخطأ الذي وقع فيه أخوه صلاح الدين فقسم مملكته بين أبنائه. وكما هو متوقع اختلف الأخوة ودارت بين جميع الأطراف معارك جانبية ومحالفات أدت إلى إضعاف الجميع في وقت كانت الحملات الصليبية بدأت بالتوجه إلى مصر. ولا نجد بعد الكامل بن العادل شخصية قوية كبيرة تستحق الاعتبار والاهتمام. والواقع لقد انحدر أواخر الأيوبيين إلى مستويات خطرة ومنخفضة، فقد أصبح في بلد كالكرك ملك أيوبي، وكذلك في أغلب البلدان، وكل منهم يحارب الآخرين ويقتل خصومه وينكل بهم، مما أدى، مع أسباب أخرى كثيرة أهمها الغزو المغولي، إلى زوال الحكم الأيوبي من كل من سورية ومصر ليحل محله ما عرف باسم العهد المملوكي الذي بدأ، في كل من سورية ومصر، من أواسط القرن السابع الهجري إلى أوائل القرن العاشر الهجري (ويقابله أواسط القرن الثالث عشر ميلادي إلى أوائل القرن السادس عشر حين احتل العثمانيون سورية ومصر وأنهوا الحكم المملوكي في كل من سورية ومصر).
ولكن هناك استثناءً وحيداً وهو مملكة حماة التي ظل يحكمها أمير أيوبي تحت

(١) ابن الفرات. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٤ ق ٢، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.

إشراف المماليك وسيادتهم فترة تزيد على القرن إذ استمرت هذه المملكة الأيوبية في الوجود إلى ما بعد منتصف القرن الثامن الهجري، ومن أشهر ملوكها أبو الفداء المؤرخ والجغرافي المعروف.

الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي

٤٨٩ - ٨٠٦ هـ

١٠٩٦ - ١٤٠٤ م

تمر في حياة الأمم والشعوب أوقات حرجة، وأزمات مستعصية يكونون فيها قاب قوسين أو أدنى من الهلاك، ويشعرون وكأن القيامة تُوشِك أن يحل أجلها، وتأخذ الأزمات بخناقهم حتى إنهم لا يستطيعون فكاكاً من قبضتها. كما وأن أغلب الأمم والشعوب هاجمها الأعداء والطامعون، وبلغوا منها، ونالوا منها إيلاماً وجرحاً ونقضاً وانتقاصاً. كما وأن أغلب الأمم والشعوب مرت ولا تزال تمر بأوقات سعيدة افتر فيها ثغر الحياة عن ابتسامة وضاءة أنارت معالم الطريق أمام هذه الشعوب وازدهرت أحوالها الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والأخلاقية. وترقى في معارج التقدم والحضارة، وتساهم أجل وأجمل مساهمة في خدمة حضارتها الذاتية أولاً، ومن ثم في بناء صرح الحضارة العالمية، والشعوب الإسلامية لم تشذ عن هذه القاعدة، فقد تعاور عليها النقيضان: من بؤس ونعيم، وخير وشر، ورفعة وخفضة، وساهمت في الحضارة العالمية مساهمة رفيعة، وأفاضت على العالمين خيراً عمياً. ثم داهمتها المصائب والأوزار من كل حدب وصوب، فتحيَّفتها وانتقصتها، وأعمل فيها أعداؤها معاول الهدم والتخريب مما جعلها تترنح تحت ثقل وطأة هذه الضربات، وتضطر للتقهقر الحضاري، وأن تعيش على هامش الحضارة العالمية فترة طويلة من الزمن، وعلى الرغم من أن أغلب الأمم تعرضت وتتعرض للأعداء وهجومهم عليها، إلا أن التاريخ لم يشاهد أمة من الأمم تكالب عليها الأعداء وهاجموها بمثل الشراسة والقسوة التي

هاجم بها أعداء الأمة الإسلامية هذه الأمة. ذلك أن بلاد الإسلام شاهدت ما يمكن أن يكون أشرس هجوم حضاري تتعرض له أمة من الأمم، وذلك خلال أكثر من قرنين من الزمان، وأعني بذلك الهجوم الصليبي الذي شنته أوربا تحت اسم الصليب على غربي البلاد الإسلامية خلال قرنين من الزمان (الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين)، وهجوم المغول على شرقي البلاد الإسلامية خلال أكثر من قرنين آخرين (السادس والسابع الهجريين/الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين). ولقد كان الهدف من هذا الهجوم المزدوج القضاء على الإسلام كدين وكحضارة، واستئصال الدين الإسلامي من جذوره ومنابته، وتدمير الحضارة الإسلامية المزدهرة، وتدمير بلاد المسلمين والقضاء على المسلمين كمجتمعات وكأفراد.

ولسوء الحظ فإن البؤر الحضارية بما تحويه من ثروات، وبما تنعم به من رخاء، وبما تشعر به من تفوق، وبما يتخللها بعض الأحايين من تحلل أو ضعف ناجم عن الإغراق في الحضارة، تجذب لمهاجمتها جيرانها الهمج الأقل تحضراً، وتغريهم بالنفوذ إلى داخلها وتدميرها، وكأن لسان حالهم يقول لهم: هلموا إلى حيث المدنية والحضارة والرخاء والنعمة، وكأن جميع هذه الأشياء نقم توجب أن يعاقبوا عليها أشد العقاب. وللهمج وغير المتحضرين عقلية تخالف عقلية المتحضرين: فهم يشعرون بصغارهم الحضاري أمام تفوق الآخرين في هذا المضمار، فينقمون عليهم هذا التفوق، ويحاولون جهدهم النفوذ الى هذا الكيان الحضاري وتدميره للانتقام لقصورهم هم في هذا المضمار، ولتغطية عقدة النقص المستعصية هذه. وهذا يعلل، إلى حد كبير، محاولات البدو المتكررة النفوذ إلى الأماكن الأكثر تحضراً ومحاولاتهم تدميرها، وهذا ما حدث في بلاد الإسلام خلال حقبة من الدهر امتدت أكثر من ثلاثة قرون، إذ هاجمتها أقوام أقل تحضراً، وحاولوا القضاء على شعوب تلك المنطقة وعلى حضاراتها ومعتقداتها ومنجزاتها؛ ولسوء الحظ نجحوا في ذلك إلى حد ما، وكان نجاح المغول في القسم

الشرقي من الامبراطورية الإسلامية أكبر من نجاح الصليبيين في القسم الغربي، على الرغم من أن هدف الهجومين واحد.

ولكن حدث أن المسلمين في غربي البلاد الإسلامية كانوا أكثر تماسكاً فتمكنوا من طرد الغزاة والحفاظ على ما تبقى من تراثهم الحضاري، على حين عجز المسلمون في شرقي البلاد الإسلامية عن الوقوف بوجه المغول، بسبب عنف الهجوم المغولي وقسوته وتفرق المسلمين وتخاذلهم، وعدم وجود قيادة موحدة تضم شملهم. فأصبحت بلادهم خراباً يباباً وقتل وشرد أهلها، ودمرت معالم حضارتهم. ولم تعد الحياة إلى تلك المناطق إلا تدريجياً وبعد فترة طويلة نسبياً من الزمن، ولما عادت الحياة ثانية إلى تلك الأصقاع كانت ضعيفة رخوة وفقدت تلك الحيوية والإبداع السابقين اللذين أنتجا الحضارة الإسلامية. ولا يزال يوجد في شمالي بلاد الشام خرائب مدن كانت زاهرة قبل الغزو المغولي ودمرها المغول، وهي الآن خربة من أمثال الرها ونصيبين وحران وغيرها من المدن، بله خرائب المدن الكثيرة التي تركها الغزو المغولي في خراسان وإيران والعراق.

مصادر المعلومات عن الغزوين الصليبي والمغولي:

إن مصادر معلوماتنا عن الغزوات الصليبية والمغولية للبلاد الإسلامية، هي في نفسها، بالأعم الأغلب، المصادر التاريخية والأدبية، التي تحدثنا عنها في كتابنا عن الوثائق الفاطمية والأتابكية والأيوبية، يضاف إليها الكتب التاريخية العامة، ولذلك لن نحتاج هنا إلى دراستها بتفصيل، إنما نكتفي ببعض الإشارات. فمثلاً كتاب «**ذيل تاريخ دمشق**» لابن القلانسي مهم كل الأهمية ومصدر أساسي لدراسة الدولة النورية في دمشق وحياة نور الدين الشهيد في مراحلها الأولى. كما وأنه مصدر لا يستغنى عنه مطلقاً لدراسة الحروب الصليبية في أولها. وكذلك الحال مع كتب مثل كتب «**زبدة الحلب**» لابن العديم، وكتاب «**الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**» لأبي شامة، و«**سيرة صلاح الدين**» لابن

شداد وغيرها. كما وأن الكتب الأدبية أو كتب الثقافة الأدبية مهمة أهمية فائقة، ولا يفوقها شيء في هذا المضمار مثل كتاب «**صبح الأعشى**» للقلقشندي، وكتاب «**نهاية الأرب**» للنويري، فقد حوى هذان الكتابان، ولا سيما الأول منها، نصوصاً لوثائق عائدة للحروب الصليبية والغزو المغولي، غاية في الأهمية، إلى جانب الدقة والضبط والشمول التي يمتاز بها كتاب القلقشندي.

أما كتب التاريخ الإسلامي العامة، فقد يكون بعضها أكثر أهمية. لدراسة بعض النواحي من الكتب السابقة، فكتاب ابن الأثير «**الكامل في التاريخ**» يعتبر أساسياً لدراسة الحروب الصليبية والغزو المغولي في أوله؛ ذلك لأن المؤلف عاصر الحركتين، وتأثر بها كل التأثير، وهو في وضع يمكنه من تسجيل أحداث عصره بأمانة ودقة، فقد كان عالماً ناقداً بصيراً ذا ذهن نيِّر منفتح وغوص على بواطن الأمور، وكان يحاول النفوذ إلى ما تحت السطح وسبر الأغوار كما كان حيادياً وقادراً على الرؤية الواضحة والبعد عن الهوى. وكان مدركاً لأبعاد الهجوم الشامل الذي شنه أعداء الإسلام عليه ومن الطرفين، ونجد صدى لذلك وانعكاساً له في كتابه. ولذلك اعتبر المؤرخون كتابه هذا حجر أساس في دراسة تلك الفترة الحرجة من تاريخ الإسلام، ويمكن أن نضيف إلى كتاب ابن الأثير هذا الكتب التي ألفها كل من المقريزي والسيوطي وابن كثير وابن تغري بردي وابن الفرات. فكتاب «**السلوك**» للمقريزي يحوي معلومات ووثائق تكمل معلومات كتاب «**الكامل**» لابن الأثير، والمؤلف نفسه شبيه بابن الأثير من حيث بعد نظره، وفهمه للأشياء وإدراكه لحقيقة الصراع. كذلك يمكن اعتبار كتاب ابن كثير «**البداية والنهاية**» ذيلاً لكتاب ابن الأثير، وابن كثير نفسه تلميذاً لابن الأثير، وكتاب ابن الفرات المسمى «**بتاريخ ابن الفرات**» إكمال وذيل للكتابين السابقين ويحوي وثائق مهمة جداً، ونفس الحكم ينطبق على عدد من الكتب التي تقص سيرة مصر والقاهرة مثل كتاب ابن تغري بردي «**النجوم الزاهرة**» والسيوطي «**حسن المحاضرة**».

على أن هناك عدداً من الكتب الأساسية المعاصرة لفترة من فترات الحروب الصليبية لا بد من التنويه بها هنا؛

فقد ذكرنا سابقاً ابن القلانسي وكتابه «**ذيل تاريخ دمشق**»، كذلك لا بد من ذكر الكتب التالية: كتاب «**الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**» لأبي شامة، وكتاب «**النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**»، لابن شداد وكتاب «**الفتح القسي في الفتح القدسي**» للعماد الأصفهاني، وكتاب «**مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**»، لابن واصل، وكتاب «**تشريف الأنام والعصور في سيرة الملك المنصور**»، لابن عبد الظاهر، وكتاب «**مضمار الحقائق**»، لمحمد ابن تقي الدين عمر الأيوبي، وكتاب «**جامع التواريخ للهمذاني**».

وقد سبق أن تكلمنا عن أغلب هذه الكتب مع كتابنا الذي ذكرناه أيضاً وهو كتاب **الوثائق الفاطمية والأتابكية والأيوبية**. ونحب أن نضيف هنا أن هذه الكتب تحوي فيضاً من الوثائق، وبعضها مفرد، ولا سيا كتاب **الروضتين** لأبي شامة الذي حوى عدداً لا يستهان به من الوثائق الصليبية زمن كل من نور الدين الشهيد وصلاح الدين الأيوبي مما يلقي ضوءاً ساطعاً على الأحداث. هذا مع الدقة والضبط والصحة والتجرد.

أما ابن واصل، فيورد في كتابه **مفرج الكروب**، في الأعم الأغلب، مقتطفات يعتقد أنها مهمة جداً فيوردها بعد أن يكون أتى بملخص عن الوثيقة، وهو يتجاوز عصر نور الدين ليغطي جميع عهود الأيوبيين حتى بعيد سقوطهم، فهو مهم من هذه الناحية إذ أنه يكمل عمل **الروضتين**.

أما كتاب **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، فقد ألفه قاضي صلاح الدين ابن شداد ليكون سجلاً لحياة هذا السلطان المجاهد، وهو يقص سيرة صلاح الدين وحروبه، ولكنه مهتم بذكر الأشياء الطريفة النادرة التي

تبرز ـ في رأيه ـ عظمة صلاح الدين وجهاده وشخصيته أكثر من اهتمامه بالوثائق.

أما كتاب **مضمار الحقائق**، فقد ألّفه أحد أمراء آل أيوب ليكون سجلاً حافلاً لبطولة من أنجبتهم هذه الأسرة. وإن مكانة هذا الأمير، الذي يكون صلاح الدين عم والده، واطلاعه على الأحداث والوثائق الأصلية، تضفي على معلوماته وعلى ما ينقله من وثائق أهمية خاصة، ونجد فيه عدداً من الوثائق لا نجدها في مكان آخر.

ولقد ألف العماد الأصفهاني كاتب صلاح الدين كتابه الموسوم باسم **الفتح القسي في الفتـح القدسي** ليكون سجلاً جليلاً جداً وعزيزاً على قلب كل عربي ومسلم وهو استرجاع السلطان صلاح الدين لبيت المقدس وما سبق ذلك من أحداث وما رافقه وتبعه من مساجلات ومعارك، وإن أهمية هذا الكتاب تنبع من عدد من الحقائق أهمها أن المؤلف عاصر بنفسه الأحداث التي يقص سيرتها، ذلك أنه كان كاتباً لصلاح الدين، وشارك عن كثب الأحداث، وشارك فيها ودبج الرسائل بقلمه، وأرسلها للآخرين حول هذه المعركة أو تلك الحركة. وكتابه ألفه بالأساس لتمجيد صلاح الدين وتحريره البيت المقدس، وكيف أن هذا الحادث فتق لديه ولدى الآخرين أكمام البلاغة في رسائلهم، تلك البلاغة التي تذكر ببلاغة قس بن ساعدة الإيادي المشهور ولذلك أسماه الفتح القسي في الفتح القدسـي. وإن المؤلف هو الذي دبج نصوص أغلب الوثائق التي اشتمل عليها كتابه، وكتابه مليء بهذه الوثائق. وقد أراد أن يظهر فصاحته وبلاغته تجاه هذا الحادث المهم كل الأهمية في حياة المسلمين فأثبتت نصوص كثير من الرسائل التي ألّفها هو حول هذا الموضوع. والكتاب يقص سيرة الأحداث التي سبقت ورافقت وأعقبت تحرير المسلمين القدس. فهو بالحقيقة يقص سيرة فترة قصيرة نسبياً، ولكنها فترة مهمة كل الأهمية وحافلة بالأحداث، بل وحاسمة في تاريخ علاقاتنا بالصليبيين. ولكن الذي يشوه هذا العمل العظيم هو هذا السجع

المتعمد الذي يتبعه العماد في تأليف كتابه ورسائله. قد يكون له عذر في ذلك، إذ أن روح عصره تملي عليه هذا الأسلوب. ولكن هذا السجع يبدو ثقيلاً على أسماعنا نحن أبناء القرن العشرين الذين لم نعتد على مثل ذلك. وعلى كل فإن هذا الأسلوب لا يقلل من قيمة الكتاب الوثقية، ويبقى من أعظم الوثائق وأجدرها بالثقة والاعتماد التي وصلتنا عن تلك الفترة ومنها.

وهناك كتاب آخر يقص سيرة أحد ملوك المماليك، وهو الملك المنصور قلاون الذي عاصر أواخر الحروب الصليبة، وكان له باع طويل في الحرب ضد الصليبيين وضد المغول، وهو الذي حرر قسماً من الساحل السوري من أيدي الصليبيين، وهزم الجيش المغولي في معركة من أروع المعارك التي خاضها المسلمون ضد المغول قرب حمص. ومؤلف الكتاب هو ابن عبد الظاهر كاتب الإنشاء لدى الملك المنصور، وألفه تمجيداً لبطولات وأعمال هذا السلطان العظيم وحروبه المظفرة ضد المغول والصليبيين وأسماه «**تشريف الأنام والعصور في سيرة الملك المنصور**». ويحوي الكتاب عدداً ممتازاً من الوثائق الصليبية والمغولية ليست موجودة في غيره، ولا سيما نصوص معاهدات وهدن ورسائل بين الأطراف المعنية، فهو بهذه الكيفية كنز لا يثمن.

وليس لدينا سوى كتاب واحد، أو بالأحرى، جزء صغير من كتاب واحد، وصل إلينا سالماً، خصص كله لدراسة تاريخ المغول والحركة المغولية ألفه مؤلف استخدمه المغول ليقص سيرتهم من وجهة نظرهم الخاصة بهم. هذا الكتاب هو **جامع التواريخ في تاريخ المغول** لرشيد الدين بن فضل الله الهمذاني الذي كان مؤرخ البلاط المغولي الرسمي استخدمه أبناء وأحفاد هولاكو في بلاد فارس لهذه الغاية. والمؤلف فارسي وألف كتابه بالفارسية، ولم يصل لنا سوى جزء صغير من هذا الكتاب. ويدل أسلوب الكتاب على روح علمية، ومحاولة يائسة للتخفيف من جرائم المغول وقسوتهم وهمجيتهم. وحوى كتابه عدداً كبيراً من الوثائق التي لا وجود لها في غيره، إلى جانب معلومات وتفاصيل كثيرة

لا يعلمها إلا من اضطلع بمثل مهمته وشغل مثل منصبه. وهو في كتابه يلقي الضوء على كثير من الأحداث والأمور التي جرت في المنطقة، وتلقي وثائقه كثيراً من الأنوار الكشافة، وهو بهذا يكمل المصادر العربية ويتناغم معها، ولا يعارضها البتة، ونحن نأسف كل الأسف لعدم تمكننا من الحصول إلا على هذا الجزء الصغير من هذا الكتاب النفيس. وهناك كتاب أخير كان بودنا لو حصلنا على نسخة منه، واطلعنا على ما يحويه من وثائق إن وجد، وهو كتاب ابن عربشاه «**عجائب المقدور في حملات الأمير تيمور**» الذي ألفه المؤلف عن حياة تيمورلنك وحروبه وأعماله، وكان معاصراً له وموظفاً لديه. ولكن المؤلف لم يتمكن من الاطلاع عليه ولم تصل إلى يده نسخة منه، ولذلك يأسف كل الأسف لذلك، ويرجو أن يتمكن من تدارك ذلك في المستقبل بإذن الله.

هذه هي مصادر معلوماتنا ومصادر وثائقنا عن الحروب الصليبية والغزوات المغولية للعالم الإسلامي بشكل عام. ولا بد أنه شذ عنا أسماء عدد من المصادر، قد يكون بعضها مهماً، والبعض الآخر أقل أهمية، ولكننا نعتقد أننا أتينا على ذكر الجمهرة الكبرى والأكثر أهمية من هذه المصادر.

وهناك مصدر أخير وهو كتب الفرنج والفرس واللاتين الذين عاصروا الحروب الصليبية والغزوات المغولية، وحضر بعضهم إلى بلادنا إبان الاحتلال الصليبي. وكذلك كتب بعض الرحالة الغربيين الذين زاروا بلاطات خانات المغول كماركوبولو وغيره من الرحالة، وكسفير اسبانيا لدى تيمورلنك الذي ألف كتاباً عن رحلته ومقامه وسفارته لدى تيمورلنك. ولكن ذلك يخرج عن نطاق بحثنا، لأنا أخذنا أنفسنا بالبحث عن الوثائق التاريخية في المصادر العربية أو المعربة. ثم إن جهل المؤلف لغة تلك المؤلفات وصعوبة الحصول على نسخ منها عائق آخر دون تحقيق ذلك، فنكتفي بذكر ذلك والتنويه به.

خطة الكتاب:

ويتألف كتابنا هذا من قسمين رئيسين متكافئين: فقد درسنا في هذا الفصل التمهيدي العصر الذي تغطيه الوثائق من خلال الوثائق نفسها، وحاولنا إعطاء الملامح العامة لكل من الحروب الصليبية والغزو المغولي كما تبدو من خلال نصوص الوثائق المتوفرة لدينا، ثم بعد ذلك ترد الوثائق مرتبة ترتيباً زمنياً في قسمين كبيرين: قسم الحروب الصليبية وقسم الغزو المغولي. وقد أثبتنا من أجل كل وثيقة المصدر الذي استقيناها منه مع ذكر الجزء والصفحة، وإذا ورد ذكر لهذه الوثيقة في مصدر آخر أو أكثر من مصدر، أشرنا إلى ذلك في أسفل الصفحة مع ذكر أسماء المصادر وأماكن وجود الوثائق، كما وإنا أعطينا قبل إيراد نصوص الوثائق لمحة توضح الجو، والمناسبة التي صدرت بها هذه الوثيقة أو تلك ونوعها ومن وجّهها ولمن وجهت. هذا وإن أغلب الوثائق مواد مكتوبة: مراسلات رسمية بشكل خاص، ونصوص معاهدات وهُدَنْ وما ماثل ذلك. وأما الخطب والمناظرات والحوار فنادرة كل الندرة، وهذا شيء نابع من صميم روح العصر الذي نجمع وثائقه وندرسه ودليل عليه. وعند وجود أكثر من نص للوثيقة الواحدة أوردنا النص الذي نعتقد أنه أقرب إلى الصحة وأكمل وأدل من غيره على الأمر موضوع البحث. ولم نحاول التصدي لعملية نقد الوثائق، فهذه علمية تخرج عن نطاق كتابنا هذا وتدخل في نطاق مهام البحاثة والدارسين والمؤلفين الذين يستعينون بهذه الوثائق لدراسة العهد الذي تمثله، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وإدارياً وبلاغياً ولغوياً ونفسياً. ونحب أن نعيد هنا القول: إن هذه الوثائق لا تمثل وجهة نظرنا نحن، فإذا أوردنا وثيقة صليبية، فهذا لا يعني أننا نتبنى وجهة النظر الصليبية في الموضوع، وإنما جمعنا الوثائق من هنا وهناك، بصرف النظر عن وجهات النظر التي تمثلها، وبصرف النظر عن القطع بصحتها، أو عدم صحتها، وإنما كل عملنا أنا جمعنا هذه الوثائق ورتبناها وصنفناها، وبينا مصادرها، وعلقنا على بعضها، وقدمنا لها بفصل تمهيدي، أو

مدخل للوثائق، ووضعناها تحت تصرف الباحثين ليدرسوها، ويقرروا فيها وتجاهها ما شاؤوا وشاءت لهم أساليب البحث وطرقه.

الحروب الصليبية ومفهومها:

للحروب الصليبية مفهومان مختلفان: الأول مفهوم واسع فضفاض، والثاني مفهوم اصطلاحي ضيق. فالحروب الصليبية بمعناها الواسع هي الحروب التي شنتها أوروبا المسيحية بعامة ضد مخالفيها من جميع الأديان والملل والنحل والمذاهب باسم الصليب وتحت رايته لحماية الديانة الحقيقية من أرباب الديانات الأخرى، ومن المخالفين والزنادقة والمنشقين من المسيحيين أنفسهم. وهي بهذا المعنى قديمة جداً. ولعل أول من استغل الروح الدينية وأعلنها حرباً صليبية ضد أعداء الدولة وأعداء الكنيسة هو هرقل امبراطور الامبراطورية البيزنطية بين سنتي ٦١٠ و ٦٤١م. ذلك أن هذا الامبراطور حارب الفرس وطردهم من البلاد التي احتلوها في آسيا الصغرى وبلاد الشام ومصر واستعاد الصليب المقدس وبيت المقدس منهم، وكان يضطرم بروح دينية عالية جداً للقضاء على أعداء الدين، وكانت الكنيسة تساعده وتسانده، وقد أعلنها حرباً صليبية حقيقية ونجح فيها، ولذلك لقب هرقل بلقب أول الصليبيين. ثم توالت الحروب الصليبية ضد المخالفين، وضد معتنقي الديانات الأخرى وخاصة الإسلام.

فالحروب التي دارت رحاها بين المسلمين وأعدائهم في شبه الجزيرة الإيبرية كانت حروباً صليبية حقيقية وساهمت بها البابوية أكبر مساهمة. كذلك كانت حروب البيزنطيين المستمرة في بلاد الشام ضد الحمدانيين والسلاجقة من هذا النوع، وكان القوم يضطرمون حماساً دينياً في حربهم المقدسة ضد أعدائهم المسلمين. ولما بدأت الحروب الصليبية المعروفة بالمعنى الاصطلاحي الضيق كانت الكنيسة هي التي دعت لها، وغذتها وأعدت لها وسارت الجيوش كلها تحت لواء الصليب لنصرة الدين الحقيقي واسترجاع قبر السيد المسيح، وقتل واستئصال

الكفرة، وظلت هذه الحروب مستمرة أكثر من قرنين. ولما عجزت البابوية عن تحقيق غايتها ظنَّ الناس أن فكرة الحروب الصليبية قد ماتت وانفضت وأصبحت كأمس الدابر، ولكنهم كانوا واهمين. ذلك أن أوربا تمتاز أكثر ما تمتاز بتعصبها، فقد شنت الكنيسة الكاثوليكية حروباً صليبية كثيرة ضد مخالفيها من المسيحيين والمنشقين، وفعلت بهم الأفاعيل. ولما أتى الإصلاح الديني في أوربا أوائل القرن السادس عشر، وانشقت الكنيسة على نفسها إلى شيع وأحزاب حاربت هذه الفرق المتناحرة بعضها بعضاً تحت لواء الصليب، وكانت كل فرقة تغلي حماساً دينياً وتتعصب كل التعصب لمذهبها وضد الآخرين، وخضبت صفحات التاريخ بدماء ضحاياها وسودتها بأفعالها التي اقترفتها باسم الدين والمسيح، والدين والمسيح من ذلك كله برآء.

ولما تأسست الامبراطوريات الكبرى في الغرب، وبدأ عهد الاستعمار الأوربي للعالم الجديد وللشرق انضافت إلى فكرة الحروب الصليبية أفكار أخرى منها القومي ومنها الاقتصادي ومنها التسلطي ومنها التجاري، ولكن لم تختف فكرة الحروب الصليبية، وإنما غلفت ببعض الشعارات الأخرى البراقة. ولقد حاربت أوربا بعضها بعضاً خلال الحربين العالميتين الماضيتين حروباً صليبية، ولكن اختلفت الشعارات فقط. أما الروح فظلت كما هي روحاً حاقدة تقتل الآخرين بمنتهى القسوة تحت شعارات ومبادىء القومية والوطنية والمجال الحيوي والدفاع عن الوطن وإيجاد المستعمرات والفاشية والنازية والشيوعية والدفاع عن العالم الحر وما إلى ذلك.

أما المعنى الاصطلاحي الاختصاصي الضيق للحروب الصليبية فيقصد به تلك الحروب التي شنتها أوربا ضد الإسلام بخاصة في بلاد الشام والأناضول ومصر وتونس لاستئصال شأفة الإسلام والمسلمين، والقضاء عليهم، واسترجاع البيت المقدس وقبر السيد المسيح، وذلك خلال الفترة بين عامي ١٠٩٦ و ١٢٩١م.

وقد أتت هذه التسمية من صليب صغير أحمر مصنوع من القماش كان يلصق على كتف الفارس المزمع السفر إلى بلاد الإسلام للحرب. ولقد كانت الكنيسة الكاثوليكية تتقد حقداً على الإسلام والمسلمين وبغضاً له ولهم، وكانت آنذاك في دور من أدوار قوتها ونهضتها، فقررت أن تحقق حلمها الذهبي بالقضاء على الإسلام في عقر داره. هذا مع العلم أن جهود أوربا وبيزنطة للقضاء على الإسلام سابقة على الحروب الصليبية. فقد بدأت أوربا كلها تغذي الاسبان وتمدهم بالمساعدات ليتمكنوا من القضاء على الإسلام في شبه الجزيرة الإيبرية. وكانت بيزنطة في حالة حرب متواصلة ضد المسلمين منذ عهود حروب التحرير الأولى التي حدثت زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، والتي أدت إلى تحرير بلاد الشام ومصر وشمالي افريقيا من الاحتلال البيزنطي. ولقد حدث بعد عهد الأمويين وأوائل العباسيين أن ضعفت البلاد الإسلامية. وتقسمت إلى عدد كبير من الدويلات المتفرقة، فاستغلت بيزنطة هذه الفرصة، وشنت هجوماً عنيفاً على البلاد الإسلامية استمر فترة تزيد على القرنين، واسترجعت عدداً من مراكز الحدود في شمالي العراق وبلاد الشام. وكذلك لما ضعف المسلمون في الأندلس وانقسمت بلادهم إلى دويلات كثيرة تعرف باسم دول الطوائف، استغلت الكنيسة هذه الفرصة، وشنت حرباً مقدسة ضد الإسلام كدين وضد المسلمين في الأندلس، واستطاعت أن تحقق كثيراً من المكاسب. ولكن حدث في تلك الآونة حدثان لم يكونا في حسبان الكنيسة، وكانا السبب في قلب خططها رأساً عل عقب. فقد حدث ان نبعت في شمالي إفريقيا دولة المرابطين القوية تحت زعامة يوسف بن تاشفين، واستنجد مسلمو الأندلس بهذه الدولة وزعيمها، فأنجدهم وأبحر بقواته إلى الأندلس، وهناك اصطدم مع الاسبانيين بقيادة ملكهم الفونسو السادس في معركة الزلاقة الشهيرة سنة ١٠٨٦م، فكسرهم شر كسرة وأوقف زحفهم في الأندلس ولو إلى حين. وأما الحدث الثاني، فقد تم بشكل هجرة قبائل بدوية تركية مقاتلة، هاجرت من موطنها الأصلي في

تركستان واتجهت غرباً إلى العالم الإسلامي، وهناك اعتنقت هذه القبائل الإسلام وأصبحت من أشد المتحمسين لهذا الدين، ونفذت إلى العالم الإسلامي واستلمت الزعامة في بغداد، تحت ظل الخلافة العباسية، في القرن الحادي عشر الميلادي، وأصبح زعيمها طغرل بك حاكماً وسلطاناً في بغداد، يدعى له على المنابر إلى جانب الخليفة العباسي، وكان ذلك سنة ٤٤٧ هـ، وتبع ذلك تدفق الجيوش السلجوقية على بلاد الشام ومصر، وبدأت زحفها وهجومها على الأناضول. وهناك اصطدمت مع الجيوش البيزنطية بمعركة منزيكيرت (ويقال لها ملاذكرد) شرقي الأناضول سنة ١٠٧١م. وكان ألب أرسلان قائد السلاجقة، ورومان ديوجين قائد البيزنطيين، وكانت نتيجة هذه المعركة نصراً مؤزراً للسلاجقة على البيزنطيين. وبهذه المعركة زال الخطر البيزنطي عن بلاد الشام وحبط مخطط الإطباق على العالم الإسلامي من الشرق والغرب. كما وأن هذه المعركة فتحت أبواب الأناضول أمام هجرة القبائل التركية، بحيث لم تمض سوى حقبة من الزمن حتى أصبح الأناضول بأغلبه تركياً.

وأمام هذه المعوقات لم يكن أمام أوربا والكنيسة الكاثوليكية إلا أن تغير خططها لتدمير الإسلام، فاتجهت الآن لتوجيه الهجوم إلى القلب بدلاً من الإطباق على الإسلام من جناحيه. ولسوء الحظ نجحت أوربا والكنيسة الكاثوليكية في مخططاتها هذه لفترة من الوقت، وذلك بسبب ضعف المسلمين، وانقسامهم على أنفسهم، بعد موت ملكشاه السلجوقي وانقسام امبراطوريته بين أولاده الثلاثة، والحروب الطاحنة الدامية التي دارت بينهم، وبسبب ضعف الدولة الفاطمية في مصر وعدائها للسلاجقة، وبسبب وجود عدد من دويلات المدن في بلاد الشام كدولة البوريين في دمشق، ودولة آل عمار في طرابلس الشام وغيرهما. كل ذلك ساعد على النصر السريع الذي حققه أوائل الصليبيين، وعلى تحقيق حلم من أعز وأغلى أحلام الكنيسة الكاثوليكية، وهو استرجاع بيت المقدس من المسلمين، وتأسيس أربع إمارات صليبية في بلاد الشام تدين بالولاء للبابوية، مما

جعل الملاحظ السطحي للأحداث يعتقد أن مشروع البابوية الكبير في القضاء على الإسلام قد أصبح قاب قوسين أو أدنى. ولكنهم كانوا واهمين، فللإسلام أصالته وقوته، وهو قوة يخشى بأسها، ويحمل في ثناياه بذور قوته واستمراره بإذن الله، ولم يكن من الممكن أن يستمر الوضع بهذا الشكل وأن يقبل المسلمون بهذا الأمر، ولذلك ظهرت ردود فعل مختلفة، وظهر أبطال عظماء حملوا راية الجهاد عالية خفاقة ضد الغزاة والمعتدين من أمثال عز الدين الزنكي، ونور الدين الشهيد، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس، وتمكنوا بعد معارك بطولية وملاحم أشبه بالأساطير من تحطيم أسطورة التفوق الصليبي، وردوا الصليبيين إلى بلادهم يجرون أذيال الخيبة والخذلان.

ولقد تعلمت أوربا درساً رهيباً من الحروب الصليبية: وهو أن لا تشن بعد الآن على الإسلام حرباً جبهية باسم الدين، وإنما عليها أن تعمد إلى وسائل أخرى، وشعارات أخرى من أجل تحقيق الغاية الرئيسية الرامية إلى القضاء على الإسلام. ولذلك نجد أن الحروب الصليبية قد استمرت موجهة من أوربا، ولا تزال، ضد الدين الإسلامي وضد العرب والمسلمين، والغاية الرئيسية إزالة الإسلام كدين وكقوة عالمية يحسب حسابها، ليسهل للقوم التحكم في هذه البقعة من العالم، واستعباد شعوبها وامتصاص خيراتها.

وإن أوربا تعلم حق العلم أن الإسلام قوة عظمى. وقد جربت الصدام المباشر فلم تحقق ما كانت تصبو إليه. وانضافت إلى الدوافع القديمة دوافع جديدة من سيطرة، واستعمار، ومجال حيوي، ومناطق نفوذ واستثمار، وإيجاد أسواق، وما شاكل ذلك. وحدث في نفس الوقت الذي ارتقت فيه أوربا أن انحط المسلمون فأتاح ذلك لأوربا فرصتها الثمينة لتحقيق أحلامها القديمة، ولم ينقض القرن التاسع عشر حتى كان القسم الأعظم من العالم الإسلامي قد سقط بين براثن الاستعمار الأوربي، وأفلح القوم في القضاء على الخلافة الإسلامية في أوائل هذا القرن، وخيل للناظر أن أوربا حققت حلمها القديم في القضاء على الإسلام.

ولكن فترة ما بين الحربين شاهدت نضالاً بطولياً خاضته الشعوب الإسلامية ضد المستعمرين، وتمكنت بعد الحرب العالمية الثانية أن تسترد شخصيتها، وأن تحقق استقلالها وتطرد المستعمرين. ولقد أحدث هذا الأمر ردة لدى أوربا التي لم تغير روحها الصليبية القديمة، ولذلك فقد غيرت أوربا بشقيها الغربي والشرقي، مخططاتها، وقررت أن تحاول القضاء على الدين الإسلامي والعقيدة الإسلامية على اعتبار أنها قوة ديناميكية خلاقة، من الداخل وبأيدي أبنائه. ولذلك بدأت المرحلة الثالثة من مراحل الحروب الصليبية، ومجالها الفكر والعقيدة والغزو الفكري والتشكيك بطريقة غير مباشرة وبأيدي فئة منتحلة للإسلام ظاهراً ولكنها انسلخت منه وبدأت تعمل على هدمه باسم التمدن والتجديد وملاءمة العصر، ذلك أن التجربة علمت أوربا عدم جدوى الهجوم المباشر، كما علمتها أن الوسائل القديمة كالتبشير وفتح المدارس لم تعد تعطي ثمارها المرجوة بعد أن تنبه القوم لخطرها، ولذلك لجأت إلى هذه الطريقة وهي تؤمل بواسطتها أن تحقق ما عجزت عنه جهود مئات السنين من الاستعمار والحروب والتبشير أن يحققها. ولكنا على ثقة أن الله تعالى الذي تكفل لهذا الدين بالبقاء والنصر، لن يتخلى عن أتباعه المخلصين، وأن النصر لهذا الدين بإذن الله، ولا سيما وأن الصيرورة الحضارية تقتضي ذلك. ذلك أن الشرق له شخصيته المميزة له، وأن العمود الفقري للشرق كله، بمعناه الواسع، هو الإسلام الذي هو صلب الشرق. ولنا في الجزائر وانتصارها على الاستعمار الفرنسي أكبر دليل على ذلك. ذلك أن الفرنسة سارت في الجزائر شوطاً بعيداً في أوائل هذا القرن حتى خيل للفرنسيين أن الجزائر أصبحت فرنسية، ولكن ذلك كان وهماً فإن تمسك الجزائر بإسلامها حفظ عليها شخصيتها المميزة لها، وحفظ لها بالتالي عروبتها، ومكنها أن تقف في وجه أقسى استعمار عرفته العصور الحديثة، وأن تنتصر عليه وقد وجه كثير من المؤرخين الغربيين إلى المسلمين بعامة، وإلى المؤرخين المسلمين بخاصة، تهمة عجزهم عن التمييز بين الحروب التي سبقت الحروب الصليبية بمعناها

الاختصاصي الاصطلاحي الضيق، وبين تلك الحملات والحروب، ذلك أنهم يطلقون على جميع من حاربهم اسم الفرنج أو الفرنجة وهذا التعميم في التسمية دليل عندهم عل قصور المؤرخ المسلم وعجزه عن استيعاب التغيرات التي حدثت وتحدث على مسرح التاريخ.

ولكن الحقيقة هي خلاف ذلك. إذ الملاحظ أن المؤرخين المسلمين كانوا منتبهين كل الانتباه إلى هذه الغزوات التي أتتهم من بلاد ما وراء البحر حسب تعبيرهم، وهم يعرفون شعوب الألمان والفرنجة والانكتار والا ِذمانيين وغيرهم، وهم يعرفون أنهم شعوب مختلفة تسكن أماكن مختلفة، ولكل عادات وتقاليد مختلفات، ولهم حكام متنوعون، ولكن يجمعهم شيء واحد هو بغضهم للإسلام وأهله. ولكن نظرة المؤرخين المسلمين أرحب وأعمق من نظرة من يتهمهم بالعجز عن إدراك السمات الكثيرة المميزة للحركة الصليبية؛ ذلك أن القوم أدركوا أن العدو واحد على مدى الأزمان والأماكن، وإن تعددت الأسماء والشعارات، كما أدركوا أن هدف هؤلاء الأعداء واحد، وهو القضاء على الإسلام. فلا يهم المؤرخ المسلم أن يعلم أن فريدريك الثاني يختلف عن ريمون دوسانجيل مثلاً، وإنما يعلم المؤرخ المسلم أن هدف فريدريك الثاني وهدف ريمون دوسانجيل واحد على الرغم من بعد الزمان والمكان. وهدف البيزنطيين الشرقيين هو نفسه هدف أوربا الكاثوليكية على الرغم من الخلاف بين الطرفين. وهكذا عالج القوم الحركة الصليبية على أنها اقتداء للعداء الذي يكنه الغرب للإسلام، وحلقة من سلسلة المحاولات التي قام بها أعداء الإسلام ولا يزالون يقومون بها لإنزاله عن مكان الصدارة وتدميره والقضاء عليه كدين وكعقيدة وكحضارة.

وهنا نحب أن ننوه أننا سنستعمل تعابير الحروب الصليبية أو الحركة الصليبية أو الصليبيين بمعناها الاختصاصي الاصطلاحي الضيق إلا إذا نبهنا على العكس.

مراحل الحروب الصليبية:

ولقد استمرت الحروب الصليبية فترة تقارب القرنين من الزمان، وتعددت ساحاتها، وتراوحت بين مد وجزر، ولذلك تقسم مراحل هذه الحروب إلى ثلاث مراحل تسهيلاً للبحث والدرس، وإن كنا لا نعتقد بجدية هذا التقسيم: فهناك دور التفوق الصليبي، وهناك دور توازن القوى، ويأتي أخيراً دور الانهيار الصليبي.

دور التفوق الصليبي:

قلنا ـ فيما سبق ـ إن معركة ملاذكرد التي وقعت في آسيا الصغرى بين السلاجقة والبيزنطيين كانت من الأسباب المباشرة في توجيه الصليبيين إلى بلاد الشام. والواقع، لقد هال حكام بيزنطة زحف السلاجقة في قلب آسيا الصغرى واستيطانهم بها، فأرسلوا يستنجدون بأوربا من أجل دفع هذا الخطر الداهم، كما تدل على ذلك رسالة الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين الأول إلى روبرت الأول أمير الأراضي الواطئة حوالي عام ١٠٨٨م. فقد رسم هذا الامبراطور في خطابه صورة قاتمة جداً للوضع في بلاده نتيجة زحف السلاجقة في آسيا الصغرى، وعدّد أسماء الأماكن التي احتلوها، وأوهم الغرب أن القسطنطينية على وشك السقوط بيدهم إن لم يبادروا لنجدتها وإنقاذها وهو يعدهم ويمنيهم المجد في السماء والذهب في الأرض.. فكنائس القسطنطينية ملأى بكنوز من الفضة والذهب والحلي والأحجار الكريمة والمنسوجات الحريرية التي تستخدم في صنع الأردية والملابس التي تكفي جميع كنائس العالم[١]...

كذلك نجد نفس الصورة في خطاب البابا أوربان الثاني الذي ألقاه في

(١) يوسف، جوزيف نسيم. العرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية الأولى. الطبعة الثانية. القاهرة. دار المعارف، ١٩٦٧م. ص ٣٠٧ ـ ٣٠٩.

كليرمونت داعياً إلى الحروب الصليبية. فهو يصف السلاجقة: إنهم شعب لعين وأبعد ما يكون عن الله تعالى، ويخلط الحقائق مع الخيال، فيذكر احتلالهم بعض أراضي الامبراطورية البيزنطية، وينسب إليهم أعمال السلب والنهب والسرقة والقتل وما ماثل ذلك. ثم يبدأ بإثارة عواطف الكبرياء لدى الفرنسيين (الفرنجة) ويذكرهم بماضيهم المجيد زمن شارلمان وغيره من الملوك. وأنهم أقوى البشر وأجدرهم وأكثرهم أهلية للانتقام من ذلك الجنس الملعون وإنقاذ قبر السيد المسيح، ويعدهم أن يرثوا خيرات بلاد الشام والأرض التي تفيض لبناً وعسلاً، ويعدهم النصر على الأعداء والدخول في ملكوت السموات[1] ولكن الطريف في هذا الخطاب هو ما أبداه البابا من أن القدس تقع في وسط العالم[2] وهو اعتقاد ظلت تعتقده الكنيسة فترة طويلة من الزمن ولا ندري من أين أتاها.

ولقد أدهش إمبراطور بيزنطة الكسيس كومنين، بكياسته وذكائه ولباقته وثرائه وحضارة بلاده أنصاف الهمج الصليبيين الذين احتكوا به أثناء اجتياز جموعهم بلاده في طريقها إلى بلاد الشام، ذلك أن هذا الامبراطور، لدوافع كثيرة، استقبل جيش الصليبيين استقبالاً عظيماً وغمرهم بالتحف والهدايا، وأطعم الفقراء منهم، وخص الرؤساء بالمزيد من بره وعطفه حتى انطلقت ألسنتهم بمدحه والتغني بكرمه كما فعل الكونت أتين في خطابه الذي أرسله إلى زوجته من المعسكر الصليبي قرب نيقية عام ١٠٩٧[3].

ولقد ساعد التشتت الإسلامي واختلاف الكلمة وتفرق الأهواء، والحروب الداخلية بين الحكام والأمراء، ومحاولة كل حاكم وأمير أن يدفع الخطر عن نفسه

---

(١) ديورانت، ول قصة الحضارة. تعريب محمد بدران. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٠ م ج ١٥، ١٥ - ١٦.

(٢) نفس المصدر.

(٣) يوسف، جوزيف نسيم. المصدر المذكور آنفاً: ٣٢٩ - ٣٣٠.

ولو على حساب جاره ـ الصليبيين أن يحتلوا الساحل السوري، أو بالأحرى القسم الأكبر منه بدءاً من أنطاكية في الشمال حتى حدود مصر، وأن يؤسسوا أربع إمارات هي مملكة القبر المقدس، وإمارة طرابلس، وإمارة أنطاكية، وإمارة الرُّها. وكانت هذه الإمارات تابعة، إقطاعياً، إلى مملكة القبر المقدس وملكها ومما مكن للصليبيين في بلاد الشام، عدا العوامل الكثيرة التي ذكرناها سابقاً، وجود عدد من الخونة كانت تساعد الصليبيين الغزاة ضد أبناء البلاد، كما فعل الزراد لما سلم أحد أبراج أنطاكية لتانكرد لقاء جعل معين [1] كما وأنهم استفادوا من الخلافات بين الحكام المحليين، فكانوا يتحالفون مع هذا ضد ذاك حتى يربحوا من الطرفين. ولقد وقفت بقية البلاد الاسلامة موقف المتفرج من هذا الهجوم المحموم، ولم يصطل بناره إلا أهل بلاد الشام ومصر. بل إن طغتكين حاكم دمشق خاف أن يثير إنجاده صور ضد الصليبيين غضب وعداء الملك الأفضل حاكم مصر الفعلي ووزير الخليفة الفاطمي، لأن البلد تابعة له، فأرسل له رسالة يعتذر ويعد بتسليمها لمن يرسله الأفضل لاستلامها [2]. كذلك نلاحظ أن الخلافة العباسية وقفت موقفاً سلبياً من هذه الحركة الهائلة، ولم يكن لها دور فعال في الصراع ضد الغزاة، ولم يتمكن ملوك السلاجقة من القيام بعمل إيجابي فعال لإنجاد الشام وأهله باستثناء بعض المحاولات البسيطة، وباستثناء عماد الدين زنكي وابنه نور الدين، اللذين نبعا أولاً في شمالي العراق، ثم وحدا شمالي العراق مع القسم الشمالي من بلاد الشام فإن بلاد الشام ومصر اعتمدت على قواها الذاتية في صد هذه الغارات الوحشية البربرية. ولقد كان للأعمال الإرهابية البربرية التي

---

(١) ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد. زبدة الحلب من تاريخ حلب. تحقيق سامي الدهان. دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٥١ - ١٤٦٨م، جـ ٢ - ١٣٤.

(٢) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة. ذيل تاريخ دمشق، تتلوه نخب من تواريخ ابن الأزرق الفارقي وسبط ابن الجوزي والحافظ الذهبي. تحقيق آمدروز. بيروت. مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨، ص ١٨٢.

قام بها الصليبيون في كل مكان حلوا فيه، أنطاكية، معرة النعمان، القدس، طرابلس. الخ أثر كبير على نفسية السكان، ولكن غلب حب الانتقام والرغبة في أخذ الثأر على الخوف واليأس. ولكن هناك حادثاً واحداً فت في عضد السكان وأصابهم باليأس، لفترة وجيزة، وهو اغتيال مودود حاكم الموصل الذي جمع جيشاً قوياً من الموصل وحضر إلى دمشق ليتوجه منها إلى قتال الصليبيين، ولكن حدث أن اغتاله باطني في جامع بني أمية يوم العيد، وأدى ذلك إلى تفرق الجيش وتبدد الآمال التي عقدها المسلمون وأهل دمشق بخاصة عليه وعلى جيشه. ونجد هذا اليأس الموقت مجسداً في رسالة يذكر ابن الأثير وغيره من المؤرخين أن ملك الفرنج في القدس أرسلها إلى طغتكين حاكم دمشق يقول له فيها لما سمع ما حدث لمودود: إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها [1]. وطبعاً هذه رسالة خيالية إذ لا يمكن أن يرسل ملك القدس مثل هذه الرسالة لأن موت مودود أنقذه وأنقذ مملكته، وكل وهن يصيب المسلمين في صالحه. ولكن هذه الرسالة تعكس الشعور العام الذي أصاب المسلمين وسكان دمشق لما رأوا أحلامهم وآمالهم تتبخر هكذا وبمنتهى السهولة.

ولقد منع تعدد الحكام في كل مكان، وحرصهم على مراكزهم، وخوفهم من الآخرين أن يزيحوهم عن أماكنهم ويحلوا محلهم، وفقدان الثقة بين الجميع، إلى جانب الأنانية المفرطة، وسوء الظن المتبادل، من أن يتحد الجميع في جبهة واحدة متماسكة تقف في وجه العدو حتى في أوقات أشد الأزمات عنفاً. فهذا حاكم دمشق أنر حاصره الفرنج في دمشق بجيش قوي جداً، وذلك إبان الحملة الصليبية الثانية، واستنجد بعدد من ملوك الإسلام ليمدوه بالعساكر. وقد حضر إلى نصرته سيف الدين بن عز الدين زنكي ملك الموصل، وطلب منه أن

---

(١) ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي. الكامل في التاريخ. القاهرة، دار الطباعة المنيرية، ١٣٥٦ هـ. جـ ١٠ - ٤٩٧.

يسلمه دمشق حتى يكون بمأمن من الغدر، وفي حال الهزيمة يجد مكاناً هو وجيشه يعتصم به: فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابي... وكانت الهزيمة علينا لا يسلم منا أحد لبعد بلادنا.. وحينئذٍ يملك الفرنج دمشق وغيرها. وإن أردت أن ألقاهم وأقاتلهم فتسلم البلد إلى من أثق به. وأنا أحلف لك، إن كانت النصرة لنا على الفرنج أني لا آخذ دمشق ولا أقيم فيها إلا بمقدار ما يرحل العدو عنها وأعود إلى بلادي (١).

ولكن أنر لم يطمئن إلى ذلك وظل على خوفه وحذره، ولذلك لجأ إلى المراوغة، واتخذ من قدوم ملك الموصل ورقة رابحة يلعب بها، وراسل الفرنج الذين قدموا من أوربا في هذه الحرب، وخوفهم من قوة ملك المشرق وهددهم بتسليم دمشق إليه إن لم يرحلوا. كذلك راسل الفرنج المقيمين في بلاد الشام وخوفهم وحذرهم ومناهم ووعدهم، وتمكن بهذا الأسلوب من شق جبهة الفرنج وإنقاذ دمشق وإبعاد الخطر الصليبي عنها، ولم يسمح لملك الموصل بدخول دمشق (٢).

ولم يكن حال الفاطميين في مصر أفضل من حال حكام بلاد الشام ـ فقد هاجم الصليبيون مصر وهددوا القاهرة نفسها، واستعان بهم الوزير الفاطمي شاور ضد أخصامه ودفع لهم الجزية. ولكن الصليبيين لم يكن يقنعهم هذا الوضع، وحاولوا احتلال مصر جملة واحدة، مما اضطر شاور والخليفة العاضد إلى الاستنجاد بنور الدين الشهيد، الذي لبى النداء وأنجد الفاطميين بجيش قوي على رأسه أسد الدين شيركوه أقوى قوّده. ولقد كان لأسد الدين مطامع واسعة أراد تحقيقها في مصر، ولم يكن شاور ممن يؤمن بمبدأ سوى مبدأ مصلحته الذاتية الأنانية، ولو تم ذلك على حساب بلاده ودينه وربه. ذلك أنه بعد أن

---

(١) ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي التاريخ الباهر في تاريخ أتابكة الموصل. ص ٨٩.

(٢) نفس المصدر.

حضر أسد الدين إلى مصر وأبعد الصليبيين عنها طلب منه شاور الرحيل عن مصر، ولكنه ماطل في ذلك، فالتجأ شاور إلى ملك القدس يستنصره ضد أسد الدين ويخوفه مغبة بقائه في مصر، مما جعل ملك القدس يتحالف مع شاور ضد أسد الدين ويحاربه حتى تمكنا من إخراجه من مصر (١).

ولقد تكرر هجوم الصليبيين على مصر، وتكرر استنجاد شاور والعاضد بنور الدين، وإرسال أسد الدين إلى مصر وإبعاد الخطر الصليبي عنها، ثم يلجأ شاور، من جديد، إلى الاستنجاد بالصليبيين أنفسهم في سبيل إبعاد أسد الدين عنها، حتى اضطر نور الدين أن يرسل أسد الدين ومعه ابن أخيه صلاح الدين بجيش قوي إلى مصر بقصد البقاء فيها، وإنقاذها نهائياً من يد الأعداء الخارجيين والحكام المحليين. وقد تم ذلك بنجاح إذ قتل شاور وألغيت الخلافة الفاطمية، وتوحدت بلاد الشام ومصر في جبهة واحدة ضد العدو المشترك.

دور توازن القوى:

لم يكن لهذا الوضع أن يبقى ويستمر في العالم الإسلامي. ذلك أن القوم شعروا بالخطر الذي يتهددهم، وظهر بعض الزعماء الأقوياء الذين أدركوا الخطر على حقيقته، وأدركوا أن العلاج الوحيد للوقوف في وجه هذا الخطر، ومن ثم القضاء عليه يكمن في الوحدة. ولذلك بدأ أول هؤلاء الزعماء عمله بأن وحد بين الموصل وحلب وتمكن أن يدق المسمار الأول في نعش الصليبيين في بلاد الشام. ذلك أن زنكي أسس سلالة حاكمة في الموصل وتلقب بلقب عماد الدين، وشنها حرباً لا هوادة فيها ضد الصليبيين، وفي نفس الوقت بدأ عملية التوحيد

---

(١) أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. تحقيق محمد حلمي محمد أحمد. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦ م جـ ١، ق ٢ ـ ٤٢١.

التي أتمها من بعده ابنه نور الدين ومن بعدهما صلاح الدين الأيوبي. ويعتبر استرجاع الرها الذي أنجزه عماد الدين بداية عصر توازن القوى بين الطرفين. ولقد حارب عماد الدين الصليبيين والروم وحلفاءهم عدداً كبيراً من المرات، وكسرهم في أكثر من معركة، وترك لابنه نور الدين أن يتم معركته المزدوجة وهي إتمام الوحدة، والقضاء على الصليبيين.

عصر نور الدين الشهيد:

يعتبر عصر نور الدين الشهيد وعهده مهماً كل الأهمية لأنه أكمل عمل والده، وتمكن أن يستخلص دمشق ويضمها إلى ملكه، كما أنه تمكن أن يلغي الخلافة الفاطمية ويضم مصر إلى ممتلكاته. وفي نفس الوقت تابع حروبه ضد الصليبيين، وصب عليهم الهزائم واسترجع منهم عدداً كبيراً من البلدان في بلاد الشام مثل حارم ومعرة النعمان في الشمال، وبانياس في الجنوب، وعلى الرغم من أن الوفاة النورية أحدثت هزة كبرى وأصابت عمليتي الوحدة والتحرير بنكسة كبيرة، إلا أن العمليتين قيض لهما من يستأنفهما بنفس الهمة والنشاط الذي أبداه نور الدين. ذلك أن صلاح الدين الذي أصبح حاكم مصر الفعلي بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه، استقل بحكم مصر لما توفي نور الدين وخلف ولداً قاصراً التف حوله عدد من الأمراء العاجزين المتحاسدين زينوا له عداء صلاح الدين وتقاعسوا في حروبهم ضد الفرنج، حتى لقد بلغ بهم الأمر أن راسلوا الفرنج الذين حاصروا حصن بانياس (في جنوبي دمشق) بعد وفاة نور الدين ولم يحاربوهم، وإنما لجأوا إلى تهديدهم بصلاح الدين وسيف الدين صاحب الموصل... ونطلب بلادكم من جهاتها كلها فلا تقومون لنا. وأنتم تعلمون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين. والآن فقد زال ذلك الخوف، وإذا طلبناه إلى بلادكم لا يمتنع[1]... ولقد كان ذلك كافياً ليجعل الصليبيين

(١) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم. مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي جـ ٢/٧.

ينسحبون عن الحصن، ولكن بعد أن حصلوا على مقدار من المال وأطلق لهم المسلمون سراح عدد من الأسرى.

ولقد أغضب هذا الاتفاق المهين صلاح الدين غضباً شديداً، وأرسل إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون رسالة يوبخه على الاتفاق السابق، كما أرسل إلى عدد من الأمراء حول الملك الصالح بن نور الدين كتباً مماثلة، ويخبر أحدهم في إحدى هذه الرسائل أنه لما سمع بحصار الفرنج للحصن سار بجيشه من مصر قاصداً نجدة الحصن، ولكنه سمع بنبأ الهدنة المؤذنة بذل الإسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى[1].. وبقية بلاد المسلمين ما دخلت في العقد ولا انتظمت في سلك هذا القصد، والعدو لها واحد.. فرأينا أن سيرنا إلى حضرة الأمير شمس الدين أبي الحسن علي وإخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك، وأنه ربما عجز عن الاستدراك، وأن العدو طالب لا يغفل، وجاد لا ينكل، وليث لا يضيع الفرصة، مجد لا يميل إلى الرخصة[2].

عصر صلاح الدين الأيوبي:

ورث صلاح الدين تركة مثقلة، ولكنه تمكن بعد حروب طاحنة ومعارك رهيبة وجهود مضنية أن يعيد توحيد مملكة نور الدين تحت قيادته، كما تمكن أن يحقق أحلام المسلمين باسترجاع بيت المقدس وأن يقف بصلابة في وجه أشرس هجمة قامت بها أوربا ضد البلاد الإسلامية حتى ذلك الوقت، وحطم جيوش أوروبا وكبرياء ملوكها، وخصوصاً ريتشارد قلب الأسد ملك انكلترة كما سيورد تفصيلاً.

ولقد لاقى صلاح الدين صعاباً جمة أثناء عملية التوحيد هذه، وتحالف خصومه المسلمون مع الصليبيين ليمنعوه من تحقيق ذلك، ولكن ذلك كله كان

(١) أبو شامة، المصدر المذكور آنفاً جـ ١، ق ٢ ـ ٥٨٩.

(٢) نفس المصدر، جـ ١، ق ٢ ٥٩٤ ـ ٥٩٥.

عبثاً. فقد تحالف الحلبيون مع قومص طرابلس ضد عساكر السلطان سنة ٥٧٠ هـ، ولكنهم ما إن علموا بقدومه حتى تفرقوا وهرب الفرنج ملتجئين إلى حصن الأكراد وانفرط عقد هذا التحالف الغريب (١).

ولقد حدث أن توفي ملك بيت المقدس الصليبي سنة ٥٦٩ هـ وحلّ محله في الملك ملك جديد اسمه بردويل، وكان ذلك عند بداية استقلال صلاح الدين بالأمور بعيد وفاة نور الدين. ويزعم القلقشندي أن صلاح الدين أرسل رسالة إلى الملك الجديد يهنئه فيها بالملك، ويعزيه بوفاة والده الملك السابق.

وقد حوى الخطاب من عبارات التهنئة والتعزية والمدح ما لا يمكن أن يصدر عن أي ملك من ملوك الإسلام، إلى ملك صليبي مغتصب سيفه يجري من دماء المسلمين، بله صلاح الدين. وصلاح الدين الذي غضب وهاجم أنصار الملك الصالح لمجرد عقدهم هدنة بسيطة مع ملك القدس، لا يعقل أن يكيل المدح كيلاً لهذا الملك الذي يعتبره قاتلاً سفاكاً مغتصباً دمه حلال:... خص الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالجد الصاعد والسعد الساعد والحظ الزائد والتوفيق الوارد... فإن كتابنا صادر إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصادق، والنعي الذي وددنا أن قائله غير صادق، بالملك الأعز الذي لقاه الله خير ما لقّى مثله.. وسقياً لقبر والده الذي حق له الفدا لو جاز...(٢) كما أن صلاح الدين يصف ملك القدس المتوفى بالصديق في نفس الرسالة. ولو أنه فعل ذلك لزود خصومه، وما أكثرهم، بسلاح ماضٍ لمهاجمته أشد هجوم وأقساه. وكيف يعزي بملك القدس وهو الذي أرسل إلى بعض أنصاره لما بلغه وفاة ملك القدس السابق نفسه رسالة يذكر ذلك ويقول: ورد كتاب من الدارم يذكر أنه لما كان عشية

---

(١) نفس المصدر ج ١، ق ٢ - ٦١٤.

(٢) القلقشندي، أبو العباس احمد. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩١٤ - ١٩١٩م ١٤ جـ، جـ ٧ - ١١٥ - ١١٦.

الخميس تاسع ذي الحجة هلك مرى ملك الفرنجة لعنه الله ونقله إلى عذاب كاسمه مشتقاً، وأقدمه على نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى(١).

ولم تكن معارك صلاح الدين، في مرحلته الأولى، كلها مظفرة ضد الفرنج، فقد تخللها نكسات كبيرة وهذا شيء طبيعي ومتوقع في ذلك الطور. والقائد العظيم الشجاع هو الذي لا يترك المصائب تؤثر فيه أو تفل عزمه، فقد هزم قبله نور الدين الشهيد رحمه الله، ولكنه نهض من كبوته بسرعة أذهلت أنصاره قبل أعدائه. وصلاح الدين، الذي صب الهزائم على رؤوس الصليبيين فرادى ومجتمعين، لم يشذ عن هذه القاعدة. فقد فاجأ جيش صليبي ضخم صلاح الدين في نفر من أصحابه قرب الرملة من أرض فلسطين سنة ٥٩٣ هـ، ودارت بين الطرفين معركة رهيبة أبلى فيها صلاح الدين وجيشه بلاءاً عظيماً، ثم اضطر صلاح الدين إلى الانسحاب والذهاب إلى مصر، ولقي في الطريق مشقة كبرى حتى سلمه الله تعالى. ونجد ذلك واضحاً في رسالته التي وجهها إلى أخيه تورانشاه في دمشق في نفس السنة عن تلك المعركة:... ولقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما نجانا الله سبحانه إلا لأمر يريده، وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر(٢)... ولكن صلاح الدين لم يسمح لهذه المعركة أن تفت في عضده، لذلك نجده يتابع استعداداته الفورية للحرب ضد العدو، ولم يمض على تلك الحادثة شهران حتى هاجم بنفسه معاقل الصليبيين في الشام وانتسفها نسفاً:... وأما نوبة العدو في الرملة فقد كانت عثرة علينا ظاهرها، وعلى العدو باطنها، ولزمنا ما نسي من اسمها، ولزمهم ما بقي من غرمها. لا دليل أدل على القوة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها إلى الشام نخوض بلاد الفرنج بالقوافل الثقيلة والحشود

---

(١) أبو شامة. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١، ق ٢ - ٥٦٦.

(٢) ابن خلدون، عبدالرحمن. كتاب العبر. بيروت، مؤسسة الأعظمي للمطبوعات ١٩٧١ م. جـ ٥ - ٦٤١.

الكثيرة والحريم المستور والمال العظيم الموفور[1]. كما ورد في رسالة أرسلها السلطان من مصر إلى القاضي الفاضل.

ولقد اعتاد صلاح الدين أن يرسل للآخرين، ولا سيما للخليفة العباسي، رسائل يصف فيها غاراته ومعاركه وما حققه من نجاح، وما سقط بيده من حصون، وما حصل معه من نكسات. ورسائله هذه قطع أدبية فنية. ذلك أن عصر صلاح الدين امتاز بوجود كاتبين من ألمع كتاب النثر العربي في عصور الدول المتتابعة وهما القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني الكاتب، وكل منهما صاحب مدرسة خاصة به في النثر والكتابة الديوانية. وقد امتازت رسائل القاضي الفاضل بالأصالة والمتانة والجودة والفحولة، والجمل الطويلة والنفس الطويل والاستطراد، وإيراد المترادفات لنفس المعنى، والسجع الذي يبدو لدى القاضي الفاضل مقبولاً إلى حد كبير، بل مستساغاً لطيفاً. هذا وإن أهمية القاضي الفاضل تبرز كل البروز أثناء حكم صلاح الدين حتى أن دوره تجاوز كل التجاوز دور الكاتب ليصبح دور الوزير والمشير ونائب السلطان في حكم قطر من الأقطار، إذا غاب السلطان في إحدى حروبه - وما أكثرها - حتى لقد قيل بحق: إن دور قلم القاضي الفاضل لا يقل عن دور سيف صلاح الدين نفسه في إحراز الانتصارات التي حققها المسلمون زمن صلاح الدين. وقد أثبتت الأيام والوقائع صحة أحكامه ونضوج آرائه وامتيازها على آراء غيره من حملة السيوف حتى كان صلاح الدين يأخذ بآرائه ويهمل آراءهم.

أما عماد الدين الأصفهاني فقد كان أقل أهمية من القاضي الفاضل، وشهرته ككاتب ديواني أقل من شهرة القاضي الفاضل، وإن يكن العماد برز كمؤلف لعدد من الكتب الهامة. وهو إمام مدرسة في السجع تختلف، إلى حد ما، عن مدرسة القاضي الفاضل، وهو يبدو أكثر تكلفاً للسجع من القاضي الفاضل كما

---

(١) ابن واصل. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٢ - ٦٥.

يبدو أسلوبه ثقيلاً مملاً إلى حد كبير، لأنه يتكلف ما لا يطيق وما لا تطيقه اللغة والأسلوب نفسه بكثرة السجع والترصيع والمحسنات البديعية واللفظية. ولقد كان القدماء يعجبون به كل الإعجاب ويقلدون أسلوبه ويعتبرونه مثلاً يحتذى في الكتابة النثرية. ولكن نظرة المحدثين إليه تختلف كل الاختلاف عن نظرة القدامى، ونزل العماد عن عرشه إلى مكان متواضع الآن.

ولقد تتلمذ على يد صلاح الدين عدد من أبطال الحرب والسياسة تعلموا على يديه وتخرجوا في مدرسته، وفي نفس الوقت ساعدوه مساعدات جلى وكانوا له أجل الأعوان، ونخص بالذكر من هؤلاء أخاه الملك العادل وابن أخيه الملك المظفر اللذين لعبا دوراً ممتازاً في حروب صلاح الدين وسياساته وتخرجا في مدرسته وساهما في تحقيق الانتصارات العظيمة التي أحرزها على الصليبيين.

معركة حطين وما سبقها وما تبعها:

ولقد تمكن صلاح الدين، بعد أن أعاد توحيد بلاد الشام ومصر تحت حكمه، وبعد أن قضى على الأعداء الداخليين والمنافسين المناوئين، وبعد أن حشد القوى الإسلامية لمواجهة الصليبيين، أن ينزل بالفرنجة ضربات قاصمات كان مفتتحها معركة حطين التاريخية، التي أعادت للمسلمين كرامتهم وأحيت فيهم الآمال، وأعادتَ للإسلام نضارته ووجهه الأبيض المشرق، وأدت إلى تحرير القدس واسترجاع قسم كبير من الأراضي المحتلة، ونحن العرب الأحياء في هذه الأيام، نستطيع أن نتخيل وقع أنباء معركة حطين على نفوس أسلافنا الذين ذاقوا مرارة الهزيمة قبلها، وما أثارت فيهم من كرامة وما أحيت من آمال وما ألهبت فيهم من عزائم.

ولقد أعد صلاح الدين نفسه وجيشه أفضل إعداد للحرب ضد العدو. والملاحظ أن الصليبيين، خلال إقامتهم المديدة في ربوع بلادنا، لم تهدأ الحرب بينهم وبين المسلمين مطلقاً، منذ وطئت أقدامهم هذه الأرض حتى ارتحالهم عنها،

إلا في فترات قليلة جداً وفي أواخر أيامهم. صحيح أنهم كانوا يجدون حلفاء من المسلمين، ولكن ذلك كان استثناءً، وإذا تحالفوا أو عقدوا هدنة مع هذا الحاكم، فإنهم يظلون بحالة حرب مستمرة مع بقية الحكام. وقد سبقت معركة حطين عدة معارك أبدى فيها صلاح الدين تفوقه واقتلع عدداً من المعاقل من العدو وأرسل الرسائل إلى هنا وهناك يحشد الجنود ويستدعي القواد ليخوض مع العدو معركة فاصلة. وقد أدرك أنصار صلاح الدين أن تحركه بجيشه هذا عشية معركة حطين لم يكن لأمر اعتيادي، وأن هناك آمالاً جسيمة معقودة على هذا الجيش، كما يظهر ذلك من رسالة أرسلها أحد أفراد حاشيته إلى صديق يخبره بذلك: قد نهضتْ (بالسلطان) به همة لا يُرجى غير الله لإنهاضها، وحجبتْ به عزمة، الله المسؤول في حسم عوارض اعتراضها.. وأرجو أن تتمخض عن زبدة وتستريح الأيدي من المخض(١)...

ولقد أثارت أحداث معركة حطين وما تلاها أدباً كثيراً غزيراً عبر فيها القوم عن عواطفهم تجاه هذا الحدث الذي أعاد شباب الأمة غضاً وأشعرهم بالكرامة تسري في عروقهم. وتلاحقت الرسائل من هنا وهنا تقص هذا الحدث الهام وتتبارى في وصفه والإطناب في وقعه. ولعل أبرز نتائج معركة حطين هو تحرير القدس والقسم الأكبر من الساحل السوري. وقد سقط ملك القدس وكبار قواد الصليبيين أسرى بيد صلاح الدين فأكرمهم، ولكنه استثنى من هذه القاعدة أرناط (آرنولد) حاكم حصن الكرك، وهو الذي يرد اسمه في إحدى الرسائل بالابرنس: وقتل صلاح الدين الأبرنس بيده لأنه كان قد غدر وأخذ قافلة من طريق مصر(٢)...

وإذا كان نصر حطين قد حطم طواغيت الفرنج، فإن أعظم ثمرة لذلك هو

---

(١) أبو شامة. المصدر المذكور آنفاً جـ ٢ ص ٧٥.

(٢) نفس المصدر جـ ٢ ص ٨١ ـ ٨٢.

تحرير بيـت المقدس واسترجاع المقدسات التي بذلت الدماء رخيصة من أجلها وفي سبيل تحريرها. ونستطيع أن ندرك شعور القوم آنذاك عند عودة القدس إلى أحضانهم، نحن الذين رأينا بأم أعيننا ذهاب القدس إلى العدو، وما رافق ذلك من مآسٍ ومساع لاستردادها. لقد ملأ هذا الحادث القوم فخاراً وسروراً، واعتقدوا أن يد الله معهم تؤيدهم وتشد من أزرهم. ونجد فيضاً من الوثائق (رسائل وخطب) تصف هذا الحادث العظيم الذي هز البلاد الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها، وذهبت الرسائل إلى بغداد ومصر واليمن وغيرها تصف تحرير البيت الأسير وقد وجد كل من القاضي والعماد الكاتب مادة دسمة جداً يظهران عبقريتهما وأدبهما في تحرير الرسائل التي تصف ما حدث، وأطلقا لقلميهما العنان وأتيا بفنون من الآداب والبلاغة والبيان والسجع حتى لم يتركا مزيداً لمستزيد. ولا شك أن الخطبة الأولى التي ألقيت في المسجد الأقصى بعد تحريره قطعة أدبية بلاغية بيانية بديعة تذكر فضل الله العظيم وكرمه العميم أن جعل تحرير القدس يتم على يد صلاح الدين، مع ذكر فضائل بيت المقدس وما ورد فيه من آثار وبيـان أهميتـه عنـد المسلمين، ثم عـرج الخطيـب بعـد ذلـك إلى التحريض: تحريض المسلمين على متابعة الجهاد حتى تتطهر جميع البقاع الإسلامية من الرجس الفرنجي وإبعاد احتلالهم البغيض عن هذه البلاد التي هي مهبط الأنبياء ومجمع الأولياء [1]. وقد زاد الخطيب في الدعاء لصلاح الدين لقباً جديداً يستحقه بكل جدارة وهو لقب مطهر البيت المقدس. فمتى ندعو نحن لأحد زعمائنا وندعوه محرر بيت المقدس؟!

(١) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨م جـ ٢ ص ٣٦٥ - ٣٧١.

الحرب الصيليبية الثالثة:

ولكن هناك نتيجة ثانية ظهرت بعد انقضاء فترة على معركة حطين وتحرير القدس وما تلى ذلك من معارك وتحرير أراض، وأعني بذلك ما عرف باسم الحرب الصليبية الثالثة. وهذا، بالحقيقة، ردة فعل أوربا ضد الإسلام والمسلمين لما وصلتها من أنباء تحطم أحلامها وتبخر آمالها في القضاء على الإسلام وأهله. ذلك أن الكنيسة التي حرضت على الحروب الصليبية وتبنتها ودعت لها وكانت الروح المحرك لها، جن جنونها وثار ثائرها، وأصيب رجالها بالهيستيريا نتيجة لحروب صلاح الدين وانتصاراته وتحرير بيت المقدس. ولذلك انطلقت الصيحات عالية في أوربا مجدداً تطالب بالقضاء على صلاح الدين واسترجاع بيت المقدس وتحطيم المشركين الوثنيين الكفرة. ولقد لبى ملوك أوربا هذا النداء وعلى رأسهم ريشارد ملك انكلترة، وفريدريك بربروس ملك ألمانيا وفيليب أوغست ملك فرنسة، إلى جانب عدد كبير من الأمراء والدوقات والكونتات والبارونات، وتقاطروا زرافات ووحداناً، براً وبحراً، إلى بلاد الشام تحدوهم رغبة واحدة، على الرغم من الخلافات المميتة بينهم، هذه الرغبة هي القضاء على الإسلام والمسلمين واسترجاع البيت المقدس. كما لبى النداء جمهور عظيم جداً من طغام الناس ورَعاعها في أوربا. واختلفت الدوافع الدينية مع الدوافع الدنيوية في جعل القوم يستميتون في محاولتهم القضاء على الإسلام واستعمار أراضيه .وإبادة أهله. ولقد توقع صلاح الدين مثل ردة الفعل هذه، ولكن قواه المحدودة، بالمقايسة مع قوى أوربا، لم تمكنه من الاستعداد لصدهم ومنعهم عن الوصول إلى البلاد الإسلامية. كما وأنه كان على علم بمجريات الأمور وأن ملك الألمان سلك طريق البر عن طريق القسطنطينية بجيش لجب قاصداً البلاد الإسلامية. ولما لم يكن يملك إمكانات عسكرية أو اقتصادية تمكنه من صد هذه الغزوة، لذلك لجأ إلى خليفة بغداد، الذي يدين له بالولاء، يخبره بما حدث ويطلب منه المدد: قد وصل الخبر بالداهية الدهياء، والغمة الغماء، والنكبة

النكباء، والشدة الدهماء والليلة الليلاء، وهي أن ملك الألمان، ومعه ملوك الفرنجة وحشودها وقوامصها وكنودها... وصل جاراً على السماء ذيول قتامه، مجرياً في الأرض سيول لهامه[1]... وبعد أن يطنب في وصفه ووصف جيشه يذكر أن سلاجقة الروم متعاطفون مع صلاح الدين ضد هذا الخطر الماحق. ولكن بعد فترة انقطعت الأخبار ليعلم صلاح الدين أن القوم صانعوا ملك الألمان وتركوه يعبر بلادهم ويصل إلى بلاد الشام، ثم يقول: وقد تعين الجهاد على كل مسلم... والاهتمام بدفعه من أفرض المهام وأهم الفروض. والخادم منفرد في حمل عبء هذا الفادح الباهظ بالنهوض، وهو واثق بأن بركات الدار العزيزة تدركه ولا تتركه[2]...

والواقع، لقد أثار ملك الألمان بسلوكه المتغطرس وسلوك جيشه الأشبه بالعصابات، عداء جميع من مر في أراضيهم. فقد أرسل ملك الروم وامبراطورها رسالة إلى صلاح الدين، يخبره بخبر ملك الألمان وكيف أنه اجتاز بلاده بالعنف، وكيف آذى فلاحي بلاده، وكيف أن الحرب دارت بين الطرفين، وكيف أن الجيش الألماني تأذى وتعب أكثر مما آذوا فلاحي بلادي، وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرحل والرجال، ومات منهم كثير وقتلوا وتلفوا... وقد ضعفوا بحيث أنهم لا يصلون إلى بلادك، وإن وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كثيرة، لا يقدرون ينفعون جنسهم ولا يضرون نسبتك[3].

كذلك أرسل ملك الأرمن صاحب قلعة الروم على أطراف الفرات كاغيكوس، رسالة إلى صلاح الدين يخبره خبر ملك الألمان وكيف أنه اجتاز

(١) العماد الأصفهاني، محمد بن محمد. الفتح القسي في الفتح القدسي. تحقيق محمد محمود صبيح. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر ص ٣٩٧ - ٣٩٨.

(٢) نفس المصدر

(٣) ابن شداد، بهاء الدين. كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. تحقيق جمال الدين الشيال. القاهرة ١٣٢ - ١٣٣.

الأناضول، وكيف اضطر ملك الألمان امبراطور بيزنطة على مصانعته، وكيف حاربه سلاجقة الروم، ولكنهم هزموا أمامه واضطرهم لمساعدته. ثم يقص عليه نبأ غرق ملك الألمان في مياه نهر من أنهار آسيا الصغرى [1] ويهول في عدد جيشه والأجناس التي يضمها، ولكنه يذكر في رسالة تالية ضعفهم وعجزهم. والطريف في الأمر هو أنهم حرموا على أنفسهم الملاذ حزناً على بيت المقدس: وقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة، وحرموا ما حل ولم يلبسوا إلا الحديد... وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب في حال عظيم [2].

ولكن الله تعالى أراح صلاح الدين من الألمان وملكهم فقد تفرق القوم أيدي سبأ بعد موت ملكهم وضعفوا وتخطفوا، ولم يتمكنوا أن يجدوا لهم ملجأ في كل من أنطاكية وطرابلس إلا بشق النفس.

والواقع كان رد فعل أوربا على ذهاب القدس عنيفاً كل العنف، عارماً. فقد تعاقد القوم على أن يجعلوها وقعة الانفصال مع الإسلام، وبذلت الكنيسة أقصى جهودها المادية والمعنوية، واستجاب القوم ـ ملوكاً وحكاماً وأفراداً ـ لنداء البابوية، وانثالوا انثيالاً على البلاد الإسلامية، وبدأوا هجوماً كاسحاً يسندهم تفوق عددي رهيب، وإمداد بحري متصل، تحمله من أوربا بشكل مستمر أساطيل دول المدن الإيطالية، وخاصة البندقية وجنوى وبيزا. ولم يكن لدى صلاح الدبن سوى قواه الذاتية، وهي لا توازن بقوى الصليبيين، ولا سيما وأنهم سادة البحر، والبحر يمدهم بسيل لا ينقطع من المال والعتاد والرجال. والشيء المؤلم في الموضوع، أن خليفة بغداد الناصر لدين الله، الذي أرسل له صلاح الدين الرسائل تلو الرسائل بشرح الوضع ويستنجد ويستغيث، لم يمدده إلا ببركاته المعنوية ودعواته الروحية، وهي، في المجال العسكري، لا تفيد إلا

(١) نفس المصدر ص ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) نفس المصدر ص ١٢٧.

قليلاً جداً. ولم يتقدم أحد، إلا بعض الأمراء المحليين مثل ملك الموصل، لمساعدته، في هذا الموقف البالغ الحراج الذي استمر أكثر من أربع سنوات حول عكا. قد يعترض البعض ان خليفة بغداد كان آنذاك ضعيف الحيلة ليس له سلطان على أحد. وعلى الرغم من ضعف وسائل الخليفة إلا أنه كان بإمكانه، أن يساعد بالمال والعتاد والذخيرة والمواد الغذائية، إن لم يستطع أن يساعد بالرجال. كما كان بإمكانه أن يوجه نداء إلى ملوك المسلمين يدعوهم إلى مد يد العون إلى صلاح الدين، بل كان بإمكانه أن يجند القادرين على حمل السلاح في العراق الخاضع لسلطته ليساعد صلاح الدين في معاركه، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك واكتفى بالبركات الصالحات. ورسائل صلاح الدين له تفيض بالشكوى المرة والتحذير من خطورة الوضع والاستنجاد وطلب المدد ولكن دون جدوى.

والذي يطلع على رسائل صلاح الدين ورسائل أنصاره عن وضع المسلمين في تلك الفترة الحرجة يحصل على انطباع رهيب عن الوضع المتأزم الذي وُجد فيه المسلمون. فقد تتابعت إمدادات أوربا وتدفقت على بلاد الشام بشكل ليس له مثيل. وكان القوم يضطرمون بغضاً للإسلام وحماساً. وقد بدأوا أعمالهم بحصار عكا ورد صلاح الدين على ذلك بأن حاصر المحاصرين لعكا بنفسه وجيشه. وظل هذا الوضع غير الطبيعي فترة دامت أكثر من أربع سنوات، وعندنا عن تلك الفترة وثائق غاية في الأهمية تشرح الوضع شرحاً كافياً.

فقد فاضت إحدى رسائله الى الخليفة بشكواه من تحمله ثقال الحرب، ووطأتها وحده لا مساعد له ولا معين إلا الله، ويصف ما يعانيه: ومن خبر الكفار أنهم الى الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه، ويخرج للمسلمين منهم أمرّ من أجاجه... فإذا قتل المسلمون واحداً في البر بعث البحر عوضه ألفاً... فالزرع أكثر من الجداد... وهذا العدو المقاتل ـ قاتله الله ـ قد زر عليه من الخنادق أدراعاً متينة، واستجن من الجنوبات بحصون حصينة... وكم من ساعة فضوا فيها أقفال الخنادق فأفضى بهم البلاء عند فض

أقفالها. إلا أن عددهم الجم قد كاثر القتلى، ورقابهم الغلب قد قطعت النصل لشدة ما قطعها النصل، مَنْ قِبَل الخادم من الأولياء قد أثرت المدة الطويلة والكلف الثقيلة في استطاعتهم لإطاعتهم، وفي أحوالهم لا شجاعتهم... يناشد الله المناشدة النبوية في الصيحة البدرية في: اللهم إن تهلك هذه العصابة. ويخلص في الدعاء ويرجو على يد أمير المؤمنين الإجابة... ولولا أن في التصريح ما يعود على عدالته (الضمير هنا عائد إلى الخليفة) بالتجريح لقال (أي صلاح الدين) ما يبكي العين، وينكي القلوب، وتنشق له المرائر وتشق الجيوب، ولكنه صابر محتسب منتظر لنصر الله مرتقب... رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي... وولدي، ولقد أبرزت لعدوهم صفحات وجوههم، وهان عليَّ محبوبك بمكروهي فيهم ومكروههم. ونقف عند هذا الحد، ولله الأمر من قبل ومن بعد. وإن لم يشتك الدين إلى «ناصره» والحق إلى من قام بأوله... فإلى من يشتكي البث[1]!!.

ولكن هذه النفثة المصدورة ذهبت أدراج الرياح كما ذهبت صرخات قبلها وبعدها.

كذلك حاول صلاح الدين الاستنجاد بأخيه سيف الإسلام ملك اليمن وشرح له الوضع الخطير حول عكا وما يعانيه من قلة العدد والعُدد وتفوق الصليبيين العددي، ولكن دون طائل[2].

ولقد حاول الصليبيون، في تلك الأثناء، غزو الحجاز والوصول إلى المدينة المنورة، فجهزوا أسطولاً في البحر الأحمر نزل في سواحل الحجاز، وتقدم الجيش الذي حمله الأسطول حتى وصل رابغ، ولكن وصل الخبر إلى الملك العادل نائب صلاح الدين في مصر فأرسل رجاله وأسطوله وتمكن من تدمير الأسطول

(١) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً جـ ٧ ص ١٢٧ - ١٣٠.
(٢) نفس المصدر جـ ٧ ص ٢٣ - ٢٧.

الصليبي والقضاء على الجيش الصليبي، نجد ذلك واضحاً في عدد من الرسائل وجهها صلاح الدين إلى العادل يهدي سروره بما تم. كما وأرسل عدداً من الرسائل إلى الخليفة حول نفس الموضوع.

ولقد أدى تدفق المدد على الصليبيين حول عكا وإمكانات صلاح الدين المحدودة إلى ضيق الخناق على المسلمين المحصورين في عكا، ولكن لم تهن عزائمهم وأرسلوا إلى السلطان يقولون: إنا قد تبايعنا على الموت ونحن لا نزال نقاتل حتى نقتل، ولا نسلم هذا البلد ونحن أحياء، فأبصروا كيف تصنعون في شغل العدو عنا ودفعه عن قتالنا، فهذه عزائمنا، وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو أو تلينوا له، فإنما نحن قد فات أمرنا [1].

ولقد بذل المسلمون حول عكا فوق طاقتهم في سبيل إنقاذ البلد من الوقوع بيد الصليبيين، وظهر أبطال مجهولون قاموا بخوارق الأعمال في هذا المجال، كالفتى الدمشقي الذي اخترع محلولاً كيماوياً كان السبب في تدمير الأبراج الثلاثة التي أقامها الصليبيون لإحكام الحصار حول عكا، ورفض أن يتقاضى أية مكافأة على ذلك، قائلاً: إنه فعل هذا في سبيل الله. وكعيسى العوام الذي كان يتقن العوم والغوص وكان رسول صلاح الدين إلى أهل عكا يحمل لهم الرسائل والنقود، حتى غرق وهو يحمل الذهب الوفير إلى أهل عكا واكتشفت جثته بعد ذلك ومعها النقود.

وأخيراً، وبعد ملاحم بطولية استمرت أكثر من أربع سنوات، وبعد أن دفعت أوربا إلى عكا أفلاذ أكبادها، وبعد أن ضحت بأكثر من خمسين ألف قتيل سقطت عكا، لا كما يسقط الجبان، بل كما يسقط الشجاع الشهيد الذي أبلى في الحرب أعظم البلاء، ولكن الكثرة، كثرة العدد هي التي أردته. وكالعادة أظهر الصليبيون إنسانيتهم وشجاعتهم بالسكان العزل، ورافق احتلالهم القتل

---

(١) ابن شداد. المصدر المذكور آنفاً ص ١٦٩ - ١٧٠.

والذبح والنهب والسلب. ولكن لم يسمح صلاح الدين لهذا الحادث أن يفت في عضده، أو ينال من إيمانه وإيمان أتباعه وشجاعته، بل نراه يزداد تصميماً على التصدي للغزاة المعتدين، ويزداد إيماناً بالله تعالى وبنصره وبقدرة المسلمين على التغلب على هؤلاء الأعداء.

يدل على ذلك رسائله التي وجهها إلى عدد من الملوك يخبرهم بسقوط عكا... وأخذوا البلد على سلم كالحرب، ودخله العدو، ولو لم يدخله من الباب دخله من الثقب: وما وهنا لما أصابنا في سبيل الله وما ضعفنا وما رجعنا وراءنا ولا انصرفنا، بل نحن مكاننا ننتظر أن يبرزوا فنبارزهم أو يخرجوا فنناجزهم[1]... لقد تجاوزت عدة من قتل عن عكا - يعني من الفرنج - الخمسين ألفاً، قولاً لا يطلقه التسمح، بل يجوزه التصفح[2]. كما يقول في رسالة ثانية بعد أن وصف سقوط عكا المفجع:... وقد عزمنا على المصاف، رصد صدمة الكافر بالجد الكافي الكاف. والله كافل دينه بالنصر، والمردي بكفره أهل المكر، وما هذا أوان الونى. بل هو زمان استنجاح المنى، فإن العدو الخادر قد آن أوان أن يصحر، وليل الهدى قد قرب أن يسفر[3].

ولقد طمع الفرنج، بعد سقوط عكا، باسترجاع القدس، وأسرع صلاح الدين إليها يريد حمايتها وتحصينها، وهناك عقد مؤتمراً من قواده ومستشاريه وعرض عليهم الوضع الصعب وقال: اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم في ذممكم معلقة، والله عز وجل سائلكم يوم القيامة عنهم. وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه عن العباد والبلاد غيركم. فإن وليتم - والعياذ بالله - طوى البلاد وأهلك العباد

---

(١) ابن الفرات، ناصر الدين محمد. تاريخ ابن الفرات. شقيق الشماع. البصرة. جـ ٤، ق ٢ ص ٢٤ - ٢٥.

(٢) نفس المصدر.

(٣) العماد الأصفهاني. المصدر المذكور آنفاً ص ٥٢٠.

وأخذ الأموال والأطفال والنساء... وكان ذلك كله في ذممكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله وأكلتم بيت مال المسلمين لتدفعوا عنهم عدوهم وتنصروا ضعيفهم، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم، والسلام. ولقد كان جواب هؤلاء القواد الذي ورد على لسان كبيرهم ابن المشطوب أجل جواب وأجله ويفصح عن الحب العظيم والولاء الكبير والثقة المطلقة والطاعة العمياء التي يكنها أفراد الجيش لقائدهم العظيم: يا مولانا: نحن عبيدك وأنت الذي أعطيتنا وكبرتنا وعظمتنا، وليس لنا إلا رقابنا، ونحن بين يديك، والله ما يرجع أحد منا عن نصرك حتى يموت[1].

ولكن الله تعالى سلم، واختلف الصليبيون بين بعضهم وأصابهم الوهن والخذلان والخيبة، فرجعوا أدراجهم يجرون أذيال الهزيمة.

هذا وإن جهاد صلاح الدين وإيمانه وصبره وتسامحه وبعد نظره، ونظرته الرحبة قد كوفئت خير مكافأة وأجلها؛ ذلك أن ملك الإنكليز الذي كان أكبر ملوك الحملة الصليبية الثالثة، والذي حضر الى المشرق لنصرة الصليبيين وتدمير الإسلام، حارب صلاح الدين حول عكا وأدرك استحالة ما كان يحلم به، وأراد الرجوع إلى بلاده، فبدأ يفاوض السلطان من أجل الصلح وتحقيق أطماعه بالسياسة والمفاوضة، وهي ما عجز عن تحقيقه بالحرب.

ولقد دارت بين الطرفين مفاوضات طويلة معقدة، أظهر فيها صلاح الدين كياسة وأدباً وحنكة ودراية، وتمكن أن يحطم أحلام الصليبيين باسترجاع القدس واحتلال كامل الساحل السوري. ولقد حاول ريشارد ملك الإنكليز أن يجتمع بالسلطان صلاح الدين بعد أن تحارب الملكان حول عكا، ولكن صلاح الدين علمه درساً في الدبلوماسية وما يجب أن تكون عليه علاقات الملوك، فقد رفض

---

(١) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل. البداية والنهاية. القاهرة، مطبعة السعادة ١٣٥١ هـ، ١٤ جـ ١٢ ص ٣٤٨ - ٣٤٩.

الاجتماع به إلا بموجب قاعدة ثابتة يتفق عليها الطرفان: الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة، وما يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة. وإذا أراد الملك ذلك فلا بد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة، ولا بد من ترجمان نثق فيه في الوسط... فإذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى [1].

ولذلك لجأ ريشارد إلى الملك العادل يوسطه بالصلح بينه وبين أخيه صلاح الدين، وطلب منه أن يتوسط لدى السلطان حتى يصطلح السلطان مع فرنج الساحل الشامي ويرجع ملوك أوربا إلى بلادهم. وقد سأله الملك العادل على أي شيء يكون الصلح؟ فأجابه ملك الإنكليز على أساس إرجاع الأراضي المحررة لهم فأجابه العادل: إن دون ذلك قتل كل فارس وراجل [2].

وعلى الرغم من إلحاح ريشارد على استرجاع القدس والبلاد الساحلية كشرط للصلح، إلا أن السلطان رفض ذلك رفضاً قاطعاً، وأفهمه أن القدس هي للمسلمين كما هي للمسيحيين: وهو عندنا أعظم مما عندكم... فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين. وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل واستيلاؤكم كان طارئاً عليها [3]...

كذلك اقترح ملك الإنكليز على السلطان أن يزوج أخته (أي أخت ملك الإنكليز) إلى الملك العادل، ولكن رجال الدين المسيحي عارضوا في ذلك، وأراد بذلك أن يبرهن على حبه ووده لصلاح الدين ورغبته الجادة في الصلح. وبعد مراسلات كثيرة أبدى فيها ملك الإنكليز كل مودة وصداقة، وتنازل عن أشياء كثيرة من طلباته، بل أبدى فيها خضوعاً وتذللاً وتضرعاً، عقدت بين الطرفين هدنة عامة: أخذ الصليبيون بموجبها ما في أيديهم فقط، ولم ينالوا من

---

(١) ابن شداد. المصدر المذكور آنفاً ص ١٦٣.

(٢) ابن الفرات. المصدر المذكور آنفاً جـ ٤، ق ٢ - ٣٣.

(٣) ابن شداد. المصدر المذكور آنفاً. ص ١٩٤.

القدس شيئاً، وتمكن السلطان العظيم المجاهد أن يحتل يافا وينتزعها من الصليبيين أثناء المفاوضات، وأن يهدم عسقلان وسورها.

بعد أن أعلنت الهدنة العامة أرسل السلطان الى الخليفة رسائل يشرح له ما حدث من الهدنة العامة، ويفصل له فيما أحرزه من انتصارات ويذكر له المميزات التي حصل عليها المسلمون، ويعلن ولاءه الصريح للخليفة ويلتمس رضاه وبركاته.

وبعد أن أنجز صلاح الدين هذه المهمة بفترة وجيزة رجع إلى دمشق، وكان قد غاب عنها فترة طويلة، فاستقبل أروع استقبال وأحفله. وبعد هنيهة وافاه الأجل المحتوم، فانتقل إلى جوار ربه راضياً مرضياً ودخل في سجل الخالدين.

هذا وإن شخصية صلاح الدين تبدو عملاقة من خلال ما حققه ومن خلال نصوص الوثائق التي بين أيدينا. فهو بطل الوحدة وهو عسكري وقائد من الطراز الممتاز، فهو قائد غزا القلوب قبل القلاع، وهو داهية وسياسي من الطراز الرفيع جداً، فقد استغل رغبة ملك الإنكليز لعقد الصلح، وأدرك تلهفه على ذلك، فماطله حتى جعله يقبل التنازل عن قسم كبير جداً من طلباته. كما وأنه استغل فرصة مرض ملك إنكلترا فأرسل له الهدايا والأطباء، وذلك من أجل التجسس والكشف عن مناحي الضعف في المعسكر الصليبي. كذلك امتاز بسرعة حركته أثناء الحرب، ولعل أفضل مثال على ذلك مهاجمته يافا وأخذه لها بشكل مفاجىء أثناء المفاوضات التي دارت بينه وبين ملك الإنكليز. وهذا شيء لم يتوقعه ولم يتصوره الملك الصليبي. كما وأن تقاه وتفانيه في الدفاع عن الإسلام وأهله وأرضه ومقدساته وحرصه على مصلحة المسلمين وراحتهم وسلامتهم أنصع وأوضح من الشمس الساطعة. هذا إلى جانب بعد نظره وحنكته الإدارية وبراعته في القيادة وفهمه نفسية أتباعه، وتقشفه وزهده في حطام الدنيا وعدله وشفقته على رعيته ورغبته في تخفيف الأعباء عنهم، وصبره وتحمله المشاق التي يعجز عنها الرجال

الذين هم في ريعان الشباب. ولكن لنا عليه ملاحظتان: الأولى تسامحه مع الصليبيين. وقد أثبتت الحوادث اللاحقة أن الصليبيين قوم لا ينفع ولا ينجع معهم التسامح ولم يزدهم التسامح إلا إيغالاً في الوحشية ونقض العهود والعودة إلى الإجرام والكذب والخداع بنفس السهولة التي أقسموا بها على احترام العهود. فقد ارتكب الصليبيون قبل عهد صلاح الدين، وفي زمانه وبعده من الجرائم ضد المسلمين ما لم يسمع بمثله وحشية وقسوة، فقد ارتكبوا ذلك عن سابق تصور وتصميم، وكانوا يتباهون بذلك. وهو وإن بدا مثلاً أعلى وسط دياجير القرون الوسطى الأوربية بتسامحه وأخلاقه النبيلة، وإن أصبح معلم أوربا التسامح في وقت ران فيه التعصب القبيح على الغرب بأبشع صوره، إلا أنه في سلوكه كان متبعاً أجمل وأرقى ما في تعاليم الإسلام من قيم، ومعلماً أوربا نفسها أجمل ما في دينها من مثل وأخلاق كانت فوق مستوى القوم الديني والأخلاقي.

وأما الملاحظة الثانية، فهي حرصه الشديد على كسب رضى خليفة المسلمين في بغداد، علماً أن هذا الخليفة لم يقدم من العون لصلاح الدين في صراعه المرير ضد الصليبيين إلا البركات والعواطف الكلامية التي لم تسمن ولم تغن من جوع. هذا مع العلم أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله كان شخصاً صعب المراس، وقد اعترض على صلاح الدين أكثر من مرة واضطر صلاح الدين لاسترضائه في أكثر من مناسبة.

دور الانهيار الصليبي:

على الرغم من أن الهدنة العامة التي عقدها صلاح الدين مع الصليبيين أعطتهم فرصة للبقاء في هذه البلاد، وعلى الرغم من أن بقاءهم استمر حوالي مئة سنة أخرى بعد وفاة صلاح الدين، وعلى الرغم من استمرار حملاتهم على مصر بخاصة، إلا أن حروب صلاح الدين سجلت بداية دور الانهيار الصليبي في العالم الإسلامي.

والملاحظ في هذا الدور الذي استمر حوالي تسعين سنة، أن مركز الثقل في الحروب الصليبية قد انتقل من بلاد الشام إلى مصر؛ ذلك أن أوربا أدركت أن مركز الثقل في هذا الصراع هي مصر لمواردها الطبيعية والبشرية والاقتصادية، فقرروا إنهاء الحرب الصليبية لصالحهم في مصر. ولكن مصر أثبتت أنها حصن للعروبة والإسلام، وتكسرت جميع محاولات وغزوات الصليبيين لمصر على صخرة المقاومة البطولية التي أبداها المصريون وأعقب المدَّ جزرٌ. وبعد فترة أخذت مصر وبلاد الشام المتحدتان في دولة واحدة تحت حكم المماليك زمام المبادرة في الحروب الصليبية وأوصلاها إلى نتيجتها الطبيعية وهي تحرير بلاد الشام من الحكم الصليبي وطرد آخر جندي صليبي عن هذه البلاد سنة ٦٩٠ هـ الموافقة لسنة ١٢٩١م.

بقايا الأيوبيين:

يعتبر عهد الملك العادل امتداداً لعهد أخيه صلاح الدين، فقد استمرت الهدنة وقتاً ما، ثم تحارب مع الفرنج المقيمين في بلاد الشام، وكانت له اليد الطولى عليهم. ولكن حدث في أواخر أيامه أن تحرك الملك الزنديق فريدريك الثاني إمبراطور ألمانية وملك صقلية نحو بلاد الشام وهدفه القدس. وحصلت حركة عامة وذعر شديد بين السكان، وفي تلك الآونة توفي العادل وحل محله ابنه الكامل. ولما لم يكن مستعداً للقتال، فقد تفاوض مع الإمبراطور الذي كان طلبه القدس ليرتفع رأسه بين الملوك وأمام البابا: وقد علم البابا والملوك باهتمامي، فإن رجعت خائباً، انكسرت حرمتي، وهذه القدس فهي أصل دين النصرانية، وأنتم قد خربتموها وليس لها طائل، فإن رأيت أن تنعم عليَّ بقصبة البلد ليرتفع رأسي بين الملوك، وأنا ألتزم بحمل دخلها إليك[1].

---

(١) الذهبي، محمد بن أحمد. كتاب العبر في خبر من غبر. تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد. الكويت، دائرة المطبوعات والنشر ١٩٦٠ م جـ ٥ - ١٠٢.

وقد حصلت زمن السلطان الكامل وإخوته في مصر وسورية حادثة مهمة جداً. ذلك أن الصليبيين وجهوا كامل قواهم إلى مصر لاحتلالها وقد تمكنوا من أخذ دمياط، ورفضوا جميع العروض التي عرضها عليهم السلطان الكامل ليرجعوا عن احتلال مصر وأبوا إلا إكمال مخططهم القاضي بالقضاء التام على قوة مصر. ولقد كان لسقوط دمياط صدى معظيم في بلاد الشام، فقد أصدر الملك المعظم عيسى حاكم بلاد الشام أوامره إلى نائبه على دمشق أن يحرض الناس على الجهاد: وأريد أن تحرض الناس على الجهاد وتعرفهم ما جرى على إخوانهم أهل دمياط من الكفرة أهل العناد [1]... ولقد لبى أهل بلاد الشام النداء ونفروا خفافاً وثقالاً وحاربوا الفرنج فكانت النتيجة هزيمة ماحقة حلت بالصليبيين واستسلموا ورجعت دمياط إلى المسلمين وقتل الفرنج قتلاً ذريعاً وأسروا، واضطرت البقية الباقية أن تعقد صلحاً مذلاً مع الملك الكامل تسلم بموجبه دمياط وجميع البلدان، وتنسحب إلى بلادها تجر أذيال الهزيمة. والطريف في الأمر أن هؤلاء الفرنج كسروا منبر جامع دمياط قطعاً قطعاً وأهدوا كل قطعة منه إلى ملك من ملوكهم، فلما استسلموا كان في المدينة صوارٍ عظام جداً وأراد الفرنج أخذها، فمنعهم من ذلك نائب السلطان شجاع الدين، فلجأ الفرنج إلى السلطان يطلبون منه أن يسلمهم هذه الصواري، ولكن شجاع الدين طلب من السلطان أن يطالب الفرنج أن يعيدوا المنبر حتى يعيد لهم الصواري. ولما عجزوا عن ذلك رفض تلبية طلبهم [2].

ولم يتعلم الصليبيون من تجاربهم شيئاً ذا غناء، ولم يفهموا الدرس الذي تلقوه في مصر ودمياط وكانوا بحاجة إلى درس آخر حتى يستيقظوا على الحقيقة المرة،

---

(١) ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة. القاهرة، دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م جـ ٦ ـ ٢٣٩.

(٢) ابن واصل. المصدر المذكور آنفاً جـ ٤ ص ٩٩ ـ ١٠٠.

وهي أنهم أعجز من أن يحققوا ما يصبون إليه، وأن زمن تفوقهم قد انقضى، وأن عليهم أن ينتظروا زمناً طويلاً جداً حتى يستطيعوا أن يعيدوا الكرة على بلاد الإسلام.

فقد استأنف الهجوم على مصر الصليبيون بقيادة الملك الفرنسي المهووس ببغض الإسلام وخدمة الكنيسة لويس التاسع الذي أعاد الكرة ونزل بثغر دمياط. وهنا نجد الملك الفرنسي يغير خطة الصليبيين ويرسل إلى الملك الأيوبي في مصر الملك الصالح نجم الدين رسالة يعرض عليه فيها التسليم. وهي رسالة سقيمة لا تعني شيئاً سوى التفاخر والتبجح الكاذب، والتباهي بعدد العساكر التي أحضرها معه، وأنه سيقتل الملك الصالح. ويدعي لويس التاسع في تلك الرسالة أنه أمين الأمة العيسوية وهذا ادعاء لا نعتقد أن بقية ملوك أوربا توافق عليه[1]. ويدل جواب الملك الصالح له على نفس واثقة بالله تعالى وبعدالة القضية التي يدافع عنها، وعلى أن العدوان الصليبي لا بد وأن ينتهي بتدمير المعتدين، واستشهد في كتابه بآيات من الذكر الحكيم تناسب المقام[2].

وقد صدق الله وعده جنده المؤمن به، وهزم المعتدون شر هزيمة في معركة المنصورة الشهيرة عام ٦٤٨ هـ وأسر ملك فرنسا نفسه مع قواده وثقاته، وتحطم غروره، وتمزق جيشه، وتفرق أيدي سبأ.

ولقد أثار ظفر المنصورة العزة في النفوس، وأعاد للمسلمين ثقتهم بربهم وبأنفسهم، وعاد الدين جديداً كما كان، ولبست البلاد ثوباً قشيباً هو ثوب

---

(١) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد مصطفى زيادة. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٤م، جـ ١، ق ٢ ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

(٢) نفس المصدر.

الظفر الذي أتى بعد أن يئس العباد من البلاد والأهل والأولاد، فنودوا: ألا تيأسوا من روح الله[1]

عهد المماليك:

يعتبر عهد المماليك ـ في أوله على الأقل ـ امتداداً للعهد الأيوبي، ولا سيما فيما يتعلق بالحرب ضد الصليبيين. ذلك أن أوائل ملوك المماليك أوصلوا الحرب ضد الصليبيين إلى نهايتها المحتومة: وهي تطهير بلاد الشام من أرجاسهم. ذلك أن أوربا الصليبية لم تعد قادرة ـ بعد هزيمة المنصورة المذكورة آنفاً ـ أن تعيد الكرة على مصر وبأعداد غفيرة، كما وأن أوائل ملوك المماليك كالظاهر بيبرس والملك المنصور قلاوون كانوا محاربين من نوع نادر، فهم الذين أعادوا وحدة مصر وبلاد الشام، وهم الذين حطموا أسطورة الجيش المغولي الذي لا يقهر فقهروه أكثر من مرة، وصبوا الهزائم المتوالية على رؤوس أباطرة المغول. وحاربوا الصليبيين في بلاد الشام وانتزعوا معاقلهم واحداً بعد واحد حتى أجلوهم عن سورية سنة ١٢٩١م كما حاربوا الثوار وقضوا عليهم، إلى جانب حربهم لسلاجقة الروم، وللبيزنطيين وهزيمتهم إياهم أكثر من مرة.

والواقع أثبت الملك الظاهر بيبرس أنه قائد محارب من أرفع طراز. وقد ميز نفسه عندما كان ضابطاً وقائداً للفرسان زمن أواخر الأيوبيين. وأما في زمن السلطان قطز فقد كان هو الروح المحركة والعقل المفكر وراء كل ما تم إنجازه ضد المغول بخاصة، ولا سيما في معركة عين جالوت الحاسمة. ولما أصبح الظاهر بيبرس سلطاناً، انضاف إلى خلاله السابقة صفة الحكم والقيادة، وهي خلال كان هو من أجدر الناس بها، وهو الذي يعود له الفضل الأكبر، في زمن المماليك، في تحطيم القوة الصليبية في سورية. وعلى الرغم من أن بقاء الصليبيين استمر في بلاد

---

(١) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي الخطط المقريزية. الشياح، لبنان، مكتبة إحياء العلوم جـ ١ ـ ٣٩١.

الشام فترة ليست بقصيرة بعد وفاته، إلا أن شرف إنهاء الحكم الصليبي يعود له ولحروبه البطولية التي حطمت معاقل الفرنج معقلاً معقلاً. وقد بلغ من عجز حكام سورية الفرنج وضعفهم أنهم أصبحوا يطلبون عقد الهدن مع الظاهر بيبرس، بل وقد أصبح هو نفسه حكماً بينهم كما حدث لما احتال ملك قبرص وحاكم عكا على صاحبة بيروت وجعلاها تترك مملكتها وتذهب الى قبرص، فبقيت بيروت بدون حاكم، فأرسل السلطان إلى صاحب عكا يقول: هذه الملكة بيني وبينها هدنة، وما سافر زوجها حتى أودعها عند جاهي، وعادتها إذا سافرت تستودعني بلادها. وفي هذه المرة ما سيرت لي رسولاً، ولا بد من حضورها وأن تتوجه رسلي وتشاهدها، وإلا أنا أحق ببلادها [1].

ولكي يتمكن السلطان من تنفيذ خططه في تحرير بلاد الشام من الفرنج لم يكتف بالاستعداد الحربي وحده، وإنما لجأ إلى الدبلوماسية فحالف بعض الصليبيين إلى فترة، ليأمن جانبهم، وتفرغ للآخرين، كما فعل لما عقد عدة هدن مع بيروت، ومع الأستبارية في حصن الأكراد ومع غيرهما، وهاجم عندئذٍ بقية المعاقل واحتلها كما فعل لما هاجم صفد والشقيف واللاذقية ويافا وانطاكية وفتحها كلها.

وقد كان من حسن حظ الملك الظاهر وابنه من بعده الملك بركة ومن بعدهما السلطان قلاوون أن وجد عندهم كاتب للإنشاء من ألمع كتاب الإنشاء الذين حفل بهم التاريخ الإسلامي وأرشقهم أسلوباً وأفصحهم بياناً وهو محي الدين بن عبد الظاهر. وأن أسلوبه الرشيق وعباراته الرضية وسهولة كتابته وامتناعها، ولصوقها بالقلب، وإثارتها للإعجاب، وتدفق فصاحته وبلاغته وفصاحته،

---

(١) ابن الفرات. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٧ ـ ٣٥.

لتذكرنا بالقاضي الفاضل وما أنجزه في عصر صلاح الدين الأيوبي وهو على الرغم من استعماله السجع والمحسنات البديعية والبيانية بكثرة، وعلى الرغم من أن رسائله معرض لمدح السلطان بحساب وبغير حساب، ومعرض لإظهار بلاغته وقدرته الكتابية والبيانية والبديعية، وقدرته على الإتيان بالمترادفات والسجع والترصيع، إلا أن كل ذلك لا يحجب أسلوبه الرصين وشخصيته المتميزة بحيث يستطيع الإنسان المطلع على أسلوبه أن يحكم على رسالة ألفها هو ولكن جهل مؤلفها من أسلوبها أنها من تأليفه. وقد ترك لنا قطعاً فريدة من نوعها تعود إلى ذلك العصر وكلها شواهد حية تدل على ذوق ذلك العصر الرفيع وعلى ما وصل إليه النثر العربي تحت إشراف هذا الكاتب العظيم وبهمته وسعيه.

والطريف في الموضوع الروح المرحة التهكمية التي كانت تحكم الملك الظاهر. ذلك أنه بعد أن احتل انطاكية أرسل إلى صاحبها بوهيموند السادس، وكان يحكم أنطاكية وطرابلس معاً وكان يلقب بالبرنس، يخبره بفتحه أنطاكية ويخاطبه بالقومص. ذلك أن سقوط أنطاكية بيد السلطان جعلت رتبة بوهيموند تنحط من الإمارة إلى الكونتية، كما وأن فتحها دليل حي على عبقرية السلطان العسكرية والسياسية. فقد هاجم أولاً طرابلس وحارب ضواحيها وفعل بها الأفاعيل، ودافع عنها بوهيموند بشدة، ثم انسحب السلطان من ضواحي طرابلس، فاعتقد بوهيموند أن دفاعه كان السبب في رحيل السلطان وإحباط الهجوم على طرابلس، ولذلك ركن إلى الراحة. ولكن ذلك كان جزءاً من خطة اتبعها السلطان، فقد أوهم خصمه أن الهجوم الرئيسي هو على طرابلس، على حين أن هدف الهجوم الرئيسي أنطاكية. ووصل السلطان إلى أنطاكية في غضون خمسة عشر يوماً من تركه طرابلس. وهناك حاصرها وتمكن خلال فترة وجيزة من أخذها. ومن هناك أرسل إلى بوهيموند تلك الرسالة يخبره بخبر أنطاكية وكيف أخذها وهي رسالة تقطر تهكماً وسخرية لاذعة إلى جانب احتوائها على الحقائق الناصعة من أخذ البلد وما حل بها من الدمار. فهو يفتتح رسالته بتحية

بوهيموند.. المنتقلة مخاطبته بأخذ أنطاكية منه من البرنسية إلى القومصية [1]. ثم يعلمه بما تم من قتل خيالته ورجالته في أنطاكية وما حل بالبلد: فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول؛ ودیارك والنهاية فيها تصول والكسابة فيها تجول... وداماتك وكل أربع منهن تباع فتشترى من مالك بدينار... ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تحترق، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق... لكنت تقول: يا ليتني كنت تراباً! ويا ليتني لم أوت بهذا الخبر كتاباً، ولكانت نفسك تذهب من حسرتك.. ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام... وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر بكونك لم يكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة، وكونك ما كنت فيها فتكون إما قتيلاً وإما أسيراً وإما جريحاً وإما كسيراً. وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحي إذا شاهد الأموات... وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبراً، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب ألا تسأل غيرها مخبراً.

ويعلق المقريزي على ذلك بقول: ولما وصل إليه هذا الكتاب اشتد غضبه ولم يبلغه خبر أنطاكية إلا من هذا الكتاب [2].

كما وأن السلطان دأب على نفس الأسلوب مع بوهيموند من إرسال الرسائل له بعد أن يقتطع من أملاكه بلداً من البلدان، كما فعل لما احتل حصن عكار من أملاك طرابلس. فقد أرسل له رسالة ثانية تفيض تهكماً وسخرية وتهديداً ووعيداً، وهي بمثابة إنذار بالتسليم أو الرحيل، وإلا فإن اللقاء قريب بين الطرفين وسيحل بالكونت وأهل طرابلس الصليبيين ما حل بأهل عكار. واللطيف في الموضوع هو أن السلطان يعطينا لون علمه ولون علم بوهيموند السادس

(١) المقريزي، تقي الدين. كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد مصطفى زيادة. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٤م. جـ ١، ق ٣ ص ٩٦٦ - ٩٦٩.

(٢) نفس المصدر.

فيقول: وكتابنا هذا يبشرك بأن علمنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر...[1].

ولقد توفي السلطان وهو في أوج مجده وعزه بعد أن حطم المغول وبعد أن أنهى القسم الأكبر من الاحتلال الصليبي لبلاد الشام، وبعد أن رفع سمعته وسمعة بلاده عالية خفاقة في أرجاء العالم، وترك للسلطان الملك المنصور أن يتم ما بدأه. وعلى الرغم أن السلطان بركة هو الذي خلف والده الملك الظاهر في العرش، إلا أن حكمه قصير وشخصيته مرجوجة مما مكن لقلاوون من خلعه والحلول محله.

وقد تمكن قلاوون أن يحرر ما بقي من معاقل الصليبيين في بلاد الشام باستثناء صور التي جرى تحريرها زمن ابنة الملك الأشرف. وقد سار قلاوون على سياسة الملك الظاهر، فعقد الهدن مع بعض الأطراف ليتفرغ للأطراف الأخرى كما فعل لما عقد هدنة مع مملكة عكا ليتفرغ لفتح وتحرير طرابلس. ولما حرر طرابلس رجع إلى عكا واحتلها وهكذا. وأخيراً شاهدت هذه البلاد خاتمة العدوان الصليبي، بمعناه الاصطلاحي الاختصاصي الضيق، على يد الملك الأشرف خليل الذي طهر صور ١٢٩١م. ولم يعد الصليبيون إلى هذه البلاد، أو بالأحرى جيوشهم، إلا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

وقد انتهت الحروب الصليبية، كما عرفناها في أول هذا الفصل، في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، ولكنها خلفت في البلاد آثاراً رهيبة، وكان لها نتائج بعيدة المدى. فقد ساهمت أكبر مساهمة في تغيير عقلية الفاتحين الصليبيين البرابرة، وجعلتهم يطلعون على حضارة أرقى من حضارتهم، وصححت كثيراً من مفاهيمهم عن الشرق بعامة، وعن الإسلام والمسلمين، كما وأنها جعلتهم

---

(١) نفس المصدر جـ ١ ق ٣، ٩٧٢ - ٩٧٣.

يغيرون أساليبهم في مهاجمة الإسلام والبلاد الإسلامية، ولكنها لم تؤثر فيهم بحيث يتخلون عن بغضهم أو حقدهم أو أطماعهم، فهذه أشياء مغروسة في نفوسهم يتوارثونها كابراً عن كابر. كما وأنها علمتهم أهمية التبادل الاقتصادي وإمكانية ذلك في ظل سلم بين الطرفين، وإيجاد سبل آمنة برية وبحرية بين الطرفين. كما وأن هذه الحروب ساهمت أكبر مساهمة في إضعاف نفوذ البابوية في الغرب، وبالتالي الكنيسة، وفي إضعاف نظام الإقطاع الذي كان سائداً في أوربا، مما ساعد على تأسيس الملكيات المطلقة كدول فرنسا وإنكلترا وإسبانيا، وكان له أثر فعال في إنهاء العصور الوسطى وبداية عصر النهضة الأوربية.

وأما تأثير هذه الحروب على الشرق فيختلف كل الاختلاف، ذلك أن الشرق فقد قواه الذاتية في صراعه ضد الصليبيين والمغول، واعتقد أن البحر مصدر الشر، لأنه حمل له أمواج الصليبيين، فأهمل القوم البحر ولم يلتفتوا إليه، حتى أنهم دمروا أكثر الموانىء المطلة على البحر الأبيض المتوسط خوفاً من أن يستعملها الغزاة في العودة ثانية إلى البلاد. كما وأنهم أهملوا الأسطول وتركوا الزيادة في هذا المجال لدول إيطاليا كالبندقية وجنوا. كما وأن تدمير قسم كبير من البلاد ومصرع عدد كبير من السكان أثر على الحضارة الإسلامية وأفقدها أصالتها، فجعلها، مع عوامل أخرى كثيرة أهمها الغزو المغولي، تلجأ إلى التقليد الحرفي مما كان له أكبر الأثر في الجمود الفكري والحضاري الذي ران على البلاد والعباد فترة طويلة من الزمن. كما وأن هذا العدوان الأوربي ضد المسلمين جعلهم يقفون موقفاً عدائياً تجاه أوربا وكل ما يصدر عنها، ولو كان هذا الذي يصدر شيئاً جيداً يمكن أخذه والاستفادة منه، إلى جانب أنهم انطووا على أنفسهم قدر الاستطاعة وحاولوا الابتعاد عن مجرى الأحداث العالمية، مما كان له أكبر الأثر على عقليتهم ومعارفهم. أضف إلى ذلك أن أغلب ملوك المماليك، بعد الملك المنصور قلاوون وابنه الملك الناصر محمد كانوا ملوكاً ضعافاً هزيلين، ولم يكن عندهم تصور واضح عن مفهوم الحكم والدولة فانخرطوا في منازعات

محلية استنزفت قواهم وقوى شعبهم. وإذا تذكرنا العاصفة المغولية الكبرى التي اجتاحت الشرق حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط بقيادة السفاك تيمورلنك أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، وما أحدثته من دمار وأنزلته بالبلاد والعباد من ضروب البلاء والقتل والتدمير، فإننا نكون قد رسمنا صورة شبه كاملة لأسباب التدهور والتأخر الحضاري الذي سيطر على الشرق فترة طويلة من الزمن.

ولم يحاول العثمانيون، ولم يكن بإمكانهم، أن يغيروا هذه الصورة، بل لعلهم ثبتوها ورسخوها وزادوها استقراراً، وذلك بسبب قصورهم وبسبب طبيعة تكوينهم وتكوين نظام الحكم لديهم. ولكن ذلك خارج عن نطاق كتابنا هذا. وإنما نكتفي بالإشارة إليه.

ولقد تعاصر مع الغزو الصليبي لهذه البلاد، الغزو المغولي لها الذي كان له آثار قاتلة على كل ناحية من نواحي الحياة في العالم الإسلامي والحضارة ككل. ولعل هذه الآثار أشد من الآثار التي خلفها الغزو الصليبي.

وعلى الرغم من أن المسلمين خرجوا منتصرين في كلتا الحالتين، إلا أنهم فقدوا قواهم الذاتية في هذا الصراع الرهيب، وأصبحوا عرضة لمختلف أنواع الآفات والمصائب، مثلهم في ذلك مثل جسد أُصيب بأمراض خطيرة جداً وتمكن هذا الجسد من التغلب على تلك الأمراض، بعد صراع رهيب، وخلال فترة طويلة، ولكن هذا الصراع أضعف ذلك الجسد كل الإضعاف فأصبح هدفاً لأبسط الأمراض وأنواع الجراثيم تهاجمه وتفتك به.

الغزو المغولي:

يعتبر المغول من العنصر الأصفر، ومكانهم الأصلي منغوليا، وهي التي أعطتهم اسمها على ما يبدو. وقد استمروا فترة طويلة في ذلك المكان، ولكن حدث أن ظهر فيهم زعيم قوي في أوائل القرن الثاني عشر هو جنكيزخان الذي

تمكن أن يمد سلطانه على بقاع شاسعة من الارض، وأن يوجد أوسع إمبراطورية وجدت حتى عهده. وكان العالم الإسلامي هدفاً دسماً وسهلاً للمغول. ذلك أن العالم الإسلامي كان أكثر حضارة وتحضراً من المغول، ويزخر بالثروات والخيرات والمدنية، إلى جانب ضعف سياسي وانقسام وتنافس طاحن بين مختلف الفرقاء. ودائماً تجذب البؤر الأكثر تحضراً، والضعيفة عسكرياً وسياسياً، البرابرة الأقل تحضراً لاحتلال تلك البؤر والتمتع بما تحويه من خيرات. وهذا ما حدث في عالمنا الإسلامي. ولم يكن لدى المغول قيم روحية أو أخلاقية رفيعة، فقد كانوا وثنيين، أو لا دين لهم، ومستواهم الأخلاقي ومفاهيمهم الأخلاقية منخفضة كل الانخفاض، إلى جانب أعداد غفيرة ومتزايدة، وتنظيم عسكري دقيق، وقيادة سياسية وعسكرية حازمة وحاذقة. كل ذلك أدى إلى جعلهم يحققون ما يصبون إليه من تدمير واحتلال وقتل وسيطرة. ولا يحسبن أحد أنهم كانوا غير منظمين، بل لعلهم كانوا أكثر تنظيماً وأدق من أعدائهم، وهذا أحد عناصر تفوقهم. ذلك أنهم كانوا منظمين كل التنظيم ويعرفون ما يريدون، ويعرفون الطريق لتحقيق ما يريدون. ويمكن تقسيم أدوار الغزو المغولي للعالم الإسلامي، تسهيلاً للبحث إلى ثلاثة أقسام كبرى:

الدور الأول: وينتهي بسقوط بغداد بيد المغول سنة ٦٥٦ هـ.

الدور الثاني: الذي يمتد حتى ظهور تيمورلنك أواسط القرن الرابع عشر الميلادي.

الدور الثالث والاخير: دور العاصفة التيمورية التي استمرت حتى وفاة تيمورلنك أوائل القرن الخامس عشر الميلادي.

الدور الأول من أدوار الغزو المغولي:

لقد سبق المغول في الإغارة على العالم الإسلامي أقوام آخرون من جنسهم هم الخطا والتتار، ولكن المسلمين كانوا قادرين على الخلاص منهم، ومن حسن

الحظ وجد ملك في شرقي البلاد الإسلامية في خوارزم هو خوارزمشاه الذي كان محارباً قديراً ودبلوماسياً بارعاً، فتمكن أن يحارب الخطا وأن يكسرهم، كما حارب التتار وتخلص منهم، وأبدى خلال هذه المعارك مقدرة عسكرية لا بأس بها ومهارة سياسية. ولكن الحظ خانه أمام المغول فلم يتمكن من الوقوف في وجه جحافل جنكيزخان الذي اتخذ ذريعة للهجوم عليه قتل نائب خوارزمشاه تجاراً أرسلهم جنكيزخان إلى خراسان باسم التجارة ظاهراً، ولكن للتجسس وتقصي الحقائق باطناً، فأرسل جنكيزخان إلى خوارزمشاه رسالة يعتب عليه فيها ويطلب منه مجازاة نائبه لفعله، ولكن خوارزمشاه قتل رسول جنكيزخان الذي غضب لهذه الإهانة، وأرسل يهدد ويزمجر ويقول: تقتلون أصحابي وتأخذون مالي منهم! استعدوا للحرب فإني واصل إليكم بجمع لا قبل لكم به [1].

وقد وصل جنكيزخان وحارب خوارزمشاه وهزمه واحتل قسماً كبيراً من شرقي البلاد الإسلامية. ولقد تابع خلفاؤه سياسته، وبشكل خاص منكوقا آن الذي أرسل أخاه هولاكو لتحقيق حلم جدهم جنكيزخان باحتلال البلاد الواقعة بين جيحون وأقاصي بلاد مصر [2].

وتبدو في وصيته لأخيه هولاكو الشخصية المغولية واضحة كل الوضوح: من اعتزاز بجنكيزخان وحض على التمسك بقوانينه في الكليات والجزئيات، إلى تحريض على تحطيم كل من يقف في طريقه: أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل ما يتعلق به... فإذا فرغت من هذه

---

(١) ابن الأثير: المصدر المذكور آنفاً، جـ ١٢ ـ ٣٦٣.

(٢) الهمذاني، رشيد الدين بن فضل الله. جامع التواريخ في تاريخ المغول. تعريب محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبدالمعطي الصياد. القاهرة، الإدارة العامة للثقافة، ١٩٦٠ م. جـ ٢، ق ١، ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

المهمة، فتوجه إلى العراق... وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة، فلا تتعرض له مطلقاً، أما إذا تكبر وعصى، فألحقه بالآخرين من الهالكين [١].

ولقد أدرك المسلمون الخطر الماحق الذي يتهددهم من هؤلاء المغول، ولكن الانقسام السياسي وضعف الحكام وتخاذلهم وخيانتهم، والخوف الذي استولى على النفوس، كل أولئك عوامل لم تساعد على إيجاد جبهة إسلامية موحدة تقف في وجه المغول، بل ساعدت على اتساع هوة الخلاف وعلى تسهيل عملية الغزو المغولي للعالم الإسلامي. فقد فرض بدر الدين لؤلؤ على أهل الشام ضريبة أسماها ضريبة التتر [٢]، ولكن عبثاً. كما كان المسلمون يعلمون أن هدف المغول احتلال جميع البلاد الإسلامية بما فيها مصر. فقد ورد في رسالة أرسلها تاجر مجهول من الري إلى أصحابه في الموصل سنة ٦٢٧ هـ يعلمهم عن هذا الغزو ما يدل على ذلك. إن الكافر ـ لعنه الله ـ ما نقدر أن نصفه.. حتى لا تنقطع قلوب المسلمين... ولا تظنوا أن هذه الطوائف التي وصلت إلى نصيبين والخابور.. كان قصدهم النهب، إنما أرادوا أن يعلموا هل في البلاد من يردهم أم لا ؟ فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع ومدافع... فقوي طمعهم، وهم في الربيع يقصدونكم وما يبقى عندكم مقام، إلا إن كان في بلاد المغرب، فإن عزمهم على قصد البلاد جميعها فانظروا لأنفسكم .

ولقد افتتح هولاكو حملاته على البلاد الإسلامية بتوجيه نداء إلى جميع حكام البلاد الإسلامية الشرقية ـ وما أكثرهم ـ ومن جملتهم خليفة بغداد المستعصم بالله، أن يساعدوه بالمال والرجال والسلاح من أجل إخضاع واحتلال قلاع الملاحدة المنتشرة في شمالي إيران الحالية... فإذا أسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم

---

(١) المقريزي، المصدر المذكور آنفاً. جـ ١، ق ٢ ـ ٣١٥.

(٢) ابن الأثير. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١٢. جـ ١٢ ـ ٥٠٣.

وستحمد لكم مواقفكم. أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر أو أهملتم، فإننا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة، فإننا لا نقبل عذركم ونتوجه إليكم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم[١]..

ولقد ثبت أن قليلاً من الحكام المسلمين لبوا نداء هولاكو وساهموا في حملته المشهورة هذه. ولذلك امتلأ غضباً عليهم، وبعد أن انتهى من أمر الملاحدة وقلاعهم، وجه سهام نقده وصب جام غضبه على الخليفة باعتباره أكبر الحكام المسلمين في العراق مقاماً وقوة، ولسلطته الروحية ومكانته المقدسة لدى المسلمين، فأرسل له رسالة يعاتبه على عدم إرسال الجنود للمساعدة في فتح قلاع الملاحدة، ويذكر له أنه مهما تكن أسرتك عريقة وبيتك ذا مجد تليد، فإن لمعان القمر قد يبلغ درجة يخفي معها نور الشمس الساطعة[٢]. وفي هذا اعتراف صريح بتفوق وسمو أسرة آل العباس على أسرة جنكيزخان، مع إمكانية أن يلمع هولاكو أو أحد أفراد أسرته أكثر من لمعان أحد أفراد أسرة آل العباس. ثم بعد ذلك ينتقل معه إلى التهديد، ويذكر له أن كثيراً من السلالات حكمت إلى جانب الخليفة في بغداد بعد أن احتلها من أمثال السلاجقة والديالمة والأتابكة، فكيف تغلق بغداد في وجه المغول وهم أقوى من كل أولئك؟! بعد ذلك يطلب من الخليفة الخضوع والطاعة، وآية الطاعة هدم الحصون وطم الخنادق وإرسال وفد مؤلف من ثلاثة موظفين لمقابلة هولاكو، وتقديم الخضوع والولاء له. وإذا رفض الخليفة ذلك فالحرب بين الطرفين، والويل للخليفة وشعبه[٣].

ولقد كانت هذه الرسالة فاتحة تراسل بين الخليفة وهولاكو، وأظهر الخليفة جهلاً بالقوى التي يواجهها ويحاربها، كما أظهر غروراً وعجزاً كبيرين. فقد لبس ثوب النمر في رسالته الجوابية إلى هولاكو، وهو عاجز عن أن يلبس ثوب

---

(١) الهمذاني. المصدر المذكور آنفاً، جـ ٢، ق ١ - ٢٤٠.

(٢) نفس المصدر. جـ ٢، ق ١ - ٢٦٨.

(٣) نفس المصدر.

الهر. فقد وصف الخليفة هولاكو بالشاب الحدث المتمني قصر العمر... ثم بعد ذلك يقول: إن عنده من السلطة والاستطاعة ما يمكنه من جمع الشتات وحسم الأمور في إيران. ثم بعد ذلك يتوجه إلى توران ويضع كل إنسان موضعه، وعندئذ سيصير وجه الأرض جميعه مملوءاً بالقلق والاضطراب، غير أني لا أريد الحقد والخصام...[1].

ولقد رد هولاكو رداً عنيفاً على رسالة الخليفة هذه وعاتبه بشدة وأخبره أنه زاحف على بغداد بجيش لا قبل له به. ولقد امتاز رد الخليفة الثاني على رسالة هولاكو الأخيرة باستشهاده بحوادث التاريخ ليثبت لهولاكو أن بني العباس مكلؤون بالعناية الإلهية، وأن كل من قصدهم بأذية لا بد أن يقصم، وقد استشهد الخليفة بأعمال يعقوب بن الليث الصفَّار وأخيه وبفتنة البساسيري ومحاولته خلع الخليفة ونقل الخلافة إلى الفاطميين في مصر، وبأعمال السلطان السلجوقي محمود ومحاربته الخليفة وكيف أراد احتلال بغداد وعجز عن ذلك. كذلك ذكر الخليفة محاولة خوارزمشاه احتلال بغداد وخذلانه وخيبته، ليصل إلى تقرير حقيقة ثابتة في رأيه: وهي أن العناية الإلهية تحرسه وتحرس أسرة العباس: فليس من المصلحة أن يفكر الملك في قصد أسرة العباسيين، فاحذر عين السوء من الزمان الغادر[2].

ويبدو أن الخليفة كان معتقداً حقاً بحماية إلهية له ولأسرته، ولذلك تصرف بهذا الشكل الاعتباطي، ولكنه كان واهماً في ذلك، ودفع ثمن هذا الوهم حياته وعرشه وسلالته كلها.

كما وأن هناك أخطاء في الأحداث التي سردها الخليفة ولا سيما فيما يتعلق بفتنة البساسيري التي حدثت في العراق وبغداد في حدود ٤٤٠ ـ ٤٤٧ هـ.

---

(١) نفس المصدر. جـ ٢، ق ١ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(٢) نفس المصدر. جـ ٢، ق ١ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

ذلك أن الخليفة ذكر أن البساسيري جاء بجيش عظيم من مصر إلى بغداد وقبض على الخليفة وسجنه في الحديقة وجعل السكة والخطبة في بغداد للمستنصر الفاطمي، ثم أتى طغرل بك السلجوقي إلى بغداد وأنهى حركة البساسيري [١]. ولكن الحقيقة خلاف ذلك. ذلك أن البساسيري لم يذهب إلى مصر قط ولم يأت بجيش منها، وإنما تحالف مع أمير بدوي محلي هو قريش، كما وأنه لم يعتقل الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وإنما لجأ هذا إلى مدينة الحديثة وهناك استقر في إحدى قلاعها بحماية أمير بدوي اسمه مهارش بن مجلى أضف إلى ذلك أن البساسيري خطب للخليفة الفاطمي في بغداد مدة تقرب من السنة.

ولقد أدرك الخليفة، بعد فوات الوقت، أن تهديدات هولاكو في محلها، وأن لا شيء ينقذه من مخالبه، فحاول الصلح وتلبية قسم من طلبات هولاكو، ولكن هذا رفض وشن الحرب على بغداد والخليفة حتى أوصلها إلى نتيجتها الحتمية وهي احتلال بغداد وتدميرها، ودفع الخليفة حياته ثمناً لما حدث.

في العصر المملوكي بعد سقوط بغداد:

تمكن المماليك الذين حكموا بعد الأيوبيين في سورية ومصر أن يطردوا الصليبيين من بلاد الشام، وأن يصدوا تيار الغزو المغولي الجارف وأن يستنقذوا من براثنهم بلاد الشام، وأن يحيلوا مدهم إلى جزر ولقد استمر الغزو المغولي لبلاد الشام فترة طويلة وعلى شكل موجات متتابعة تفصلها فترات زمنية. ولقد اندفع المغول بشكل شلال متدفق من الحمم، قذفها على سطح الأرض بركان ثائر، وهاجموا بلاد الشام التي كانت ضعيفة ومنقسمة بين عدد كبير من الحكام. ولقد رافق الهجوم المغولي على بلاد الشام انقضاء الحكم الأيوبي في مصر، وقيام الحكم المملوكي ولقد رافق هذا التغيير في الحكام اضطراب ساعد في تقديم الغزاة في بلاد الشام. ولم يكن بين حكام بلاد الشام من هو قادر على الوقوف في

---

(١) نفس المصدر.

وجههم. فصاحب حلب الأيوبي الملك الناصر كان قصبة مرضوضة ولم يكن أهلاً للوقوف في وجه المغول، ولا سيما بعد أن شاعت وذاعت في الخافقين أعمالهم الإرهابية: ذلك أن المغول أسروا النفوس وزرعوها خوفاً وهلعاً، واعتقد معاصروهم أنه لا يمكن الوقوف بوجههم بحال من الأحوال - بله التغلب عليهم - ولقد زحف المغول على بلاد الشام والناس يعتقدون هذا الاعتقاد. وتدل الرسائل التي أرسلها هولاكو إلى الناصر الأيوبي صاحب حلب على شخصية متغطرسة متعطشة للحكم والاستبداد، وأن جزاء المخالفين هو جزاء أهل بغداد وحكامها، وأن ما أحلّوه ببغداد وأهلها وحكامها إن هو إلا انتقام إلٓهي لسوء سلوكهم وطغيانهم وجبروتهم، ويحذره ويحذر أهل حلب مغبة المقاومة اللامجدية ويطلب إليهم الاستسلام، وذلك بعد أن صور لهم ما حل بالعصاة وما فعلوه بالأنفس والأموال والأولاد والبلاد والعباد. فأغلب رسائل المغول من هذا الطراز: الغاية منها تحطيم روح المقاومة لدى الخصم، وفتح النفوس قبل فتح البلاد والأجساد.

ولم يتمكن الملك الناصر من الوقوف في وجه جيوش هولاكو وكانت النتيجة احتلال المغول بلاد الشام بأغلبها، وفعلوا بها الأفاعيل. وبدأوا يتهيؤون للزحف على مصر. وقد حدث آنذاك أن انقضى الحكم الأيوبي في مصر وافتتح العهد المملوكي فيها السلطان الملك المظفر قطز رحمه الله. وكان حكمه بداية عهد جديد في تاريخ الشرق، وبشكل خاص في تاريخ الغزو المغولي للعالم الإسلامي. ذلك أن في عهد هذا السلطان القصير تحول المد المغولي إلى جزر وهزم المغول لأول مرة في تاريخهم، وأدرك الناس أن هؤلاء الهمج يمكن قهرهم، وأنهم قهروا بالفعل وقتلوا وشردوا، واسترجع المماليك منهم بلاد الشام بأسرها، وزال ذلك الوهم الذي ركب النفوس، وتمكن الملك قطز وأنصاره أن يحرروا نفوس البشر من الخوف من المغول قبل أن يحرروا البلاد، وكان انتصارهم العظيم في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ فاتحة سلسلة من المعارك خاضوها ضد المغول وحطموا

أسطورتهم وكبرياءهم وقواهم، وطهروا بلاد الشام منهم، وأنقذوا الإسلام والمسلمين من شر وبلاء عظيم. وعاد دين الإسلام غض الإهاب، ولذلك حق اعتبارها من المعارك الفاصلة في التاريخ، وحق تقدير الأبطال الذين خاضوها وتمكنوا أن ينزلوا الهزيمة بأوحش جيش عرفه التاريخ يغزو هذه البلاد.

ولقد افتتح هولاكو، كالعادة، حروبه صد سلطان مصر قطز برسالة حملها رسله لا تحوي إلا الوعيد والتخويف والترهيب وتطلب الاستسلام، ويضرب لهم الأمثال بمن عصى وما حل بهم نتيجة لعصيانهم، ثم يطلب إليهم التسليم لأمره والخضوع لحكمه، وإلا فالويل لهم: فمن طلب حربنا، ندم، ومن قصد أماننا، سلم، فإن أنتم بشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم... فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الإهانة ما لملوككم عندنا سبيل [١]...

ولكن هذا الخطاب الشديد المملوء بالترهيب والوعيد لم يؤثر في أعصاب السلطان قطز وأتباعه. ذلك أنهم أدركوا أنهم هم حماة الإسلام والحضارة، وأن على قرارهم يتوقف مصير أمة ومدنية. ولذلك بحثوا الأمر من كل وجوهه، وتوصلوا بالإجماع إلى ضرورة حرب المغول، فذلك أفضل من التسليم والخضوع إلى حكم حاكم مخادع غادر لا يفي بالعهد مثل هولاكو. ذلك أن السلطان قطز جمع أمراءه وقواده وتشاور معهم فيما يجب أن يفعل. ولقد كان من الممكن أن يطمئن القوم إلى هولاكو ويدخلوا تحت حكمه لو كان إنساناً وفياً بالعهد: إنه (أي هولاكو) ليس بالإنسان الذي يطمأن إليه، فهو لا يتورع عن احتزاز الرؤوس، وهو لا يفي بعهده وميثاقه؛ فإنه قتل فجأة خورشاه والخليفة وحسام الدين عكة وصاحب إربل بعد أن أعطاهم العهد والميثاق. فإذا ما سرنا إليه فسيكون مصيرنا هذا السبيل [٢].

---

(١) المقريزي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١، ق ٢، ٤٢٧ ـ ٤٢٩.

(٢) الهمذاني. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٢، ق ١، ٣١١ ـ ٣١٣.

ويقول السلطان قطز لأتباعه بعد سماع العبارة التالية من أحدهم: والحالة هذه فإن كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع، وأصبحت البلاد من بغداد حتى الروم خراباً يباباً... وينبغي أن تختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحداً من ثلاثة: الصلح، أو القتال، أو الجلاء عن الوطن. أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر، ذلك لأنه لا يمكن أن نجد لنا مقراً إلا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة.

فأجاب نصر الدين قيمري:

وليس هناك مصلحة أيضاً في مصالحتهم إذ أنه لا يوثق بعهودهم.

عندئذ قال قطز: إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال، فإذا ظفرنا فهو المراد، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق.

واتفق الأمراء على ذلك [١].

ولقد لجأ قطز إلى تدبير حكيم رفع به روح شعبه وقواده المعنوية، ذلك أنه أمر بصلب رسل المغول الذي أرسلهم هولاكو فصلبوا بالليل [٢].

ولقد تقدم الجيش المملوكي إلى حرب الجيش المغولي، وجعلوا شعارهم في حربهم هذه: واإسلاماه، ودارت المعركة الفاصلة في عين جالوت في فلسطين. وهناك قدر الله أن تنتصر الحضارة على الهمجية، والإسلام على الوثنية، والإنسانية على البربرية. وذاق جيش المغول الذي كان بقيادة كيتوبوقا لأول مرة كأس الهزيمة المرة، وشربوا من الكأس التي أسقوها مراراً للآخرين، وسقط كيتوبوقا نفسه قتيلاً في المعركة. وحررت هذه المعركة نفوس البشر من الخوف القاتل الذي سيطر عليها، ومن الوهم الكبير الذي اعتراها، وهُزِم الجيش المغولي

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

الذي لا يقهر، ودفع المغول ثمن غرورهم وجبروتهم ولا إنسانيتهم غالياً جداً، وكانت نتائج هذه المعركة أن حفظت لمصر وبلاد الشام وحدتها وأعادت للإسلام وجهه الأبيض، وأحيت الآمال وحررت البلاد والعباد، وأعادت الثقة بالنفس لحكام مصر وبلاد الشام، وكانت الأساس في تدعيم حكم المماليك في مصر وسورية. ونجد صدى هذا الانتصار العظيم في الرسالة التي وجهها قطز إلى صاحب اليمن الملك المنصور يخبره بما حدث في ذلك اليوم الأغر: فصدرت هذه التهنئة إليه رواية للصدق عن اليوم المحجل الأغر [1]... وقتل من المشركين كل جبار عنيد. ذلك لما قدمت أيديهم وما ربك بظلام للعبيد [2].

ولقد استمرت المعارك بين المغول والمسلمين في بلاد الشام زمن خلفاء قطز ولا سيما الملك الظاهر بيبرس والملك المنصور قلاوون. ولقد بلغ من شهرة الملك الظاهر بيبرس وقوته وهيبته أن لجأ إلى مساعدته بركة خان ليساعده ضد أخيه هولاكو في صراعه معه [3].

ولقد دار الزمان دورته، وأصبح ملوك الإسلام يصبون الهزائم على رؤوس المغول وملوكهم، كما فعل الظاهر بيبرس لما حارب المغول وهزمهم هزيمة منكرة في بلاد الروم، وأراد ملكهم أبا قاخان أن يثأر لهذه الإهانة التي لحقت به فأرسل رسالة تهديد وسباب إلى الملك الظاهر [4]. ولكن السلطان أجابه أنه سيظل محارباً لهم حتى يستعيد جميع بلاد الخليفة التي احتلها المغول وسائر أقطار الأرض [5].

---

(١) القلقشندي، المصدر المذكور آنفاً. جـ ٧، ٣٦٠ - ٣٦٢.

(٢) نفس المصدر.

(٣) ابن كثير. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١٣ - ٣٣٨.

(٤) الهمداني، المصدر المذكور آنفاً. جـ ٢، ق ١ ص ٦٣ - ٦٤.

(٥) ابن كثير. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١٣ - ٢٥٤.

كما وأن السلطان الملك المنصور قلاوون انتصر انتصاراً مؤزراً على الجيش المغولي الذي غزا سورية سنة ٦٨٠ هـ، فتصدى له السلطان ونشبت بين الطرفين معركة كانت غرة في جبين الدهر، وحقت الهزيمة على الجيش المغولي وجرح قائده وقتل قواده وأفراده، وكانت المعركة ظاهر حمص. وكانت معركة رهيبة حقاً قادها السلطان المملوكي بنفسه، وحول بشجاعته وثباته وحسن قيادته وهيبته الهزيمة إلى نصر مؤزر، وحرر البلاد الواقعة غربي الفرات تحريراً كاملاً من المغول وجيوشهم. ونجد صدىً طيباً لهذه المعركة في رسالتين الأولى: أرسلها السلطان نفسه إلى نائبه في دمشق يبشره بهذا النصر العظيم، الرسالة آية في البلاغة والفصاحة والإيجاز: نعلمه أنا ضربنا مصافاً مع العدو المخذول... وكان العدو المخذول على ظاهر حمص في مائة ألف فارس أو يزيدون والتحم الناس من ضحوة النهار إلى غروب الشمس ففتح الله ونصر، وساعدنا بمساعفة القدر ونصرنا، والحمد لله على أن أذل الأعداء وكسرهم، وظفر المسلمون ونصرهم، وكتابنا هذا والنصر قد ضربت بشائره وحلق طائره وامتلأت القلوب سروراً. وأولى الله الإسلام من تفضله علينا وعليهم خيراً كثيراً [١].

أما الرسالة الثانية: فهي رسالة مطولة من إنشاء كاتب الإنشاء محيي الدين بن عبد الظاهر أرسلها ولي عهد قلاوون الملك الصالح باسمه واسم والده إلى ملك اليمن الملك المظفر جواب رسالة أرسلها هذا لقلاوون مهنئاً بهذا النصر العظيم. وهي قطعة أدبية رائعة بما حوت من بلاغة وفصاحة وتشبيهات واستعارات وسجع وبيان وترصيع ومحسنات بديعية، كل ذلك بأسلوب متين جزل يذكرنا بأسلوب القاضي الفاضل: ويستفتح بذكر نعمى أصبح لطف الله بها على كل مؤمن في أقاصي الأرض يمتن، وهي النعمة التي عاد بها عمر الإسلام فتياً وكوكب سعده مضياً ويوم نصره بدرياً [٢].. وذلك بأن التتار المخذولين جمعوا

(١) اليونيني، قطب الدين. ذيل مرآة الزمان جـ ٤ ص ٩٥ - ٩٦.

(٢) ابن الفرات. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٧ ص ٢٢٣ - ٢٢٤

كل من اعتقدوا في ظنهم أنه يهزم الجمع بمفرده، وانتخبوا كل شجاع لا يألف غير ظهور الخيل الجياد من يوم مولده[1].. فلما قربوا من حماة المحروسة واستدنتهم حمص لقراها وثب لهم مولانا السلطان وثبة شيبت منهم الوليد، وأقدم عليهم إقداماً كان مساوقه فيه مصنفه خالد بن الوليد، وأردفته الملائكة بنجدها، وكاثرته الملوك بعددها وعددها[2].. وثبت مولانا السلطان ثبوتاً ما سمع أن سلطاناً ثبته، واطلع الله على ما نواه من نصر الدين، فتقبله بقبول حسن وأنبته. وكان العدو في مائة ألف مقاتل.. فصبروا على حر العلاقم، ورأوا الموت خيراً لهم من الهزائم، فلم يفلت منهم إلا من استمهل السيف ساعة من نهار، وفر بعضهم والموت يقول لهم: قل لن ينفعكم الفرار[3]... ولم يفلت منهم إلا من تخطفته طيور الخيل في كل معبر وطريق، ومن هوت به الريح في مكان سحيق[4]... وثنى مولانا السلطان العنان وملوك المغول الأسرى يساقون بين يديه سكارى وما هم بسكارى... ووصلت الأخبار السارة بذلك فعمت بالتهاني الوجود، وضربت البشائر في كل صوب، وحلقت الملائكة حتى الأفق حلق بالبرود والسماء ضربت فيها البشائر بالرعود[5]...

المغول المسلمون:

ولقد حدثت حادثة مهمة في الربع الأخير من القرن السابع الهجري ألا وهي اهتداء المغول، أو القسم الأكبر منهم إلى الإسلام. ولقد كان لهذا الحدث أهميته، إذ كان من المفروض أن يصبح المغول أنصاراً لهذا الدين وأن يدافعوا عنه بعد أن كانوا يهاجمونه. ولكن الذي حدث أن المغول، الذين أنزلوا

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

(٥) نفس المصدر.

بالإسلام والحضارة الإسلامية والمسلمين ضربات قاصمة، ودمروا بلادهم وحضارتهم وأزالوا سلطانهم من على مساحة واسعة من ديار الإسلام، اعتنقوا الإسلام، وقد فقد المسلمون قواهم، وقد تقوض بنيان الحضارة الإسلامية، وفقدت تألقها وأصالتها وبدأت في الانحدار. فلم تكن الحضارة الإسلامية ولا الدعوة الإسلامية في حالة تمكنها أن تبعث في نفوس هؤلاء المعتنقين الجدد النواحي الإيجابية التي تقود إلى الأصالة وإلى المساهمة في رفع شأن الإسلام كدين والمساهمة في بناء صرح الحضارة الإسلامية، وذلك لأنهم اعتنقوا الإسلام وتبنوا المؤسسات الإسلامية التي وجدوها، وتابعوا الخط الحضاري الذي وجدوه، وقد أصاب جميع هذه المؤسسات الخراب والتدمير والوهن والجمود والانحراف. ولما لم يكن عند المغول أصالة ذاتية، تمكنهم من سد الثغرات الواسعة التي أحدثها هجومهم المدمر على العالم الإسلامي، لذلك لم يكن بمكنتهم أن يحرفوا الخط الحضاري عن مسيرته، وتابعت الحضارة الإسلامية تدهورها، ولم يفعل المغول المسلمون شيئاً لإيقاف هذا التدهور، بل لعلهم زادوا فيه وكانوا عاملاً في زيادة سرعته.

ولقد أثبت المغول، سواء أكانوا وثنيين كهولاكو وجنكيزخان وأولادهما، أم مسلمين كغازان وتيمورلنك، أنهم أعداء ألداء للحضارة وللإنسانية وللعمران وللجنس البشري. وأن أفعال غازان وتيمورلنك في بلاد الشام تذكرنا بأعمال هولاكو، بل تفوقها وحشية ولاإنسانية. وإذا كان المغول الوثنيون، قبل تيمورلنك المغولي المسلم، يدمرون المدن ويقتلون السكان، فإن تيمورلنك كان يمحو المدن محواً ويستأصل المسلمين استئصالاً، لذلك لم يؤثر تحول المغول إلى الإسلام تأثيراً يذكر في تغيير نفسية الفاتحين أو عقليتهم، وظلوا على عدائهم القديم للحضارة والإنسانية. نستثني من هذا الحكم مغول الهند الذين أسسوا امبراطورية المغول الكبرى في الهند، وتبنوا الحضارة، وأسسوا مدنية رائعة ظلت مزدهرة حتى القرن التاسع عشر.

وحتى تتضح الصورة تماماً نوازن بين اعتناق السلاجقة الإسلام واعتناق المغول الإسلام. فكلا الشعبين أتى من أواسط آسيا، وكلاهما كان شعباً بدوياً لم تصقله الحضارة، وكلاهما اعتنق الإسلام. ولكن شتان بين تأثير الإسلام في نفوس السلاجقة وتأثيره في نفوس المغول. فقد تفاعل الإسلام في نفوس السلاجقة، وأصبحوا من حماة الإسلام والحضارة الإسلامية وقدموا للدين الإسلامي والمدنية الإسلامية أجل الخدمات، على حين لم يكن لهذا الدين وهذه الحضارة إلا أثر سلبي في نفوس هؤلاء الهمج من المغول، وأثبتوا أنهم أعداء ألداء لكل القيم الإنسانية سواء أكانوا وثنيين أم مسلمين.

وأول من اهتدى من ملوك المغول إلى الإسلام وأعلن ذلك هو السلطان أحمد بن هولاكو الذي أعلن ذلك في منشور أصدره لما جلس على العرش سنة ٦٨٠ هـ ووجهه إلى أهل بغداد خاصة(١). كما وأنه أرسل رسالة شهيرة في هذا المعنى إلى السلطان الملك المنصور قلاوون سلطان مصر وسورية المملوكي يعلن اهتداءه إلى دين الإسلام، ويدعو إلى السلم ونبذ الحرب ويطلب منه فتح أبواب الطاعة والاتحاد، وبذل الإخلاص بحيث تنغمر تلك الممالك والبلاد، وللبرهنة على حسن نيته وسلوكه وجنوحه للسلم يخبر سلطان مصر أن جنوده أمسكوا جاسوساً من جواسيس السلطان بزي الفقراء فأطلق سراحه مبرهناً بذلك على خلوص نيته وهو يخاطب سلطان مصر بضمير الغائب الجمع... وأعدناه إليهم... ولا يخفى عليهم(٢) كما وأنه يذكر أنه أصدر أمره إلى حرس الحدود أن يكفوا عن الهجوم على أملاك السلطان. والملاحظ في خطاب السلطان أحمد إلى قلاوون لهجة الاستعلاء الناتجة عن شعوره بالنفوق. وكتابه هذا يحمل طابع الوثنية المغولية على الرغم من أسلوبه الإسلامي وورود عدد من الآيات القرآنية

(١) ابن عبد الظاهر، محيي الدين، تشريف الأنام والعصور في سيرة الملك المنصور. تحقيق مراد كامل. القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٩م. ص ٤.

(٢) نفس المصدر ٦ ـ ١٦.

فيه. ولقد كان رد ملك مصر مثلاً بليغاً عالياً على الدبلوماسية والفهم والعزة والكرامة. وقد رد في رسالته على جميع بنود رسالة السلطان المغولي فهـو يعلن سروره لإسلام الملك. ويذكر له أن الله تعالى أراد به الخير إذ هداه للإسلام. وهو يخاطبه بضمير الغـائـب المفـرد: وأن ينبـت حَـبَّ حُـبَّ هـذا الديـن في قلبه [1]... بعد ذلك يغمزه غمزة ذكي معلم معود على أمثال هذه الغمزات ذلك أن الملك المغولي يخبر قلاوون أن مجلس المغول الأعلى قرر إرسال الجيش المغولي العظيم إلى بلاد الشام لحرب قلاوون وإزالة سلطانه، ولكنه، أي أحمد، باعتباره مسلماً ولا يجوز للمسلم أن يحارب أخاه المسلم أوقف هذا القرار وأرسل يخبر بذلك قلاوون ممتناً عليه. ولكن جواب قلاوون كان حاسماً في هذا الباب!... وأنه (أي أحمد) أطفأ هذه النائرة وسكن تلك الثائرة، فهذا فعل الملك المتقي المشفق من قومه على من بقي، المفكر في العواقب بالرأي الصائب. وإلا فلو تركوا وآراءهم حتى تحملهم العزة لكانت تكون هذه الكرة هي الكرة [2]... ثم يرد عليه قوله: إنه لا يحب المسارعة إلى المقارعة إلا بعد إيضاح المحجة وتركيب الحجة، فبانتظامه في سلك الإيمان صارت حجتنـا وحجتـه المتركبة، وعلى مـن غـدت طواعيته عن سلوك هذه المحجة متنكبة [3]... وحيث قد دخل معنا في الدين هذا الدخول فقد ذهبت الأحقاد وزالت الدخول [4]... ثم يعتب عليه فخره بإقامة شعائر الإسلام من العدل والإحسان وإصلاح الأوقاف والمساجد وتسبيل سبل الحج... ويخبره أن هذه أوجب واجبات الملك المسلم: بل تفخر الملوك الأكابر برد ممالك على ملوكها، ونظمها على ما كانت عليه في سلوكها [5]. ثم

---

(١) نفس المصدر.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر.
(٥) نفس المصدر.

يخبره أنه أصدر أمره إلى قواته في بلاد الشام بألا يتعرضوا لحرس الحدود المغوليين طالما أن هؤلاء لا يتعرضون لهم وأنه سمح بحرية الانتقال بين البلدين. بعد ذلك يتعرض لذكر الجاسوس الذي اعتقل في بلاد السلطان أحمد ويخبره أن المغول هم الذين بدؤوا إرسال الجواسيس إلى بلاد الشام ومصر. ويعتب قلاوون على أحمد استشهاده بقوله تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ ويقول له: فما على هذا السبيل ينهج[1]... كذلك يخبره أن رئيس الوفد الذي حمل الخطاب إلى السلطان أخبره مشافهة برغبة السلطان أحمد في الاتفاق ورضاه بما في يده وبكف الأذى عن الرعية وعدم الإغارة من الطرفين، وإذا أصر قلاوون على الإغارة فيطلب منه السلطان أحمد تعيين مكان اللقاء ويعطي الله النصر لمن يشاء. ويرد عليه قلاوون مذكراً بالهزائم التي صبها هو وبيبرس على رؤوس أسلافه وأن المغول يخافون لقاءه وأن موعد ومكان اللقاء علمه عند الله تعالى[2] كذلك يعود أحمد في رسالة ثانية إلى قلاوون، يفتخر بأسلافه المغول الوثنيين من عهد جده جنكيـزخان حتى عهده هو[3].

ولم تتبدل نفسية ولا سلوك من أتى بعد السلطان أحمد من سلاطين المغول، بل ظلوا يتطاولون على بلاد الشام ومصر ويحاولون التوسع في تلك البلاد، فقد أرسل ملك المغول كيختوا إلى السلطان الأشرف خليل رسالة يطلب منه أن يعيد له حلب لأنها مما فتحه هولاكو وهو يريد الإقامة فيها ويقول له: إن رفض ذلك فسيأخذ الشام كله منه. ولقد أجابه السلطان على أن ذلك وافق ما في نفسه.. فإني كنت على عزم من أخذ بغداد وقتل رجاله، فإني أرجو أن أردها دار إسلام كما كانت...[4].

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر ٦٩ ـ ٧١.

(٤) المقريزي: المصدر المذكور آنفاً. جـ ١، ق ٣ ـ ٧٨٦.

غـازان:

ولقد كان سلوك القان قازان أو غازان كما يسمى أحياناً، وهو المدعي للإسلام، كسلوك أسلافه الوثنيين، أو هو أسوأ بكثير، لأن أولئك كانوا وثنيين، أما هذا فقد ادعى الإسلام واعتنقه واعتقده، ومع ذلك فعل بالمسلمين في بلادهم ما لم يفعله إلا أسلافه الوثنيون. فقد هاجم بلاد الشام واجتاحها ووصل في زحفه إلى دمشق واحتلها، وفعل بها القبائح، وأرسل رسالة إلى السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون يشرح ما حصل ويعلن أنه هو المؤمن المسلم حقاً وأنه احتل بلاد الشام لدفع عدوان المماليك. ثم بعد ذلك لا يخجل أن يقول: والآن فإنَّا وإياكم لم نزل على كلمة الإسلام مجتمعين، وما بيننا ما يفرق كلمتنا، إلا ما كان من فعلكم بأهل ماردين، وقد أخذنا منكم القصاص، وهو جزاء كل عاص، فنرجع الآن إلى إصلاح الرعايا، ونجتهد نحن وإياكم على العدل في سائر القضايا[1]... وقد غفل هذا السلطان عن أنه يخاطب بهذه اللهجة التي لا يخاطب بها رئيس عصابة ملكاً عظيماً ومحارباً ممتازاً من ملوك المماليك. ولقد كان رد السلطان ناصر حاسماً في الموضوع. فقد أخبره أنه يعرف جميع حركات وسكنات الملك المغولي لأن أقرب ثقاته هم عيون السلطان ناصر عليه. ويخبره أنه لم ينتصر على جيوشه إلا لامتناعهم عن حربه لما سمعوا كذباً، أنه وجنده مسلمون، ثم يذكره بالمعارك الطاحنة التي دارت بين المماليك وبين المغول من عهد السلطان قطز حتى عهده هو، والهزائم القاصمة التي ألحقوها بهم وبجيوشهم. ثم يرد عليه ادعاءه أنه اعتقد الإسلام قولاً وفعلاً ويقول له: إن ما اقترفته يداك ويدا جيوشك في دمشق وبيت المقدس ينقض دعواك من أساسها...وحرم بيت المقدس تشرب فيه الخمور وتهتك الستور وتفتض البكور... ثم على رأس خليل الرحمن تعلق الصلبان... فإن كان هذا من علمك ورضاك فواخيبتك في دنياك

---

(١) ابن تغري بردي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٨ ص ١٤٢ - ١٤٦.

وأخراك... وإن كنت لم تعلم ذلك فقد أعلمناك، فاستدرك ما فات فليس مطلوباً به سواك[٢] ...

ولقد تتابعت الرسائل بين الطرفين وكلها تدور حول نفس المعنى والموضوع: تهديد من غازان واستعداد للحرب واتهام للسلطان ناصر وللماليك وجيوشهم بالكفر ومخالفة الإسلام، وأن المغول وملكهم هم المدافعون الحقيقيون عن الإسلام، وأن ما فعلوه في بلاد الشام نتيجة طبيعية لعدوان بعض عساكر الملك الناصر على حدود بلاد الملك قازان[١]... ولقد رد الملك الناصر التحية بأفضل منها ورد على الملك غازانْ تهجمه واتهمه بالمروق من الدين وذكره بأمجاد المماليك السابقة وحذره وأنذره[٢].

ويدل المرسوم الذي أصدره قازان لما احتل دمشق على رغبة في تحسين أوضاعه مع الشعب عن طريق إعلان أن المماليك كفرة فجرة، وأن المغول وهو بالذات، قد نور الله تعالى قلوبهم بنور الإيمان والإسلام، وأنهم هم أنصار الإسلام الحقيقيون ومنفذو تعاليمه السمحة، مع استشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ثم يعلن تأمين السكان على أموالهم وأنفسهم وأملاكهم وأهليهم وأعراضهم. ويحرم على العساكر الهجوم عليهم أو التعرض لهم بأذى. كما وأنه يعلن حماية الأقليات الدينية حماية تامة كالنصارى واليهود والصابئة، ثم يطلب من جميع الرعايا الاستبشار بهذا النصر الهني والفتح السني... مقبلين على الدعاء لهذه الدولة القاهرة والمملكة الظاهرة آناء الليل وأطراف النهار[٣].

ولقد ظن غازان أن الشام طاب له فتحه، ولكنه كان واهماً، فقد عجز عن

---

(١) القلقشندي، المصدر المذكور آنفاً، جـ ٨ ص ٦٩ - ٧١.

(٢) نفس المصدر. جـ ٧ ص ٢٤٣ - ٢٥٠.

(٣) الدواداري. أبو بكر بن عبدالله بن أيبك. كنز الدرر وجامع الغرر وهو الدر الفاخر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق هانس روبرت رويمر. القاهرة ١٩٦٠م ٢٠ - ٢٢.

احتلال قلعة دمشق، وأساء جنده وحكامه السيرة، وثار الشعب ضده، ورفض كثير من حكام المماليك في سورية التعاون معه، ثم أتته الضربة القاصمة على يد جيش المماليك الذي حارب جيش غازان المغولي وانتصر عليه بقيادة الملك الناصر في معركتين هما من أكبر المعارك التي خاضها المماليك ضد المغول: الأولى معركة مرج الصفر سنة ٧٠٢ هـ والثانية معركة شقحب سنة ٧٠٣ هـ. ولقد أرسل الملك الناصر إلى غازان رسالة تهكمية تقريعية بعد انتصاره العظيم على جيوشه وبعد تحطيمها وتحرير الشام منها. وهو يذكره في رسالته ببغيه وخداعه ونفاقه وادعائه ما ليس به: فهو يرسل الرسل من أجل تقرير قواعد الصلح، وفي نفس الوقت يحشد الجنود للحرب والهجوم. ولكن الله تعالى نصر السلطان المملوكي عليه لبغيه وكذبه وتدليسه. وبعد أن يذكر له سير المعركة يخاطبه بقوله: فلو رأيت، أيها الملك، عساكرك، إما ذليلاً أسيراً، أو جريحاً عقيراً. وكان يوماً على الكافرين عسيراً... وعاد أصحابك طعاماً للذئاب، لعضضت على يديك وقلت: يا ليتني كنت تراباً[1]... فبادر، أيها الملك، إلى حمد الله العادل الذي لم ير عينك هذه المحافل، ومرورها على سمعك أهون من العيان[2]... ثم يقول له إن جنوده دخلوا الديار المصرية ولكن على غير حالة مرضية. أما الخيول فعلى أيدي عساكرنا مجنوبة، والطبول في أعناقهم مقلوبة، وأما الرجال ففي أعناقهم الحبال والسلاسل والأغلال، فعادت مغلك كالكلاب في أيدي أسود الغاب... ثم يختم رسالته بهذين البيتين من الشعر:

وإن كان أعجبكم عامكم فعودوا إلى الشام في قابل
فإن السيوف التي ورخت مواقعها في يد القاتل[3]

(١) نفس المصدر ١١٩ - ١٢٢.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.

تيمورلنك:

نصل الآن، في بحثنا، إلى آخر الغزاة المغول الذين لهم يد طولى وقدم راسخة في تدمير الحضارة الإنسانية وعداء الجنس البشري. ذلك أن هذا الغازي الذي خرج من أواسط آسيا استطاع أن يشق طريقه غرباً على أبراج جماجم الجنس البشري وعلى أنقاض المدن، وكان سلاحه الرئيسي في ذلك قسوة مفرطة وبربرية لا مثيل لها في التاريخ. وكانت الحرائق والمذابح والتدمير والقتل الجماعي والإبادة ترافق هذا المغولي وجيوشه، وقد ملأ بلاد آسيا الوسطى والغربية قتلى وأشلاء وأكداس من الجماجم وخرائب وسلباً ونهباً، بحيث لا نكون مغالين إذا اعتبرنا هذا الرجل أكثر غزاة التاريخ فظاعة وفظاظة وبربرية وعداء لكل القيم الإنسانية. وعلى الرغم من أنه مسلم، أو يدعي المؤرخون أنه مسلم، إلا أنه فعل في بلاد الإسلام وفي المسلمين ما لم يفعله غازٍ قبله ولا بعده. فقد فاق في وحشيته أسلافه المغول من أمثال جنكيزخان وهولاكو. كما وأنه فاق في هذا المجال لصوص الصليبيين وقتلتهم، ولم يبزه في هذا المجال أحد من مجرمي الحروب الذين حفل بهم التاريخ الحديث، ولا سيما تاريخ العرب الحديث. وقد تمكن هذا الغازي، بجبروته وقسوته المتناهية، وبما بثه في قلوب الشعوب والحكام من رعب، أن يبسط سلطانه على مساحات شاسعة من الأرض تمتد من أواسط آسيا حتى شواطىء البحر الأبيض المتوسط. ولكن هذه الامبراطورية المبنية على الخوف والرعب والأشلاء والحقد لم تلبث أن انهارت مثل كومة من القش بعيد وفاة المؤسس لها، ولم يبق من هذه الامبراطورية إلا اللعنات تصب على رأس أكبر سفاك للشعوب عرفه التاريخ.

ولقد اتصل تيمورلنك بالأتراك العثمانيين في الأناضول وملكهم بيازيد وتغلب عليهم واحتل بلادهم، كما اتصل بالمماليك وملكهم الظاهر برقوق سلطان سورية ومصر أواخر القرن الثامن الهجري. ولقد ظل تيمورلنك متردداً في

الهجوم على بلاد الشام طيلة حياة الملك الظاهر، ولم يجرؤ على مهاجمتها إلا بعد وفاته وبعد أن استلم ابنه الناصر فرج، عرش السلطنة. ولقد دارت مراسلات كثيرة بين تيمورلنك وبين ملوك المماليك. وكالعادة افتتح علاقاته بالمماليك برسالة تهديدية يطالب الملك برقوق فيها بالخضوع المطلق لملك الملوك سيد الخلق، وإلا فمصيرهم مصير الأمم التي قاومت تيمورلنك: وإن خالفتم وعلى بغيكم تماديتم فلا تلوموا إلا أنفسكم، فالحصون منا.. لا تمنع، والمدائن بشدتها لقتالنا لا ترد ولا تنفع[1]. إلى غير ذلك من العبارات التي تذكرنا بما كان يرسله أسلافه ملوك المغول، ولا سيما غازان وأحمد إلى سلاطين المماليك.

ولقد كان جواب سلطان المماليك الملك الظاهر برقوق مناسباً كل المناسبة لخطاب تيمور وتهديداته. فهو لم يأبه له ولا لتهديداته، ولم يخاطبه إلا بالأمير تيمور وأجابه بنفس لغته، ورد على أقواله فقرة فقرة، وأخبره أنه كافر وعدو للإنسانية وأنه ملعون بكل لسان وبكل دين: وأما قولكم: قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال، فالقصاب لا يبالي بكثرة الغنم، وكثير الحطب يغنيه الضرم. وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين[2]

ولقد استمرت المراسلات بين تيمورلنك وبرقوق. والذي يبدو لنا من هذه المراسلات أن هدف المغول من ذلك مزدوج، فالرسول، أو بالأحرى الرسل لم يكونوا رسلاً بالمعنى الحرفي للكلمة، إنما كانت مهمتهم استكشافية تجسسية، وهذا يفسر كثرة قتل المماليك لرسل المغول، لأنهم جواسيس بالحقيقة أكثر من كونهم رسلاً. كما وأن أغلب رسائل تيمور خاصة كانت خالية من شيء معين، وإنما غايتها جس النبض وإشاعة القلق والخوف من الخصم، وبكلمة أخرى كانت جزءاً من حرب نفسية يشنها على أعدائه قبل بدء الحرب الحامية الفعلية

---

(١) ابن تغري بردي. المصدر المذكور آنفاً. ١٢ جـ ٤٩ ـ ٥٠.

(٢) نفس المصدر. جـ ١٢، ٥١ ـ ٥٢.

بين الطرفين. وتدل أجوبة برقوق على شخص متمكن من موقفه، واثق من نفسه لم يترك للخور أو الجبن أو الخوف إلى نفسه سبيلاً. إلى جانب استعداد للقاء أينما كان ومتى كان، مما جعل تيمورلنك لا يقدم على حربه، وإنما اهتبل فرصة وفاته وتنصيب ابنه القاصر فرج، ملكاً مكانه، وتطاحن القواد والرؤساء وصراعهم حوله من أجل السلطة، فزحف إلى بلاد الشام وشن عليها حرباً ليس لها مثيل في التاريخ بهولها وشناعتها وبعدها عن كل القيم الإنسانية والأخلاقية التي يؤمن بها البشر.

وعلى الرغم من أننا نملك بين أيدينا نص رسالة جوابية من برقوق إلى تيمورلنك دون رسالة تيمور له، إلا أننا نستطيع أن نحزر مضمون رسالة تيمورلنك له من جواب برقوق ذلك أن برقوق في جوابه يرد على كل فقرة من فقرات رسالة تيمور بفقرة تماثلها وتفند ما رد فيها وتنقضها.

فنحن نعلم أن تيمورلنك افتتح رسالته لبرقوق بالتهديد والإنذار والإرعاد، ويرد عليه برقوق بأنه اطلع على ذلك[1]. ثم نعلم أن تيمورلنك أرسل إلى برقوق هدية هي عبارة عن سيف وترس. ويعجب برقوق غاية العجب من هذه الهدية، لأنه لم تجر عادة أحد من ملوك المغول أن أهدى أحد أعدائه مثل هذه الهدية... لأنك لم تزل في كتبك كلها تستشهد بتاريخ جنكيز خان وأخباره وأحواله... وما سمعنا في التواريخ ولا اتفق قط من جنكيز خان ولا ممن تقدمه وتأخره من ملوك مملكته في زمن من الأزمان أنه أهدى إلى خادم الحرمين الشريفين سيفاً ولا تركاشاً[2]. ثم يرد عليه بقوله: إنه (أي تيمور) فتح معه باب المحبة والوداد والصحبة والاتحاد لا باب المخاصمة والمشاورة والعناد، إنه لو كان صادقاً في دعواه: كنت لما حضر إليك شكر أحمد وأرغون السلامي اللذان هما من بعض

(١) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٧، ٣٠٨ - ٣١٩.

(٢) نفس المصدر.

مماليكنا... أمسكتها وجهزتها إلينا بعد أن قيدتها، فما فعلت ذلك بل عملت بالضد منه لأنك آويتها وحميتها وعظمتها وأكرمتها[1]... كما وأن تيمور أكرم أحد أمراء العرب من أعداء برقوق، واسمه نصير، وراسله وعظمه ووعده بالنصرة، بل إن برقوق يورد في رسالته نص رسالة أرسلها تيمورلنك إلى نصير هذا[2].

ولقد طلب تيمورلنك من برقوق، في رسالته أن يسلمه السلطان أحمد الجلايري الذي لجأ إلى برقوق لما احتل تيمور بلاده. ويرد عليه برقوق متسائلاً عن الذنب الذي اقترفه أحمد ضد تيمورلنك حتى يطلبه هذا الطلب، وهو الذي حلف له مراراً كثيرة أغلظ الأيمان بالله تعالى على الأمان له ولبلاده ثم غدر به شر غدرة واحتل بلاده وشرده وأسر نساءه وحريمه. ثم يقرعه برقوق قائلاً: ففي أي مذهب من المذاهب يحل لك أخذ حريم المسلمين وإعطاؤهن لغير أزواجهن؟[3] ... ثم يخبره أن السلطان أحمد قد استجار به، وحق الجوار محفوظ ومكرم ومقدس في الإسلام ولدى الملوك، ولا سيما إذا كانوا من جنس واحد.

ثم يبدأ بالتهكم عليه عندما ذكر له أن صاحب تكريت كان لصاً قاطع طريق ففعل به ما فعل، فيقول له برقوق بتهكم لاذع: أفأهل بغداد كانوا حرامية قطاع طريق حتى فعلت بهم ما فعلت؟ وقتلت منهم من التجار خاصة ثمانمائة نفس في المصادرة بالعقوبة والعذاب... كيف تدعي أنك عادل وتعمل بأهل بغداد المسلمين الموحدين وبغيرهم من المسلمين هذه العمائل[4].

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

ثم يتابع تهكمه عليه ويتحداه عندما هدد تيمور برقوق بالزحف عليه إن لم يرسل له السلطان أحمد الجلايري فيخبره أنه مستعد لمقابلته أينما شاء ومتى شاء، وأنه كان متوقعاً قدومه من زمن طويل[1]

ويرد على عتاب تيمورلنك له لإساءة معاملة رسول أرسله تيمورلنك له بأنه لم يكن رسولاً وإنما كان جاسوساً يكتب المنازل منزلة منزلة. وطلب من حاكم الرحبة المصري أن يقبل الأرض للأمير تيمور وأن يقرأ الخطبة باسمه، ولذلك فعل به ما فعل لأنه ليس برسول بل تجاوز مهمة الرسول[2]. ويأخذ عليه افتخاره بكثرة جيشه ويقول له أنه (أي برقوق) يستمد مدده واعتماده على الله تعالى الذي يهب النصر لمن يشاء من عباده. ويختم رسالته برد تهديد تيمورلنك له بخراب الديار ويخبره أن الذي يتكلم عن خراب الديار هو الذي تخرب دياره[3].

ولقد هاجم تيمورلنك بلاد الشام ودمرها وقتل رجالها وسبى نساءها وفعل بها أفعالاً تدمغه بالكفر والنذالة والوحشية والبربرية. وقد تخلى حكام مصر عن بلاد الشام بسبب الخلاف والتنافس على العرش وعلى من يكون أتابك الملك الصغير ووصيه. ودفعت بلاد الشام ثمناً رهيباً كل الرهبة لهذا الخلاف. ثم بدا للسفاح تيمور أن يعاود المراسلة مع الملك فرج، فأرسل له رسالة يطلب منه أن يرسل له لاجئاً كان لجأ إلى مصر زمن السلطان برقوق. وهنا نجد تغيراً واضحاً جداً في مخاطبة تيمورلنك، فقد خوطب بألقاب الملوك والأباطرة المعظمين، وخلت الرسالة من شيء اسمه تحدٍ أو تهكم أو خلافه، وإنما هي قطعة أدبية تنطق بفضائل تيمورلنك وعظمته، وحتى عندما تعرض فرج لذكر ما لحق دمشق وجامعها على يد المجرم من دمار، لم يوجه كلمة لوم واحدة إلى تيمورلنك.

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

وهو يعلن له أنه كان قد جد في تجهيز الأمير أطلمس لما جاءته الأنباء بتدمير دمشق وقلعتها وجامعها، فاعتقد أن تيمورلنك عدل عن طلب الأمير أطلمش، أما وهو يطلبه فإن السلطان فرج جاد في تجهيزه له. ويؤخذ من الرسالة أن تيمورلنك أقسم بالله الطالب الغالب المدرك المهلك الحي الذي لا ينام ولا يموت أنه إن جُهِّز إليه أطلمش، فإنه يعود إلى بلاده. ويبدو من الرسالة رغبة تيمورلنك في الصلح والتعاضد مع مصر وملكها، وقد رد فرج التحية بأحسن منها، ولم يكن باستطاعته إلا أن يفعل ذلك[1].

بعد ذلك تم عقد الصلح بين فرج وتيمورلنك. وقد تم ذلك على يد وفد أوفده تيمورلنك لهذه الغاية، وحلف كل من الطرفين للآخر على الوفاء، وعلى أن لا يتجاوز أحدهما أو عساكرهما حدود البلد الآخر، وأن ينظر الملكان إلى بعضهما ويتعاملا مع بعضهما على أنهما والد وولد[2].

ولكن هذا الصلح لم ينهِ مطامع تيمورلنك في مملكة السلطان فرج، فقد أرسل له رسالة يطالبه فيها بأن يسلم لنوابه عدداً من بلدان الحدود كأبلستين وملطية والبيرة. وقد رد عليه فرج بأن هذه البلاد خراجها لا يكفيها وأنها صعبة الإدارة، ولكن تسليمها يوهن سلطته ويتعارض مع العواطف التي أبداها تيمورلنك تجاه فرج وأن يعامله كولده، ويتعارض مع الأيمان التي أقسمها، ويتعارض مع دعواته لله تعالى أن يزيد في ملك السلطان فرج[3]!!!.

ولا ندري إن كان تيمورلنك قنع بهذا الجواب أم لم يقنع لأن كتب التاريخ غامضة في هذه المسألة. كما وأننا نجد صدىً لهجوم تيمورلنك على بلاد الشام وما لحقها من قتل وتدمير واستباحة في رسالة أرسلها إلى السلطان فرج صاحب

---

(١) نفس المصدر جـ ٧، ٣١٩ - ٣٢٤.

(٢) نفس المصدر جـ ١٤، ١٠٣ - ١٠٧.

(٣) نفس المصدر جـ ٧، ٣٢٥ - ٣٣١.

فاس السلطان أبو سعيد عثمان المريني، وقد ترامت إلى مسامعه أنباء ما حدث في بلاد الشام فأرسل إلى فرج يستفسره ويعرض عليه المساعدة ويخبره أنه كان مستعداً لإرسال جيوشه التي تسد الفضاء وأساطيله المنصورة: ما يحمد إمداد المناصرة ويرتضى(١) ولكن الله تعالى كفى أمر هـذاالداعية وانسحب الطاغية راجعاً إلى بلاده. ومما يلاحظ، بشكل بارز كل البروز. الألقاب الرفيعة الكثيرة المتتالية المترادفة التي يلقب بها السلطان المريني نفسه والسلطان فرج، حتى إنها فقدت معناها (٢) كما وأنه يصف تيمورلنك أنه: عدو الله وعدو الإسلام الباغي بالاجتراء على عباده سبحانه بالبؤس والانتقام الآخذ فيهم بالعبث والفساد، الساعي بجهده في تهديم الحصون وتخريب البلاد. ولقد رد السلطان فرج التحية بأفضل منها وشرح له الظروف والمناسبات التي أدت إلى حدوث ما حدث، وأن الجيش المملوكي لم يهزم وإنما كان مستعداً تمام الاستعداد لصد تيمورلنك، وتقدم إلى بلاد الشام، وفي تلك الآونة حدثت حركة في القاهرة من أجل العرش، فاضطر الجيش المملوكي إلى الرجوع إلى مصر لقمع تلك الحركة، فاغتنم تيمورلنك خلو البلاد من محام وفعل فعلته الشنعاء. ثم بعد ذلك يخبره بخبر الصلح الذي تم بين الطرفين وعودة بلاد الشام إلى حوزته وعودة الهدوء إلى البلاد. ولا ينسى أن يكيل المدح للسلطان المريني ولنفسه(٣)، وكأنهما هما اللذان أنقذا بلاد الشام من وطأة تيمورلنك، أو هما اللذان أبعداه وطرداه عنها!!!.

---

(١) نفس المصدر.جـ ٨، ١٠٣ - ١٠٦.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.جـ ٧، ٤٠٧ - ٤١١.

العصر المملوكي
٦٥٦ - ٩٢٢ هـ
١٢٥٨ - ١٥١٦ م

ازدهرت الحضارة الإسلامية مدة طويلة نافت على القرون الخمسة، وانتشرت وتأصلت في بقعة واسعة من الأرض هي دار الإسلام من حدود الصين والهند شرقاً إلى إسبانيا غرباً. وتجاوز إشعاعها حدودها هذه حتى وصل إلى قلب أوروبا، وكان لها دور أساسي وكبير في نهضة أوروبا في العصور الحديثة. غير أن هذه الحضارة تعرضت لتحديات كبرى ولهزات عنيفة أتتها خاصة في القرن السابع الهجري من الشرق وتمثل ذلك في الغزو المغولي للعالم الإسلامي، ذلك الغزو الذي دمر الحضارة الإسلامية في مساحات شاسعة من الأرض تمتد من حدود الصين والهند حتى العراق وحتى بلاد الشام. ولقد أزال المغول معظم معالم الحضارة في البلاد التي تعرضت لغزوهم واحتلالهم وقتلوا قسماً كبيراً من السكان ودمروا كثيراً من مظاهر العمران. ولقد تقهقرت أمامهم الحضارة الإسلامية حتى اضطرت للالتجاء إلى مصر وبلاد الشام. ولسنا هنا بصدد بحث الغزو المغولي للعالم الإسلامي، فقد بحثنا ذلك في كتابنا الموسوم باسم ـ وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ـ ولكنا نريد أن نقول: إن بقايا الحضارة الإسلامية وجدت ملجأ لها في بلاد الشام ومصر فترة تنوف على القرنين والنصف، وأن المماليك الذين تمكنوا أن يقفوا في وجه الغزو المغولي وأن يحولوا المد المغولي إلى جزر، أنقذوا بقايا الحضارة الإسلامية ومركزوها في دولتهم التي امتدت أكثر من قرنين ونصف (٦٥٨ ـ ٩٢٢ هـ).

ولقد سبق أن تكلمنا في كتابنا السابق عن جهود المماليك في الحفاظ على وحدة بلاد الشام ومصر وصد الغزو المغولي وإنهاء الوجود الصليبي في بلاد الشام، ولذلك فلن نتعرض هنا لمثل هذه الأمور، ولكنا نود أن نعطي لمحة خاطفة عن المميزات الخاصة للعهد المملوكي كما تبدو من خلال الوثائق الموجودة، ومصادر معلوماتنا عن ذلك العهد وما ماثل ذلك.

والواقع، يمكن تقسيم العهد المملوكي إلى قسمين رئيسيين: عصر القوة والتقدم والحضارة، وعصر التقهقر والانحطاط الذي انتهى بالاحتلال العثماني لبلاد الشام ومصر، ولكل من العهدين مميزاته الرئيسية والحضارية. والواقع هناك انقطاع وتباين تام بين العهدين في كل شيء حتى ليشك الباحث في أن يكون العهد الثاني امتداداً للعهد الأول، وذلك للتناقض بين العهدين. فقد امتاز العهد الاول بنشاط حربي واسع عظيم تمثل في حروب التحرير التي شنها المماليك على المغول ابتداءاً من السلطان قطز حتى السلطان الناصر محمد بن قلاوون ومن بعده. فقد تمكن هؤلاء الملوك الأوائل أن يصدوا موجات الغزو المتكرر وأن يصبوا الهزائم على رؤوس قادة المغول المرة تلو المرة، وأعادوا للشعب في بلاد الشام ومصر ثقته بنفسه، كما أنهم، كما قلنا سابقاً، طردوا الصليبيين من بلاد الشام. وتغلبوا على دولة سلاجقة الروم أكثر من مرة، وأنهوا وجود بعض الدويلات الهزيلة التي وجدت على الحدود السورية التركية الآن كدولة الأرمن وقلعة الروم، وتميزت علاقتهم بالروم البيزنطيين بالنشاط، واستقطبوا اهتمام الأباطرة لغايات سياسية، كما أن مقدرة السلاطين الأوائل وطموحهم ونشاطهم، مع عوامل أخرى، أدت إلى إحياء الخلافة العباسية فيها وأصبح مركزها القاهرة. فقد لجأ إلى مصر زمن السلطان بيبرس أحد الأمراء العباسيين الذين نجوا من مذابح هولاكو، وهناك بويع خليفة، وعلى الرغم من اختفائه بعد فترة وجيزة، إلا أن ذلك لم يفت في عضد السلطان وبايع عباسياً آخر بالخلافة، وظلت الخلافة حيّةً في مصر حتى سقوطها

بيد العثمانيين، إذ نقل هؤلاء الخليفة ومركز الخلافة إلى عاصمتهم اسطنبول. كما أن السلاطين في هذا العهد اهتموا بمصالح الشعب ووطدوا دعائم الأمن الداخلي فازدهرت التجارة الداخلية والخارجية وأصبح هناك علاقات اقتصادية مع دول أوربا المطلة على البحر المتوسط وخاصة دويلات إيطاليا كالبندقية وجنوى، إلى جانب نفوذ المماليك القوي في اليمن والحبشة. ولقد ساعد هذا الجو العام على استقطاب ما تبقى من الحضارة الإسلامية فتقاطر العلماء والأدباء إلى دولة المماليك لأن الملوك الأوائل حققوا الأمن والرخاء والسلم والحماية والتشجيع للعلماء والأدباء، فلمعت أسماء كثيرة في ذلك العهد لا زالت مؤلفاتهم معيناً ثراً لمعرفة الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي. ولكن الملاحظ أن هذا النشاط، كان في الأعم الأغلب، نشاطاً جمعياً تركيبياً تقليدياً، وليس نشاطاً خلاقاً.

فقد وجد في هذا العصر عدد كبير من الفقهاء والمحدثين والمؤرخين والعلماء واللغويين وما إلى ذلك. ولكن لم ينجب العصر فقيهاً واحداً من طراز الشافعي مثلاً. وإنما كان هم الفقهاء شرح كتب أعلام الفقه السابقين والتعليق عليها ودراستها والتوسع فيها. والشيء نفسه صحيح عن الحديث الشريف. فعلى الرغم من أن العصر أنجب ابن حجر العسقلاني والبدر العيني وغيرهما من المحدثين، إلا أنهم كانوا مقلدين وشارحين للبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وغيرهم. وإذا أتينا إلى حقل التاريخ نجد الشيء نفسه صحيحاً، فقد وجد عدد من كبار المؤرخين في هذا العصر كالذهبي وابن تغري بردي، والمقريزي والسيوطي، ولكنهم جميعاً كانوا مقلدين للمؤرخين السابقين أمثال الطبري وابن مسكويه وابن الأثير وغيرهم، وهكذا في بقية حقول المعرفة.

ولقد ازدهر في هذا العصر نوع آخر من التأليف يهدف إلى حفظ تراث الأمة المشتت في ألوف الرسائل المبعثرة الصغيرة وجمعها في كتب جامعة، وذلك أن سقوط بغداد واندراس قسم كبير من التراث العقلي الإسلامي على أيدي

المغول والصليبيين جعل العلماء ينتبهون لخطر ما حدث ويتنادون لدرء الخطر ومنع حدوثه في المستقبل، وحفظ هذا التراث ومنعه من الاندثار والضياع، فبدؤوا يؤلفون الكتب الجامعة التي تحوي فيضاً من المعلومات المنتشرة في عدد كبير من الكتب. فألفت كتب كثيرة من هذا النوع يمكن اعتبارها تجوزاً موسوعات لما تحويه من معلومات موسوعية. وأشهر مثلين على ذلك هما **صبح الأعشى** للقلقشندي **ونهاية الأرب** للنويري. وقد تحدثنا في أحد كتبنا السابقة عنهما بإسهاب فلا حاجة للإعادة هنا.

ونحب أن نضيف أن هناك كتباً أخرى لا زالت أجزاء كثيرة منها مخطوطة، هي موسوعية في أسلوبها ومعلوماتها مثل كتاب **مسالك الأبصار**، لابن فضل الله العمري، **والوافي بالوفيات** للصفدي، **وعقد الجمان** للعيني، **وزبدة الفكر** لبيبرس المنصوري. ولقد كان تأليف هذا النوع من الكتب عملاً رائداً من الطراز الأول، وكان من الممكن أن يؤدي ذلك إلى إيجاد موسوعات حقيقية لو قيض لهذه الشعلة من يحملها ويتابع السير فيها، ولكن لسوء الحظ لم يهيأ لهذا القبس من يحمله ويعلي مناره فظل يخبو حتى انطفأ.

كذلك وجد علماء موسوعيون من طراز آخر. ذلك أنه وجد علماء كتبوا في أغلب حقول المعرفة الإنسانية المعروفة آنذاك، وحفظوا بذلك قسماً مهماً من التراث الإسلامي، ويأتي على رأس هؤلاء السيوطي وابن حجر؛ وإن المرء ليعجب من هذا الرجل الفذ السيوطي الذي كان حقاً موسوعة متحركة، فقد ألف في كل علم من العلوم: في الفقه والحديث الشريف والتفسير واللغة والأدب والتاريخ والطب والتراجم.. ويزيد عدد كتبه على الأربعمائة. وإذا كان صحيحاً أن بعض هذه الكتب رسائل صغيرة لا يتجاوز عدد صفحاتها الخمسين، فإنه صحيح أيضاً أن عدداً كبيراً منها مؤلفات ضخمة يتجاوز عدد صفحاته الخمسمائة. وإذا كانت صفة الجمع هي الغالبة على إنتاج السيوطي إلا أنه بذلك

أطلعنا على تراث ومؤلفات لولاه لما وصل إلينا منها شيء، فجزاه الله عنا كل خير. وإن غزارة إنتاجه تجعله من أغزر المؤلفين الذين عرفهم تاريخ الإنسانية والحضارة الإسلامية.

يعتبر غزو تيمورلنك لبلاد الشام (أواخر القرن الرابع عشر ميلادي) فترة انتقال بين عهدين: عهد القوة وعهد الضعف في دولة المماليك، وعهد الحضارة والعلم والتقدم، وعهد التقهقر والانحطاط والجمود في الحضارة الإسلامية. ذلك أن أغلب الملوك الذين أتوا بعد هذه الفترة جهلة أغبياء، أشبه بقطاع الطرق، أهملوا شؤون الشعب وأهملوا التجارة والزراعة وتسلط الجيش على الشعب، وانتشر الإقطاع وتضاءل عدد السكان وسادت الأمية وعدم المؤلفون الجيدون. وإذا وجد منهم ندرة فهم يكتبون باللغة العامية ويركزون اهتمامهم بالأمور التافهة المحلية التي تعكس الاهتمامات المباشرة للحكام الجهلة القتلة. ولذلك تدهورت أحوال البلاد في جميع الحقول العسكرية والاقتصادية والسياسية والعلمية والثقافية، باستثناء فن العمارة الذي ازدهر آنذاك لعوامل كثيرة ليس هنا مجال بحثها. أضف إلى ذلك الأضطراب السياسي والعسكري المستمر الناتج عن ثورات الحكام ضد السلاطين أو ضد بعضهم بعضاً، حتى إن دولة المماليك تشبَّه بالامبراطورية الرومانية التي توصف بأنها امبراطورية عسكرية، للجيش وقواده حق الثورة المشروع. وكذلك لم تهدأ في دولة المماليك ثورات قواد الجيش ضد السلاطين من أجل السلطة والقوة والعرش، وكان العرش لمن غلب. ولم يكن للشعب شأن في هذا المعترك، وإنما عليه أن يدفع ثمن هذه الحروب باهظاً، وهذا الثمن يتمثل في المصادرة والنهب والضرائب الثقيلة والخراب وويلات الحرب، ولذلك لا عجب أن انحطت الحضارة إلى أسفل درك وزال الفكر الخلاق وران الجمود على العقول والتفكير وتناقص عدد أفراد الشعب واضمحلت الحياة الاقتصادية حتى غرقت البلاد في فوضى رهيبة مما مهد الطريق

أمام العثمانيين لاحتلال بلاد الشام ومصر وإنهاء حكم المماليك ولفتح الباب أمام حكم العثمانيين الذي استمر في بلاد الشام أكثر من أربعة قرون، وإن هذا الوضع المتدهور جعل الناس في كل مكان ـ باستثناء مصر ـ ينظرون إلى العثمانيين واحتلالهم بلا مبالاة ولعلهم رحبوا بهم. أما مصر فقد استقبلت الغزو العثماني بغضب وسخط لأن الغزو العثماني حول مصر من مركز سلطنة إلى ولاية تابعة للمركز، وأزال صدارتها في العالم الإسلامي آنذاك.

وإذا نظرنا إلى عدد الوثائق العائدة لكل من العهدين المتباينين من عهود دولة المماليك وجدنا فيضاً من الوثائق من العهد الأول، على حين أن عدد الوثائق العائدة للعهد الثاني قليلة كل القلة، هزيلة كل الهزال، وآخر سلطان مملوكي صدرت عنه وثيقة لدينا صورتها، هو الملك الأشرف إينال المعاصر للسلطان العثماني محمد الفاتح (أواسط القرن الخامس عشر ميلادي)، ولذلك فلدينا فترة تزيد على نصف القرن تعتبر من وجهة نظر الوثائق قاحلة، وهذا لا يعني أنه لا يوجد وثائق البتة عن ذلك العهد، ولكن معلوماتنا عنها هزيلة. قد يكون هناك وثائق عائدة لذلك العهد، ولكنها لم تصلنا وهي هزيلة قليلة في عددها، وأسلوبها ركيك سخيف، وموضوعها محلي.

ولقد أنجبُ العصر الأول من عصور دولة المماليك عدداً من كبار الديوانيين الذين امتازوا بثقافتهم الواسعة وخيالهم الخصب وأسلوبهم الرائع الرشيق المتين فأتت الوثائق التي دبجوها قطعاً فنية ونماذج أدبية نثرية يمكن احتذاؤها، وتعكس اهتمامات وثقافة وبلاغة العصر، إلى جانب عكسها ثقافة وبلاغة مؤلفيها، وعظمة وكبرياء الملوك والسلاطين الذين استخدموا هؤلاء الكتاب الديوانيين، وأشهر هؤلاء الكتاب الديوانيين محيي الدين بن عبد الظاهر الذي كتب الكثير للظاهر بيبرس ولقلاوون ولغيرهما من السلاطين، وابن المكرم، والقلقشندي. وإن أسلوب ابن عبد الظاهر يمتاز بالجزالة والفحالة والقوة والغزارة والبلاغة والفصاحة

والرشاقة واستخدام المحسنات البديعة والسجع والترصيع بشكل غزير، حتى إنه ليذكرنا بالقاضي الفاضل الذي حاول ابن عبد الظاهر تقليده لا شك وتتلمذ عليه. وإن موازنة بسيطة بين أسلوبه المتمثل في العديد من رسائله والعهود التي دبجها وبين أسلوب رسالة وجهها سنة ٧٩٥ هـ الأمير فارس الدين إلى الأمير سيف الدين بتحاص حاجب في الديار المصرية يبشره بسلامة الحاج، يكشف الفرق البعيد والبون الشاسع بين الأسلوبين، فالأسلوب الأول رشيق بليغ فصيح خال من الكلمات والتعابير العامية والحوشية. فيه توليد بديع للمعاني والأفكار واستطراد يصل إلى حد الملل. والأسلوب الثاني قصير جاف خشن غليظ مليء بالأخطاء النحوية والتعابير الأعجمية إلى حد مزعج ومؤلم حتى ليشك المرء أن يكون كاتب هذه الرسالة او مرسلها ملماً ولو بعض الإلمام باللغة العربية أو شيء اسمه أسلوب... وينهي أن المملوك وصل إلى مكة المشرفة - شرفها الله تعالى وعظمها - ومن معه من الحجاج صحبة المحمل الشريف يوم الجمعة ثاني ذي الحجة الحرام وهم طيبين آمنين، ووجدوا بمكة المشرفة الأشياء كثيرة موجودة والأسعار رخيصة الدقيقة كل بطة خمسة عشر درهم، والبقسماط كل عشرة أرطال بستة دراهم[١].

ونجد الشيء نفسه منعكساً في مصادر معلوماتنا عن الوثائق. فتاريخ ابن الفرات من المصادر الأساسية لدراسة التاريخ المملوكي ووثائقه. نجد في هذا الكتاب فيضاً من الوثائق حتى عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، ولكن هذه الوثائق تتناقص في العدد وتصبح في السنوات الأخيرة نادرة كل الندرة، كما نلاحظ نفس الشيء في أسلوبها، فالوثائق القديمة ذات أسلوب رشيق بليغ ونفس طويل تحمل طابع مؤلفها وكاتبها والملك الذي صدرت عنه، على

(١) ابن الفرات ناصر الدين محمد. تاريخ ابن الفرات. تحقيق أسد رستم وقسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، بيروت، المطبعة الأمريكية، ١٩٤٢ م جـ ٩، ٣٤٩ - ٣٥٠.

حين أن الوثائق المتأخرة هزيلة ركيكة أقرب إلى العامية تدل على جهل كاتبها ومؤلفها ومرسلها ومن أرسلت إليه.

هذا وإن مصادر معلوماتنا عن العصر المملوكي ككل ومصادر الوثائق عن هذا العصر بشكل خاص هي نفسها، في الأعم الأغلب، المصادر التي ذكرناها في دراستنا لوثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للبلاد الإسلامية، فليرجع إليها.

هذا ولا بد من ذكر مصدرين ثريين آخرين من مصادر الوثائق المملوكيـة لم يتمكن المؤلف من الوصول إليهما.

الأول مجموعات المراسلات المملوكية المحفوظة في مدن إيطاليا التجارية مثل البندقية وجنوى وبيزة وغيرها. ذلـك أن هـذه البلـدان كـانـت على علاقـات اقتصادية واسعة مع دولة المماليك في كل من مصر والشام ودارت بين الطرفين مراسلات كثيرة أغلبها تجاري اقتصادي، ولكن فيها السياسي والإداري، إذ لا يمكن فصل السياسة عن الاقتصاد والتجارة. هذه المراسلات محفوظة في محفوظات ومكتبات تلك المدن ولم تنشر وتحتاج إلى جهد كبير وجهد متصل للوصول إلى كنوزها. ولا شك أن دراستها ونشرها وتحقيقها سيساهم أكبر مساهمة في دراسة العصر المملوكي دراسة أفضل، وفي إلقاء الأضواء على كثير من الأحداث الغامضة في تاريخنا، وفي تصحيح كثير من المفاهيم. ولم يكن بإمكان المؤلف أن يقوم بهذا الجهد الذي يحتاج إلى تضافر جهود باحثين كثيرين وإلى تفرغ وتنقل وإلى زمن ووقت ونفقات طائلة. وهذه عناصر كلها ليست متوفرة لدى المؤلف.

والمصدر الثاني هو الوثائق المملوكية نفسها الموجودة في القاهرة وغيرها من مدن القطر المصري، وربما السوري أيضاً، ولا شك أن دراستها وتحقيقها ونشرها مهم كل الأهمية، ولكن فقدان الوقت وضخامة الجهد وندرة المال كلها عقبات منعت المؤلف من أن يستفيد منها الفائدة المرجوة. وكلنا أمل أن يقيض

الله في المستقبل القريب، من يقوم بهذين العملين الجليلين، اللذين يسدان ثغرة في حقل دراساتنا التاريخية والوثقية.

ولقد عجز المماليك عن تأصيل الشرعية في نفوس أمراء وضباط وأفراد الجيش المملوكي، فقد قتل بيبرس قطز، وحل محله، وعلى الرغم من أن بيبرس حاول تأصيل المبدأ الشرعي والوراثي وحصره في عقبه، إلا أنه لم ينجح في ذلك وخلع ابنه على يد قلاوون. وعلى الرغم من أن قلاوون وابنه الناصر محمد حاولا تأصيل وتثبيت نفس الفكرة إلا أنهما عجزا عن ذلك وظل الأمر، أمر السلطنة، تقرره القوة وحدها، ولا سيما في حال ضعف السلطان أو صغر سنه.

هذا، ومن الملاحظ أن المماليك ظلوا في دولتهم طبقة متميزة ولم يختلطوا بالشعب ولم يحاولوا ذلك بل ظلوا هم الطبقة الحاكمة عسكرياً وسياسياً وبيدهم السلطة والحكم والسياسة، وتركوا المناصب الدينية والقضائية والأعمال التجارية والأدبية لأفراد الشعب، وكان ذلك من أكبر أسباب ضعفهم.

وإذا أردنا أن نجمل مميزات العصر المملوكي ككل، قلنا: إنه عصر إنقاذ بكل ما في الكلمة من معنى، فقد أنقذ المماليك الحضارة الإسلامية من الدمار التام على يد المغول، ومركزوا ما أنقذوه في سورية ومصر. كما أنقذوا سورية ومصر من الغزو المغولي وحطموا هذا الغزو وردوا مده وحولوه إلى جزر. كما أنهم أنهوا الحكم الصليبي في بلاد الشام، وأحيوا الخلافة الإسلامية وجعلوا مقرها القاهرة، وأصبح لهم علاقات اقتصادية وسياسية وتجارية واسعة مع عدد كبير من الدول المجاورة، ووطدوا الأمن وشجعوا العلوم ونشروا الإقطاع ولا سيما العسكري منه. وفي أواخر أيامهم أصابهم العقم والعجز فانحطوا وكانوا السبب في تسليم البلاد للعثمانيين.

هذا وإن كتابنا هذا يتألف من قسمين متكافئين: القسم الأول: وهو هذا: دراسة تمهيدية موجزة للعهد المملوكي كما تبدو من خلال الوثائق نفسها، وهو

تمهيد ضروري ولازم ولا بد منه لفهم الوثائق. والقسم الثاني: الوثائق نفسها مرتبة حسب الموضوعات، وقد مهدنا لأغلب الوثائق بفقرة قصيرة توضح مناسبتها، وختمناها بذكر المصدر الذي يحوي هذه الوثيقة مع اسم المؤلف والجزء والصفحة. وفي حال وجود الوثيقة في أكثر من مصدر أثبتنا النص الذي نعتقد أنه الأجود، وأشرنا إلى مكان وجود الوثيقة في المصادر الأخرى في أسفل الصفحة، ذاكرين اسم الكتاب أو الكتب والمؤلفين والأجزاء والصفحات.

وقد حوت كثير من الوثائق أخطاء كثيرة، في النحو والتركيب والأسماء... فتركناها على حالها لأنه ليس من حقنا تغيير شيء مما ورد في صلب الوثيقة، كما وردت كلمات أعجمية في كثير من الوثائق أو كلمات فنية أو كلمات لغوية تحتاج إلى شرح، أو أسماء أعلام، فشرحنا وعلقنا على كثير منها وتركنا البعض الآخر للباحثين يتابعون عملهم فيها. نحن نورد الوثائق على مسؤولية أصحابها، إذ أننا لسنا مسؤولين عن محتويات الوثائق وعن صحتها أو زيفها، فهذا شيء يقرره النقد التاريخي الذي يقوم به الباحثون، وحسبنا أننا نضع هذه المواد تحت تصرف الباحثين للعمل والدراسة الجادة.

كان ما مر لمحة موجزة عن العهد المملوكي ومميزاته ومؤثراته، وفيما يلي بعض اللمحات والنظرات والملاحظات عن هذا العهد كما تكشف عنه الوثائق التي بين أيدينا.

شؤون الخلافة والخلفاء:

سبق أن قلنا: إن المماليك أحيوا الخلافة العباسية بعد سقوط بغداد بيد المغول ومصرع المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين في بغداد. فقد لجأ الأمير أحمد الأسمر إلى الملك الظاهر بيبرس، وهو أخو الخليفة ـ العباسي المستنصر بالله وعم

المستعصم- فبايعه بالخلافة بعد أن ثبت عنده صحة انتمائه لآل العباس وتلقب بالمستنصر بالله. وهو أول الخلفاء العباسيين في القاهرة. ولقد حاول هذا الخليفة استرجاع العراق من يد المغول فأرسل الظاهر بيبرس معه جيشاً لهذا الغرض، ولكن الجيش هزم واختفى الخليفة، فبايع السلطان أميراً عباسياً آخر بالخلافة ولقبه الحاكم بأمر الله. ولقد كانت سلطة الخلفاء اسمية تماماً، كما كان في بغداد زمن المتغلبين من آل بويه وآل سلجوق، ولم يكن لهم نفوذ البتة وكانوا خاضعين للسلاطين والحكام خضوعاً تاماً، ولم يكن بإمكانهم أن يفعلوا غير هذا. ولكن المهم هو الشرعية التي كانوا يضفونها على المتغلبين فقد كان هم المتغلب الأول الذي يحصل على مركز السلطنة بالقوة أن يتصدر من الخليفة عهداً شرعياً يجعله سلطاناً للمسلمين، وأن سلطته شرعية وولايته مرعية. ولقد تمكن أغلب الخلفاء أن يبتعدوا بأنفسهم عن صراعات الحكم بين المماليك، ولم يكن لهم شأن يذكر، إلا في القليل النادر. ولقد ظل هذا الوضع سائداً حتى الفتح العثماني لمصر وبلاد الشام، حيث نقل السلطان العثماني الخليفة العباسي ومركز الخلافة إلى اسطنبول. ومنذئذٍ لم نعلم ما حدث بالضبط للخليفة العباسي وكيف انتقلت الخلافة إلى آل عثمان ومتى تم ذلك فإن ذلك من المشاكل التاريخية التي لما تحل. ولا تلقي الوثائق بين أيدينا أي ضوء على هذا الموضوع الشائك.

ولقد حاول الخليفة الثاني الحاكم بأمر الله أن يثير همم المسلمين إلى الجهاد ضد المغول، بأن أعطاهم ورسم لهم صورة قاتمة وحقيقية عما فعله المغول في بغداد لما استباحوها، وذلك في صك تقلده الخلافة: فلو شاهدتم أعداء الإسلام حين دخولهم دار السلام، واستباحوا الدماء والأموال، وقتلوا الرجال والأبطال، وسبوا الصبيان والبنات، وأيتموهم من الآباء والأمهات، وهتكوا حرم الخلافة والحريم، وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل، وعلت الضجات من هول ذلك اليوم العظيم، فكم من شيخ خضبت شيبته

بدمائه، وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه، فشمروا ساق الاجتهاد في إحياء فروض الجهاد [1].

كذلك نجد فكرة شرعية الخلافة العباسية وأن النبي عليه الصلاة والسلام بشر بذلك عمه العباس. فبشره بأن الخلافة في عقبه فعمه بالسرور عماً [2].

ولدينا حادثة طريفة وعهد طريف يكشفان النقاب عن نظرة الحكام والناس إلى مثل هذه الموضوعات، فقد غضب الناصر محمد بن قلاوون على الخليفة الواثق بأمر الله لسبب من الأسباب فخلعه من الخلافة ونصب مكانه الحاكم بأمر الله خليفة، وكان ذلك سنة ٧٤١ هـ. وهذا حادث معتاد ومألوف، ولكن الطريف في الأمر هو العهد والبيعة التي أخذت للحاكم على اعتبار أنه خليفة. فالقارىء لهذا العهد ولهذه البيعة، إن كان خالي الذهن ولم يكن عنده علم يقينيٌّ بمجريات الأمور في دولة المماليك، اعتقد أن الخليفة هو مصدر السلطات الحقيقية، وأنه هو الذي ينصب السلاطين ويعزلهم، وأن بيعته فرض على كل مسلم وأن الجميع مستعدون للتضحية بحياتهم عند أول إشارة تصدر من إصبعه في سبيل الله وفي سبيله وسبيل شرعية الخلافة وهيبتها... أجمع على هذا البيعة أرباب العقد والحل... وولاة الأمور والحكام وأرباب المناصب والأعلام، وحملة العلم والأعلام، وحماة السيوف والأقلام... [3] وبعد: فإن أمير المؤمنين لما ألبسه الله من ميراث النبوة ما كان لجده، ووهبه من الملك السليماني ما لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمه منطق الطير بما تحمله حمائم البطائق من بدائع البيان، وسخر له من البريد على متون الخيل ما سخره من الريح لسليمان [4]......

---

(١) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، جـ ٢، ٥٩ - ٦٠.

(٢) نفس المصدر: جـ ٢، ٦٣ - ٦٧.

(٣) نفس المصدر: جـ ٢، ٧٠ - ٧٩.

(٤) نفس المصدر: جـ ٢، ٧٠ - ٧٩.

ثم ينتقل العهد والمباعية إلى بذل الوصايا للرعية والحكام بالعدل والإحسان والجهاد ، وأوعد ووعد وبشر وحذر وأنذر ، وكأن كل شيء بيده وهو قادر على التنفيذ . ثم يعلن أنه قلد السلطان الملك الناصر ما وراء سريره... وأمير المؤمنين قد وكل عنه... عَيْناً لا تنام، وقلد سيفاً لو أغفلت بوارقه ليلة واحدة عن الأعداء سلت حياله عليهم الأحلام. وسيؤكد أمير المؤمنين في ارتجاع ما غلب عليه العدا [1] .

ولقد تمكن بعض الخلفاء أن يعهدوا بالخلافة من بعدهم إلى أولادهم أو إلى أحد إخوتهم في حال فقدان الولد ، كما فعل الخليفة المعتضد بالله لما عهد بالخلافة من بعده لولده المتوكل على الله سنة ٧٦٣ هـ ، وكما فعل خليفة آخر اسمه المعتضد أيضاً ، عهد بالخلافة من بعده لأخيه المستكفي سنة ٨٤٥ هـ . وقد يُظن أن هذا دليل قوة الخلفاء واستقلالهم بمثل هذا الأمر دون السلاطين ، ولكن هذا الرأي خاطىء وذلك أن منصب الخلافة انحط إلى درك واطىء منخفض ، ولم يعد له أية أهمية ، ولذلك لم يبال السلاطين فيمن يكون خليفة ، كما أن الخلفاء قنعوا بدورهم هذا وحاولوا إرضاء أنفسهم والرفع من معنوياتهم بإصدار العهود الطنانة الرنانة البراقة ، التي تؤكد على حق الخليفة وسمو مركزه وإصداره العهود وتقليده السلاطين مناصبهم حتى تصبح شرعية .

شؤون السلطنة والسلاطين:

ولقد تبارى الخلفاء بتمجيد السلاطين الذين أحيوا الخلافة العباسية وأقاموا الخلفاء ، ذلك أن السلاطين الأوائل أحيوا الشرعية وتمسكوا بها . فقد بايع السلطان الملك الظاهرُ المستنصر بالله بالخلافة فما كان من هذا إلا أن أصدر عهداً قلد بموجبه السلطنة إلى الملك الظاهر فأصبح ملكه شرعياً بموجب هذا العهد . وقد صب الخليفة الألقاب صباً على الملك الظاهر وكال له المديح كيلاً . فقد

(١) نفس المصدر ؛ جـ ٢ ، ٧٠ ـ ٧٩ .

وصفه بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني[1] ... وكيف لا وقد أقام الدعوة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمن... ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه ضوءاً وعطفاً، وأظهر من الولاء رغبة في ثواب الله ما لا يخفى[2] ... وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع، ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع[3]... وقد قلد الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية، وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فرداً[4] ... هذا وإن ملكاً مثل الملك الظاهر يستحق ما مدح به وأكثر، لأن أفعاله شاهدة له. ولكن اللطيف في الأمر هو الوصايا التي وجهها الخليفة إلى السلطان مذكراً إياه بواجباته في اختيار النواب والقضاة وضرورة العدل في الرعية وأهمية الجهاد القصوى وضرورة إقامة عموده ومناره.

وعلى الرغم من أن الملك الظاهر بيبرس حاول توكيد شرعية سلطنته في النفوس وحق السلطان المطلق في تعيين ولي عهده، وقد عين ابنه الملك السعيد ولياً لعهده في حياته وجعله سلطاناً مشاركاً له كل ذلك ليوطد شرعيته وشرعية سلالته في نفوس الشعب. أقول: إنه على الرغم من كل هذا ومن الخدمات الجليلة التي قدمه الظاهر والد الملك السعيد لدولة المماليك، فإن كل ذلك لم يشفع للملك السعيد عندما أساء السيرة، وتزعم المعارضة العسكرية قلاوون الذي تمكن من خلع الملك السعيد والحلول محله سلطاناً باسم الملك المنصور. وكالعادة أصدر الخليفة تقليداً قلده بموجبه السلطنة وخلع عليه صفة الشرعية. ونجد في مفتتح هذا العهد اعترافاً صريحاً بتغلب القوة على الشرعية: الحمد لله الذي جعل آية

(١) نفس المصدر. جـ ٢، ٥٣ - ٥٨.
(٢) نفس المصدر: جـ ٢، ٥٣ - ٥٨.
(٣) نفس المصدر: جـ ٢، ٥٣ - ٥٨.
(٤) نفس المصدر: جـ ٢، ٥٣ - ٥٨.

السيف ناسخة لكثير من الآيات، وناسخة لعقود أولي الشك والشبهات[1]. ثم يمضي المرسوم بتوكيد نفس الفكرة ورفع أسهم قلاوون والغض من الملك السعيد. وهكذا القوة هي الأساس، والقوي هو المصيب وهو المحق وهو كل شيء، والضعيف هو المهزوم وهو المخطىء وهو الملوم. ولا ينسى المرسوم أن يؤكد على شرعية آل العباس وعظمة خلافتهم وعظمة الخليفة، وأنه ظل الله في الأرض، والواسطة بين الله وعباده، ثم ينطلق لتوصية السلطان بما يجب عليه عمله تجاه الخليفة وتجاه شعبه وتجاه الآخرين.

ولكن لم يوافق جميع القواد على ما فعله قلاوون بالملك السعيد، فقد انشق عنه سنقر الأشقر حاكم دمشق وأعلن ولاءه للملك السعيد، وكاد الموقف يتأزم، ولكن طلائع المغول وصلت إلى بلاد الشام وخاف السلطان أن يتفق سنقر مع المغول ضده فأرسل يقول له: إن التتار قد أقبلوا على المسلمين، والمصلحة أن نتفق عليهم لئلا يهلك المسلمون بيننا وبينهم، وإذا ملكوا البلاد لم يدعوا منا أحداً. ولقد استجاب سنقر لهذا الوضع وأنهى عصيانه، وانضم إلى السلطان في حربه ضد المغول[2].

ويبدو أن سنقر الأشقر هذا كان رئيس المماليك الظاهرية وكان قوياً ومخلصاً للملك السعيد، فأراد قلاوون تألفه فأرسل له رسالة تَفيض بالعطف يصف له فيها كيف أصبح سلطاناً، وكيف دخل الناس على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم في طاعته، وكيف تم الاحتفال بتنصيبه ملكاً. وهو يصف نفسه بالمملوك:... المملوك يهدي من لطيف أبنائه ووظائف دعائه وما استقر من عوارف الله

---

(١) نفس المصدر: جـ ٢، ١٠٦ - ١١٠.

(٢) ابن كثير، عماد الدين إسماعيل «البداية والنهاية» القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٥١ هـ، جـ ١٣ - ٢٩٢.

لديه[1]... وهو يعيد تلقيب نفسه بالمملوك مرة ثانية ويلقب سنقر بالمولى. «والمول ـ أدام الله نصرته ـ يأخذ بحظه من هذه المسرة»[2]...

ولقد جوزي قلاوون في أولاده وعقبه بنفس الجزاء الذي صبه هو نفسه على بيبرس في أولاده وعقبه، ذلك أن قلاوون حاول جاهداً أن يثبت مبدأ الشرعية وأن يحصر الولاية في عقبه، فنصب أولاده ملوكاً في حياته، ونصب ولديه بالتعاقب علياً وخليلاً وليي عهد، وأخذ لهما البيعة المؤكدة من الجميع. ولكن كل ذلك لم يكن له أية قيمة ولم يمنع أن يقوم مغتصب جديد ضد ولد قلاوون القاصر وهو السلطان الملك الناصر محمد الذي ورث العرش بعد أخيه الملك الأشرف خليل، وكان صغيراً فخلعه أتابكه، ونصب نفسه سلطاناً باسم الملك العادل كتبغا. ولم ينس هذا أن يستصدر من الخليفة مرسوماً يضفي صفة الشرعية عليه وعلى منصبه وعلى عمله. وكالعادة كان الخليفة عند حسن الظن به ـ ولم يكن بإمكانه أن يفعل غير هذا ـ فأصدر تقليداً شرعياً قلّد بموجبه الملك العادل كتبغا ما وراء سريره ويمنحه الشرعية وينصحه ويعظه ويوصيه الوصايا الجليلة[3]. وهو يصف عمل كتبغا في أخذ الملك عملاً إنقاذياً بطولياً شبيهاً بموقف أبي بكر رضي الله عنه من الردة: فكان ثَمَّ موقفك موقف الصديق يوم الردة[4].

كذلك حاول كتبغا تبرير عمله في اغتصابه العرش وطرد صاحبه الشرعي فأصدر بشارة إلى الأقاليم يشرح به الفرح والسرور الذي أصاب الناس لما أصبح

---

(١) اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد «ذيل مرآة الزمان» حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٤م، جـ ٤، ٩ ـ ١٠.

(٢) نفس المصدر.

(٣) القلقشندي، أبو العباس أحمد «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» القاهرة، دار الكتب المصرية ١٩١٤ ـ ١٩١٩م، جـ ١٠، ٤٧ ـ ٥٣.

(٤) نفس المصدر.

سلطاناً، وبين الفوائد المتوقعة من سلطنته، ويطلب من الحكام أن ينشروا ذلك، ويشرحوه بين الرعايا، وأن يحتفلوا بهذه المناسبة الرائعة [1].

ولقد كانت هذه العهود مناسبة رائعة للكتاب الديوانيين يبرزون فيها براعتهم البلاغية وفصاحتهم وقدرتهم على التعبير والاستطراد والترصيع والسجع، فأتت أغلب هذه العهود تحفاً فنية بلاغية تدل على مقدار الأهمية التي كان يعقدها الحكام آنذاك على مثل هذه الأمور، وتدل على ثقافة الكتّاب ومقدرتهم البلاغية والكتابية.

ولا نرى كبير فائدة من ذكر السلاطين الذين صدرت لهم عهود تقليد من الخلفاء، فأغلب السلاطين كانوا يحرصون على استصدار مثل هذه التقاليد ليضفي الشرعية على سلطنته. والملاحظ أن الخليفة الحاكم أصدر على الأقل ثلاثة تقاليد لثلاثة سلاطين هم الناصر وكتبغا ولاجين. ولكن كما نعلم لم يكن بإمكانه إلا أن يفعل هذا.

هذا وإن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ابتلي بشخصين كانا أوصياء عليه هما بيبرس وسلار، وقد ضايقاه كل المضايقة حتى اضطر إلى ترك العرش والهرب منهما إلى الكرك مما أفسح المجال لهما. ولكن لم يصف الجو لهما تماماً لأن الناصر كان له أنصار كثيرون من الأمراء وحكام المقاطعات والولايات. وكان هؤلاء الأمراء يحسد بعضهم بعضاً، ولا يمكن أن يقبلوا بسهولة رئاسة أي من الشخصين اللذين ذكرناهما آنفاً. ولذلك فقد تظاهر هؤلاء الأمراء بقبول الأمر الواقع، ولكنهم كانوا يعدون العدة سراً لإعادة الناصر إلى عرشه. وبالمقابل عمل الناصر على مركزة الأمراء حول شخصه، وتنمية حقدهم، وتنظيم المؤامرة ضد الحاكمين اللذين طرداه من ملكه، حتى إذا نضجت المؤامرة أمكنه أن يعلن أمره ويعود إلى ملكه ويقضي على الغاصبين.

(١) ابن الفرات. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٨، ١٩٤ - ١٩٥.

ولقد أرسل الملك الناصر إلى بيبرس وسلار، لما هرب منهما ولجأ إلى الكرك، رسالة يخبرهما فيها أنه لجأ إلى الكرك للترويح عن النفس وأنه عزم على الإقامة بها بشكل دائم.. فإن كنتم مماليكي ومماليك أبي فأطيعوا نائبي ولا تخالفوه في أمر من الأمور... فأنا لا أريد لكم إلا الخير... وإن كنتم ما تسمعون مني فأنا متوكل على الله، والسلام [١].

ولقد كان جواب القائدين عنيفاً، إذ هددا الملك الناصر وأنذراه أنهما لن يدعاه يستقر في الكرك... ولو كثر شاكروك، ويخرج الملك من يدك... غير أن لكل ملك انصرام ولانقضاء الدولة أحكام، ولحلول الأقدار سهام [٢]... ولقد كان رد السلطان الملك الناصر على هذه الرسالة استقالة من الملك والسلطنة ورغبة في الاعتزال في قلعة الكرك... إلى أن يفرج الله تعالى إما بالموت أو بغيره [٣]. ولقد وافقه بيبرس على الاستقالة والإقامة في الكرك، وأرسل له رسالة يبلغه ذلك بعد أن أصبح سلطاناً باسم الملك المظفر ويقول له:... وقد حكم الأمراء علي فلم تمكن مخالفتهم، وأنا نائبك [٤]. ثم أرسل له تقليداً رسمياً يمنحه حكم الكرك وملكها مدى الحياة، ويعلل تنازل الملك الناصر بن قلاوون عن العرش برغبته في الاعتزال والاعتكاف للعبادة... وأن للزهادة في الدنيا الشأن الكبير [٥]. وقد رد الملك الناصر على ذلك بالشكر ويلقب الأمير بيبرس بالملك

---

(١) ابن تغري بردي «النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة» القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٩ م. جـ ٨، ١٨٠ - ١٨١.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي «كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك» تحقيق محمد مصطفى زيادة وآخرين، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٤م جـ ٢ - ٤٦.

(٥) النويري، شهاب الدين أحمد «نهاية الأرب في فنون الأدب» الطبعة الثانية، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٩ م. جـ ٨، ١٥٩ - ١٦٣.

والسلطان ويلقب نفسه بالمملوك محمد بن قلاوون[١] ولكن بعد فترة ساءت العلاقات بين الطرفين، ذلك أن الكرك أصبحت ملجأ لكل ساخط على دولة الملك المظفر غاضب منها، ويبدو أن الملك المظفر أحس أن الملك السابق بدأ يستقطب حوله المعارضة ضده وضد عهده فأرسل يهدده ويطلب منه أن يرسل اله، أي أن يعيد له المماليك التي عنده والخيل التي أخذها والمال الذي ذهب به إلى الكرك وإن لم يفعل ذلك طوعاً لا بد من إرسال جيش إليه لفعل ذلك بالقوة[٢]. وكان جواب الملك الناصر مثلاً رائعاً على الدبلوماسية والسياسة التي تبدي غير ما تضمر، وأبدى منتهى الخضوع والتذلل في سبيل الاستعداد للوثبة الفاصلة[٣].

كذلك حاول الأمير الذي أصبح سلطاناً باسم الملك المظفر بيبرس إرضاء زعيم المماليك في بلاد الشام والذي كان ضالعاً مع الملك الناصر، ذلك أن حاكم ولاية حلب قراسنقر الأشقر، كان زعيم المماليك في سورية وكان أقواهم، وخاف منه الملك المظفر فأرسل له ـ لما خلع الملك الناصر عن العرش وحل محله ـ يشرح له ظروف ما تم، وأنه ألزم إلزاماً بقبول العرش:... غير أنه لما نزل ابن أستاذنا عن الملك اجتمع الأمراء والقضاة وكافة الناس وقالوا: ما لنا سلطان إلا أنت. وأنت تعلم أن البلاد لا تكون بلا سلطان... وقد وقع ذلك فاجعلني واحداً منكم ودبرني برأيك وهذه حلب وبلادها دَرْبَسْتَ لك[٤]...

ولكن قراسنقر كان له رأي آخر في الموضوع، إذ أنه لم يرض بما حدث، وشكل جبهة متحدة مؤلفة منه ومن نائب طرابلس ونائب حماة هدفها خلع الملك المظفر وإعادة الملك الناصر إلى عرشه. وبدأ الثلاثة بزعامة قراسنقر يراسلون

---

(١) ابن تغري بردي. المصدر المذكور آنفاً جـ ٨، ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٢) المقريزي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٢، ٥٢ ـ ٥٣.

(٣) نفس المصدر.

(٤) ابن تغري بردي. المصدر المذكور آنفاً، جـ ٨ ـ ٢٤٢.

الناصر ويدبرون معه الأمور. ولكن الناصر الذي كان مطلعاً تماماً على الوضع ويعرف قوة المظفر أرسل إلى قراسنقر يطلب منه الأناة والصبر والاستعداد وعدم الإتيان بأية حركة يشتم منها رائحة العصيان، حتى إنه نصحه أن يقسم يمين الولاء للسلطان الملك المظفر إذا طلب منه ذلك وليضمر غير ذلك، كل ذلك في سبيل نجاح الخطة:... وأريد منك أن تطول روحك عليّ، فهذا أمر لا ينال بالعجلة لأنك قد علمت انتظام أمراء مصر والشام في سلك واحد ولا سيما الأفرم ومن معه من اللئام، فهذه عقدة لا تنحل إلا بالصبر. وإن حضر إليك أحد من جهة المظفر، وطلب منك اليمين له فقدم النية أنك مجبور ومغصوب واحلف[1].

وأخيراً نجحت خطة الملك الناصر وغلب صبره وحذره تعجل ونزق الملك المظفر، وانفض أكثر أنصاره عنه، فاضطر للهرب والاختفاء ورجع الناصر إلى عرشه، ومن مخبئه أرسل المظفر رسالة إلى الملك الناصر هي اعتراف ضمني بسلطنة الناصر وتفوقه، ويضع نفسه تحت تصرفه: والذي أعرفك به أني قد رجعت أقلدك بغيك، فإن حبستني عددت ذلك خلوة، وإن نفيتني عددت ذلك سياحة، وإن قتلتني كان ذلك لي شهادة[2].

والملاحظ في هذه الحادثة التي وصفناها آنفاً هو خروج الشرعية منتصرة على الانتهازية والقوة المجردة، ولكن هذا الانتصار للشرعية لم يكن حاسماً، ولم يكن خاصاً بها وحدها، ولم تهزم الانتهازية واستعمال القوة بشكل نهائي. ذلك أن هناك عناصر أخرى ساعدت الشرعية في انتصارها على الانتهازية والقوة. فقد ربى قلاوون وابنه خليل جيلاً كاملاً من القواد والأمراء، وأغدقا عليهم الإنعامات والرتب والإقطاعات فلم يكن من المعقول أن يذهب كل هذا الجهد

---

(١) نفس المصدر جـ ٨، ٢٤١ - ٢٤٢.

(٢) نفس المصدر جـ ٨، ٢٧٠ - ٢٧١.

ضياعاً هكذا وبمنتهى السهولة، ولا بد أن يترك أثراً ما في نفوس بعض القواد. كما وأن خيانة بيبرس والسلار للأمانة الموضوعة في عنقيهما، أثارت في نفوس البعض شيئاً من النفور، ولما كان بيبرس والسلار من الأشخاص العاديين ولا يحملان شيئاً من صفات الزعامة التي تمكنهما من تأليف القلوب وجمعها حولهما، ولم يكن بقية الأمراء يحملون لهما شيئاً من الاعتبار والاحترام، وإنما كانوا يعتبرون أنفسهم مساوين لهما وربما أفضل منهما، كما أنهما أساءا التصرف وتمكن الناصر أن يبرز نفسه كشهيد وضحية خيانة الأمانة، كل ذلك عناصر مكنت الناصر أن يرجع إلى عرشه، وانتصرت الشرعية في شخصه على الانتهازية والقوة، ولكن إلى حين.

وقد أصبحت الكرك ملجأ لكل ملك يضايقه أعداؤه أو أتابكه فيلجأ إليها ويترك أنصاره يعملون ضد الحاكم حتى يتمكنوا من خلعه وإعادة السلطان اللاجىء إلى الكرك إلى عرشه كما حصل للسلطان الملك الناصر أحمد بن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون والملك برقوق وغيرهما.

شؤون ولاية العهد وولاة العهود:

وانطلاقاً من مبدأ الشرعية الذي ذكرناه آنفاً، ورغبة في تدعيم المبدأ هذا وتأصيله في النفوس فقد لجأ أوائل الملوك الأقوياء كالظاهر بيبرس والملك المنصور قلاوون إلى تعيين ولاة عهودهما في حياتهما، فقد أصدر السلطان الملك الظاهر بيبرس مرسوماً بجعل ابنه بركة ولياً لعهده ويلقبه بالملك السعيد [1] ثم عاد مرة ثانية قبيل وفاته ونصب ابنه بركة سلطاناً معه إلى جانبه وأكد عهده له من بعده بالملك [2].

---

(١) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً جـ ١٠، ١٦٣ - ١٦٦.

(٢) المقريزي. المصدر المذكور آنفاً جـ ١، ق ٣، ٩٦٩ - ٩٧١.

ولقد فعل نفس الشيء قلاوون، وكانت آماله متعلقة ومتمركزة حول ابنه علي الذي جعله ولياً لعهده، وملكاً إلى جانبه ولقبه الملك الصالح علاء الدين[1]. ولكن القدر أبى أن يحقق أحلامه بولده هذا وفجعه به بأن توفاه الله في حياه والده، فاضطر الوالد أن يعهد بالملك من بعده لابنه خليل ولقبه الملك الأشرف صلاح الدين[2].

شؤون نيابة السلطنة ونواب السلاطين:

ولقد أوجد المماليك منصباً مهماً كل الأهمية هو منصب نائب السلطان. وذلك أن أوائل ملوك المماليك كانوا ملوكاً محاربين يقودون الجيوش بأنفسهم، كما كان يفعل الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والناصر محمد. ولما كانت بلاد الشام هي، بالأعم الأغلب، مركز ومنطلق هذه الحملات العسكرية، فقد اقتضى غياب هؤلاء السلاطين عن مقر سلطنتهم وجود شخص يصرف أمور المملكة في غياب الملك، ولذلك أوجدوا هذا المنصب الذي يسمى أيضاً كافل المملكة. كما أن هذا المنصب الذي اعتبر المنصب الثاني بعد منصب السلطنة، كان من الممكن أن يكون محطة يثب منها نائب السلطان إلى السلطنة في حال ضعف السلطان أو صغر سنه، كما فعل بيبرس الناصر محمد بن قلاوون. ذلك أن الناصر محمد كان صغيراً وكان بيبرس المنصوري أتابكه ونائب السلطنة فاستغل وضعه هذا ووثب إلى السلطنة وأصبح سلطاناً باسم الملك المظفر، واضطر الناصر أن يهرب إلى الكرك. كما وأن هذا المنصب استعمل وسيلة للترضية. فقد تآمر بيبرس المنصوري والسلار ضد السلطان الناصر محمد بن قلاوون حتى جعلاه يخلع نفسه عن العرش ويجد لنفسه ملجأ في الكرك، ولكنهما اختلفا حول السلطنة وأيهما

---

(١) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً، جـ ١٠، ١٧٣ ـ ١٧٧.

(٢) النويري. المصدر المذكور آنفاً جـ ٨، ١١١ ـ ١٢٤.

أحق بالمنصب من الآخر، وقد كادت تقع فتنة بين الطرفين لولا أن تدخل باقي الأمراء وأصبح بيبرس سلطاناً والسلار نائبه. وبهذه الطريقة حلا المشكلة.

ولدينا مرسوم، أو بالأحرى تذكرة، أصدرها السلطان الملك المنصور قلاوون سنة ٦٧٩ هـ لما خرج إلى بلاد الشام لحرب التتار، وبموجبها يقلد نيابة السلطنة إلى الأمير زين الدين كتبغا المنصوري ويرسم له السياسة التي يسير عليها في الحكم في الديار المصرية أثناء غياب السلطان. إن هذه التذكرة مهمة جداً لأنها تكشف لنا أولاً: صلاحيات نائب السلطان ومهماته. ثانياً: اهتمام السلطان بالشعب والنواحي التي يركز عليها والنواحي الأقل تركيزاً. ثالثاً: حرص السلطان على أن يوضح كل شيء وألا يترك نائبه وبقية الموظفين في غموض أو تداخل صلاحياتهم، بل حدد صلاحية نائبه بكل وضوح.

فهو يبدأ مرسومه هذا بتذكير نائبه بأهمية الشرع الشريف وضرورة مراعاة أحكامه، واتخاذه إماماً في نقضه وإبرامه.

ثم يذكره بضرورة العدل بين الرعية، بحيث يشمل العدل جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم وألوانهم وأموالهم ومراكزهم الاجتماعية.

بعد ذلك ينتقل إلى بحث مسائل القاهرة والأمن فيها ويطلب منه منع الناس من الخروج من بيوتهم في الليل إلا لضرورة قاهرة، أما النساء فلا يخرجن من بيوتهن في الليل مهما تكن الأسباب.

ويخص السجون بنصيب وافر من عنايته فيطلب منه أن يهتم بها كل الاهتمام. ولكن الطريف في الأمر هو توكيده على ضرورة حلق لحى الأسارى الفرنج كلما نبتت لكيلا يتشبهوا بالمسلمين. كذلك يطلب إليه الاحتراز على أبواب أسوار مدينة القاهرة وإيجاد حرس يطوف الليل كله حول القاهرة. ثم يخص بعنايته أفراد الجيش الذاهب إلى حرب التتار، فيطلب إلى نائبه أن يهتم شخصياً بمسائل

أموالهم وإعالتهم وأجورهم والإنفاق على أسرهم حتى لا ينشغل بالهم وهم في الجبهة

ولقد ركز السلطان تركيزاً كبيراً على شؤون الري والصرف والترع والجسور، وطلب من نائبه إلزام الجميع العمل فيها، وأن لا مهلة ولا رخصة في هذا الأمر لأي إنسان كان. وأن ولاة الأقاليم مسئولون مسؤولية كاملة عن هذا الأمر، وأن أي نقص أو خلل يقع في ناحية من النواحي فإن العقوبة الوحيدة للمسؤول عنها هي الإعدام.

ثم يعود للتوكيد على الشؤون الأمنية حول المدن وعلى الطرقات بين المدن ويطلب إليه ضبط الثغور ومراقبتها ومراقبة حركة الدخول والخروج إليها خوفاً من الجواسيس وقطاع الطرق، وأن يتفقد التحصينات والقلاع والذخائر والمهمات. كذلك يؤكد على الشؤون المالية فيطلب إليه ألا يتساهل في أمور الضرائب وأن يحصلها أجمل تحصيل وأن يودعها بيت المال[1].

وبذلك يكون هذا العهد دستوراً يبين حقوق نائب السلطان وواجباته وما هي المهمات المنوطة به. ولقد كال الملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصوري الألقاب كيلاً بلا حساب للأمير سيف الدين سلار المنصوري لما جعله نائباً للسلطنة سنة ٧٠٨هـ: وكان الجناب الكريم العالي الأميري الكبيري العالمي العادلي الكاملي المؤيدي الزعيمي الغياثي المسندي الممهدي المشاغري المظفري المنصوري السيفي، معز الإسلام والمسلمين، سيد أمراء العالمين، سند الممالك، مدبر الدول، مقدم العساكر أمير الجيوش، كهف الله، حصن الأمة، نصرة الملوك والسلاطين (سلار المنصوري) نائب السلطنة المعظمة وكافل الممالك الإسلامية ـ أعز الله نصره ـ هو واسطة عقد الأولياء وسيف الدولة الفاتك

(١) ابن الفرات. المصدر المذكور آنفاً جـ ٧، ١٩٦ ـ ٢٠٠.

بالأعداء [١]... اقتضى حسن الرأي الشريف أن توفى حقوق مودته التي أسلفها لنا في كل نعمى وبؤسى، وأن نضاعف علو مكانه من أخوتنا ليكون منا كهارون من موسى، لذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي المظفري الركني... أن تكون كلمة الجناب الكريم العالي الأميري السيفي المشار إليه... نافذة في كفالة المهالك الإسلامية. متحكمة في نيابة السلطنة المعظمة [٢].

وإن المرء ليعجب من أولئك القوم، وتمسكهم وإصرارهم على مثل هذه الألقاب الفارغة التي لا تعني شيئاً ذا غناء، وكلها، إن دلت على شيء، فإنما تدل على تفاهة اهتمامات مثل هؤلاء، وضحالة تفكيرهم وضعف نفوسهم.

والواقع إن دراسة تطور ألقاب الخلفاء والسلاطين والحكام في الإسلام ممتعة ومهمة وتكشف جانباً مهماً من تطور النظرة الإسلامية أو بالأحرى نظرة المجتمع الإسلامي والمسلمين وتطور تفكيرهم واهتماماتهم في مثل هذه الأمور.

فالخلفاء الأوائل لم يلقبوا بشيء سوى خليفة رسول الله وأمير المؤمنين. ولقد ظل الأمر على هذه الصورة طوال عهد الخلافة الراشدة والأمويين. والعباسيون أول من تلقبوا بألقاب أخرى إلى جانب ألقاب الخلافة وإمرة المؤمنين. فالمأمون اسمه عبدالله وتلقب بالمأمون وكذا جميع الخلفاء العباسيين. والملاحظ أنه كلما ازداد الخلفاء ضعفاً ازداد تمسهكم بالألقاب الطنانة الرنانة وإصدار العهود المطولة التي لا تغني شيئاً، حتى إذا وصلنا إلى الخلفاء الفاطميين وجدنا بعض خلفائهم يلقبون بألقاب فيها مغالاة كبرى ويهتمون بهذه الأمور كل الاهتمام. أما في دولة المماليك حيث ساد الجهل واقتصر الحكم على إقليمي سورية ومصر، فقد اهتم القوم بالألقاب كل الاهتمام وتباروا بها، وكلما ازداد الحاكم جهلاً

---

(١) النويري. المصدر المذكور آنفاً جـ ٨، ١٣٥ - ١٤٠.

(٢) نفس المصدر.

وضعفاً وسخفاً ازداد تمسكاً بهذه الألقاب التي لا تساوي ثمن الحبر الذي تكتب به.

شؤون الوزارة والوزراء:

لم يكن للوزارة شأن كبير في دولة المماليك، ولم يبرز فيها وزراء عظام. وهذا وضع طبيعي في دولة عسكرية إقطاعية قامت على الجيش وعلى القوة المجردة وحدها. ولا سيما إذا تذكرنا تدهور الحياة الديوانية والفكرية فيها في أواخر أيامها.

وليس لدينا سوى تقليدين لشخصين قلدا الوزارة في عهد الظاهر بيبرس والسلطان الناصر محمد بن قلاوون، وليس فيها شيء يخرج عن المألوف في العهود. واللطيف أن لقب الوزير في دولة المماليك كان الصاحب. وقد تحدر هذا اللقب إلى المماليك من الدولة العباسية لا شك. ونحن نعلم أن أول وزير لقب بالصاحب هو الصاحب بن عباد وزير البويهيين في أواخر القرن الرابع الهجري. ولقب بالصاحب لأنه كان يلازم مصاحبة ابن العميد وزير البويهيين الشهير. وإن مرسوم تقليد الوزير الوزارة أغدق عليه الألقاب بحساب وبغير حساب وأطلق يده في تدبير أمور المملكة الإدارية. لا اعتراض على أوامره، الجميع ملزمون بطاعته... إن القلم المبارك الصاحبي البهائي في جميع هذه الممالك مبسوط، وأمر تدبيرها به منوط، وعناية شفقته لها تحوط. وله النظر في أحوالها وأموالها، وإليه أمر قوانينها ودواوينها، وكتابها وحسابها ومراتبها، ورواتبها وتصريفها ومصروفها. وإليه التولية والصرف، وإليه تقدمة البدل والنعت، والتوكيد والعطف، وهو صاحب الرتبة التي لا يحلها سواه وسوى من هو مرتضيه من السادة الوزرانية، ومن سمينا غيره وغيرهم بالصحوبية[1].

---

(١) السيوطي، المصدر المذكور آنفاً جـ ٢، ٢١٧ ـ ٢٢١.

شؤون الولايات والولاة:

لقد كان النظام الإداري في دولة المماليك معقداً كل التعقيد وذلك بسبب طبيعة الدولة وطبيعة تكوينها الشعبي والإداري والعسكري. ففي دولة كدولة المماليك، الجيش عماد الدولة وكل شيء فيها متعلق بالجيش وبقائده الذي هو بالغالب السلطان، وقد تألفت دولة المماليك من إقليمي سورية ومصر، إلى جانب الحجاز، كما كان للمماليك نفوذ كبير في اليمن والنوبة. هذا؛ ولقد حوت دولة المماليك في بلاد الشام، مملكة صغيرة من بقايا الأيوبيين هي مملكة حماة والتي ظل حكامها ملوكاً وراثيين يعودون بأصولهم إلى أحد فروع آل أيوب، يعترفون بسلطة المماليك الفعلية، والمماليك بالمقابل يعترفون لهم بحقهم الوراثي في حماة فترة طويلة من الزمن، وظل الأمر كذلك حتى منتصف القرن الثامن الهجري عندما ألغيت ملكية آل أيوب لحماة وأصبح حاكمها أميراً مملوكياً يعينه السلطان. كذلك كان هناك القبائل العربية المنتقلة في سورية ومصر، وكان لها شأن يذكر في شؤون الأمن والإدارة الداخلية. وفي الحروب الخارجية ضد الغزو المغولي. وكان على سلاطين المماليك أن يرضوا رؤساء هؤلاء القبائل ليضمنوا ولاءها من جهة، وأن يضبطوها ليمنعوها من العبث بالأمن والإخلال بالنظام من جهة ثانية، كما كان على سلاطين المماليك أن يراقبوا أحوال الحجاز بعين يقظة وحذر، وأن لا يسمحوا بوجود حاكم قوي فيه، وأن يقمعوا أية محاولة للاستقلال فيه أو استغلال الظروف أو إخلال بالأمن وذلك لمكان الحجاز الهام جداً في العالم الإسلامي، وكونه مكاناً يؤمه المسلمون من كل أنحاء الأرض كل عام لتأدية فريضة الحج. والملاحظ أن الولاة في دولة الممالك كانوا، في الأعم الأغلب، من العسكريين، وذلك بسبب طبيعة النظام العسكري للدولة، وطبيعة الظروف التي كانت تعانيها. وإن هذا النظام الذي كان مصدر قوة للدولة عند وجود سلاطين أقوياء كالظاهر بيبرس وقلاوون والناصر، أصبح مصدر ضعف

واضطراب كبير عند ضعف الدولة ووجود سلاطين ضعفاء. ذلك أن حكام الولايات كانوا مصدر شر كبير، وكانوا يحاربون السلاطين ويحارب بعضهم بعضاً بسبب الطمع في منصب السلطنة، لأن الوالي كان قائد الجيش المرابط في تلك الولاية. ولما كان امتلاك القوة خطراً إذا كان الشخص الذي يمتلكها شخصاً غير متزن، أو متصفاً بصفات معينة، كما كان الحال مع ولاة المماليك. لذلك تعرضت دولة المماليك لهزات عنيفة وحروب داخلية مدمرة واضطرابات كثيرة كانت من أكبر عوامل ضعفها وتحللها وسقوطها.

بعد هذا العرض السريع نأتي بلمحات عن شؤون الولاة والولايات زمن عدد من السلاطين الذين لدينا وثائق إدارية من عهدهم.

إن شخصية الملك الظاهر بيبرس شخصية معروفة بقوتها وذكائها وشجاعتها وحزمها وكفايتها العسكرية والإدارية. وهناك ناحية أخرى في شخصيته تكشف عنها الوثائق وهي حدبه وعطفه على الولاة ومشاركتهم السراء والضراء، وتواضعه وإشعارهم ذلك بشكل مستمر. فقد تضايق عدد من أمرائه من أنهم يحملون بأنفسهم الحجارة ليساهموا في تهيئة خندق طمه العدو بالحجارة قبل رحيله وأرسلوا له يتشكون ما يلقون فأجابهم أنه مثلهم يعمل كما يعملون ويتعب كما يتعبون: ... إنا بحمد الله ما تخصصنا عنكم براحة ولا دعة، ولا أنتم في ضيق ونحن في سعة. ما هاهنا إلا من هو ناقل للأحجار ومرابط للكفار وقد تساوينا في هذه الأمور، وما ثم ما تضيق به الصدور [1].

كما نجد نفس الروح الأخوية الحازمة المشاركة لدى بيبرس في رسالة أخرى وجهها لأكابر الأمراء بعد أن قام بجولة تفقدية في بلاد الشام سنة ٦٧٠ هـ وبمنتهى السرية:

---

(١) المقريزي، المصدر المذكور آنفاً جـ ١، ق ٢، ٥٢٥.

أخوكم ووالدكم يسلم عليكم ويتشوق إليكم وإيثاره ألا يفارقكم، وإنما قدمنا راحتكم على راحتنا، فطالما تعبوا واسترحنا، ونعلمهم بالمتجددات ليكونوا لها كالمشاهدين وكمشاركينا في أكثر المجاهدين[١]... وبعد أن يخبرهم خبر التتار وزحفهم على سورية وخبر الفرنج وخبر ثورات الأعراب والإسماعيلية وما شاكل يختم رسالته بقوله: وأنا والله لا أبيت إلا وخيلي مشدودة، وأنا لابس قماشي حتى المهماز[٢]

فهو عوضاً عن أن يصدر أمره إليهم بالاستعداد الدائم لأن العدو على الأبواب، أخبرهم أن العدو على الأبواب وبحركة العدو واحتمال زحفه على بلاد الشام، وضرب لهم المثل بنفسه بأنه في حالة استنفار دائم وخيله مشدودة وسلاحه إلى جانبه

ولقد تابع نفس السياسة ونفس خط السير السلطان الملك المنصور قلاوون، وعالج عدداً من القضايا من أهمها قضية القبائل العربية في الشام وتنافسها وتنافس أمرائها على الإمرة.. ولقد نشب نزاع بين القبائل العربية في سورية الوسطى حول المراعي والاستيطان، ونشب صراع بين أفراد الأسرة الواحدة حول رئاسة القبائل فحل ذلك السلطان بأن جعل زعامة القبائل العربية في تلك المنطقة لآل فضل وآل علي وعيّن لهذه القبائل منازلها وواجباتها ومهامها، وعين لزعامتها أحد شيوخها وهو الأمير فخر الدين عثمان وقد ذكر السلطان في مرسوم تعيين هذا الأمير أميراً على عرب آل فضل وآل علي، واجباته التي تتلخص أولاً وآخراً بالطاعة:... وليجمعهم على الطاعة فإن الطاعة ملاك الأمر للآمر[٣]... ثم يطلب منه أن يحفظ عليهم أنسابهم لأهمية الأنساب القصوى

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) ابن الفرات. المصدر المذكور آنفاً جـ ٧، ١٧٧ - ١٧٩.

لدى العربان، وأن يعامل كل فرد من أفراد القبائل بموجب حسبه ونسبه. كذلك يطلب منه أن يراعي بدقة أماكن نزولهم ومراعيهم ومراتعهم، وأن يؤمن النظام بينهم ويمنعهم من العبث بالنظام والأمن، وأن يدفعوا الرسوم المقررة عليهم، فذلك خير له ولهم[1].

وقد لجأ الملك المنصور قلاوون إلى تعيين شخصين بآن واحد لإدارة شؤون بعض القلاع الهامة، فقد أصدر مرسوماً سنة ٦٧٩ هـ قلد بموجبه الأمير سيف الدين الباسطي نائباً في قلعة صرخد (صلخد الحالية في سورية) والأمير عز الدين والياً عليها، وذلك رغبة منه في أن لا يجعل أحدهما مستقلاً في حكم مثل هذه القلعة الهامة، والتي قد تشكل خطراً عليه إذا ما تمركزت السلطة كلها في يد شخص طموح قوي. وقد بين لهما في مرسومه هذا واجباتهما تجاه الرعايا وتجاه السلطان وتجاه القلعة ذاتها، وهي وصايا تكشف كلها عن نفس خيرة وعن عقلية حازمة إدارية مطبوعة على العدل والتيقظ والانضباط ووضع الأمور في نصابها، وتدل على الانضباط الذي كان يمارسه السلطان قلاوون على ولاته ويأخذهم به فقد نظم لهما جدول أعمالها وبين لكل واحد منهما واجباته وحقوقه، حتى لا يطغى أحدهما على الآخر وحتى لا يحدث بينهما نزاع على السلطات والاختصاص. فقد أمرهما أولاً بمرضاة الله تعالى واعتماد ما يرضيه، والعدل في الرعية وعدم ظلمها. ثم يطلب منهما الكشف عن أسوار القلعة وإصلاحها والمحافظة عليها وإخباره بذلك حتى يطمئن إلى ذلك وإلى أن تعليماته نفذت بحذافيرها. كذلك يطلب إليهما الانتباه إلى قضية الذخائر في القلعة والمال والأسلحة والمؤن والرواتب والحامية والمدافعين عن القلعة. هذا ونلاحظ في هذا المرسوم اهتمام السلطان الملك المنصور قلاوون بدقائق الأمور، حتى بقضية بسيطة

---

(١) نفس المصدر.

مثل قضية مفاتيح القلعة وفتح أبوابها كل يوم وإغلاقها، وقضية الغلال وخزنها مما يوحي بمقدار اهتماماته ومقدار مركزيته في كل أمر دقيق وجليل [١].

ونجد نفس الروح في أغلب المراسيم الإدارية التي أصدرهـا السلطان قلاوون يقلد بموجبها عدداً من الولاة. ولقد كان السلطان قلاوون يكثر من الاحتياط مع بعض الولاة الذين لهم شأن، ولولاياتهم مكانة خاصة وأهمية خاصة، كما فعل مع أمير مكة المكرمة نجم الدين أبو نمي الذي قلده إمارة مكة المكرمة سنة ٦٨١ هـ. ولكي يضمن ولاءه فقد جعله يقسم يميناً مغلظة بالولاء له شخصياً ولأولاده ووارثي ملكه من بعده، وذلك طبعاً للأهمية القصوى والخاصة التي يعلقها السلطان وعامة المسلمين على الأماكن المقدسة وعدم اضطراب الأمور فيها او خروجها من يد الحاكم إلى يد غير أمينة، وفي ذلك ما فيه على سياسة السلطان وحسن سير الأمور في بلاده ولذلك نجد السلطان يحتاط كل الاحتياط في هذا الأمر ويأخذ من أبي نمي من العهود المؤكدة والأيمان المغلظة ما يعتقد أنها قد تمنعه من الخروج عليه أو نقض عهده: إنني أخلصت نيتي وأصفيت طويتي، وساويت بين باطني وظاهري في طاعة مولانا السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح، وطاعة أولادهما ووراثي ملكهما، لا أضمر لهم سوءاً ولا غدراً في نفس ولا ملك ولا سلطنة [٢]... وإنني والله أستمر بتفرد الخطبة والسكة بالاسم الشريف المنصوري، وأفعل في الخدمة فعل المخلص الولي، وإني والله والله أمتثل مراسيمه، امتثال النائب المستنيب [٣].

ولقد امتازت علاقة السلطان المنصور قلاوون مع مملكة حماة الأيوبية وسلطانها بالمجاملة اللطيفة والمراعاة الصريحة من كلا الجانبين، ذلك أن

---

(١) نفس المصدر، جـ ٧، ١٩٢ - ١٩٥.

(٢) القلقشندي، المصدر المذكور آنفاً جـ ١٣، ٣١٨ - ٣١٩.

(٣) نفس المصدر.

المماليك - أو بالأحرى أوائلهم - لم يريـدوا أن ينهوا حكم الأيوبيين في حماة طالما بقي هؤلاء مخلصين لهم وخاضعين لسلطانهم ولا يفكرون بالاستقلال أو إعادة المجد القديم. كما أن هؤلاء الملوك الأيوبيين امتازوا بالواقعية والدقة واللباقة والذكاء وبعد النظر والدهاء السياسي، مما مكنهم أن يحتفظوا بحماة مملكـة أيوبية أكثر من مائة سنة بعد زوال ملك الأيوبيين من سورية ومصر، ذلك أن ملك حماة الملك المنصور الأيوبي أراد أن يورث ابنه محموداً عرشه، ولكن كان من بعد النظر والدهاء واللباقة والذكاء بحيث لم يفعل ذلك مباشرة، وإنما أرسل رسالة إلى السلطان الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨٣ هـ لما أحس بدنو أجله يخبره فيها بمرضه وأنه عبد يوشك أن يدعى فيجيب، ويخبره فيها برغبته في أن يرث ابنه منصبه ويمت له بخدماته التي أسلفها للبيت القلاووني خاصة، ولحكام المماليك عامة. ولقد كان جواب الملك المنصور قلاوون قطعة فريدة في بابها بما تضمنته من العواطف الصادقة والتجاوب الذي يجاوز المألوف والمأمول تجاه حاكم حماة وطلبه هذا، وقد تمنى في رسالته هذه لسلطان حماة الشفاء العاجل؛ وهو يصف نفسه بالمملوك، ويخبره أنه أولى من حفظ العهود والمواثيق، وأن ولده سيحل محله بعد عمر مديد للوالد: ... ونحن بحمد الله فعندنا تلك العهود ملحوظة وتلك المودات محفوظة. فالمولى يعيش قرير العين فما ثم إلا ما يسره من إقامة ولده مقامه لا يحول ولا يزول [1] ...

ولما بلغه وفاة الملك المنصور ملك حماة، أرسل رسولاً خاصاً مع تقليد وخلعة، وهناك نصب ولده مكانه ملكاً على حماة وألبسه الخلعة ولقبه الملك المظفر [2].

---

(١) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل «المختصر في أخبار البشر» القاهرة. جـ ٤ - ١٩.

(٢) ابن عبد الظاهر، محيي الدين «تشريف الأنام والعصور» تحقيق مراد كامل. القاهرة وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٦٩م. ١١٩ - ١٢١.

ولقد امتاز عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بطوله واضطراب الأمور في أوله، إذ أنه تخلى عن العرش مرتين ثم أعيد، وذلك لصغر سنه، ثم باستقرار الأمور بقية عهده. وفي عهده بلغت دولة المماليك أوجها، فقد انتصرت على المغول انتصارات رائعة وردتهم عن بلاد الشام، وصفا حكم سورية ومصر والنوبة والحجاز للسلطان المملوكي، وتوطد نفوذه في اليمن، وهدأت الثورات والفتن الداخلية نوعاً ما، وأصبح للسلطان هيبة وقوة، وازدهرت الحياة الاقتصادية وتنشطت العلاقات والمبادلات التجارية الداخلية والخارجية مما جعل عهد السلطان زاهراً بهذا الشكل. وكان لشخصيته ومقدرته وكفايته الإدارية والتنظيم الإداري الذي اتبعه في عهده، وورث أغلبه عن أبيه، دور مهم في هذا الاستقرار.

ولقد اتبع السلطان الناصر محمد بن قلاوون نفس الخط الإداري الذي سار عليه أبوه من قبله؛ وقابل وواجه مشاكل مقاربة مماثلة لتلك التي واجهها والده، وكان موقفه تجاهها موافقاً ومقارباً للموقف الذي اتخذه أبوه تجاهها. فعند نظرنا للأشخاص الذين عينهم السلطان للولايات، نجدهم أشخاصاً جمعوا بين السيف والقلم، وكانت مهمتهم إدارية وعسكرية، كالعادة كانت المراسيم التي أصدرها السلطان الناصر عن تقليد هؤلاء الحكام مناصبهم هذه مناسبة جيدة لإبراز المقدرة اللغوية والبلاغية وفصاحة كاتب المرسوم، كما كان فرصة ممتازة لمدح السلطان والإطناب في ذلك إلى درجة الإملال، والتوجه بالدعاء إلى الله العلي القدير الذي ألهم هذا الحاكم أن يفعل ما فعله. كذلك لا ينسى كاتب المرسوم أن يطنب في ذكر مميزات وأخلاق الشخص المعني إطناباً غير معقول وجاوز الغاية في ذلك. ولما كان الجناب العالي هو السيفُ الذي على عاتق الدولة نجاده، والليثُ الذي لم يزل في سبيل الله إغارته وإنجاده، والغيثُ الذي يخصب بمعدلته البلد والساحل، والأسدُ الذي تصدّ ساكني البحر مهابتُه فيتحققون أن العطب لا

السلامة في الساحل، اقتضت آراؤنا الشريفة أن نزيد حد عزمه إرهافاً[١]... فلذلك رسم بالأمر الشريف أن تفوض اليه نيابة السلطنة الشريفة بصفد المحروسة، تفويضاً يعلي قدره ويمضي في عموم مصالحها وخصوصها نهيه وأمره، ويرهف في حفظ سواحلها وموانيها بيضه وسمره، ويُصلي مجاوزها من ساكني الماء من بأسه المتوقد جمره[٢].

كذلك واجه الناصر مشكلة قبائل آل فضل وآل علي. ذلك أن أحد أمراء آل فضل ثار ضد السلطان الناصر وانضم إلى منافسه قراسنقر الأفرم، على حين ظل أخوه شجاع الدين مخلصاً للسلطان فخلع الناصرُ لما انتصر على خصمه أخاه، ونصبه أميراً على آل فضل وكان ذلك سنة ٧١٨ هـ. ولقد أشاد المرسوم بهذا الأمير وذكره، وبين أن السلطان قد كافأه وكافأ إخلاصه، وأن هذا هو ثمرة الإخلاص ونتيجته:... فإن أولى من أجنته الطاعة ثمرة إخلاصه، ورفعته المخالصة إلى أسنى رتب تقريبه واختصاصه، وألف بمبادرته إلى الخدمة الشريفة قلوب القبائل وجمع شملها، وقلده حسنُ الوفاء من أمر قومه وإمرتهم ما يُستشهد فيه بقول الله تعالى: ﴿وكانوا أحق بها وأهلها﴾، من ارتقى إلى أسنى رتب دنياه بحفظ دينه، ودل تمسكه بأيمانه على صحة إيمانه وقوة يقينه[٣].

وكما كان الملك المنصور قلاوون مخلصاً لآل أيوب في حماة ومعتنياً بهم، كذلك كان الملك الناصر ابنه مخلصاً ومتمسكاً بنفس الأسرة التي بادلته إخلاصاً بإخلاص. ولقد عاصر الملك الناصر في حماة، الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء الشهير صاحب التاريخ العام والجغرافية العامة، والملك الناصر هو الذي نصبه ملكاً عليها: الحمد لله الذي عضد الملك الشريف بعماده، وأورث

---

(١) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً جـ ١٢، ٢٠٥ ـ ٢٠٨.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر. جـ١٢، ١١٨ ـ ١٢٠.

الجد السعيد سعادة أجداده، وبلغ ولينا من تباهى ببابه ملوك بني الأيام غاية مراده[1] ... وقلدناه ذلك تقليداً يضمن للنعمة تخليداً وللسعادة تحديداً[2].

ولقد أظهر أبو الفداء ذكاء وكياسة في إدارة مملكته، وكان مطلعاً على الجو العام الذي يحيط بالملك والمملكة، والتنافس بين الأمراء وولاة الولايات وما شاكل. ولقد لاحظ أن نائب حلب وهو شخص قوي ذو نفوذ كبير لدى السلطان، بدأ يدس عليه لدى السلطان، فخاف أبو الفداء دسائسه فأراد إرضاءه، فما كان منه إلا أن اقترح هو نفسه على السلطان أن يسلخ معرة النعمان عن مملكة حماة ويلحقها بحلب. وقد تم الأمر كما رسم وأرضى بذلك حاكم حلب وأمن كيده.

كذلك أصدر الملك الناصر مرسوماً يقضي بإسناد إمرة مكة المكرمة إلى أسد الدين رميثة بن أبي نمي، وأخذ عليه من العهود والمواثيق ما أخذه على أبيه لما عينه لنفس المنصب، والملاحظ في مرسوم تقليده أن السلطان اختصه بالأمرة وحده ولم يشرك معه أحداً فيها، وأنه صفح عن هنات سبقت من بيته..: هو الذي ما زالت خواطرنا الشريفة تقدمه على بني أبيه، وتختاره أمراً وتجتبيه، وربما سلفت من بيته هناتٍ صفحنا عنها الصفح الجميل[3] ... والآن وقد اقتضت آراؤنا الشريفة أن نقيمه في بلده أميراً مفرداً إليه يشار، وأن نصطفيه، وإنه عندنا لمن المصطفين الأخيار، وأن نجعل الكلمة واحدة ليأمن النزيل والجار، ومتى تجاذب الأمر كلمتان فسد نظامه، ومتى أفرد الحكم حسنت أحكامه[4].. كذلك صدف أن السلطان الناصر كان آخر سلطان يصدر تقليداً يقلد به أميراً

---

(١) أبو الفداء. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٤، ٦٨ - ٦٩.

(٢) نفس المصدر.

(٣) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ١٢، ٢٣٣ - ٢٣٦.

(٤) نفس المصدر.

من آل أيوب مملكة حماة، إذ أنه أصدر سنة ٧٣٢ هـ مرسوماً قلد بموجبه الملك الأفضل بن أبي الفداء مملكة حماة، وهو آخر من وَليها من آل أيوب [١].

وليس لدينا وثائق تخص الولايات والولاة بعد زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون.

شؤون إدارية:

ونعني بها مشاكل إدارية وشؤون إدارية أقل أهمية من حكم الولايات وتعيين الحكام والولاة.

ولقد كان من حسن حظ الملك الظاهر بيبرس أن وجد في زمنه أشخاص أتقياء شجعان كانوا يوجهونه التوجيه الصحيح الشرعي كلما أحسوا أنه انحرف عن جادة الشرع وحاد كأمثال العز بن عبدالسلام في مصر والنووي في دمشق وبلاد الشام. ويبدو أن السلطان تصرف ذات مرة تصرفاً لم يعجب الإمام النووي وجماعة العلماء الملتفة حوله، فأرسل النووي باسمه واسم الجماعة رسالة إلى السلطان تتضمن العدل في الرعية وإزالة المكوس ووجهها له عن طريق والي دمشق الأمير بدر الدين بيليك الخزندار. والطريف في الموضوع أن النووي افتتح رسالته على الطريقة الشرعية في الخطاب: من عبدالله يحيى النووي [٢] ثم يعرض له أوضاع الشام وأوضاع أهلها من قلة الأمطار والجدب والغلاء وهلاك المواشي، وإن ذلك كله يوجب الشفقة عليهم، وأنهم يقدمون رسالتهم هذه له ليوصلها إلى السلطان، وهي نصيحة محضة وشفقة وذكرى لأولي الألباب... [٣] فيجب عليكم إيصاله للسلطان ـ أعز الله أنصاره ـ وأنتم مسؤولون عن هذه الأمانة،

---

(١) نفس المصدر. جـ ١٠، ١٨٤ ـ ١٨٧.

(٢) السيوطي. المصدر المذكور آنفاً، جـ ٢، ٩٧ ـ ١٠٣.

(٣) نفس المصدر.

ولا عذر لكم في التأخر عنها، ولا حجة لكم في التقصير عنها عند الله تعالى [١].

ولقد كان رد السلطان عنيفاً على النووي وبقية العلماء. وعلى الرغم من أنه ليس لدينا نص رد السلطان، إلا أننا عرفناه من الرسالة الجوابية الثانية التي أرسلها النووي باسمه واسم العلماء، إلى السلطان جواب رسالته تلك. فقد هدد السلطان العلماء وأنكر عليهم تدخلهم فيما لا يعنيهم ووبخهم. ثم ذكر لهم أنه هو وجنوده يجاهدون في سبيل الله، وهم ـ أي العلماء وبقية العامة ـ لا يجاهدون. ثم يذكر السلطان النووي ورفاقه بأياديه البيضاء التي أسلفها في خدمة الإسلام وفتوح البلدان وقهر الأعداء. فقد افتتح النووي رسالته الثانية بالأسلوب الشرعي فبدأ بنفسه، ثم فند أقوال السلطان بنداً بنداً... فجاء الجواب بالإنكار والتوبيخ والتهديد، وفهمنا منه أن الجهاد ذكر في الجواب على خلاف الشرع، وقد أوجب الله إيضاح الكلام عند الحكام للحاجة إليه [٢]...

وذكر في الجواب أن الجهاد ليس مختصاً بالأجناد، وهذا أمر لم ندعه... فإذا قرر السلطان له (للجهاد) أجناداً مخصوصين، ولهم أخبار معلومة من بيت المال... تفرغ باقي الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم... فجهاد الأجناد مقابل بالأخباز المقررة لهم [٣]. ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شيء ما دام في بيت المال شيء من نقد أو متاع أو أرض أو ضياع تباع أو غير ذلك... وبيت المال بحمد الله معمور [٤]...

ثم ينتقل إلى تذكير السلطان بأن الإنسان المؤمن يستعين في جهاده بالله تعالى

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

واتباع آثار النبي ﷺ ، وأنه هو وزملاؤه ينصحون للسلطان لأن الدين النصيحة (١) .

ثم يقول للسلطان أنه ليس من المرجو من عدل السلطان أن يهدد الرعية والعلماء بسبب نصيحتهم له ، وأن النووي نفسه لا يضره التهديد ولا أكثر منه ولا يمنعه ذلك من نصيحة السلطان فهذا واجب عليه ألزمه به الله تعالى (٢) .

ثم ينتقل النووي إلى الرد على السلطان عندما ذكر العلماء أنهم لم ينكروا على الكفار لما كانوا في البلاد ، فيقول له أنه لا يقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان والقرآن بطغاة الكفار : وبأي شيء كنا نذكر طغاة الكفار ، وهم لا يعتقدون شيئاً من ديننا (٣) .

وأخيراً يرد على السلطان افتخاره بتمهيد البلاد وإدامة الجهاد وفتح الحصون وقهر الأعداء فيقول له : إن هذه أمور معروفة شائعة وطارت في الآفاق... وثواب ذلك مدّخَر للسلطان إلى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً (٤) .

ويبدو أن هذه الرسالة الثانية زادت السلطان غيظاً فلجأ إلى فرض حوطة على أملاك أهالي دمشق ورفض أن يرفع هذه الحوطة حتى يثبت كل فرد ملكيته لما يدعي امتلاكه . ويبدوأن الأمر كان شاقاً على أهالي دمشق فأرسل النووي رسالة ثالثة يطلب من السلطان أن يطلق للناس أملاكهم ويعظه ويذكره بالآيات الشريفة والأحاديث النبوية ويرق له في الخطاب : وقد أنعم الله علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان. فقد أقامه لنصرة الدين والذب عن المسلمين، وأذل له

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر .

الأعداء من جميع الطوائف، وفتح عليه الفتوحات المشهورة في المدة اليسيرة[١]... ثم يعود لذكر ما لحق الناس من هذه الحوطة: وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة على أملاكهم أنواع من الضرر لا يمكن التعبير عنها، وطلب منهم إثبات ما لا يلزمهم. فهذه الحوطة لا تحل عند أحد من علماء المسلمين[٢]. ثم يعود للتوسل للسلطان في إطلاق الناس من هذه الحوطة فيقول:... فأطلقهم أطلقك الله من كل مكروه، فهم ضعفة وفيهم الأيتام والأرامل والمساكين والضعفة والصالحون، وبهم تنصر وتغاث وترزق[٣]...

وهكذا أثبت النووي أنه شخص شجاع لا تأخذه في الله لومة لائم وأنه يقوم بأداء واجبه بصرف النظر عما يمكن أن يصيبه، وإن وجود أشخاص من طراز النووي في مجتمع من المجتمعات دليل على حيوية ذلك المجتمع على الرغم من كل ما يمكن أن يوجد فيه.

كذلك لجأ بعض السلاطين، في سبيل تثبيت الشرعية وفكرتها في النفوس، وخصوصاً في نفوس أفراد الجيش إلى جعل أفراد جيشهم يقسمون يمين الولاء لشخصه ولولي عهده وأولاده من بعده، كما فعل الملك المنصور قلاوون لما جعل أفراد جيشه يقسمون يمين الولاء له ولولده وولي عهده من بعده، الملك الصالح علاء الدين علي سنة ٦٧٨ هـ. وهي يمين مغلظة أقسمها أفراد الجيش بالولاء للسلطان ولولده:... والله العظيم لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الطالب الغالب المدرك المهلك الضار النافع[٤]... وفي هذا دليل على مقدار الأهمية التي عقدها سلاطين المماليك على مثل هذه الأمور المعنوية، ودليل على رغبتهم الملحة في

---

(١) نفس المصدر.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.
(٤) القلقشندي، المصدر المذكور آنفاً، جـ ١٣ - ٢٢١.

تثبيت شرعيتهم لدى الجماهير وأفراد الجيش في حكمهم وحكم أولادهم من بعدهم.

كذلك من الأمور المهمة التي اهتم بها حكام مصر خاصة هي قضية وفاء النيل، ذلك أن فيضان النيل الكمية الكافية من الماء في الوقت المناسب أساس لحياة مصر، ولذلك اهتم الحكام غاية الاهتمام بالنيل ووفائه وأقاموا الاحتفالات الكبرى بهذه المناسبة الرائعة، وأصدروا البشارات بذلك إلى مختلف الأقاليم لكي يطمئن الناس. وعلى الرغم من أن نفع النيل وفيضانه يعم المصريين خاصة إلا أن بركته وخيره عام لجميع المسلمين: فقانون الري وإن كان نفعه خاصاً بالديار المصرية، فإن بركته عامة في سائر البرية[1].

وإذا تقدم بنا الزمن في دولة المماليك، لاحظنا الوثائق المشتملة على شؤون إدارية تأخذ بالنقصان حتى تنعدم في أواخر أيامهم، إلى جانب ركاكة أسلوبها وهزاله، كما في الأمان الذي أصدره السلطان الظاهر برقوق لأهالي دمشق سنة ٧٩١ هـ لما ثاروا ضده وحاصرهم ثم طلبوا الأمان فأمنهم[2]. أو في الرسالة التي وجهها شيخ إلى تغري بردي أتابك الناصر فرج بن برقوق، لما ثار ضد السلطان وتحارب معه، فكسره السلطان وحاصره في قلعة صرخد، فأرسل إلى تغري بردي يطلب منه التوسط لدى السلطان للصلح[3].

شؤون الاقطاع والضرائب:

سبق أن قلنا: إن الإقطاع كان منتشراً في دولة المماليك، وإن الإقطاع العسكري كان الأساس في دولة المماليك. فقد أقطع سلاطين المماليك فرسانهم وضباطهم وجنودهم إقطاعات تتناسب مع أهميتهم. وبذلك أصبح هناك طبقة

---

(١) ابن الفرات المصدر المذكور آنفاً جـ ٧ - ١٨٢.

(٢) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً جـ ١٣، ٣٤٦ - ٣٤٩.

(٣) ابن تغري بردي، المصدر المذكور آنفاً جـ ١٣ - ٨٥.

عسكرية حاكمة هي الفئة المقطعة، وبقية الشعب التي تعمل في هذه الإقطاعات، وتقدم الفائض من الحاصلات إلى المقطعين. وكانت عادة السلاطين أن يقطعوا الأمراء الذين أبلوا أحسن البلاء في المعارك ضد المغول والفرنج إقطاعات في الأراضي المحررة تتناسب وبلاءهم وما أنجزوه خلال المعارك التي دارت بينهم وبين أعدائهم كما فعل الملك الظاهر بيبرس عندما وزع واردات قيسارية وأرسوف على عدد من الأمراء الذين أبلوا أحسن البلاء في حروب التحرير ضد الفرنج، وذلك بعد تحريرها من يدهم. والمرسوم مناسبة جيدة للإشادة بالملك وكرمه وحسن نظره وعطفه على جيشه، كما وأنه مناسبة ممتازة للإشادة بالشجعان الذي أظهروا مقدرة كبيرة في المعارك، ودعوة للآخرين أن يحذوا حذوهم. وقد تفاوتت الإقطاعات بين إقطاع فرد واحد قرية بكاملها، كما فعل عندما منح الأمير ركن الدين خاص ترك الكبير الصالحي قرية أفراسين بكمالها [١]، أو إقطاع أميرين قرية واحدة يأخذ كل منهما نصفاً منها [٢]، أو إقطاع ثلاثة أمراء قرية واحدة، أو إقطاع أربعة أمراء قرية واحدة [٣]. وقد بلغ عدد الامراء المقطعين واحداً وستين أميراً أقطعوا أكثر من عشرين قرية [٤].

ولقد استقرت دولة المماليك استقراراً جيداً بعد حكم الملك الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون اللذين حطما الأعداء الخارجين وقضيا على الثوار والمتمردين، وأورث قلاوون ابنه خليلاً دولة مستقرة فتمكن أن يقضي على آخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام. وعلى الرغم من الاضطرابات التي رافقت السنوات الأولى من حكم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، إلا أن ذلك لم يؤثر على سير الأحداث واستمر التقدم والاستقرار في المملكة، وكان لسياسة الناصر

---

(١) المقريزي، المصدر المذكور آنفاً، جـ ١، ق ٢، ٥٣٠ ـ ٥٣٤.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر.

وشخصيته أثر جيد في هذا المضمار. ولقد اعتاد الناس أن يتهربوا في دفع الضرائب، وكان يحدث تراكم في الضرائب، فكان إعفاء الناس من هذه البواقي مناسبة جيدة لرفع أسهم الحاكم الذي يعفي الشعب من ذلك وإكثار شعبيته وجعل الناس يتعلقون به وبعهده، كما وأنها مناسبة لجلب الشعب إلى جانب الحاكم في حالة وجود منافسين له في العرش، ويخوض صراعاً ضدهم كما كان حال الملك الناصر. فقد أعفى الملك الناصر محمد بن قلاوون الجند والرعايا في بلاد الشام سنة ٧٠٢ هـ من بواقي الضرائب المتراكمة في ذممهم، وكان ذلك مناسبة رائعة لمدح السلطان وبيان عطفه وحدبه على الشعب ولا سيما الفقراء منهم، فلذلك رسم بالأمر الشريف.. أن تسامح مدينة دمشق المحروسة وسائر الأعمال الشامية، بما عليها من البواقي المساقة في الدواوين المعمورة إلى المدد المعينة [١]... فليتلقوا هذه النعمة بباع الشكر المديد... وليتوفروا على رفع الأدعية الصالحة لأيامنا الزاهرة [٢]...

كذلك حرص الملك الناصر على إبطال المكوس والضرائب غير الشرعية في طرابلس والمنطقة المحيطة بها وتنظيمها وإلغاء العادات الضارة وغير الشرعية فيها، وبناء المساجد في كل بلدة وقرية حتى يعم ويتأصل دين الإسلام في تلك المناطق [٣].

شؤون قضائية ودينية وتعليمية:

هذه الشؤون كان لها شأن هام في دولة المماليك، واهتم أوائل المماليك خاصة بهذه الأمور لأنها من صلب واجباتهم، ولأنها دليل على سموهم ومدى اهتمامهم بشؤون الشعب.

---

(١) القلقشندي، المصدر المذكور آنفاً جـ ١٣، ٢٨ ـ ٣٠.

(٢) نفس المصدر.

(٣) المقريزي. المصدر المذكور آنفاً. جـ ٢، ٩٣٧ ـ ٩٤١.

ولقد أصدر الملك المنصور قلاوون عدداً من المراسيم التي أغلبها تعليمي يعين بموجبها عدداً من الأشخاص إلى مناصب تعليمية مهمة، وقد حدثت في بلاد الشام ثورة ضد قلاوون إثر خلعه ابن السلطان الملك الظاهر بيبرس عن العرش وحلوله محله، وكان من أعضاء هذه الثورة البارزين المؤرخ المشهور ابن خلكان صاحب كتاب «**وفيات الأعيان**» الشهير. ولقد هزم الثوار وخضدت شوكتهم، ولكن القاضي ابن خلكان ظل ملاحقاً من قبل السلطان حتى أصدر السلطان مرسوماً يقضي بالعفو عنه وإعادته إلى ما كان عليه من القضاء، إنا قد عفونا عن الخاص والعام وما يليق أن نخص بالسخط أحداً على انفراده، وغير خافٍ ما يتعلق بحقوق القاضي شمس الدين بن خلكان وقديم صحبته وخدمته، وأنه من بقايا الدولة الصالحية، وقد رسمنا إعادته إلى ما كان عليه من القضاء [1].

وبعد فترة، أي سنة ٦٨١ هـ، أصدر قلاوون مرسوماً آخر بإسناد التدريس إلى ابن خلكان في المدرسة الأمينية في دمشق: إقراراً للحق في نصابه، ورداً للفضل إلى وطنه بعد معاناة اغترابه [2]. والملاحظ هو الألقاب الفخمة الطنانة الرنانة التي أسبغت على ابن خلكان:... الجناب العالي المولوي القضائي الإمامي الأوحدي الأفضلي الأرشدي الزاهدي العابدي الورعي الناسكي العلوي العلامي الشمسي ضياء الإسلام صدر الأنام بقية الكرام، علامة العلماء بمصر والعراق والشام، كهف الملة ركن الشريعة. شيخ المذاهب مفتي الطرق قدوة العالمين، ظهير الملوك والسلاطين، خالصة أمير المؤمنين أحمد بن الشيخ الإمام العلامة بهاء الدين ابن خلكان [3]. والطريف أن المرسوم يشبه المدرسة الأمينية بنظامية بغداد ويذكر

---

(١) ابن عبد الظاهر، المصدر المذكور آنفاً ص ٧٠.

(٢) اليونيني. المصدر المذكور آنفاً جـ ٤، ١٤٢ - ١٤٤.

(٣) نفس المصدر.

أنها نظامية الشام، وقد أربت على تلك التي أسسها نظام الملك في بغداد، وبالتالي فابن خلكان مرب على الشيخ أبي إسحاق، أول مدرس في نظامية بغداد (١).

كذلك أصدر السلطان قلاوون مرسوماً آخر بتعيين شخص اسمه الشيخ تقي الدين للتدريس في مدرسته التي ابتناها بالقاهرة وسماها باسمه، سنة ٦٨٤ هـ. ومن هذا المرسوم نعلم أن هذه المدرسة تدرس بها المذاهب الأربعة إلى جانب القرآن الكريم والحديث الشريف. وكذلك نعلم أن السلطان عين لكل مذهب شيخاً، وأنه اختار تقي الدين هذا لتدريس مذهب الإمام مالك. وهنا يطنب المرسوم بوصف هذا الشيخ ومدحه ومزاياه وما يتوقع منه لإقراء الطلبة والدفاع عن مذهب الإمام مالك والقيام بالواجب الملقى على عاتقه (٢).

ويبدو أنه كان للصوفية رؤساء وشيوخ يرعون شؤونهم ويقومون بأودهم ويوزعون الأعطيات بالعدل عليهم، كما كان لهم شيخ للشيوخ يعينه السلطان نفسه، فقد أصدر الملك المنصور قلاوون، سنة ٦٨٤ هـ، مرسوماً بتعيين الشيخ شمس الدين مشيخة الشيوخ في خانقاه سعيد في القاهرة، وقلده المرسوم الإشراف على شؤون الصوفية، وعلى شؤون أوقافهم بالخانقاه الصلاحية المعروفة بدار سعيد السعداء، وخانقاه الفيوم وخانقاه المشطوب بالقرافة(٣). ويذكر له المرسوم واجباته حيال الأشخاص وحيال الأموال وحيال الأماكن وحياطتها وصيانتها وتثميرها(٤).

كذلك اهتم الملك المنصور قلاوون بالطب وأهله وترقيته، وحرص ألا يدخل إلى هذا الاختصاص إلا من هو مستحق لذلك، فقد أسند سنة

---

(١) نفس المصدر.

(٢) ابن الفرات، المصدر المذكور آنفاً جـ ٨، ٢٧ ـ ٢٨.

(٣) نفس المصدر جـ ٨، ٢٩ ـ ٣٠.

(٤) نفس المصدر.

٦٨٤ هـ، رئاسة الطب إلى إخوة ثلاثة، هم القضاة مهذب الدين وعلم الدين وموفق الدين أبناء أبي خليفة. وهو يذكر في مرسومه هذا أنه اهتم بما يصلح دين وأبدان رعيته، فبنى المدارس والخوانق للغاية الأولى، وبنى المارستانات وعين الأطباء الأكفاء للغاية الثانية (١). ويقسم المرسوم الأطباء إلى أقسام ثلاثة: فمنهم الطبائعية، ومنهم الجراحون، ومنهم الكحالون. ويطلق يد الأخوة الثلاثة في مراقبة الأطباء وإقرارهم على قواعدهم، والتثبت من كفاءتهم وأخلاقهم، ولهم كف يد من لا تثبت كفاءته أو يرتكب كبيرة. كذلك منحهم حق منع مدعي الطب من الجلوس على الطرقات وتصيد المارة، ومنحهم أيضاً الحق في اختبار كل متستر بهذه الصناعة متظاهر بها، ومنحهم الحق في إثبات من يشاؤون وصرف من يشاؤون، ويذكر المرسوم أنه جعل لمهذب الدين الرئاسة على إخوته وأنه جمع له بين الرئاسة والتدريس، ويذكر أنه أقامه في دولته مقام ابن سينا لأنه الشيخ الرئيس (٢).

وقد أصدر الملك المنصور قلاوون في نفس السنة مرسوماً آخر أسند بموجبه التدريس في بيمارستانه الذي أنشأه في القاهرة إلى مهذب الدين. وهو يذكر في مرسومه همته العظيمة التي دعته لبناء هذا المارستان العظيم، ويذكر أنه أوقف عليه الأوقاف العظيمة، وأنه أباحه لجميع الناس بصرف النضر عن مكانتهم الاجتماعية وثروتهم، وأنه جعله مكاناً للمعالجة ومكاناً لتدريس الطب (٣). وبعد أن يكيل المدح لنفسه ولمهذب الدين يطلب منه أن يقسم طلابه إلى خمسة أقسام: طبائعية، وكحالين، وجراحين، ومجبرين، ومحضري أدوية (٤).

ولقد وجد زمن السلطان العادل كتبغا، قاض للقضاة، عادل محب للعدل،

---

(١) نفس المصدر جـ ٨، ٢٢ ـ ٢٥.

(٢) نفس المصدر.

(٣) القلقشندي، المصدر المذكور آنفاً جـ ١١، ٢٥٣ ـ ٢٥٦.

(٤) نفس المصدر.

فأراد أخذ القضاة الموضوعين تحت إمرته بالعدل وعدم المحاباة، وهو قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد، فأصدر سنة ٦٩٤ هـ بياناً وجهه إلى جميع القضاة في أنحاء القطر المصري يحذرهم وينذرهم ويطلب منهم العدل في الأحكام وعدم محاباة أحد على أحد. والبيان كله تحذير شديد من عقوبة الله وتزهيد في الدنيا وحض على التمسك بأحكام القرآن الكريم والسنة المطهرة(١).

ولقد سار الناصر بن قلاوون على سنن والده في تشجيع العلم والعلماء والصوفية والأطباء، فأصدر المراسيم التي تكشف عن هذا الاهتمام والتي تنظم مثل هذه الأمور.

ولقد ثار الجدل والخصام العنيف بين ابن تيمية وخصومه في دمشق ويبدو أن الجدل كان حاداً ومتشعباً واشترك فيه عدد كبير من أفراد الشعب وأحدث بلبلة وانقساماً في صفوف الشعب حتى اضطر الملك الناصر أن يصدر أمراً سنة ٧٠٥ هـ يمنع ابن تيمية من الخوض في مثل هذه الأمور ويحذر المخالفين وينذرهم(٢).

كذلك اهتم الناصر محمد بن قلاوون بالطب والأطباء فعين شهاب الدين حكيم رئيساً للطب، سنة ٧٠٩ هـ، في مصر وبلاد الشام، وذلك لتنظيم هذه المهنة وصونها وإبعاد المتطفلين عليها(٣).

وكما عين والده شيخاً لمشايخ الصوفية في مصر، عين الناصر الشيخ علاء الدين شيخاً للشيوخ في بلاد الشام(٤).

---

(١) ابن الفرات. المصدر المذكور آنفاً جـ ٨، ٢٠٦ - ٢٠٨.

(٢) الدواداري، عبدالله بن أيبك «كنز الدرر وجامع الغرر» تحقيق رويمر. القاهرة ١٩٦٠م ١٣٩ - ١٤٢.

(٣) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً جـ ١١، ٣٨٠ - ٣٨٣.

(٤) نفس المصدر جـ ١٢، ٤١١ - ٤١٢.

ويبدو أن مشيخة الشيوخ في بلاد الشام كانت تابعة لشيخ للشيوخ مركزه مصر، يعين بمرسوم ملكي، فقد أصدر الناصر مرسومه بتقليد الشيخ نظام الدين الأصفهاني مشيخة المشايخ في الخانقاه الناصرية بسرياقوس وفي الديار المصرية والشامية وسائر أنحاء المملكة. وقد بسط المرسوم يد الشيخ في مواريث الصوفية وأوقافهم، بحيث لا يكون لأمين الحكم ولا لديوان المواريث معه في ذلك حديث... ولا يكون لأحد من الحكام لا من جهة الحسبة ولا القضاة في ذلك حديث معه [1].

ولقد بلغ من أهمية بعض المساجد أن السلطان كان يتدخل بنفسه لتقليد أحد الشيوخ الخطابة فيها. فقد أصدر السلطان منصور عبدالعزيز بن برقوق تقليداً يعهد بموجبه إلى شهاب الدين بن حاجي خطابة جامع بني أمية في دمشق، سنة ٧٠٧ هـ. ولا ندري إن كان ذلك يدل على سمو المنصب أم أنه يدل على هزال السلطان وانصرافه عن الأهم والتفاته إلى الأقل أهمية. وقد نوه المرسوم بجامع بني أمية أجمل تنويه كما نوه بالخطيب ورفعه إلى أعلى الدرجات: (جامع دمشق الذي رست في الفخر قواعده وقامت على ممر الأيام شواهده... ولم تزل الملوك تصرف العناية إلى إقامة شعائر وظائفه وتقتصر من أهل كل فن على رئيس ذلك الفن وعارفه، فما شغرت به وظيفة إلا اختاروا لها الأعلى والأرفع. خصوصاً وظيفة الخطابة التي كان النبي ﷺ للقيام بها متصدياً) [2].

شؤون أهل الذمة:

إن الاهتمام بأمور أهل الذمة من الأمور التي أولاها الإسلام أهمية قصوى. ذلك أن الإسلام أباح حرية الاعتقاد وحرية العبادة لأبناء الديانات الأخرى، إذا قبلوا أن يعيشوا في ديار الإسلام، ولقد اهتم الخلفاء الأوائل بتنظيم أمور

---

(١) نفس المصدر جـ ١١، ٣٧٢ ـ ٣٧٥.

(٢) نفس المصدر جـ ١١، ٧٤ ـ ٧٧.

أهل الذمة تنظيماً يكفل لهم حماية جيدة وعيشاً مطمئناً. وقد أصدر الخلفاء عدداً من العهود التي تنظم علاقة أهل الذمة بالدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي. هذا ويعتبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أول الخلفاء الذين أصدروا العهود الناظمة لوضع أهل الذمة في ديار الإسلام. وجميع العهود التي تلت ذلك العهد جعلته الأساس الذي استندت إليه في تصحيحها لأوضاع أهل الذمة.

وكذلك لم يكن أهل الذمة فئة واحدة، وإنما هناك فئات كثيرة عاشت في ديار الإسلام، فهناك النصارى وهناك اليهود وهناك الصابئة وهناك المجوس... كما أن النصارى كانوا فرقاً كثيرة وكذلك الحال مع اليهود. وكان هناك فتن وقلاقل بين جميع هذه الطوائف، وفي كثير من الأحيان كانت الدولة الإسلامية تتدخل لإقرار السلم بين الأطراف المتخاصمة. كذلك كان الخلفاء والسلاطين يصدرون المراسيم بتقليد رجال الدين المسيحي واليهودي مراكزهم العليا. وكان لأهل الذمة مكانة مرموقة في كثير من الدول الإسلامية، ووصل بعضهم إلى أرقى المناصب الإدارية مما كان يجعل بعض السلاطين يصدر المراسيم محذراً من استخدامهم في شؤون الدولة.

ولقد أصدر الملك المنصور قلاوون، سنة ٦٨٤ هـ، رئاسة اليهود الى المتطبب ابن المهذب. والملاحظ على هذا اليهودي أن اسمه واسم أبيه عربي صميم ويسميه المرسوم: (الشيخ الجليل الرئيس الكافي المقرب الحكيم المهذب تاج الحكماء ثقة الملوك والسلاطين أبو الحسن بن الشيخ الموفق بن أبي النجم بن المهذب...) (١) وقد ذكر المرسوم أن الملك المنصور يهتم بشؤون رعاياه على اختلاف أديانهم: (... فنحن بحمد الله معتنون بمصالح الرعية، وإن اختلفت مللهم وآراؤهم وتفرقت مذاهبهم وأهواؤهم... ونساوي في المعدلة بين قويهم وضعيفهم...

---

(١) ابن الفرات. المصدر المذكور آنفاً جـ ٨، ١٨ - ١٩.

ونساهم في الحق بين شريفهم ومشروفهم[1]...) ثم بعد ذلك يذكر المرسوم الأسباب التي جعلت السلطان يختاره ليحكم بني قومه: (... وكان صدراً في أهل ملته ورئيساً في مذاهبه وشرعته، قد شهر في عشيرته بديانة، وعرف في قومه بكفاية وأمانة، اقتضت الآراء الشريفة أن نجعل له الحديث في أهل ملته، والرئاسة على قومه وأمته...»[2] ثم يطلب منه المرسوم أن يسير فيهم سيرة حسنة... وأن يحملهم على منهج دينهم الذي يدينونه.. وأن يحسن السيرة فيهم بما يقضي باستقامة أحوالهم ويفضي إلى انتظام شملهم، وتألف أفعالهم وأقوالهم لتخلص لنا طاعتهم وتصح لنا نصيحتهم[3].

كذلك اهتم ابنه الناصر بأمر أهل الذمة ومعاملتهم، فقد أصدر سنة ٧٢١ هـ، مرسوماً يقضي بفرض الجزية مضاعفة على نصارى الوجه القبلي خاصة في مصر، ذلك أن جماعة منهم تعدوا وتمكروا وطمعوا وتمادوا في المخالفة إلى ما تقتضي بعض العهود...[4] ولذلك جدد عليهم العهود العمرية (نسبة إلى عمر ابن الخطاب)[5]، وألزمهم تغيير زيهم بأن يلبسوا عمائم زرقاً وجباباً زرقاً، ويشدوا الزنار في أوساطهم[6]... وأمر ألا يستخدم أحد منهم لدى الدولة أو في أعمالها أو لدى أحد أمراء الدولة، وجعل عقوبة المخالف الإعدام[7]. ويبدو أن هذا المرسوم لم ينفذ مما جعل سلطاناً آخر أتى بعد الناصر بحوالي أربع وثلاثين سنة. سنة ٧٥٥ هـ يعيد توكيد هذا المرسوم بشكل أقوى وأشد ويجعله يشمل

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) المقريزي. المصدر المذكور آنفاً، جـ ٢، ٩٦٠ - ٩٦١.

(٥) نفس المصدر.

(٦) نفس المصدر.

(٧) نفس المصدر.

كل أهل الذمة. هذا السلطان هو الملك الصالح، صالح بن الناصر بن قلاوون الذي أعاد توكيد التمييز في اللباس، وتشدد في تطبيق العهد المنسوب إلى عمر ابن الخطاب كل التشدد: (... وهو ألا يحدثوا في البلاد الإسلامية ديراً ولا كنيسة ولا صومعة راهب، ولا يجددوا ما خرب منها، ولا يؤووا جاسوساً ولا من فيه ريبة لأهل الإسلام، ولا يكتموا غشاً للمسلمين، ولا يعلموا أولادهم القرآن، ولا يظهروا شركاً، ولا يمنعوا ذوي قرابة من الإسلام إن أرادوه، ولا يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم، ويلبسون الغيار الأزرق والأصفر، وتمنع نساؤهم من التشبه بنساء المسلمين، ولا يركبوا سرجاً ولا يتقلدوا سيفاً ولا يركبوا الخيل والبغال، ويركبون الحمير بالأكف عرضاً، ولا يبيعوا الخمور، وأن يلزموا بزيهم حيث كانوا، ويشدوا زنانيرهم غير الحرير على أوساطهم، والمرأة البارزة من النصارى تلبس الإزار الكتان المصبوغ أزرق، واليهودية الإزار الأصفر، ولا يدخل أحد منهم الحمام إلا بعلامة تميزه عن المسلمين في عنقه، من خاتم حديد أو رصاص أو غير ذلك. ولا يعلوا على المسلمين في البناء ولا يساورهم، بل يكونون أدون منهم، ولا يضربوا بالناقوس إلا ضرباً خفيفاً، ولا يرفعوا أصواتهم في كنائسهم، ولا يخدموا في دولتنا الشريفة... ولا عند أحد من أمرائها... ولا يلوا وظيفة يعلو أمرهم فيها على أحد من المسلمين، وأن يحمل الأمر في مواريث موتاهم على حكم الشريعة الشريفة المحمدية... وأن لا يدخل نسوة أهل الذمة الحمامات مع المسلمات، ويجعل لهن حمامات تخصهن يدخلنها...)[1] ولكن هذا المرسوم الصارم لم ينفذ بحذافيره حتى في حياة مصدره، ولم تتمكن دولة المماليك من الاستغناء عن خدمات أهل الذمة، وبقي أغلبه حبراً على ورق وبعد فترة أهمل.

---

(١) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً ج ١٣، ٣٧٨ ـ ٣٨٧.

كذلك أصدر السلطان الملك الأشرف شعبان سنة ٧٦٤ هـ مرسوماً بتقليد بطريرك لنصارى اليعاقبة، وقد برر المرسوم بسط الحماية على الطائفة المسيحية وعللها بأنه: (... لما كانت الطائفة المسيحية والفرقة اليعقوبية ممن أوت تحت ظلنا الذي عم الوجود، وسكنت في حرم ذمامنا الذي سار نبؤه في التهائم والنجود، وتمسكت من طاعتنا واتباع أوامرنا بما سلف لها من المدن والعهود... وأنه إذا مات بطريرك لهم لا بد أن نرسم لهم بغيره، فلما هلك الآن بطريكهم مع من هلك « رسمنا لهم أن ينتخبوا لهم من يكون لطريقته قد سلك...) ولقد انتخبت هذه الطائفة قساً اسمه جرجس يصفه المرسوم بقوله: (وكان الحضرة السامية القديس المبجل المكرم الموقر الكبير الديان، الرئيس الروحاني الفاضل الكافي المؤتمن جرجس بن القس مفضل اليعقوبي عماد بني المعمودية، كنز الأمة المسيحية، منتخب الملة الصليبية، ركن الطائفة النصرانية، اختيار الملوك والسلاطين، أطال الله تعالى بهجته وأعلى على أهل طائفة درجته...) [1] لذلك رسم (... أن يقدّم حضرة القديس المؤتمن جرجس المشار إليه على الطائفة اليعقوبية من الملة النصرانية بالديار المحروسة والجهات الجاري بها العادة، ويكون بطريركاً عليهم على عادة من تقدم في ذلك...)[2].

شؤون وعلاقات خارجية:

لقد كان لدولة المماليك علاقات خارجية واسعة مع عدد كبير من الدول. بعضها إسلامي وبعضها غير إسلامي. وبعض هذه العلاقات كان عدائياً كعلاقاتهم مع المغول والصليبيين، وبعضها كان ودياً كعلاقاتهم مع اليمن

---

(١) نفس المصدر جـ ١١، ٣٩٧ ـ ٤٠٠.

(٢) نفس المصدر.

والحبشة، وبعضها تأرجح بين بين. كذلك، تأثرت العلاقات الخارجية بالوضع العام للمنطقة والأحداث الجارية فيها والتطورات، وهذا الوضع العام هو الذي حكم العلاقات الخارجية لدولة المماليك، ذلك أن الوضع العام هو الذي كان يملي أن يتصالح ملوك وسلاطين المماليك مع الدولة الفلانية التي كانت عدوة، وأصبح الوضع العام يتطلب مهادنتها ومصالحتها، أو بالعكس. كذلك لعبت شخصية الملوك والحكام دوراً أساسياً في بَلوَرَة وتوجيه السياسة الخارجية. كما وأن قوة دولة المماليك لعبت دوراً حاسماً في توجيه السياسة الخارجية في هذا الاتجاه أو ذاك. فعندما تكون الدولة قوية يكون لها وزن سياسي كبير يحسب حسابه، وتتهافت الدول على خطب ودها وعقد الصفقات والمعاهدات معها، أما في حال ضعفها وهزالها أو اضطراب حبل الأمن الداخلي في بلادها، فلم يكن لها ذلك الوزن ويتضاءل دورها في توجيه السياسة الخارجية إلى حد كبير. ولا ننسى أن نذكر بالموقع الاستراتيجي الهام الذي تحتله دولة المماليك في عالم السياسة وعالم الاقتصاد وعالم المواصلات آنذاك. فقد كانت همزة الوصل وحلقة الاتصال بين الشرق وبلاد حوض البحر الأبيض المتوسط وأوربا، وجميع تجارة آسيا والهند بخاصة تمر عبر أراضيها ومن موانئها، ومنها إلى أوربا.

كل هذه العوامل جعلت الحياة السياسية نشطة، بالأعم الأغلب في دولة المماليك، وقد بحثنا في كتاب لنا سابق سياسة المماليك وحروبهم تجاه قوتين رئيسيتين كانتا تصطرعان في المنطقة، هما قوة الصليبيين وقوة المغول، وهو كتاب «**وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي**»، ولذلك لن نبحث عنا هذين الموضوعين، وإنما سنتناول في بحثنا هنا الموضوعات السياسية الأخرى.

فقد تعامل المماليك مع أكثر دول المنطقة فكان لهم علاقات سياسية وعسكرية مع سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ومع دولة الروم البيزنطيين، ومع بلاد اليمن ومع بلاد النوبة والحبشة، ومع دول شمالي أفريقيا، ومع الأندلس المسلمة المتمثلة

في دولة غرناطة، كما كان لهم علاقات سياسية قوية مع دويلات شبه جزيرة إيطاليا مثل البندقية وجنوى، مع مملكة صقلية ومملكة الأرغوان، إلى جانب علاقات أخرى ومع دول أبعد وأقل أهمية. وفي أواخر أيام المماليك، ظهرت الدولة العثمانية أقوى دولة إسلامية في المنطقة ومن أقوى دول العالم، وأصبح لها وزن متزايد في توجيه السياسة محلياً وعالمياً. ولقد ترافق عصر القوة والازدهار والتقدم لدى العثمانيين مع عصر الضعف والانحطاط لدى المماليك. ولقد كان من حسن حظ المماليك أن الأتراك العثمانيين ظلوا فترة طويلة من تاريخهم ملتفتين إلى التوسع في أوربا، ولذلك لم يحدث أي احتكاك بين الطرفين وظلت العلاقات حسنة بينهما. ولما قرر العثمانيون الاتجاه إلى الشرق في أواخر القرن التاسع هجري، ساءت العلاقات بين الطرفبن حتى تمكن العثمانيون من القضاء على دولة المماليك سنة ٩٢٢ هـ.

ولذلك فسنبحث هنا علاقات المماليك السياسية مع الدول الإسلامية، ثم نثني ببحث علاقاتهم السياسية مع الدول غير الإسلامية.

أ ـ علاقات المماليك السياسية مع الدول الإسلامية:

احتك المماليك بدولة سلاجقة الروم وكان لهم معها علاقات سياسية، تارة عدائية، وتارة سلمية، ذلك أن حدود بلاد الشام الشمالية مفتوحة ومتاخمة لحدود بلاد سلاجقة الروم، ولذلك حدثت بين الطرفين هذه العلاقات، كما تعرض الطرفان لهجوم المغول عليهما المرة تلو المرة. ويبدو أن سلاجقة الروم تحالفوا زمن الملك الظاهر بيبرس، مع المغول ضده، فأساؤوا إلى العلاقات بين الطرفين، وأدرك السلطان الخطر الناجم عن مثل هذا الحلف فقرر أن يعمل بسرعة قبل أن تتوطد دعائم الحلف وتصبح خطراً عليه. ولذلك فقد جهز حملة قوية قادها بنفسه اجتازت ممرات الأناضول، وزحفت في قلب مملكة سلاجقة الروم، والتقى

السلطان بحملة قوية من المغول أتت نجدة للسلاجقة على ما يبدو، فحارب السلطان المغول وانتصر عليهم انتصاراً رائعاً مؤزراً قرب مدينة إبلستين، ثم تابع السلطان زحفه حتى دخل قيصرية عاصمة دولة سلاجقة الروم وفر ملكهم منها، وبعد فترة وجيزة قفل راجعاً بجيشه إلى بلاده مثقلاً بالغنائم. ولدينا وصف رائع لهذه الغزوة بقلم شاهد عيان رافق الحملة من أولها إلى آخرها. ذلك أن كاتب السلطان ومؤرخه محيي الدين بن عبد الظاهر رافق السلطان في هذه الغزاة، وقبيل وصوله ووصول الحملة إلى بلاد الشام راجعين من تلك الحملة، أرسل إلى وزير السلطان الصاحب بهاء الدين بن حنا هذه الرسالة البليغة المفصلة، التي تحوي وصفاً حياً لما حدث منذ فصل جيش السلطان عن حلب، حتى قرب عودته ورجوعه إليها. والرسالة مناسبة جيدة لإظهار مقدرة الكاتب البلاغية وفصاحته، وتمكنه من فن الترسل وتوليد المعاني والاستشهاد بالأشعار الطنانة ومدح السلطان ومدح الوزير وإبداء آرائه الانتقادية في حياة السلاجقة، وأسلوب معيشتهم وعجمتهم. كما أن الرسالة طفحت بالحنين إلى الوطن ووصف مصر وما فيها من خير وموازنتها ببلاد سلاجقة الروم، وأن أي شيء في مصر خير من كل بلاد الروم وما حوته ومن حوته.

فقد افتتح رسالته هذه بقوله يخاطب وزير السلطان الصاحب بهاء الدين بن حنا بأنه يرسل له هذه الرسالة ليتحفه بما شاهده في طريقه من العجائب: (إن العبيد من شأنهم إتحاف مواليهم بما يشاهدونه في سفراتهم من عجائب، وإطلاعهم على ما يرونه في غزواتهم من غرائب)(١). ثم يقول له بأنه قد علم ولا شك بعزم السلطان إقدامه وسرعة حركته، وأنه إذا عزم على شيء نفذه غير مبال بالصعاب. ولما كانت الأماكن التي مر بها السلطان مسرحاً لحروب سيف الدولة ضد البيزنطيين، ومغنى من المغاني التي قال فيها المتنبي كثيراً من

---

(١) نفس المصدر. جـ ١٤، ١٣٩ - ١٦٥.

غرر أشعاره في مدح سيف الدولة، فقد كانت مناسبة جيدة ذكرت ابن عبد الظاهر بالمتنبي وأشعاره، وجعلته يستشهد بجملة وافرة من أشعاره هذه، ولا سيما تلك التي تناسب المقام. فقد انطلق الجيش من حلب واخترق الدروب التي اخترقها جيش سيف الدولة قبل الملك الظاهر وجيشه، ووصفها المتنبي في شعره. ولعمري لقد أجاد ابن عبد الظاهر كل الإجادة في وصف الطريق والجبال والوديان والأنهار والأمطار، والثلوج والمصاعب الهائلة، بحيث يشعر القارىء أنه يرافقه في رحلته يشاهد ذلك بأم عينه: (... وسرنا منها إلى مرج الديباج نتعادى، وذلك في ليلة ذات أندية وإن لم تكن من جادى... ظلماتها مدلهمة وطرقاتها، وقد أصبح أمرها علينا غمة، لا يثبت تربها تحت قدم المار وكأنما سالكها يمشي على شفا جرف هار..[1]) ثم يصف الغابة التي اخترقها الجيش أثناء مروره بقوله: (وأخذنا في اختراق غابات أشجار تخفي الرفيق عن رفيقه وتشغله عن اقتفاء طريقه، ينبري منها كل غصن يرسله المتقدم إلى وجه رفيقه، كما يخرج السهم بقوة من منجنيقه...[2]).

ثم يصف له وصول الجيش إلى الحدث الحمراء، وهي التي ذكرها المتنبي في شعره ويورد بعضاً من شعره ويستشهد ببعض حوادث التاريخ المقترنة ببعض الأماكن. فمثلاً عند اجتياز الجيش النهر الأزرق يذكر أنه هو النهر الذي عجز الملك الكامل الأيوبي عن اجتيازه سنة الدربندات لما قصد التوجه إلى الروم[3]. ثم يذكر اجتياز الجيش مضائق تلك الجبال ومبيتهم في سهلة هناك. وكيف جادت السماء عليهم بالمطر والريح والبرد الشديد. وفي تلك الأثناء عثرت مقدمة جيش المماليك على مقدمة جيش التتار فهزمتها، ثم نشبت المعركة بين الطرفين فانهزم التتار شر هزيمة، وانتصر السلطان نصراً مؤزراً، وكان ذلك مناسبة جيدة

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

لابن عبد الظاهر ليظهر بلاغته ومقدرته الكتابية في وصف هذه المعركة وصفاً أخاذاً، يجعل المرء يعجب بالمغول ونظامهم وشجاعتهم، ويبدي إعجابه أكثر بالجيش السلطاني المملوكي وقائده العظيم الذي حقق هذا الانتصار العظيم الرائع، وقد ذكر أسماء الأمراء المسلمين الذين استشهدوا في هذه المعركة. ويبدو أن سلاجقة الروم ساعدوا المغول ضد السلطان، ولكن السلطان عاملهم معاملة جيدة، إذ أنه أمر بضرب رقاب أسرى المغول على حين عفا عن أسرى سلاجقة الروم [1]. ولقد كان ولد ملك سلاجقة الروم من بين الأسرى الذين استبقاهم السلطان، ويعيِّرَ الكاتب ملك الروم ـ ويسميه البرواناه ـ لهربه وإسلامه ولده وقواده للسلطان، ويقول: إنه أحق بقول أبي الطيب في مثل هذه المناسبة:

(نجوت بإحدى مقتليك جريحة... لأنه شمر الذيل وامتطى ـ هرباً ـ أشهب الصبح واحمر الشفق واصفر الأصيل وأدهم الليل) [2].

وعلى أثر ذلك انسحب ملك سلاجقة الروم وأركان الحكومة من العاصمة قيصرية، وتركوها مفتوحة للسلطان. والمعجب في ابن عبد الظاهر هذا هو دقته في الوصف، فهو دقيق الملاحظة بارع في الوصف إلى درجة الإعجاز، بحيث لم تفته شاردة ولا واردة في طريقه. فقد وصف طريق السلطان إلى قيصرية وصفاً دونه الخيال، يغني عن المشاهدة ويشعر بالمباركة. وهو غير متعصب، يعترف بالحق ويشيد بالفضل لصاحب الفضل ولو كان من أعاديه، فقد أثنى على خان قرطاي قرب قيصرية وعلى بانيه: (... حتى أشرفنا على خان هناك يعرف بقرطاي، يدل على شرف همة بانيه وطلب ثواب الله فيه) [3].

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

ثم يصف دخول السلطان وجيشه إلى قيصرية عاصمة سلاجقة الروم وكيف استقبله أهلها بالترحاب، وهو نفسه أمنهم وأطلق لهم من بشره وإيناسه ما أمن روعهم، وكيف نزل السلطان في مضارب ملك سلاجقة الروم: (ونزل مولانا السلطان في تلك المضارب المعدة لكرم الوفادة، وضربت نوبة سلجوق على باب دهليزه على العادة...)[١] ثم ينتقل السلطان إلى منازل وقصور سلاجقة الروم ويستقر فيها، ويصف الاستقبال العظيم الذي أقيم في القصر السلطاني على شرف الظاهر بيبرس ثم السماط الذي مده السلاجقة على شرف السلطان، ويبدو أن السماط لم يعجب الكاتب فيقول: (... مُـدَّ سماط ليس يناسب همم الملوك، فأكل الناس منه للشرف لا للسرف)[٢]. ثم يذكر أن السلطان لم يتعرض لحرم آل سلجوق وإنما أرسل وواساهن، ويصف صلاة الجمعة في قيصرية، ويصف خطباء مساجدها بما يلي: (إن هم إلا كالأنعام..)[٣]. ولم تعجبه قراءتهم للقرآن ولا خطبتهم ولا ما أصدروه ولا ما أوردوه بلغتهم التركية التي لم يفهم منها شيئاً[٤]. ويذكر أن السكة ضربت باسم الملك الظاهر في ذلك اليوم. وهو يمدح ملوك وحكام قيصرية، لتشييدهم المدارس والخوانق والربط، وهي في رأيه؛ تدل على اهتمام بانيها ورغبتهم في العلوم الشرعية والدينية، مشيدة بأحسن الحجار الحمر المصقولة والمنقوشة. ثم يذكر الوزير السلجوقي وغناه وثروته وثروة ملك السلاجقة وثروة زوجته، وأن كل ذلك استولى عليه السلطان ومماليكه[٥].

ثم يذكر أن السلطان لاحظ طول مقام عسكره في تلك البلاد ولاحظ قلة الأقوات وملل العسكر من الحرب والصراع المستعر، وأن المغول قد هزموا ولم

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

(٥) نفس المصدر.

يعد السلاجقة.يشكلون خطراً عليه، ولا يمكنهم التحالف من جديد مع المغول، فقرر الرجوع إلى بلاده، وفي طريقه وافته رسل السلاجقة وغيرهم يعتذرون، فوبخهم السلطان وعدد أياديه عليهم وأنه عف عن دمائهم وأموالهم لأنه يحترم فيهم إسلامهم، وهم لم يكونوا رجالاً عند كلمتهم (١). وقد فضل بعض كبراء سلاجقة الروم أن يهجروا أوطانهم ويسافروا مع السلطان إلى بلده للعيش تحت كنفه وقد فعلوا ذلك، إما حباً بالسلطان وإعجاباً بشخصيته، أو أنهم تعاونوا معه فخافوا العيش تحت كنف ملك السجلاقة، فاختاروا طوعاً ترك أوطانهم واصطحاب السلطان، على أن السلطان أجبر طائفة أخرى من كبراء السلاجقة أن يحضروا معه، وعلى رأسهم ولد سلطان سلاجقة الروم وعدد من الأمراء (٢). وقد سلك السلطان في عودته طريقاً آخر غير طريق الذهاب. وكالعادة أبدع ابن عبد الظاهر في وصف الطريق وأبلغ، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أتى على وصفها. ولعل أبلغ حادث حدث هو اعتراض منزلق خطر طريق الجيش، وأن ذلك المنزلق جعل الجيش يسقط في فوضى رهيبة، لم ينقذه منها إلا تدخل السلطان بنفسه، الذي أعاد النظام. وجعل الجميع يمرون بسلام: (... فوقف مولانا السلطان بنفسه وجرد سيفه بيده، وباشر العمل بنفسه هو وجميع خواصه حتى تهيأ المكان جميعه (٣)... ولما خفت البرور، ولم يبق إلا المرور، ركب فرسه وعبر الماء، والألسنة له داعية...) (٤).

ثم يذكر الكاتب أن السلطان في عودته مر بإبلستين، مكان معركته السابقة مع المغول، وشاهد ساحة المعركة وجثث القتلى، فأكثر هو ومن معه شكر الله على ما أولى من نعمه. ويتابع وصفه لطريق العودة حتى وصوله إلى مشارف الشام.

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

ويختم رسالته بروح مصرية صميمة وتشوق إلى كل ما هو مصري وقاهري، وتفضيله على كل ما عداه: (وخير من أرزنجان حارة برجوان وخير من أراضي توريز قطعة من إيليز... ونظرة إلى المقياس خير من سيواس)[1].

هذا وإن انتصار السلطان الملك المنصور قلاوون العظيم على المغول سنة ٦٨٠ هـ قرب حمص، كان له صدى آخر وأثر آخر في مكان بعيد عن مكان المعركة، ذلك أن ملك اليمن الملك المظفر، كان قد كشر أنيابه في وجه قلاوون، فلما تسامع بنبأ انتصاره على المغول، أرسل يطلب الصفح ويطلب منحه أماناً، وقد أجابه السلطان إلى ذلك ومنحه أماناً جاء فيه: (إنا داعون له ولأولاده، مسالمون من سالمهم معادون من عاداهم... لا نرضى له ولأولاده إلا ما رضيناه لأنفسنا، وإنا لا نقبل في حقه سعاية ساع ولا قول واش، ولا تناله منا مضرة... ما دام ملازماً لشروط مودتنا...)[2].

أما عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فقد شاهد توسعاً في العلاقات الخارجية لتشمل شمالي افريقيا إلى جانب اليمن. ذلك أن ملك اليمن الجديد، هزبر الدين بن الملك المظفر، أساء علاقته مع مصر والملك الناصر، فأرسل له الخليفة المستكفي، بإيعاز من السلطان على ما يبدو، كتاباً حوى كثيراً من التأنيب والتهديد والوعظ والإرشاد، وذكر له أعماله التي تحمل سيما إساءة العلاقات إن لم يكن قطعها. وقد افتتح رسالته بآية قرآنية تحضُّ على إطاعة الله والرسول وأولي الأمر. ثم انتقل إلى حمد الله والصلاة على رسوله، ومدح الخليفة والسلطان وتعديد أياديهما عليه. بعد ذلك يصل الخليفة إلى صلب الموضوع، فيذكر المآخذ التي يأخذها عليه وأولها: قطع الميرة عن بيت الله الحرام: (...

---

(١) نفس المصدر.

(٢) المقريزي. المصدر المذكور آنفاً جـ ١، ق ٧٠٢ - ٧٠٣.

وقد علمت أنه وادٍ غيرُ ذي زرع، ولا يحل لأحد أن يتطرق إليه بمنع) (١) وثانيها: تفريغه لبيت المال ونقضه العهود القديمة، وثالثها: إيقاف الخطبة باسم الخليفة والسلطان (٢). ثم يعود للتهديد والوعيد بإرسال الجيوش والأساطيل، وينصحه أن يبادر بإعلان ولائه وتوبته، وأن يأخذ على نفسه عهداً بأن يقدم لخزانة السلطان كل سنة مبلغاً من المال محدداً، مع مقدار مناسب من الهدايا يرسلها سنوياً للخليفة والسلطان، وأن يعد جيشاً جاهزاً يكون تحت إمرة الملك الناصر يستخدمه كلما أراد (٣).

ولقد دارت مراسلات ودية للغاية بين السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وبين صاحب تلمسان. فقد أرسل صاحب تلمسان رسالة الى الملك الناصر مليئة بالعواطف السامية والألقاب الطنانة الرنانة، يخطب ود الملك الناصر ويبدي له وده وحبه، ولكنه لا يكتمه أن في قلبه شيئاً منه لميله إلى غيره: (غير أن في قلوبنا شيئاً من ميلكم إلى غيرنا، واستئناسكم، ونحن - والحمد لله - أعلم الناس بما يجب من حقوق ذلكم المقام الشريف...) (٤) ثم يذكر له أن رسولاً من قبله ومن ذوي قرابته قد توجه إلى السلطان، يحمل له رسالة شفهية منه، وهو الشيخ أبو زكريا يحي بن محمد بن جرار الوادي، ويطلب من السلطان أن يثق به وأن يعامله بما يليق، وأن يشافهه بما يريده من بلاد صاحب تلمسان حتى يلبي طلبه (٥).

كذلك دارت مراسلات بين السلطان الملك الناصر وملك المغرب الأقصى من آل مرين، ولدينا رسالة جوابية من الناصر إلى السلطان أبي الحسن المريني. وهي

---

(١) القلقشندي. المصدر المذكور آنفاً، جـ ٦، ٤٢٢ - ٤٢٦.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر جـ ٨، ٨٥ - ٨٧.
(٥) نفس المصدر.

قطعة فنية يعرف منها ألقاب كل من السلطانين وهي ألقاب كثيرة للغاية ورفيعة ولا تعني شيئاً. ونعرف من هذه الرسالة أن السلطان المريني أرسل إلى الناصر رسالة على يد رسول من قبله، هو: أبو إسحاق بن عبدالرحمن، ومعه شخصان آخران هما: أبو زيان حاجب السلطان، وكاتبه أبو عبدالله، إلى جانب وفد كبير من المغاربة الفرسان والموظفين، الذين يرافقون الوفد الذاهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج[١]. ويخبرُ الناصر في رسالته السلطان أبا الحسن المريني أنه عرف من رسالته أن الكتابين اللذين أرسلهما هو له صحبة رسوليه، قد وصلا إلى السلطان المريني وأنه تقبلهما بقبول حسن، وإن قصد الناصر منهما تجديد جلباب الوداد، وتأكيد أسباب الولاء على البعاد[٢]. ثم يخبره أنه قد فعل ما طلبه منه، أن يعتني بالوفد المغربي المرسل إليه في طريقه إلى الحج، والذي يحوي من يقوم مقام والدة السلطان المريني المتوفاة لتأدية فريضة الحج عنها، وأنه ألان لهم كنفه وبسط عليهم حمايته ورعايته في الحل والترحال، وفي الذهاب والإياب[٣]. ثم يشكره على الهدايا القيمة التي أرسلها له مع الوفد، ويعدد هذه الهدايا ويطنب في وصفها. ويذكر له أنه تلقى بالاحترام المصحف الذي خطه السلطان المريني بنفسه تبركاً، وأنه كتب إلى أمراء المدينة المنورة أن يتلقوه لقاء حسناً، وأن يحلوه بين الروضة والمنبر إكراماً لكاتبه. ويختم رسالته بالدعوات الصالحات له، أن يبلغه الله تعالى زيارة تلك الأماكن المقدسة[٤].

وهناك رسالة وجهها إلى الملك الأشرف شعبان بن الملك الناصر ملكُ غرناطة أبو عبدالله محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر، يتقرب منه ويشير إلى حادثة الإسكندرية التي حدثت سنة ٧٦٧ هـ، لما هاجم أسطول من قراصنة البحر

---

(١) نفس المصدر: ج٧، ٣٨٩ - ٣٩٥.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

الأبيض المتوسط الغربيين مدينة الاسكندرية واستباحها، وفعل بها الأفاعيل وتركها بعد أن نهبها وأحرقها وسبى أهلها. وكالعادة، ملأت ألقاب الملك الأشرف شعبان أكثر من نصف صفحة، وكلها كلمات جوفاء لا تعني شيئاً، أو بالأحرى، تعني صغار الملقِّب والملقَّب، والرسالة من إنشاء لسان الدين بن الخطيب الأديب الشهير، ولذلك أتت قطعة فنية من النثر المسجع المرصع، وأثر الصنعة فيها ظاهر كل الظهور، وهو يضرع إلى الله تعالى في حفظ الملكين والمملكتين، ويشرح له وضع مملكة غرناطة الصعب أمام الأعداء، وما تبذله من الجهد للوقوف على قدميها وصيانة أراضيها وسكانها، ثم ينتقل إلى ذكر حادثة الاسكندرية ويهنىء السلطان بهذا النصر العظيم، وكأن السلطان هو الذي غزا بلاد الإفرنج، أو أنه هو الذي ردهم ودمر أساطيلهم، ثم يذكر له أنه خزن في خزائنه، كما تصان وتحفظ الجواهر واللآلىء في الخزائن المحفوظة، الخطاب الكريم الذي أرسله له الملك الأشرف شعبان (١).

ولقد كانت للسلطان الظاهر برقوق علاقات سياسية متعددة. ولدينا وثائق عن رسائل تبادلها مع ملك تونس وملك اليمن وملك مملكة البرنو.

فقد أرسل ملك تونس المتوكل على الله رسالة جوابية إلى الملك الظاهر برقوق سنة ٧٩٢ هـ، يهنئه بعودته إلى العرش بعد أن كان قد خلع عنه: (... إنا، علم الله، من حين اتصل بنا خبركم الذي جره القدر والمقدور... لم نزل نتوجه إلى الله تعالى في مظان قبول الدعاء ورفع النداء، بأن يجبركم بفضله من حيث صدع... إلى أن دارك الله بلطفه وأجاب... فرد عليكم ملككم فأخذ القوس باريها...)(٢) ثم يغتنم ملك تونس هذه الفرصة ليطلب من برقوق أن

---

(١) نفس المصدر. جـ ٨، ١٠٧ - ١١٤.

(٢) نفس المصدر. جـ ٨، ٧٩ - ٨٤.

يسمح لسفيره الذي أرسله عنده مهنئاً بعودته إلى العرش، بالسفر لأداء فريضة الحج وأن يحوطه بالرعاية والعناية في حله وترحاله [١].

بعد ذلك ينتقل ملك تونس إلى ذكر أنباء جهاده ضد الأعداء، فقد استرجع جزيرة «غودش»، وهي جزيرة قريبة من سواحل تونس كان النورمنديون قد استباحوها، فتمكن ملك تونس من استرجاعها وقتل حاميتها، وهو يفخر بذلك وكأنه احتل صقلية بكاملها لا جزيرة صغيرة لا يؤبه لها [٢].

ولقد رد السلطان الملك الظاهر برقوق التحية بأجل منها، فأرسل له رسالة جوابية يشكره على رسالته السابقة، ويكيل له المدح كيلاً ويخبره أنه أحسن استقبال رسوله الذي حمله له الرسالة، وبلغه خبر النصر المؤزر الذي حازه ملك تونس باسترجاعه جزيرة «غودش»، كما شكره على الهدية القيمة التي أرسلها له ملك تونس، وهي تتألف في أغلبها من الخيول الجياد [٣].

ولقد أرسل برقوق إلى اليمن متجراً معتبراً، وأرسله بصحبة وفد من التجار، وطلب إلى صاحب اليمن أن يحوطه بالعناية والرعاية، وأن يسهل عمله في البيع والشراء. وقد أرسل صاحب اليمن له رسالة يخبره أن الأمر تم كما طلب، وأن متجر الملك برقوق قد جهز كما طلب هو وأراد، وأن صاحب اليمن أعفاه من كافة الرسوم وأنه أمر بحمله على ظهور مراكبه: (... وحملناه على ظهور مراكبنا عزيزاً مكرماً، وعرفناه أن لا يصدر على الحمل السعيد ولا الدرهم الفرد، وذلك قليل منا لأجل غلمان بابكم الشريف) [٤].

ولا ينسى ملك اليمن أن يبشر برقوقاً باسترجاعه حصناً اسمه حصن قاف،

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر جـ ٧، ٣٧٩ - ٣٨٤.

(٤) نفس المصدر جـ ٨، ٧٢ - ٧٦.

كان البدو قد احتلوه من زمن بعيد، وعاثوا من خلاله في المنطقة أشد عبث وأقبحه[1]. وهو يفخر بذلك، وكأنه استرجع الأندلس من يد الإسبان، ثم يخبر برقوقاً أنه أرسل صحبة رسولية إليه متجراً ليباع في مصر، ويشتري له به بضائع مصرية ليعود بها الموفدان إلى اليمن[2]. وهكذا: هذي بتلك والبادي أكرم.

ولقد كانت تجاور مصرَ مملكة مسلمة هي مملكة البرنو، وقد شكا ملكها إلى السلطان برقوق تعدي عرب جذام على مملكته وإيذاءهم سكان مملكته، ويطلب منه كفهم عن الأذى.

والملاحظ على هذه الرسالة أن ملكها بدأ بنفسه ولقب نفسه بالألقاب الطنانة، مثل سيف الإسلام، ربيع الأيتام، الملك المقدام، على حين لم يسم برقوقاً ولم يعظمه ولم يلقبه، وإنما اكتفى بالقول: (إلى ملك مصر الجليل، أرض الله المباركة أم الدنيا)[3]. ولا ندري بم نعلل ذلك؟ هل هذا عن جهل؟ هل عن بساطة؟ هل عن استهتار أو استخفاف؟ لا نعتقد ذلك لأنه لقب نفسه ولم يلقب ملك مصر، وهو بحاجة إليه ويطلب إليه أن يكف أذى فئة من أتباعه عن بلاده. وهو يذهب إلى غرضه مباشرة دون مقدمات أو تطويلات، ويخبره أنه أرسل له رسولاً هو ابن عمه، وأنه طلب منه أن يخبره أن عرباً يسمون جذاماً وغيرهم: (قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان، وضعفاء الرجال وقرابتنا وغيرهم من المسلمين... ويبيعونهم لجلاب مصر والشام وغيرهم)[4]. ثم يطلب منه، باعتباره حاكم مصر، أن يرسل الرسل يبحثون عن مثل هؤلاء الرقيق، فإذا وجدوهم فليرجعوهم إلى وطنهم[5]. ويختم خطابه بتذكير الملك بالله تعالى وأخوة

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر. جـ ٨، ١١٦ - ١١٨.

(٤) نفس المصدر.

(٥) نفس المصدر.

المسلمين، وضرورة العدل، وضرورة زجر الأعراب، وإعادة المسبيين إلى أوطانهم.

ولقد ظهرت دولة الأتراك العثمانيين في القرن الرابع عشر الميلادي في آسيا الصغرى، واتجهت منذ أيامها الأولى نحو الغرب، فتوسعت في الأناضول حتى كادت تبتلعه، ولم يبق منه سوى القسطنطينية، وقطعة صغيرة من الأرض حولها، ثم قفز ملوكها إلى أوربا وبدأوا في التوسع فيها، ولم يلتفتوا إلى الشرق ومشاكله، ولذلك ظلت العلاقات بينهم وبين المماليك حسنة، وعلى الرغم من الزوبعة الهائلة التي اجتاحت المملكة العثمانية في أواخر القرن الرابع عشر ميلادي، والمتمثلة بهجوم تيمورلنك عليها واحتلاله قسماً كبيراً من بلادها وأسره ملكها، إلا أنها لم تلبث أن استردت أنفاسها بعد فترة، وتمكنت في فترة وجيزة من استرجاع ما خسرته، وإصلاح ما أفسدته حملة تيمورلنك، ثم تابعت مسيرتها الظافرة في توسيع رقعة الدولة. ولقد حقق الأتراك العثمانيون سنة ١٤٥٣م حلماً عزيزاً من أحلام الإسلام القديمة في احتلال القسطنطينية، وجعلها دار إسلام. ذلك أن الأمويين حاولوا مرتين احتلالها فعجزوا، وحاول ذلك أوائل العباسيين فارتدوا عنها، وظل احتلالها حلماً يداعب خيال الملوك المسلمين، حتى حقق هذا الحلم الملك العثماني السلطان محمد الثاني الذي لقب «بالفاتح» إثر فتحه لها، وجعلها عاصمة لدولته، وقد قدر لها أن تصبح عاصمة أكبر دولة إسلامية فترة طويلة من الزمن، وأن تصبح عاصمة من أهم عواصم العالم مدة تزيد على القرن والنصف. ونستطيع نحن العرب الأحياء في هذا الزمن، أن نتخيل ما أثاره سقوط القسطنطينية في نفوس أبناء القرن الخامس عشر المسلمين، من فخار وآمال وفرح وسرور. ونجد آثار ذلك في الرسائل التي تبادلها السلطان العثماني «محمد الفاتح» مع سلطان مصر الملك الأشرف «إينال» بمناسبة احتلاله القسطنطينية ومع شريف مكة، ذلك أن محمداً الفاتح أرسل عقب فتحه القسطنطينية رسائل إلى ملك مصر وإلى شريف مكة، يبشرهما بما منَّ الله تعالى عليه من الفتح العظيم مع

هدايا كثيرة وتمنيات طيبة. ولقد رد سلطان مصر وشريف مكة التحية أجمل رد وأجله، وأرسلا له رسائل جوابية تفيض بالحب والإعجاب والتهنئة القلبية الصادقة.

والملاحظ في هذه الرسائل التي أرسلها محمد الفاتح إلى مصر ومكة المكرمة أنها كتبت أصلاً بالعربية، وأن أسلوب كتابتها والخطاب فيها كأسلوب الرسائل العربية الديوانية التي كانت سائدة آنذاك. يذكر الفاتح في رسالته لسلطان مصر أنه اتبع سنن آبائه في الجهاد، ولذلك قرر فتح مدينة القسطنطينية التي بقيت وحدها وسط المملكة العثمانية: (... وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً، التي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها)[١]. ثم ينطلق في وصف القسطنيطينية وحصانتها من البر والبحر ويذكر أنه: (لا يبعد من أن تكون هي التي نطق بها صحاح الأحاديث النبوية والآثار المصطفوية...)[٢] بعد ذلك يصف كيفية سقوطها بيده واجتياحها، وكيف أن أول من قتل هو ملكها وما رافق ذلك من قتل ونهب، وأخيراً يصف له احتلاله غلطة المجاورة للقسطنطينية[٣].

بعد ذلك يخبره أنه أرسل هذه الرسالة مع وفد ليدعم أواصر الصداقة بين حماة الحرمين الشريفين، وبين المجاهدين الذين احتلوا القسطنطينية، ويخبره أنه أرسل له عدداً كبيراً من الهدايا القيمة الفخمة، ويطلب إليه أن يكرم رسوله وأن يعود إليه سالماً غانماً[٤].

---

(١) الرشيدي، سالم «محمد الفاتح» الطبعة الثانية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٩م ١٦٣ - ١٦٨.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

ولقد أجاب سلطان مصر الأشرف « إينال » إجابة حسنة على رسالة الفاتح، وأعلن اغتباطه وسروره وسرور جميع المسلمين بهذا الفتح العظيم: (وهذه النصرة التي أصبحت لها كلمة الإيمان منتشرة، وجبهة الصادقين مبيضة، وشفاه المسلمين ضاحكة مستبشرة، ووجوه المشركين عليها غبرة، ترهقها قترة، أولئك هم الكفرة الفجرة)[1] ثم يعلن له استقباله لرسله بالبشر والترحاب، وأنه احتفى بهم وأصغى إليهم وآنسهم وأنه أعادهم له مثقلين بالهدايا، وهو يذكرها له تفصيلاً في رسالته صحبة رسول يرسله له من طرفه[2].

ولقد أرسل السلطان الفاتح رسالة إلى شريف مكة، يبشره بما حققه من إنجاز عظيم بفتحه القسطنطينية عن طريق سلطان مصر، الذي أرسلها له بدوره مع وفد من قبل محمد الفاتح نفسه. والملاحظ في هذه الرسائل هو الإغراق في الألقاب والمديح، الذي لا يعني سوى ألفاظ منمقة منتقاة مثل: (الأكرمي، الأعلمي، الأورعي، الإمامي، الهمامي الأوحدي، الأمجدي، العاملي، العالمي، الأعظمي، الأولوي، الأعلوي، العلوي، المشيدي...) على حين لا يفرط العثمانيون في مدح سلطانهم أو تلقيبه[3]. وهو يخبره في هذه الرسالة بفتح القسطنطينية وغلطة وأسكداره، ويعيد هنا ما سبق أن ذكره في رسالته لملك مصر عن فتح القسطنطينية، ثم يذكر له أنه ذكر الحرمين الشريفين، وأنه تعبيراً عن حبه لهما، فقد أرسل إلى شريف مكة خاصة ألفي فلوري من غنائم القسطنطينية، وسبعة آلاف أخرى لتوزيعها بمعرفته على بقية الناس، وقد خصص منها ألفين للسادات والنقباء، والألف للخدام المخصوصة بالحرمين، والباقي للمتمكنين المحتاجين في مكة المعظمة والمدينة المنورة[4].

---

(١) نفس المصدر: ١٦٨ ـ ١٧٠.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر: ١٧١ ـ ١٧٣.
(٤) نفس المصدر.

ولقد أرسل ملك مصر إلى الفاتح رسالة ثانية، يخبره فيها أنه أرسل رسالته مع رسله إلى شريف مكة، وهنا يعيد سلطان مصر التهنئة ويطنب إطناباً بليغاً بإنجاز محمد الفاتح العظيم، ويخبره أنه أمر بإعلان البشائر: (فعند ذلك أمرنا بإعلان البشائر، وإظهار الزينة والسرور بممالكنا الشريفة، لما منّ الله به من هذه النصرة)[1].

وأما رسالة شريف مكة لمحمد الفاتح، فهي اعتراف بالجميل العظيم وتهنئة حارة صادرة من قلب مؤمن لملك مجاهد، فهو يخبر السلطان محمد الفاتح أن رسالته وصلته وأنه قرأها مقابل الكعبة المعظمة: بين أهل الحجاز وأبناء العرب[2]... وأنه فهم فحواها وطار سروراً بالنصر العظيم الذي أحرزه باحتلاله القسطنطينية. كما ويخبره بوصول الذهب الأصفر الرنان، وأنه وزعه حسب إشارة السلطان. وبالمقابل فإنه أتحف السلطان بهدايا رمزية، ولكن لها قيمتها المعنوية، مثل قطعة من كسوة الكعبة وثياب مغسولة بماء زمزم وما ماثل ذلك[3].

وبالجملة كان فتح القسطنيطينية مناسبة جيدة أظهر القوم محبتهم تجاه بعضهم بعضاً، وتبادلوا التحيات والهدايا، وأشاعوا الفرح والسرور بين الناس.

ولقد انتهت العلاقات الودية بين الدولة العثمانية والمماليك، في مفتتح القرن العاشر الهجري، عندما حول العثمانيون وجهة فتوحاتهم من الغرب والشمال إلى الشرق والجنوب، وهاجموا دولة المماليك المتداعية فاحتلوها، وضموا سورية ومصر للإمبراطورية العثمانية، ووضعوا حداً لتاريخ وعهد دام أكثر من قرنين ونصف، وافتتحوا تاريخاً دام أكثر من أربعة قرون. ولقد أصدر السلطان سليم

(١) نفس المصدر: ١٧٣ - ١٧٨.

(٢) نفس المصدر: ١٧٨ - ١٨١.

(٣) نفس المصدر.

الأول العثماني - الذي احتل سورية ومصر وقضى على دولة المماليك - بياناً أذيع في كل مكان يعلن احتلاله مصر وانتصاره في معركة الريدانية على طومان باي. والبيان موجه إلى أهل الشام الذي سبق احتلاله يخبرهم بما تم، وهو في بيانه لا يطنب في الألقاب ولا يغالي في الوصف، ويذكر سيره وسير جيشه بشيء من التفصيل، وهو يذكر الأسلحة النارية مثل المدافع، ويسميها المكاحل والكفيات والسبقيات[1]. ثم يذكر جهود طومان باي في تحصين الريدانية وسير المعركة، وكانت معركة قاسية أبدى فيها المصريون ضروباً من الشجاعة؛ جعلت السلطان العثماني يصف ذلك اليوم في بيانه: (... واشتد الحرب وصار مثل يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ومثل يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه...)[2] وقد انتهت المعركة بهزيمة طومان باي وحزبه، ويذكر البيان أنه لم يعرف مصير طومان باي: (... فما عرفنا هل هو مات أم بالحياة)[3]. ثم يذكر أن مصر أطاعته ويطلب من جميع الرعايا الاستبشار والفرح والسرور بهذا النصر العظيم[4].

ب - مع الدول غير الإسلامية:

من الملاحظ أن أغلب الدول غير الإسلامية التي كان لها علاقات سياسية مع دولة المماليك، كانت هي البادئة في خطب ود المماليك وذلك أثناء عظمتهم وتفوقهم، وهذا شيء طبيعي بسبب قوة الدولة وأهميتها وأهمية ثروتها ومكانها الاستراتيجي الهام. ولقد كان لها علاقات مع الروم البيزنطيين ومع الحبشة، ومع

---

(١) ابن طولون شمس الدين محمد «مفاكهة الخلان في حوادث الزمان» تحقيق محمد مصطفى. القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف... ١٩٦٤م، جـ ٢، ٤٤ - ٤٧.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

دولة « سيس » الأرمنية في شمالي سورية ، ومع حكام صقلية والبندقية وجنوه وغيرها من دويلات إيطاليا ، ومع مملكة الأراغون.

والذي يبدو لنا أن ملوك الحبشة كانوا شبه تابعين لسلاطين المماليك ، فهذا ملك الحبشة « محر أملاك » يرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يفتتحها بقوله : (أقل المماليك يقبل الأرض ، ويخاطب الظاهر بقوله : مولانا السلطان) [١] . كما إن ملك النوبة الجديد « مشكد » يقسم يمين الولاء للسلطان الملك الظاهر [٢] ، وهي يمين مغلظة أخذ عليه فيها أقسى العهود وأشد الأيمان.

كذلك كان السلطان قلاوون شخصاً قوياً ، شعرت جميع الدول بقوته فطلبت صداقته. ومن هؤلاء صاحب سيس التكفور « ليفون بن ميتوم » الذي شعر بضعفه أمام السلطان فطلب منه الهدنة ، فأجابه إلى ذلك على أن يقسم يمين الولاء له ففعل. وقد أخذ عليه أشد المواثيق ، وأقسى ما يعتقده مسيحي مؤمن بالله والمسيح وجميع القيم المسيحية ، فهو يقسم ثلاثاً بالله وبالمسيح والصليب والإنجيل ، وبكثير من المقدسات المسيحية الأخرى ، أن يكون مخلصاً للسلطان قلاوون وابنه وولي عهده الملك الصالح ، وابنه الآخر الملك الأشرف ، وإن نقضها أو نقض شيئاً منها : (... فكل ما أملكه ... صدقة على الفقراء والمساكين ... وعليّ المشي إلى بيت المقدس حافياً حاسراً راجلاً ثلاثين مرة ، وعليّ صوم الدهر كله ...) [٣] وقد حوت الهدنة قواعد تبادل الأسرى وقواعد تنقل التجار والسفار والرحالة بين البلدين وقواعد اللجوء السياسي ، وما ماثل ذلك من قضايا [٤].

كما أن أهل جنوة عقدوا هدنة مع السلطان قلاوون وأقسم على احترامها ـ نيابة عن حكومة جنوة ـ رسولها لدى السلطان ، ونصت الهدنة على احترام

---

(١) ابن الفرات. المصدر المذكور آنفاً جـ ٧ ، ٢٤ ـ ٢٥ .

(٢) نفس المصدر : جـ ٧ ، ٤٧ ـ ٤٨ .

(٣) ابن عبد الظاهر. المصدر المذكور آنفاً ٩٣ ـ ١٠٢ .

(٤) نفس المصدر .

التجارة وحريتها بين البلدين، وحرية التنقل وحرية الملاحة وحماية أساطيل كل دولة سفن الأخرى، والاعتناء بالأسرى أو الذين يخطفهم القرصان، والتعويض والعقوبات والقصاص... كل ذلك بأسلوب عربي جيد مع ترجمة إلى اللاتينية، ومع تفخيم وتعظيم بالسلطان وولي عهده. وقد أقسم أعضاء الوفد باسم حكومتهم، على احترام هذه الهدنة بالأيمان المغلظة، وشهد الشهود عليهم بذلك، ومن جملتهم أسقف مصر الملكي [١].

ولقد عقدت هدنة بين السلطان الملك المنصور، وملك أراغون وأخيه ملك صقلية، وأخيهما الآخر، وهي لا تخرج في مضمونها وروحها عما ذكرناه أعلاه من حرية المبادلة وحرية التجارة واحترام السيادة، وإطلاق سراح الأسرى وتبادل اللاجئين، وتأمين بلاط الطرفين وثغورهما وأساطيلهما، والتعاون بين الطرفين [٢]. ولقد توجت هذه الهدنة بأيمان مغلظة على احترامها، أقسم بها كل من قلاوون وولده الأشرف وملك الأراغون الذي تسميه الوثيقة «ذوفنش» [٣].

كذلك طلب ملك الحبشة من قلاوون الموادعة والصلح، وأرسل له هدايا كثيرة وطلب منه أن يسمح لرهبانه بالدخول إلى بيت المقدس [٤].

ولقد بلغ من عظمة قلاوون وأهميته وأهمية دولته؛ أن التمس صداقته ومودته ملك القسطنطينية ميخائيل الثامن آل باليولوغ، الذي أرسل رسلاً إلى السلطان مع نسخة يمين ولاء له. وقد عُرِّبت الرسالة فعرف أن تاريخها مطابق للمحرم من سنة ٦٨٠ هـ، وهو يمد يده بالسلم للسلطان ويذكر أنه راغب بالمودة والموادعة، ويقسم على صدق ما يقول وعلى مودته وحفظه للصلح بالله والمسيح

---

(١) نفس المصدر ١٦٥ - ١٦٩.

(٢) نفس المصدر ١٥٦ - ١٦٢.

(٣) نفس المصدر ١٦٢ - ١٦٤.

(٤) نفس المصدر ١٧٠.

والأناجيل، وكل ما هو مقدس لدى المسيحيين، وهو يقترح منح حقوق متقابلة لرعايا الدولتين، من التجار والسفار والقصاد، من حرية وحماية وإعفاء من الرسوم، وما ماثل ذلك من القضايا، مع تعهد بعدم العدوان على أراضي الطرف الآخر، وتبادل اللاجئين (١). ولقد قبل السلطان هذه المعاهدة، وأقسم هو نفسه يميناً بالوفاء بما تضمنته هذه المعاهدة (٢).

ولقد بلغ من اهتمام قلاوون بالتجارة الخارجية أنه أصدر منشوراً عاماً لكل التجار الذين يردون إلى بلاده من الهند والصين وغيرهما يمنحهم فيه الحماية والرعاية، ويتعهد بتوفير الأمن والطمأنينة لهم، ويصف عدله ومملكته أجمل وصف، ويحض على جلب الأرقاء والمماليك، وهو مستعد لشرائهم لجعلهم جنوداً وحرساً له (٣).

كذلك تابعت دولة المماليك قوتها وشهرتها وتحقيق الأمن فيها، حتى إن ملكاً من ملوك أوربا، هو فراكس ملك الصرب، طلب منحه أماناً هو وأتباعه من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون؛ ليقوم بزيارة القدس، وقد كان السلطان الملك الناصر عند حسن ظنه فمنحه الأمان المطلوب (٤).

ولقد تبع عصر السلطان الناصر محمد؛ عصرٌ انحطت فيه مملكة المماليك، بسبب ضعف أولاده والصراعات حول العرش واضطراب الأمن في البلاد، ومن بعد ذلك هجوم تيمورلنك على بلاد الشام، ولكن ما أن انقضى هذا العهد واستقرت الأمور بشكل نسبي، حتى تنشطت المبادلات التجارية بين دولة المماليك ودويلات إيطالية التجارية، وعقدت عدة معاهدات بين السلطان الملك الناصر فَرج بن برقوق من طرف وبين كل من دولة جنوة وصاحب القسطنطينية ودوج

(١) ابن الفرات، المصدر المذكور آنفاً جـ ٧، ٢٢٩ - ٢٣١.
(٢) نفس المصدر جـ ٧، ٢٣١ - ٢٣٣.
(٣) القلقشندي، المصدر المذكور آنفاً جـ ١٣، ٣٤٠ - ٣٤٢.
(٤) نفس المصدر جـ ١٣، ٣٢٧ - ٣٢٨.

البندقية من الطرف الآخر ، وكلها تؤكد الروح الودية التي يكنها هؤلاء للسلطان ويطلبون حرية التجارة والمبادلات والحماية اللازمة لذلك، مع كثير من الهدايا قدمت للسلطان.

هذا وليس لدينا مراسلات ولا وثائق عائدة لفترة ما بعد السلطان الناصر فرج بن برقوق، حتى نتابع حديثنا عن هذه الفترة. ولعل ذلك عائد إما إلى فقدان الوثائق أو إلى ضعف العلاقات أو إلى كليهما ، والله تعالى أعلم بذلك.

★ ★ ★

الأندلس وشمالي أفريقية

٦٤ - ٨٩٧ هـ

٦٨٣ - ١٤٩٢ م

للتاريخ الأندلسي مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي، ذلك أن الأندلس هي الفردوس المفقود بالنسبة للمسلمين، وبلغت حضارة الإسلام في تلك البقعة من الأرض درجة عالية جداً من التطور والسمو، وكانت الأندلس، مع صقلية، البوابة الرئيسية التي انتقل عبرها الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية إلى أوروبا، وكانت من أكبر العوامل في إيقاظ أوروبا ونقلها من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة. وبالنسبة للمسلمين فإن التاريخ الأندلسي دليل حي على حيوية الإسلام وعظمته وقدرته على العطاء غير المحدود، وعلى نزعته الإنسانية العالمية التي تتجاوز الحدود من أجل العقيدة ونشرها، ونشر الحب والحق والعدل بين أعداد متزايدة من بني البشر. وإن مأساة انهيار الحكم والوجود الإسلامي في الأندلس يثير في نفوسنا حتى الآن أسى عميقاً على ما أصاب ذلك القطر من آلام وانفصال عن العالم الإسلامي، وأسىً أعمق على ما أصاب المسلمين من اضطهاد وقتل وتشريد وتعذيب، والذي يزيد في ألمنا نحن هو الموقف المناقض لموقف الإسلام في الأندلس الذي تمثل في محاولة جادة لاستئصال الإسلام كدين وكحضارة من شبه الجزيرة الإيبرية، واستئصال المسلمين كأفراد وكمجتمع له شخصيته المتميزة وكيانه في تلك البقعة من الأرض. وإن تسامح الإسلام العظيم

في تلك البقعة قوبل بأشد وأعنف موجات الاضطهاد والتعصب من قبل الاسبان. وإن الموازنة بين حال إسبانيا الإسلامية إبان ازدهار الحكم الإسلامي فيها، وحالها بعد إخراج المسلمين منها يكشف عن الهوة السحيقة التي انحدرت إليها إسبانيا، فكرياً وسياسياً وحضارياً، وذلك بعد أقل من قرنين من إنهاء حكم المسلمين فيها. وإن تدهور إسبانيا هذا يعزى بالدرجة الأولى إلى الحكم المتعصب الأعمى الذي استهدف القضاء على كل آثار المسلمين في شبه الجزيرة الإيبرية. وقد نجح الإسبان المتعصبون في ذلك، ولكن اسبانيا دفعت ثمناً رهيباً لهذا النجاح تمثل في تدهور أحوال إسبانيا وتقهقرها إلى الوراء في كل المجالات - بعد فترة من الازدهار المؤقت السطحي - هذا التدهور الذي ظل مرافقاً لها حتى أواخر القرن التاسع عشر.

وإن الكلام عن التاريخ الإسلامي في الأندلس يقودنا، بطبيعة الحال، للكلام عن الشمال الأفريقي.

ولقد ارتبط مصير إسبانيا الإسلامية بمصير شمالي إفريقية، وبخاصة المغرب الأقصى، كما يسمى أيضاً، مراكش، ارتباطاً عضوياً مصيرياً. فلم يكن من الممكن أن يفكر المسلمون بتحرير الأندلس قبل تحرير شمالي أفريقية بكامله. فلما تم لهم تحرير شمالي أفريقية تحريراً تاماً شاملاً نهائياً بدأوا يتطلعون لتحرير الأندلس وجعلها دار إسلام، وإن دواعي تحرير الأندلس هي دواعي تحرير غيرها من الأقطار التي حررها الإسلام، يضاف إليها دافع استراتيجي هام، ذلك أن مضيق جبل طارق الفاصل بين المغرب الأقصى والأندلس ليس حاجزاً لا يمكن اجتيازه، وقد أثبتت الأحداث والأيام صحة نظرية المسلمين في الدفاع عن شمالي أفريقية، ذلك أن المنطقة التي يمكن أن يأتي الخطر منها إلى شمالي إفريقية، وبخاصة المغرب الأقصى، هي الأندلس، ولذلك فأفضل خطة لحماية هذه المنطقة والدفاع عنها هو احتلال المنطقة التي يتوقع قدوم الخطر منها، وقد

انتبه لهذه الحقيقة سكان قرطاجة القدماء، الذين احتلوا قسماً من إسبانيا لأغراض دفاعية، إلى جانب الأغراض الأخرى. كما وأن الأحداث أثبتت أن سقوط الأندلس بيد الإسبان كان خطراً ماحقاً هدد المغرب الأقصى بخاصة، والشمال الافريقي بعامة، وظل هذا الخطر يتزايد حتى القرن التاسع عشر والقرن العشرين عندما تمكنت الدولتان المستعمرتان فرنسا وإسبانيا من احتلال تونس والجزائر ومراكش والصحراء المغربية، ولم يتم تحرر هذه الأقطار من الاستعمارين إلا مؤخراً وبعد حروب أشبه بالملاحم.

هذا التلازم العضوي المصيري بين الأندلس والمغرب الأقصى نتج عنه وحدة التاريخ بينهما، وإن الجهود المستميتة التي بذلها بشكل خاص سكان المغرب الأقصى في نصرة إخوانهم مسلمي الأندلس كانت السبب الرئيسي في اطالة بقاء المسلمين في الجزيرة هذه الفترة الطويلة، والواقع بذل سكان شمالي إفريقية جهوداً رائعة جبارة في نصرة إخوانهم الأندلسيين بدافع الأخوة الدينية أولاً وبدافع المصلحة المشتركة ثانياً، ولذلك لا يمكن فهم تاريخ الأندلس دون فهم تاريخ شمالي أفريقية والمغرب الأقصى على الخصوص، ذلك أننا نجد أحداث التاريخ الأندلسي منعكسة كل الانعكاس في تاريخ الشمال الافريقي، والعكس أيضاً صحيح كل الصحة فكل قوة أحرزتها الأندلس كانت قوة للمغرب، وكل تقدم أحرزه المغرب نجد صداه في الأندلس بارزاً كل البروز. وكل نكسة حصلت هنا أو هناك خلفت آثاراً ملموسة في الجانب الآخر. ولذلك سنبحث هنا بايجاز كل ما يتعلق بتاريخ المنطقة ككل حسب ما توحي به الوثائق المتوفرة دون تمييز.

أدوار التاريخ الأندلسي:

لسنا من أنصار تقسيم المجرى التاريخي الإنساني إلى أدوار، كما صرحنا بذلك في عدد من كتبنا السابقة، ولكن هناك أحداثاً معينة بارزة في تاريخ كل شعب وكل قطر، تحمل سمات خاصة وتركت آثاراً خاصة يحسن أخذها بعين

الاعتبار. ذلك لأن المجرى التاريخي عبارة عن جدول رقراق مستمر يتعرض للغزارة أحياناً وللقلة أحياناً أخرى حتى يكاد يصل إلى درجة الجفاف.

ولذلك عند تقسيم هذا الجدول التاريخي إلى مراحل، يجب الانتباه إلى جميع المؤثرات والقوى التي أثرت في ذلك الجدول، سلباً وإيجاباً. ويجب ألا يغيب عن البال أن مثل هذا التقسيم اصطناعي هدفه تسهيل البحث والدرس وأن العوامل المؤثرة في التاريخ متداخلة متراكبة، ومن الصعب فصلها عن بعضها، وأن كثيراً من الشخصيات والأحداث والظروف تلعب دوراً ما في سير التاريخ.

بعد هذا الاحتياط الذي لا بد منه نذكر أن التاريخ الأندلسي ـ ونستعمل هذا الاصطلاح هنا للدلالة على تاريخ الأندلس في عهد المسلمين منذ ضمها إلى جسم البلاد الإسلامية حتى سقوط آخر معقل من معاقلها بيد الإسبان، يضاف إلى ذلك تاريخ شمالي إفريقية، وبخاصة المغرب الأقصى في نفس الفترة ـ يقسم إلى أدوار بارزة حسب المؤثرات والأحداث.

١ ـ الدور الأول زمن بني أمية، ويمتد هذا الدور من تاريخ تحرير الشمال الافريقي والأندلسي حتى سنة ١٣٨ هـ.

٢ ـ الدور الأموي الذي بدأ بتأسيس دولة أموية منفصلة عن جسم الدولة الإسلامية بعد سقوط الأمويين وحلول العباسيين محلهم بعد سنة ١٣٢ هـ. وقد تم تأسيس الدولة الأموية في الأندلس سنة ١٣٨ هـ وافتتح العهد بعبد الرحمن الداخل.

كما وأنه تأسست بعد فترة بسيطة دولة الأدارسة في المغرب الأقصى وأسسها إدريس الأول العلوي وانفصلت عن جسم الدولة العباسية ودخلت في صراع مع الأمويين حتى تمكن الحكم المستنصر من القضاء عليها.

وفي زمن هارون الرشيد تأسست دولة الأغالبة التي أسسها إبراهيم بن الأغلب

ولعبت دوراً مهماً جداً في نشر الإسلام في صقلية وجنوّبي إيطاليا وظلت في الوجود حتى قضى عليها الفاطميون لما أسسوا دولتهم في تونس.

كذلك نبعت الدولة الفاطمية في المغرب الأدنى أو تونس وتأسست سنة ٢٩٥ هـ على يد أبي عبد الله الشيعي وحاولت التوسع غرباً وشرقاً حتى تمكن أحد خلفائها المعز لدين الله من احتلال مصر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري.

ويقسم هذا الدور، في الأندلس، الى قسمين: الأول عهد الأمراء الأمويين الذي يمتد حتى سنة ٣١٦ هـ. والثاني عهد الخلفاء الأمويين الذي افتتحه عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٦ هـ عندما أعلن نفسه خليفة واستمر حتى سنة ٤٢٢ هـ.

٣ ـ عهد ملوك الطوائف الذي بدأ سنة ٤٢٢ هـ وانتهى بحدود سنة ٤٨٦ هـ، وذلك عندما سقطت الخلافة الأموية وتقسمت الأندلس الى عدد كبير من الدويلات المزيلة أخذت اسم دولة الطوائف.

٤ ـ عهد المرابطين الذي بدأ سنة ٤٥٣ هـ في المغرب الأوسط ثم شمل المغرب الأقصى والأندلس واستمر حتى منتصف القرن السادس الهجري، وهو العهد الذي ضم الأندلس ومراكش والجزائر تحت حكم مركزي واحد مركزه المغرب الأقصى.

٥ ـ عهد الموحدين الذي قام على أنقاض عهد المرابطين واستمر حتى منتصف القرن السابع الهجري وشمل الأندلس والمغرب الأقصى والمغرب الأوسط.

٦ ـ مملكة غرناطة وهي قسم ضئيل من الأندلس بقي تحت حكم إسلامي بعد سقوط القسم الأكبر من الأندلس بيد الإسبان وظلّت هذه المملكة في الحياة حتى سنة ٨٩٧ هـ عندما احتلها الاسبان.

٧ ـ العهد المريني في المغرب الأقصى والعهد الحفصي في المغرب الأدنى.

ونعود فنذكر بأن هذا التقسيم اصطناعي وأن لا حدود بين عهد وعهد وأن كثيراً من العهود تمتد جذورها في عهود سابقة، وتستمر تأثيراتها في عهود لاحقة.

مصادر التاريخ والوثائق الأندلسية:

هناك غزارة وتنوع في مصادر التاريخ الأندلسي. وقد وجد كتاب ومؤلفون تخصصوا في التاريخ الأندلسي وشمالي أفريقية إما بشكل عام أو حسب عصر من العصور. أما الوثائق الأصلية فقد وجد عدد قليل منها، ولكن ليس في خزائن المسلمين، وإنما في بعض الكنائس والأديرة الإسبانية، ذلك أن الجهل والتمزق الذي ران على المسلمين حتى مطالع العصور الحديثة جعل من الصعب جداً، إن لم يكن من المستحيل، حفظ مثل هذه المواد. ويحتاج الأمر إلى بحث عميق وشامل ومضني في مختلف المظان للكشف عن مثل هذه الوثائق في أرجاء العالم العربي وبخاصة في المغرب الأقصى، على حين أن التعصب المسيحي الإسباني الذي رافق عملية إنهاء حكم المسلمين في الأندلس وتلاها في فترة طويلة مسؤول عن زوال القسم الأكبر لتراث العرب الفكري المخطوط في شبه الجزيرة الإيبرية.

هذا، ويستمد المؤرخ والوثقي، بشكل عام، معلوماته عن الأندلس وشمالي إفريقية، من مصادر ثلاثة:

١ ـ المصادر التاريخية الإسلامية العامة التي تقص حوادث المنطقة على اعتبارها إحدى مناطق العالم الإسلامي، وأحداثها أحداث قسم من العالم الإسلامي. وهذا النوع لا يصرف إلا اهتماماً ضئيلاً إلى المنطقة، إذ إن اهتمام المؤرخين المسلمين، ولاسيما سكان سورية والعراق وما وراءهما كان موجهاً إلى مركز الخلافة العباسية، ولذلك فالمعلومات التي تقدمها هذه المصادر معلومات سطحية جزئية لا تنقع غلة ولا تبل صدى. فالطبري العظيم الذي يروي أدق

التفاصيل في تاريخه عن أحداث العراق والقسم الشرقي من الامبراطورية الإسلامية لا يذكر إلا لمحة خاطفة قصيرة عن معركة بلاط الشهداء واستشهاد عبد الرحمن الغافقي. وعلى الرغم من أننا نجد اهتماماً أكبر بأحداث المنطقة لدى المؤرخين المتأخرين أمثال ابن الأثير وابن كثير، إلا أن الصورة بشكل عام تظل قريبة مما كانت عليه في السابق.

٢ ـ المصادر الإسلامية المتخصصة التي تخصصت في قص سيرة وتاريخ المنطقة أو في سرد تاريخ قطر من أقطار المنطقة أو سلالة من السلالات أو حركة من الحركات. ولعل كتاب المقري العظيم **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب** من أشمل الكتب التي تقص سيرة المسلمين في الأندلس من تاريخ فتحها حتى بعد إخراجهم منها: إذ يقص المؤلف أحداث ما يقارب الثمان مئة سنة. وقد اعتمد المؤلف على كتب سابقة في تأليف كتابه، وهو يذكر مصادره، وبعضها معروف. كما وأنه معجب كل الاعجاب بالوزير الأندلسي الغرناطي الشهير لسان الدين بن الخطيب، فخصص حيزاً كبيراً من كتابه لدراسة وسرد أعمال وحياة هذا الوزير. وقد رسم المقري في كتابه هذا للأندلس صورة خلابة رائعة، وصورها فردوساً مفقوداً وأبرز عظمتها ودورها الحضاري العظيم الذي قامت به. ويهتم في كتابه بالأدب والشعر والعمران، والفن وبكل القيم الإنسانية، ولا يجعل النواحي السياسية تطغى على النواحي الحضارية، بل العكس هو الصحيح، ويترجم للبارزين في كل فن، ويوضح توضيحاً تاماً الصلة العضوية بين الأندلس والمغرب بحيث يكاد يلمس القارىء لمس اليد الدور الخطير الذي لعبه المغرب الأقصى في الدفاع عن الأندلس ونصرتها. كما وأن المؤلف يورد عدداً لا بأس به من الوثائق فائقة الأهمية والتي تلقي ضوءاً على تاريخ الأندلس وعلاقتها بشمالي أفريقية. وعلى الرغم من أن الكتاب ألف بعد خروج المسلمين من الأندلس بأكثر من سبعين عاماً إلا أن ذلك لا يقلل من أهميته لصدق المؤلف وحيويته وأصالته واعتماده

على المصادر الأصلية بحيث يمكن اعتباره بسهولة مصدراً رئيسياً، وهو مطبوع ومحقق وله عدة طبعات وقام بتحقيقه عدد من المحققين، كما قام بدراسته عدد من الدارسين.

وإن ابن خلدون في كتابه الشهير: **العبر...** قد خصص حيزاً جيداً لتاريخ الأندلس وشمالي افريقية باعتباره من أبناء المنطقة، ولكن الملاحظة أن معالجته للتاريخ الأندلسي لا تمتاز بشيء ذي سمة مميزة، بل هو عادي في معالجته تاريخ تلك المنطقة من العالم الإسلامي. وإنما اكتسب كتابه أهميته بسبب مقدمته التي وضعها لعلم التاريخ، ثم من سرده لتاريخ البربر في شمالي افريقية والأندلس وما قاموا به من أحداث وما أسسوه من دول، فهو، بهذا الاعتبار، مصدر لحياة البربر وأعمالهم ودولهم في شمالي إفريقية. وإذا عرفنا أن البربر لعبوا دوراً فائق الأهمية في تاريخ إسبانية الإسلامية ـ سلباً وإيجاباً ـ أمكننا تقدير أهمية تاريخ ابن خلدون من هذه الزاوية. أما الوثائق التي يوردها فهي قليلة بل نادرة، إلى جانب معالجته لموضوعاته معالجة تقليدية ليس فيها تلك الأصالة التي يتمنى المرء لو يراها لديه.

وبمناسبة الكلام عن ابن الخطيب الذي كان سياسياً لامعاً وكاتباً من أكبر كتاب إسبانيا الإسلامية فإننا نقول إن هذا السياسي الداهية كان مؤلفاً خصب الانتاج متعدد الجوانب ألف في كثير من الموضوعات ومن جملتها التاريخ والتراجم. وقد ألف كتاباً أسماه **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**. وقد خصصه للعالم الإسلامي، ولكن تركيزه على الأندلس وشمالي إفريقية. ولا يزال قسم من هذا الكتاب مخطوطاً على حين نشر ليفي بروفنسال القسم المتعلق بتاريخ الأندلس تحت إسم: **تاريخ إسبانيا الإسلامية**. وهو تاريخ جيد يبحث في الأمراء والحكام والخلفاء الذين تعاقبوا على حكم مختلف مناطق الأندلس حتى عهده (أواسط القرن الثامن الهجري). كما وأن

اثنين من مؤرخي المغرب الأقصى هما العبادي والكتاني نشرا القسم المتعلق بشمالي إفريقية من هـذا الكتـاب تحت عنـوان **تـاريـخ المغـرب العـربي في العصر الوسيط**. وهو يغطي نفس الفترة فيما يتعلق بشمالي افريقية. ويرد في هذا الكتاب وثائق مهمة كل الأهمية تساعد المؤرخ والباحث على إصدار الأحكام بدقة واطمئنان. هذا وإن ابن الخطيب رئيس مدرسة خاصة في أسلوب النثر العربي يمتاز بالسجع واستخدام المحسنات البديعية بشكل مفرط، ولكن بشكل رشيق وعندما يقص الأحداث القريبة من عهده فهو يقصها بقلم أستاذ متمكن من مادته ونفسه، ويمكن الاطمئنان إلى أحكامه إلى حد كبير.

وهناك كتاب هام كل الأهمية ألفه أمير من أمراء ملوك الطوائف هو الأمير عبد الله من آل زيري الذي كان حاكم غرناطة في الفترة التي سبقت ورافقت احتلال المرابطين للأندلس وخلعه المرابطون ونفوه إلى شمالي افريقية لما احتلوا عاصمته غرناطة. يقص هذا الكتاب أحداث هذه الفترة. وقد سرده مؤلفه بشكل مذكرات شخصية مما دعا ليفي بروفنسال إلى نشره تحت اسم **مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة**. وهو يحمل انطباعاته عن تلك الفترة وما حدث وما جرى له ولغيره على الساحة الأندلسية. أما أسلوبه فعادي واهتمامه بالوثائق قليل، وهو يسمي كتابه: **التبيان**.

أما الكتاب العظيم في تاريخ الأندلس والذي لا يزال قسم كبير منه مخطوطاً، ولم ينشر منه إلا أجزاء ضئيلة فهو كتاب ابن حيان مؤرخ الأندلس العظيم، الذي ألفه وسماه **المقتبس في أخبار بلد الأندلس**، وهو كتاب مفصل كل التفصيل موثوق كل الثقة، وثقي من الطراز الممتاز اذ يحوي عدداً كبيراً جداً من الوثائق الهامة المفردة. وقد نشر قسمان ضئيلان منه أحدهما عن حكم عبد الرحمن الأوسط والثاني عن فترة قصيرة من حكم الحكم المستنصر بالله. وتدل الأقسام التي نشرت على شخصية المؤلف وأسلوبه واهتماماته أحسن دلالة، فهو

شامل في نظرته، وهو موثوق كل الثقة، وهو يهتم بكل صغيرة وكبيرة، ولاسيما فيما يتعلق بالعلاقات السياسية والوفود والحروب وما شاكل. وهو يدعم أقواله بوثائق تثبت ما يقول، الى جانب أنه مفصل كل التفصيل. والأمل كبير أن يتم نشر المخطوط بكامله نشراً علمياً محققاً حتى تتم الفائدة منه.

كذلك هناك كتاب مجهول المؤلف اسمه **أخبار مجموعة في فتح الأندلس.** وعلى الرغم من عدم معرفتنا بشكل يقيني ثابت شخصية المؤلف واسمه، إلا أن المعلومات التي حواها هذا الكتاب معلومات جيدة واسعة موثوقة وتدل على حسٍ تاريخي منتظم.

ولعل أقدم كتاب يقص سيرة فتح الأندلس هو كتاب ابن القوطية المسمى **تاريخ افتتاح الأندلس** ويعتبر هذا الكتاب، من بعض الوجوه أقدم تاريخ لفتح الأندلس وربما أوثقها.

وهناك كتب مشتركة بين المغرب والأندلس تقص سيرة البلدين معاً. ولعل أهمها الكتب التالية: **المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** لابن عذاري، وهو كتاب جيد موثوق يقص سيرة وتاريخ البلدين حتى أواخر القرن الخامس الهجري وأوائل السادس، وقد حقق أقساماً منه ليفي بروفنسال واكتشف قسماً ضائعاً منه. وقد سدّ هذا الكتاب ثغرة في الدراسات المغربية والأندلسية، وهو مهم خاصة من أجل حركة المرابطين وعلاقتها بالأندلس. أما الوثائق الواردة فيه فقليلة. وإذا ذكرنا الموحدين الذين ورثوا المرابطين وبنوا دولتهم على أنقاضهم لاحظنا وجود عدد من المصادر الأصلية التي تقص سيرتهم وتاريخهم، الى جانب تواريخ غيرهم، كما فعل المراكشي في كتابه: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب،** اذ يلخص تاريخ المنطقة ويركز على الموحدين لأنه ألف الكتاب في عهد أوائلهم، ولذلك فهو موثوق فيما يتعلق بالفترة التي يسردها، ووثائقه ليست كثيرة. كما وأن هناك مصادر تخصصت بالموحدين مثل كتاب **المن بالإمامة على**

المستضعفين. الذي ألفه ابن صاحب الصلاة عن الحركة الموحدية وقيامها زمن المهدي وعبد المؤمن وأبي يعقوب. وهو كتاب مفصل ينظر الى التاريخ الموحدي من وجهة نظر دينية. وهو مليء بالوثائق المهمة بشكل رسائل بين ملوك الموحدين وولاتهم في الأندلس حول مختلف المسائل. ولسوء الحظ لم يصل الى يدنا إلا الجزء الثاني من هذا الكتاب الهام.

وهناك كتاب، أو بالأحرى، قسم من كتاب خاص بالموحدين ألفه ابن القطان، اسمه **كتاب نظم الجمان**، وهو يقص سيرة عدد من سنوات حياة المهدي مؤسس حركة الموحدين، وفيه وثائق مهمة. ويرد في هذا المجال كتاب ألفه ابن الأبار اسمه **الحلة السيراء** الذي يقص سيرة تلك الفترة في كل من الأندلس وشمالي أفريقية، وهو كتاب تاريخي كما هو كتاب تراجم ويحوي عدداً من الوثائق المهمة. وختاماً لا بد أن نذكر أن هناك عدداً لا بأس به من الوثائق المتعلقة بالأندلس والشمال الافريقي أتى من كتب الثقافة العامة والوثائق العامة التي ذكرناها سابقاً في كتبنا وأهمها كتاب **صبح الأعشى في صناعة الانشا** للقلقشندي، وكتاب النويري: **نهاية الأرب في فنون الأدب**. فقد حوى الأول بشكل خاص عدداً من المراسلات بين ملوك مصر من المماليك وبين ملوك غرناطة وملوك الشمال الإفريقي، وهي مهمة كل الأهمية في كشف طبيعة العلاقات بين الطرفين خلال تلك الفترة من الزمن. ولقد فصلنا القول في هذا النوع من الكتب في مؤلفاتنا السابقة، فلا يفيد أن نعيد ما سبق أن ذكرناه، ولكن نقول إن هذه الوثائق التي وردت في **صبح الأعشى** بخاصة جيدة وموثوقة، على الرغم من عدد من الأخطاء التي وردت فيها.

٣ ـ أما النوع الثالث من المصادر التاريخية الهامة فهو كتب التراجم التي تقص سير الشخصيات البارزة في المنطقة ككل أو في قطر معين أو في عصر معين، أو تقص سيرة فئة من الناس كالقضاة مثلاً. هذا ولا بد من القول أن أغلب كتب

التاريخ التي ذكرناها تخصص حيزاً من محتوياتها للترجمة لمشاهير الرجال في العصر الذي تقص سيرته بشكل وفيات أو أخبار أو غير ذلك. وقد ذكرنا سابقاً كتاب **الحلة السيراء** لابن الأبار وقلنا إنه كتاب تاريخ كما وأنه كتاب تراجم.

ولا بد من القول إن قسماً من المعلومات عن الأندلس والشمال الأفريقي ترد في كتب التراجم العامة التي ألفها المشارقة، على الرغم من ضآلتها وعدم شمولها وسطحيتها. ولكن هناك استثناء واحداً من هذا الحكم يتمثل في كتاب **وفيات الأعيان...** لابن خلكان الذي حوى أخباراً جيدة جداً وربما فريدة في بابها عن الأندلس والمغرب الأقصى، وتراجمه لعدد من مشاهير تلك المنطقة كابن تاشفين والمنصور الموحدي مصدر رئيسي لا يستغني عنه دارس لدراسة حياة وأعصر هؤلاء المشاهير، بجانب إيراده عدداً من الوثائق الهامة.

وقد ألف الأندلسيون أنفسهم عدداً مهماً من كتب التراجم مدى العصور، ولكن بعضها مفقود والبعض الآخر نادر إما مخطوط أو مطبوع ولكن المؤلف لم يتمكن من الاطلاع عليه. من أمثال هذه الكتب كتاب ابن بشكوال المسمى باسم **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس** وعلمائهم ومحدثيهم. وهو كتاب جيد موثوق يترجم للمشاهير في الأندلس في كل نواحي الحياة. وقد أكمل هذا الكتاب عدد من المؤلفين بعد موت صاحبه وجعلوا له ذيولاً كابن الأبار الذي ألف كتاباً أسماه **التكملة لكتاب الصلة** سار فيه على منواله وأكمل التراجم حتى عهده؟ وكأبي جعفر الذي أكمل عمل ابن الأبار فأصدر كتاباً أسماه **كتاب صلة الصلة**. وقد ألف أحمد ابن يحيى الضبي كتاباً جيداً في تراجم رجال الأندلس سماه **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس** حوى عدداً من الوثائق الهامة النادرة. وحذا حذوه الحميدي في كتابه **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس** ولعل أشهر من ترجم لرجالات الأندلس، عدا من ذكرنا، ثلاثة مؤلفين هم: ابن بسام صاحب كتاب **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، والفتح بن خاقان

في كتابيه: **قلائد العقيان في محاسن الأعيان**، وكتاب: **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس**، ولسان الدين بن الخطيب في كتابه: **الإحاطة في أخبار غرناطة**. ولسوء حظ المؤلف لم يتمكن من الاطلاع، من عهد قريب، على كتب المؤلفين الأولين على الرغم من أنها مطبوعة. وقد ألف ابن بسام كتابه **الذخيرة** على منوال كتاب الثعالبي **يتيمة الدهر**، ليثبت للمشارقة بشكل خاص تفوق أهل الأندلس في كل الميادين. والكتاب ذو صبغة أدبية فنية. وكذلك الحال في كتب الفتح بن خاقان المملوءة سجعاً ثقيلاً يصل إلى درجة الإملال. أما الكتاب الذي ألفه لسان الدين بن الخطيب فقد طبع الجزء الأول منه وحققه الأستاذ عنان، وهو كتاب جيد يقص تاريخ غرناطة من الفتح الإسلامي حتى عهد المؤلف ويقص سيرة أشهر رجالاتها. وهو مؤرخ جيد ومطلع وكان في مركز يمكنه من الاطلاع على الوثائق الأصلية ولذلك حوى كتابه هذا كثيراً من الأخبار النادرة وعدداً لا بأس به من الوثائق المهمة.

ولا بد من القول أن قسماً مهماً من المعلومات عن الأندلس وشمالي إفريقية في تلك الفترة موجودة في كتب الرحالة وكتب الجغرافيا كقاموس البكري ومؤلفات الأدريسي والحلل الموشية والروض المعطار وغيرها، وبعضها يحوي عدداً لا بأس به من الوثائق.

كذلك لا بد من التنبيه إلى أن مصادر معلوماتنا عن المرحلة الأخيرة من حياة غرناطة وسقوطها وما رافق ذلك من مفاوضات، ومعاهدة التسليم، وذيولها موجودة في مصادر إسبانية نصرانية بشكل مفصل إذ ان المصادر العربية المعاصرة لا تعطي كثيراً من التفاصيل عن هذا الحادث المؤلم والخطب الجلل.

هذا بالنسبة لمصادر تاريخ الأندلس والمغرب في تلك الفترة. أما الدراسات الحديثة التي قام بها مؤلفون محدثون عن تلك الفترة بالذات فكثيرة وغزيرة وبعضها جيد. وقد استند أغلب المؤلفين إلى المصادر التي ذكرناها آنفاً. ونحب

أن نذكر أن الأوروبيين سبقونا إلى دراسة التاريخ الأندلسي دراسة علمية، ولكن من وجهة نظرهم. فقد درس الإسبانيون في القرن الماضي التاريخ الإسلامي في الأندلس، واعتمدوا على مصادر لاتينية ومصادر عربية، ولكن أتت مشوهة نتيجة للتعصب القومي المسيحي الذي صبغ تلك الدراسات وأعطى صورة شوهاء عن تلك الفترة من تاريخنا الحضاري. ولعل المؤرخ الهولندي الشهير دوزي هو أول أوروبي استطاع أن يأتي بدراسة مفصلة واسعة للإسلام في الأندلس، معتمداً على المصادر الأولية العربية واللاتينية والقشتالية، وذلك في كتابه المسمى **تاريخ مسلمي إسبانيا**، وقد نقل الكتاب إلى عدد من اللغات الأوروبية ونقل قسماً منه إلى العربية حسن حبشي. وعلى الرغم من ادعاء المؤلف الحياد، إلا أنه لم يتمكن من أن يتخلص من عواطفه الشخصية، ولا رواسب دينه وعقليته الإستعمارية، نلمس ذلك واضحاً في ثنايا ما كتب، وأصبح كتابه قديماً الآن وظهرت دراسات أحدث. ولعل أحدث وأهم من درس تاريخ الأندلس بتفصيل وافٍ شافٍ، وبشيء من الموضوعية هو الباحث الفرنسي اليهودي المتخصص بتاريخ المسلمين في الأندلس وشمالي إفريقية، فقد حقق ونشر عدداً من كتب التراث الأندلسي وألف عدداً من الكتب عن الأندلس نقل أهمها إلى اللغة العربية السيد عبد العزيز سالم. وعلى الرغم من اعتبار الباحثين أبحاث بروفنسال جيدة عميقة رضبة، وعلى الرغم من ادعائه الحياد العلمي ومحاولته الجادة أن يكون كذلك، إلا أنه لم ينجح في ذلك إلا بمقدار ضئيل.

ولقد ألفت كتب كثيرة عن تاريخ الأندلس والمغرب ألفها عدد من المؤرخين العرب المعاصرين، فقد اهتم المغاربة في الآونة الأخيرة بتاريخ بلدهم إبان تلك الحقبة وأصدروا عدداً من الكتب عنها. كما وأن عدداً من المؤرخين تخصصوا في دراسة التاريخ الأندلسي، ويأتي على رأس هؤلاء الأستاذ محمد عبد الله عنان الذي ألف أفضل ما كتب في العربية عن تاريخ الأندلس من تاريخ

افتتاحها حتى سقوطها، بل وبعد سقوطها. وقد اطلع الأستاذ عنان على أغلب كتب التراث مطبوعة ومخطوطة، واطلع على ما ألف في الانكليزية وغيرها من اللغات في هذا الموضوع، وارتحل في بلاد المغرب وإسبانيا وإيطاليا في سبيل جمع المادة، فأتت كتبه ثمرة جيدة جداً لجهود فائقة بذلت في سبيل جلاء هذه الحقبة من تاريخنا الإسلامي. وقد زود كتبه بعدد مهم جداً من الوثائق البالغة الأهمية، وذكر، في أغلب الأحيان، المصادر التي استقى منها هذه الوثائق، ولذلك أتت كتبه تحفاً فنية تاريخية وثقية وسدت فراغاً في حقل الدراسات الإسلامية الأندلسية. ولقد بدأ الاستاذ حسين مؤنس بداية جيدة في حقل الدراسات الأندلسية وذلك في كتابه **فجر الأندلس**، ولكن هذا الكتاب خلا أو كاد من الوثائق، ولم يتبعه بغيره لنتمكن من الحكم له أو عليه وتقويمه تقويماً موضوعياً.

هذا وإن الباحث السوري الكبير الإسلامي المرحوم الأمير شكيب أرسلان اهتم بالأندلس اهتماماً فائقاً وارتحل إليها وألف عنها كتاباً لا بأس به اعتمد في تأليفه على مصادر أصلية وعلى مؤلفات فرنسية، ولكنه اهتم بالآثار الباقية ووصفها أكثر من اهتمامه بالتاريخ وتقصيه، وله فضل نشر وثائق بالغة الأهمية أرسلها له أحد أصدقائه من المغرب، وهي رسائل أرسلها ملوك غرناطة الى ملوك أراغون، وهي تكشف عن مدى وطبيعة العلاقات السياسية التي سادت بين الطرفين إبان تلك الفترة.

ولا بد لنا في الأخير، من أن نذكر بما سبق أن ذكرناه في كتبنا السابقة، من أننا نعرض الوثائق هنا على مسؤولية أصحابها، وأننا نقدم نصوصها وأماكن وجودها للباحثين، آملين أن يتكرموا بدراستها ونقدها وتمحيصها وبيان صدقها من زيفها. ذلك أن مهمتنا هنا أن نقدم مادة التاريخ التي هي الوثائق مصنفة مرتبة ليصار إلى دراستها من قبل الدارسين ولقد اتبعنا في عرض الوثائق الطريقة التي اتبعناها سابقاً في عرض الوثائق في كتبنا السابقة، فنأتي بذكر الوثيقة تحت

اسم الملك أو الأمير الحاكم أو الخليفة الذي صدرت هذه الوثيقة في عهده، ونصدرها بنبذة توضح مضمونها ونوعها، ما إذا كانت رسالة أم عهداً أم خطبة... ونذكر الأطراف المعنية بها، والمناسبة ونوعها وتاريخها إن أمكن ذلك. ثم بعد ذلك نذكر المصدر الذي أخذنا منه نص الوثيقة واسم المؤلف والجزء والصفحات، وذلك بعد أن نكون أوردنا نصّ الوثيقة، وفي حال ورود نفس الوثيقة في أكثر من مصدر، فإننا جهدنا لاقتباس النص الذي نعتقد أنه أكمل وأوضح من غيره، وأشرنا في أسفل الصفحة إلى أماكن وجود النصوص المشابهة لنصنا المذكور أعلاه مع ذكر أسماء المصادر وأسماء مؤلفيها وأماكن وجودها. كذلك حاولنا توضيح معاني بعض الكلمات أو الأسماء أو التواريخ التي ترد في الوثائق، كما حاولنا تصحيح بعض الوقائع والتواريخ والأسماء. واتبعنا في تأليفنا التقسيم المألوف المعروف لأدوار التاريخ الأندلسي الذي ذكرناه سابقاً، وأعطينا لكل حاكم اسمه ولقبه وتاريخ توليه وتاريخ تركه الحكم بالهجري والميلادي، ومهدنا للوثائق بفصل تمهيدي هو مدخل وتعريف بها، وهو هذا الفصل الذي نكتبه الآن.

بعد أن انتهينا مما ذكرناه سابقاً لا بد من إبداء بعض الملاحظات عن مختلف عصور الأندلس كما تتراءى لنا من خلال الوثائق العائدة لكل عصر من عصور تاريخ الأندلس.

أ ـ العصر الأول: زمن بني أمية الذي ينتهي سنة ١٣٨ هـ/٧٥٦ م.

من الملاحظ أن فتح المسلمين لشمالي إفريقية بكامله استغرق وقتاً طويلاً، إذ بدأ منذ عهد الخليفة الراشدي عثمان رضي الله عنه، وانتهى زمن عبد الملك بن مروان، في أواخره، على حين أن فتح الأندلس لم يستغرق إلا وقتاً قصيراً كل القصر بالموازنة مع الزمن الذي احتاجه تحرير شمالي إفريقية هذا، وقد بدأ عمرو ابن العاص رحمه الله يفكر في تحرير شمالي إفريقية بعد تحريره مصر، ولكن عمر

ابن الخطاب رضي الله عنه لم يسمح له بذلك، فلما أتى عثمان سمح بمتابعة المشروع وحرر المسلمون ما يسمى ليبيا اليوم وتونس التي كانت تسمى إفريقية، وفي زمن معاوية رحمه الله تمكن عقبة بن نافع من احتلال شمالي إفريقية بكامله حتى وردت خيوله الأطلسي وأسس مدينة القيروان، ولكن الفتح لم يستقر، وحدثت ثورات كثيرة واستشهد عقبة رحمه الله، واضطر المسلمون لإخلاء القسم الأكبر مما حرروه سابقاً من المنطقة. وصرف الأمويون اهتمامهم عن المنطقة بسبب الاضطرابات التي حدثت عقب وفاة يزيد بن معاوية وما رافقها من صراع على الخلافة، فلما استقرت الأوضاع وصفا الجو لعبد الملك قرر إعادة تلك المنطقة من جديد لحظيرة الإسلام، ولذلك عهد لأخيه وواليه على مصر عبد العزيز أن يهتم بالموضوع، فعين قائداً عاماً للجيش المحارب في المنطقة هو موسى بن نصير، وأثبت عبد العزيز أنه مصيب في هذا الإختيار، وأثبت موسى أنه أكفأ من تسند إليه قيادة الجيوش، وتمكن موسى، بعد جهود قاسية وحروب مضنية أن يعيد المنطقة دار إسلام وأن يثبت بها دعائم العروبة والإسلام تثبيتاً نهائياً إن شاء الله.

ولم يكتف موسى بما أنجز وإنما قرر اجتياز المضيق الفاصل بين أوروبا وإفريقية والمعروف باسم جبل طارق، واحتلال المنطقة المعروفة الآن باسم إسبانيا والبرتغال والتي عرفها المسلمون باسم الأندلس، وذلك لدواعي كثيرة، ولعل أولها رغبة موسى رحمه الله في نشر الإسلام وإيصال تعاليمه العظيمة إلى نفوس بشر لم يسمعوا به من قبل وإنقاذ أنفسهم وأرواحهم وتحريرهم في الدنيا والآخرة. كذلك اتبع موسى المبدأ العسكري القائل ان أحسن وسيلة للدفاع هي الهجوم، والحرب الوقائية.

ذلك أن حماية شمالي إفريقية حماية جيدة يقتضي احتلال شبه جزيرة إيبريا، لأن الشقة الضيقة من البحر الفاصلة بين المنطقتين لا تشكل حاجزاً طبيعياً لا

يمكن اجتيازه ـ بمفاهيم وإمكانات تلك الأيام في النقل البحري بخاصة ـ هذا إلى جانب أغراض أخرى أقل أهمية بكثير مما سبق ذكره.

لقد كانت عملية احتلال الأندلس عملية سهلة أو نزهة عسكرية كما يقال، وذلك بسبب كفاءة القواد وحذرهم، وشجاعة المسلمين المحاربين وتشبعهم بالمثل العليا الإسلامية، وبسبب ضعف الحكم الإسباني آنذاك وتخلخل المجتمع الإسباني وتفككه، ولذلك لم تمض فترة طويلة حتى تمكن المسلمون من ضم أغلب شبه الجزيرة الإيبرية إلى حكمهم وأن يجعلوها دار إسلام، وبدأت عملية استيطان إسلامية واسعة، وبعد فترة بدأ التفاعل الحضاري وانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا بشكل نشط كل النشاط.

هذا ويتألف سكان المغرب العربي بكامله، من البربر، الذين يتشابهون في كثير من عاداتهم وأخلاقهم وسلوكهم مع العرب، بقدر ما يختلفون عنهم. وبعد انضمام المنطقة إلى دنيا الإسلام بدأ سيل القبائل العربية في التدفق إلى المنطقة وبدأت عملية الاستيطان، لقد قاوم البربر، أول الأمر، هذه الهجرة العربية وثاروا بزعامة الكاهنة وقاوموا الإسلام بشدة حتى جعلوا المسلمين ينسحبون من قسم كبير من المنطقة. ولكن بعد فترة، عاد المسلمون إلى المنطقة وبدأوا يتفاعلون مع البربر الذين اعتنقوا الإسلام وأصبحوا من أكبر رعاته والمدافعين عنه، وشكلوا نسبة كبيرة من الجيش الإسلامي الذي حرّر الأندلس، حتى أن معاون القائد العام كان بربرياً، وأعني بذلك طارق بن زياد.

ولما فتحت الأندلس انتقل إليها العرب والبربر واستقروا فيها جنباً إلى جنب، ولكن، لسوء الحظ، لم يشكل الطرفان جبهة واحدة متماسكة، فقد انقسم سكان إسبانيا الإسلامية إلى أقسام أربعة: العرب، البربر، السكان الأصليين الذين اهتدوا للإسلام، المستعربين، وهم النصارى الإسبان الذين ظلوا على دينهم وعاشوا تحت ظل الحكم الإسلامي. وكان المفروض أن يشكل الأقسام الثلاثة

الأولى جبهة متماسكة متحدة، بموجب تعـاليم الديـن الإسلامـي العظيم وبحسـب مصلحتهم الذاتية، ولكن ذلك لم يحدث، واختلف القوم أشد اختلاف وتحاربوا وأدى ذلك إلى تمزق الأندلس، وكان ذلك من أكبر أسباب ضعف الأندلس وسقوطها فيما بعد. كما وأن العرب أنفسهم لم يكونوا جبهة واحدة، فقد حملوا معهم إلى شبه الجزيرة خلافاتهم وانقساماتهم وعصبياتهم بين قيس ويمن وشمال وجنوب. كما وأن البربر أنفسهم لم يكونوا جبهة متراصة، وبدأت عملية التقسم والصراع تعمل عملها في المجتمع الأندلسي منذ أواخر العصر الأموي، وظلت مستمرة حتى أواخر أيام بقاء المسلمين في شبه الجزيرة.

ولقد ظهر في تلك المنطقة المضطربة عدد من الشخصيات العظيمة التي تمكنت أن تسيطر على الوضع وأن تخمد جذوات الفتنة والاضطراب، دون ان تتمكن من استئصال عواملها، من أمثال: عبد الرحمن الداخل، وعبد الرحمن الناصر، والمنصور بن أبي عامر، ويوسف بن تاشفين، وعبد المؤمن الموحدي، والمنصور الموحدي وغيرهم، ولكن قوى الانقسام والتمزق كانت أقوى من الشخصيات، أضف إلى ذلك أن بقايا الإسبان، وضعوا لهم هدفاً محدداً ثابتاً وهو استرجاع بلادهم من المسلمين وبدأت عملية الاسترجاع هذه منذ زمن مبكر، ووضعت أوروبا كلها ثقلها المادي والبشري والعسكري والاقتصادي إلى جانب الاسبان، وشن القوم حرباً صليبية حقيقية ضد الإسلام والمسلمين في الأندلس كدين وكدولة ومجتمع وأفراد، همهم استئصال الدين الإسلامي والمسلمين استئصالاً تاماً، وقد بدأ ذلك من قبل عهد شارلمان واستمر حتى بعد إخراج المسلمين من الأندلس، على حين لم يقدم الشرق الإسلامي إلى الأندلس مساعدة تذكر، واضطلع الأندلسيون، يساعدهم سكان المغرب الأوسط والأقصى بمهمة مقاومة الهجمة الأوروبية الشرسة المستمرة على بلادهم. ولما لم يكن هناك تكافؤ بين قوى الطرفين، لذلك وصل الصراع إلى نهايته المحتومة، واضطر آخر ملوك بني

نصر أبو عبد الله الصغير إلى تسليم مفاتيح الحمراء إلى فروناند وإيزابيلا والنزوح إلى المغرب.

وإن الدراسة لشخصية موسى بن نصير تدل على أنه شخص كفء متواضع حذر فيه كل الصفات الضرورية للقائد الناجح، فهو يعتبر نفسه كأحد أفراد جيشه، وهو يخطىء ويصيب، وهو مستعد لتقبل النقد، وهو مستعد لتلبية وقضاء حاجات من لهم حاجات من أفراد جيشه: وإنما أنا رجل كأحدكم فمن رأى مني حسنة فليحمد الله وليحض على مثلها، ومن رأى مني سيئة فينكرها فاني أخطىء كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون... ومن كان له حاجة فليرفعها إلينا، وله علينا قضاؤها على ما عز وهان مع المواساة إن شاء الله[1].

كذلك تدل خطبته الثانية التي خاطب بها جيشه لما استلم قيادته، وهو الجيش الذي انهزم أمام الكاهنة وتمركز في افريقية على نظرة عسكرية ثاقبة وحزم وعزم شديدين. فقد كان الوضع صعباً في إفريقية بسبب قرب العدو، فلما استلم موسى القيادة وأدرك الوضع الصعب ونظر إلى جبال إفريقية وما حولها جمع جنده وشرح لهم خطته، وأخبرهم أنه سيسعى أول ما يسعى لاحتلال هذه الجبال وشعابها، لأن العدو يأتي منها، ثم تطرق إلى شرح الصفات الواجب توافرها في رجل الحرب والتي اعتزم اتباعها: وليس أخو الحرب إلا من اكتحل السهر، وأحسن النظر، وخاض الغمر، وسمت به همته، ولم يرض بالدون من المغنم، لينجو ويسلم، دون أن يكلم أو يكلم، ويبلغ النفس عذرها في غير خرق يريده، ولا عنف يقاسيه، متوكلاً في حزمه جازماً في عزمه، مستزيداً في علمه، مستشيراً لأهل الرأي في إحكام رأيه، متحنكاً بتجاربه، ليس بالمتجابن إقحاماً ولا بالمتخاذل إحجاماً، وإن ظفر لم يزده الظفر إلا حذراً، وإن نكب أظهر جلادة

---

(١) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم ـ الإمامة والسياسة ـ تحقيق محمد محمود الرافعي. القاهرة، مطبعة النيل، ١٩٠٤م. ٩٨/٢ ـ ٩٩.

وصبراً. راجياً من الله حسن العاقبة...[1] وبعد: فإن كل من كان قبلي كان يعمد الى العدو الأقصى ويترك منه الأدنى، فينتهز منه الفرصة ويدل منه على العورة، ويكون عوناً عليه عند النكبة، وأيم الله لاأريم هذه البقاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها ويذل أمنعها ويفتحها على المسلمين بعضها أو جميعها، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين[2].

ولقد تمكن موسى بإخلاصه وشجاعته وذكائه وقيادته الحكيمة الحذرة أن يحقق ما أمله فيه عبد العزيز بن مروان لما عينه والياً على شمالي إفريقية بكامله، فأعاد المنطقة إلى دين الإسلام، وقضى على الفتن ووردت خيوله المحيط الأطلسي من جديد وأرسل يبشر عبد العزيز بما فتح الله على يديه، الذي سرّ بذلك كل السرور وأرسل يخبر الخليفة بما فتح الله على يدي موسى، فما كان من الخليفة إلا أن أعلن شكره وسروره، وتعبيراً عن امتنانه من موسى ردّ عليه مبلغ مائة ألف درهم كان قد أغرمه إياها سابقاً: إن أمير المؤمنين قد أمر لك بمائة ألف التي أغرمها لك فخذها من قبلك من الأخماس[3].

صفا شمالي إفريقية بكامله لحكم المسلمين، فبدأ موسى بن نصير يتطلع إلى فتح الأندلس[4]. وكان الوليد بن عبد الملك قد أصبح خليفة في دمشق مكان والده عبد الملك، فأرسل موسى يستشيره بالأمر ويهون عليه العملية، وأن البحر الفاصل بين الأندلس والمغرب الأقصى إنما هو خليج يبين ما وراءه، ولكن

---

(١) نفس المصدر ٢/٩٩ ـ ١٠٠.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر ٢/ ـ ١٠٩.

(٤) الأندلس كلمة أطلقها المسلمون على ما احتلوه من شبه جزيرة ايبريا، وهي تشويه وتعريب لكلمة Vandal وهي اسم شعب من القوط احتل الأندلس في القرن السادس الميلادي وانتقل إلى شمالي إفريقية فأعطى المنطقة اسمه.

الوليد أصرّ على ضرورة الحذر، وأنه لا بد من اختبار هذا الخليج بالسرايا قبل اقتحامه[1].

ولقد تم الأمر كما رسم الوليد وخطط للعملية بعد درسها واختبار البلاد المزمع فتحها، واتفق المسلمون مع عناصر إسبانية وأدركوا ضعف الحاكم وتفسخ المجتمع الإسباني، ولذلك أقدموا، وكانت النتيجة فتحاً ليست كالفتوح، ولكنه الحشر[2]، كما ورد في رسالة موسى بن نصير إلى الوليد بن عبد الملك مبشراً بالفتح الجليل.

ولقد استدعى الوليد موسى بن نصير إلى دمشق حتى يراه ويكافئه مع أبطاله على ما حقق من انتصار وأنجز من فتح تفتح أبواب السماء له فلبى الطلب بعد أن ترك ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس مكانه، وأخذ السير إلى دمشق، وفي تلك الأثناء مرض الخليفة، فأرسل أخوه وولي عهده سليمان يطلب من موسى أن يبطىء في سيره لعل الخليفة يموت ويحل سليمان محله في الخلافة فينسب فضل هذه الفتوح إلى سليمان، ولكن موسى لم يلب طلب سليمان، وأسرع خطاه حتى وافى الوليد وهو حي، فكان ذلك مما زاد في غضب سليمان عليه.

ولقد عامل سليمان بن عبد الملك ـ لما أصبح خليفة ـ قواد أخيه العظام، موسى بن نصير، وقتيبة بن مسلم الباهلي، ومحمد بن القاسم الثقفي، معاملة سيئة، وعزا بعض المؤرخين ذلك إلى كونهم رفعوا اسم أخيه عالياً وحققوا كثيراً من الإنجازات التي كان يتمنى لو تحققت في عهده هو. ولكن هذا التعليل ناقص مبتور، ولعل السبب الحقيقي في حقده على هؤلاء القواد يعود بالدرجة الأولى لموافقتهم أخاه الوليد على تأخير سليمان عن ولاية العهد ونصب ابن الوليد ولياً

---

(١) المقري، أحمد بن محمد التلمساني ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب... تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٤٩ م ١/٢٣٧.

(٢) ابن قتيبة المصدر المذكور آنفاً. ٢/١٢٣.

للعهد مكانه، وهو مشروع هم به الوليد، ولكن القدر عاجله قبل إتمامه ووافقه عليه قواده، ولم يكن بإمكانهم إلا فعل ذلك. كما وأن سياسة سليمان القبلية عامل آخر من عوامل حقده على هؤلاء القواد، فقد كان ضلع سليمان مع آل المهلب، وهم من الأزد ـ أي اليمن ـ على حين أن أغلب هؤلاء القواد كانوا من قيس، ولذلك فعل بهم ما فعل. ولقد صبّ حقده وغضبه على موسى بن نصير ولم يرع له شيخوخته ولا بلاءه وخدمته للإسلام والأمويين ودبر على ابنه عبد العزيز مؤامرة أودت بحياته ونقل رأسه إلى دمشق حيث أراه لأبيه الشيخ الذي تجلّد كل التجلد ودافع عن ابنه أعظم دفاع... فوالله ما كان بالحياة شحيحاً ولا من الموت هائباً، وليعز على عبد الملك، وعبد العزيز، والوليد أن يصرعوه هذا المصرع، ويفعلوا به ما أراك تفعل[1]... وأخيراً توسط بعض الوسطاء بين الخليفة وبين موسى وعقد بين الطرفين عقد تراض يدفع موسى بموجبه للخليفة مبلغاً ضخماً من المال لقاء الكف عنه وعن أولاده[2]. وعلى الرغم من أن كثيراً من الشكوك والتساؤلات أثيرت حول هذا العقد وحول مصير موسى وأولاده، إلا أن الرأي مجمع على أن سليمان أساء كل الإساءة إلى موسى وأولاده، وأنه عاملهم بما لا يستحقونه لقاء خدماتهم للإسلام وللبيت الأموي، مهما تكن أخطاؤهم ونقيصاتهم.

ولقد استمر تيار الفتح بعد ذهاب موسى وعودته إلى دمشق، وقاد ابنه عبد العزيز هذه الفتوح وضم مملكة أريولة في شمالي إسبانيا إلى ديار الإسلام وضرب على صاحبها تدمير الجزية وعقد معه عقداً بهذا الشأن[3].

ولقد تابع عدد من ولاة الأندلس الغزو في بلاد الفرنجة [فرنسا الحالية]،

---

(١) نفس المصدر. ٢/١٥٣ - ١٥٤.

(٢) نفس المصدر. ٢/١٤٦ - ١٤٨.

(٣) الضبي، أحمد بن يحيى - بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس. دار الكتاب العربي، ١٩٦٧ م. ص: ٢٤٧.

ومن أشهرهم عبد الرحمن الغافقي الذي عينه عبيدة بن عبد الرحمن القيسي والي شمالي إفريقية والياً على الأندلس، فغزا فرنسا وغنم مغانم كثيرة جداً، ومن جملتها رجل من ذهب مفضضة بالدر والياقوت فكسرها ووزعها بين المحاربين، فساء ذلك عبيدة كل السوء وأرسل يهدد عبد الرحمن ويتوعده لأنه لم يرسلها له خالصة من دون أفراد الجيش فأجابه عبد الرحمن بلهجة المؤمن الواثق من ربه: إن السموات والأرض لو كانتا رتقاً لجعل الرحمن للمتقين منها مخرجاً (١).

ولقد ذرّ قرن العصبية بين العرب في الأندلس من عهد هشام بن عبد الملك، وانقسم القوم إلى قيس ويمن، وكانت تعاود الطرفين ذكريات مرج راهط والثارات والدماء والأحقاد، حتى أن هذا الوضع المضطرب الذي كان سائداً في الأندلس كان أحد العوامل التي ساعدت عبد الرحمن الداخل في تأسيس ملكه هناك.

فقد اعتقل عبيدة بن عبد الرحمن والي هشام الجديد على شمالي إفريقية عمال بشر بن صفوان الوالي القديم المعزول، لأن الأول قيسي والثاني يمني، ومن جملة المعتقلين أبو الخطار الكلبي، فتحيل في إرسال رسالة إلى هشام بن عبد الملك يخبره بما حدث، وهي رسالة شعرية تتهم الأمويين أنهم عمداً سلطوا القيسيين على اليمنيين الذين نصروهم في معركة مرج راهط الشهيرة، وأنهم نسوا ذلك وأن الأيام بين الطرفين، وعندئذ سيدفع الأمويون ثمن أخذهم جانب القيسيين ضد اليمنيين (٢).

ولذلك اشتعل الصراع في شمالي إفريقية والأندلس بين قيس ويمن، وكان البربر مستاءين من الأمويين وسياستهم القاضية بتفضيل العرب على غيرهم، ولم

---

(١) نفس المصدر: ٣٦٦.

(٢) دوزي، رينهارد ـ تاريخ مسلمي إسبانيا: الجزء الأول الحروب الأهلية. تعريب حسن حبشي. القاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٩٦٣ م ص: ١٣٧.

يحسن أواخر الأمويين السياسة وضعفوا عن قيادة دفة السفينة، فنشب في الأندلس صراع رهيب مرير بين العرب والبربر، وبين العرب أنفسهم بين قيس ويمن، وفي هذه الظروف الحالكة السواد سقطت الدولة الأموية وحلّت محلها الدولة العباسية.

ب ـ عهد أمراء بني أمية في الأندلس ١٣٨ ـ ٤٢٢ هـ/ ٧٥٦ ـ ١٠٣١ م.

١ ـ عبد الرحمن الداخل ١٣٨ ـ ١٧٢ هـ/ ٧٥٦ ـ ٧٨٨ م.

تمكن أبو مسلم الخراساني، بدعايته الذكية وتنظيمه الدقيق وذكائه واستغلاله نواحي الضعف في الدولة الأموية، أن ينهي حكم الأمويين وأن يحل محلهم العباسيين. وقد افتتح الخليفة العباسي السفاح الخلافة العباسية سنة ١٣٢ هـ وافتتح معه عهداً من أظلم عهود التاريخ قتلاً وحقداً وانتقاماً وإراقة للدماء، فقد قتل العباسيون الأمويين أينما ثقفوهم ونبشوا قبور خلفائهم، ولم ينجُ من هذا المصير إلا قبر عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وتتبع العباسيون الأمويين بحقدهم وانتقامهم ولم يفوا بعهد ولم يوفروا شيخاً ولا طفلاً، وكانت هذه الوحشية في الانتقام دافعاً قوياً لعدد من الأشداء للهرب إلى أقصى الأرض، وكان ممن هرب من هذه المجزرة عبد الرحمن حفيد هشام بن عبد الملك الذي تمكن بشجاعته وصبره وذكائه وشخصيته الفذة من الهرب من بلاد الشام إلى المغرب الأقصى وهناك استغل الظروف المؤاتية التي كانت سائدة آنذاك، وتألف اليمنيين وضمهم إلى جانبه وحارب معهم ومع من انضم إليه من أنصار الأمويين والبربر أخواله حاكم الأندلس يوسف الفهري وهزمه وتمكن من تأسيس مملكة استمرت في الوجود قرابة ثلاثة قرون. ولقد حاول عبد الرحمن، الذي لقب بالداخل فيما بعد، لأنه أول من دخل الأندلس من الأمويين سيداً وحاكماً، أن يتصالح مع يوسف الفهري، قبل أن تبدأ الحرب بينهما، وقد جنح الفهري إلى

الصلح معه وإلى تبني عبد الرحمن وإحياء ملك بني أمية في الأندلس، ولكن الصميل الحاكم الفعلي للأندلس خاف من مثل هذا التحالف، وخاف من طموح عبد الرحمن وجبروته، فنكل بوعده إياه في نصرته وقال للرسولين اللذين أرسلهما عبد الرحمن يستنجزانه وعده إياه بالنصرة: تأملت الأمر فوجدته صعب المرام، فبارك الله لكما في رأيكما وقولكما فإن أحب غير السلطان فله عندي أن يواسيه يوسف ويزوجه ويحبوه، انطلقا راشدين[1].

ولقد حاول يوسف الفهري ثني عبد الرحمن عن عزمه فلم يفلح، واصطدم الطرفان في معركة المصارة الحاسمة سنة ١٣٨ هـ، وهنا نجد عبد الرحمن الداخل قائداً فذاً وبطلاً شجاعاً عرف كيف يقود رجاله في هذه المعركة الحاسمة، فخاطبهم بقوله: هذا يوم هو أساس ما يبنى عليه، إما ذل الدهر وإما عز الدهر، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون[2].

وقد صبر عبد الرحمن وأتباعه هذه الساعة فربحوا حكم الأندلس، وانتصر عبد الرحمن وأعاد تأسيس ملك أسلافه هناك.

وقد تكشف عبد الرحمن عن حاكم قوي كل القوة يفهم أصول الحكم ويعد للحادثات ما يلائمها، ويتوقع التوقعات. فقد منع أصحابه من الإثخان في أنصار الفهري بعد انتصاره عليهم: لا تستأصلوا شأفة أعداء ترجون صداقتهم، واستبقوهم لأشد عداوة منهم[3].

وقد أثبت عبد الرحمن الداخل أنه صنو للمنصور العباسي ولشارلمان اللذين حاولا مقارعته ولكنهما لم ينالا منه.

---

(١) ابن عذاري المراكشي. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق ج.ش. كولون وأ. ليفي بروفنسال. بيروت، دار الثقافة ٤٤/٢.

(٢) الشعراوي، أحمد ابراهيم. الأمويون أمراء الأندلس الأول. القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٩ م. ص: ٧٥.

(٣) المقري المصدر المذكور آنفاً.

وبالمناسبة فإن الأندلس لم تخضع قط للدولة العباسية إذ انفصلت عنها منذ قيامها، وحاول المنصور جاهداً استرجاعها والقضاء على الحكم الأموي فيها ولكنه عجز، وهو الذي لقب عبد الرحمن الداخل بصقر قريش. وكان عبد الرحمن ذا ثقة بنفسه واعتداد وشعور كبير بتفوقه وقيمة وسمو وعظمة ما أنجزه من إعادة ملك بني أمية في الأندلس، ويبدو هذا الاعتداد في رسالة جوابية رد بها على شخص قرشي وفد عليه وكتب إليه يستعظم حقه عليه في النسب ويستقل حظه منه بالمطمع، فوقع له على ظهر كتابه عدداً من أبيات الشعر أكثر ما تكون دلالة على ما ذكرناه.

شتان من قام ذا امتعاض   منتضي الشفرتين نصلاً
فجاب قفراً وشق بحراً   مسامياً لجة ومحلاً
فشاد مجداً وبز ملكاً   ومنبراً للخطاب فصلاً
ثم دعا أهله جميعاً   حيث انتأوا، أن هلم أهلاً
فجاء هذا طريد جوع   شريد سيف أباد قتلاً
ألم يكن حق ذا على ذا   أعظم من منعم ومولى(١)

ولقد حارب عبد الرحمن الأعداء الإسبان في الشمال وهزمهم حتى اضطروا إلى عقد صلح معه مدته خمس سنين لقاء جزية ثقيلة من الذهب والفضة والخيل والسلاح والدروع(٢).

كما كان أديباً ذواقة، وتدل توقيعاته وأشعاره والأقوال المنسوبة إليه على أدب رفيع ونفس طموحة حساسة واعتداد بالنفس. وقد توفي عبد الرحمن سنة

---

(١) ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي. كتاب الحلة السيراء. تحقيق حسين مؤنس. القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٣ م. ٣٩/١ - ٤٠.

(٢) عنان، محمد عبد الله. دولة الإسلام في الأندلس. طبعة رابعة منقحة مزيدة القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٦٩ م ج١، ق١ - ١٩٩.

١٧٢ هـ بعد أن ترك دولة قوية مرهوبة الجانب في الخارج، موطدة الحكم في الداخل، وورث أبناءه حكمها من بعده.

وليس لدينا سوى وثيقة واحدة من عهد ابنه هشام الذي حكم بين سنتي ١٧٢ ـ ١٨٠ هـ هي وصيته لابنه الحكم الربضي التي أوصاه بها قبيل وفاته. وتدل هذه الوصية على نفس طيبة مؤمنة نزاعة للسلم والخير، محبة للشعب. فقد أوصاه بتقوى الله تعالى وأن يذكر دائماً أن الملك لله يعطيه من يشاء وينزعه عمن يشاء، لذلك يقضي واجب الشكر لله النظر لعباده بالرحمة والعدل وعدم التمييز بين الناس حسب غناهم أو فقرهم، ويطلب إليه أن يعاقب الظالم، ولو كان وزيراً أو حاكماً، كما يطلب إليه أن يراقب جيشه، ويضبط جنده، وأن يجعلهم حماة الدولة لا مخربيها [1].

٢ ـ الحكم الربضي ١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ/ ٧٩٦ ـ ٨٢٢ م.

الحكم الربضي شخصية متناقضة فيه قوة جده عبد الرحمن وحزمه وجبروته، وفيه رقة أبيه هشام وشيء من خصاله، وقد امتاز عهده بثورة شعبية رهيبة قام بها الفقهاء والعامة ضده شخصياً، وكان مركزها ربض قرطبة (أي ضاحيتها). وكانت حركة رهيبة عارمة كادت تودي بالحكم وحكمه، ولكنه عالجها بكل هدوء أعصاب وبكل برود، ولكن بشدة دونها شدة أي شخص آخر. وتمكن من القضاء على الحركة، واضطر زعماؤها إلى الخروج، بمن بقي من أتباعهم، من الأندلس وركبوا البحر المتوسط بحثاً عن ملجأ بقيادة أبي حفص أحد زعمائهم، فاستقروا في الاسكندرية، ولكن عبد الله بن طاهر أخرجهم منها فذهبوا إلى كريت (أقريطش) وانتزعوها من الدولة البيزنطية واستقروا فيها وظلوا حكامها قرابة قرن ونصف حتى استرجعها البيزنطيون منهم. وقد وزّع الأمير الحكم، الذي استمد لقبه الربضي من هذه الواقعة الرهيبة، منشوراً على الولاة يقص

(١) الشعراوي، المصدر المذكور آنفاً، ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

عليهم ظروف الثورة وما حدث وكيف قمعها. وهو يقلل من شأن المشتركين فيها كل التقليل، فهو يصفهم بأنهم فسقة أهل قرطبة وسفلتهم وأذنبتهم[١]... كما ويذكر أنهم ثاروا بقصد خلعه عن غير مكروه سيرة ولا قبيح أثر ولا نكر حادثة كان منا فيهم[٢]... ثم يذكر أنه لما ظفر بهم قتلهم قتلاً ذريعاً، ولكنه أمسك عن نهب الأموال وسبي الذرية والعيال وعن قتل من لا ذنب له من أهل البراءة والاعتزال[٣].

كذلك حدثت محاولة في سرقسطة قام بها جماعة من البربر بقصد الاستقلال بذلك الثغر وطرد والي الحكم منه، ولكن الوالي بمساعدة عدد من زعماء العرب والبربر، تمكن من القضاء على هذه الحركة واعتقال زعيمها وإبقاء الثغر في طاعة الحكم. وقد دارت عدد من المراسلات بين الحكم وبين الفرقاء المعنيين حول هذه الحادثة يظهر فيها الحكم سروره وامتنانه بهذه النتيجة[٤].

ولما اقتربت وفاة الحكم أوصى ابنه عبد الرحمن بوصية جيدة هي دستور للحكم، وهي أن يكون حكمه خليطاً بين الشدة والرأفة، وبين الحزم واللين، وأن يعرف أين وكيف يضع هذا ومتى وكيف يضع ذاك. ويبدو أنه كان معجباً بابنه عبد الرحمن، فإنه بعدما أوصاه وذكر له أنه وطد له الأمور قال له: فقد هان علي الموت إذ خلفني مثلك[٥]

(١) عنان، المصدر المذكور آنفاً، ج١، ق١ ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) الخشني، أبو عبد الله محمد بن حارث. قضاة قرطبة. القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م. ص: ٤٢ - ٤٣.

(٥) الشعراوي. المصدر المذكور آنفاً، ٢٦٧ - ٢٦٨.

٣ ـ عبد الرحمن الأوسط ٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ/٨٢٢ ـ ٨٥٧ م.

نصل الآن إلى عصر الزهو الأول في عهد الحكم الأموي للأندلس، ذلك أن عبد الرحمن الثاني أو الأوسط كما يلقب كان حاكماً صالحاً واستفاد من توطيد المملكة الذي حققه أبوه له فجنى ثمر ذلك استقراراً في الداخل ودفاعاً عن الحدود، وقد حدثت في عهده حادثتان مهمتان في تاريخ الأندلس، ذلك أن النورمانديين الذين يعرفون أيضاً باسم الفايكينغ Vikings هاجموا شواطىء الأندلس بعنف وقتلوا وسلبوا وفعلوا الأفاعيل فتصدى لهم عبد الرحمن وتمكن من ردّهم عن سواحل الأندلس، وبنى لذلك الأساطيل. وهؤلاء النورمنديون هم الذين يسميهم المؤرخون المسلمون «الأرذمانيون».

كما وأن السمعة الطيبة التي تمتع بها عبد الرحمن وحكمه وقوة الدولة في عهده جعلت امبراطور بيزنطة ثيوفلس الذي عاصر المأمون والمعتصم في الشرق يحاول كسب ودّه، فأرسل له الوفود والرسائل وقد جمع بين الطرفين العداء للعباسيين، وعلى الرغم من أن عبد الرحمن لم يكن في وضع يمكنه من مساعدة الامبراطور البيزنطي ضد خصومه العباسيين، إلا أنه حاول هذه المحاولة لاعتقاده أنها إن لم تنجح فليس فيها خسارة.

وعلى الرغم من أننا لا نمتلك إلا رسالة عبد الرحمن الجوابية لثيوفلس إلا أنها وحدها تكفي لنعرف مضمون رسالة الامبراطور له، فقد لخص عبد الرحمن رسالة ثيوفلس له ورد على كل بند من بنودها بما يناسب المقام.

فقد ذكر الامبراطور رغبته الأكيدة في إقامة علاقات ود وصداقة بينه وبين عبد الرحمن، وإن ذلك امتداداً للصداقة التي كانت موجودة بين أسلاف الطرفين إبان الدولة الأموية. ثم يطلب من عبد الرحمن أن يرسل إليه رسلاً من عنده توكيداً لهذه المودة.

ثم ينتقل حاكم بيزنطة ليطرق موضوعاً عاطفياً حساساً لدى الأمويين هو ذكر جدهم مروان وقرابتهم منه، وأسف الامبراطور لما حل به وبأهل بيته، وبنفس الوقت يطعن على أبي جعفر المنصور لأنه كان المحرك والسبب الرئيسي لما حلّ بالأمويين، ويسميه عبد الرحمن باسم الفاجر أبي جعفر تربه الله[1].

بعد ذلك يتطرق الامبراطور إلى ذكر المأمون والمعتصم وسوء حكمهما لرعيتهما وانحرافهما وشدة وطأتهما، وهنا يسمي عبد الرحمن المأمون والمعتصم باسم أمهما احتقاراً لهما فسمى المأمون ابن مراجل لأن أمه جارية اسمها مراجل، والمعتصم باسم ابن ماردة[2] لأن أمه جارية اسمها ماردة. ثم تختتم الرسالة الامبراطورية بذكر أمر أبي حفص أمير الأندلسيين الذين غادروا الأندلس عقب وقعة الربض ولجوئهم إلى الاسكندرية، ثم تركهم إياها ومهاجمتهم كريت البيزنطية واحتلالهم إياها، وكيف أن الامبراطور عجز عنهم ويطلب من عبد الرحمن التدخل بينه وبينهم علّه يستعيد كريت منهم.

وبعد أن لخص عبد الرحمن رسالة الامبراطور بهذا الشكل ردّ على كل بند من بنودها.

فقد ذكر أنه يرغب في مودته كما يرغب الامبراطور في مودته، وأنه يتمسك بذلك إحياء لذكر مودة كانت بين الأسلاف.

كذلك يشكره لأسفه وألمه لما حلّ بذرية مرُوان من قتل وتشريد، وانتهاك للمحارم، وينحي باللائمة على أبي جعفر على جرأته على الله وسوء سيرته وظلمه وبطشه.

وعند الحديث عن المأمون والمعتصم يخصهما أيضاً بلعناته وتمنياته بقرب زوال

---

(١) طرخان، ابراهيم علي. المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى. القاهرة، مؤسسة سجل العرب، ١٩٦٦ م ص: ٢٧٥ - ٢٧٨.

(٢) نفس المصدر.

ملكها. أما أمر أبي حفص فخارج عن اختصاصه لأنه طرد من الأندلس وانضم إليه السفلة والأوباش، وقد اضطروا إلى الدخول تحت طاعة ابن ماردة لقربهم من بلده، ولم نكن نحسبك تعجز عنهم ولا تصعب عن نكايتهم، ولا تتوقف عن إخراجهم عمّا تطرقوه من بلدك (١).

ثم يعده أنه إذا رد الله سبحانه وتعالى سلطان الأمويين في المشرق إليه فإنه سينظر بعطف في مطالب ثيوفلس بما فيه صلاح الطرفين.

وأخيراً يخبره أنه أدخل رسوله عليه وقربه وحباه وسمع منه، وأن جوابه هذا قد أرسل مع رسولين من رسله (٢).

٤ ـ محمد بن عبد الرحمن ٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ/٨٥٨ ـ ٨٨٦ م.

ثارت الفتنة في الأندلس بعد وفاة عبد الرحمن الأوسط، وعجز الأمراء الذين أتوا بعده عن السيطرة على الوضع الأمني في البلاد، وانتزى الثوار في أماكن كثيرة، ولم يعد للأمير سلطة إلا على قرطبة نفسها وضواحيها، ولعل أخطر هذه الثورات وأشدها ثورة ابن حفصون التي اشتعلت زمناً طويلاً وهددت الأندلس تهديداً حقيقياً.

هذا وإن السبب في ذلك يكمن أولاً في ضعف الحكم، ذلك أن الولاة بعد عبد الرحمن كانوا ضعفاء ولذلك استغل الثوار الفرصة وحاولوا تحقيق أغراضهم.

كذلك هناك انقسام أهل الأندلس، إلى عرب وبربر ومولدين ومستعربين وتضارب مصالحهم، وهناك أيضاً انقسام العرب إلى قيس ويمن والعصبية بين الطرفين، وهناك الانتهازيون الذين يريدون تحقيق مآربهم تحت شعارات براقة لا

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

تخدم إلا مصالحهم. وهناك الأعداء الخارجيون الذين بدأوا تحركهم الواسع ضد الأندلس وبدأوا يغذون الثورات والحركات الإنفصالية والنزعات الإقليمية فيها.

فقد بلغ ضعف الأمراء الحكام أن أصبح الثوار يهددونهم بإحراق المدن وإضرامها بالنار إن حاولوا التعرض لهم كما فعل عبد الرحمن الجيليقي لما ثار واعتصم بحصن منت شافر وأرسل إلى الأمير محمد يهدده بإضرام بطليوس بالنار إن وجه حملة ضده[1]. ولقد بلغ من ضعف الحكم المركزي أن أحد الثوار في الشمال تمكن من هزيمة جيش أرسله الأمير محمد لحربه بقيادة وزيره هاشم بن عبد العزيز وأسر الوزير نفسه[2]. وناهيك بهذا الشيء دليلاً على ضعف الحكم والحاكم.

ولقد استغل بعض الثائرين أمثال ابن حفصون سوء إدارة بعض الحكام وحاول استغلال العصبية، فأذاع في الناس بياناً ذكر الناس فيه بالمظالم السابقة وأنه يريد إنصافهم: طال ما عنف عليكم السلطان وانتزع أموالكم وحملكم فوق طاقتكم وأذلتكم العرب واستعبدتكم، وإنما أريد أن أقوم بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم[3].

وقد ظلت الأندلس تتخبط في دياجير هذه الفتن حتى أنقذها الله تعالى بحكم عبد الرحمن الناصر.

٥ ـ عبد الرحمن الناصر ٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ/٩١٢ ـ ٩٦١م.

نصل الآن إلى عصر الزهو في تاريخ الأندلس، ذلك أن حكم عبد الرحمن

---

(١) ابن القوطية. تاريخ افتتاح الاندلس. مجريط، ١٨٦٧م ص: ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢) ابن حيان. المقتبس من أنباء أهل الاندلس. تحقيق محمود علي مكي. بيروت دار الكتاب العربي، ١٩٧٣م ص: ٣٨٩ ـ ٣٩٢.

(٣) ابن عذاري، المصدر المذكور آنفاً ١١٤/٢.

الناصر قد أزال قسماً كبيراً من المتنافضات في المجتمع الأندلسي وفجر الطاقات الخلاقة لدى هذا الشعب. وهو مثل حي على قدرة بعض بني البشر على القيادة الخلاقة والعطاء وبناء الحضارات. فقد تمكن هذا العبقري أن يعيد توحيد الأندلس تحت قيادته، وأن يقضي على الثوار جميعاً، وأن يعيد توطيد هيبة الحكم وأن يشعر المواطن الثقة بنفسه وقيادته ولما تمكن أن يحقق الأمن والاستقرار، وهما نعمتان من أجل النعم، اطمأن الناس إليه وإلى مستقبلهم وتم التفاعل بين الحاكم والمحكوم، فأدى الأمر إلى تلك المساهمة الحضارية التي ساهمت بها الأندلس في الحضارة الإسلامية تحت حكمه، وحكم خلفائه من بعده.

كذلك حارب عبد الرحمن الناصر الإسبان في الشمال وكسرهم ورد كيدهم وتمكن من فرض هيبته عليهم حتى أن ملوك الاسبان المتنافسين بدأوا يفدون إلى بلاطه، وبلاط ابنه من بعده، يلتمسون العون ضد بعضهم بعضاً.

ولقد حارب الناصر الأدارسة في المغرب الأقصى، الذين تحالفوا مع الفاطميين ضده، وكانت له اليد العليا عليهم.

وفي حقل الدبلوماسية، فقد وصلت الخلافة الأندلسية في عهده إلى ذروة رفيعة عالمية جعلت كثيراً من الدول تخطب ودّها، وعلى رأسها الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة زمن أوتو الكبير.

كذلك اهتم الناصر بالآداب والعلوم، وانتشرت في عهده المدارس والجامعات وجذبت إليها العلماء والطلاب من جميع الأصقاع، حتى من أوروبا نفسها، وبلغ من سمعة الناصر وبعد صيته أن بدأ أدباء المشارقة يفدون عليه كما فعل أبو علي القالي الأديب واللغوي البغدادي الذي وفد على الخليفة واختص بابنه الحكم ولي العهد.

واهتم الناصر بالعمران فشيّد الحصون والمدن ووسّع جامع قرطبة وعمّر مدينة الزهراء التي يقرن اسمها باسمه، وتدل أوصافها وبقاياها المادية على أنها بناء ضخم رشيق جميل ذو تصميم هندسي رائع وجمال أخّاذ وحدائق غنّاء. وكل ذلك دليل حي على غنى الدولة وحضارتها وتقدمها الفني والمادي.

وبالجملة استلم الناصر دولة متهدمة بكل معاني الكلمة، داخلياً وخارجياً وسلّم ابنه من بعده دولة مزدهرة كل الازدهار، قوية، داخلياً وخارجياً يهابها الأعداء ويخطب ودّها الأصدقاء، ونافست في عهده قرطبة بغداد والقسطنطينية، بل وبزتها.

ويظهر أن دلائل النجابة كانت لائحة على عبد الرحمن من صغره، وهذا ما جعل جده يعينه ولياً لعهده على الرغم من وجود أعمام له أكبر منه في العمر، كما وأن الأسرة الأموية، وعلى رأسها أعمامه انقادت له بسهولة وبايعته طواعية وتعاونت معه تعاوناً صادقاً. وقد تجلى ذلك في الكلمة التي وجهها للناصر، بعد أن بويع بالإمرة، عمّه أحمد بن عبد الله الذي خاطبه باسم الأسرة الأموية قائلاً: والله لقد اختارك الله على علم الخاص منّا والعام، ولقد كنت أنتظر هذا من نعمة الله علينا. فاسأل الله إيزاع الشكر، وتمام النعمة وإلهام الحمد [١].

ولقد كان الناصر عند حسن الظن به وكان على ثقة تامة بربه وبنفسه وبشعبه فحقق المستحيل. وقد بدأ بالأمور الأكثر أهمية وهي مسألة الثوار. وقد تمكن بمزيج من القوة والدهاء وحسن السياسة الرائعة أن يستنزل أكثرهم من حصونهم وأن يشحن هذه المعاقل برجاله، وأن يستقدم الثوار إلى مأمنه حيث أمنهم ووفى لهم بما وعدهم به، كما فعل لما استأمن حفص بن عمر بن حفصون واستلم منه حصن ببشتر، فقد أمر بهدم الحصن، وأحضر إليه حفصاً هذا ووفى له بما وعده

---

(١) عنان، المصدر المذكور آنفاً، ٣٧٤.

به، بل وأنعم عليه وسكن نفاره وأصدر بياناً إلى جميع الولاة يخبرهم بما تم ويطلب إليهم إذاعة ذلك في الناس (١).

ولقد كان لهذه السياسة الحكيمة أثرها، إذ أقبل الثوار يستأمنون إلى الأمير القوي الذي يفي بما يعد، والذي لا يطلب الاستئمان إلا وهو قادر على الحرب، فلحق بقية الثوار بشيخهم ابن حفصون، أمثال محمد بن هاشم في سرقسطة وغيره من الثائرين.

ولما تمكن الناصر من توطيد الأمن في بلده سمت به همته إلى المزيد فتطلع إلى أمر لم يفعله أسلافه من قبل وهو التلقب بلقب أمير المؤمنين.

لم تخضع الأندلس قط للعباسيين، ولكن لم يشأ أمراؤها الأول أن يتلقبوا بلقب أمير المؤمنين لقوة الخلافة العباسية آنذاك ورغبتهم في عدم الاصطدام معها، وكان أمراء بني أمية يلقبون أبناء الخلائف والأمراء فلما أتى عبد الرحمن وتمكن أن يعيد للدولة هيبتها، ولاحظ ضعف الخلافة العباسية وهزال الخلفاء العباسيين، كما ولاحظ كيف اتخذ الخلفاء الفاطميون لقب خليفة، وقد اعتزم أن يدخل في صراع معهم من أجل المغرب الأقصى، لذلك فقد قرر أن يتخذ لقب خليفة وأمير المؤمنين أواخر سنة ٣١٦ هـ، لأن ذلك أكثر جلباً للهيبة له، وينص المرسوم الذي أصدره بذلك صراحة على أن اتخاذ هذا اللقب واجب عليه، وأن ترك هذا الواجب هو ترك لحق أضاعه، وترك لاسم ثابت أسقطه (٢). كذلك ينص ذلك المرسوم على أن: كل مدعو بهذا الاسم [أي أمير المؤمنين] غيرنا منتحل له ودخيل عليه ومتسم بما لا يستحقه (٣)

---

(١) نفس المصدر ٣٨٧ - ٣٨٨.

(٢) ابن عذاري. المصدر المذكور آنفاً ١٩٨/٢ - ١٩٩.

(٣) نفس المصدر.

وقد أثبتت الأيام والأحداث أن قلائل من الخلفاء هم الذين استحقوا هذا اللقب بمثل الجدارة التي استحقها الناصر لدين الله.

ويدل الخطاب الذي وجهه الناصر إلى قواده وأنصاره وولاته يشرح الظروف التي أدت إلى هزيمته في غزوة الخندق سنة ٣٢٧ هـ على نفسية صافية خالية من العقد والزيف الذي يحيل الهزائم انتصارات وهمية، فقد قصّ الحادثة كما وقعت، وإن يكن قد حاول تخفيف آثارها حتى لا تحدث ردّة فعل سيئة لدى الناس. فهو يقص رحلته إلى بلاد الاسبان وحربه إياهم وكيف هزمهم بعد حرب شديدة. وهنا تقص الرسالة بشكل مفصل وأسلوب أدبي بليغ سير المعركة وهجوم الفرسان واستبسال المسلمين في حربهم ضد الاسبان، ويذكر أسماء من صرع من زعماء الاسبان ومشاهيرهم وقوادهم، بعد ذلك يقص كيف سار في بلادهم يدك الحصون، وينتسف الزروع، ويقتل الفرسان، ثم يقص كيف أن جيشه في منصرفه إلى بلاده نصب له الأعداء كميناً قرب خندق عميق وكيف أصيب عدد من أفراد الجيش، ولكن الله سلم الغالبية ورجع الجيش سالماً إلى مأمنه [١].

ولقد امتازت علاقة الناصر بوزرائه وولاته بالود الخالص، وكانوا يعرفون رغباته فيتسابقون لتلبيتها، كما فعل الوزير ابن شهيد عندما أهدى إلى الناصر هديته المشهورة، فقد أهداه عدداً عظيماً من الحجارة والخشب ومواد البناء لعلمه بغرام الخليفة بالبناء [٢].

وباعتباره أميراً للمؤمنين فقد رأى أن من واجبه أن يحمي عقائد الناس من الانحرافات الضالة والأفكار المنحرفة، فأصدر بياناً عاماً شاملاً ضد تعاليم ابن مسيرة التي انتشرت في الأندلس بعد أن زار مؤسسها الشرق وتتلمذ على يد

---

(١) عنان. المصدر المذكور آنفاً، ٧١١ - ٧١٤.

(٢) المقري. المصدر المذكور آنفاً ١/٣٣٦ - ٣٣٧.

فئات معينة ذات اتجاهات مخالفة، ففند تعاليمه وحذّر من اتباعها وأنذر وأوعد [1].

وكما سبق وقلنا آنفاً، ارتفعت سمعة الأندلس وسمعة خليفتها العظيم ارتفاعاً عظيماً جعل الدول الأجنبية تخطب ودّه وكان فيمن خطب وده أمبراطورا القسطنطينية قسطنطين وررمانوس اللذان أرسلا الوفود لحضرته ومعها الهدايا، وكان بعض هذه الهدايا كتباً طبية وكتباً في التاريخ الروماني. ولقد حدثت حادثة طريفة أثناء استقبال الناصر لوفد الروم، ذلك أنه أراد أن يكون الاحتفال معبراً ومناسباً لعظمة الدولة والخليفة، وقد تقرر أن يلقي خطبة الافتتاح أبو علي القالي الوافد من بغداد، ولقد ساء ذلك الأندلسيين وعلى رأسهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي. فلما انعقد المجلس وقام القالي ليتكلم أصابه البهر وأرتج عليه فلم ينبس ببنت شفة بعد حمد الله والصلاة على نبيه، فأخذ مكانه حالاً القاضي البلوطي وأكمل الخطبة كأحسن ما يكون، وهي خطبة بليغة تشيد بمناقب الناصر العظيمة وكيف أن الله تعالى جمع به الأندلس، وأخمد الفتنة وأحل القوة محل الضعف وجعل الناس يرفلون في حلل السعادة. كل ذلك بفضل الناصر وهمته [2].

وقد ختم القاضي خطبته الرائعة هذه التي سرت الخليفة وخلصته من مأزق حرج بأبيات من الشعر فيها تعريض أنه مبخوس الحق في بلده وان الغرباء هم أصحاب الحظوة، وهذا تعريض صريح بالناصر واعتماده على أبي علي القالي وإطراحه أهل الأندلس وهم أحق من الآخرين:

هذا المقال الذي ما عابه فند   لكن صاحبه أزرى به البلد

---

(١) عنان. المصدر المذكور آنفاً ٧٠٨ - ٧١٠.

(٢) المقري. المصدر المذكور آنفاً ١/٣٤٥ - ٣٤٨.

لو كنت فيهم غريباً ما كنت مطرحاً لكنني منهم فاغتالني النكد
لولا الخلافة أبقى الله بهجتها ما كنت أبقى بأرض ما بها أحد [1]

ولما مات الناصر سلّم ابنه وولي عهده الحكم الثاني المستنصر بالله دولة آمنة قوية مزدهرة مهابة الجانب عالية البنيان ونام قرير العين أنه أدى واجبه نحو ربّه ودينه ووطنه فاستحق أن يسجل اسمه مع أعظم عظماء الإسلام ومن مؤسسي الحضارة الإسلامية العظيمة.

وعند تقريرنا لشخصية الناصر ولإنجازاته نقول إن شخصيته مزيج من شخصية جده الأعلى عبد الملك بن مروان وجده الأدنى عبد الرحمن الداخل، يضاف إلى ذلك استشراف داخلي، وأصالة ذاتية، تمكنت من قيادته أفضل قيادة عبر حياته الطويلة وكفاحه الشاق الطويل.

٦ ـ الحكم الثاني المستنصر ٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ/ ٩٦١ ـ ٩٦٧ م.

الحكم شخصية محببة إلى النفس، فهو شخص رضي الطباع ليس عنده تلك الشدة والصرامة اللتان توفرتا عند والده، كما وأنه فاقه في حبّه للعلم والأدب والكتب، إلى جانب حزم وعزم مكناه من أن يقف بوجه الأعداء الخارجين بشكل جيد، ولقد زرع عبد الرحمن الناصر أفضل زرع فحصد الحكم أجود حصاد، وكانت حصيلة ذلك الحصاد حضارة سامية باسقة، وعلوماً سامية، وآداباً رفيعة، ومؤلفات قيمة في شتى ميادين العلم، إلى جانب مدارس كثيرة، وجامعات راقية، ومكتبة تعتبر من أعظم مكتبات العالم على مرّ العصور. فقد كان الحكم، قبل كل شيء وفوق كل شيء، مغرماً بالكتب جمع في قصره مكتبة حافلة نافت على الأربع مئة ألف مجلّد وأحسن الاستفادة منها، وكان له وكلاء يجوبون أرجاء العالم الإسلامي، بحثاً عن المخطوطات وشرائها وإرسالها إلى

(١) الضبي. المصدر المذكور آنفاً ٤٦٥.

الأندلس. وربما كان الحكم أعلم حاكم في دنيا الإسلام، ويوصف بالفضل وسعة الصدر والحلم والعلم والذكاء الحاد وبكل الصفات التي يتصف بها أحد بناة الحضارة.

وكان عهد الحكم عهد رخاء وهدوء، لم تتخلله ثورات عنيفة ولا اضطرابات خطيرة، وإنما وجه بالحرب التي كان أبوه بدأها ضد بقايا الأدارسة في المغرب الأقصى، وهم الحسينيون الذين تحالفوا مع الفاطميين ضد الأمويين في الأندلس، فأرسل الناصر الحملات ضدهم، وكان على الحكم أن يسير بالحرب ضدهم إلى نهايتها المحتومة، وهي الظفر وقد فعل.

وقد أثبت القائد غالب مولى الحكم أنه قائد جيد وأنه أهل للمهمة التي ندبه لها مولاه للقضاء على حكم الأدارسة في المغرب، فأرسله الحكم إلى هناك للقضاء على زعيم الأدارسة المتحالف مع العزيز الفاطمي الحسن بن قنون، وخوله صلاحيات كبرى وأطلق يده في العمل، ولم يجعل يداً فوق يده إلا يد الخليفة نفسه. وتدل رسائل الحكم إلى قواده، إبان اشتداد المعارك بينهم وبين الحسن بن قنون على فهم تام للموقف وضرورة الحذر واليقظة، كما أمرهم باستعمال الحلم والأناة، والعفو عن من يظفر بهم من العصاة. كل ذلك كدليل على شكر الله تعالى على ما أنعم من ظفر [1]. كذلك يطلب من قواده إشاعة ذلك بين جميع أفراد القبائل الخاضعة لابن قنون حتى يكونوا: على علم برأي أمير المؤمنين في استصلاح أحوالهم وبتقبل إنابة منيبهم، وإجارتهم من الظالم المستحل لمحارمهم، المستهلك لنعمهم، المنتهك لحرمهم، وإن أمير المؤمنين غير مقلع عنه ولا صارف بأس عزمه دونه، واستعانته على ذلك كله بالله تعالى حتى يأخذ له بناصيته، فهو من ورائه محيط، تعالى جدّه [2].

---

(١) ابن حيان المقتبس في أخبار بلد الاندلس. تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٥ م ص: ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) نفس المصدر ص: ٩٧.

كذلك في رسالة تالية منه إلى مولاه غالب الذي أرسل له يشكو غلاء الأسعار عنده لوفرة الجيش، ويذكر له لجوء الأدارسة إليه بأعداد غفيرة، نجد الحكم يتبع نفس الخط من الحلم المشوب بالحذر، فهو يخبر قائده ألا يهتم بالأطعمة والأرزاق، فسيلها إليه متصل، وموادها موصولة بك، متلاحقة لديك (١). وأن عليه أن يجعل همه الأول الحرب حتى يظفر بالمارق ابن قنون.

وقد أنتجت هذه السياسة ثمارها، فقد عرض عبد الكريم بن يحيي الإدريسي صاحب عدوة فاس على الحكم خضوعه واستسلامه بعد أن هزم، فقبل الحكم ذلك منه وبايع الحكم بالخلافة هو وأهله وأتباعه وأصدر وثيقة بذلك، يعلن استسلامه وبيعته وتبرأه من الحسن بن قنون (٢).

ثم توج ذلك بظفره بحسن بن قنون نفسه وأصدر بذلك كتاباً إلى الآفاق يبشر بذلك وانتهاء الحرب في المغرب الأقصى بزوال هذا الخطر عن الأندلس، وأصبحت تلك البقعة مكاناً يخضع لحكم الحكم بعد أن كان مصدر خطر عليه وعلى سلطته (٣).

هذا وإن الفضل في هذه النهاية الموفقة يعود إلى مقدرة غالب العسكرية وإلى سياسة الحكم الحكيمة القائمة على التسامح والعفو وأخذ الأمور بالمعروف واصطناع العدو أكثر من تدميره.

ومما يدل على روح الحكم العالية وأخلاقه الرفيعة هو جوابه لوزيره جعفر بن عثمان الذي مرض مرضاً شديداً أشفى منه على الموت فأرسل إلى الخليفة كتاباً يسأله أن يخلفه في أهله. ولقد كان جواب الخليفة قطعة رائعة من النبل والكرم والتفضل، فقد أبدى ألمه لما حلّ به من يأس وانقطاع رجاء، ثم يذكر له أن كل

---

(١) نفس المصدر. ص: ١٣٠.

(٢) نفس المصدر. ص: ١٧٤ - ١٧٥.

(٣) نفس المصدر. ١٧٨ - ١٨٢.

ما سأله ورغب فيه لنفسه وأهله ومن يتخلف، فعلى أفضل الذي رغبته وأردته وأملته ورجوته، فما أعلم رزية أعظم من رزيتك لدينا لما بلوناه من شكرك ومجهود حرمتك ومحمود صحبتك[1]...

كذلك أصدر الحكم أوامره إلى قضاته، أن ينادوا في الناس بضرورة إخراج الزكوات وإعطائها للفقراء والمساكين[2]. ولما ارتاح من الحرب في المغرب الأقصى أسقط عن الناس سدس مغرم الحشد سنة ٣٦٤ هـ[3] وكل ذلك يؤكد الصورة الكريمة السمحة التي رسمناها له.

ولقد وصلت خلافة الأندلس في عهد هذا الخليفة إلى درجة لم تبلغها من قبل ولم تبلغها من بعد، وقد تقاطرت إليه وفود الاسبان تلتمس عفوه وصفحه وتحالفه، مع هذا الفريق دون الفريق الآخر، فقد بلغ ملك الجلالقة أردون عزم الحكم على غزو بلاده فحضر بنفسه إلى بلاط الحكم مع عشرين شخصاً من أكابر دولته ليثني الحكم عن عزمه وليعقد معه صلحاً. وقد استقبله الحكم أفضل استقبال وأعطاه ما سأله. وإن المرء ليعجب لرفعة الحكم عندما نرى ملك الجلالقة يقبل بساطه ويقول: أنا عبد أمير المؤمنين المتروك على فضله، القاصد إلى مجده، المحكم في نفسه ورجاله[4]..

ثم يذكر الملك للحكم أن الخليفة الناصر كان أحسن استقبال ابن عمه شانجة لما أتى لاجئاً إليه من أردون الذي اختارته الرعية على ابن عمه لظلمه، وولته ملكاً عليه، ولكن الناصر أكرم وفادة شانجة وأعاده إلى العرش وخلع أردون، ولكن شانجة كفر النعمة. أما أردون فهو خاضع للحكم محكم له في نفسه وولده

---

(١) نفس المصدر. ص: ١٤٩.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر. ص: ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٤) المقري. المصدر المذكور آنفاً. ١/٣٦٧ ـ ٣٦٨.

وماله وأهله. وقد هدأ الحكم روعه ووعده النصرة وأنه سيعيده إلى ملكه: وسنصرفك مغبوطاً إلى بلدك، ونشدّ أواخي ملكك ونملكك جميع من إنحاس اليك من أمتك، ونعقد لك بذلك كتاباً يكون بيدك، نقرر به حد ما بينك وبين ابن عمك[1].

وهكذا نجد الحكم يقف على قمة المجد في التاريخ الأندلسي كله، داخلياً وخارجياً، ولكن الفضل في ذلك بالدرجة الأولى لحكم والده العظيم وجهوده المباركة، ومن ثم لشخصية الحكم وسياسته الراشدة الحكيمة، ولا نعتقد أن هناك عزاً أعز أو مجداً أمجد من أن يصبح الخليفة الأموي في قرطبة ملجأ لملوك الاسبان، وموئلاً وحكماً يحكم بين الاخوة وأبناء العم المتنازعين، ويصدر المراسيم الناظمة لعلاقاتهم بعضهم ببعض، ويرسم الحدود بين المتنازعين، وكفى بذلك مجداً وعزاً.

٧ ـ هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر ٣٦٦ ـ ٣٩٩ هـ/٩٧٦ ـ ١٠٠٩ م:

توفي الحكم وخلف طفلاً صغيراً قاصراً هو هشام المؤيد، وقد خضع الحكم لعواطفه الشخصية فجعل ابنه القاصر ولياً لعهده، فأدى الأمر إلى تدهور الوضعين الداخلي والخارجي، وإلى صراع حاد حول الوصاية على الخليفة الصغير، ولو أنه لم يخضع لعواطفه الشخصية، وعين ولياً لعهده أحد إخوته الراشدين لتغير الوضع، ولكن هذا ما حدث. ولا يمكن الحكم على شخصية هشام البتة لأنه تولى الحكم صغيراً ثم سقط تحت وصاية المنصور بن أبي عامر القاسية التي سحقته ولم تسمح له أن يتحرك إلا ضمن حدود مرسومة مدى حكمه وحكم ابنه من بعده، فلما زال كابوس العامريين عنه لم يكن بحالة عقلية أو نفسية تمكنه

---

(١) نفس المصدر.

من حسن التصرف بزمام نفسه، بله زمام الأمور في بلده، فأدى الأمر إلى أوخم العواقب له وللأسرة الأموية وللأندلس عامة.

كان هناك فريقان يتنازعان السيطرة على الخليفة الصغير: الحاجب المصحفي يساعده ابن أبي عامر والقائد غالب. ولقد دار صراع بين الطرفين خسر فيه غالب المعركة، وصفا الجو للمصحفي ولكن إلى فترة، إذ نازعه السلطة المنصور ابن أبي عامر وتمكن من التغلب عليه واعتقاله حتى الموت.

والمنصور بن أبي عامر شخصية فذة، وهو مزيج من طموح لا يعرف حدوداً وشجاعة لا تهاب وقسوة لا ترحم، وسياسة ثابتة. إنه يعرف ما يريد ويعرف الطريق إلى تحقيقه، ويعرف ما لا يريد ويعرف الطريق إلى منعه، وقد نبع من أصل وضيع، وتمكن بوسائله البعيدة عن الأخلاق، أن يصل إلى ما يصبو إليه، وأصبح حاكم الأندلس الأوحد، وتغلب على الخصوم الداخليين والخارجيين، وأن سياسته الداخلية تثير الاعجاب، كما وأن حروبه وانتصاراته، ولاسيا ضد الإسبان، تثير أقصى عوامل الفخر والعزة في نفوسنا هذه الأيام. ولكن خطأ المنصور الأكبر أتى من إضعافه الخلافة الأموية، القاعدة الشرعية لكل حكم في الأندلس، بشكل رهيب، دون أن يحاول إحلال نفسه محلها، لعلمه باستحالة ذلك. ولقد سارت الأمور بشكل جيد طوال حياته، لأن يده القوية كانت تمسك بكل شيء، وعينه اليقظة كانت تراقب كل شيء. ولكن، من يضمن استمرار الأمور بعد زوال اليد القوية؟ ولذلك ما إن زال المنصور من الوجود حتى ورثه ابنه عبد الملك المظفر في الحكم وفي السيطرة على الخليفة المستضعف، وقد سارت الأمور سيراً جيداً خلال حياته القصيرة لأن في عبد الملك لمحات من شخصية أبيه، ولكن ما إن حلّ في الحكم عبد الرحمن بن المنصور الذي تلقب بلقب ناصر الدولة حتى بدأ الاضطراب الذي أودى به وبالخليفة وبالخلافة وبالأندلس. فقد حاول الحصول على ما لم يجرؤ على التفكير فيه أبوه ولا أخوه،

حاول الحصول على منصب الخلافة بعد هشام المستضعف ولم يكن هشام في وضع عقلي أو نفسي أو مادي يمكنه من رفض أي طلب للشخص المسيطر عليه، فأصدر مرسومه الشهير بجعل عبد الرحمن هذا ولياً لعهده.

وهذا يعني انتقال الخلافة إلى أبي عامر. لقد صبر شعب قرطبة والأندلسيون والأمويون على احتكار آل عامر للحكم، وصبروا على حجر الخليفة والتحكم في مصائر العباد والبلاد، ولكنهم لم يكونوا مستعدين، بحال من الأحوال، أن يصبروا على انتقال الخلافة لغير آل أمية، فقد ارتبط مجد الأندلس ومجد قرطبة بهذه الأسرة العظيمة، ولم ينس الشعب أمجاد عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر، ولم تنس قرطبة أنها مدينة بعظمتها وقوتهاوجاهها لهذين الخليفتين العظيمين، وحتى عندما كان المنصور يضيف أمجاده إلى الأمجاد السابقة، اعتبر الشعب ذلك امتداداً لعمل الناصر والحكم وباسميهما تم ما تم من فتوح. لذلك ثار الشعب ثورة عارمة انتهت بالقضاء على آل أبي عامر كلياً وعلى الخليفة العاجز ولكن هذا الشعب الثائر عجز عن إيجاد البديل للعامريين، ذلك أن المنصور أضعف جميع الأطراف، وكان هو وحده كفوءاً للقيام بمهام الدولة وتصريف الأمور، فلما زالت اليد القوية التي كانت ملجمة لكل الأطراف انفجرت الأحقاد وثارت النعرات وحارب القوم بعضهم بعضاً، وكان ذلك من أكبر الكوارث التي أصابت المسلمين في الأندلس، فسقطت الأسرة الأموية وانقسمت الأندلس إلى عدد كبير من الدويلات التي سميت دول الطوائف، واستغل الإسبان هذه الفرصة فشنوا حرباً لا هوادة بها على الأندلس وبدأوا يحققون ما يصبون إليه من استرجاع البلاد وإذلال العباد.

وليس لدينا وثائق كثيرة عن عهد المنصور بن أبي عامر، ولكن الرسائل التي دارت بينه وبين المصحفي الذي كان أستاذه ثم صار أسيره تكشف عن بعض نواحي شخصيته، فقد أرسل المصحفي من سجنه رسالة استعطاف إلى المنصور

لعله يرق لحاله ويطلق سراحه، ولكن النتيجة كانت عكسية إذا زاد سخطه عليه وأجابه بأشعار منها ما يلي:

نفسي إذا سخطت ليست براضية ولو تشفع فيك العرب والعجم [١]

كذلك كان المنصور قاسياً على نفسه وعلى من بخدمته أشد القسوة إذا احتاج الأمر إلى ذلك، وهو الذي غزا الإسبان أكثر من خمسين غزوة لم تنكس له في خلالها راية قط وكان النصر حليفه في كل معاركه ضد الإسبان، وكانت قسوته هذه، إلى جانب قيادته الرائعة، من أهم مقومات شخصيته. ولقد برزت قسوته هذه كل البروز في رسالته التي وجهها إلى قواد وأفراد جيشه سنة ٣٩٠ هـ عندما خاض آخر معاركه ضد الإسبان وربما أشرسها، وفي تلك المعركة ولى قسم كبير من جنده الأدبار، ولكن المنصور استلم القيادة بنفسه وصبر بشخصه مع حرسه الخاص وأثير غلمانه وفريق من الجند فحول الهزيمة الماحقة إلى نصر مؤزر، ووجه بعد المعركة رسالة قاسية مرة إلى أفراد جيشه يقرعهم على تخاذلهم وفرارهم ويصفهم باليعافير والرئال:... فحين جاءكم شانجة بالأمنية وقاتلكم بالشريطة أنكرتم ما عرفتم، ونافرتم ما ألفتم حتى فررتم فرار اليعافير من آساد الفيل وأجفلتم إجفال الرئال عن المقتنصين، ولولا رجال منكم دحضوا عنكم العار وحرروا رقابكم من الذل لبرئت من جماعتكم وشملت بالموجدة كافتكم [٢].

وتدل وصيته التي أوصى بها ابنه عبد الملك، لما خلفه في منصبه، على فهم لأصول الحكم المستبد المستنير المطلق الذي آمن به المنصور وطبقه، فهو يوصيه بالحذر وعدم الإسراف في الإنفاق، وأن لا يهيج العامة لأنها تريد الأمن وخفض العيش وقد حقق المنصور لها ذلك. كذلك يطلب إليه أن ينفرد

---

(١) نفس المصدر ١/٣٨٤.

(٢) ابن الخطيب، لسان الدين. تاريخ اسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام. تحقيق ا. ليفي بروفنسال. بيروت، دار المكشوف، ١٩٥٦م. ص: ٧٢.

بالتدبير دون صاحب القصر وألا يسمح له بالتدخل في شؤون الحكم وأن يستمر في الحجر عليه، مع إعطائه ما يكفيه من المال ومع الحفاظ على المظاهر. كذلك أوصاه بالإحسان إلى أقربائه وصلة رحمهم وبرّ أخيه وغلمانه. ويختم وصيته بتحذيره وتحذير غلمانه من التحالف مع بني أمية والركون إليهم بحال من الأحوال: وإياك أن تضع يدك في يد مرواني ما طاوعتك بنانك، فإني أعرف ذنبي إليهم[1].

ولقد استمر عبد الملك بن المنصور الذي لقب بالمظفر في سياسة والده على جميع الأصعدة داخلياً وخارجياً. كذلك استمر على حجبه الخليفة مع التوسعة عليه، فقد دعا عبد الملك هشاماً المستضعف إلى نزهة في قصره وهناك خدمه حق الخدمة، فسر ذلك هشاماً ووجه لعبد الملك كتاباً يشكره على ذلك ويلقبه بالمظفر[2].

ولكن الولد الثاني للمنصور واسمه عبد الرحمن طمح إلى أكثر من ذلك، طمع في الخلافة، وكان ضعيفاً عاجز الرأي أساء إلى الجند وإلى أنصاره، وإلى العامة، فطلب من هشام أن يجعله ولي عهده، فاستجاب له هشام وأصدر مرسوماً بذلك، هو من أشأم المراسيم في تاريخ الأندلس كله، يولي بموجبه عهده: المأمون الغيب، الناصح الجيب، النازح عن كل عيب، ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر[3].

ولكن شعب الأندلس عامة وشعب قرطبة بخاصة كان له رأي آخر في الموضوع، ولم يصبر على نقل الخلافة من البيت الأموي فثار ثائرهم وقتلوا الناصر العامري والخليفة الأموي، وانقسم القوم إلى عرب وبربر، وإلى يمن

---

(١) نفس المصدر ص، ٨١ ـ ٨٢.

(٢) نفس المصدر ـ ٨٨.

(٣) نفس المصدر ٩١ ـ ٩٣.

وعدنان، وإلى عامريين وسواهم. ولم يتمكن من حل محل هشام في منصب الخلافة أن يفعل شيئاً، وأزيلت رسوم العامريين في الأندلس وقتل أفرادهم وطوردوا وهدمت الزاهرة رائعة الحسن، واستقل كل منتزٍ في ناحية من نواحي الأندلس ليبدأ ما يعرف بالتاريخ الأندلسي بعصر ملوك الطوائف، وهو عصر من أحلك عصور التاريخ الإسلامي صورة.

جـ ـ عصر ملوك الطوائف ٤٢٢ ـ ٤٨٧ هـ/١٠٣١ ـ ١٠٩٤ م.

امتد هذا العصر أكثر من نصف قرن وقسمت فيه الأندلس إلى عدد كبير من الدويلات الهزيلة، وكانت كلها تدفع الجزية إلى الطاغية ملك قشتالة كما يسميه المؤرخون المسلمون المعاصرون، وقد سيطرت على الحياة السياسية في الأندلس آنذاك ثلاث قوى: عربية، بربرية، عامرية فقد أوجد العرب عدداً من الدويلات كان أقواها دويلة آل عباد في إشبيلية، وهم عرب من أصل قحطاني، كما أوجد البربر عدداً من الدويلات في عدد من مدن الأندلس كآل زيري في غرناطة. وهناك العامريون أو بالأحرى غلمان العامريين وأتباعهم الذين تمركزوا في عدد آخر من الدويلات كخيران العامري وكغيره الذين تمركزوا في جزيرتي ميورقة ومنورقة.

وكما قلنا سابقاً: كانت هذه الدويلات تدفع الجزية لملوك الاسبان دفعاً لشرهم وجلباً لنفعهم، وكانت تحارب بعضها بعضاً وتستعين، في كثير من الأحيان، بجنود مرتزقة من الاسبان للتغلب على هذا الرئيس أو ذاك. كذلك ازدهرت الحياة الأدبية في هذه الدويلات ازدهاراً رائعاً وكان قسم من حكامها أدباء وشعراء أمثال المعتصم بن صمادح والمعتضد بن عباد وابنه المعتمد، وكان كل حكامها يشجعون الأدباء والشعراء فقامت للأدب سوق رائجة كل الرواج ونشطت حركة التأليف بشكل رائع أخاذ.

كذلك امتازت الحياة السياسية بين تلك الدويلات بلا أخلاقياتها، إذ لم يكن يتحرج أحدهم عن عقد مودة وصداقة مع الآخر، وفي نفس الوقت يتحالف مع خصمه أو أخصامه أو يفسد أتباعه عليه أو يدبر ضده انقلاباً أو يثير عداء الإسبان عليه.

وامتاز قسم كبير من الحكام بقسوتهم المفرطة على أعدائهم حتى تجاوزوا حد المعقول الانساني. فقد ذكر كثير من المؤرخين أن آل عباد في إشبيلية كان لديهم خزانة، أو حديقة حسب رواية أحد المؤرخين، نصبت فيها رؤوس أعدائهم التي قطعوها، وعلقوا في أذن كل رأس رقعة كتب عليها اسم صاحب الرأس والمناسبة التي أدت إلى قطعه، وكانت تسمى حديقة الرؤوس، ويجدون متعة في ذلك.

ولقد افتتح هذا العهد القاضي ابن عباد لما استبد بحكم إشبيلية بمسرحية ظن أنها تثبت سلطانه وتسبغ الشرعية على حكمه، فأعلن «اكتشافه» الخليفة المنكود البائس هشام المؤيد، وأنه أصبح في خدمة الخليفة الشرعي: فهذا مولاكم أمير المؤمنين قد صرفه الله عليكم وجعل الخلافة ببلدكم لمكانه فيكم[١].

ولقد فسدت العلاقات بين الحكام ولم يعد أحد منهم يثق بالآخر لأنه يعلم أنه يخدعه ويمالىء عليه وإذا وجد فرصة خانه وغدر به، كما فعل المعتمد بن عباد حاكم إشبيلية بابن ذي النون لما خدعه عن قرمونة ومناه بقرطبة فوثق به ابن ذي النون وسلمه قرمونة، فكانت النتيجة أنه خسر قرمونة وقرطبة[٢] حتى إنه لم يكن من المستغرب أن يغدر الولد بأبيه أو يتآمر ضده، كما فعل إسماعيل بن المعتضد بن عباد لما تآمر ضد أبيه وحاول قتله وانتزاع الملك منه، ولكن الوالد

---

(١) عنان، محمد عبد الله. دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي. طبعة ثانية مزيدة منقحة، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٦٩ م ص: ٣٨.

(٢) ابن عذاري، المصدر المذكور آنفاً. ٣/٢٨٣.

نجا من المؤامرة وقتل ابنه وأذاع بياناً وجهه إلى ملوك الأندلس آنذاك يخبرهم بما حدث، ويشبه فعل ابنه به بفعل المنتصر بأبيه المتوكل، وبفعل أحد ملوك الفرس بأبيه دون ذكر الأسماء [١]. ثم يذكر أنه نفذ حكم العدل في المتآمرين بما يستحقونه [٢]. وأخيراً يطلب من الجميع الاعتبار بما حدث وكيف أن أبناء هذا الزمان عاقون لآبائهم [٣].

ووسط هذا الحلك من انحطاط الحياة السياسية والأخلاقية نرى بعض اللمعات التي تشبه لمعات البرق في ليلة حالكة السواد، فقد اغتصب وكلاء المعتصم بن صمادح حاكم المرية قطعة أرض لشيخ وضموها للحدائق التي أنشأها المعتصم وسماها باسمه الصمادحية. ولم يتمكن المسكين من عرض ظلامته على الحاكم، فاحتال بأن كتب رقعة ووضعها ضمن قصبة جوفاء وألقاها في الساقية التي تمر أمام المعتصم فعلاً فأخذها فوجد فيها الشكوى من اغتصاب أرضه: أنت ملك قد وسع الله تعالى عليك ومكن لك في الأرض، ويحملك الحرص على ما يفنى أن تضم إلى جنتك الواسعة العظيمة قطعة أرض لأيتام حرّمت بها حلالها [٤]... ويبدو أنه كانت لا تزال في نفس المعتصم هذا بقية من خير فبحث الأمر فوجده كما ذكر الشيخ فأمر بإعادتها إليه.

ولقد اغتنم الاسبان فرصة ضعف الأندلس وتقسمها إلى عدد كبير من الدويلات فألحوا عليها بالهجوم، واسترجعوا قسماً مهماً من الأراضي الأندلسية وتوجوا عملهم هذا باحتلال طليطلة عاصمة القوط القديمة. وقد أدرك الاسبان سقوط أخلاق الأندلسيين وفسادهم آنذاك، وأدركوا أن ذلك من أهم أسباب ضعفهم وانتصار الاسبان عليهم، نجد ذلك واضحاً في رسالة فرديناند ملك قشتالة

---

(١) عنان. المصدر المذكور آنفاً ٥٠ ـ ٥١.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) المقري. المصدر المذكور آنفاً. ٤/٢٣٨ ـ ٢٣٩.

إلى أهل طليطلة لما حاصرها أشد حصار، وحاول الطليطليون دفعه دون جدوى عن مدينتهم، ودارت بين الطرفين مراسلات كثيرة، وأخيراً أخبرهم أنه لن يرحل عنهم حتى يحكم الله بينه وبينهم: وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم... ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم[1].

ولقد سقطت طليطلة بيد فردلند ووضعت بنود لحماية السكان المسلمين ولكن عبثاً، إذ لم يف الاسبان منها بشيء واستباحوها وفعلوا بها الأفاعيل.

وقد وجه ألفونسو السادس رسالة تهكمية ملؤها الصلف والوعيد إلى المعتمد ابن عباد، ولقب نفسه فيها الأنبيطور ذا الملتين. ولقد حاول المعتمد أن يرد عليه، ولكن كيف يرد الضعيف العاجز الذي يدفع الجزية على القوي ذي اليد العليا[2]؟ كذلك وجه ألفونسو رسالة تهديدية تقريعية إلى المتوكل على الله حاكم بطليوس فكان الجواب جواب العاجز الجبان.

ولعل أروع تصوير لحال ملوك الطوائف آنذاك هو الرسالة الشفهية التي وجهها ألفونسو إلى المعتمد قبل معركة الزلاقة: كيف أترك قوماً مجانين تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم: المعتضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر والأمين والمأمون، وكل واحد منهم لا يسل في الذب عن نفسه سيفاً، ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولا حيفاً، قد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغاني والعيدان وكيف يحل لبشر أن يقر منهم على رعيته أحداً، وأن يدعها بين أيديهم شداً[3].

قد لا تكون هذه الرسالة صحيحة، ولكنها تصور الوضع أصدق تصوير.

---

(1) ابن عذاري. المصدر المذكور آنفاً، ٢/٢٨٢

(2) عنان، المصدر المذكور آنفاً ٧٥ - ٧٦.

(3) نفس المصدر - ٧٤.

ولقد ظلت الأندلس تتخبط بين شقي الرحا: الفساد الداخلي والانقسام، والعدو الخارجي المهدد بالابتلاع حتى أنقذها الله بالمرابطين.

والمرابطون جماعة من البربر سكان شمالي إفريقية اعتنقوا الإسلام، وهم قوم على الفطرة، فتأثروا به كل التأثر وتفاعلت نفوسهم مع مبادئه السامية، ورزقهم الله قائداً فذاً هو يوسف بن تاشفين فتمكنوا من تأسيس امبراطورية ضمت الجزائر ومراكش الحاليتين، إلى جانب قسم كبير جداً من الصحراء الجنوبية، وبرزت هذه الدولة كأقوى دولة في المنطقة، وجعلت شعارها الجهاد في سبيل الله. ولم يكن أمام الأندلسيين خيار: إما أن يرعوا الخنازير في جبال قشتالة أو أن يرعوا الجمال في صحاري إفريقية وقد اختار القوم المصير الثاني، فأثبتوا أنهم، برغم كل ما أصابهم من انحراف وتشوه وفساد، في صميمهم مسلمون، يغارون على الإسلام ومصيره وغفر هذا الموقف لهم كثيراً من سيئآتهم.

وقد أجمع القوم على توكيل ابن عباد في استصراخ ابن تاشفين لنصرة الأندلس، وكانوا يعرفون تقصيرهم وعجزهم وانهم جنوا على أنفسهم وشعبهم وبلادهم ودينهم، وقد انعكس ذلك في الرسالة التي وجهها المعتمد بن عباد باسمه واسم ملوك الأندلس إلى يوسف بن تاشفين يستصرخه لنجدة المسلمين في الأندلس: أما بعد فإنك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهم، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا فاختر لنفسك أكرم نسبتيك [1].

ولقد لبى يوسف بن تاشفين نداء الأندلس ونداء الأندلسيين واصطدم بجيوشه، تؤازره جيوش أهل الأندلس، بجيوش الاسبان بقيادة ألفونسو

(١) ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨م ١١٢/٦ ـ ١١٣.

السادس، في معركة الزلاقة الشهيرة التي أدت إلى انتصار المسلمين وهزيمة الاسبان وتراجع المد الاسباني إلى جزر ولو إلى حين.

ولقد دارت بين يوسف بن تاشفين وألفونسو السادس مراسلات كثيرة قبيل المعركة، وحاول ألفونسو خداع ابن تاشفين، ولكن ذلك كله لم يجده نفعاً، ونشبت المعركة بين الطرفين، والتي تعتبر من أروع معارك الإسلام وأمجدها يوم الجمعة العشرين من رجب سنة ٤٧٩ هـ، وهي معركة الزلاقة. وتمكن المسلمون بتآزرهم وتعاونهم وثباتهم وشجاعتهم، وقبل كل شيء بإيمانهم العظيم بدينهم ومبادئه، من تحطيم الجيش الاسباني تحطيماً يكاد يكون تاماً كاملاً وأصيب قائده ألفونسو بجراح وهرب مع قلة من أفراد جيشه تحت جنح الظلام. وقد صور ذلك أجمل تصوير المعتمد في رسالته لابنه يصف المعركة: كتابي هذا... وقد أعزّ الله الدين ونصر المسلمين... وهزم الكفرة المشركين وأذاقهم العذاب الأليم والخطب الجسيم فالحمد لله على ما يسره وسناه من هذه المسرة العظيمة والنعمة الجسيمة في تشتيت شمل الأدفونش والاحتواء على جميع عساكره... بعد إتيان النهيب على محلاته واستئصال القتل في جميع أبطاله وحماته، حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها [١]....

ولقد أبلى المعتمد نفسه في هذه المعركة أحسن البلاء وأعظمه، وذلك بشهادة يوسف بن تاشفين نفسه الذي أرسل رسالة يشرح المعركة وظروفها إلى تميم بن المعز بن باديس في المهدية بعد انتهائها:... ولجأ (أي المعتمد بعد أن هاجم جيش ألفونسو جيشه وتخلى عنه الجميع) في الأخبية بعد أن عاين المنية، وخلصه الله بنيته في المسلمين وبلغه أمنيته، بعد أن وقف وقفة بطل مثله، لا أحد يرد عليه، ولا فارس من فرسانه وعبيده يرجع إليه، لا يروعه أحد منهم فيهزم، ولا

---

(١) المقري. المصدر المذكور آنفاً، ٦/١٠٢.

يهابهم فيسأم[1].. ثم يقص يوسف ما جرى بعد ذلك من وصول الصريخ إليه وهجومه بجيشه على ألفونسو والتحام المعركة. وانظر إلى قوله لنفسه وأتباعه: هذا آخر يومنا من الدنيا فلتموتوا شهداء[2]... فثبت الله أقدامنا وقوي أفئدتنا والملائكة معنا، والله تعالى ولي النصر لنا، فولوا هاربين وفروا ذاهبين[3]. وانظر إلى تواضعه واعتماده على الله تعالى ونسبه الظفر الذي حازه المسلمون على الاسبان إلى الله تعالى لا إلى نفسه أو جيشه أو شجاعته مع أنهم بذلوا أقصى ما يتوقع بذله من إنسان في تلك المعركة الضارية حتى تمكنوا من تحقيق النصر:... وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنة تلحقه ولا ضربة تثخنه[4].

ولكن معركة الزلاقة، والنصر الذي حازه المرابطون والأندلسيون لم يحل مشكلة الأندلس، ذلك أن معركة الزلاقة كانت معركة مهمة ولكنها لم تكن حاسمة، فقد أصابت الإسبان بجروح عميقة ولكنها غير قاتلة كما وإن العلاقات ساءت بين المرابطين وبين ملوك الطوائف، وبين ملوك الطوائف بعضهم بعضاً، وخشي يوسف على جيوشه، إن بقيت في الجزيرة الخضراء، أن تصبح في جزيرة وسط بحر من الأعداء. وأثار بعض الناس، ولاسيما بعض قواده، طمعه في احتلال الأندلس كلها وضمها إلى سلطانه. ولم يحسن ملوك الطوائف من جهتهم التصرف فأدت تلك الظروف كلها إلى أن قرر يوسف بن تاشفين احتلال الأندلس كلها وضمها إلى ملكه، وأن يقوم هو وجيشه بعبء الجهاد والدفاع عن الأندلس. ولقد نفذ يوسف فكرته هذه واحتلت جيوشه الأندلس بكاملها. ولقد اختلف مصير حكام الأندلس، فأغلبيتهم كان مصيرهم القتل والأسر والنفي كما حدث للمعتمد بن عباد الذي احتل المرابطون مملكته.ونفوه مع أسرته

---

(١) عنان. المصدر المذكور آنفاً ٤٤٦ - ٤٥٠.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

في القيود إلى أن مات في أقصى المغرب الأقصى حيث أمضى ما تبقى من حياته. أما الذين لم يقاوموا يوسف بن تاشفين وسلموا له ممالكهم طواعية أمثال الأمير عبد الله بن زيري أمير غرناطة، فقد كان مصيره أفضل من مصير المعتمد بن عباد، فقد خير في النزول في أي مكان أراده باستثناء غرناطة ووسع عليه وعومل معاملة أفضل[1]. أما الحاكم الوحيد الذي نجا من هذا المصير فهو المستعين بالله بن هود حاكم سرقسطة، ذلك أنه سلك سلوكاً حسناً وأرسل إلى يوسف بن تاشفين يبدي ولاءه وخضوعه واستعداده ليكون سداً بين يوسف وبين الأعداء الاسبان وتعهد بتقديم الهدايا والطرف: ونحن بينكم وبين العدو سد لا يصل إليكم منه ضرر ومنا عين تطرف وقد قنعنا بمسالمتكم فاقنعوا منا بها إلى ما نعينكم به من نفيس الجواهر[2] ويبدو أن يوسف بن تاشفين رأى أن من الأفضل له وللأندلس وللخطة الدفاعية عنها أن يترك ابن هود في سرقسطة التي هي الثغر الأعلى سداً منيعاً بينه وبين الاسبان وأن يعمل على تقويته ففي ذلك تقوية له وللأندلس وللجهاز الدفاعي بكامله، فذلك خير من ضمها مباشرة إلى ملكه والقيام بجيوشه بهذه المهمة، ولذلك نراه يجيب ملتمس ابن هود أفضل إجابة وأكرمها، ويرسل له رسالة تفيض بأنبل العواطف: وأما الذي عندنا ففؤاد صريح وعقد في ذات الله تعالى صحيح[3]... وأصغينا في تفصيل جمله إلى تلخيصها [رسولا ابن هود] فألقينا إليها مراجعة عن ذلك ما لقناه، وسفرنا لها عن وجه مقصدنا فيه حتى يستبيناه، من جملة الوفاق وجماع الانتظام في سلك ما يرضي الله تعالى والاتساق[4]... وبالجملة فقد انتهى عهد ملوك الطوائف في

---

(١) عبد الله. مذكرات الأمير عبدالله آخر ملوك بني زيري في غرناطة المسماة بكتبه باب التبيان، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٥ م ص: ١٤٩.

(٢) ابن عذاري، المصدر المذكور آنفاً، ٤/١٤٥.

(٣) ابن الخطيب، المصدر المذكور آنفاً ١٧٣ - ١٧٤.

(٤) نفس المصدر.

الأندلس إلى نهايته المنطقية إذ لم يكن بإمكان حاكم قوي كيوسف أن يسمح لهؤلاء الحكام بالانتزاء والتآمر والتقاتل والتخاصم، مما قد يؤدي إلى تهديد جيوشه وسلامة الأندلس وسلامة القضية التي يدافع عنها، ففعل ما فعل وهو تحت تأثير المصلحة العامة أكثر مما هو تحت تأثير النوازع الشخصية. ولكنه يلام بعض اللوم لسوء معاملته لبعض ملوكهم كالمعتمد بن عباد الذي أبلى أروع البلاء وأعظمه في معركة الزلاقة، وكان لموقفه المشهور في الدفاع عن الاستنجاد بالمرابطين أثر كبير في ترجيح كفة المطالبين بهذه النجدة. وكنا نود لو أنه رعى له هذه المواقف السابقة فأحسن معاملته واحترم فيه شيخوخته وأدبه وأريحيته وكرمه وجهاده وإخلاصه.

د ـ المرابطون ٤٥٣ ـ ٥٤١ هـ/١٠٦١ ـ ١١٤٥ م.

نبعت حركة المرابطين في المغرب الأوسط، وجعلت شعارها نشر الإسلام والدفاع عنه عن طريق التبشير به بين الوثنيين، كما جعلت شعارها المرابطة في الثغور للدفاع عن بلاد الإسلام، ومن هنا أتى اسم المرابطين ولقد كان لروادها الأوائل فضل كبير في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية جنوبي الصحراء الجزائرية، كما كان لهم فضل الدفاع عن الإسلام وحماية المسلمين من الأعداء الداخليين والخارجيين. وقد برز من زعمائها الأوائل يوسف بن تاشفين الذي تمكن أن يرأب الصدع في الحركة المرابطية وأن يعيد توحيد المرابطين تحت قيادته، وأن يسير في بناء الدولة المرابطية إلى الغاية المنشودة، وهي تأسيس دولة قوية ضمت القسم الأكبر من شمالي إفريقية، مع التوسع نحو الجنوب والجنوب الغربي والجنوب الشرقي، ونشر الإسلام والدفاع عنه.

وإن الدارس لشخصية يوسف بن تاشفين ليعجب للبساطة التي تحلى بها هذا القائد. فقد كان بسيطاً في حياته الخاصة والعامة، سليم الطوية صافي السريرة، ظاهره كباطنه، وظل هكذا حتى أواخر أيام حياته، لم يغيره الغنى والجاه

والنفوذ. كذلك يمتاز بإيمانه العميق بمبادئه التي أعلنها ونذر نفسه من أجل تحقيقها، حتى ذاع صيته في جميع أقطار الإسلام، واشتهر بصلابته في إيمانه وإخلاصه في تقواه. هذا وإن هذه البساطة وهذا الايمان وهذا الاخلاص هي صفات النفس المؤمنة التي فطر الله الناس عليها، ولذلك حببته هذه الصفات من أتباعه البربر الذين اعتنقوا المبادىء التي نادى بها وأطاعوه وساروا تحت لوائه. ذلك أن البربر كانوا آنذاك قوماً أقرب إلى الفطرة فاستجابوا لدعوة الفطرة يقودهم رجل فطرته سليمة وطويته صافية. وهذا يعلل إلى حد كبير، نجاح يوسف في دعوته.

ولقد ظلّ يوسف ثابتاً على مبادئه حتى نهاية حياته ومخلصاً لها ما عاش من عمر، على الرغم من الدنيا العريضة التي أتته والترف الذي أصاب حياة المرابطين بعد احتكاكهم بالأندلسيين وبعد أن أصبحت الأندلس قسماً من امبراطوريتهم. ولكن الوضع تغير بعد يوسف ولم يكن ابنه وخليفته من بعده على مثل أبيه، فأخذ القوم بأسباب الترف وركنوا إلى الراحة والدعة، وتقاعسوا عن أداء الواجب المفروض عليهم في الدفاع عن الأندلس وأصيبوا بعدد من الهزائم المروعة أمام الأعداء الاسبان، وتفشى بينهم الترف والفساد، ونبعت في عهد علي الحركة الموحدية التي قدر لها أن تدمر المرابطين وأن تحل محلهم. ولقد كان علي أقرب إلى الخير والصلاح منه إلى الشر والفساد، ولكن الظروف كانت أقوى منه، وحاول إيقاف التيار فعجز، واضطربت إدارته وأوضاعه داخلياً وخارجياً. وبعد وفاته واستلام ابنه تاشفين مكانه تسارعت عوامل الهدم في البنيان المرابطي حتى تمكن الموحدون من القضاء عليهم والحلول محلهم.

١ ـ يوسف بن تاشفين ٤٥٣ ـ ٥٠٠ هـ/١٠٦١ ـ ١١٠٧ م.

لما شعر يوسف بن تاشفين بقوته وصلابة الأرض التي يقف عليها اتخذ لقباً مهماً ذا مغزى هو لقب أمير المسلمين، وهو لم يتخذ لقب أمير المؤمنين، وكان

بإمكانه أن يفعل ذلك لأنه كان آنذاك أقوى من الخليفة العباسي أو الخليفة الفاطمي. ولكن اتخاذ هذا اللقب يعني القطيعة مع النظامين العباسي والفاطمي. وكانت الدعوة المرابطية أقرب بكثير، بمبادئها ومثلها، إلى الدعوة العباسية وإلى السنة والجماعة من الدعوة الفاطمية والحركة الشيعية. ولم يكن في نية المرابطين وزعيمهم يوسف أن يقطعوا علاقتهم بالعباسيين، على العكس كانوا يريدون تعزيزها، وحاولوا الاعتراف بشرعية حركتهم وشرعية دولتهم عن طريق الحصول على تقليد من الخليفة العباسي الموجود آنذاك. لذلك أصدر يوسف مرسوماً إلى جميع ولاته يطلب منهم أن يلقبوه بلقب: أمير المسلمين وناصر الدين [1]، وذلك: لنمتاز به على سائر أمراء القبائل [2]. وكان ذلك في منتصف محرم سنة ٤٦٦ هـ.

كذلك لجأ يوسف، بعد أن صلب عوده وشاع ذكره وعرف أثره، إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله يطلب منه تقليداً يجعل ولايته شرعية على المناطق التي سيطر عليها. وقد كان الخليفة عند حسن ظن يوسف به، وأرسل له تقليداً شرعياً بعدد فيه الوصايا ويوجهه الوجهة الشرعية في حكم البلاد والرعايا. وهو يذكر أنه حين انتهى إليه [إلى أمير المؤمنين] ما هو عليه من ادراع جلابيب الرشاد في الأصدار والايراد، واتباع سنن من أبدى وأعاد، فيما يجمع خير العاجلة والمعاد... واتضح ما هو متشبث به من صحة الدين واليقين... في ضمن ما طوى عليه ضلوعه، وأدام لهجه به وولوعه، من موالاة لأمير المؤمنين بدين الله تعالى بها، ويرجو النجاة من كل مخوف باستحكام سعيها... فولاه الصلاة بأعمال المغرب والمعاون، والأحداث والخراج والضياع والأعشار والجهبذة والصدقات والجوالي وسائر وجوه الجبايات والعرض والعطاء والنفقة في الأولياء،

---

(١) حركات، ابراهيم. المغرب عبر التاريخ. الدار البيضاء، مطبعة دار السلمي، ١٩٦٥م. ص: ٢٠١.

(٢) نفس المصدر.

والمظالم وأسواق الرقيق، والعيار في الضرب والطرز والحسبة... سكوناً إلى استقلاله بأعباء ما استكفاه إياه، واستقباله النعمة عليه في ذلك بكل ما ينشر ذكره ويطيب رياه[1]...

بعد ذلك ينتقل الخليفة إلى الوصايا المتنوعة المعروفة، فيوصيه أول ما يوصيه بتقوى الله تعالى في الإعلان والاسرار[2]، ثم يوصيه بالائتام بكتاب الله تعالى والاستضاءة بمصباحه[3]. وأن يحافظ على الصلوات، وأن يسعى في أيام الجمع إلى المساجد الجامعة، وأن يقيم الدعوة على منابرها لأمير المؤمنين، ولولي عهده العدة للدين القاسم بن عبد الله بن محمد بن أمير المؤمنين أدام الله تعالى به الامتاع... ثم لنفسه، جارياً في ذلك على ما ألف من مثله[4]. ثم يوصيه بإخراج الزكاة على الوجه الشرعي، بعد ذلك يوصيه بحسن السيرة والبعد عن الرذيلة وفعل الخير، وأن يحسن لأتباعه وأنصاره وأن يعدل في الرعايا قبله، وأن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، وأن يحمي الطريق، وأن يلقي القبض على إباق العبيد وإعادتهم إلى أصحابهم، وأن يختار للشرطة رجالاً أكفاء أقوياء، حتى يقتلعوا الشر من جذوره، وحتى يدعموا أحكام القضاة خير دعم وأقواه، وأمره بتفقد السجون، وضبط النفقات، وقطع دابر الرشوة والسرقات، وأمره بالاستعداد الدائم والدائب للحرب والجهاد وأمره أن يختار عمال الخراج والعشور والصدقات من الأتقياء البررة، وكذلك الحال في أمر الحسبة والطراز ودور الضرب والرقيق[5].

---

(١) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. القاهرة دار الكتب المصرية، ١٩١٤ - ١٩١٩م. ٣١/٠٠ - ٤٥.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

(٥) نفس المصدر.

وبالجملة رسم الخليفة ليوسف برنامج عمل كاملاً ودستوراً للسير بموجبه لو سار بموجبه أي حاكم لغدت بلاده جنة الله في أرضه.

ولم يكتف يوسف بما حقق من شرعية، وإنما لجأ أيضاً إلى حجة الإسلام الغزالي الذي كان معاصراً له فأرسل له أحد الفقهاء في حضرته فقص على الإمام الغزالي سيرة يوسف في تقواه، ودينه، وجهاده، ورسم له صورة مشرقة كل الإشراق، فأصدر الإمام الغزالي فتوى شرعية تثبيت شرعية ولاية يوسف وتجعل الخروج عليه خروجاً عن الدين ومروقاً من الإسلام والإيمان. والملاحظ في هذه الفتوى أن الغزالي يجعل الاعتراف بالخليفة العباسي شرطاً أساسياً وركناً رئيسياً من أركان شرعية الحاكم الذي يعترف بالخليفة العباسي:... وإذا نادى الملك المشمول بشعار الخلافة العباسية وجبت طاعته على كل الرعايا والرؤساء، ومخالفته مخالفة للإمام، وكل من تمرد واستعصى فحكمه حكم الباغي، ومن حق الأمير أن يرده بالسيف وأن يقاتل الفئة المتمردة على طاعته[1]... وأن يستمر في قتالهم حتى يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية، ومتى تركوا المخالفة وجب الكف عنهم[2]...

ويبدو أن بعضاً من مناوئي يوسف احتجوا بعدم وصول تقليد من الخليفة العباسي، ويرد الغزالي هذا القول بما يلي:... وحكمهم بالجملة في البغي على الأمير المتمسك بطاعة الخلافة المستولي على المنابر والبلاد بقوة الشوكة، حكم الباغي على نايب الإمام، فإنه وإن تأخر عنه صريح التقليد لاعتراض العوايق المانعة من وصول المنشور بالتقليد، فهو نايب بحكم قرينة الحال، إذ يجب على

(١) عنان، محمد عبد الله. عصر المرابطين والموحدين في الأندلس. القاهرة، لجنة التأليف، ١٩٦٤م. ٤٢/١ - ٤٣.

(٢) نفس المصدر.

إمام المصر أن يأذن لكل مسلم عادل استولى على قطر من أقطار الأرض، أن يخطب له وينادي بشعاره ويحمل الخلق على العدل والنصفة.

ولا ينبغي أن يظن بالإمام توقف في الرضا بذلك والإذن فيه، وإن توقف في كتبه المنشور، فالكتب قد يعوق عن إنشائها وإيصالها المعاذير [١].

كذلك وجه الإمام الغزالي خطاباً إلى يوسف بن تاشفين يفيض مدحاً وشكراً على ما فعله في نصرة المسلمين في الأندلس، وقد افتتح الخطاب بلقب من المستغرب كل الاستغراب أن يطلقه الغزالي نفسه على يوسف وهو: أمير المؤمنين[٢]. وهذا ولا شك خطأ من النساخ، لأن الغزالي نفسه يلقب يوسف في نفس الرسالة بلقب ظهير أمير المؤمنين[٣]. وواضح كل الوضوح من الرسالة أن الغزالي لا يلقبه قطعاً بأمير المؤمنين وإنما أمير المؤمنين الخليفة العباسي ويوسف أحد ولاته. ويبدو لنا أن أصل اللقب هو أمير المسلمين، ولكن حصل خطأ أو التباس أدى إلى هذا. ويظهر أن سمعة يوسف وما قام به من أعمال في شمالي إفريقية والأندلس قد انتشرت في أرجاء العالم الإسلامي حتى وردت العراق وبغداد، فيذكر الغزالي: ولقد استطارت في الآفاق محامد سيره ومحاسن أخلاقه على الإجمال[٤]. بعد ذلك ورد إلى العراق رسول يوسف وهو الفقيه أبو محمد عبد الله بن عمر بن العربي فأحسن نشر مناقب يوسف ومنجزاته، وحدث القوم عن جهاده في نشر الإسلام في شمالي إفريقية، وعدله في الرعية وحالة الأندلس قبل معركة الزلاقة واستنجاد القوم بيوسف ونجدته إياهم وهزيمة الاسبان، ثم ما حدث بعد ذلك من تخاذل القوم وكيف اضطر يوسف إلى أن يعبر الأندلس مجدداً، وأن ينهي حكم ملوك الطوائف وأن يضم الأندلس إلى مملكته، وباشر

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر ١/٥٣٠ - ٥٣٣.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

الجهاد بنفسه وجيشه في الأندلس نجد ذلك كله مبسوطاً في رسالة الغزالي ليوسف، مع إعجاب شديد به وبرسوله الذكي الألمعي، ودعاء للأمير أن يوفقه الله تعالى ويسدد خطاه، ويختم رسالته بقوله: ونسأل الله أن يخلد ملك الأمير ويؤيده تخليداً لا ينقطع أبد الدهر. ولعل القلوب تنفر عن هذا الدعاء وتستنكر لملك العباد التأييد والبقاء، وليس كذلك، فإن ملك الدنيا إذا تزين بالعدل فهو شبكة الآخرة، فإن السلطان العادل إذا انتقل من الدنيا انتقل من سرير إلى سرير أعظم منه، ومن ملك إلى ملك أجل وأرفع منه (١)...

ولما توطد الملك ليوسف وشعر باقتراب أجله بايع ابنه علياً بولاية العهد من بعده وأصدر عهداً وكتاب تولية بذلك سنة ٤٩٦ هـ، وهو يعلن أنه، في اختيار ولده لهذا المنصب من بعده، لم يأل جهداً ولا نصيحة لله ورسوله في هذا الاختيار واستنصح أولي الحل والعقد من قومه، فكلهم أشار عليه بولده على أن يكون ولي عهده وأميراً للمسلمين من بعده، لذلك ولاه ولاية عهده، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع، ولا يعدل عن سمت العدل وحكم الكتاب والسنة (٢). ثم يوصيه بعد ذلك بحسن الدفاع عن المظلومين، وأن يداوم الجهاد وأن يحسن الدفاع عن العباد والبلاد. ثم يذكر أنه دعا لمبايعته من دنا ونأى من المسلمين فلبوا مسرعين وأتوا مهطعين وأعطوا صفقة أيمانهم متبرعين متطوعين، وبايعوه على السمع والطاعة والتزام سنن الجماعة (٣)...

وبعد صدور هذا التقليد أصدر يوسف كتاباً إلى جميع ولاته يعلن توليته لعهده من بعده لولده علي.

---

(١) نفس المصدر.

(٢) القلقشندي، المصدر المذكور آنفاً ١٠/١٦١ - ١٦٢.

(٣) نفس المصدر.

ويعيد في الكتاب ما سبق أن ذكره في التقليد من ضرورة الولاية بالعهد وعدم ترك الأمر فوضى، وأن هذا الأمر مسؤولية على الحاكم، وأن يوسف استشار واستخار، ثم اختار ولده علياً، وإن علياً أهل لملء هذا المنصب، وأن أمير المسلمين استدعاه إليه مشترطاً عليه الشروط الجامعة بينها وبين المشروط فقبل ورضي[1]...

٢ ـ علي بن يوسف بن تاشفين ٥٠٠ ـ ٥٣٧ هـ/١١٠٧ ـ ١١٤٣ م.

ولقد افتتح علي عهده بأن أرسل إلى الخليفة العباسي المستظهر بالله يخبره باستلامه إمرة المسلمين ويجدد ولاءه له ويطلب تقليداً، وكان الخليفة عند حسن الظن به فأرسل له تقليداً مختصراً جعل ولايته شرعية[2].

ولقد امتاز عهد علي بعمليات عسكرية في الأندلس كان التوفيق حليفه في أول الأمر، ولكن قلب الحظ له وللمسلمين ظهر المجن، وحدثت بعهده كوارث حقيقية وسقطت بيد الاسبان معاقل رئيسية مثل سرقسطة وغيرها.

فقد امتلأ المرابطون فخراً لما تمكنوا من احتلال قلعة شنترين في بلاد البرتغال، وهي من أمنع القلاع وأقواها، ونجد ذلك الفخر بارزاً في رسالة قائد جيش المرابطين سير بن أبي بكر بن تاشفين إلى علي بن يوسف بن تاشفين عن القلعة وكيفية احتلالها: ولما رأينا هذه القلعة الشريفة المناسب في القلاع المنيفة المناصب على القاع، قد استشرى داؤها وأعيا دواؤها، استخرنا الله تعالى على صمدها، وضرعنا إليه في تسهيل قصدها[3]... فقصدنا إليها وهجمنا هجوم الردى عليها، في وقت انسدت فيه أبواب السبل، وأعيت أهلها بحول الله وجوه

---

(١) حركات، المصدر المذكور آنفاً ١/٢٠٣.

(٢) نفس المصدر ١/٢٠٢.

(٣) المراكشي، عبد الواحد. المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٩٦٣ م ٢٢٩ ـ ٢٣٢.

الحيل[١]... ولما ضمهم لضيق ولاجه الحصار، وغشيهم بتفريق أمواجه البوار،... اختاروا الدنية على المنية ورضوا بالاستسلام للعبودية وإسلام الأهل والذرية[٢]. وهذه القلعة التي انتهينا إلى قرارها واستولينا على أقطارها أرحب المدن أمداً للعيون وأخصبها بلداً على السنين[٣].

ولكن هذا العهد القصير من الانتصارات انتهى ليحل محله عهد أسود من الانهزامات وتسليم المدن، وكان السبب الأكبر في ذلك سوء قيادة القوة المرابطية وتخاذل أفرادها أكثر مما هو قلة في عدد أفرادها أو سوء تجهيزها. فقد هاجم ألفونسو المحارب مدينة سرقسطة، وحاول إنجادها أخو أمير المسلمين حاكم الأندلس وقائد جيشها الأمير أبو طاهر تميم بن يوسف بن تاشفين، ولكنه لم يفعل شيئاً وهاب لقاء العدو ونكص عن حربه، وتخلى عن البلدة وتركها لمصيرها المؤلم. ولقد حاصر العدو سرقسطة، وأرسل أهلها وقاضيها وأعيانها رسالة تهز الوجدان وتذيب الصخر يعلنون ولاءهم وطاعتهم ويطلبون حمايتهم وانقاذهم ولكن ذهبت تلك الرسالة صرخة في واد.

فقد خاطبت الرسالة الأمير أجمل مخاطبة، واعترف القوم بطاعته واستنجدوه على أعداء الله. ثم ينتقل القاضي والجماعة الى ذكر حالهم: فنحن في كرب عظيم وجهد أليم، قد جلّ العز والخطب، وأهلنا الهلاك والعطب، فيا غوثاه ثم يا غوثاه إلى الله[٤]... ويا لله ويا للإسلام، لقد انتهك حماه وفضت عراه... ويا حسرتا على حفرة قد أشفت على شفى الهلاك، طال ما عمرت بالإيمان، وازدهت بإقامة الصلوات وتلاوة القرآن ترجع مراتع الصلبان ومشاهد ذميمة لعبدة

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) عنان، المصدر المذكور آنفاً ٥٣٨/١ - ٥٤١.

الأوثان[١]... ويا ويلاه على مسجد جامعها المكرم، وقد كان مأنوساً بتلاوة القرآن العظيم تطؤه الكفرة الفساق بذميم أقدامها... ثم يا حسرتاه على نسوة مكنونات عذارى يعدن في أوثاق الأسارى[٢]... فإلى الله بك المشتكا، ثم إلى رسوله المصطفى، ثم الى ولي عهد أمير المسلمين المرتضى[٣]... ثم يذكرون له خيبتهم الكبرى لما قدم بعساكره التي ملأتهم فخاراً وأملاً، ثم انثنى دون حرب ولا ما يحزنون:... فما أوليتنا غناء بل زدتنا بلاء وعلى الداء داء بل أدواء[٤]... ثم يذكر له نتائج نكوصه هذا:... بل أذللت الإسلام والمسلمين واجترأت فضيحة الدنيا والدين، فيالله ويا للإسلام لقد اهتضم حرمه وحماه أشد الاهتضام اذ أحجمت أنصاره عن إعزازه أقبح إحجام[٥]... ثم ينتقل القاضي الشجاع الى تحذير المرابطين بأنه ان حمّ القضاء على سرقسطة فإنهم سيجلون عن الأندلس كلها:... أتحسبون يا معشر المرابطين... ان سبق على سرقسطة القدر... أنكم تبلعون بعدها ريقاً وتجدون في سائر بلاد الأندلس ـ عصمها الله ـ مسلكاً من النجاة وطريقاً؟ كلا والله ليسومنكم الكفار عنها جلاء وفراراً، وليخرجنكم منها داراً فداراً...[٦] ثم يختم كتابه هذا بتحميل الأمير تميم المسؤولية عند الله وعند المسلمين: ولن يسعك عند الله ولا عند مؤمن عذر في التأخر والأرعوا، عن مناجزة الكفار والأعدا...[٧] ويقول له: ومهما تأخرتم عن نصرتنا فالله ولي

(١) نفس المصدر.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر.
(٥) نفس المصدر.
(٦) نفس المصدر.
(٧) نفس المصدر.

الثأر لنا منكم ورب الانتقام، وقد بريتم بإسلامنا للأعداء من نصر الإسلام...[1].

ولقد تركت سرقسطة لمصيرها الرهيب فاحتلها ألفونسو المحارب، ولقد كان لسقوطها رد فعل في مجال آخر، ذلك أن خبر سرقسطة وكيفية سقوطها وصل إلى علي بن تاشفين فتألم لذلك كل الألم ووجه الى جيش بلنسية الذي نكل عن نجدة سرقسطة رسالة قاسية كل القسوة كلها تقريع وإهانة وتوبيخ على ما فعلوه. ولكن هل يفيد هذا الشيء وحده دون عقوبة زاجرة تمنع أمثال هذا العمل وتعاقب الجناة والمقصرين الذين تسببوا في حدوث ما حدث؟ وهل اتخذت الترتيبات اللازمة التي تمنع تكرار ما حدث؟! فقد افتتح رسالته لهم بهذه الجملة الرهيبة: يا فرقة خبثت سرايرها وانتكثت مرايرها[2]... فقد آن للنعم أن تفارقكم، وللأقدام أن تطأ مفارقكم حين ركبتموها جلواء عارية[3]... أي بني اللئيمة وأعيار الهزيمة الى ما يريعكم الناقد ويردكم الفارس الواحد[4]. ثم ينتقل الى تهديدهم بالقتل ان عادوا للفرار: وأيم الله نقسم إنذاراً بكم وإعذاراً لكم: لنوردن الفار منكم الزحف ما عافه من موارد التلف، ولنتجاوزن السوط الى السيف[5]...

ولكن ذلك لم يجد نفعاً لأن عوامل الترف بدأت تعمل عملها في النفوس وأحب القوم الدنيا وفضلوها على الأخرى، لذلك نرى المرابطين يصابون بهزيمة أخرى شنيعة في معركة القلعة سنة ٥٢٣ هـ، وأدت هذه الهزيمة الى مراسلات

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر ٥٤٥/١ ـ ٥٤٦.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

(٥) نفس المصدر ٥٤١/١ ـ ٥٤٢.

مريرة بين أمير المسلمين وقواد جيشه. وقد قرعهم مرة ثانية على هذه الهزيمة ووصفهم بأنهم أشجع الناس أقفاء وظهوراً وأجبنهم وجوهاً ونحوراً [١]...

ولقد أحدثت هذه الهزائم ذعراً مميتاً لدى سكان الأندلس، ولاسيما في الثغور، حتى أن سكان بلنسية خافوا أن يتخلى المرابطون عنهم كما تخلوا عن أهل سرقسطة، فأرسلوا رسالة استغاثة إلى سلطان المرابطين يناشدونه الله والإسلام ألا يتخلى عنهم، ويصفون له ما أصابهم من ذعر وخوف لما رأوا جيوش المرابطين تولي الأدبار أمام ألفونسو المحارب. وقد أجابهم علي بن يوسف جواباً لطيفاً مطمئناً إياهم إلى أنه لن يتركهم وحدهم وأنه سيدافع عنهم:... وبعد فإنا لا ندعكم بحول الله لضياع، ولا نألوكم إلا اهتبالاً نذهب بمشيئة الله ما نالكم من توقع وارتياع [٢]. ثم يخبرهم أنه أصدر أوامره الى جميع ولاة الأندلس بضرورة إمداد بلنسية بالأقوات والأمداد وأنه لن ينساهم ولا يزالون من باله [٣].

ولا ينسى في هذه الرسالة أن ينحى باللائمة على أفراد جيشه ويذكر أنه ذكرهم ووعظهم فما ازدادوا إلا جبناً ولم تنجع فيهم الموعظة ولا نفعتهم الذكرى [٤].

ولم يتكشف بقية حكام المرابطين عن أي أصالة أو مقدرة سياسية أو عسكرية، وانما انصرفوا الى الترف، وشغلوا أنفسهم بتوافه كثيرة وانصرفوا عن العدوين: الخارجي الإسبان، والداخلي الموحدين الذين تناوشوهم في الداخل والخارج حتى أتتهم الضربة المميتة من الموحدين بزعامة عبد المؤمن الذي ورث زعامة الحركة الموحدية بعد وفاة مؤسسها المهدي بن تومرت، وأصبح قائد

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر ٥٤٣/١.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

الموحدين، وتمكن من القضاء على المرابطين والحلول محلهم وتأسيس دولة جديدة في شمالي افريقية والأندلس عرفت باسم الدولة الموحدية.

هـ ـ الموحدون ٥١٥ ـ ٦٦٨ هـ/١١٢١ ـ ١٢٦٩ م.

والحركة الموحدية حركة نبعت في السوس الأقصى من المغرب الأقصى قادها شخص تسمى باسم المهدي وزعم لنفسه النسب القرشي، وأنشأ مدرسة وأتباعاً. وأوجد لها جهازاً متقناً لحماية الدعوة ونشرها، وتمكن بذكائه وصرامته وشجاعته، واستفادته من كل الظروف التي أحاطت بالمرابطين أن يثبت أقدام الدعوة الموحدية، وأن يترك لخليفته من بعده عبد المؤمن أن يصل بالحركة الى نهايتها المحتومة المعروفة وهي القضاء على المرابطين والحلول محلهم في شمالي افريقية والأندلس.

ومبدأ الموحدين، كما هو ظاهر من اسمهم، التوحيد الخالص لله تعالى، وذلك واضح كل الوضوح في صيغة التوحيد التي وضعها المهدي والتي كانت الدستور الذي سار عليه أوائل الموحدين وبنيت عليه الدعوة الموحدية: لا إله إلا الذي دلّت عليه الموجودات، وشهدت عليه المخلوقات بأنه جلّ وعلا وجب عليه الوجود على الاطلاق، من غير تقييد ولا تخصيص بزمان ولا مكان، ولا جهة ولا حد، ولا جنس ولا صورة ولا شكل(١)...

ولقد وسم الموحدون المرابطين ونبذوهم باسم المجسمين، لأن في رأيهم، وهو الرأي الإسلامي الصواب، أن الله تعالى موجود قبل الأمكنة والجهات، فمن جعله في جهة ومكان فقد جسمه، ومن جسمه فقد جعله مخلوقاً، ومن جعله مخلوقاً فهو كعابد وثن، فمن مات على ذلك فهو مخلد في النار(٢). وفي رأيهم

---

(١) نفس المصدر، ١/٥٥١.

(٢) علام، عبد الله علي، الدعوة الموحدية بالمغرب. القاهرة، دار المعرفة، ١٩٩٤ م. ص: ٣٤٩ ـ ٣٥٥.

وزعمهم أن المرابطين يعتقدون بوجود مكان لله تعالى ولذلك دعوهم بالمجسمين، ومن هنا نستطيع تفسير العداء المرير الذي كنوه لهم. ولم يهدأ هذا الحقد وهذا العداء حتى زال المرابطون. كذلك هذا يفسر قسوة الموحدين على أعدائهم ومخالفيهم من المسلمين، لأنهم اعتبروهم وثنيين، وأهل الكتاب أولى بالرحمة والرأفة من الوثنيين والمجسمين.

ولقد بذر البذور الأولى المهدي ثم تبعه تلميذه وصفيه عبد المؤمن الذي قضى على المرابطين ووطد دعائم الدولة الموحدية في المغرب، ثم عبر إلى الأندلس ورفع علم الجهاد ضد المرابطين وضد الاسبان، وتمكن من احتلال قسم كبير من إسبانيا الإسلامية. ثم تبعه ابنه أبو يعقوب يوسف الأول الذي وطد الدولة الموحدية وقضى على عدد كبير من الثورات الداخلية، وانتصر على الاسبان في عدد من المعارك الهامة. ولقد بلغت دولة الموحدين ذروتها زمن المنصور الموحدي المعاصر لصلاح الدين الأيوبي والذي انتصر انتصاره العظيم على الاسبان في معركة الأرك وطار صيته في كل أرجاء العالم الإسلامي حتى أن صلاح الدين رجا نصره ضد الصليبيين في بلاد الشام وأرسل له رسالة مع مبعوث خاص يستنجده ويستمده العون ضد الصليبيين.

ولكن هذا البناء الشامخ ما لبث أن انهار دفعة واحدة في عهد ابنه الناصر الذي أصيب بهزيمة ماحقة أمام الاسبان بمعركة العقاب التاريخية التي كانت المفتاح الذي فتح أبواب إسبانيا الإسلامية أمام الاسبان، فلم تلبث حواضر الأندلس الكبرى كبلنسية واشبيلية وقرطبة أن سقطت بيد الاسبان، وقامت ثورة عارمة فيما تبقى من الأندلس ضد الموحدين فأخرجوا منها وتشكلت مملكة غرناطة التي لبثت منارة للحضارة الإسلامية في تلك البقعة من الأرض أكثر من قرنين من الزمان بعد سقوط الموحدين. كما وأن الموحدين ضعفوا كل الضعف في المغرب موطنهم الأصلي وقضي عليهم وحلّ محلهم بنو مرين.

ولقد قامت الحركة الموحدية أصلاً لهدفين رئيسيين؛ القضاء على الفساد والانحراف الذي أصاب الحركة المرابطية وتوحيد القبائل كلها تحت هذا الهدف الواضح الصريح، ورفع راية الجهاد خفاقة، ليس لحماية ما تبقى من بلاد المسلمين في الأندلس فحسب، بل لاسترجاع ما ضاع منها. وعلى الرغم من النجاح الجزئي الذي حققته الحركة أول أمرها في تحقيق هذين الهدفين، إلا أنها لم تلبث أن سقطت في وهدة الفساد الداخلي والترف والصراع القبلي: وسجل التاريخ أن القسم الأكبر من إسبانيا الإسلامية سقط بيد الإسبان في عهد هذه الأسرة الحاكمة.

١ ـ المهدي بن تومرت ٥١٥ ـ ٥٢٤ هـ/ ١١٢١ ـ ١١٣٠ م.

المهدي شخصية قوية ذكية عرف كيف يستغل الامكانات المتوفرة لديه وعرف كيف يستغل الظروف المحيطة به وأخطاء المرابطين حتى حقق نجاحه المنقطع النظير. وقد أحسن انتقاء تلاميذه ومريديه بشكل جيد وخاصة تلميذه الأثير لديه وخليفته من بعده عبد المؤمن الذي تعهده بعنايته وأعده إعداداً جيداً لاستلام الحركة الموحدية من بعده. وهو الذي وضع للحركة الموحدية مبادئها العامة وعقائدها ونظمها مما مكنها أن تقارع المرابطين وأن تتغلب عليهم. وقد ادعى أنه المهدي المنتظر، وأنه من سلالة الرسول عليه السلام واسمه كاسمه ومكانه المغرب الأقصى وأنه بعث ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً [١]. ولما توطدت دعوته ووثق من نفسه وقوته أرسل رسالة الى سلطان المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين ينذره بالحرب وأن المرابطين كفار دماؤهم وأموالهم حلال [٢]...

---

(١) ابن القطان. جزء من كتاب نظم الجمان لابن القطان. تحقيق محمود علي مكي. الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. ص: ٧٥.

(٢) علام. المصدر المذكور آنفاً، ص: ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

وقد خاض المهدي عدداً كبيراً من المعارك ضد المرابطين، انتصر في أكثرها، ولكن أصابه الخذلان في بعضها، وتدل رسائله التي وجهها الى أتباعه يحرضهم على قتال المرابطين على ثقة بالنفس عظيمة، وعلى إيمان بالمبدأ والعقيدة لا يتزعزع، وعلى مقدرة عالية وكفاءة رفيعة في فن قيادة الرجال. وعنده أن جميع مخالفيه كفّار مجسمون، وأن واجب الموحدين دعوتهم الى التوبة والإنابة، فإن قبلوا: فخلوا سبيلهم، وهم اخوانكم في دين الله وسنة رسوله، وان عاندوا الحق وأصروا على معونة أهل الباطل والفساد فاقتلوهم حيث وجدتموهم... وكل من قتل من الكفرة والمجسمين فهو مخلّد في نار جهنم وبئس المهاد. وكل من قتل من المؤمنين فهو من أهل الجنة (١).

ولما أحس بدنو أجله أوصى أتباعه وصية شاملة، وبين لهم فضل الله عليهم الذي قيضه لهم فهداهم به الى التوحيد الخالص وأزال به البدع والمنكرات، وأن الله تعالى سيورث الموحدين أرض المرابطين وسلطانهم فعليهم أن يجددوا لله شكراً، ثم يحذرهم الفرقة والخلاف ويطلب منهم أن يمزجوا الرأفة بالغلظة واللين بالعنف. ثم يخبرهم أنه استخلف عليهم من بعده رجلاً منهم هو عبد المؤمن بعد أن بلا أحواله واختبره، فعليهم أن يسمعوا له ويطيعوه مادام سامعاً مطيعاً لربه، فإن بدل أو نكص على عقبيه أو ارتاب في أمره، ففي الموحدين - أعزهم الله - بركة وخير كثير (٢)

٢ - عبد المؤمن بن علي ٥٢٤ - ٥٥٨هـ/١١٣٠ - ١١٦٣م.

وضع المهدي أساس الدولة الموحدية، وأكمل البناء عبد المؤمن وأعلاه حتى حقق أحلام المهدي في القضاء على المرابطين ودولتهم «ولكن ذلك تم بعد حروب كثيرة ومعارك ضارية ودماء غزيرة أهرقت بغير ما سبب وقد امتاز عبد

---

(١) نفس المصدر. ٣٤٩ - ٣٥٥.

(٢) المراكشي. المصدر المذكور آنفاً. ص: ٢٦٣ - ٢٦٤.

المؤمن بقسوته الشديدة في معاملة أعدائه، وفي صرامته وشدته في تطبيق مبادىء الموحدين. كما وأنه عبر البحر إلى الأندلس وبدأ الجهاد ضد الإسبان، ولكن لم يصف له حكم الأندلس. وقد اعتقد هو واعتقد خلفاؤه من بعده أن المهدي معصوم عن الخطأ، وقد ورد ذلك في كثير من رسائلهم؛ وهذا ولا شك انحراف خطير في عقيدتهم عن العقيدة الإسلامية الحقيقية. وظل هذا الاعتقاد سائداً لديهم حتى ألغاه أحد متأخري خلفائهم وهو المأمون الموحدي (٦٢٦ ـ ٦٣٠ هـ). كما وأن عبد المؤمن اتخذ لقب أمير المؤمنين، وتبعه في ذلك بقية حكام الموحدين حتى زوال ملكهم. ولقد كان لعبد المؤمن شواغل ثلاث: القضاء على المرابطين نهائياً، وقد تم له ذلك؛ القضاء على الثوار في الأندلس وحرب الإسبان، وهذا لم يحقق فيه إلا نجاحاً جزئياً، توطيد أركان الدعوة الموحدية في أرجاء امبراطوريته الواسعة وحمل الكافة على السير بموجب ذلك. فأوجد نظام الطلبة والأشياخ الموحدين الذي يساعدون الحكام في تطبيق أحكام القانون، ويقومون بعملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي العملية التي يسميها الموحدون التمييز أي تمييز الموحد عن المجسم.

وقد افتتح عبد المؤمن ملكه بتوجيه إنذار نهائي إلى المرابطين بضرورة الاستسلام ملأه بالوعيد والتهديد: يا عضد الفجار وعباد الفساق الأشرار فقد كاتبناكم بالبنان، وخاطبناكم بالبيان... فلم تجيبوا ولا أطعتم بل تثاقلتم عن الحق وعصيتم... وهذه خيل الله قد أظلكم وبلها وطمى عليكم سيلها، فتأهبوا للموت[1]... ولقد اعتصم بقايا المرابطين في السوس، واضطر عبد المؤمن أن يوجه الجيوش إليهم أكثر من مرة حتى تمكن من القضاء على بقاياهم وبقايا ثوارهم في تلك المنطقة سنة ٥٤٢ هـ.

---

(١) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة ذيل تاريخ دمشق. تحقيق أمدوز بيروت، مكتبة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨م، أعادت مكتبة المثنى ببغداد طبعه بالأوفست ص: ٢٩٢.

ولما استقر لعبد المؤمن الأمر في المغرب الأقصى، بعد حروب هائلة ومعارك دموية، بات يترقب ويتأهب للعبور من جديد إلى الأندلس للغزو والجهاد، وأرسل إلى ابنه وواليه على أشبيلية رسالة يصف فيها حروبه في السوس وما لاقاه الموحدون من شدة وقوة أعدائهم، وكيف تغلبوا عليهم، ويفتخر بما أنجزوا وما حققوا، وهو يصم مخالفيه بالكفر: فأما من ظلم نفسه واعتزل الحق وأهله، فسيذوق من العذاب الأدنى مراً، ثم يرد إلى ربّه فيعذبه عذاباً نكراً[١]...

ولقد انتشر الظلم والتعسف في دولة الموحدين في الأندلس زمن عبد المؤمن، ووصل إلى سمعه ما يفعله بعضهم من ظلم الناس وعسفهم واستصفاء أموالهم واستباحة حرماتهم بل ودمائهم؛ وهم: كما يبدو من رسالة عبد المؤمن إلى الموحدين في الأندلس، من الطبقة الحاكمة من الموحدين. ولذلك يتوجه إليها عبد المؤمن بالوعيد والإعذار والإنذار، ويمزج وعظاً بشدة ويحذرهم عاقبة البغي والعدوان ضد الآمنين، ويقسم أنه لو علم الفاعل لمسه من أليم عقابه ما يجعله عبرة للمعتبرين. كذلك يحذّر من المكوس وأخذها وجبايتها كل التحذير، ويبرأ إلى الله مما يعملون ويستعيذ به من شرّ ما يتصرفون. بعد ذلك يتوجه بخطابه إلى الموحدين، ويطلب إليهم ألا يكلوا تنفيذ الأحكام إلى أحد سواهم، فلا تكلوا النظر فيها إلى أحد سواكم، ولا تبعدوا بغلظ الحجاب عن قصدكم من الخير ونواياكم، وباشروا الأحكام هناك مباشرة المتعهد المتفقد، وعليكم بالتواضع لأمر الله تعالى وترك الاستعلاء، وتحفظوا في جانب المسلمين من كل خفيف المقال كثير الاضطراب في الباطن والانتقال[٢]. ثم يطلب إلى الحكام والموحدين أن يبحثوا عمن باشر مثل هذه الأمور بحثاً دقيقاً، وأن يرفعوا أمرهم إليه حتى

---

(١) ابن صاحب الصلاة، عبد الملك. تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين. تحقيق عبد الهادي التازي بيروت، دار الاندلس، ١٩٦٤م. ٢/١٣١ - ١٣٥.

(٢) علام، عبد الله علي. الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي. القاهرة، دار المعارف، ١٩٧١م ص: ٣٩٤ - ٤٠٥.

يناهم العقاب الرادع. كذلك يطلب إليهم ألا ينفذوا حكماً بالإعدام بأي فرد كان، دون الرجوع إلى الخليفة شخصياً في ذلك مهما يكن ذنبه، حتى يدرس الخليفة قضيته ويصدر حكمه فيها. ويطلب إليهم أيضاً البحث عن الخمور وإهراقها ومنع صنعها ومعاقبة معاقريها. ثم يطلب إليهم التقيد التام الشامل الكامل الصارم بما ورد في تعاليمه في رسالته هذه الموجهة إليهم، وأن يطلعوا الجمهور عليها وأن يعمموها على جميع مراكز الإدارة، وأن يأخذوا أنفسهم والآخرين بها؛ ويحذرهم أنه بمرصد لما يكون منهم، وأنه سيقابل بالواجب ما يصدر من الجميع[1].

وإذا حاول عبد المؤمن جعل ولده محمداً ولياً لعهده ووجه الرسائل لقبائل الموحدين وزعمائهم في هذا الشأن، ولكن الأمر لم يتم لمحمد وإنما تم لأخيه أبي يعقوب يوسف الأول، وكان ذلك من حسن حظ الموحدين.

٣ ـ أبو يعقوب يوسف الأول بن عبد المؤمن ٥٥٨ ـ ٥٨٠ هـ/ ١١٦٣ ـ ١١٨٤ م.

وإذ افتتح أبو يعقوب ملكه برسالة وجهها إلى أخيه أبي سعيد واليه في قرطبة، تتضمن طائفة من النصائح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ يبدو أن عبد المؤمن لم يتمكن من استئصال دابر الفساد والرشوة التي تفشت بين حكام الموحدين في الأندلس، ولذلك اضطر الخليفة الجديد إلى إعادة تذكيرهم بما ذكرهم به أبوه عبد المؤمن من قبل بوجوب العدل وتحري الصدق وتجنب الظلم. وهو يستهل رسالته بالرضا عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم[2]، ثم يوالي الدعاء لأمير المؤمنين القائم بأمره والداعي إلى سبيله[3]. بعد ذلك يذكرهم بأهمية

---

(١) نفس المصدر.

(٢) ابن صاحب الصلاة. المصدر المذكور آنفاً. ٢/٣٠٢ ـ ٣٠٦.

(٣) نفس المصدر.

التقوى في الإسلام وأن البناء الموحدي كله قائم على التقوى، لذلك يطلب إلى الجميع ألا يحكموا في الدماء من تلقائهم، وأنه لا بد من رفع هذه القضايا إلى الخليفة ليفصل بها بنفسه، ثم يذكرهم بضرورة العدل والاستقصاء واتباع الشرع الشريف فيما دون ذلك من الأحكام كالقطع والأرش والجلد وما شابهه، ويملأ رسالته وعظاً وتذكيراً [١].

ولقد ووجه أبو يعقوب بفتنتين كبيرتين إحداهما في الأندلس والثانية في المغرب الأقصى وتمكن من التغلب عليهما.

فقد ثار ابن مردانيش من بقايا المرابطين في المنطقة الشرقية من الأندلس وتحالف مع الاسبان ضد الموحدين وجرت بين الطرفين معركة الجلاب سنة ٥٦٠ هـ وانتصر فيها الموحدون على ابن مردانيش وحلفائه الاسبان، فوجه أخو الخليفة في الأندلس رسالة تفيض سروراً وبشراً وانشراحاً. وقد ملئت بالمبالغات التي لا داعي لها لأن التغلب، في معركة، على ثائر، دون إنهاء ثورته أو قتله، لا يستحق أن يوصف بأنه:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به … نظم من الشعر أو نثر من الخطب [٢]

وأنه: كيوم ذي قار انتصف فيه الموحدون والعرب من العجم [٣] فإذا كان هذا شعور القوم لدى انتصارهم في معركة جانبية، فكيف يكون شعورهم لو انتصروا في معركة حاسمة؟ وهذا وحده كاف للدلالة على ضعف تفكير وتفاهة مرسلي مثل هذه الرسائل.

كذلك ثار ثائر في أقصى بلاد السوس اسمه سبع بن منخفاد، ويبدو أن الثورة كانت تهديداً خطيراً لسلطان الموحدين حتى اضطر الخليفة أن يركب

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر ٢/٢٧٦ - ٢٨٣.

(٣) نفس المصدر.

بنفسه وجنده لإخمادها، وتمكن بعد حرب ضروس من قتل زعيمها وإخماد أوار الثورة، والقضاء على الفتنة.

فقد وجهت الرسالة إلى طلبة الموحدين، وأشياخهم، وأعيانهم في قرطبة تخبرهم بصنع الله العظيم في القضاء على هذه الفتنة، وتصف الحركة إلى ميدان المعركة، والطريق إليها، وتصور المعركة أنها معركة بين الشرك والتوحيد، والكفر والإيمان، وأن الله تعالى نصر حزبه، وأعزّ جنده، ويظهر أنها كانت حركة خطيرة، حتى اهتم بها الخليفة كل هذا الاهتمام، وطلب إشاعة هذا الخبر في كل مكان:... وعرّفناكم بذلك مشروحاً لتحمدوا الله تعالى عليه، وتأخذوا بحظكم منه، وتعطوه حقه من الإشاعة، وتوفوه واجبه من النشر والإذاعة، فقد انحسمت به أدواء كانت في حد الإعضال، وأخمدت نيران من الفتن في اصطدام واشتعال، وستكون آياتها منبهة، وعبرها مذكرة، يصلح بها الفاسد ويستقيم بها المائل[1]...

ويبدو أن بيعة أهل الأندلس، أو على الأقل، بيعة أهل إشبيلية لأبي يعقوب بإمرة المؤمنين قد تأخرت بعض الوقت لسبب ما، فإنه تولى الخلافة سنة ٥٥٨ هـ ولم يبايعه أهل إشبيلية إلا سنة ٥٦٣ هـ، ولا ندري كيف نفسر ذلك. ولكن الوارد في نص البيعة هو تجديد البيعة:... على تجديد البيعة المباركة لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين، خلد الله ملكهم وأعز نصرهم[2]... فبايعنا على السمع والطاعة بيعة إيمان وأمانة، وعدل وعبادة، والتزمناها في العسر واليسر والمنشط والمكره، واعتقدناها عصمة ديننا وذخر معادنا[3]... وقد فعل نفس الشيء أهل

---

(١) نفس المصدر ٢/٣١٠ ـ ٣٢١.

(٢) نفس المصدر ٢/٣٤٠ ـ ٣٤١.

(٣) نفس المصدر.

غرناطة وأرسلوا بيعتهم لأبي يعقوب يعلنون أنها بيعة رضوانية وأنهم بايعوه بيعة إيمان وأمانة في السراء والضراء[1].

ولما تم لأبي يعقوب القضاء على فتنة غمارة، وتوطد مركزه في المغرب والأندلس قرر الالتفات للمهمة الكبرى وهي الجهاد في الأندلس، ورد عادية الاسبان عنها. وقد أرسل بهذا المعنى رسالة إلى واليه على غرناطة يخبره بعزمه على الحضور بنفسه إلى الجزيرة للجهاد ويخبره أنه أرسل أخاه بجيش قوي كمقدمة لتحقيق هذا الهدف: وإن أمرت لكم الجزيرة، مهدها الله، لمن أكد ما توجه إليه نظرنا، وتوكل به اعتناؤنا واشتغل به فكرنا لمصاقبة الأعداء الروميين، والمجسمين لبلاد الموحدين بها، وإلحاحهم على جنباتها[2]... وقد اتفقنا في هذه الأيام على أن يتوجه إليها أخونا أبو إسحاق... في عسكر مبارك... ليكون بقرطبة... ورجونا من تعاونه مع إخوانه الذين بإشبيلية... أن تظهر عليهم بركة سيدنا أمير المؤمنين وآثارهم[3]...

ولكن أحوال المغرب المضطربة منعت الخليفة من الجواز المباشر إلى الأندلس، على الرغم من أنه فعل ذلك فيما بعد، وقد انتصرت جيوشه في الأندلس في عدد من المعارك ضد الاسبان، وانضم إلى صفوف الموحدين أحد بقايا زعماء المرابطين إبراهيم بن همشك، بناء على وعد بالعفو وعده إياه الخليفة. وإذا كان أبو يعقوب قد عجز عن تحقيق إنجاز ضخم ضد الاسبان في الأندلس فقد ترك هذه المهمة لابنه وخليفته المنصور.

---

(١) نفس المصدر ٢/٢٤٢ ـ ٣٤٤.

(٢) نفس المصدر ٢/٣٥٤ ـ ٣٥٦.

(٣) نفس المصدر.

٤ ـ أبو يوسف يعقوب المنصور ٥٨٠ ـ ٥٩٥ هـ/١١٨٤ ـ ١١٩٩ م.

أبو يوسف هو أول من تلقب من خلفاء الموحدين بلقب فاختار لقب المنصور، وبلغت في عهده دولة الموحدين ذروتها، فقد تمكن من تحقيق إنجاز ضخم في تاريخ الأندلس بانتصاره العظيم على الاسبان في معركة الأرك المشهورة. ويبدو أن هذا النصر الذي حازه أصابه بالغرور، واعتقد أنه يستحق إمامة المسلمين في كل مكان وخلافتهم، ولذلك لم يتنازل بالرد على صلاح الدين الأيوبي رحمه الله عندما أرسل إليه رسالة مع رسول يطلب منه أن يمد المسلمين في بلاد الشام في صراعهم ضد الصليبيين، واحتج بأن صلاح الدين لم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين. ولكنا نعتقد أن المنصور لم يكن قادراً على أي عمل من شأنه مساعدة مسلمي الشام ضد الصليبيين ولو لقبه صلاح الدين بالخليفة وأمير المؤمنين وغير ذلك من الألقاب الفارغة، وذلك بسبب عجزه عن الإمداد، ولكنه غطى عجزه وغروره بهذا السبب الواهي، ناسياً أن صلاح الدين بطل عظيم من أبطال الإسلام وأن انجازاته أعظم بكثير من إنجازات المنصور، وأن صلاح الدين لا يمكن أن ينسلخ عن ولائه للخليفة العباسي من أجل الخليفة الموحدي.

ومهما يكن من شيء، فإن هذا لا يقدح في المنصور ومقدرته العسكرية والتنظيمية، وإنجازه الضخم في التغلب على عدو رهيب كالإسبان، كما وأن رغبته في الجهاد كانت ملتهبة، وكان مخلصاً في نواياه، وكان شخصاً مثقفاً آوى إليه ابن الطفيل وابن رشد. ولم يطل عهده، وذلك لأن جسمه كان ضعيفاً وتواترت عليه العلل حتى قضى نحبه بعد فترة ولاية لم تستمر أكثر من خمس عشرة سنة.

ويدل نص البيعة التي بايع بها الناس المنصور على رغبة في التشبه برسول الله، فقد ذكرت أنهم يبايعونه على ما بايع به أصحاب رسول الله ﷺ على السمع

والطاعة في المنشط والمكره واليسر والعسر، والنصح له ولولاته ولعامة المسلمين... ولكم عليه ألا يجمر بعوثكم، وألا يدخر عنكم شيئاً مما نعمكم مصلحته، وأن يعجل لكم عطاءكم، وألا يحتجب دونكم[1].

ولقد اقترن اسم المنصور بمعركة الأرك الشهيرة التي حطم بها قوى الأدفونش وأوقف المد الاسباني ولو إلى فترة. فقد استغل الأدفونش فرصة انشغال الخليفة بمشاكل المغرب فأرسل له رسالة مليئة بالتهديد، والتهكم والتحدي: وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً. ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا لا تستطيعون دفاعاً ولا تملكون امتناعاً... وقد حكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عاماً بعد عام، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى. فلا أدري أكان الجبن قد أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك[2]. ثم يقترح عليه، زيادة في التهكم، أن يرسل إليه المراكب لنقله إلى المغرب ليحارب المنصور هناك.

فلما وصل هذا الخطاب إلى المنصور أجابه على ذلك بالآية الكريمة ﴿إرجع إليهم فلنأتينّهم بجنودٍ لا قبل لهم بها ولنخرجنّهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ ثم أضاف: الجواب ما ترى لا ما تسمع[3].

ولعل هذه الرسالة كانت حافزاً للمنصور الذي حشد قواه، واصطدم مع قوى الأدفونش ٥٩١ هـ في معركة الأرك. وقبل المعركة مباشرة أرسل الخليفة منادياً ينادي بالجند: إن أمير المؤمنين يطلب أن يغفروا له، فان هذا موضع

---

(١) حركات. المصدر المذكور آنفاً ١/٣٢٩.

(٢) ابن خلكان. المصدر المذكور آنفاً ٦/٦ - ٧.

(٣) نفس المصدر.

غفران، وأن يتغافروا فيما بينهم، وأن يطيبوا نفوسهم وأن يخلصوا نياتهم له (١). فبكى الناس وصاحوا من جانبهم نطلب الغفران من الخليفة وأنهم بيمن نيته، وصدق طويته يرجون الخير من الرحمن (٢).

ولقد كانت نتيجة هذه النفوس الطيبة في تلك الساعة الحاسمة نصراً رائعاً على الأعداء.

ولم تطل حياة المنصور بعد هذا النصر العظيم، إذ تعاورت عليه العلل والأمراض حتى أنهكته. ولما شعر بدنو أجله جمع أشياخ الموحدين ورؤساء البلاد، ونعى لهم نفسه، وهم من جهتهم أعادوا توكيد البيعة بولاية العهد لولده الأمير عبد الله. ثم أوصى المنصور الحضور بالسادات، وبعض الأشياخ. ثم قال الخليفة المنصور بعد ذلك وعيناه تذرفان الدمع:

أوصيكم بتقوى الله، وبالأيتام، واليتيمة.

فسأله الشيخ أبو محمد عبد الواحد.

يا سيدنا يا أمير المؤمنين، ومن الأيتام واليتيمة؟

فقال: اليتيمة جزيرة الأندلس والأيتام سكانها المسلمون. وإياكم والغفلة فيما يصلح بها من تشييد أسوارها وحماية ثغورها وتربية أجنادها وتوفير رعيها، ولتعلموا أنه ليس في نفوسنا أعظم من همّها (٣)...

رحم الله المنصور الموحدي، لكأنه استشف حجب الغيب، وأدرك ما يخبئه القدر لتلك البقعة المنكودة من بلاد الإسلام والمسلمين، فأراد بوصيته هذه أن ينبه الغافلين ويشحذ الهمم للخطر الداهم، ولكن لا راد لما أراد الله. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) عنان. المصدر المذكور آنفاً. ٢/٢٠٣.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر. ٢/٢٣٦ ـ ٢٣٧.

٥ ـ الناصر الموحدي أبو عبد الله محمد ٥٩٥ ـ ٦١١ هـ/ ١١٩٩ ـ ١٢١٣ م.

كما يقرن اسم المنصور الموحدي بانتصاره العظيم في معركة الأرك، كذلك يقرن اسم ابنه الناصر بانهزامه الفاجع البالغ الأثر في معركة العقاب التاريخية. ذلك أن إسبانيا النصرانية، ومن ورائها البابوية وأوروبا كلها، حشدت قواها من جديد لتحطيم الإسلام في الأندلس، واصطدم الناصر بجيوش الإسبان في معركة العقاب، ولم يحسن الناصر القيادة، وأساء إلى شيوخ الموحدين وزعمائهم، فكانت النتيجة خسارة مروعة لمعركة فاصلة من معارك التاريخ، وخلف الموحدون زهرة جيوشهم في ساحة المعركة، وفروا هاربين إلى مأمنهم وبلادهم وتركوا الأندلس لمصيرها. ومنذ تلك المعركة بدأت حواضر الأندلس الكبرى في السقوط بيد الاسبان مثل بلنسية وقرطبة وإشبيلية، وما تبقى من الأندلس تمكن من طرد الموحدين وأعلن قيام مملكة غرناطة التي ظلت في الوجود حتى سنة ٨٩٧ هـ عندما احتلها الاسبان وأنهوا مجداً تليداً دام قرابة ثمانية قرون.

ولم يتميز من خلفاء الموحدين من هو جدير بالذكر، إذ أغلبهم نكرات وحكموا مدداً قصيرة وقضوا معظم وقتهم في إخماد الثورات في بلادهم، ولكن يجب أن نذكر الخليفة المأمون الموحدي الذي أصدر مرسوماً ألغى بموجبه عصمة المهدي، ذلك أن أئمة الموحدين وخلفاءهم كانوا يعتقدون بعصمة مؤسس حركتهم، وكانوا يفتتحون كتبهم بالدعاء للمهدي المعصوم الإمام المعلوم، فأصدر مرسومه وبعث به إلى الجميع وأخبرهم بما يلي: ولتعلموا أنا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق وأن لا مهدي إلا عيسى... فتلك بدعة قد أزلناها... وقد أسقطنا اسمه ولم تثبت له عصمة[1] كذلك يجب أن نذكر الخليفة الموحدي المرتضى الذي حكم بين سنتي ٦٤٠ و ٦٤٦ هـ لا لشيء إلا لكتابه الذي وجهه

---

(١) حركات. المصدر المذكور آنفاً. ١/ ٣٢٠ ـ ٣٢١.

إلى البابا أنوصان الرابع. وهذا، بحسب علمنا ومعرفتنا، أول خليفة مسلم يرسل رسالة إلى رأس الملة المسيحية في أوروبا، والمهم في هذه الرسالة هو إصرار مرسلها على تذكير البابا بوحدانية الله تعالى وتنزيهه عن أن يكون له ولد أو يدعى أنه والد: فإنا نحمد الله الذي لا إله إلا هو، حمد من علم أنه الرب الواحد الذي دلّت على وحدانيته البراهين القاطعة والشواهد، ونزهته العقول الراجحة عن أن يكون له ولد أو يدعى أنه الوالد، تعالى الملك الرحمن عما يقول المثلث والمشبه والجاحد (١).

ومن رسالته هذه تعرف أنه كانت بينه وبين البابا مراسلات سابقة، وأن البابا أرسل أحد كبار أساقفته إلى الموحدين ومملكتهم في مهمة من المهمات، ونفهم من هذه الرسالة أن الموحدين كانوا يستخدمون عدداً من النصارى لديهم كمرتزقة، وأن الخليفة كان بحاجة إلى من يوجه ولاء هؤلاء النصارى له ليخلصوا في خدمته، وهذا من رأينا، السبب الأهم في تراسله مع البابا، وفي استقباله مبعوثه. وهو يخبر البابا باستقباله مبعوثه بإكرام ويقول له: ومتى سنح لكم... أن توجهوا ولاء النصارى المستخدمين ببلاد الموحدين... من ترونه برسم ما يصلحهم في دينهم، ويجريهم على معتاد قوانينهم، فيتخيروه من أهل الفضل الراجح، والسمت الحسن، وممن يستلذ في النزاهة على واضح السنن (٢)...

و ـ مملكة غرناطة وبنو حفص وبنو مرين وبنو هود ٦٢٥ - ٨٩٧ هـ/١٢٣٢ - ١٤٩٢ م.

تمكن بعض الزعماء كابن هود وابن الأحمر من إنقاذ قسم ضئيل من الأرض الأندلسية من براثن الإسبان في غمرة الهزائم القاصمة التي مني بها الموحدون ضد الاسبان، وفي غمرة الاضطراب والفوضى اللذين شملا الامبراطورية الموحدية

---

(١) عنان. المصدر آنفاً. ٢/٧٣٩ - ٧٤١.

(٢) نفس المصدر.

من أقصاها إلى أدناها، وفي غمار الثورة العارمة التي اجتاحت الأندلس ضدهم، وتمركزوا في بقعة صغيرة من الأرض جعلوا عاصمتها مدينة غرناطة التي قدر لها أن تبقى صامدة في وجه غزوات الاسبان لها أكثر من قرنين ونصف من الزمان، هذا وإن صمود مملكة غرناطة هذه الفترة الطويلة من الزمن في وجه قوى تفوقها، وتغمرها يعود في رأينا إلى أسباب ثلاثة: أولها الدعم غير المحدود والمطلق الذي قدمه لها بنو مرين في المغرب الأقصى بشكل خاص، وكان ذلك من أكبر الأسباب التي مكنت غرناطة أن تقف على قدميها هذه الفترة الطويلة. وثانيها الشجاعة والذكاء اللذان امتاز بها عدد من ملوك غرناطة سواء على الصعيد المحلي، أم الصعيد السياسي، أم الصعيد العسكري أمثال السلطان إسماعيل، والسلطان محمد الرابع، والسلطان يوسف الأول والسلطان محمد الخامس الغني بالله، الذين تمكنوا بذكائهم وشجاعتهم ودهائهم أن يمدوا مملكتهم الصغيرة بأسباب الحياة فترة طويلة من الزمن. وثالثها الخلاف الذي كان ناشئاً بين مملكتي الإسبان الرئيستين قشتالة وأراغون ذلك الخلاف الذي كان أحد الأسباب في إطالة عمر مملكة غرناطة. ولقد استثمر ملوك غرناطة هذا الخلاف أفضل استثمار، وأبدوا مقدرة سياسية رائعة حتى تمكنوا من الحفاظ على وطنهم في وجه أقسى عدو وأشرسه عرفه المسلمون في شبه الجزيرة الايبرية. فلما اندمجت المملكتان الاسبانيتان في مملكة واحدة، وضعف بنو مرين وعجزوا عن إمداد مملكة غرناطة بالقوى اللازمة، ولما استلم العرش ملوك هزيلون ضعيفون فاسدون عاجزون أتت النهاية المحتومة لمملكة غرناطة التي سقطت بعد كفاح بطولي ملحمي أشبه بالأساطير، وكما يسقط الفارس الشجاع المعلم عن جواده بعد حرب ضروس ضد أعداء غير متكافئين، وبعد أن أثخن بالجراح القاتلة، فلم يستسلم ولم يهن حتى سقط إلى الأرض ميتاً وسيفه في يده.

ولقد ثار ضد الموحدين في شرقي الأندلس ابن هود، وأعلن خلاصه من سلطان الموحدين، وتلقب بملك المسلمين، وأرسل إلى الخليفة العباسي المستنصر

بالله سنة ٦٣٠ هـ خطاباً يعترف بتبعيته له ويطلب تقليداً شرعياً منه. وكان الخليفة العباسي عند حسن الظن به وأرسل لابن هود تقليداً شرعياً مزهواً، ملأه بالثناء على عمه العباس وعلى خلفاء بني العباس وأن النبي عليه السلام بشّر عمه العباس أن الخلافة في عقبه الى يوم القيامة(١) بعد ذلك ينتقل التقليد الى ذكر صفات ابن هود الخارقة، ويلقبه مجاهد الدين. وأول هذه الصفات ولاؤه للخليفة العباسي، ولذلك قلده الخليفة حكم بلاد الأندلس وما يجري مجراها وما يفتتحه من ممالك أهل الشرك والعناد تقليداً صحيحاً شرعياً(٢) ثم ينتقل التقليد الى الوصايا المعروفة المألوفة في مثل هذه العهود: من تقوى الله عزّ وجل والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(٣)...

وإن المرء ليعجب من هؤلاء القوم كيف كانوا يتمسكون بمثل هذه الأمور البسيطة التافهة، على الرغم من معرفتهم بتفاهتها. فابن هود يعلم أن تقليد الخليفة لا يقدم ولا يؤخر، وكذلك يعلم شعب الأندلس أنه لا يمكن أن تأتيه مساعدة ما من الخليفة، كما وأن الخليفة نفسه يعلم أن تقليده عبارة عن كلمات جوفاء، والكل يعلم ذلك، ولكن الجميع يصرون على التمسك بهذه المظاهر التي ليس لها في ميزان القوى وزن يعادل وزن جناح بعوضة. فهذا القاضي أبو المطرف يرسل رسالة، هي عبارة عن قطعة أدبية رائعة، إلى ابن هود يهنئه بوصول هذا التقليد العظيم وكأنما وصلته قوة ضاربة تستطيع تعديل ميزان القوى المنهار لصالح المسلمين ضد الاسبان(٤). ولكن الأمر لم يطل بابن هود، إذ انتهى أمره وأمر أسرته بعد فترة، وحل محله آل نصر - ويسمون أيضاً آل الأحمر - في حكم ما تبقى من الأندلس.

---

(١) ابن الخطيب، المصدر المذكور آنفاً، ٢٨٠ - ٢٨٥.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) المقري. المصدر المذكور آنفاً ٢٨٩/١ - ٣٠٠.

ولقد تلقب ملوك آل نصر بلقب أمير المسلمين. وقد أدركوا الوضع الصعب الذي وجدت فيه مملكتهم، ولذلك كيفوا سياستهم الخارجية حسب الوضع الذي وجدوا فيه. فقد أقاموا علاقات ود وصداقة مع ملوك المغرب الأقصى وخاصة بني مرين. كذلك حاولوا أن يوجدوا توازناً بعلاقاتهم الخارجية بين مملكتي قشتالة وأراغون ونجحوا في ذلك إلى حد مدهش. ولقد ذكر الأستاذ المرحوم الأمير شكيب أرسلان في كتابه: **الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية** أن المرحوم الحاج محمد العربي بنونة من تطوان أهداه عدداً كبيراً من الوثائق الأندلسية هي رسائل وجهها ملوك غرناطة إلى ملوك أراغون. وقد نشر الأمير شكيب أرسلان عدداً مهماً من هذه الرسائل في كتابه سالف الذكر وأثبتناها نحن في كتابنا هذا. ويذكر أن عدد الرسائل التي وصلته أكبر بكثير مما نشر، إلا أن تقادم العهد طمس خط أكثرها، وعبث الأرضة جعل قراءتها صعبة متعذرة، وبعد الجهد المضني تمكن السيد محمد العربي من نسخ هذا العدد القليل من المراسلات الكثيرة التي اتضح له خطه وتسنى له ضبطه.

وكما قلنا سابقاً: أغلب هذه الوثائق رسائل وجهها ملوك غرناطة إلى ملوك أراغون، وقليل منها يوجهه أحد وزراء سلاطين غرناطة إلى ملك أراغون أو أحد أبنائه، كما فعل رئيس جند غرناطة عثمان بن إدريس زمن السلطان إسماعيل ابن فرج عندما وجه رسالة الى ملك أراغون خايمي الثاني، وكما فعل رضوان وزير السلطان يوسف الأول عندما وجه رسالة الى ألفونسو ملك أراغون، هذا وتغطي هذه الرسائل التي ينوف عددها على السبعة والعشرين عهد أربعة من ملوك غرناطة هم محمد الثالث (٧٠١ - ٨٠٧) وإسماعيل الأول (٧١٣ - ٧٢٥)، ومحمد الرابع (٧٢٥ - ٧٣٣)، ويوسف الأول (٧٣٣ - ٧٥٥)، يقابلهم من ملوك أراغون خايمي الثاني وألفونسو الرابع ودون بترة. والغريب في الأمر أن أسماء هؤلاء الملوك ترد في هذه الرسائل بأشكال مختلفة: مثل: ذون جقمي، دون جايم، الفنش، الهنشو، بطرة، بترة، وهكذا.

هذا وإن أسلوب هذه الرسائل واحد وديباجتها متماثلة: تفتتح بالبسملة والصلاة على رسول الله عليه السلام ثم تنتقل الى ذكر سلطان أراغون وتحرص على ذكر ألقابه وشيء من الدعاء له، ثم تنتقل الى ذكر اسم السلطان الغرناطي، وأحياناً تذكر اسم البلدان التابعة له، بعد ذلك تنتقل الرسالة الى ذكر الغرض والهدف منها: السلطان المعظم، الملك المرفع الأدنى الأكرم، المبرور المشكور، الأخلص دون جاقمي ملك أراغون وبلنسية وسردانية وقرسفة وقمط برجلونة، وصل الله عزّه بتقواه وأسعده بطاعة الله ورضاه، مكرم جانبه، وشاكر مقاصده في الوفاق ومذاهبه، وحافظ عهده عملاً بواجبه الأمير عبد الله إسماعيل بن فرج ابن نصر. أما بعد: فإنا كتبناه إليكم... من حمراء غرناطة ـ كلأها الله ـ وليس بفضل الله سبحانه إلاّ الخير الأكمل واليسر الأشمل، والحمد لله كثيراً، وجانبكم مبرور وعهدكم بالوفاء محفوظ، وقصدكم في الصحبة مشكور، ومنصبكم في ملوك النصرانية معلوم مشهور (١)...

بعد ذلك تنتقل الرسالة الى ذكر الغرض منها. والخاتمة أيضاً موجزة وهي عبارة عن دعاء للملكين ثم تاريخ الرسالة: والله يقضي الخير لنا ولكم وهو سبحانه يصل إعزازكم بتقواه ويحملكم على ما يحبه ويرضاه، ويوالي لكم أسباب عنايته ويوضح لكم طريق هدايته، والسلام يراجع سلامتكم كثيراً أثيراً. وكتب في يوم كذا من تاريخ كذا (٢).

وبعض هذه الرسائل اقتراح بعقد معاهدة صداقة ومودة بين الطرفين وبعضها شكايات من خرق بنود ونصوص اتفاقات سابقة، وطلب في إعادة الحق إلى نصابه، فقد وجه السلطان إسماعيل إلى دون خايمي ملك أراغون رسالة يخبره

---

(١) أرسلان شكيب، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، بيروت، مكتبة دار الحياة ٢/٢٩٠ ـ ٢٩١.

(٢) نفس المصدر.

فيها أن رسوله الذي أرسله برسالة منه يقترح عقد صلح ومودة بين الطرفين مدتها خمس سنين قد وصل وأبلغه اقتراح الملك وأن السلطان موافق على ذلك، وأن رسالته هذه الموقعة بيده وبتوقيعه وشعاره السلطاني دليل على ذلك. وشروط الصلح ذكرها السلطان في رسالته وهي الأمان للطرفين براً وبحراً، وحرية التجارة، والتبادل التجاري بين الطرفين، وتبادل الأسرى. وهناك شرط خاص بالأندلس ذكره الملك محمد الثالث وكذلك ذكره بقية ملوك غرناطة في معاهداتهم مع ملوك الإسبان، وهو الإصرار على السماح للمدجنين المقيمين في أراضي الملك الإسباني بحرية الإنتقال إلى بلاد الإسلام، مؤمنين على أرواحهم وأنفسهم وأهليهم وأموالهم: ومنها أن لا تمنعوا من أراد الخروج إلى أرض المسلمين المدجنين الساكنين بأرضكم بأهلهم وأولادهم، وأن يباح لهم الوصول إلى أرضنا سالمين، مرفوعاً عنهم الاعتراض من غير شيء يلزمهم، إلا الغرم المعتاد على ما جرت به العادة من غير زيادة على ذلك[1].

وبعضها شكاية من غارة أطلقت من طرف أحد الجانبين على الآخر، أو طلب بإخلاء سبيل أفراد أسرهم الفريق الآخر، قصداً أو دون قصد، أو تعويض عن خسارة تجارة أو ما شابه ذلك. ففي إحدى هذه الرسائل يطلب السلطان محمد الرابع من الدون خايمي ملك أراغون أن يبذل جهده لإطلاق سراح عدد من المسلمين أسرهم إسبانيون تابعون لملك أراغون، وباعوهم في مملكته: وقد وجهنا إليكم صحبة رسوليكم أربعة من النصارى من أرضيكم، فقصدنا منكم، أيها السلطان، أن توجهوا إلينا المسلمين الذين أخذتهم أجفانكم في سلوة... ثم بيعوا بميورقة، وتعملوا في ذلك ما يقتضيه، وفاؤكم الصادق. ونحن قد أمرنا أن يبحث عما أخذ من أرضكم من النصارى في الصلح، ويعمل في ذلك ما هو الواجب. ومما نعرفكم به أنه في هذه الأشهر السالفة أخذ عمر بطره

---

(١) نفس المصدر ٢/٢٩٤ ـ ٢٩٦.

أغرد من سكان أريولة شبطياً[1] في المدور، وأخذ بطرف الغيطة اثني عشر شخصاً من أهل المرية، فنريد منكم، أيها السلطان، أن يعز عليكم هذا الحال، وتعملوا ما يعمله سلطان مثلكم، وتوجهوا إلينا هؤلاء المسلمين، وتأمروا رجالكم بكف الضرر عن أرضنا على المعلوم من وفائكم وحفظكم للعهد[2].

هذا هو محتوى الغالبية العظمى من هذه الرسائل، وهي تلقي ضوءاً ساطعاً على العلاقة الدبلوماسية بين ملوك أراغون وملوك غرناطة، ولا تخرج بقية الرسائل عن هذا المحتوى.

وهناك سلطان من سلاطين غرناطة لا بد من ذكره والتنويه به، وتخصيص حيز له، وللوثائق الصادرة عنه. هذا السلطان هو محمد الخامس الغني بالله، الذي حكم بين سنتي ٧٧٥ و ٧٩٣، مع فترة انقطاع بين سنتي ٧٦٠ و ٧٦٣ هـ حيث جرت ضده مؤامرة خلع على أثرها عن العرش، ثم عاد بعد ذلك، وظل في الحكم حتى وفاته. يمتاز هذا السلطان بذكائه ونشاطه وشخصيته القوية، ودهائه وعلاقاته السياسية مع ملوك الإسبان، وملوك بني مرين في المغرب الأقصى ومع حكام مصر وملوكها من المماليك، وقد منح مملكته فترة من الاستقرار النسبي، ونبغ في كنفه الأديب والوزير المشهور لسان الدين بن الخطيب الذي كان علماً من أعلام النثر العربي وذا مدرسة خاصة هي امتداد وتطوير لمدرسة كبار الكتاب الذين نبغوا زمن الأيوبيين والمماليك أمثال القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني وابن عبد الظاهر وغيرهم. ويمتاز أسلوبه بالنفس الطويل والسجع المرصع، واستعمال المحسنات البديعية، واللفظية بكثرة هائلة، ولكن، مع ذلك، يبقى أسلوبه رشيقاً غير ممل، وإن تكن الأفكار تختنق تحت مثل هذا الغطاء اللفظي الهائل. وهو مؤلف غزير، وترك عدداً كبيراً من الكتب وعاش حياة حافلة

---

(١) الشبطي هو رئيس العصابة أو الغازي على رأس مجموعة من الشجعان.

(٢) نفس المصدر ٣٠٦/٢ ـ ٣٠٨.

ومضطربة، وأخيراً فقد حظوة سلطانه، ونفي إلى المغرب الأقصى، وهناك قتل ودفن.

هذا وإن أغلب أو كل الوثائق الموجودة عندنا من زمن السلطان الغني بالله هي من إنشاء ابن الخطيب، وبعضها مراسيم. والأندلسيون يسمون المرسوم ظهيراً، أصدرها السلطان لشؤون داخلية، مثل ذلك مرسومه الذي أصدره يعين بموجبه ابنه الأمير يوسف مشيخة الغزاة في الأندلس[١].

وتبرز في هذا المرسوم صفات ابن الخطيب، ومميزات أسلوبه. فالإطناب بالوصف والمبالغة المفرطة والتشابيه، والاستعارات، والكنايات، والترصيع، والسجع أشياء شائعة كل الشيوع. وإن الموضوع الرئيسي يختفي كل الاختفاء تحت ظل هذه الأشياء. فهو عندما يصف الأمير يوسف يصفه بما يلي: فهو الفرع الذي جرى فضله على أصله، وارتسم نصره في نصله، واشتمل حده على فضله، وشهدت ألسن خلاله برفعة جلاله، وظهرت دلائل سعادته، في بدء كل أمر وإعادته، لما صرف وجهه إلى ترشيحه، لافتراع هضاب المجد البعيد المدى وتوشيحه، بالصبر والحلم والبأس والندى[٢]...

ولا تخرج بقية مراسيمه عن هذا المضمار.

ولقد أرسل السلطان الغني بالله رسالتين: الأولى إلى السلطان المملوكي الملك المنصور محمد بن حاجي الأول بن محمد الناصر بن قلاوون، والثانية إلى أمير مملوكي هو الأمير يلبغا الخاصكي. وإن الألقاب التي يطلقها ابن الخطيب على السلطان المملوكي تملأ صفحة كاملة، ولو صدق لقب واحد منها لجعله أعظم من عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولكنها ألقاب لا تسمن ولا تغني من جوع. وقد أخطأ ابن الخطيب باسم السلطان فأسماه باسم أحمد، على أن الصواب ما

(١) المقري المصدر المذكور آنفاً. ٢/٤٩ - ٥٢.

(٢) نفس المصدر.

أثبتناه أعلى. والغاية من الرسالة هي شرح أوضاع الأندلس، وكيف أنها تحارب حرباً لا هوادة بها ضد عدو يفوقها أضعافاً كثيرة، وأن لا ناصر لها إلا الله، ويتطرق ابن الخطيب في رسالة سلطانه هذه إلى التاريخ الأندلسي من أوله حتى زمانه هو، ويذكر شيئاً من الحروب التي دارت بين سلطانه وبين الاسبان، وكيف أن الحرب كانت سجالاً بين الطرفين ثم انتصر المسلمون.

وختم رسالته هذه بأن هذه الرسالة هي تجديد لعلاقات مودة كانت قائمة بين جد السلطان الغرناطي ووالد السلطان المملوكي، ويأمل أن تتجدد العلاقات وتتطور [١].

ولا يخرج مضمون رسالته إلى يلبغا الخاصكي عن مضمون الرسالة السابقة.

وفي إحدى رسائله، يخبر الغني بالله أحد رؤساء تونس بمحاولة خلعه عن العرش، تلك المحاولة التي قام بها أخوه، وتمكن من خلعه، والحلول محله فترة ثلاث سنوات ثم استعاد الغني عرشه بمساعدة آل مرين وقضى على المتآمرين، واسمعه يقول: وربما اتصلت بكم الحادثة التي أكفأها على دار ملكنا من لم يعرف غير نعمتها غاذياً... متيمم حجرها الكافل، ورضيع درها الحافل، الشقي الخاصر الخائن الغادر، محمد بن إسماعيل المستجير بنسبنا من لؤم غدره، الخفية عنا حيل مكره لخمول قدره... [٢] ثم يذكر له كيف فاجأه أخوه في الليل وكيف هرب إلى مراكش، ومن هناك جمع جموعه، وعاد ظافراً إلى دار ملكه وأن عودته كانت برداً وسلاماً على الأندلس، وإنقاذاً لها من الدمار: فلولا أن الله عزّ وجل تدارك جزيرة الأندلس بركابنا، وعاجل أوارها بانسكابنا لكانت القاضية... [٣].

---

(١) نفس المصدر ١/٢٠٠ - ٣٠٥.

(٢) نفس المصدر ٩/٣٦ - ٤١.

(٣) نفس المصدر.

ولا تختلف رسائله إلى سلطان بني مرين عن تلك التي وجهها إلى الآخرين، علماً أن بني مرين لهم مكانة خاصة لدى سلاطين غرناطة لإمدادهم الدائم لهم بالمال والرجال والعتاد،

ولقد وجدت علاقات ود وصداقة أيضاً بين بني مرين في مراكش، وبين حكام مصر من المماليك، وقد سبق للسلطان المريني أبي الحسن أن تبادل الرسائل مع السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون وقد استمرت هذه العلاقة زمن ابنه السلطان إسماعيل، فقد أرسل السلطان المريني رسالة إلى السلطان المملوكي كال لنفسه ولنظيره المملوكي الألقاب الفارغة، وحدثه عن والده وعن الصداقة التي كانت بينهما، وكيف أنه أرسل وفداً وحدثه عن والده وعن الصداقة التي كانت بينهما، وكيف أنه أرسل وفداً مغربياً إلى الحج عن طريق مصر، ومع الوفد مصحفان خطتهما يد السلطان المغربي، وكيف أن السلطان الناصر أحسن استقبال الوفد، وسهل طريقه، وحاطه بالرعاية والحماية، والإكرام، والانعام، وسمح لأعضاء الوفد بشراء أوقاف في المدينة المنورة من أجل رعاية المصحفين، وكيف أن ذلك وقع من السلطان المغربي أحسن موقع وأجمله، ثم ينتقل السلطان المغربي إلى تعزية السلطان إسماعيل بوفاة والده وتهنئته بالملك الذي ورثه عن والده. مع أجمل التهاني وأعذب الأمنيات. بعد ذلك يطلب إليه أن يسهل طريق موفده إليه إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج ولتفقد أحوال الأوقاف التي تم شراؤها زمن أبيه الناصر.

هذا، وإن من أشق الأمور على النفس الإنسانية، أن تتحدث بصراحة وصدق عن معركة خاضتها ضد خصم شرس وهزمت فيها. وهذا ما فعله هذا السلطان العظيم المجاهد، إذ أنه اعترف بخسارته المروعة أمام الاسبان براً وبحراً. ذلك أن ملك قشتالة جمع قواته، وأمدته أوروبا كلها، وهاجم مملكة غرناطة، وكان قصده قطع اتصالها مع المغرب، وقد تم له ذلك وهزم القوات الإسلامية

في معركة طريف هزيمة منكرة، وخسر الأسطول المغربي سبعاً وستين قطعة غزوية أجرها عند الله يدخر[1]. كذلك أرسل جيشاً ضخماً للأندلس، ولكن هذا الجيش حوصر في الجزيرة الخضراء بعد هزيمة الأسطول. غير أن السلطان المغربي تمكن من استعادة جبل طارق من القشتاليين، وبذلك أمن نقطة اتصال مع الأندلس، وقد كتب إلينا سلطان الأندلس يرغب في الاذن له في عقد الصلح، ووقع الاتفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح، فأذنا له فيه الاذن العام...[2] هنالك دعى النصارى إلى السلم فاستجابوا... فتم الصلح إلى عشر سنين، وخرج من بها [الجزيرة الخضراء] من الفرسان ورجال وأهل وبنين، ولم يرزؤا مالاً ولا عدة، ولا لقوا في خروجهم غير النزوح عن أول أرض مس الجلد ترابها شدة[3].

رحم الله السلطان أبا الحسن المريني، فقد كان، إلى جانب جهاده العظيم، وتقواه، وبلائه في نصرة الأندلس، عظيماً في تواضعه، عالياً في هزيمته صادقاً مع نفسه ومع من حوله فاستحق ثناءنا وثناء كل من يفتقدون هذه الصفات لدى هؤلاء الحكام في هذه الأيام.

ولقد ردّ السلطان إسماعيل بن الناصر التحية بأحسن منها، وأجاب رسالة محكمة مدبجة رد فيها على كل ما ورد في رسالة السلطان المغربي، وتقبل عزاءه في والده وشكره لتهانيه القلبية على تسلمه عرش المملكة، وأخبره أن الود الذي كان قائماً بين السلطان المغربي ووالد السلطان إسماعيل سيستمر وسيزداد قوة في عهد ولده إسماعيل، وأنه استقبل الوفد، وقد سهل مهمته وطريقه، ثم أبدى ألمه لما

---

(١) نفس المصدر ٦/١٢٠ ـ ١٢٩.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.

حلّ بالسلطان من هزيمة وما أصابه من خسائر، وتمنى لو أمكن النجدة لفعل ثم يذكر له أن أجر ذلك مدخّر له عند الله تعالى[١].

نصل الآن إلى نهاية القصة، وهي نهاية محزنة مؤلمة لقصة مجيدة، تقص علينا كيف انتهى ذلك المجد العظيم، وكيف هوى ذلك الصرح الباذخ من صروح الإسلام المجيدة. فقد توحدت مملكتا أراغون وقشتالة تحت عرشي فرناند وإيزابيلا، وضعف ملوك بني مرين كل الضعف، وحل محلهم آل وطاس، كما وأن قوى الأندلس استنزفت في هذا الصراع الطويل الدامي المنهك غير المتكافىء، ومزقتها الفتن والحروب والدسائس والصراع على العرش فاضطر آخر ملوك غرناطة أبو عبد الله الصغير أن يطلب السلم من المنتصرين الذين قطعوا كل اتصال للأندلس من كل الجهات، وحاصروا غرناطة حصاراً لا يمكن فكه إلا بالاستسلام. وقد تم ذلك ووقعت وثيقة الاستسلام في الحادي والعشرين من محرّم سنة ٨٩٧ هـ الموافق ١٤٩١/١١/٢٥ م.

وقد أخذ أهل غرناطة لأنفسهم من المواثيق والعهود أشدها وما اعتقدوا أنه يحميهم ويحمي أعراضهم وأرواحهم وأنفسهم وأولادهم وأموالهم وعقيدتهم من الاضطهاد، ولكن كل ذلك كان سدى، إذ أن المنتصرين نقضوا عرى هذا الاتفاق عروة عروة. ومتى كانت أوروبا ترعى ذمة أو تحفظ عهداً بل العكس تماماً هو الصحيح، ولكن المغلوب العاجز لا حيلة له سوى الركون إلى مثل هذه الأمور، لأنه إن لم يفعل ذلك تطور الوضع إلى أسوأ.

فقد نصّت معاهدة التسليم على أن تسلم قلاع الحمراء والحصن وأبواب غرناطة والبيازين إلى الملكين الإسبانيين خلال ستين يوماً من تاريخ توقيع الاتفاق، وأن يقدموا رهائن من علية أهل غرناطة ضماناً لحسن تنفيذ هذا الاتفاق. ويتعهد

---

(١) نفس المصدر ١٢٩/٦ ـ ١٣٥.

الملكان الإسبانيان ومن سيأتي بعدهما من الحكام الآن وإلى الأبد أن يتركوا الشعب الأندلسي يحكم بموجب شريعته، وأن تترك لهم مساجدهم «وأن تترك لهذه المساجد أوقافها. كما وأن الملكين يسمحان لمن يريد العبور إلى المغرب أن يعبر بأمواله وأهله، ويمنحهم الملكان الحماية والرعاية حتى يصلوا إلى مأمنهم؛ وأن يعامل الجميع على أساس أنهم رعايا خاضعون لملك إسبانيا، وأن لا يلزموا بوضع شارة تميزهم عن غيرهم، وألا يجبروا على التنصر، وأن يحكم بينهم حكام وقضاة مسلمون بموجب الشريعة الإسلامية. هذه هي أهم بنود الاتفاق، وقد ذيل الاتفاق بتعهد خطي من ملك وملكة إسبانيا ووقع عليه ولي العهد والعظماء، يؤكد بموجبه الملكان ويضمنان بدينهما وشرفهما الملكي القيام والوفاء بكل ما يحويه هذا العهد من نصوص... الآن وإلى الأبد [1].

كما وأن هذا العهد ذيل بذيل يضمن بموجبه الملكان حقوق وامتيازات أبي عبد الله الصغير وحقوق نسوته وأولاده وأمه، ويضمنان ما يملكونه الآن وإلى الأبد، مع الاعفاء من الضرائب، ولهم حق بيعها وهبتها والتصرف بها وتوريثها لأعقابهم من بعدهم، وإذا أحب الملك أبو عبد الله ونسوته وأمه العبور الى المغرب فلهم ذلك، ولهم الحق في الاحتفاظ بأملاكهم أو بيعها [2].

ولقد ظن أبو عبد الله الصغير أنه يستطيع البقاء في الأندلس بعد سقوطها بيد الاسبان وبعد أن أصبح تابعاً بعد أن كان متبوعاً ولكنه كان واهماً وبدأت المضايقات، كذلك وأصبح وجوده مصدر ازعاج للملكين الكاثوليكيين، وأخيراً تفاوض الطرفان وتقرر أن يتنازل أبو عبد الله الصغير عن كل حقوقه وامتيازاته وأملاكه للملكين لقاء مبلغ من المال دفع إليه [3]، وانتقل إلى المغرب مع أسرته،

---

(١) عنان، محمد عبد الله. نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين. الطبعة الثالثة. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٦ م. ص٢٤٥ ـ ٢٥٠.

(٢) نفس المصدر ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.

(٣) نفس المصدر ص ٢٧٧

مسجلاً بذلك انتهاء عهد من أمجد عهود الحضارة الإسلامية ومفتتحاً عهداً من أسوأ عهود التاريخ الاسباني الأسود المتعصب هو عهد اضطهاد الموريسكيين الذين ظلوا في صراع مستميت مع حكام اسبانيا ومع الكنيسة الكاثوليكية المتعصبة في إسبانيا مدة تنوف على القرن حتى أخرجهم الاسبان من الأندلس جملة واحدة في مفتتح القرن السابع عشر.

ز ـ المدجنون والموريسكيون.

المدجنون: لفظ أطلق على المسلمين الذين بقوا في بلاد الأندلس التي احتلها الاسبان وحافظوا على دينهم وعاداتهم فيها، وذلك في جميع الأمكنة التي احتلها الاسبان قبل سقوط غرناطة بيدهم. أما الموريسكيون: فلفظ أطلق على المسلمين الذين بقوا في مملكة غرناطة بخاصة وظلوا متمسكين بدينهم وعاداتهم على الرغم من الاضطهاد الرهيب الذي تعرضوا له.

ولقد اكتشف عدد كبير من الوثائق المدجنية المحفوظة بدار المحفوظات التاريخية بمدريد، وأغلبها عقود تمت بين المستعربين أو بينهم وبين المدجنين «وبه تستعين» أو «الحمد لله وحده» وعلى كثير منها شهود مدجنون مسلمون إلى جانب النصارى.

ولقد ترك الموريسكيون لمصيرهم الفاجع، ولم يستطع أحد أن يقدم لهم عوناً لقوة اسبانيا المسيحية آنذاك وضعف الدول الإسلامية المجاورة لها. ولم يستطع العثمانيون، القوة الإسلامية الوحيدة الموجودة آنذاك في البحر المتوسط، باستثناء المماليك المنحدرين نحو التحلل والانهيار، أن تعمل شيئاً لانقاذ هذا الشعب التعس أو تخفيف آلامه. وقد تمكن أحد فقهاء مراكش أن يسرب إلى الموريسكيين، ويسميهم الغرباء، رسالة يبين لهم الطرق الشرعية التي يمكن أن يلجأوا إليها حتى يتمكنوا من ممارسة شعائر الإسلام خفية: فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم... والغسل من الجنابة ولو عوماً في

البحور[١]... وإن أكرهوكم على كلمة الكفر، فإن أمكنكم التورية والإلغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك...[٢].

وهناك قصيدة موريسكية قالها شاعر مسلم اسمه محمد بن محمد يصف آلام شعبه التي تذيب الصخر ويصور الاضطهاد الذي يصب عليهم، أروع تصوير وأبشعه:... ومن عبد الله بلغته قضي عليه بالهلاك، ومن ضبط ألقي في السجن، وعذب ليل نهار حتى يرضخ لباطلهم[٣]. ثم يختم قصيدته بما يلي: ونحن إذ نيأس من عدل الإنسان نستغيث بالنبي معتمدين على ثواب الآخرة، وقد حثّنا شيوخنا على الصلاة والصوم، وأن نقصد وجه الله فهو الذي يرحمنا في نهاية الأمر[٤].

رحم الله هؤلاء الأبطال المجهولين الذين ضحوا بحياتهم وتحملوا أقسى ما يتحمله انسان في سبيل عقيدته، وقد سجّل هؤلاء الأبطال أنهم مشاعل تنير الطريق أمام الأجيال الصاعدة تعلمها كيف يكون الثبات على العقيدة وكيف تكون التضحية في سبيل المبدأ. وفي نفس الوقت دمغ هذا العمل إسبانيا بالوحشية والفظاظة والعداء للجنس البشري الذي كلف كثيراً من البشر أرواحهم وكان نقمة على الملايين من بني الانسان، وأثبت أنه كان أكبر نقمة أصيبت بها إسبانيا المسيحية المتعصبة نفسها.

---

(١) نفس المصدر ص٣٤٢ - ٣٤٤.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر ص٣٩٢ - ٢٩٣.

(٤) نفس المصدر.

مصادر البحث

١ ـ ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي. **كتاب الحلة السيراء** تحقيق حسين مؤنس. القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٣ م.

٢ ـ ابن أبي الحديد. **شرح نهج البلاغة** تحقيق حسن تميم. بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٣ م.

٣ ـ ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي. **التاريخ الباهر في تاريخ أتابكة الموصل.**

٤ ـ ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي. **الكامل في التاريخ.** القاهرة، دار الطباعة المنيرية ١٣٥٦ هـ.

٥ ـ ابن تغري بردي. **النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة.** القاهرة، دار الكتب، ١٩٢٩ م.

٦ ـ ابن الجوزي، علي بن عبد الرحمن. **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.** حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٩ هـ.

٧ ـ ابن حيان الأندلسي. **المقتبس في أخبار بلد الأندلس.** تحقيق عبد الرحمن علي الحجن. بغداد، دار الثقافة، ١٩٦٥ م.

٨ ـ ابن حيان الأندلسي. **المقتبس من أبناء أهل الأندلس.** تحقيق محمود علي مكه، بغداد، دار الكتاب العربي، ١٩٧٣ م.

٩ ـ ابن الخطيب، لسان الدين. **تاريخ إسبانيا الإسلامية...** تحقيق ليفي بروفنسال. بيروت، دار المكشوف، ١٩٥٦ م.

١٠ - ابن خلدون، عبد الرحمن. **كتاب العبر...** بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٧١ م.

١١ - ابـن خلكـان، أبـو العبـاس شمس الديـن أحمد بـن محمد. **وفيـات الأعيان...** تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨ م.

١٢ - ابن الساعي الخازن. **الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير.** تحقيق مصطفى جواد. بغداد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، ١٩٣٤ م.

١٣ - ابن شاكر الكتبي، محمد بن أحمد. **فوات الوفيات.** تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية. ١٩٥١ م.

١٤ - ابن شداد، أبو عبد الله محمد بن علي. **الأعلان الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة.** تحقيق سامي الدهان. دمشق المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية.

١٥ - ابن شداد، أبو عبد الله محمد بن علي. **كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية.** تحقيق جمال الدين الشيال. القاهرة.

١٦ - ابـن صـاحـب الصلاة، عبـد الملـك. **تـاريـخ المن بـالإمـامـة على المستضعفين...** تحقيق عبد الهادي التازي. بيروت، دار الأندلس، ١٩٦٤ م.

١٧ - ابن الطقطقي، فخر الدين محمد علي بن طباطبا. **الفخري في الآداب السلطانية والأمم الإسلامية.** القاهرة، ١٩٢٣ م.

١٨ - ابن طولون، شمس الدين محمد. **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان.** تحقيق محمد مصطفى. القاهرة، المؤسسة المصريـة العـامـة للتـأليـف... ١٩٦٤ م.

١٩ ـ ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد. **العقد الفريد.** تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وأحمد الأبياري. الطبعة الثالثة. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٥ م.

٢٠ ـ ابن عبد الظاهر، محي الدين. **تشريف الأنام والعصور في سيرة الملك المنصور.** تحقيق مراد كامل. القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٩ م.

٢١ ـ ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس. **تاريخ مختصر الدول.** تحقيق أنطون صالحاني. بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٨٩٠ م.

٢٢ ـ ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد. **زبدة الحلب من تاريخ حلب.** تحقيق سامي الدهان. دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٥١ ـ ١٩٦٨ م.

٢٣ ـ ابن عذاري المراكشي، أبو العباس. **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.** تحقيق ج.ش. كولون و أ. ليفي بروفنسال. بيروت، دار الثقافة.

٢٤ ـ ابن عذاري المراكشي، أبو العباس. **البيان المغرب... الجزء الرابع قطعة من تاريخ المرابطين.** تحقيق إحسان عباس. بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧ م.

٢٥ ـ ابن العماد الحنبلي. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب.** القاهرة، مكتبة القدسي، ١٣٥١ هـ.

٢٦ ـ ابن الفرات، ناصر الدين محمد. **تاريخ ابن الفرات.** بيروت، المطبعة الأمريكية، ١٩٤٢ م.

٢٧ ـ ابن الفرات، ناصر الدين محمد. **تاريخ ابن الفرات.** تحقيق الشماع. البصرة.

٢٨ ـ ابن قاضي شهبة، بدر الدين. **الكواكب الدرية في السيرة النورية.** تحقيق محمد زايد. بيروت، دار الكتاب الجديد.
٢٩ ـ ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم. **الإمامة والسياسة.** تحقيق محمد محمود الرافعي. القاهرة، مطبعة النيل، ١٩٠٤ م.
٣٠ ـ ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم. **عيون الأخبار** نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب القاهرة، وزارة الثقافة، ١٩٦٣ م.
٣١ ـ ابن القطان. **جزء من كتاب نظم الجمان لابن القطان.** تحقيق محمود علي مكة. الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
٣٢ ـ ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة. **ذيل تاريخ دمشق.** تحقيق أمدروز. بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨ م. أعادت مكتبة المتن طبعه بالأوفست.
٣٣ ـ ابن القوطية. **تاريخ افتتاح الأندلس.** مجريط، ١٨٦٧ م.
٣٤ ـ ابن كثير، إسماعيل. **البداية والنهاية في التاريخ.** القاهرة، المطبعة السلفية، ١٩٣٢ م.
٣٥ ـ ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد. **تجارب الأمم وتعاقب الهمم.** تحقيق أمدروز، ١٩١٦ م.
٣٦ ـ ابن منجب الصيرفي. **الإشارة إلى من نال الوزارة.** تحقيق عبد الله مخلص. المعهد الفرنسي.
٣٧ ـ ابن واصل، جمال الدين. **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب.** تحقيق جمال الدين الشيال. القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
٣٨ ـ ابن سعد، محمد. **الطبقات الكبرى.** بيروت، دار صادر.
٣٩ ـ أبو حنيفة الدينوري. **الاخبار الطوال.** بغداد، المكتبة العربية.
٤٠ ـ أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن. **كتاب الروضتين في أخبار**

الدولتين النورية والصلاحية. تحقيق محمد حلمي محمد أحمد. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦ م.
٤١ ـ أبو شجاع، محمد بن الحسين الروذراوري. **ذيل تجارب الأمم**. تحقيق أمدروز. القاهرة، شركة التمدن الصناعية، ١٩١٦ م.
٤٢ ـ أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل. **المختصر في أخبار البشر**. القسطنطينية، ١٢٨٦ م.
٤٣ ـ أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين. **الأغاني**. بيروت، دار الفكر للجميع، ١٩٧٠ م.
٤٤ ـ أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين. **مقاتل الطالبيين**. تحقيق السيد أحمد صقر. القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٩ م.
٤٥ ـ أرسلان، شكيب. **الحلل السندسية في الأخبار والآثار الاندلسية**. بيروت، مكتبة دار الحياة.
٤٦ ـ البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر. **كتاب أنساب الأشراف**. القدس، ١٩٣٨ م.
٤٧ ـ البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر. **كتاب فتوح البلدان**. القاهرة، شركة طبع الكتب العربية، ١٩٠١ م.
٤٨ ـ البلوي، أبو محمد عبد الله بن محمد. **سيرة أحمد بن طولون**. تحقيق محمد كرد علي. دمشق، المكتبة العربية، ١٣٥٨ م.
٤٩ ـ توفيق، عمر كمال. **مقدمات العدوان الصليبي...** القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٧ م.
٥٠ ـ ثابت بن سنان. **تاريخ أخبار القرامطة**. تأليف ثابت بن سنان وابن العديم تحقيق سهيل زكار. بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧١ م.
٥١ ـ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. **البيان والتبيين** تحقيق عبد السلام أحمد هارون الطبعة الثانية. القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٦٠ م.

٥٢ ـ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. **كتاب الحيوان.** تحقيق عبد السلام أحمد هارون. القاهرة، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٤٣ م.

٥٣ ـ الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس. **كتاب الوزراء والكتاب.** القاهرة، ١٩٣٨ م.

٥٤ ـ حركات، إبراهيم. **المغرب عبر التاريخ.** الدار البيضاء، مطبعة دار السلمي، ١٩٦٥ م.

٥٥ ـ الحصري القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي. **زهر الآداب وثمر الألباب.** تحقيق محمد علي البجاوي. القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٣ م.

٥٦ ـ الخشني، أبو عبد الله محمد بن حارث. **قضاة قرطبة.** القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦ م.

٥٧ ـ الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي. **تاريخ بغداد...** تحقيق محمد سعيد العرفي. بيروت، دار الكتاب العربي.

٥٨ ـ خليفة بن خياط. **تاريخ خليفة بن خياط.** تحقيق أكرم ضياء العمري. النجف، مطبعة الآداب، ١٩٦٧ م.

٥٩ ـ الدواداري، أبو بكر عبد الله بن أيبك. **كنز الدرر وجامع الغرر وهو الدر الفاخر في سيرة الملك الظاهر.** تحقيق هانس روبر رويمر. القاهرة، ١٩٦٠ م.

٦٠ ـ ديورانت، ول. **قصة الحضارة.** تعريب محمد بدران. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٠ م.

٦١ ـ الذهبي، محمد بن أحمد. **العبر في خبر من غبر.** تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد. الكويت، دائرة المطبوعات والنشر، ١٩٦٠ م.

٦٢ ـ الذهبي، محمد بن أحمد. **كتاب دول الإسلام...** حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف النظامية، ١٣٣٧ هـ.

٦٣ - دوزي، رينهارد. **تاريخ مسلمي إسبانيا**. الجزء الأول الحروب الأهلية. تعريب حسن حبشي. القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٣ م.

٦٤ - الرشيدي، سالم. **محمد الفاتح**. الطبعة الثانية. بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٩ م.

٦٥ - الرفاعي، أحمد فريد. **عصر المأمون**. الطبعة الثالثة، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٤٨ م.

٦٦ - السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. **تاريخ الخلفاء**. الطبعة الثانية، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٦٩ م.

٦٧ - السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة.

٦٨ - الشايب، أحمد. **الأسلوب...** الطبعة الخامسة فريدة منقحة. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

٦٩ - الشعراوي، أحمد إبراهيم. **الأمويون أمراء الأندلس الأول**. القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٩ م.

٧٠ - الشيال، جمال الدين. **مجموعة الوثائق الفاطمية...** القاهرة، دار المعارف، ١٦٦٥ م.

٧١ - الصابىء، أبو الحسين هلال بن المحسن. **رسوم دار الخلافة**. تحقيق ميخائيل عواد. بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٤ م.

٧٢ - الضبي، أحمد بن يحيى. **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس**. دار الكتاب العربي، ١٩٦٧ م.

٧٣ - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **تاريخ الأمم والملوك**. القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٩ م.

٧٤ ـ طرخان، إبراهيم علي **المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى.** القاهرة، مؤسسة سجل العرب، ١٩٦٦م.

٧٥ ـ عبد الله. **مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة المسماة بكتاب التبيان.** تحقيق ليفي بروفنسال. القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٥م.

٧٦ ـ علام، عبد الله علي. **الدعوة الموحدية في المغرب.** القاهرة، دار المعرفة، ١٩٦٤م.

٧٧ ـ علام، عبد الله علي. **الدولة الموحدية في المغرب في عهد عبد المؤمن ابن علي.** القاهرة، دار المعارف، ١٩٧١م.

٧٨ ـ العماد الأصفهاني، محمد بن محمد **الفتح القسي في الفتح القدسي.** تحقيق محمد محمود صبيح. القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر.

٧٩ ـ عنان، محمد عبد الله. **دولة الإسلام في الأندلس.** القسم الأول. طبعة رابعة فريدة منقحة. القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٦٩م.

٨٠ ـ عنان، محمد عبد الله. **دولة الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي.** وهو العصر الثاني من كتاب دولة الإسلام في الأندلس. طبعة ثانية فريدة منقحة. القاهرة، مكتبة الخانجي. ١٩٦٩م.

٨١ ـ عنان، محمد عبد الله. **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس.** القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤م.

٨٢ ـ عنان، محمد عبد الله. **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين.** طبعة ثانية فريدة منقحة. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٦م.

٨٣ ـ العيون والحدائق في أخبار الحقائق... تحقيق دي غويه. ليدن، بريل، ١٨٧١م.

٨٤ ـ فان فلوتن، ج. **السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات** في عهد بني أمية.

تعريب حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم. القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٣٤ هـ.
٨٥ - القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي. **كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩١٤ - ١٩١٩ م.
٨٦ - قنيتو الأربيلي بن سنبط. **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك**. تحقيق مكي السيد جاسم. الطبعة الثانية. بغداد، مكتبة المثنى.
٨٧ - المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد. **الكامل في الأدب**. تحقيق إبراهيم الدلجموني. القاهرة، المطبعة الأزهرية.
٨٨ - المراكشي، عبد الله محمد بن محمد. **الذيل والتكملة**. تحقيق محمد بن شريفة، بيروت، دار الثقافة.
٨٩ - المراكشي، عبد الواحد. **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**. تحقيق محمد سعيد العريان. القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٩٦٣ م.
٩٠ - المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين. **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. الطبعة الثالثة. القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٨ م.
٩١ - المقرى، أحمد بن علي التلمساني. **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب...** تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٤٩ م.
٩٢ - المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. **اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**. تحقيق جمال الدين الشيال ومحمد حلمي محمد أحمد. القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٩٦٧ م.
٩٣ - المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. **الخطط المقريزية**. الشياح، لبنان، مكتبة إحياء العلوم.
٩٤ - المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. **كتاب السلوك لمعرفة دول**

الملوك. تحقيق محمد مصطفى زيادة. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٤ م.

٩٥ - النويري، شهاب الدين أحمد. **نهاية الأرب في فنون الأدب.** الطبعة الثانية. القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٩ م.

٩٦ - الهاشمي، السيد أحمد. **جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب.** تحقيق لجنة من الجامعيين. طبعة جديدة منقحة. بيروت، مؤسسة العدة.

٩٧ - الهمذاني، رشيد الدين فضل الله. **جامع التواريخ...** تعريب محمد صادق نشأت ومحمد موسى الهنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد. القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٠ م.

٩٨ - ولهاوزن، يوليوس. **الدولة العربية وسقوطها.** تعريب يوسف العش. دمشق، مطبعة الجامعة السورية، ١٩٥٦ م.

٩٩ - اليافعي، أبو محمد عبد الله. **مرآة الجنان وعبرة اليقظان.** الطبعة الثانية. بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٧٠ م.

١٠٠ - اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح. **تاريخ اليعقوبي.** بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٠ م.

١٠١ - يوسف، جوزيف نسيم. **العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى.** الطبعة الثانية. القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٧ م.

١٠٢ - اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد. **ذيل مرآة الزمان.** حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٤ م.

كشاف هجائي عام

- ب -

- ك -

- ل -

- م -

- ن -

- هـ -

- و -

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة